مذكرات

(١٩٩١)

بقلم بهاء الدين نوري

محرر من سيطرة الرأسمالية
لتثقيف الجماهير

من قبل
حكايات اشتراكية

الإهداء

إلى كل إنسان يناضل كجندي مجهول من أجل مثله ومبادئه واضعاً قضية شعبه ووطنه فوق قضيته الخاصة.

إلى كل من يناضل في سبيل تحرير الإنسانية فوق هذا الكوكب من كابوس الظلم والاضطهاد والاستغلال.

إلى بناة عالم جديد تسوده المساواة الحقيقية والعدالة التامة.

يسألني البعض عما إذا كنت نادماً على قضاء زهرة شبابي وسنوات عمري في العمل ضمن الحركة الشيوعية، التي تبدو اليوم للكثيرين وكأنها مصابة بنكسة لا نهوض منها.

فأجيب بأني لم أفعل ما أندم عليه ولم أمارس النشاط السياسي لكي أكسب الجاه والثراء.. إنما فعلت ما أعتز به، ناضلت في سبيل مثل وأهداف سامية.. خدمت الشعب والوطن.. بذلت قصارى جهدي من أجل ما حلمت به الأجيال المتعاقبة من أهل الكدح، وما سوف تظل تحلم به إلى أن تناله بناء حياة سعيدة تسودها العدالة الحقيقية ويختفي عندها الظلم والاستغلال والاضطهاد بشتى ألوانه ـ بناء الاشتراكية.

ويسألني البعض عما إذا كنت سأعود إلى ممارسة نشاطي السياسي في إطار الحركة الشيوعية.

فأجيب بأنني ساهمت بقسطي في النضال وأديت واجبي بشرف، دون أن أخاف الصعوبات والتضحيات. وأنا مدين للحركة الشيوعية التي ربتني بروح الحقد على الظلم والاستغلال وبروح الذود عن حقوق المظلومين والحب لكل الطيبيين فوق كوكبنا. أنا كنت أممياً وسأظل أممياً، أحب شعبي ووطني وأحب سائر الشعوب والأوطان وأرفض كل شكل من التمييز بين بنى البشر بسبب اختلاف الدين أو القومية أو اللون.. الخ.

غير أنني أحس بالاقتراب من ذلك اليوم الذي يحملني فيه تقدم السن على الكف عن ممارسة النشاط الحزبي ـ السياسي.. وأعتقد أن الوقت قد حان، في ظل الأوضاع المستجدة، لكي يستلم جيل الشباب الواعي راية النضال المقدسة ولكي يمزج تجربتنا مع حيويته وتجربته الخاصة ويواصل العمل الذي بدأته أجيال سابقة.

أما أنا فأشعر بأن علي أن أكرس ما تبقى لدي من طاقات نضالية ضمن توجه ديمقراطي عام وذوداً عن حقوق الإنسان وحريته في مجتمع ديمقراطي حضاري ينتهي فيه الصراع الجنوني وكل ما يقترن به من سفك للدماء البريئة وإشاعة للخوف والقلق ونشر للدمار.. أحلم بأن أرى هذا المجتمع وقد اختفت فيه لغة البندقية ولغة الإرهاب والسجون والملاحقات وأستعيض عنها بصراع سلمي ـ حضاري يصبح فيه الحكم صندوق الاقتراع وترفرف عليه راية الحرية والديمقراطية وتسوده القيم الخلقية النبيلة وتعلو فيه كلمة القانون فوق كل الكلمات.

كردستان العراق ـ السليمانية **المؤلف**

كلمة إلى القارىء

كتبت هذه المذكرات ليس فقط لقناعتي بكتابتها، بل كذلك تلبية لطلب العديد من أصدقائي ونصحهم لي. وأنجزتها في غضون عشرة أشهر من عام ١٩٩١، معتمداً بالدرجة الأساسية على الذاكرة إذ لم تسمح لي ظروف حياتي السابقة الصعبة بتدوين يومياتي والاحتفاظ بها. ولم تتح لي، وأنا أكتب هذه المذكرات، فرصة الرجوع إلى الوثائق الحزبية من تقارير ومحاضر اجتماعات ومقالات.. الخ، كان من شأنها أن تساعدني على تذكر العديد من الأحداث وتدقيقها والكتابة عنها بشكل أكثر تفصيلاً. وسأكون شاكراً لمن يرسل إليّ أياً من تلك الوثائق، لعلها سوف تفيد عند إصدار طبعة لاحقة. وقد غطت صفحات هذا الكتاب مذكراتي حتى ١٩٨٤، وهي سنة انفصالي عن ح.ش.ع.. وآمل أن تتاح لي الفرصة مستقبلاً لأكتب عن السنين الأخيرة أيضاً.

سيجد القارىء أن هذا الكتاب يتناول، بالدرجة الأساسية، شؤون الحزب والسياسة وذوي العلاقة من الناس. غير أنني لم أقتصر على تناول هذه الأحداث وحدها، بل تطرقت كذلك إلى سائر الأحداث الملفتة للانتباه، لأنني لم أعش في قفص حزبي ـ سياسي، إنما عشت بين الناس في هذا المجتمع وكانت لي اهتماماتي وهواياتي مع النكتة والأدب والموسيقى والتسلية البريئة ومع السباحة والغابة وتسلق الجبال

ومع التجارة والزراعة.. الخ، فرحت وحزنت وضحكت وبكيت، كما هي سنة الحياة بالنسبة لكل إنسان طبيعي.

بقدر ما يتعلق بسرد الأحداث أستطيع التأكيد على أنني كنت أميناً ولم أتعمد التغيير والتشويه، رغم أنني لا أنفي احتمالات النسيان إذ أنني اعتمدت على الذاكرة، وهي قد تخون المرء. أما فيما يتعلق بالتعليق على الأحداث، حيث أيدت وأدنت وانتقدت واستحسنت مواقف وتصرفات، أفراداً ومنظمات.. الخ، فإن ذلك ما أتحمل مسؤوليته كرأي شخصي أبديته دون أن أضمر الحقد على أحد ممن زاملتهم في العمل واختلفت معهم حول العديد من الأمور. ومثلما أمنح نفسي فإنني أمنح غيري أيضاً، ممن لا تروق لهم آرائي، الحق في الرد وإبداء الرأي.

أكتب هذه المذكرات، وعمري الحزبي ـ السياسي يقترب من نصف قرن، كرسته كله للنضال في سبيل المثل والأهداف السامية، التي آمنت بها وأخلصت لها وناضلت من أجلها.. نعم، من أجلها تحملت السجن وعذاباته لسنوات وتحملت حياة الاختفاء الصعبة والملاحقات المستمرة لسنوات وصعوبات الاغتراب بعيداً عن الأحبة والبلد لسنوات، كما تحملت العيش في الجبال، تحت القصف والتهديد، لسنوات. ورغم أنه لم يكتب لي أن أشهد انتصار القضية، التي كرست لها زهرة شبابي وكل سني حياتي، فإنني لست نادماً على ما فعلت، بل أجد فيه ما يبعث على الاعتزاز وما سيعطي ثماره عاجلاً أم آجلاً. فأنا عشت لقضية الشعب، للناس، وليس لنفسي. وضعت كامل طاقاتي في خدمة أولئك الذين ظلمهم نظام اجتماعي جائر قائم على الظلم والاستغلال والاضطهاد. وسأظل، ما حييت، متمسكاً بتلك المثل والمبادىء السامية، مبادىء الكفاح بثبات من أجل تحرير العمال وجميع شغيلة العمل اليدوي والفكري من الظلم والاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والسياسي.

بديهي أنني ارتكبت، خلال سني حياتي النضالية، أخطاء وهفوات متنوعة فكرية وسياسية وتنظيمية. غير أنني لم أسىء إلى المثل والمبادىء التي آمنت بها وناضلت من أجلها، ولم أناقض بين أقوالي وبين أعمالي ولم أحاول قط استغلال نفوذي الشخصي أو مركزي الحزبي ـ السياسي وراء امتيازات شخصية أو أغراض خاصة ولم أبحث عن الزعامة والبروز الشخصي، بل دأبت على العمل كجندي مجهول وحرصت على النزاهة والاستقامة السياسية ووضعت القضية العامة فوق المصالح الخاصة. ويشرفني أنني اليوم، بعد قرابة نصف قرن من النشاط الحزبي ـ السياسي، لا أملك في هذه الدنيا شيئاً سوى ملابسي الشخصية وكرامتي الشخصية وشرفي السياسي المصان.

تسلمت زمام القيادة في ح.ش.ع. يوم كنت شاباً ثورياً متحمساً ضعيف المستوى وقليل التجارب، ويوم كان الحزب نفسه في نكسة عميقة (٤٨ ـ ١٩٤٩). وأفلحت في قيادة نشاط الشيوعيين لاجتياز الصعاب وإعادة بناء الحزب وعودته قوياً إلى المسرح السياسي خلال السنوات التي بقيت فيها سكرتيراً له. ولم آبه بأن أزحت عن مركزي القيادي، وأنا في السجن، وإن تعرضت في سني حياتي الحزبية للعقوبات الحزبية الجائرة والإجراءات القاسية على أيدي رفاقي سلام عادل وعزيز الحاج وعزيز محمد. وكان لي شرف الإسهام الفعّال في قيادة نشاط الحزب خصوصاً أيام المحن والصعوبات، التي مرت بها الحركة الشيوعية والديمقراطية في العراق.

في خضم النضالات طالعت الكتب واستمعت إلى المحاضرات وناقشت القضايا النظرية والسياسية وكتبت في السياسة والأدب وطورت ثقافتي العامة، فتعلمت ونميت مستواي الفكري. بيد أن الحياة نفسها كانت على الدوام المدرسة الأساسية التي تعلمت منها. وأعتبر خريف ١٩٦٤، حيث عدت من الخارج إلى الوطن، نقطة فاصلة بين مرحلتين في حياتي الفكرية ـ السياسية. فمنذ هذا الوقت بالذات بلغت سن الرشد

فكرياً وسياسياً ولم أتورط في تأييد السياسات والمواقف الخاطئة التي أعقبها الندم.

❀ ❀ ❀

لا مناص لي، وأنا أكتب مذكراتي كرجل ارتبط مصيره بمصير الحركة الشيوعية في هذا البلد وخارجه، أن أتطرق ببعض الكلمات إلى الأحداث العاصفة، التي انتهت بانهيار أنظمة الحكم التي كان على رأسها الشيوعيون في البلدان الأوروبية وفي الاتحاد السوفيتي نفسه وبدخول الحركة الشيوعية العالمية كلها في نكسة حقيقية عميقة.

نكسة الحركة الشيوعية اليوم حقيقة لا تقبل النقاش. فالعالم اليوم هو غيره بالأمس. وتوازن القوى على المسرح الدولي اليوم يختلف جوهرياً عما كان بالأمس. وبديهي أن يكون حدث بهذه الضخامة موضع نقاش واسع على الصعيد العالمي وأن تتباين وجهات النظر حول أسبابه ونتائجه وسبل معالجته. ويتراءى لي أن وضع الحركة الشيوعية اليوم شبيه من نواح معينة بوضعها في العقدين الأول والثاني من هذا القرن. على أن الدعاية البرجوازية تحاول تصوير ما حدث وكأنه دليل على عقم النظرية الشيوعية والثورة الاشتراكية ودليل على أن الرأسمالية وجدت لتبقى إلى الأبد لأنها خير ما توصلت إليه البشرية.

هذا مجرد هراء، فكما أن انكسار ساق رجل ما بسبب انزلاقه من فوق الدرج لا يمكن أن يقوم دليلاً على أن الرجل الفلاني المقيم في البيت المجاور هو أفضل إنسان في البلد، لا يمكن أن تعتبر نكسة الحركة الشيوعية دليلاً على أن النظام الرأسمالي هو الأفضل من النظام الاشتراكي. هذه النكسة لم ولن تلغي عيوب وتناقضات النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي القائم على علاقات الإنتاج الرأسمالية والمبنية أساساً على الظلم والاستغلال الطبقي، حيث يباح لشخص واحد أن يملك المليارات فيما يفرض على الملايين أن يعيشوا جميعاً

في ظروف الفقر والبطالة والحرمان.

نكسة الحركة الشيوعية اليوم لا تمسح للرأسمالية الامبريالية (الأوروبية) جرائمها البشعة التي دامت قروناً ببسط سيطرتها على شعوب مختلف القارات وإشاعة الظلم الاستعماري فيها ونهب ثرواتها وإعاقة تقدمها ومنعها من ممارسة سيادتها الوطنية.

ونكسة الحركة الشيوعية لن تلغي حقيقة أن الرأسمالية هي التي زجت الشعوب، خلال النصف الأول من هذا القرن، في حربين عالميتين، إضافة إلى عشرات الحروب الموضعية التي جلبت ما لا يحصى من الويلات والدمار، بما في ذلك قتل وتشويه مئات الألوف من الأبرياء عن طريق استخدام أسلحة الإبادة الجماعية (الذرية والكيمياوية) الممنوعة دولياً.

ولن تلغي حقيقة أن الرأسمالية مصدر البطالة والفقر للملايين من الناس في شتى بقاع العالم، في وقت يتلف الأثرياء كميات هائلة من المواد الغذائية لكي لا تنخفض أسعارها ولا يتدنى مستوى الأرباح.

لا ينكر واقع أن عهد الرأسمالية اقترن بتقدم كبير في العلم والتكنيك وبتطور الحضارة البشرية وبإحراز تقدم كبير في إشاعة الحريات الديمقراطية وتثبيت حقوق الإنسان. إلا أن هذه المنجزات لم تأت هبة من النظام البرجوازي، بل استحصلت بنضال الشعوب وتضحياتها عبر قرون متعاقبة وكنتيجة لتطور الحضارة نفسها. وإذ اعترفت الأنظمة البرجوازية رغم أنفها بهذه المكاسب بالنسبة إلى شعوبها فإنها ما انفكت تسعى لتقليصها والتحايل عليها وعرقلة تطبيقها، فيما لم يندر أن تلجأ إلى النار والحديد للحيلولة دون ممارستها من قبل شعوب البلدان المستعمرة والمتخلفة.

إن الأسس المادية والروحية، التي يقوم عليها النظام البرجوازي، لا تسمح بإشاعة العدالة والمساواة الحقيقيتين في المجتمع ولا تستطيع

الاستجابة لطموحات أهل الكدح في العيش الحر المرفه الكريم. ولهذا تبقى التناقضات ويستمر الصراع الطبقي حتى تنهار الرأسمالية في نهاية المطاف. ويكون بديلها الطبيعي المحتم هو النظام الاشتراكي القائم على العدل والمساواة وإلغاء استثمار الإنسان للإنسان. فالاستنتاج الذي توصل إليه ماركس وانكلس عن حتمية سقوط الرأسمالية وانتصار الاشتراكية هو علم يستند إلى دراسة وقائع تأريخ المجتمع البشري ويقوم على تفهم عميق للقوانين الموضوعية في حركة التطور الاجتماعي. فالنظام الرأسمالي سينهار، كما انهارت الأنظمة الإقطاعية وقبلها الأنظمة العبودية. والاشتراكية هي المستقبل الآتي المحتم للبشرية، أياً كان طريق الوصول إليها، لأنها النظام الذي يستجيب لطموحات الجماهير المشروعة في الحياة.

❀ ❀ ❀

إن ظاهرة انهيار الأنظمة الاشتراكية وانتكاسة الحركة الشيوعية العالمية هي الحدث الأخطر في عالم النصف الثاني من هذا القرن. وقد بدأت المناقشات حول هذه المسألة وسيستمر طويلاً قبل أن يمكن تقديم أجوبة واقعية مدروسة لا تقف عند تفسير ما حدث وحسب، بل ترسم كذلك الآفاق لإعادة بناء الحركة الشيوعية وضمان إنعاشها اللاحق. أنا لم أطلع للآن على أي دراسة منطقية ومتكاملة لما حدث، لا من قادة الأحزاب الشيوعية المنتكسة ولا من غيرهم. والمقالات الصحفية التي يقدمها بعض الكتاب والأيديولوجيين البرجوازيين هي أشبه بتكرار المديح التقليدي للنظام البرجوازي واستكمالها بكيل المديح لأمثال كريچوف وويلستون، الذين قادوا العملية شطر الانهيار. ويلتقي مع هؤلاء، من حيث النتيجة، ممثلو اليسار المتطرف الذين يختزلون الأحداث في كلمة: لم تكن هناك ثورات اشتراكية ولا أنظمة اشتراكية.

كانت هنالك ثورات اشتراكية وأنظمة اشتراكية، رغم مشاكلها

وأمراضها. كانت ثورة اكتوبر ١٩١٧ ثورة اشتراكية حقيقية قام بها العمال والكادحون، بقيادة الحزب البلشفي، ضد الظلم والاستغلال الطبقي. فلم يسر لنين والبلاشفة ولا تلك الملايين من العمال والفلاحين والجنود في روسيا وراء الأوهام ولم يكونوا مجانين حين انخرطوا في جيش الثورة العظيم وقدموا التضحيات الجسيمة من أجلها. لم يكن الثوار في روسيا وفي الصين وفي بلغاريا ويوغسلافيا وفي براغ ١٩٤٨ وغيرها أغبياء غير مدركين لما يريدون حين حملوا الراية الحمراء واستبسلوا في الكفاح ضد سلطان الاستعمار ورأس المال ومن أجل الاشتراكية. ولم يكن ملايين الشيوعيين وغير الشيوعيين في وهم عندما أقروا، بعد انتصار ثورة اكتوبر، بأن نظاماً جديداً قد ولد وأن العالم انقسم إلى معسكرين وأن توازناً جديداً للقوى نشأ على المسرح الدولي، وأن الاشتراكية الفتية عبرت عن وجودها بأشكال مختلفة وقدمت خدمات جليلة لتشغيلة بلدانها والعالم وشكلت أكبر تهديد على الامبريالية وعلى الرأسمالية بوجه عام. تلكم هي حقائق تاريخية ستثبت، حتى وإن أنكرها البعض في يومنا الحاضر، خصوصاً من أولئك الذين كونوا في أذهانهم صورة خيالية للاشتراكية مستقاة من العبارات الجميلة في الكتب الطوبوية بعيداً عن واقع الحياة الاجتماعية المعقدة.

على أن الحقيقة التي لا يصح إنكارها أيضاً هي أن الاشتراكية الفتية نشأت، أول ما نشأت، في بلد متخلف. فبات من الطبيعي أن تحمل مع نفسها شتى العيوب والأمراض الملازمة عادة للتخلف. أي أنها ولدت وهي مصابة بأمراض التخلف. ولم تعالج تلك الأمراض في الوقت المناسب، بل تركت لتتسع وتتعقد إلى أن نخرت كيانها وآدت إلى انهيارها. والأنظمة الاشتراكية المتبقية في الصين وكوريا وكوبا والهند الصينية مصابة بنفس الأمراض. وسوف تنتهي إلى نفس المصير ما لم تعالج تلك الأمراض. في الماضي كتب وقيل مراراً أن العودة من الاشتراكية إلى الرأسمالية أمر مستحيل. لكن الحياة نفسها كشفت اليوم

عن شيء مغاير. فالعودة أمر ممكن، خصوصاً حين يكون النظام الاشتراكي غير مستكمل البناء.

لا شك أن انهيار أنظمة الحكم في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية لم يكن وليد الصدف ولا نتيجة نشاط تآمري من لدن بعض الحكام في هذه الدول أو في الدول الغربية إنما كان نتيجة أمراض مستعصية أصيبت بها هذه الأنظمة، بالأحرى أصيبت بها الأحزاب الشيوعية الحاكمة، التي فقدت صلاتها بالشعب وتحولت إلى أجهزة بيروقراطية متسلطة ومعتمدة على أساليب القمع والبوليس السري. وقد مرت هذه الأنظمة، في مجرى تطورها، بمرحلتين مختلفتين، قدمت خلال الأولى منها مكاسب فعلية للشغيلة ولم تقدم خلال المرحلة الثانية سوى الشعارات البراقة والبرامج الورقية الفارغة المقرونة بالمراوحة أو التدني في المستوى المعاشي للسكان.

ويتلخص أهم ما في تلك الأمراض ـ حسب رأيي ـ فيما يرد:

١ ـ كان المرض الأخطر انعدام الديمقراطية وخنق أبسط أشكال المعارضة والنقد وتسليط البوليس السري على رقاب الجماهير. كان يفترض أن تتطور الديمقراطية في ظل الاشتراكية تطوراً تدريجياً مطرداً، إلى مستوى أعلى مما في المجتمعات البرجوازية. كان يفترض أن تتطور السلطة تدريجياً من سلطة الطبقة العاملة إلى سلطة الحزب ومن سلطة الحزب إلى سلطة النخبة (التوتاليتارية) ومن سلطة النخبة إلى سلطة القائد الفرد. وبدلاً من أن يتطور نظام الحزب الواحد إلى نظام التعددية الحزبية، على الأقل في إطار التنافس بين مؤيدي النظام الاجتماعي الجديد، قلص أو ألغي عملياً حتى دور هذا الحزب الوحيد الموجود كحزب حاكم وأصبح السجن مأوى لكل شيوعي تجرأ على المجاهرة بخلافاته الفكرية مع القيادة البيروقراطية للحزب والدولة.

٢ ـ اتسعت ظاهرة النصية والجمود العقائدي لدرجة تحولت معها العقيدة الشيوعية إلى ما يشبه عقيدة دينية ـ سماوية. فوضع بعض القادة

في عداد الأنبياء والأئمة ومؤلفاتهم في عداد الكتب السماوية المقدسة لتقتبس منها عبارات للإجابة على أعقد الأسئلة التي وضعتها الظروف المستجدة أمام الأحزاب الشيوعية ـ الحاكمة وغير الحاكمة ـ أو لتقديم حلول باهرة لأعقد المشاكل، الفكرية والسياسية والاقتصادية والتنظيمية، التي أوجدتها الحياة اليوم، في ظروف مغايرة كلياً لتلك التي كتبت فيها تلك العبارات.

وكان أحد أسوأ وأخطر الجوانب السلبية لظاهرة الجمود العقائدي وأشدها ضرراً على قضية الاشتراكية أن نقلت التجربة السوفيتية نقلاً حرفياً إلى أقطار أوروبا الشرقية، دون حسبان الخصائص التاريخية ـ القومية ـ الاجتماعية لهذه الأخيرة.

كانت ظاهرة الجمود منسجمة مع أمزجة القادة البيروقراطيين ومصالحهم الشخصية لأنها كانت تقدم لهم ذرائع ليكونوا نواب الأئمة، ويتصرفوا كما يحلو لهم.

ربما كان شكل الملكية المنتقى في هذه الأنظمة مناسباً لفترة معينة، حيث ارتفع مستوى معيشة الشغيلة وتوفر قدر مناسب من الخدمات والضمانات الاجتماعية لهم. غير أنه لم يلبث أن انقلبت الآية بسبب الجمود على نفس النمط من الملكية ومن إدارة الاقتصاد الوطني، الأمر الذي أدى إلى فقدان الحوافز المادية وغياب عامل المنافسة الضروري لتطوير الإنتاج كماً وكيفاً ولمواكبة أحدث تقدم علمي ـ تكتيكي. إن ما حدث كان مراوحة الإنتاج الصناعي ـ الزراعي في مكانه، بل هبوطه إلى مستويات أدنى، مما جعل العمال في البلدان الاشتراكية يحسدون زملاءهم على ما لهم من مستوى معيشي أفضل في البلدان الرأسمالية، بدلاً من أن يسود العكس.

ومما زاد الطين بلة أن عبء التخلف الاقتصادي والتدنّي في مستوى المعيشة لم يشمل كوادر الحزب الشيوعي الحاكم والدولة البيروقراطية، الذين ظلوا يعيشون في رفاه وبحبوحة بسبب امتيازاتهم غير

المشروعة الناجمة عن استغلالهم لمراكزهم الحزبية والحكومية، الأمر الذي جعل هؤلاء في عزلة عن الجماهير، بل موضع سخطها وازدرائها، وجعل النظام الاشتراكي نفسه معزولاً ومكروهاً شعبياً. فالشغيلة أرادت الاشتراكية لتؤمن لها عيشة أرقىٰ وأفضل مما في ظل الرأسمالية ولتوفر لها ديمقراطية أوسع وليس العكس.

٤ ـ وضعت الأحداث التأريخية الحزب الشيوعي البلشفي في مكانة خاصة متميزة، بل في مركز الطليعة، داخل الحركة الشيوعية والعمالية العالمية، لأنه كان صاحب المبادرة التاريخية في التجديد الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي وفي قيادة أول ثورة اشتراكية ظافرة. وبفضل نجاحاته الكبرى في قيادة ثورة اكتوبر وفي بناء النظام السوفيتي ـ الاجتماعي الجديد وفي إلحاق الهزيمة بالغزو الفاشي الهتلري وفي دعم حركات التحرر الوطني ضد الامبريالية.. الخ، لعب هذا الحزب، في حقبة تاريخية معينة، دوراً إيجابياً كبيراً في إنعاش وتقوية الحركة الشيوعية العالمية وتعزيز التضامن الأممي فيما بينها ومن ثم في إيصال الشيوعيين إلى الحكم في عدة بلدان.

غير أن نزعة التسلط، التي وجدت أصلاً في النهج الستاليني ونمت أكثر فأكثر في سني ما بعد ستالين، قد أفرغت تدريجياً العلاقة القائمة بين القيادة الشيوعية السوفيتية وبين الأحزاب الشيوعية الأخرى من محتواها الإيجابي وحولتها إلى عامل سلبي وسبب لإلحاق الضرر بالحركة الشيوعية بعد أن جعلتها تقوم على أساس من تبعية هذه الأحزاب لقيادة الحزب السوفيتي، الأمر الذي كان يعطي الأخيرة حق التصرف كقائد للجميع، والتدخل في شؤون الآخرين، الذين كان عليهم التنازل عن استقلاليتهم والرضوخ لمشيئة قيادة غير قادرة على فهم أوضاع بلادهم. وكان على الأحزاب الشيوعية، إن هي رفضت إقامة العلاقة على هذا الأساس الخاطىء، (الذي أطلق عليه اسم العلاقات الأممية) أن تصطدم بالقيادة السوفيتية وتتهم بالانحراف عن

(الماركسية ـ اللنينية) وعن الأممية البروليتارية.

ولا يمكن أن يؤخذ بمعزل عن هذه الظاهرة ما حدث من انقسام وتفكك داخل أسرة الدول الاشتراكية (وهي غير مكتملة البناء) بانقسام الحزب الشيوعي الحاكم والدولة في يوغسلافيا منذ ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ثم الانقسام الكبير والخطير بين الحزبين الحاكمين والدولتين السوفيتية والصينية منذ ١٩٦٠. ومهما تكن مسؤولية القيادات الشيوعية في بلغراد وبكين وفي تيرانا وبخارست وغيرها فإن المسؤولية الرئيسية تقع على القيادة السوفيتية التي لم تتعامل مع الآخرين من منطق الاحترام المتبادل للاستقلالية والاعتراف بالمساواة بين جميع الأحزاب. ومن المؤكد أن هذه الانقسامات ألحقت أضراراً جسيمة بمجمل الحركة الشيوعية والعمالية العالمية وبالأنظمة الاشتراكية وساهمت بقسط غير قليل في خلق الأزمة المحتدمة التي أدت إلى انهيار أنظمة الحكم في الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا.

٥ ـ أوجدت السلطة السوفيتية منذ وقت مبكر (حين كان النظام الاشتراكي يمر بأولى مراحله الانتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية) حلاً مقبولاً وصحيحاً للمشكلة القومية في بلاد السوفييت الواسعة متعددة القوميات. وكان تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في ١٩٢٢ خطوة بارزة في التكييف القانوني لهذا الحل منسجمة مع تطلعات ومصالح الشعوب السوفيتية، التي لم تشعر فقط بالتحرر من الاضطهاد القومي، بل وجدت أمامها الفرص أيضاً لبناء أوطانها الجديدة ولإحراز تقدم كبير في الصناعة والزراعة والخدمات.. الخ. ولم يكن من قبيل الصدف أن عاشت تلك الشعوب في إطار دولة واحدة قرابة سبعين عاماً ضمن علاقات أخوية هادئة وإن خاضت الحرب العالمية الثانية بصفوف موحدة دفاعاً عن وطنها المشترك. ولم يكدر تعايشها الأخوي إبان كل هذه السنين شيء من الاضطرابات والتمردات القومية، في وقت كانت البلدان المبتلاة بسيطرة الدول الامبريالية تغلي وتشهد المظاهرات

والإضرابات والانتفاضات السلمية والمسلحة ضد المستعمر الأجنبي ومن أجل التحرر الوطني والقومي.

غير أن الأخطاء والانحرافات، التي شملت شتى النواحي في نهج الحزب الحاكم والدولة السوفيتية، كان لا بد من أن تشمل ميدان العلاقات القومية أيضاً. فالحلول التي كانت ملائمة ومقبولة للمسألة القومية في العشرينات بقيت دون تطوير طوال عشرات السنين اللاحقة، بقيت في حاجة إلى إعادة النظر فيها لتطويرها إلى مستوى متطلبات الأوضاع المستجدة، خصوصاً في السبعينات والثمانينات. لكن القيادة السوفيتية لم تفكر في شيء من هذا القبيل. يضاف إلى ذلك أن سنوات البيروسترويكا، التي قادها غرباشوف، كانت سنوات تدهور حاد في مستوى المعيشة لشعوب الاتحاد السوفيتي وتوسع هائل في الفساد والنهب المكشوف والجريمة الأمر الذي حمل مواطني مختلف الأقطار السوفيتية على التساؤل عما إذا كان هناك جدوى في البقاء ضمن دولة فاسدة من هذا القبيل أم الأفضل أن ينفصلوا عنها ويكونوا لأنفسهم دولهم الوطنية المستقلة.

٦ ـ إن الانهيار لم يكن عفوياً، بل جاء كنتيجة منطقية لسلسلة طويلة من الأخطاء والانحرافات بدأت منذ عهد ستالين وتنامت في فترات لاحقة، خاصة في عهد بريجنيف. إن هذه الأخطاء والانحرافات، مقرونة بغياب الديمقراطية، وفرت المقومات لنشوء فئة اجتماعية جديدة طفيلية داخل الحزب الحاكم وجهاز الدولة، يمكن تسميتها بـ «النسخة الاشتراكية» من البرجوازية البيروقراطية الطفيلية الناشئة في بعض البلدان النامية. لم تملك ولم توظف هذه الفئة رساميلها الشخصية للحصول على الأرباح، بل استغلت مراكزها الحزبية والحكومية للحصول على المال والامتيازات غير المشروعة عن طريق السرقة والارتشاء ونهب ممتلكات القطاع العام. ونشأ بين أفراد هذه الفئة مليونيرية حقيقيون، ساعون بجد وحماس لإعادة النظام الرأسمالي إلى هذه البلدان بصورة شرعية.

وحجتهم أن الاشتراكية فشلت ـ والفشل من صنع أيديهم القذرة.

هنا لا بد من كلمة عن البيروستريكا والإصلاح.

كان خروشييف أول مسؤول سوفيتي انتبه منذ الخمسينات إلى الأخطاء والمساوىء وحاول إصلاح الوضع. غير أنه لم ينجح لأنه لم يحول شعار الإصلاح إلى حركة جماهيرية، بل حاول تنفيذ الإصلاحات داخل أروقة القيادة البيروقراطية. فأبعدته عن مركزه القيادي قوى الشر والفساد، بقيادة بريجنيف، لكي يستمر النهج الستاليني ولكن بصورة أسوأ من ذي قبل.

وانتبه غرباشوف أيضاً إلى الأخطاء والمساوىء المستفحلة. فأعلن البيروسترويكا ـ إعادة البناء. وحاولت قوى الشر والفساد في قيادة الحزب والدولة إبعاده بنفس الأسلوب الذي أبعد به خروشييف. ولكنها لم تفلح لأن حركة الإصلاح كانت قد تحولت في هذه المرة إلى حركة جماهيرية جارفة. واستمر صراع عنيف بين أنصار الإصلاح وبين خصومه. ونجح غرباشوف في تحقيق أحد أهداف الإصلاح ـ وهو إنهاء أسلوب الحكم البيروقراطي التوتاليتاري وتثبيت القيم والتقاليد الديمقراطية في المجتمع. غير أنه، ومهما كان حسن النية، لم ينجح في إصلاح النظام الاشتراكي الذي كان مثقلاً بالأمراض المزمنة والمشاكل المستعصية، بل خسر الرهان وأعلن الاستسلام. ويجدر بالذكر أن الفئة التي تصدت لمحاولات غرباشوف في إصلاح الاشتراكية وانتصرت عليه في تفكيك الاتحاد السوفيتي وإعلان نهاية الاشتراكية هي ذات الفئة البيروقراطية الطفيلية التي كانت معشعشة حتى الأمس القريب في قيادة الحزب الشيوعي الحاكم والدولة السوفيتية، هي نفسها التي كانت تحكم أمس باسم الشيوعية والاشتراكية وتحكم اليوم باسم جديد مغاير. إن بوريس يلسن ـ على سبيل المثال ـ الذي ذهب اليوم إلى تحريم النشاط الشيوعي في أنحاء جمهورية روسيا الاتحادية وتحمس في الأخذ بنصائح الغرب في إشاعة السوق الحرة كان حتى الأمس القريب عضواً في

المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي الحاكم وكان أحد مدللي الفئة البيروقراطية المرفهة ذات الامتيازات غير المشروعة.

يتراءى لي أن السبب الرئيسي لفشل غرباشوف يكمن في عجزه عن إيقاف التدهور المستمر السريع في الوضع الاقتصادي، سيما الوضع المعاشي للجماهير، الذي غدا في سنوات البيروسترويكا وفي ظل قيادة غرباشوف شخصياً أسوأ من عهد ما قبل البيروسترويكا بأضعاف مضاعفة. وكان كريچوف نفسه المسؤول الأول عن هذا التدهور. وهو لم يتصد قط بحزم للنشاط التخريبي الذي كانت تقوم به الفئة البيروقراطية الطفيلية في السرقة والنهب والإجرام من قبل المافيات الكثيرة التي تشكلت في عهد البيروسترويكا. وكان سبب هذا التهاون تجاه المافيات - حسب رأيي - أنه تربى ضمن الفئة البيروقراطية الطفيلية وتسلم الزعامة (عضوية المكتب السياسي للحزب ثم المنصب الأول في الحزب والدولة) كأحد أفراد تلك الفئة. وهو انقلب عليها وحاول الإصلاح، ولكنه لم يقطع الصلة مع ماضيه كاملاً ولم يتصف بالحزم الكافي في تطبيق القوانين على هؤلاء.

نعم انتكست الحركة الشيوعية العالمية وانهارت أنظمة حكم اشتراكية. وبذلك أحرز النظام البرجوازي العالمي نصراً كبيراً في صراعه ضد الحركة العمالية وضد الاشتراكية. غير أن ما حدث ليس آخر كلمة لتاريخ المجتمع البشري. فالانتكاسة موقتة والحركة الشيوعية ستستخلص دروس هذه التجربة القاسية لنفسها وستجد السبل والوسائل المناسبة لاجتياز المحنة ولإعادة بناء نفسها وتجديد حيويتها فكرياً وسياسياً وتنظيمياً.

وصلت الرأسمالية خلال أربعة قرون إلى ما هي عليه اليوم من التطور، وهي أصيبت خلال تلك القرون بمئات الأزمات والهزات

العنيفة. ولا تزال تعاني من ألف مشكلة فكرية وسياسية واقتصادية. ولا تزال عاجزة عن الإجابة المعقولة على عشرات الأسئلة التي تواجهها وعن حل عشرات المشاكل المعقدة المنتصبة أمامها... فأيّ غرابة في أن ينتكس كذلك النظام الاشتراكي، وهو نظام فتي لم يتجاوز السبعين من عمره؟

إن الاشتراكية خسرت هذه الجولة ولم تخسر اللعبة بكاملها. والرأسمالية هي الأخرى خسرت جولات من قبل ولا تملك الحصانة لضمان الصمود حتى النهاية. إن الرأسمالية عاجزة عن حل التناقضات الملازمة لكيانها الاقتصادي. ولا مناص لها من السقوط في نهاية المطاف وعن طريق صناديق الاقتراع ـ بالنسبة للبلدان التي ترسخت فيها القيم والتقاليد الديمقراطية ـ جراء تلك التناقضات.

إن مستقبل البشرية هو الاشتراكية، والاشتراكية وحدها.

ـ المؤلف ـ

كانون الأول ١٩٩١

العراق

١

لمحة عن ذكريات الطفولة

في صباي كنت أرى قريتي تكيه، التي ولدت ونشأت فيها، عالماً جميلاً مترامي الأطراف، حيث الوفر من الأصدقاء ومن الجبال والتلال والوديان ومن أحواض السباحة الطبيعية ومن الألعاب. ولا أذكر يوماً أحسست فيه بالملل في حياة القرية، في حين كنت أرى في مدينة السليمانية، حين يأخذني أبي إليها، عالماً ضيقاً مملاً فيها حياة رتيبة شبيهة، بالنسبة إلي، بسجن كبير. ومقابل عدد كبير من الأصدقاء في القرية فإن رفيق طفولتي الأساسي والوحيد تقريباً في المدينة كان ابن عمتي محمد، الذي خضت المعارك ضد صبية آخرين دفاعاً عنه أكثر مما خضتها دفاعاً عن نفسي.

كان لوالدي مكانة خاصة بين أهالي القرية إذ اعترف به الجميع الرجل الأول غير منازع لأنه كان من مثقفي زمانه وكان قروياً ومدنياً. أقامت أمي في القرية وأقامت زوجته الثانية الصغرى في منزل جدي - أبرز علماء الدين في مدينة السليمانية. كان والدي يقضي أوقاته متنقلاً بين المدينة والقرية. واعتبرت عائلتنا ميسورة الحال معيشياً، بالمقارنة مع سائر القرويين آنئذ، إذ كانت محاصيلنا الزراعية تسد حاجتنا. كان والدي يبيع من التبوغ ما يشتري به السكر والشاي والملابس وما شابه

مما لم يكن هناك مناص من شرائه. كان قد أكمل دراسة العلوم الدينية واعترف به كعالم. لكنه انصرف إلى الزراعة كملاك صغير. وكان ميالاً إلى أن يغدو إقطاعياً أو ملاكاً كبيراً. بيد أن طبيعته المسالمة اللا عدوانية، من جهة، وطبيعة الاستثمارات الزراعية الصغيرة المقرونة بشحة الماء والأرض الصالحة للزراعة في القرية، من جهة أخرى، كانت عائقاً أمام رغبته وبالتالي فإن رفاهنا النسبي كان مشروطاً ببقائنا في القرية واستثمارنا لأراضينا الزراعية.

وبخلاف ما كان سائداً في الريف من عادات وتقاليد كان والدي غير ميال إلى استخدام أساليب الضرب ضد أطفاله. إنه ضربني في طفولتي، بل طيلة عمري، مرتين فقط وبشكل بسيط. أحدهما بسبب تهربي من واجباتي الدراسية والأخرى بسبب صعودي ذات مساء متأخر شجرة توت عالية. ولم أر والدتي يوماً وهي تضربني أو تضرب أياً من أطفالها الستة الآخرين. فهي كانت أماً شرقية نموذجية من حيث حنانها وعنايتها بنا. وكم من مرة جلست لتأكل الخبز مع الماء بعد أن قدمت لنا جميع ما طبخته من رز أو لحم أو أي أكل اعتبر جيداً. وكانت تبرر ذلك بالقول:

ـ إن الصغار أحوج إلى الأكل الجيد لأنهم في دور النمو، في حين تكون النتيجة واحدة بالنسبة إلى أمثالي، رزاً أكلنا أم خبزاً.. فالمهم أن نملأ بطوننا.

كنت في العاشرة أو الحادية عشر من عمري يوم خاطبتني أمي قائلة: ـ «والدك في المدينة وعليك، أنت الابن الأكبر للعائلة، أن تجلس صباح الغد الباكر بين رجال القرية في الجامع لتتناول معهم أكلة العيد. ستجلس هناك كما يجلس الرجال وسنأتي لك بصينية الطعام إلى هناك». فرحت بذلك لأنه يضعني في عداد الرجال. وكانت تقاليد الأكراد أن يهيئوا أكلة العيد ليلاً ويتناولوها في الصباح الباكر. كان الرجال يظلون في الجامع بعد صلاة العيد ويرسل إلى كل منهم ما هيء

في بيته من طعام ليقاسموا على الموائد ما ملكوه في بيوتهم بمناسبة العيد. وكان خادم الجامع (سعه) يضع عند المدخل طشتاً نحاسياً كبيراً ليصب فيه القرويون حين مغادرتهم للجامع ما بقي في الأواني من الأكل رزاً كان أم برغلاً أم مرقاً أم غير ذلك. كان العيد ينتهي ظهيرة نفس اليوم، اللهم إلا لغير المتزوجين من شبان وشابات خرجوا من القرية، كل فريق على حدة حاملين الطعام والشاي ليلتقوا في مكان ما، بعيداً عن أنظار آبائهم ليقضوا ساعات سوية في أجواء الغناء والعزف على الناي، الذي كان آلتهم الموسيقية الوحيدة، وفي الدبكات والرقصات الجماعية...

إذا كان منشأي الريفي قد ترك آثاره الملموسة على مجمل حياتي اللاحقة، التي قضيتها في السليمانية وبغداد وخارج العراق، فإن لكتّاب كاكه حمه الفلاح نصف الملا الذكي، دوره في ذلك. كان هذا الفلاح الشاب رجلاً هادئاً ومربياً ومعلماً مناسباً في زمانه. ولم يلجأ إلى لغة العصي في تعامله مع تلاميذه بخلاف الأغلبية الساحقة من معلمي الكتاتيب في تلك الفترة. كان والدي أقدر على تعليمي لكن ظروف تنقله ومشاغله لم تسمح له بأن يكون معلماً لي إلا بصورة محدودة، وأتذكر أن القائمقام كان في زيارة إلى قرى قره داغ وكان ضيفاً على والدي في بيتنا يوم ترأست، بدعوة من الأخير، وفداً من أطفال القرية حاملين عريضة إلى الضيف نطالب بفتح مدرسة لنا. وقد تأثر القائمقام عاطفياً بطلبنا ووعد ببذل قصارى جهده لتحقيق مطلبنا. ولكن المدرسة فتحت لقرية سيوسينان المجاورة قبل أن تفتح لقريتنا بسنوات.

كان الشاعر الفلاحي الكادح الجائع قانع بين معلمي مدرسة سيوسينان منذ أوائل تأسيسها. وزار والدي في قريتنا أكثر من مرة. كانا يقرآن الأشعار لبعضهما وهما يشربان الشاي. ولم يطل بقاء شاعرنا معلماً إذ كسرت ساقه حين حاول فض نزاع بين قرويين مشتبكين فتلقى ضربة عصى غليظة من أحدهما وكسرت ساقه، نقل على أثرها إلى

مستشفى السليمانية. وقبل أن يتماثل للشفاء أبلغ بفصله من وظيفته.

لم تكن هناك رقصات فردية في القرية. لكن الحفلات الغنائية والرقصات الجماعية (الدبكة) كانت تتكرر بمناسبة عرس أو ختان أو ولادة طفل جديد. وأتذكر تفاصيل حفل الختان الذي جرى لي ولعدد من أطفال القرية. كانت دبكات مقرونة بالأغاني والعزف على الناي أعقبتها وليمة طعام حضرها جميع رجال القرية. وجلسوا في فسحة كبيرة تشكل السطوح لعدد من الدور. كان الجميع يأكلون اللحوم والرز والمرق بأيديهم ولم يكن هناك من يفكر في استخدام الملعقة والشوكة. وخلال الحفل وقع حادثان مثيران لضحك الجميع أحدهما أنني أعلنت بصوت عال ما كان والدي قد لقنني إياه تلقين الببغاء: «كلوا حتىٰ الشبع، أيها الضيوف، بفضل قضيبي». والثاني كان ضرطة الطفل حمه كرده، التي فلتت منه لحظة الختان. كان الختّان القروي، الذي جلب من قرية سيوسينان، قد أمسك بسكينه الحاد مستعداً لتنفيذ العملية، التي لا يمكن أن ينجو منها طفل مسلم. وخاطب الطفل:

ـ انظر يا حمه إلى هذا العصفور الجميل فوق رؤوسنا في سقف الغرفة! رفع الطفل نظره نحو العصفور المزعوم فيما نفذ الرجل بسرعة خاطفة العملية الجراحية، التي اقترنت بحركة لا إرادية مفزعة وبضرطة مدوية ظلت موضع التندر والضحك في القرية لسنين عديدة.

وشاركت مع صبية آخرين في حفل استمر سبع ليال بمنزل معلمنا كاكه حمه بمناسبة ميلاد ابنه الأول محمود. كان الحفل يبدأ بعد تناول العشاء مساءاً ويستمر حتى الفجر بصحبة الأغاني والألعاب وتناول الشاي والزبيب والتمر... الخ مع الإلحاح الشديد من أم كاكه حمه العجوز على الانتباه الدائم نحو الطفل لكي لا تظفر به الجنية العفريتة «شَوَه» المتربصة دوماً بالمولود الجديد والباحثة عن فرصة مؤاتية لإشباع رغباتها الخبيثة بخنق الطفل قبل أن يبلغ اليوم السابع من عمره.

كان الصبي مينه دوم أحد المغنين في حفلات معلمنا الساهرة. وكان مغنينا المفضل نحن أطفال القرية. وحفظنا عن ظهر قلب أغانيه كلمات وألحاناً. وهو لم يكن من أهالي القرية، بل قدم مع عائلته من مكان مجهول ليقيموا في القرية سنوات، حيث كانت بضاعتهم المحلية ـ الكبوة ـ رائجة. وكان في صحبة العائلة شاب دعوه (احه ششه) واتقن الغناء الريفي الراقص، وهو كان صديق العائلة وعشيق ابنتها بهية. وكان على استعداد دائم للغناء، بالأخص للفتيات اللائي كان يغازلهن بصورة مكشوفة تارة في كلمات غنائية وأخرى في حركات فنية مكشوفة من عينيه وحاجبيه. وكانت بهية مستعدة بدورها لتغني للشبان وتغازلهم وتسعى لحملهم على مغازلتها. ومثل هذا التصرف لم يكن مألوفاً في القرية اللهم إلا لأناس طارئين من الغجر.

على أن قبلة فتيان القرية وفتاة أحلامهم إنما كانت (فاته)، التي قدمت من قرية مجاورة مع عائلتها هرباً من محاولة أحدهم للتزوج منها عنوة. كانت فاته ذات جمال نادر، في حوالي العشرين من عمرها، بين البيضاء والحنطاوية طويلة القامة ورشيقة، متناسقة الجسم وجميلة الصدر والرقبة، ذات شعر حريري أسود وعينين واسعتين مكحلتين دون استعمال أي كحل. كانت هادئة باسمة الوجه طافحة بأنوثتها. مع ابتسامتها كانت تكشف عن شفتين ورديتين رقيقتين وعن صفين من أسنان جميلة متناسقة. وحين تبتسم كانت تبتسم معها عيناها الجميلتان الواسعتان وخداها الطريان وحتى خصلات شعرها السارح الممشط بعناية. وقد التف حول رقبتها الجميلة عقد قروي بسيط كان يبدو كالدر والياقوت. وكانت تمشي بغنج يثير إعجاب الشبان ومشتهاهم. وأظن أنها كانت وافرة الحظ للفوز بلقب ملكة الجمال فيما لو أتيحت لها فرصة دخول المسابقة. كانت جميلة وكأن جميع آلهة الجمال قد وحدوا جهودهم لكي يصنعوها على هذه الصورة.

وبدلاً من أن يكون هذا الجمال سبباً للعيش السعيد، كما يمكن أن

يحدث ذلك في بعض المجتمعات المتطورة، فإنه لم يكن في هذا المجتمع الكردي المتخلف إلا سبباً لشقائها وتعاستها وحتفها السريع إذ أجبرت في نهاية المطاف على الزواج، رغم إرادتها، من ذلك الشاب الذي كرهته وهربت منه إلى قرية تكيه وهو كان شاباً قصير القامة أفطس الأنف غليظ الشفتين منقاري الذقن، مصفر الوجه وقبيحاً بوجه عام. وقد توفت فاته بعد زواجها بسنتين.

الشيخ الحفيد في القرية

كنت صغيراً، في حوالي الرابعة من عمري، عندما وصل إلى القرية الزعيم القومي الثائر الشيخ محمود الحفيد. ولا أتذكر إلا البعض من الأحداث المقرونة بتلك الزيارة. توزع رجاله المسلحون على بيوت القرية التي كانت تزيد عن التسعين. وبقي نفسه مع بضعة أشخاص ضيوفاً على بيتنا، رغم غياب والدي الذي كان في السليمانية. أتذكر أن أحد أقاربي أخذني إلى الشيخ وأجلسني الأخير في حضنه وقبلني. وسألني عما إذا كان لدينا خيل. فأجبته:

ـ نعم لنا فرسان.

ـ وأين هما؟

ـ أخذهما والدي إلى السليمانية خوفاً من عصابات الشيخ محمود.

وقد رددت بهذه الإجابة ما كنت أسمعه في البيت مراراً. وكنت أجهل أن من يسألني هو هذا الشيخ محمود نفسه. ولا أدري ما إذا كان الشيخ قد تأثر في سره أم لا. لكني أتذكر أنه طبطب على ظهري بحنان وقال:

ـ صدقت! إنك قلت الحقيقة ولم تتعلم الكذب بعد. ولهذا تستحق مني المكافأة.

وقد كافأني إذ مد يده إلى كيس من الخام الأسمر موجود بجانبه فأخذ منه مبلغاً ـ سمعت فيما بعد أنه كان خمسة روبيات معدنية ـ

ووضعه في يدي. وتركت الضيف فوراً بعد استلام النقود. وكنت محبوباً من أطفال القرية وكبارها سوية.

لا يزال ماثلاً في ذهني منظر رجل ملطخ بالدماء وأمسك به مسلحان، وهما يسحلانه عبر زقاق شطر جامع القرية. وقد أشيع فوراً أن القتيل كان «خفيه ـ أي جاسوساً» للسلطة الحاكمة متسللاً إلى القرية ووشىٰ به بعض القرويين. يبدو أن أحداً لم يفكر باعتقاله للتحقيق والمحاكمة، بل قتل أول ما عثر عليه وأصبحت مسألة دفنه مشكلة أمام القرويين الذين انقسموا إلى فريقين أحدهما يفتي بعدم جواز دفنه في مقبرة القرية لأنه تجسسه على الشيخ الملك ـ وكان الفلاحون يسمونه ملكاً ـ يجعله كافراً فلا يجوز دفنه في مقبرة القرية. ووجد فلاح مسن عاقل حلاً مقبولاً للمشكلة إذ اقترح دفنه بجانب المقبرة، فيكون فيها ويكون خارجها في آن واحد.

في اليوم التالي لمغادرة الشيخ للقرية حلقت عليها طائرة وألقت منشورات. أخذوا نسخة منها إلى ملا القرية الشيخ عبد الله لينبئهم ما تحوي. أخبرهم الملا بأن القرية ستقصف بعد ساعة واحدة. هرب الجميع وارتفع الضجيج والصراخ. كنت بين النساء والأطفال الذين احتموا بصخرة كبيرة قرب القرية وأتذكر منظر الطائرة المغيرة، وهي كادت تلمس أغصان أشجار العرموط أمام الصخرة. كان الطيار يتفرج على النساء وتأكد أن ليس هناك مسلحون فلم يقصف. واشتد العجب والاستغراب بعد أن ذهبت الطائرات وعاد القرويون إلى بيوتهم وعرفوا من معلمنا كاكه حمه أن ليس في المنشور الملقى سوى التهديد بقصف القرى التي تدعم الملك محمود. وظهر أن الملا لم يعرف قراءة المنشور على حقيقته.

بعد هذا الحادث بأعوام التقيت بالشيخ الحفيد من جديد وفي مكان قريب من القرية ـ في قومي قرمداغ. فقد كنت ضمن الصبية المتفرجين على لعبة الداما فوق أحد الأسطح حين ظهر قبالة القرية رجل

مسلح نصف عار، في منظر غير مألوف. وحين استقبل وسئل عن سبب هذا الوضع العجيب أجاب:

ـ أرسلني الشيخ الملك إلى القرية في طلب الطعام له ولرجاله الموجودين في قوبي.

ـ ولماذا جئت عارياً؟

ـ لأني اضطررت إلى عبور بعض الأحواض داخل المضيق (دربند) سباحة.

فتركت ثيابي هناك لكي ألبسها عند العودة، وأبقيت معي اللباس والبندقية فقط.

كان الشيخ قد ثار على النظام من جديد، أثناء الحرب الثانية. وسارعت القرية إلى جمع المؤن مع ذبيحتين. وتحرك فريق كبير من القرويين ـ كنت بينهم ـ إلى قويي. وكانت ضمن الفريق أربع نساء من أفضل من يطبخن واقتربنا من الشيخ، وهو جالس بين رجاله على نبع موتار البديع. وصاح منكتاً:

ـ يبدو أنكم جلبتم لنا نساءاً جميلاً أيضاً.

ربما فرحت القرويات بهذه المجاملة، رغم أنهن كن كهلات ولم يكن جميلات.

كان الشيخ في لباسه الكردي التقليدي ـ جرغده وحزامه الكبير وخنجره الدبان. ووضع بجانبه بندقيته ـ برنو من النوع القديم ـ وصف رصاصه. وأثار دهشة الفلاحين وإعجابهم عندما قتل بطلقة برنو قبجا كان قد ظهر على مسافة بعيدة نسبياً، مبرهناً على أنه هداف ماهر.

وإذ استعيد إلى ذاكرتي أحداث تلك الأيام فإني لا أجد ما يمكن اعتباره عنصر التنظيم، بمعنى الكلمة الحديث، في حركته القومية التحررية المسلحة لا من حيث الأمور السياسية ولا المالية ولا العسكرية.

كان آخر لقاء لي مع الشيخ في منزله الريفي بقرية (داريكلي) أواسط الأربعينات. لم أكن في هذه الزيارة أكثر من مرافق لوالدي، الذي ذهب بتكليف من أحد فلاحي تكيه وبأمل استحصال رسالة من الشيخ الحفيد إلى موظف مسؤول في جهاز الدولة. ورحب بنا وتناولنا معه الغداء وبقينا ٣ ـ ٤ ساعات لنعود بعدها دون استحصال الرسالة المرجوة. وكان الشيخ في داريكلي يعيش حياة ريفية اعتيادية بسيطة وبدت على محياه آثار التعب والشيخوخة واليأس السياسي.

في أواخر الثلاثينات رأيت أول إنكليزي في حياتي. أتى إلى قريتنا نازلاً من قوبي بصحبة بضعة رجال من الشرطة وأدلاء قرويين. أثار انتباهي، وهو ضيفنا، لباسه وشعر رأسه الأصفر وانعدام الشوارب عنده. لو أريد توجيه إهانة كبيرة إلى أحد القرويين في ذلك الحين لحلقت شواربه أو هدد بحلقها. فكيف سمح هذا الرجل لنفسه بحلق شاربيه؟ والأمر المثير الآخر هو أنه نصب حوضاً صغيراً من قماش ما وصب فيه قدراً من الماء الساخن داخل الغرفة التي يجلس فيها واستحم فيه.

وقد سمعت في وقت لاحق بأن هذا الشخص كان المستشار الإنكليزي في السليمانية.

كانت قريتنا في سفح جبل وأمام مضيق شكل أقرب ممر إلى قوبي قره داغ. وكان أجمل المضايق هناك بمناظره الخلابة وكثرة شلالاته البديعة وأحواضه العميقة الصافية. وتميزت القرية بمكانتها الدينية المرموقة إذ ينحدر أغلب سكانها وفق شجرة الأنساب الموجودة عندهم ـ من حمزة ابن موسى الكاظم الذي هرب من بغداد خوفاً من بطش الخليفة العباسي، بعد أن قتل والده بالسم سجيناً. واعتاد أهل القرية على أن يحلفوا بالإمام حمزة أكثر مما بغيره. كما اعتادوا على زيارة ضريحه وطلب بركاته كلما هددهم خطر ما أو شحت الأمطار لمزروعاتهم. وأتذكر جيداً أني شاركت في أكثر من مسيرة بدأت من القرية حتى الضريح طلباً من الإمام أن يتضرع إلى الله كي ينزل الأمطار.

وبديهي أن جامع القرية الأثري الكبير، الذي بلغت مساحة بنائه مئتي متر مربع وعرض حائطه أكثر من مترين، لم يكن بمعزل عن المكانة الدينية ـ التأريخية للقرية. وكان الشائع بين شيوخ القرية أن الجامع بني قبل ٧٥٠ سنة. ومهما يكن فإنه كان مبنى أثرياً جديراً بالصيانة كمعبد ـ متحف، إلى أن هدمه صدام عن بكرة أبيه في نيسان ١٩٨٨.

وتميزت القرية أيضاً بكثرة القادرين فيها على قراءة القرآن، الأمر الذي اعتبر لوناً من الثقافة وسبباً لاحترام أهاليها في القرى الأخرى. بيد أن القدرة على قراءة القرآن قد تحولت، بالنسبة إلى الفلاح سالان، إلى ورطة تحدثت عنها القرية عشرات السنين. وكان ذلك حين وصل سالان مع حماره المحمل بالعنب إلى قرية تبكروس ـ من سنكاو ـ لمقايضة العنب بالحبوب. وفرحت به ربة البيت المضيفة لعله يقرأ لها رسالة أتتها من زوجها عبد الرحيم الذاهب بعيداً وراء الرزق. بعد جهد جهيد قرأ سالان بعضاً من كلمات الرسالة. ضمنها كلمة «سيروان» (وهي التسمية الكردية للنهر الذي يسمى ديالى) وانفجر باكياً، زاعماً أن الزوج غرق في نهر سيروان. وبكت معه القرية كلها وتحرك حشد كبير من القرويين لعلهم يعثرون على جثة الغريق. وبطلب من سالان نفسه عرضت الرسالة على الملأ في قرية أخرى فاتضح أن الرجل لم يغرق إنما كتب أنه سيعبر نهر سيروان بعد يومين في طريق العودة إلى البيت. وقد تسنّى لي أن أسأل سالان عما إذا لفقت هذه الحكاية أو بولغ فيما حدث فأجاب ببساطته القروية أن الحادث وقع فعلاً بالشكل المروي.

لم يكره القرويون أحداً قدر كرههم لرجال الشرطة ـ التجسيد الحي للسلطة الحاكمة في تلك الحقبة. لم يأت هؤلاء يوماً بنبأ سار إلى القرية. كانت زياراتهم ترهق الفلاحين مادياً وروحياً إذ ينبغي تقديم أفضل طعام للشرطي والشعير لحصانه، مع توقع استدعاء البعض للجندية ـ وما أكره في نظرهم الجندية ـ أو جمع الكورة (ضريبة الأغنام) أو استدعاء بعضهم بسبب شكوى دائن.. الخ. واشتهر بين القرويين

الشرطي الأول ملا خضر المعروف بشراسته وصفاقته. كان هذا الشرطي عضواً في مافيا ترأسه مدير الناحية. فكان يوقف أي شاب يصادفه ليأخذه إلى مركز الناحية بحجة الجندية حتى يدفع الرشوة لقاء إطلاق سراحه.

الخبر السار الوحيد، الذي نقله البوليس إلى القرويين، كان: «من يقتل خنزيراً ويسلم أذنيه إلى السلطات يقبض لقاء ذلك مبلغ ١٥٠ فلساً».

في الماضي كان قتل الخنازير مجرد لهو وتسلية أو دفاع عن المزروعات. ولكنه اليوم أصبح مورد رزق. يا له من أمر عجيب وسار أكثر الباحثون عن الخنازير بهدف قتلها. ولم يلبث أن أصبح موظفو الدولة شركاء في هذا الرزق إذ اتفقوا مع الفلاحين على تقديم آذان اصطناعية مهيأة كلها من جلد خنزير واحد شريطة تقسيم المكافأة بين الطرفين.

كانت الأرملة گولة تأتي لتأخذني إلى بيتها. وكنت مولعاً بالتفرج على كلبها (بوره) وهو يسوق حمارها من البيت إلى المراعي ويظل حارساً أميناً له طيلة ساعات النهار ويسوقه عائداً إلى البيت قبيل غروب الشمس. وفي ساعات حراسته للحمار كان الكلب يمنع أي حيوان أو إنسان من التقرب إليه.

وقتل الفلاح المعدم العقيم عارف حماره بعد أن حرن وأبى السير خطوة في طريقه إلى طاحونة الماء، فيما كان يسير خبباً نحو البيت. مزقه بخنجره تمزيقاً وترك الحمل هناك، على بعد كيلومتر من القرية، بين التراب والدماء وعاد إلى القرية وهو يكيل الشتائم بأعلى صوت للحمار ولمن يملك الحمار.

كان الفلاح (كاخله) راعي أغنام القرية كلها تقريباً. وأظن أنه لم يشك يوماً من مرض ولا من ألم ولم يحدث أن يغتسل يوماً بالماء

الساخن أو يستعمل الصابون لغسل يديه أو جسمه. ولم يكترث قط لما يجري خارج قطيعه وأرضه ولم يتدخل في شؤون غيره ولم يحاول معرفة اسم ملك العراق أو اسم مدير ناحيته. وبخلاف معظم الرعاة الأكراد لم يتعلم كاخله العزف على الناي.. لكنه كان خبيراً حقيقياً بشؤون الأغنام والماعز. يتفقدها يوميا ويعرف لمن يعود هذا الحيوان أو ذلك كما يعرف فقدان أي رأس من المواشي في قطيعه حين يسوق إلى القرية مساءاً.

من أخطر الأحداث في تأريخ القرية خلال الثلاثينات كان هجوم قطيع من الذئاب على قطيع المواشي. لم يكن لدى الراعي سلاح ناري. كان يعتمد على كلبه حسب. ولسوء الحظ فإن الكلب لاذ بالفرار مندحراً أمام الذئاب في ذلك اليوم. وهرب الراعي نفسه خوفاً ولكي يستنجد بالقرية. وعندما وصل الفلاحون إلى هناك كانت الكارثة قد وقعت إذ فتكت الذئاب بأكثر من ٢٥٠ ـ ٣٠٠ رأس، لو أكل ذئب حيواناً بكامله لهان الأمر. غير أن الذئاب كانت مولعة بالقتل أولاً. فتترك الحيوان القتيل دون أن تأكل منه لقمة لتهاجم حيواناً آخر. وكانت تعض الفريسة من رقبتها أولاً لتكون الضربة قاضية. وكان القسم الأكبر من الضحايا بين النعاج، التي لم تحاول الهرب من العدو، بعكس الماعز التي كانت تحاول التخلص بالهروب أو تسلق الصخور والأشجار. وبعد الكارثة تركت الحيوانات الميتة في أماكنها وذبحت الميؤوس من شفائها فيما نقلت الجريحة المؤمل علاجها إلى القرية وتحولت البيوت كلها إلى مستشفيات بيطرية عقاقيرها هي الرماد والخرق المتسخة. وشبعت القرية كلها، ربما لأول مرة في تأريخها، من اللحوم. وكانت خسارة الأرملة العجوز أفروز أكبر من غيرها إذ فقدت كل ما ملكت ـ وهي أربعة رؤوس من الماعز.

قبل هذا الحدث ببضعة أيام كان قد وقع لهذه الأرملة مكروه آخر. كانت جالسة فوق سطح وفي يدها مغزلها. ورأت أن تخرج من الزريبة

كتاكيتها الإحدى عشر الصغيرة ليستمتعن بالشمس والهواء الطلق تحت إشرافها المباشر. وقد ربطها كلها إلى بعضها بخيط واحد مشدود في نهايته إلى رجل الدجاجة الأم، خوفاً من العدو الطائر الغدار: الحدأة. وفي غفلة من العجوز شن العدو غارة خاطفة وأخذ كتكوتاً. وارتفعت معه البقية وانقطع الخيط جراء الضغط وبقي كتكوت واحد مع أمه وحملت الحدأة العشرة الأخرى إلى حيث راق لها.

خسر الفلاحون مواشيهم ومنوا أنفسهم بأمل إعفائهم من ضريبة الأغنام لتلك السنة. لكن آمالهم قد خابت إذ جمعت الضرائب مع بعض التخفيض. وقد قال آمر مفرزة الجباية، رداً على طلبات الفلاحين بإعفائهم من الضريبة:

ـ الحكومة عادلة ولا يمكن لها أن تجبي ضرائب الرؤوس المفقودة من مواشيكم.

كان هناك شيخان أكبر الجميع سناً. وكان أحدهما ـ العم كريم ـ يختلط بالناس ويسدي النصح ويفض النزاعات بين القرويين. فيما كان العم فرج انعزالياً لا يختلط بالناس كثيراً. وقد انفصل عنه ولداه بعد زواجهما وبقي مع ابنته خديجة رافضاً تزويجها من أي كان، مجيباً لمن يطلب منه يدها:

ـ أرهقت نفسي في الحر والبرد كي أربي هذه البنت ولتخدمني بدورها، وليس ليأخذها شاب لم يتعب نفسه ولا مرة على إطعامها وتربيتها. اتركنوا وابنتي أيها الناس.

ولم تتزوج خديجة المسكينة أبداً. وقد رأيتها في الثمانينات، وهي عجوز محدبة تتكىء في سيرها على عصى لتختبىء في الملجأ هرباً من القصف الجوي في قرية بلكجار.

من المشاهد التي تظل ماثلة في ذهني ذلك العراك الذي حدث ذات يوم بين نساء القرية في مهبطها الصيفي السيار. كانت البيوت ـ (أو

الكبرات) ـ تشكل حلقة حول ساحة تبيت فيها مواشي القرية ليلاً. وقع العراك وسط الساحة وبمشاركة أكثر من عشرين امرأة. بدأ النزاع بتبادل الشتائم بين امرأتين ثم التشابك في «قتال عنيف». وهبت النجدة من بيوت عديدة وتكون فريقان متقاتلان بما يشبه مشهداً كوميدياً حقيقاً. لم تستخدم أية امرأة عصى أو سكيناً أو حجارة. الأسلحة التقليدية هي العض والقرص وجر الشعر والصراخ. وكانت «المقاتلة» تستسلم بمجرد أن تمسك امرأة أخرى بشعر رأسها. وسرعان ما تنقلب المنتصرة إلى مندحرة جراء مسك شعرها من قبل امرأة أخرى. وبدا أن من المستحيل انتصار أي فريق على الآخر بالاستناد إلى وسائل القتال المستعملة. وأخيراً حضر فلاح مسن وفض النزاع باستخدام عصاه. وفي المساء، حين عاد الأزواج من أعمالهم، تلقى بعض النساء وجبة جديدة من الضرب عقاباً على ما فعلن.

بإلحاح شديد انتزعت من أمي عانه (أربعة فلوس) لكي أشتري «إجازة لمسك الأفاعي» من فراش مستوصف الناحية المدعو حسن، الذي كان يحمل عدداً من الأفاعي في كيس قماش ويتجول في القرى لبيع بضاعته ـ «الإجازة» أو قصاصة ورق كتب فيها بعض الكلمات بخط سيء كتوصية للحية بعدم لدغ حاملها. وأعترف أني لم أتجرأ على مسك الأفاعي حتى بعد أن حصلت على الإجازة وأخافني ما قاله حسن من أن بين الأفاعي ما لا يخضع للإجازة. ولا أدري ما إذا كان على علم بأن هناك أفاعي سامة وأخرى غير سامة. ولا أظن أنه كان قادراً على التمييز بين هذا وذاك. وقد رأيته بنفسي حين طلب منه الفلاحون المسك بحية كانت قد لدغت الفلاح عبد الله قبل بضع ساعات ثم حفرت الأرض تحت شجرة التين للعثور عليها. فأجاب: «إنها ليست خاضعة للإجازة» وقد توفي الفلاح بعد اللدغ بحوالي ١٥ ساعة ولحق بالشابين رؤوف وعبد الكريم من ضحايا لدغ الأفاعي.

رأيت أول إنسان قتيل بضربة خنجر، دعي (حسين دوخور) وهو

من أهالي قرية بلخه. وقد قتل على يد قروي آخر بسبب نزاع على أسبقية سقي الزرع. وبعد حين رأيت جنازة القاتل أيضاً، وهي تنقل مع مفرزة من رجال الشرطة إلى قره داغ.

أثناء إحدى سفراتي إلى مدينة السليمانية راق لوالدي أن يسجلني في مدرسة مسائية. وبفضل كتاب كاكه حمه قبلت رأساً في الصف الثاني. وكانت الغالبية الساحقة من تلاميذ الصف أكبر مني سناً. وسأل المعلم الصف كله ذات مساء قائلاً:

ـ من الذي يستطيع كتابة ٨٨ على اللوحة؟

لم أعرف، أنا الطفل القروي، أن الراغبين في الإجابة إنما يرفعون أصابعهم بانتظار إشارة المعلم إلى أحدهم. فقلت بصوت عال، تماماً كما كنا نفعل في كتاب كاكه حمه:

ـ أنا أعرف.

لم يقل المعلم شيئاً، فيما أطلق التلاميذ ضحكة مدوية مقرونة بالسخرية. وخلال الأيام التالية كان الضحك يتجدد بمجرد أن يشاهدني التلاميذ في ساحة المدرسة أو في ممراتها وغرفها. وكان شابان كبيرا الشوارب يبالغان في الضحك أكثر من الصغار. فكرهت المدرسة لهذا السبب وتركتها بعد أيام معدودة دون أن أقدم توضيحاً لوالدي.

كانت لنا، أنا وابن عمتي محمد، هوايات غريبة. مرت أسابيع ونحن نشتري في كل يوم سبحة جديدة بيومياتنا ـ فلسين ـ ونضيفها إلى سبحتنا القديمة التي زادت عن عشرة أمتار. وأحياناً كنا ننصب تلفوناً بيننا بربط علبتين فارغتين بطرف خيط ممدد يزيد طوله عن الخمسين متراً. وحين كان محمد يشتري ساعة جديدة كنا نسرع في تفكيكها ثم نعجز عن إعادة تركيبها فترمى في سلة المهملات مع إخفاء الأمر عن عمتي، التي كانت بدورها معلمة كتاب لبعض بنات صغيرات.

في خريف ١٩٤٠ اشتد المرض بجدي بابا علي وهو في العقد

التاسع من عمره. وكنت مصادفة في السليمانية. كان الشيخ المريض، وهو أبرز عالم ديني لزمانه في المدينة، متمدداً على بساط صغير عتيق داخل غرفة صغيرة في منزله شبه الكوخ القريب من جامعه. ولم ينزع عن رأسه عمامته البيضاء. كان يتحمل الآلام في هدوء ولا أتذكر أن طبيباً جلب إليه أو أنه تناول عقاقير طبية. كان يتردد عليه الزوار من أهالي الحي ومن الأصدقاء. وهم يجلسون على بساط عتيق لفترة وجيزة كي يخلوا بعدئذ المكان لغيرهم. وفي ساعة متأخرة من الليل كان يحتضر فأرسل والدي خادم الجامع ليأتي بمصطفى صفوت، الذي حضر ـ إضافة إلى أفراد العائلة ـ ساعة الوفاة. وقد ترجى مصطفى صفوت من جدي رجاءاً حاراً لكي ينقل تحياته إلى أبيه المتوفي منذ أعوام.

لقد عاش جدي فقيراً ومات فقيراً، رغم مركزه الديني ـ الاجتماعي المرموق، الذي كان يسمح له بأن يغدو ثرياً ومرفهاً فيما لو رغب بنفسه. وأحبه الناس لأنه كان دينياً صادقاً مع نفسه. وخرجت المدينة كلها لتشييعه من الجامع إلى مقبرة سيوان. وكان في موكب التشييع الضخم إلى مقبرة سيوان رجال يدقون الطبول والدفوف ويرددون عبارات تدل على الحزن والرثاء. وبعد ثلاثة أيام من استقبال المعزين في المدينة عاد والدي إلى قرية تكيه لاستقبال المعزين من أهالي قرى قره داغ وكرميان أيضاً.

٢

في مدينة السليمانية

أدت وفاة جدّي إلى تغيير جذري في حياة عائلتنا إذ حمل والدي على هجر القرية والاستقرار في المدينة، خشية أن يستولي «ملا دخيل» على جامع أبيه. ودّعت القرية عائلتنا بالبكاء والدموع بعد أن أخفقت في إقناع والدي بالعدول عن السفر.

اقترن الانتقال إلى المدينة بهبوط حاد في مستوى العائلة المعاشي إذ فقدنا موردنا الزراعي، في وقت لم يكن بين أفراد العائلة من هو قادر على العمل إسهاماً في الإعالة، سوى والدي الذي كان عليه أن يطعم ١٤ شخصاً ـ هو نفسه مع زوجتيه وأطفاله الأحد عشر ـ إضافة إلى الضيوف الذين ندر أن يفرغ منهم البيت. وقد حصل والدي على راتب قدره ثلاثة دنانير شهرياً، بعد مساع ومراجعات استمرت لأكثر من سنتين. وكانت الحرب العالمية الثانية قد سببت الغلاء وشحة المواد الغذائية. وكان علينا أن نشتري كل حاجاتنا بفلوس. فعانينا من الفقر والجوع ولم يكن بمقدورنا أن نشبع حتى الخبز اليابس من طحين الشعير والذرة. وقد احتفظ والدي بكيس الطحين عنده ليعطي يومياً الحصة المقننة لكل من زوجتيه تلافياً للإسراف.

أحسست في المدينة بضيق شديد وظللت أحنّ إلى الجبال وتسلقها

وإلى أحواض المضيق والسباحة فيها وإلى التجول في الغابات، وبالأخص في قوبي. لكني تعودت تدريجياً على الحياة الجديدة. ومع استمرار علاقتي الوثيقة مع صديق الطفولة ابن عمتي فإني وجدت العديد من الأصدقاء الجدد. وبحكم منشأي كابن عالم ديني وثيق الصلة بسائر رجال الدين في المدينة غدوت بدوري وثيق الصلة بالجامع وبطلاب العلوم الدينية في جوامع عديدة.

لم أكن أفهم شيئاً من السياسة حين كنت أسمع الناس يتناقشون حول حركة رشيد عالي الكيلاني في ١٩٤١. كان الجمهور يتعاطف مع الحركة وحتى مع هتلر بسبب كرههم للإنكليز. وأجمع بسطاء الناس على أن سبب هزيمة رشيد عالي لم يكن إلا خيانة بعضهم داخل الحركة نفسها.

لم يكن لي من الوعي ما يحملني على متابعة أحداث الحرب سياسياً. لكني كنت أسمع يومياً أحاديث الناس حول الغلاء المرتبط بالحرب. وسمعت مراراً أن هناك أناساً يشتغلون في السوق ويدعون لهتلر بالنصر لأنهم أثروا بفضله إثراءاً فاحشاً خلال فترة قياسية. علماً بأنهم لم يملكوا شيئاً قبل الحرب وشكا المجتمعون ذات مساء حول مدفأة الجامع من ارتفاع سعر اللحم كمشكلة جدية. ورد عليهم الخياط الفقير محمد قائلاً:

ـ أنا توصلت إلى حل جذري لهذه المشكلة.

ـ وما هو هذا الحل؟ ـ سأله أحدهم.

ـ لن أشتري ولن آكل اللحوم بعد اليوم.

هجرنا القرية وظلت علاقاتنا وثيقة بالقرويين من أهالي تكيه وقرى أخرى عديدة. وندر أن يفرغ بيتنا يوماً من الضيوف الفلاحين. وكان جامع والدي فندقاً دائمياً لهؤلاء، الذين كانوا يأتون لبيع الحطب أو الفحم أو لمراجعة إحدى دوائر الدولة أو للمستشفى.. الخ. وكانت

طرمة دارنا الصغيرة، في حالات عديدة، أسطبلاً لحمير الضيوف فترة بقائهم في المدينة. وسرق أخي الصغير قادر ذات يوم حمار أحدهم من الطرمة وباعه إلى الأطفال بأربعة فلوس ومصيادة مطاط. وعندما عاد صاحب الحمار ولم يجد ذهب يبحث عنه وعثر عليه في حي آخر وقد ركبه عدد من الأطفال والتف حوله عدد أكبر. ولم يسترجعه إلا بعد صراع حاد وبعد دفع الفلوس الأربعة إلى الشاري.

❀ ❀ ❀

كان حلول عيد رمضان أو الأضحى حدثاً كبيراً لأطفال السليمانية: ارتداء ملابس جديدة والحصول على العيدية من الأهل والأقارب والأصدقاء الكبار وبالتالي التجول في الشوارع وركوب الخيل والعربات التي تجرها الخيل وشراء الحلويات وغير ذلك. ورغم أننا كنا نملك الفرس في القرية وأني تعلمت هناك الفروسية وخوض المسابقات المحلية مع الفرسان بمناسبة عرس ما، فإني كنت أدفع نقوداً من عيديتي في المدينة لأركب ـ ضمن الأطفال ـ فرساً مسافة مئة متر. وكان الكبار يكتفون في العيد بتبادل الزيارات لبعضهم وتقديم الحلويات والشاي أو تقديم القهوة إلى البعض. في حين كان مهرجاناً حقيقياً للصبية. وكان أكبر مبلغ يأتيني في العيد وأنفقه كله تقريباً. وأكبر عيدية حصلت عليها كانت ستة دراهم قدمها لي صديق أبي الشاعر نوري الشيخ صالح يوم ذهبنا لزيارته.

في أحد الأعياد تعذر الحصول على ملابس جديدة. فاشتريت الصبغ بأربعة فلوس وصبغت به صايتي العتيقة. وكنت في سن المراهقة. لبستها في اليوم الأول غير مبال باخضرار قميصي الأبيض تحت الصاية. وفي اليوم الثاني تكدر مزاجي حين انحنيت لآخذ بعض الحلوى من بائع جالس على رصيف الشارع المزدحم فتمزقت الصاية وخجلت من نفسي وعدت إلى البيت زاعماً بأن الناس كلهم أخذوا يتفرجون علي ويضحكون على ما حدث لي.

في المدينة واصلت الدراسة، وأنا مقيم في البيت. درست مبادىء النحو والصرف. وكان والدي معلمي الرئيسي. درست كتاباً يدعى (تصريف الزنجاني) أظن أنه ظل يدرس منذ حوالي ألف سنة. وكنت في السادسة عشر من عمري عندما ألح علي والدي كي أذهب إلى أحد الجوامع في قره داغ أو حلبجة أو بياره وأدرس كطالب دين، لعلني أصبح عالماً دينيا وأحتفظ لاحقاً بجامع أبي كما احتفظ هو به بعد وفاة والده. لكني لم ألب رغبته ولم أخف عنه بأني أريد دخول مدرسة مسائية اعتيادية بدل الدراسة الدينية. وبين إصراره على أن أدرس الدين وإصراري على رفض ذلك توصلنا إلى حل وسط: أظل في البيت وأجمع بين ما يريده هو وما أريده أنا. فسجلت في المدرسة المسائية وتابعت في الوقت نفسه دراسة النحو والصرف لدرجة الاستيعاب والاتقان. ومع اجتياز الدراسة الابتدائية ساهمت كشاب نشط في جمع التواقيع على عريضة تطالب بفتح متوسطة مسائية. واستجيب لطلبنا. فأسست لنا المتوسطة المسائية، لكنها شبه أهلية وكان علينا أن ندفع أجور الدراسة السنوية بقسطين، كل قسط ٤,٥ دينار. وكنت أدبر هذا المبلغ بصعوبة بالغة.

وقبل الانغمار في النشاط السياسي كنت أقضي قسطاً غير قليل من الوقت مع أصدقائي من طلاب الدراسة الدينية وكنت أنتظر بفارغ الصبر مساء كل اثنين وكل خميس لأذهب إلى حيث كان هناك حشد منهم لممارسة ألعاب مسلية في حجرة أحد الجوامع. وكان يوما الثلاثاء والجمعة هما العطلة الدراسية الموروثة لطلاب الدين. وبالتعاون مع أحمد بانيخيلاني وعزيز جوانروبي أسسنا جمعية ثقافية ـ اجتماعية شبه سياسية لطلاب الدين. وفي اجتماع لهيئتها العامة انتخبت الجمعية قيادتها. كنا ندرّس لأعضائها مواضيع الجغرافيا والرياضيات وما شابه. وبرز فريق معارض لنا، ربما بتحريض من بعض الملالي، متهماً إيانا بالزندقة وإشاعة الكفر.

وكان طلاب الدين موزعين على الجوامع بمعدل ٢ ـ ٤ لكل جامع، يتلقون الدروس صغارهم من كبارهم وكبارهم من علماء الدين، ويعتاشون على الخبز الذي يجمعونه يومياً، من كل بيت خبزة في نطاق الحي، وعلى معونة أو طبيخ بعض البيوت في المساء. كان المجتمع هو الذي يتكفل بإعاشتهم فترة دراستهم. وعلى هذا النحو كانت تتكون الفئة المثقفة من المجتمع طيلة قرون متعاقبة.

وكان لي أصدقاء من أبناء المحلة التلاميذ أيضاً. وأقربهم إلي حسن عمر خان وكريم شريف وغيرهما ممن كنا نجلس في دكان عارف وهاشم ـ ولاحقاً علي فوتاو ـ لقضاء سويعات في الأحاديث المسلية.

كنت أنتظر بفارغ الصبر شهر رمضان من أجل السهرات في لياليه الممتعة، التي كانت تبدأ بعد صلاة التراويح وتنتهي بإطلاقة مدفع السحور. كان والدي يسهر طيلة رمضان مع فريق من زملائه رجال الدين وبعض أصدقائهم، بالتناوب بين الجوامع. يقضون الوقت بالضحك وتبادل النكات ولعب الداما وأحياناً بالغناء والطرب، بمشاركة شبان مغنين أمثال صالح ديلان وقادر حاجي حسين وغيرهما. وكان المجلس الساهر يتناول الشاي والفواكه في كل ليلة.

كان بيخود الشاعر أحد المشاركين الثابتين في سهرات رمضان وأحد لاعبي الداما الرئيسيين. وكانت علاقات الصداقة بينه وبين والدي متينة منذ عهد الدراسة في شبابهما. وكان نفسه رجلاً مرحاً ولبقاً في الحديث حافظاً لنكات كثيرة، بضمنها النكات الجنسية، سيما الخاصة بممارسة الجنس مع الأولاد. وكان ميالاً إلى الطرب والغناء وعلى صلة ببعض الشبان المطربين. وعاش في بيت أخيه ولم يتزوج قط لسبب لا أعرفه.

ذات ليلة حضر سيد علي بسم الله في مجلس السهر وجلس هادئاً متفرجاً على لعبة الداما. لكنه لم يترك ليتمتع بالسهرة. فقد حرضنا أحد الكبار على كتابة كلمة (بسم الله) على قصاصة ورق لرميها أمامه. وحين

قرأها نهض بعصبية شاتماً ممزقاً للقصاصة وانسحب من السهر. ولم أره بعد ذلك في أي سهرة.

❀ ❀ ❀

في زياراته للسليمانية كان قانع الشاعر يتخذ من حجرة في جامع والدي فندقاً له. وأتذكر أنه ألقى قصيدة على جمع صغير في الغرفة، تناول فيها معاناته من الفقر والحرمان، وأثار بها إعجاب المستمعين. وكان شاعراً ريفياً مقبولاً لزمانه، ساخطاً على نظام الحكم وعلى الإقطاع والمستغلين.

❀ ❀ ❀

إلى جانب معاناتنا من الفقر والحرمان كان في بيتنا مشكلة أبدية أخرى، مشكلة العداء المستحكم بين أمي وبين الزوجة الثانية لوالدي. كانت أمي تنظر إلى تلك كمعتدية أتت لتشاركها في بعلها. وكانت هذه المشكلة محلولة نوعاً ما حين وجودنا في القرية والأخرى في المدينة. ولكنها احتدمت حين أصبحت الامرأتان متقابلتين داخل بيت صغير ليل نهار. وأظن أن والدي قد أدرك لتوه مشكلة أن يكون لرجل واحد زوجتان، خاصة في ظروف الفقر والحرمان وكان يروي مراراً نكاتاً عن رجال متعددي الزوجات، منها أن أحدهم تأخر في العودة إلى البيت - وكانت زوجتاه في بيتين منفصلين، وهو يبيت عندهما بالتناوب. وعندما دق الباب ظنت زوجته أنه خدعها وكان حتى ذلك الوقت لدى الزوجة الثانية. فأبت أن تفتح له الباب وصرخت من وراء الباب:

- عد إلى حيث كنت حتى الآن.

وحين دق الباب على الزوجة الثانية تلقى نفس الجواب وذهب مضطراً إلى الجامع لينام ليلته في بيت الله بعيداً عن كلا بيتيه.

بعد سنوات من الإقامة المشتركة في بيت صغير اشترى والدي

قطعة أرض صغيرة كانت ذات يوم مقهى (سرچمن) الشهير وبنى فيها غرفتين وطرمة طينية لتنتقل أمي معنا إليها. فخفت المشكلة بعض الشيء إذ كانت تفصل بين الزوجتين مسافة خمسين متراً.

كانت محطة توليد الكهرباء ـ أو طاحونك الالكتريك، كما سماها الناس ـ قريبة من بيتنا ويزعجنا هدير الماطور، بالأخص في فصل الصيف حيث كنا ننام فوق السطح. وكان يجري ماء ساخن من المحطة ليصب في حوض جامع (حمزة آغا). وقسم الحوض بسياج خشبي إلى قسمين ليمكن لشخصين الاغتسال فيهما في آن واحد. وطوال فصل الشتاء، وخصوصاً في ساعات الصبح الباكر، كان الناس يتقاطرون على هذا الحوض الدافىء لأن الإسلام يفرض عليهم الاغتسال بعد أن جامعوا زوجاتهم أو احتلموا أو ما شاكل.

❀ ❀ ❀

تمنت ضيفة قروية عندنا أن تعود إلينا بعد سنة لترى في بيتنا الإنارة الكهربائية. فردت عليها أمي:

ـ الفانوس النفطي يكفينا ولسنا بحاجة إلى الإنارة الكهربائية. أدعي لنا كي تدخل إلى البيت حنفية الماء ونتخلص من نقل سطلات الماء من بيوت الآخرين إلى بيتنا.

❀ ❀ ❀

كم قصت علينا عمتي حكاية عفريت كان يقطن زقاقاً ضيقاً قرب منزلها الصغير. كنا، أنا وابنها محمد وسائر الصغار، على ثقة تامة بصواب ما كانت تقص. كان العفريت يزيد من حركته ليلاً ويظهر أحياناً في صورة قط أو كلب أو معزة أو إنسان غريب الشكل.. الخ. وفي ليلة من ليالي رمضان، وكان التيار الكهربائي قد انقطع في حينه، سألوني في البيت عما إذا كنت قادراً على أخذ طبيخ الرز إلى عمتي ساعة السحور. فأجبت بالإيجاب وأخذت آنية فيها الرز لأنقلها عبر مسافة مظلمة تقارب

٢٥٠ متراً. وعندما وصلت الزقاق الذي يسكنه العفريت تراءى لي أني أرى العفريت قادماً من الجهة الأخرى، وقد اتخذ شكل قطة. فتعطلت قواي الحركية أو انهارت كلياً وكأن طناً من الحديد قد ألقي على رأسي. ألقيت بنفسي على باب أحدهم ودققته بيدي طلباً للنجدة. وبدأت أكرر تلقائياً كلمة (بسم الله.. بسم الله). لم يفتح لي الباب ولم ينجدني أحد. لكني استعدت شيئاً من قواي وتمكنت من متابعة السير، وفي يدي آنية فارغة، حتى وصلت بيت العمة ودققت الباب بقوة مستنجداً:

ـ افتحي الباب سريعاً يا عمة.

أسرعت في فتح الباب وسألت:

ـ ماذا حدث لك.. بسم الله الرحمن الرحيم؟

ـ لقد داهمني العفريت.

ـ كنت أعرف أن هذا سيحدث.. بسم الله الرحمن الرحيم.

أوصلتني العمة مع امرأة جارة إلى بيتا. وخلال أشهر أعقبت ذلك كنت أخشى أي ظلام ليلاً كان أم نهاراً.

❀ ❀ ❀

في ضاحية المدينة وبين أشجار العرعر، بجانب جامع سمي تكيه الشيخ سعيد، كان مقهى فرج الموسمي: كراسي خشبية صغيرة وبسيطة بين الأشجار وفي ظلالها، على العشب الأخضر وفي الهواء الطلق. يمكن لمن يرتاد المقهى أن يتناول قدحاً من الشاي أو يتناول الخس مع بعض الخل، أو باقلاء مسلوقة. كنت أجلس أحياناً بين الأصدقاء في هذا المقهى، معتبراً إياه قمة الطرب، وقد أصبحت في سن المراهقة. كان يزيد من جاذبية المقهى أن صاحبه نصب مذياعاً يبث برامج عربية من لندن وقبرص وأنقرة. وكنا نسمع أخبار الحرب الدائرة. وقد جلس معنا ذات يوم شاب من أهالي قرية (تكيه). وكان طالب دين وابن ملا القرية. وعندما بدأ المذياع المعلق على جذع شجرة يتكلم بصوت عال

سألني الشاب محمد، وهو يرى المذياع لأول مرة في حياته:

- من الذي يتكلم هناك؟

- إنه مذيع يتكلم من لندن، على بعد آلاف الكيلومترات، ونسمعه هنا.

- وكيف يصل الصوت من لندن إلى هنا؟

- إنه العلم يوصله إلينا.

- يستحيل ذلك. أقسم بالله أن المتكلم هو الشيطان.

كنت عاجزاً عن إقناع الشاب بأن المتكلم هو إنسان مثلنا جالس في غرفة ما بلندن. لكن الصدف خدمتني. ففي تلك اللحظات بدأ المذياع بتلاوة آيات من القرآن وسألت صديقي عما إذا كان للشيطان أن يقرأ القرآن. فأجاب:

- استغفر الله العظيم لا يمكن للشيطان أن يتلو آيات القرآن أبداً.

أطلق تاجر الأقمشة سيد علي رصاصة من مسدسه على رأس ابنته البالغة من العمر عشرين عاماً، وكانت نائمة في الصباح الباكر. وقيل أن السبب كان علاقة غرامية وصلت حد الممارسة الجنسية مع شاب من زملائها. وقد احتجت فئة واسعة من سكان السليمانية، سيما من الشباب. وعبرت عن مشاعر السخط تجاه الأب القاتل بالمشاركة في تشييع جنازة الفتاة إلى مقبرة سيوان كما لو كانت مستشهدة. وقد سجن الأب وحكم عليه بعشر سنوات.

وتزوج جار لنا من فتاة جميلة، طبعا من دون علاقة مسبقة بينهما.. وفي أول ليلة من الزواج، حين جامع زوجته وجدها - حسب زعمه - غير باكر لأن الدماء لم تسل من فرجها ولم تصبغ المفرش الأبيض. فتركها في الحال وطردها من بيته في صبيحة اليوم التالي طرداً أبدياً.

وكان لشاب من أقربائي قصة مغايرة مع زوجته. ذهب إليها ولم يستطع ممارسة الجنس معها، لا في الليلة الأولى ولا في الليالي القادمة. وقد أشيع الخبر وتكدر مزاجه. وأكد بعضهم أن هناك سحراً قد جرى ساعة عقد المهر. فكان لا بد من الاستعانة بساحرة معروفة في المدينة تدعى (كوله ناني) أو زميلة لها تدعى (عاصه بيجرينه)، وهي تتعاطى السحر لقاء مبلغ زهيد وتبطل مفعول السحر السابق المدبر من شخص آخر.

وقد نجحت الساحرة، التي تفرجت من خلف الشباك، بدافع الفضول، على كل ما فعلت فدخل الشاب على زوجته وأفلح في «اقتحام القلعة» الحصينة التي عصت عليه طيلة الأيام العشرة الماضية.

❀ ❀ ❀

كانت معاملات الناس البسطاء تعطل عمداً في دائرة تجنيد السليمانية لكي يدفع المراجعون الرشاوي لقاء تمشيتها. عبثاً حاولت تمشية معاملة قروي من أقاربي خلال ٣ ـ ٤ أيام ومن دون دفع الرشوة. ودفعت لنائب الضابط الكاتب ربع دينار ورقي بعد أن دونت عليه إشارة معينة. ومشيت المعاملة. وقررت الشكوى فذهبت إلى ضابط التجنيد الكردي، وهو من أبناء عائلة أرستقراطية في السليمانية. وأوضحت له كل شيء. كنت أتصور أنه سيتخذ إجراءات ضد الكتبة في دائرته ولم أدرك أنه شريك رئيسي في الرشاوى التي يأخذونها إلا بعد أن اتضح الأمر جلياً حيث اكتفى باستدعاء نائب الضابط واسترجاع المبلغ منه بهدوء تام ودون توجيه كلمة مزعجة إليه وناولني إياه قائلاً:

ـ أستطيع أن أعتقلك الآن لأنك دفعت الرشوة. ولكني لا أفعل ذلك في هذه المرة. خذ فلوسك ولا تقرب ثانية من هذه الدائرة.

❀ ❀ ❀

منذ أواسط الأربعينات تحول عيد نوروز في مدينة السليمانية إلى

مهرجان شعبي حقيقي يشارك فيه الغالبية الساحقة من سكان المدينة. كنت أذهب يوم المهرجان منذ الصباح الباكر وبسرور كبير إلى ضاحية المدينة ـ بجانب تلة (مامه ياره)، حيث كان الشباب والأطفال والكهول يتحشدون ليحتفلوا بعيدهم القومي. كانت هناك في أماكن منفصلة عن بعضها الدبكات والموسيقى والأغاني الحماسية الفردية والجماعية. وكان الشبان والشابات يرتدون أفضل ملابسهم ليأتوا إلى المهرجان ويدبكوا سوية. فيما كانت هناك عوائل جالسة على العشب الأخضر يتوسطها السماور والطعام الذي جلبته من البيت خصيصاً لهذا المهرجان. وهناك حشود صغيرة أخرى متفرقة منصرفة، بعضها إلى لعب الداما ـ وكانت لعبة شعبية بين الأكراد وفي المدن والأرياف ـ والبعض الآخر إلى لعب الورق أو تبادل النكات. ولم يندر أن يجلس بعضهم في زاوية منعزلة لشرب الخمر.

كان پيره ميرد المنظم الأول للمهرجان. وكان يدير طبخ ثلاثة آلاف دولمة لتوزيعها على المشاركين في المهرجان أو على بعضهم.

وفي أحد هذه المهرجانات قرأ بيكس قصيدته الشهيرة (بيست وحه وت ساله من ره نجبه ري توم ـ أنا شغيلك منذ ٢٧ سنة) أمام الضابط الإنكليزي الذي كان يجلس بجانب پيره ميرد.

❀ ❀ ❀

شاهدت بغداد مرة قبل أن أنخرط في النشاط السياسي. كنت بصحبة والدي وفلاح شاب من قرية تكيه. وذهبنا بمهمة البحث عن جثة القروي الشاب طاهر، الذي كان قد غرق أو أغرقه أحدهم طمعاً في دريهماته، في نهر دجلة بالقرب من سامراء. وكان هذا المسكين قد انطلق من قره داغ، وهو يسوق حمارين محملين بالتبوغ. ولم يتوقف حتى وصل إلى مكان ما من نهر دجلة بأمل أن يبيع بضاعته بثمن غال. وقد فقد تبوغه وحياته معاً. وعبثاً حاولنا العثور على جثته. وسبب موته

بهذه الصورة حزناً أبدياً عميقاً لوالده عبد الله القروي المسن الذي مات فيما بعد بلدغة أفعى.

لم أر أثناء زيارتي تلك شيئاً من بغداد سوى شارع الرشيد. كنت أسير فيه لأتفرج على السلع المعروضة في المخازن، وأنا لا أملك في جيبي سوى بضعة عشر فلساً. وبعد عودتي إلى السليمانية بشهرين حصلت على دينار بكامله وتمنيت لو كان ذلك قبل سفري إلى بغداد.

كنت مع ثلاثة من أقاربي القرويين في إحدى حجر الجامع مساءاً. كان بينهم (أخان) الفلاح الفقير ذو العينين الضعيفتين. وطلبت منهم إطفاء الضوء الكهربائي حين الرقاد. وقلت لأخان: «انظر إليّ كيف أطفىء الضوء بالنفخ. ينبغي أن يعرف المرء من أن ينفخ». وفيما كنت أضغط على الزر في الحائط كنت أنفخ على اللمبة فتنطفىء. وطلب زميلاه من أخان أن يجرب ويتعلم قبل خروجي من الغرفة ـ وكانا يفعلان ذلك عن عمد، وللضحك عليه ونفخ أخان تكراراً لكي يطفىء النور. ولم ينتبه حتى النهاية بأن هناك زراً لإشعالها وإطفائها. كان زميلاه يلومانه لأنه لا يعرف المكان الذي يجب أن يركز عليه النفخ.

❀ ❀ ❀

في فترة انتصاراته على الحلفاء كان الحاكم النازي هتلر يستأثر بعطف الكثيرين في العراق، دون أن يفهموا شيئاً من طبيعته. كان للإنكليز ما يحملهم على التعاطف مع هتلر. لكن أمزجة الناس قد تغيرت، ولم يبق مع هتلر سوى أثرياء الحرب، حين انتقل الجيش السوفيتي إلى الهجوم وأخذ يلحق الهزائم بالجيش الألماني. وقد أصبح السوفييت موضع العطف لدى بسطاء الناس.

❀ ❀ ❀

في القرية كنت أساهم في أعمال زراعية بسيطة كسقي التبغ وتقديم العلف لفرسنا وحمارنا أو الذهاب مع أخواتي فاطمة وعطية إلى بستان

العنب لقطف عناقيده ونشرها تحت الشمس كي تتحول إلى زبيب. وكنا نغلي الرماد ساعات في قدر كبير ثم نأخذ منه الماء الأصفر ليغلي وحده، بدون الرماد، ولنطمس فيه عناقيد العنب قبل نشرها. كان الزبيب بهذه الطريقة أنظف وأجمل وأكثر ليونة. وخلال السنوات الثماني التي قضيتها في المدينة لم أمارس عملاً أكسب منه بعض الدراهم سوى الاشتغال ثلاثة أيام عامل بناء ولقاء درهم لكل يوم. لكني ظفرت ذات صيف، وكنت شاباً واعياً، بوظيفة وقتية في دائرة الصحة، اشتغلت ٣ ـ ٤ أشهر عاملاً في مكافحة الملاريا لقاء راتب شهري دسم ـ ١٢ ديناراً شهرياً. واشتريت من أول راتب هدايا لأمي وأخواتي. وكان المسؤول عنا، نحن العمال العشرة، شاب بغدادي دعي عبد الكريم اليعقوبي. وحين زرته في غرفته ذات مرة وجدت لديه كتاباً من منشورات أعلام الحرية وأخذته لأقلبه فانتزعه اليعقوبي مني وقال:

ـ مالك ولهذا الكتاب؟ اتركه. فهو كتاب شيوعي ممنوع.

٣

ولوج المعترك السياسي

غيرت المدينة منهج حياتي ومجرى اهتماماتي. هنا، بخلاف ما كان في القرية، حشود من الناس، أسواق ومدارس ودوائر ومقاهي وراديو وصحف وكتب.. الخ. ودون أية خطة مسبقة وجدت نفسي أنجذب تدريجياً ـ شأن آخرين من أقراني ـ إلى النشاط السياسي. وكانت أجواء السليمانية مشجعة على ذلك. ولم يرافقني أي من أقرب أصدقائي، في بادىء الأمر، إلى دخول الحياة السياسية. ولكني كنت أكسب أصدقاء جدد من الشبان المهتمين بالسياسة.

كان أول اهتمام لي بالسياسة في تطورات الحرب العالمية الدائرة. وكنت أفرح بانتصارات السوفييت على الألمان. وكنت أقرأ ما يقع في يدي من مطبوعات باللغة الكردية، التي كانت في تلك الفترة لغتي الوحيدة للمطالعة. كنا مشتركين في مجلة «كلاويژ» الكردية. وكان علاء الدين سجادي، طالب الدين السابق في جامع جدي، يرسل لنا الأعداد مجاناً. والشيء نفسه بالنسبة لجريد «ژين» التي كان يصدرها پيره ميرد وكان صديقاً لوالدي.

قبل أن تضع الحرب أوزارها ازداد اهتمامي بمطالعة الصحف اليومية القادمة من بغداد. وقد تقوت لغتي العربية. وفي تلك الأيام

نفسها وقعت في يدي ذات يوم ولأول مرة جريدة (القاعدة) السرية التي كانت تصدر باللغة الكردية وتنطق، شأن القاعدة، بلسان الحزب الشيوعي. وبعد ذلك غدوت أبحث بنفسي عن هاتين الجريدتين. كان ذلك بداية اتصالي بالحركة الشيوعية في العراق. وقد وجدت نفسي مؤيداً لها لأنها كانت متحيزة إلى الفقراء، الذين كنا منهم، وكانت ضد الاستعمار الأجنبي وأعوانه الحكام المحليين. ولم يلبث أن بدأت أبحث عن الكتب الماركسية والتقدمية وأطالع منها ما يقع بين يدي. ومن أول ما طالعته منشورات سلسلة أعلام الحرية، منها كتاب (جمال الدين الأفغاني) و (كروميل) الذي قاد ثورة في بريطانيا، و (أبو ذر الغفاري) الذي مثل تياراً يسارياً تقدمياً في الإسلام. وقرأت بعض مؤلفات سلامة موسى. ولكني لم أتأثر بأي كتاب قدر تأثري برواية الأم لمكسيم غوركي، التي كانت مترجمة إلى العربية في العراق. وهي من الروايات النادرة التي رغبت في قراءتها للمرة الثانية.

كان لمكتبة «بيري نوي» ـ أي «الفكر الجديد» ـ أثرها البارز على نشاطي الفكري. وهي كانت مكتبة الشبيبة الشيوعية والتقدمية في المدينة. كنا نستعير منها الكتب لقاء أجور رمزية لنطالعها ولنشجع الأصدقاء والمعارف على مطالعتها. في الوقت نفسه كنا نسعى لجمع الكتب التقدمية هنا وهناك وتقديمها إلى المكتبة مجاناً.

ومنذ وقت مبكر غدوت أحد المترددين يومياً على دكان (قادر آغا المطار) الذي وضع فيه صاحبه بعض المساطب لجلوس أمثالي من المرتادين يومياً لمطالعة الصحف البغدادية لقاء دفع أربعة فلوس. وكان الرجل يبيع الصحف أيضاً لمن يشتري. وكانت مشكلتي هناك هي صعوبة دفع الأربعة فلوس في بعض الأيام. لكن قادر آغا كان يتسامح ويقبل تأجيل الدفع إلى الوقت الذي تتوفر فيه النقود.

وحين دخلت الإنارة الكهربائية منزل عمتي واشتريت بعدئذ مذياعاً

توفر لدي مصدر آخر هام لمتابعة الأخبار العالمية إذ كان الذهاب إلى هناك أمراً ممكناً وعادياً في أي وقت.

❀ ❀ ❀

كانت الحرب في أواخر أيامها حين وصلت إلى السليمانية سيارة وفيها آلة سينما سيارة وأفلام تعرض انتصارات القوات البريطانية والمتحالفة على القوات الهتلرية. واختيرت ساحة مدرسة واقعة في مركز المدينة لعرض الأفلام. كنا نكره الإنكليز بوصفهم مستعمرين. ولهذا كنا ضد عرض أفلامهم. ولم يسمح لها بالعرض فعلاً إذ قطعت الأسلاك، بعد بدء العرض، وخربت العملية وارتفعت الهتافات ضد الاستعمار. فانسحبت سيارة السينما. ولا أتذكر أي عرض من هذا القبيل بعدئذ.

بدأت في العراق، مع انتهاء الحرب الثانية، فترة من التنفيس وتخفيف الملاحقات وسمحت السلطات بتشكيل عدد من الأحزاب القانونية... الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار وحزب الاستقلال وحزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني... وقد حاول سكرتير ح ش ع فهد الاستفادة من هذه الفرصة لإيجاد واجهة قانونية يمكن للشيوعيين أن يمارسوا عبرها نشاطهم السياسي. ويبدو أن اتفاقاً قد عقد بين فهد وعزيز شريف ليكون حزب الشعب، الذي أسسه الأخير، هذه الواجهة. إلا أن عزيز قد خرق الاتفاق. واضطر فهد على تدبير الأمر بشكل مغاير. فتقدمت الهيأة المؤسسة لحزب التحرر الوطني، شأن سائر الهيئات المؤسسة لأحزاب أخرى، بطلب الإجازة. وكان من غير المؤمل استحصال الإجازة باسم ح ش ع.

وبتوجيه من قيادة ح ش ع اقترن طلب إجازة حزب التحرر في العاصمة بتنظيم حملة واسعة من التأييد، عن طريق العرائض والبرقيات في مختلف المدن والقصبات إلى السلطات الحكومية، لدعم هذا الطلب. كان ذلك أواخر ١٩٤٥ وأوائل ١٩٤٦. وقد شاركت بنشاط في

هذه الحملة داخل مدينتي. وأصبحت هذه المشاركة بمثابة بطاقة انتماء إلى الحزب إذ اعتبرت نفسي منذ ذلك الحين، واعتبرني الآخرون أيضاً، شيوعياً منتسباً دون أي إملاء يوماً ورقة الترشيح للعضوية ودون أن أستلم إشعاراً بالقبول. وبالنظر إلى أنني لم أكن منشغلاً في تلك الفترة بشيء سوى الدراسة المسائية، التي كانت تأخذ القليل من وقتي، فإني كنت قادراً على تكريس جهد كبير للعمل الحزبي ـ السياسي منذ بدء انضمامي.

في تلك الأيام كانت الجماهير الشعبية تعرفنا ـ في مدينة السليمانية ـ باسم «التحرريين» دون أن تجهل بأننا شيوعيون. وأظن أن بالإمكان اعتبار حملة التأييد لإجازة حزب التحرر نقطة تحول في تأريخ الحركة الشيوعية بتلك المدينة إذ أدت الحملة إلى إثارة وتحريك الجو السياسي لصالح ح ش ع والتفاف غالبية الشباب حوله وتحويله إلى تنظيم سياسي جماهيري فعّال.

في تلك الأيام تعرفت على أنشط الشبان الشيوعيين في المدينة أمثال أنور حمه آغا، الذي انضم إلى الحزب وهو طالب في دار المعلمين العالية (كلية التربية) ببغداد، وأحمد غفور، الذي انتمى وهو طالب في دار المعلمين الريفية، وغفور كريم الذي كان من أوائل المنتسبين في السليمانية وغيرهم من الشباب.

في ١٩٤٦ قرأت، لأول مرة، جريدة كردية سرية مطبوعة بالآلة الكاتبة والرونيو وتحمل اسم «رزگاري». ولم تستهوني مواضيعها كثيراً، بالمقارنة مع نشرتي «ازادي» و «القاعدة».

وكغالبية الشباب في السليمانية آنئذ، كنت أتابع من بعيد أخبار جمهورية مهاباد في كردستان إيران وأقرأ مواضيع جريدة كردستان التي تصل إلينا. وكنت أبحث في كل عدد منها عن أشعار جديدة لهيمن وهژار. ورغم أنني لم أكن بالمستوى الذي يسمح لي بتحليل الوضع هناك على أسس سليمة، فإني أذكر تعاطفنا مع الجمهورية الفتية،

وتأثيرها البارز في إنعاش حركة التحرر القومي بكردستان العراق عامة ومدينتنا بوجه خاص. وكانت السليمانية مركز النشاط الثوري (الوطني والقومي) بالنسبة إلى كردستان العراق.

في ١٩٤٧ زارني ذات يوم صديقي مصطفى محمد، وكان طالباً في ثانوية السليمانية. واختلي بنا، أنا وصديقي أحمد بانيخيلاني وفتاح - وكانا طالبين دينيين في جامع والدي - في إحدى غرف الجامع وأخرج من جيبه قرآناً أمامنا واستحلفنا به:

- أقسم بهذا المصحف الشريف أنني لن أخون الكرد وكردستان.

- ولماذا هذا القسم؟ سألته أنا.

- لكي أضمكم إلى صفوف البارتي (پ.د.ك.).

أظن أن مصطفى كان قد ضم حديثاً إلى صفوف البارتي وبنفس الطريقة التي لجأ إليها لكسبنا. وقد بادرت إلى الإجابة:

- أنا لن أقسم ولن أنتمي إلى الپارتي.. لي حزبي الذي أعمل فيه. اتخذ صديقاي بانيخيلاني وفتاح موقف الرفض لطلبه وغادرنا الغرفة. وخجل مصطفى من نفسه وبعد أشهر قليلة أتاني يبشرني بأنه ترك الپارتي وانضم إلى حزبنا.

❀ ❀ ❀

في ١٩٤٧ أصبحت، لأول مرة، منظماً لخلايا حزبية كنت قد كسبت البعض من أعضائها ورحل إلى البعض الآخر من خطوط تنظيمية أخرى. كان أعضاء تلك الخلايا خليطاً من عمال وكادحين وطلاب وغيرهم، بينهم نجار مختص بصنع المهود للأطفال الأكراد دعي نوري وعامل بناء دعي عبد الله وشاب خباز على ما أتذكر - دعي محمود چالاك وعامل بناء دعي عبدل.. الخ. وبعد وثبة كانون ١٩٤٨ ازداد عدد الأشخاص الذين كنت أنظمهم. كنت أعقد الاجتماعات الحزبية لبعض الخلايا الحزبية في غرفة صغيرة، وبالأحرى في قبو مظلم بمنزلنا

لم يكن لها شباك ولم يدخلها يوماً نور الشمس منذ أن بنيت وسقفت. كنا نضيئها بإشعال فتيلة نفطية لا يلبث أن تملأ الغرفة بدخان أسود وأن يصبح بصاقنا أسود اللون. ولم يندر أن أعقد الاجتماعات الحزبية في الغرفة الصغيرة الملاصقة لغرفة والدي في الجامع. وكان الوالد يلاحظنا أحياناً ويعرف ما نعمل. كان يلتزم الصمت رغم عدم ارتياحه من انخراطي في النشاط السياسي.

❀ ❀ ❀

في أيام محاكمة السكرتير العام للحزب يوسف سلمان (فهد) كنت أتخذ مكاناً لي في دكان قادر آغا قبل أن تصل الصحف إليه. كنت أنتظرها بفارغ الصبر لأقرأ وقائع المحاكمة المنشورة في أكثر من جريدة. كانت المحاكمة علنية وكان للمتهمين محامون وكان في قاعة المحكمة مراسلو الصحف ومواطنون عاديون ـ أذكر ذلك لأقارن بين العهد الملكي وبين عهد النظام البعثي التكريتي. وحين كنا نغادر دكان قادر آغا كنا نظل مع الموضوع نفسه في مناقشاتنا وتعليقاتنا.

❀ ❀ ❀

طيلة ١٩٤٧ وفيما بعدها كانت المناقشات محتدمة، ولكن بقدر من الديمقراطية والاحترام المتبادل، بيننا وبين البارتيين. وكان النقاش يدور حول نقطتين رئيسيتين: هل الأكراد يشكلون أمة أم لا؟ وهل يصح وجود تنظيم شيوعي في كردستان أم لا؟ نحن كنا نناقش الأمور من منطلق الجمود العقائدي وعلى ضوء ما كتبه ستالين حول الأمة باعتبار ذلك رأياً صائباً غير قابل للنقاش والجانب الثاني كان يناقش أيضاً بعيداً عن الأسلوب العلمي. فكانت الحقيقة ضائعة بين هذا وذاك. وكانت نزعة الاحتكار لحق النشاط السياسي موجودة في ثنايا النقاش لدى الطرفين.

❀ ❀ ❀

كنت في قرية تكيه حين وصلتني من السليمانية أخبار انتصار وثبة كانون الثاني ١٩٤٨. في اليوم التالي دخلت جامع القرية واستأذنت من الملا لكي أتحدث إلى الحضور بعد الانتهاء من صلاة الجمعة مباشرة. تحدثت بضع دقائق في أول ندوة سياسية شهدتها القرية. أشرت إلى أن ما حدث يبرهن على أن الشعب هو الأقوى حين يهب للنضال بصفوف موحدة. وقد دعا الجميع الله والإمام حمزة ليكونا في عون الشعب ضد الإنكليز وضد الكفرة والفاسقين. وكان من الصعب للغاية أن يفهم القروي الأمي المنعزل في قرية نائية ما يجري في شوارع العاصمة من صراعات سياسية معقدة. وحين عدت إلى السليمانية وجدت جواً سياسياً جديداً منعشاً ومغايراً كلياً لما كان قبل بضعة أيام. وحتى خالي، العالم الديني البارز مصطفى، الذي كان يلومني في الماضي لأني سائر ـ حسب قوله ـ وراء الأوهام، هنأني بالنصر حين التقينا وقال بحماس:

ـ الآن آمنت بالشعب وآمنت بأنك كنت على حق يا بهاء.

وقد غدا بإمكان العراقيين لأول مرة، في ظروف النهوض الثوري العظيم، أن يخرجوا بحرية إلى الشوارع في مظاهرات تهتف بما يريدون وتعبر عن مشاعرهم دون خوف من أن تهاجمهم الشرطة وتعتقل وتقتل كما كانت تفعل سابقاً. كان الحقد الأشد منصباً على الاستعمار البريطاني وأعوانه الحكام المحليين. ولم يكن في السليمانية ما يرمز إلى الوجود المباشر للاستعمار البريطاني سوى المركز الثقافي البريطاني، الذي كان له مدير محلي كردي من أهال المدينة ومنبوذ شعبياً دعي علي ملا شريف. فنظم الشيوعيون مظاهرة جماهيرية هتفت ضد الاستعمار وداهمت المركز الثقافي المذكور وأشعلت فيه النيران. ونجا علي من أيدي المتظاهرين لكن دراجته البخارية قد أحرقت. وفي اليوم التالي انتظم حشد كبير من الصبية وساروا في مظاهرة حاملين بقايا الدراجة المحروقة.

لقد أسقطت الوثبة وزارة صالح جبر وبعدها اشتدت المطالبة الشعبية بحل المجلس النيابي الذي كان مهيأ للتوقيع على معاهدة بروتسموث. واضطر البلاط على حله وإصدار قرار بإجراء انتخابات نيابية جديدة. وقرر ح.ش.ع.، ربما للمرة الأولى في تأريخه، المشاركة في الانتخابات. وكان الإنكليز قد شرعوا، أو نقلوا من الهند، قانوناً انتخابياً مغايراً لما كان في بريطانيا نفسها وملائماً لضمان تسلط السلطة التنفيذية على البرلمان. بموجب هذا القانون كانت الانتخابات تجري على مرحلتين. في الأولى يقوم الناخبون من الذكور وحدهم بانتخاب بضع عشرات في كل دائرة انتخابية ممن سموهم «المنتخبين الثانويين». وفي المرحلة التالية، وتحت إشراف السلطات الإدارية نفسها، كان المنتخبون الثانويون يجتمعون لينتخبوا النواب، فيما كان أعضاء مجلس الأعيان يعينون بكاملهم من قبل الملك. وكان من المنتهي أن يفوز مرشحو البلاط والسلطة بجميع المقاعد النيابية أو غالبيتها الساحقة في كل مرة. لكن الوثبة الظافرة غيرت الوضع ولم يعد بمستطاع السلطة أن تزور الانتخابات في ربيع ١٩٤٨، وفي أجواء المد الثوري شاركنا في الانتخابات النيابية ـ وكانت هي المرة الأولى التي شاركت فيها في الانتخابات وصوت بحرية.

كنا، جميع الشيوعيين في المدينة، شباناً صغاراً ولم تتوفر في أي منا الشروط القانونية ـ خاصة من حيث العمر ـ للترشيح إلى النيابة. لم نعان من تهيأة قوائم المنتخبين الثانويين من بين الشيوعيين ومن آبائنا وأقاربنا. وكنت بنفسي ووالدي ضمن قائمة حزبنا للمنتخبين الثانويين. وكان والدي فرحاً وخائفاً في آن واحد حين أبلغته أن اسمه ضمن قائمتنا. وكان مرشحانا للنيابة عربي هو شريف الشيخ العاني، المدير المسؤول لجريدة الحزب المركزية الأساس التي صدرت بعد الوثبة، وآخر كردي ملاك دعي محمود هموند.

قبيل التصويت قمنا بحملات انتخابية وعقدنا اجتماعات جماهيرية.

في أول اجتماع انتخابي ألقيت قصيدة ثورية حظيت بالاستحسان. وقال لي أحمد غفور بعد الاجتماع:

ـ إن قصيدتك عرضت الأفكار الماركسية بأسلوب مبسط جيد.

وفي اجتماع جماهيري ـ انتخابي آخر عقد بساحة المدرسة الإعدادية في المدينة ألقيت قصيدة مكرسة لدعم قضية الشعب الفلسطيني ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية.

سهرنا على الصناديق طيلة ساعات التصويت وطيلة ساعات فرز الأصوات. وسهر معنا ممثلو البارتي وبعض المستقلين، إضافة إلى الموظفين الحكوميين. كانت الانتخابات حرة فعلاً وكان يتعذر على أي جهة تزويرها في تلك الأجواء، بخلاف ما كانت في الماضي. وفازت قوائمنا بالأغلبية السابقة من الأصوات، بفارق شاسع بين قائمتنا وقائمة البارتي المنافسة. فكان المفروض أن يكون المقعدان النيابيان للمدينة من حصصنا. لكن الأمور تغيرت كلياً وبشكل مفاجىء، قبل أن تجري المرحلة الثانية من الانتخابات. فقد أعلنت الأحكام العرفية في ١٥ أيار ١٩٤٨ وبدأت حملة الملاحقات ضد الشيوعيين وسائر معارضي السلطة. وفي زيارة انتخابية له إلى السليمانية اعتقل مرشحنا للنيابة شريف الشيخ وحجز في مرحاض مديرية الشرطة. وفي الظروف المستجدة أعلن ح ش ع مقاطعة الانتخابات. أخذت السلطة كل المقاعد لمؤيديها، كما كانت العادة في العهد الملكي، تاركة بعض المقاعد للمعارضين البرجوازيين وأحياناً لمعارضين مفتعلين.

❀ ❀ ❀

دخل النشاط النقابي ـ الاتحادي، لأول مرة بعد الوثبة، إلى مدرستنا أيضاً، كنت في الصف الثالث المتوسط. وكانت مدرستنا كلها متميزة بأن تلاميذها كانوا شباناً كباراً لم يمكن لهم إكمال الدراسة في المدارس الصباحية. كانت المنافسة في الانتخابات الاتحادية بيننا وبين

الپارتي وفزنا بفارق كبير في صالح مرشحينا. في صفنا رشحنا صديقاً للحزب هو جمال محمد سعيد وأخفق مرشح الپارتي على محمود الذي لم أره بعد تركي المدرسة أواخر ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٠ حيث وجدته واحداً من رفاقنا الشيوعيين الذين اجتمعت بهم في شقلاوه بمناسبة عقد كونفرنس المعلمين في كردستان.

❀ ❀ ❀

في أيام النهوض الثوري لما بعد الوثبة شاهدت العاصمة من جديد. ذهبت برفقة أختي وزوجها لمراجعة بعض الأطباء. وقدر لي أن أحضر الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السباع، أي المؤتمر الطلابي الأول في العراق الذي حضره مندوبو اللجان الاتحادية لطلبة الكليات والمعاهد والمدارس وأسسوا فيه اتحاد الطلبة العراقي العام بصورة قانونية. في ساحة السباع، التي احتشد فيها جمهور طلابي كبير زاد عن الألوف، رأيت الشاعر الكبير الجواهري وهو يلقي قصيدته (يوم الشباب تحية وسلام) وسط التصفيق والهتافات الجماهيرية الحماسية.

وبعد عودتي إلى السليمانية بأيام زارنا وفد طلابي اتحادي من بغداد واستقبله طلاب السليمانية استقبالاً حماسياً. وفي لقاء طلابي ضم بضع مئات ألقى الطالب الشيوعي بدر شاكر السياب قصيدة حماسية قوطع مراراً بالتصفيق.

❀ ❀ ❀

في أيار ١٩٤٨ أعلنت الإدارة العرفية في العراق بذريعة تأمين مؤخرة الجيش العراقي الذي دخلت وحدات منه إلى فلسطين وشاركت في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى. كانت أنظمة الحكم العربية قد رفضت قرار تقسيم فلسطين، الذي نص على إقامة دولتين فيها وزعمت أنها ستمنع بالقوة تنفيذه. وهي خسرت الحرب في فلسطين واستولت القوات الصهيونية على أكثر من نصف الأراضي المخصصة للعرب. لكن

حرب فلسطين كانت ذريعة وغطاءاً لحرب النظام العراقي ضد الحركة الوطنية وخاصة ضد ح.ش.ع. ذي النفوذ الشعبي الواسع. وقد وضعت المخابرات البريطانية مخططاً متكاملاً للحرب الأخيرة ضد الحركة الشيوعية والوطنية. فضح حزبنا جانباً منها بنشر وثيقة وقعت في أيديه - عن طريق أحد العملاء المزدوجين - وكانت تقضي بإثارة الفتن والصراعات القومية والطائفية والدينية بين العراقيين.

ولم تكن الهجمة البوليسية العنيفة، المقرونة بحرب فلسطين، المشكلة الوحيدة التي واجهتنا في تلك الأيام. فقد كان قرار التقسيم وتأييد السوفييت له ومعارضة الأوساط القومية سبباً لإثارة البلبلة الفكرية بين الشيوعيين في العراق أيضاً. وزاد من هذه البلبلة نشر كراسة مترجمة إلى العربية في باريس. وتضمنت مغالطات وتشويهات للحقائق، باتجاه التحيز إلى إسرائيل وتجاهل حقيقة أنها أسست منذ البداية على أساس الظلم والاغتصاب وتشريد الجماهير العربية من أرضها وسلب حقها المشروع. وكانت الحملة البوليسية العنيفة، التي وصلت إلى حد سجن الألوف وإعدام أبرز القادة الشيوعيين في العراق، لم تسمح لهؤلاء بدراسة الوضع المستجد برؤوس باردة وفي جو من الهدوء. ورغم أننا لم نشك في كفاءة القيادة السوفيتية لدراسة الوضع واتخاذ الموقف الصحيح إلاّ أننا لم نكن قادرين على تفسير ما يجري من الأحداث أمامنا.

خلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت انتصار وثبة كانون اتسعت عضوية ح ش ع لدرجة غير معقولة وبصورة غير مبرمجة. لم يكن لدى الحزب الكادر القادر على استيعاب الجمهرة الواسعة من المقبلين على صفوفه. وكان ذلك أحد الأسباب لاضطراب وضعنا التنظيمي أثر اتساع الحملة الإرهابية.

وكانت الحملة قد بدأت واشتدت بعض الشيء يوم جمعتني هيئة حزبية واحدة مع بهجت ومحمد مصطفى لبعض الوقت. وكان ينظمنا ـ إن لم تخني الذاكرة ـ الشاب الشيوعي النشيط غفور كريم، الذي كان يعطي العمل الحزبي كامل وقته.

❀ ❀ ❀

في صيف ١٩٤٨، وقبل أن أدخل حياة الاختفاء، قمت بزيارتي الأخيرة إلى قرية تكيه، فإلى مصيفي المفضل قوبي. كنت مع ابن عمتي، الذي لم يرتبط قط بأي نشاط سياسي بل كان هدفه في الحياة أن يشغل مكان أبيه المتوفي كإمام للجامع وأن يعيش في رفاه. ورافقنا ستة من أقاربنا الشبان في القرية. وبعضهم مسلحون ببنادق تصلح للصيد وحسب. فشل شبابنا في اصطياد أي حيوان يؤكل لحمه. لكننا لم نفشل في اصطياد العسل من أفخر أنواعه. فقد قال صديق أنه يعرف نحلاً برياً وقد نحصل على العسل منه. وما كان منا إلاَّ أن نوافق بحماس. تركنا معروف الذي كان يعشي في الليل. وذهبنا إلى حيث النحل. أمامنا شجرة بلوط كبيرة، وفي جوفها بيت النحل. ثقبها صديق نفسه بطبره، بعد أن غطى وجهه بيشماغه ونحن نتفرج على بعد بضعة عشر متراً. بان العسل في القسم الأسفل من الشجرة. بدأنا نأخذ العسل حتى ملأنا الطشت، الذي كان معنا لنعجن فيه، والقدر وسائر الأواني. قدرت كمية العسل بحوالي ثلاثين كغم. كنت في حيرة من أمر الاختلاف في لون طبقات العسل إذ كان الأعلى منها أبيض والأسفل أسود وما بينهما يتغير اللون تدريجياً باتجاه السواد نحو الأسفل. فسر لي الفلاح صديق هذه الظاهرة فقال:

ـ هذا العسل هو إنتاج سنوات سبع لهذا النحل. والسنة الأخيرة هي الأبيض. وفي كل عام يزداد سواد الشمع تدريجاً.

❀ ❀ ❀

في خريف ١٩٤٨ أصبح كريم صوفي منظماً لي. كان من عائلة فقيرة، ابن فراش لإحدى المدارس. وكان شاباً خلوقاً وذا جهادية عالية. في ذلك الوقت لم أنقطع بعد عن الدراسة في الإعدادية المسائية. وقد دبرت بصعوبة القسط الأول من أجور الدراسة. وواظبت على الدوام حتى صدر، لأول مرة، أمر القبض علي. وقد أوصل إلينا الخبر، قبل مداهمة بيتنا، قريبي المفوض في التحقيقات الجنائية (لاحقاً الأمن العام) عثمان ملا. واتخذت الاحتياط وتركت البيت. وبعد بضعة أيام تمكن زوج أختي الضابط الصف في الشرطة من غلق القضية وعدت إلى البيت ولكن لفترة وجيزة أعقبها أمر جديد بالقبض واختفاء جديد استمر سنوات.

لم أكن على علم بما حدث في بغداد من اعتقال للمسؤولين وانهيار للبعض منهم حين أبلغني منظمي كريم صوفي في أوائل ١٩٤٩ بأن قيادة الحزب قررت إقامة مظاهرات بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوثبة كانون وبهدف تجديد الوثبة. وأضاف كريم:

ـ قررت قيادة منظمتنا هنا أن تعهد إليك بمهمة قيادة المظاهرات في السليمانية. ثم أطلعني على رسالة حزبية وردت من المركز وفيها توجيهات حول المظاهرات التي يجب أن تؤدي إلى تجديد الوثبة. كان على كل متظاهر ـ وفق الرسالة ـ أن يحمل في يده عصى يبلغ طولها ٧٥ سم وأن يكون مستعداً لمهاجمة الشرطة ودحرها.

وافقت دون تردد على أن أضطلع بالمهمة المناطة بي ـ قيادة المظاهرات. وكان مطلبي الوحيد أن يوفر لي مكان مناسب اختفي فيه. وقد أخذني كريم مساء نفس اليوم إلى منزل الخياط الشيوعي الشاب فتاح في حي ملكندي. وترك لي، حسب طلبي، تحديد المكان الذي تنطلق منه المظاهرة. اخترت نقطة مزدحمة بالناس وسط سوق المدينة. وجرت التبليغات بالحضور في الموعد المحدد. وحضرت بنفسي ملثماً وأطلقت أول هتاف كإشارة لبدء المظاهرة. وتراءى لي أننا فاجأنا

الشرطة إذ لم ألاحظ أي استعداد مسبق لديها. قارب عدد المتظاهرين المئتين فقط ـ وهذا عدد قليل دل على عدم استعداد الناس، حتى من الشيوعيين أنفسهم، للمشاركة فيها. كانت هناك لافتات ارتفعت مع إطلاق الهتاف الأول. وكانت اللافتات والهتافات موجهة كلها ضد الاستعمار والحكم العميل ولدعوة الجماهير إلى تجديد الوثبة. سارت المظاهرة بضع مئات من الأمتار وتجمع حشد كبير من البوليس مشاة وخيالة وسيارات حولنا. وبالقرب من (گومرگه سوتاو) ـ أصدرت الأمر بالتفرق، قبل أن يحدث أي اشتباك أو يعتقل أي متظاهر.

في ذلك الحين كانت مدينة السليمانية كلها معارضة للنظام وكانت الغالبية الساحقة متعاطفة مع الشيوعيين. وكانت بيوت الناس مفتوحة لاحتضان وإخفاء أي متظاهر يلجأ إليها وهو مطارد من أزلام السلطة. وإذا اقتحم البوليس دار أحدهم بحثاً عن متظاهر ملتجىء إليه نقل الأخير فوراً، بمبادرة من أهل الدار وعبر سطحها في أغلب الأحيان، إلى دور أخرى. ولم أسمع أن تفلح الشرطة تلك الأيام في القبض على أي متظاهر داخل إحدى الدور.

انتهت المظاهرة الأولى بسلام ودون أية خسارة. وعدت مساءاً إلى مخبئي في ملكندي وقدمت إلى كريم صوفي، الذي كان هناك في انتظار، تقريري الشفهي حول المظاهرة. وطلب مني تقديم تقرير تحريري أيضاً لتطلع عليه القيادة.

وفي مساء اليوم التالي حمل إلي المراسل الحزبي الصغير (قاله) رسالة تأمرني بالتهيؤ لإخراج المظاهرة الثانية. وقد أجلتها حتى تحل الذكرى السنوية الأولى للوثبة، أي السابع والعشرين من كانون الثاني. في هذه المرة هيأنا نعشاً رمزياً، تابوتاً خشبياً من النوع التقليدي الذي توضع فيه الجنازة لحملها على الأكتاف إلى المقبرة، غطي بقطعة من القماش الأسود. لم يسبق للمدينة أن تشهد شيئاً من هذا القبيل. فلم يفطن أحد، لا من الأهليين ولا من رجال الشرطة، بأن ما يحمله

المتظاهرون على أكتافهم هو مجرد نعش رمزي وليس ميتاً حقيقياً. وقد زاد النعش من هيبة المظاهرة وصعوبة هجوم الشرطة عليها. اخترقت المظاهرة السوق وسط هتافات المتظاهرين وتفرج أصحاب الحوانيت والمارة وسارت عبر شارع مؤد إلى مقبرة سيوان. وقد لاحظت بعد خروجنا من السوق أن عدد رجال الشرطة يبلغ أضعاف عدد المتظاهرين وأن وحدات من الشرطة الخيالة والسيارات المسلحة تسير أمامنا وخلفنا وتكاد تطبق علينا. خشيت من أن يؤدي الوصول إلى المقبرة أو التفرق في مكان غير ملائم إلى إلقاء القبض على عدد كبير من المتظاهرين. لهذا قررت تفريق المظاهرة في مكان تكون فيه السيارات والشرطة الخيالة مشلولة وغير قادرة على ملاحقتنا. وإذا بقي البوليس المشاة وحدهم ضدنا فإن الخصم يفقد التفوق ويهرب أمام سلاحنا التقليدي - الحجارة. تفرقت المظاهرة أمام الجامع ذي البابين لكي يدخل المتظاهرون من أحدهما ويخرجوا من الآخر دون أن تستطيع السيارات أو وحدات الشرطة الخيالة ملاحقتهم. خسرنا في هذه المرة ثلاثة رفاق أمكن للشرطة أن تقبض عليهم. بينهم فرج محمود ونوري النجار وكنت في السابق منظماً له. ولم يقبض على أي ممن أمكن لهم دخول الجامع. وقد أتى أحدهم بالقماش الأسود معه تاركاً التابوت الفارغ للشرطة.

بمجرد الصدفة دخلت في هذه المرة أيضاً، بعد تفرق المظاهرة، نفس الدار التي كنت دخلتها بعد تفرق المظاهرة السابقة. كانت هناك نساء جالسات حول التنور، يخبزن لإحداهن. لم أعرف بالطبع أياً منهن وما كنت بحاجة إلى أن أعرف. يكفي أن يعرفن بأني متظاهر ضد السلطة. أشارت علي إحداهن بالصعود عبر الدرج، نحو السطح حيث الأمان الأكثر. وقامت نفسها بغلق الباب الخارجي للدار. وبعد بضع دقائق أتتني صبية بين ١٠ - ١٢ سنة من عمرها وقدمت إلي رغيفاً حاراً مدهناً. أكلته بشهية. وبعد مرور ربع قرن على هذا الحادث، أي في

١٩٧٤، كنت جالساً بصحبة الكادر الشيوعي أحمد حامد بمدينة السليمانية. فسألتني زوجته:

ـ ألا تعرفني؟ ألا تذكر أننا رأينا بعضنا وتعارفنا سابقاً؟

ـ كلا لا أذكر شيئاً.

ـ أنا تلك الصبية التي حملت إليك الرغيف الحار يوم كنت في منزلنا عام ١٩٤٩ وبعد تفرق إحدى مظاهراتكم.

بعد المظاهرة الثانية كان علي أن أهيء، طبقاً لأمر قيادة المنظمة، إلى المظاهرة الثالثة، التي حدد لها الموعد في ٣٠ كانون الثاني. غيرت مكان التجمع والانطلاق إلى شارع صابنكران المنزوي نسبياً. وطلبت من كريم تعيين مساعد لي في المظاهرة كي يحل محلي في حالة اعتقالي أو قتلي. واستجيب للطلب. وفي هذه المرة أيضاً لم يكن للخصم الحاكم علم بموعد ومكان المظاهرة. معنى ذلك أنه ليس هناك أناس مندسون في صفوفنا. وحضر إلى المظاهرة عدد قليل، بين ٤٠ ـ ٥٠ شخصاً. أطلنا التصفيق والهتافات، ونحن في نفس المكان، بأمل انضمام آخرين إليها. لكن الشرطة هي التي حضرت في سياراتها المسلحة. ولم يلبث أن كثر عددها ثم بدأ الاشتباك أثر الهجوم علينا. كان سلاحنا التقليدي هو الحجارة. وردوا علينا بالمثل. كان مساعدي الطالب في الثانوية أحمد حسن من أوائل الهاربين بعد بدء الاشتباك. واضطررنا نحن إلى الانسحاب عبر زقاق ضيق لا تستطيع السيارات دخوله لكي نكون فقط مقابل المشاة من الشرطة. ومن إحدى الدور الواقعة بين الجبهتين المشتبكتين خرج «القائد المساعد» أحمد وركض باتجاهنا لكي يبتعد عن المعركة. فتلقى ضربة عصى من يدي على رأسه ولم ينظر إلي ولم ينقطع عن الركض. كان مرعوباً وربما زعم بأن الضربة أتته من الشرطة. ظل يركض مبتعداً وظللنا نحن في الاشتباك مع متابعة الانسحاب ومواصلة الهتافات ضد الاستعمار والنظام العميل. وصلنا فسحة أمام منزل الملاك الأرستقراطي حمه آغا، حيث داهمتنا وحدة من الشرطة الخيالة من

الخلف وأصبحنا مطوقين وغير قادرين على مواصلة الاشتباك. غدت المهمة المسلحة لأي متظاهر أن ينجو بنفسه وحده. دخل البعض منازل وتسلق البعض الآخر أعمدة الكهرباء صعوداً إلى السطوح. وقبض على بعض المتظاهرين.

كدت أصبح أحد المتظاهرين المقبوض عليهم إذ انهالت علي الضربات من أخامص البنادق بين حشد من الشرطة الخيالة حتى وقعت أرضاً ودخلت في إغماءة قصيرة وأفقت بعدها. فاستجمعت قواي وهممت بالنهوض والركض حين نزل أحد رجال الشرطة من حصانه ليقبض عليّ. ركض ورائي الشرطي ولكني دخلت باب دار أعرف أصحابه، وأنظم شخصياً أحدهم ـ عمر علي عضو اللجنة الطلابية في المدينة وأطبقت الباب ورائي. لم يكن في البيت أحد سوى الصبية الخادمة آسكه التي كانت تعرفني جيداً لكثرة ترددي على البيت. سألتها عن الدرج الخشبي فوقفت صامتة مرتبكة ولم تجب بشيء. بحثت بنفسي عن الدرج وصعدت إلى السطح وسحبته ورائي فاعتبرت نفسي في أمان لأن الشرطة لن يستطيعوا صعود السطح. اجتزت أسطح عدد من الدور مبتعداً عن بيت عمر ثم نزلت إلى أحد المنازل وخاطبت امرأتين في باحة الدار: «أنا متظاهر». فرحبتا بي وتنافستا على استضافتي وسحبتني إحداهما إلى غرفتها قرب باب الدار الخارجي. أسرعتا في إشعال المدفأة ثم البدء بإسعافي. نزعتا معظم ملابسي ونظرتا بذعر إلى البقع الزرقاء في وجهي وجسمي جراء الضرب. ودهنتا جسمي كله بدهن الطعام وقامتا بتدليكي طويلاً وغطآني بلحافين لأستريح وأعرق. بعد ساعة طلبوا مني النهوض لتناول العشاء. وقالت ربة البيت:

ـ أرجو المعذرة إذا قدمنا لك البرغل. لم يكن لدينا رز لأطبخه.

قبل أن أتناول العشاء دخل الغرفة عدد من الصبية وأظهروا تعاطفهم العميق معي. وسألوني:

ـ أنت من حزب التحرر أم من الپارتي؟

ـ أنا من حزب التحرر.

ـ نحن جميعاً من حزب التحرر أيضاً ـ أجابوا بصوت واحد.

وحين وصلت مخبأي في ملكندي كان كريم في انتظاري. وأخبرني بأنه التقى بمساعدي أحمد ووجده جريحاً في رأسه جراء الاشتباك مع الشرطة، واستقدموا مضمداً لتداوي الجرح. فقلت:

ـ إنه جبن وهرب من صفوفنا قبل التصادم مع الشرطة وأنه أصيب بالجرح نتيجة ضربة هوت عليه من يدي.

في تقريري عن المظاهرة ذكرت أن الجماهير وحتى أعضاء الحزب أنفسهم ليسوا مستعدين للمشاركة في المظاهرات وأن الظروف غير ملائمة لمواصلتها ولا مناص من الكف عنها. وقد أستجيب لاقتراحي وأوقفت المظاهرات ـ التي كانت تجسد روح التطرف اليساري والمغامرة لدى المركز القيادي المتمثل في تلك الأيام بساسون دلال.

في أوقات فراغي من كانون الثاني ١٩٤٩ أنجزت كتابة أول كراسة صغيرة في حياتي بعنوان «ماذا يريد الانتهازيون» أو شيء قريب من ذلك وأرسلت نسخة منها إلى ساسون دلال، الذي كان منعجباً بها ـ على ما بدا ـ وقرر أن أكون أحد مندوبي الكونغرس الحزبي الذي كان قد قرر عقده ولم يفلح. وقد كانت الصياغات والطروحات، التي تضمنتها الكراسة، تعكس تأثري الكبير بكراسة فهد (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية).

في شباط ١٩٤٩ كنت جالساً في مخبأي منصرفاً إلى استنساخ رسالة حزبية صادرة عن المركز القيادي وداعية إلى النضال لإنقاذ حياة قائدنا فهد من الخطر المحدق به. فدق الشاب المراسل عز الدين، الذي كان قادماً من كركوك ومختفياً عندنا، وقال لي:

ـ إليك هذه الرسالة أيها الرفيق! هي رسالة مستعجلة وعليك أن تتبعني بعد اطلاعك عليها.

قرأت الرسالة الموجزة وليس فيها شيء سوى طلب اتباع المراسل للقاء رفيق ينتظرني. أوصلني المراسل إلى بيت صغير في حي (القزازين) غير بعيد عن بيتنا. دخلنا غرفة اعتيادية في الطابق الأول فوجدت شوكت غفور، الشاب الشيوعي الذي كنت على معرفة سابقة به. وأوضح لي سبب استدعائي:

ـ لدي أخبار مؤسفة. سافر الرفيق المسؤول (وكان يقصد سكرتير منظمة المحافظة حميد عثمان) ولا أدري إلى أين. وكان من المقرر أن يأتي كريم صوفي إلى هنا ليعيش مختفياً ويتولى المسؤولية. لكنه تماهل وظل في مسكنه حتى داهمته مفرزة من التحقيقات الجنائية مساء أمس وقبض عليه ـ كما أخبرتني أخته. وكان الخائن رفيق چالاك أحد أفراد المفرزة.

ـ شيء مؤسف. ولكن ما العلاقة بين ذلك وبين استدعائك لي إلى هنا؟

ـ بقدر ما يتعلق بمعلوماتي فإنك أنت من يجب أن يتولى المسؤولية الأولى في المنظمة، بعد أن أعتقل كريم صوفي.

لم أبحث بنفسي عن هذه المسؤولية مسبقاً ولم أتهرب منها حين ألقيت على عاتقي. وظللت أعيش مختفياً ولم أفضل المبيت في البيت الذي أقام فيه شوكت. وبعد أسبوعين عاد سكرتير المنظمة حميد عثمان، وعادت إليه المسؤولية من جديد. وظلت الصلات بيننا عن طريق المراسلة وحسب.

❀ ❀ ❀

في شباط ١٩٤٩ وردتني رسالة من حميد عثمان تأمرني بالسفر إلى مدينة قلعه دزه لإعادة بناء المنظمة الحزبية التي أفشلتها الحملة البوليسية. فسافرت دون تأخير، وأنا متخفي. صادفني في الطريق شرطي يعرفني كشيوعي في أيام النهوض الثوري بعد وثبة كانون ولكنه لم يعرف عن دوري اللاحق وعن اختفائي. وأرسل نفسه معي ليسلمني إلى مركز الشرطة

في قلعه دزه وليجري معي التحقيق. عبرنا في باصنا الخشبي العتيق الزاب الصغير للمرة الثالثة بواسطة عبارة بدائية، عوضاً عن الجسر، يصعدها الباص، وهو مشدود إلى سلك حديدي سميك وإلى بكرتين من كلا طرفي النهر السريع الجريان. كان هناك عدد من الرجال الأقوياء لسحب السلك ودفع السيارة إلى الجهة الأخرى. كان المنظر مرعباً بالنسبة إلى بعضهم. وفي الطريق إلى قلعه دزه تمكنت من إقناع الشرطي بأني أشتغل في البيع والشراء ولا شأن لي بالسياسة. ولهذا الغرض أسافر إلى بيت قريب لي في قلعه دزره. وأغريته بأني سأعود إليه بهدية جيدة.

بدأت العمل فور وصولي إلى قلعه دزه. اجتمعت في بيت محمد الخباز وكريم الخياط مع عدد من الشبان، بينهم عبد الله صوفي رحمان ـ الذي كان في ذلك الوقت شيوعياً متحمساً وسمعت في السبعينات بأنه تحول إلى عميل للسلطة ـ والتلميذ غفور محمد والخياط الشيوعي ظاهر. وبعد تكرر اللقاءات والمداولات وجدت أن عبد الله أكثر كفاءة وكان مقبولاً من الآخرين ليكون المسؤول الأول، يساعده الخباز الشيوعي المتحمس جداً. وقد شكلت لهم لجنة حزبية من خمسة أعضاء بضمنهم التلميذ الصغير غفور.

كنت في قلعه دزه حين أتاني أحدهم وأخبرني:

ـ لقد نفذ الأوباش جريمتهم.. أعدموا أمس الرفيق فهد.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ أذاع راديو لندن النبأ.

هزني هذا الخبر من أعمق الأعماق وكدت أنفجر باكياً أمام رفاقي. وقد بكيت فعلاً عندما غدوت وحيداً في الغرفة. كنت من المعجبين بفهد والمحبين له شأن سائر الشيوعيين العراقيين في ذلك الوقت.

كان من المألوف أن يتنقل الناس بين المناطق الكردية العراقية ـ الإيرانية بحثاً عن الرزق أو الدراسة في الجوامع أو لزيارة الأقارب، دون أن يطالبهم أحد بجوازات السفر أو أي وثيقة أخرى. والتقيت في بيت كريم الخياط بقلعه دزه شاباً كردياً قادماً من إيران لبيع بعض السلع. حادثته في بعض الأمور ثم سألته عن حزب توده. فأجاب:

ـ أي حزب هذا الذي تسأل عنه؟

ـ ولماذا؟ ألست من مؤيديه؟

ليس جديراً بأن يؤيده أحد.. إنهم حفاة، لا يملكون لأنفسهم أحذية يلبسونها.. فهل من المعقول أن يؤسس المرء حزباً وهو نفسه حافي القدمين؟

عدت إلى السليمانية وقدمت تقريراً وافياً إلى قيادة المنظمة حول ما قمت به في قلعه دزه.

ولم تمض سوى أيام معدودة حين جاءني المراسل ذات يوم برسالة مستعجلة تطلب مني إيجاد مكان أمين لرفيق حزبي ريثما يسافر إلى جهة ما. أخذته إلى بيت الشاب الشيوعي عضو اللجنة الطلابية عمر علي. وبعد أربعة أيام وردتني رسالة ثانية تطلب مني تسفير الضيف بطريقة أمينة إلى قلعه دزه. وكان أبيض متوسط القامة قليل الكلام. ودلت لهجته في الكلام على أنه من أربيل. سفرته باسمه الحزبي السري، الذي عرفه الجميع. وقد قبض على الضيف في الطريق وأخذ مخفوراً إلى قلعه دزه رهن التحقيق. وادعى أنه يذهب إلى هناك لزيارة قريبه محمد الخباز، الذي كان قد أبلغ بالموضوع من لدن بله جورج وذهب بنفسه إلى مركز البوليس لأخذ قريبه ومرافقته إلى منزله. وبعد أيام نقل الضيف من المدينة إلى إحدى القرى ليقيم في بيت أحد صغار الاغوات. وهناك داهمته الشرطة وقبضت عليه، ربما بسبب وشاية شخص ما به. ولم

أعرف إلاّ في وقت لاحق بأن هذا الرجل كان ملا شريف المسؤول السابق عن التنظيم الشيوعي في كردستان العراق وعن جريدة (آزادي) الشيوعية التي كانت تصدر باللغة الكردية. كما علمت كذلك أنه أرسل من قبل حميد عثمان ولغرض الوصول إلى إيران والاتصال بحزب تودة هناك.

الانشقاق

في يوم من نيسان ١٩٤٩ حمل إلي المراسل الحزبي نشرة حزبية مستنسخة بالكربون ومذيلة بتوقيع المسؤول، مع توصية إليّ باستنساخ نسخ منها وتوزيعها على التنظيمات المرتبطة بي. قرأتها ووجدتها تتناول قضايا حزبية داخلية لم أسمع شيئاً عنها قبلئذ. وقد تطرق المسؤول إلى الاعتقالات والانهيارات الداخلية الواسعة وألقى تبعتها على عاتق المكتب السياسي للحزب الموجود منذ ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ في السجن، أي فهد وزكي بسيم وحسين محمد الشبيبي، وهم الثلاثة الذين نفذ فيهم حكم الإعدام في شباط ١٩٤٩ وصمدوا صمود الأبطال حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم. فوترت الفقرة الأخيرة من النشرة أعصابي شديد التوتر، ربما لأسباب عاطفية أكثر من أن تكون علمية. فكتبت رسالة استنكار إلى الرفيق المسؤول وطالبته بسحب النشرة فوراً والعدول عن توجيه هذا الاتهام إلى قادتنا الشهداء.

شيء آخر لم أستطع تقبله في الرسالة وهو أن «المسؤول»، الذي أصدر هذه النشرة، قد وضع نفسه، كما يتضح من سياق البحث، في مركز مضاد لمركز الحزب التقليدي، الذي جرت العادة أن يكون في بغداد، وليس في مدينتنا هذه. فتراءى لي كما لو أن هذا المسؤول قد أعلن نوعاً من التمرد على قيادة الحزب ـ ولم تكن لدي فكرة واقعية عن ماهية القيادة الفعلية في تلك اللحظة.

رد المسؤول على رسالتي بقدر من الهدوء مع إصراره على رأيه.

فيما أصررت بدوري على رأيي. وفي الرسالة التالية طلب مني مرافقة المراسل إليه لكي نلتقي ونتناقش. ذهبت ودخلت الغرفة لأجد نفسي إزاء شاب أسمر قصير القامة ونحيفها هو أكرم عبد القادر ياملكي، الذي كان يعرفني وأعرفه جيداً، رغم أنه لم يسبق لنا العمل في هيئة حزبية سوية. وانتهت المناقشة إلى طريق مسدود إذ ظل كل طرف مصراً على رأيه ورفضت بحزم استنساخ وتوزيع النشرة. وكنت مسؤولاً عن قسم كبير من بقايا التنظيمات الحزبية في المدينة. وهكذا انشقت منظمة السليمانية على بعضها، وبدأ سباق بيننا، كل لكسب عدد أكبر من الكوادر والأعضاء إلى جانبه. وقد أفلحت في الكسب السريع لكل من علي حسين البرزنجي وأحمد الحلاق وعبد الله خالد وأسعد بانيخيلاني ومجيد عبد الرزاق وغيرهم. ولم يلبث أن أقمنا صلة حزبية مع المركز القيادي في بغداد، الذي لم أكن على علم بأن حميد عثمان قد أصبح على رأسه. واستلمت رسالة جوابية معها شفرة وقصاصة تحوي عنوان المراسلة ـ بغداد، علاوي الحلة، المكوي حسن عوينه. في الوقت نفسه حاول أكرم كسب مؤيدين له في مدن أخرى خارج السليمانية أيضاً.

لم أر أكرم بعد أن انقسمنا سوى مرة واحدة، حيث كان متنكراً في زي مغاير لزيه الاعتيادي وهو يسير في أحد الشوارع الفرعية بمدينة كركوك عام ١٩٥٠. ولكن الصراع بيننا ظل يحتدم. وهو كسب إلى جانبه البعض في بغداد أيضاً. كما كسب منظمة الناصرية التي كان يقودها المعلم الشيوعي دلّي مريوش. وفي وقت لاحق أصدر أكرم نشرة ناطقة بلسان كتلته سميت «النجمة» وكانت تستنسخ بالأيدي وتوزع بنطاق محدود. لكن عمر منظمته لم يطل كثيراً إذ انسحبت منها منظمة الناصرية في ١٩٥٠ وعادت إلينا. ووصل أكرم إلى وضع تعذر معه مواصلة العمل. وقيل إنه استعان ببعض أقاربه من الضباط بغية تسليم نفسه إلى الأمن العام وإطلاق سراحه سريعاً. وأشيع في حينه أنه سلم إلى السلطات أسماء المرتبطين به سابقاً ـ ولست متوثقاً من ذلك.

لم يكن في واقع الأمر أي أساس فكري وسياسي لذلك الانشقاق. فنحن لم نختلف على الشعارات والاتجاهات السياسية. ولم يكن إلقاء مسؤولية الأخطاء والانهيارات في الحزب على المكتب السياسي مبرراً كافياً للانشقاق، فيما لو كان لنا ولأكرم مستوى أعلى من الوعي والتفهم. لكن الصعوبات الناتجة عن نكسة الحزب في تلك الفترة، من جهة، وضعف مستوى الوعي لدى الجميع، من جهة ثانية، كان قد أوجد الجو الذي يمكن أن يحدث فيه الانشقاق.

بادرت، بعد الانشقاق، إلى تشكيل لجنة قيادية جديدة لمنظمة المحافظة مني ومن عبد الله خالد وعلي البرزنجي وأحمد الحلاق. وكلنا مختفون أو ما شابه. واعتبرنا أسعد بانيخيلاني بمثابة عضو احتياط للجنة.

وعندما غدوت المسؤول الأول عن المنظمة أصدرت أول نشرة داخلية توجيهية بعنوان (واجباتنا). وكانت تستنسخ من قبل الرفاق بالأيدي إذ لم تكن لدينا أدوات للطباعة.

٤

سكرتيراً للحزب

في حزيران ١٩٤٩ أتاني علي البرزنجي برسالة مغلقة مرسلة من بغداد. قرأتها: قبض على المسؤول الأول في المركز القيادي حميد عثمان، الذي كان أوصى مسبقاً بأخبار مسؤول السليمانية كي يتوجه إلى بغداد ويحل محله متى ما قبض عليه. إذن علي الذهاب إلى العاصمة لأكون سكرتيراً للحزب.

كان حامل الرسالة شاباً موثوقاً طالباً في دار المعلمين ببغداد من أهالي مدينة السليمانية. ولم يكن هناك احتمال إيقاعي في الفخ. درست الأمر مع سائر رفاق اللجنة وأرسلت الجواب بالموافقة وطلبت انتظاري في موعد محدد يوم ٢٥ حزيران ١٩٤٩. وفي السليمانية أسندت مسؤولية اللجنة إلى عبد الله خالد، الذي لم يلبث أن ترك العمل الحزبي ـ كما علمت لاحقاً. وابتعدت عن المدينة بصحبة البرزنجي مشياً لأركب بعدئذ فوق حمولة شاحنة محملة بالحبوب. ووصلت بغداد دون أن يسأل عني أحد في الطريق. أقمت في فندق (الزعماء) الصغير الخاص بالفقراء الباحثين عن أرخص مكان. وفيما كنت متمدداً فوق الفراش على السطح مساءاً استمتعت بسماع مقام اللامي يغنيه محمد القبانجي من راديو بغداد.

في الموعد التقيت وفق الإشارة المتفق عليها بشاب اصطحبني إلى غرفة في حي حمام المالح، علمت فيما بعد أن مرافقي يدعى بلال عزيز، وهو طالب من أربيل يدرس بدار المعلمين الابتدائية في بغداد. وفي الغرفة التقيت كذلك بكل من هادي سعيد الطالب في نفس الدار ونوري عزيز الطالب في كلية الحقوق. وأبلغني هادي أنه الشخص الذي وجه إلي الرسالة تنفيذاً لوصية حميد عثمان. سكنا سوية في تلك الغرفة، التي كان قد استأجرها أحدهم. ولم يكن فيها شيء يذكر من الأثاث.

منذ أن وصلت العاصمة غدوت مسؤولاً عن ح.ش.ع. دون أن أكون قد فكرت بشيء من هذا القبيل أو بحثت عنه ودون أن يكون لي عمر حزبي طويل أو تجربة سياسية تؤهلني لمثل هذا المنصب. كنت شاباً في الثانية والعشرين من عمري ولم أكمل بعد أربع سنوات من عمري الحزبي ولم أملك من الثقافة النظرية والتجربة النضالية ما يؤهلني لمثل هذا المركز القيادي. يضاف إلى ذلك أن الظروف، التي توليت فيها القيادة، كانت بالغة الدقة والتعقيد بسبب النكسة العميقة التي أصيب بها ح.ش.ع. في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩. ومع ذلك قبلت المسؤولية دون تردد. كنت أملك الحماس الثوري والجهادية العالية والإخلاص العميق لقضية الشعب والشيوعية. وقبلت المسؤولية في وقت كان قبوله مخاطرة بحياة المناضل، بعد أن كان الخصم الوطني والطبقي قد أفلح في كبس وتحطيم المراكز القيادية، الواحد تلو الآخر، خمس مرات متعاقبة بين تشرين ١٩٤٨ ـ حزيران ١٩٤٩، وفي إعدام أبرز قادة الحزب وسجن الألوف من كوادره وأعضائه وإسقاط العناصر الهزيلة سياسياً وتسخير البعض منها لخدمة الأجهزة القمعية ـ أمثال مالك سيف ورفيق چالاك وجاسم الطعان وصبري عبد الكريم و..الخ. وقد صمد القليلون ممن قبض عليهم ضمن هذه المراكز القيادية. وكان ضمن الصامدين ـ حسب معلوماتي ـ ساسون دلال وحميد عثمان ومهدي حميد. تأتى عليّ أن أشكل سادس مركز قيادي في غضون ثمانية أشهر وفي ظروف إمكانات

شحيحة وصعوبات كثيرة وجراح عميقة. وقد حالفني الحظ ولم يتمكن الخصم من تحطيم المركز القيادي الجديد الذي شكلته، رغم أنه وجه إليه ضربة قوية كادت تحطمه.

كانت السجون والمنافي مليئة بالشيوعيين والمعنويات هابطة لدرجة قياسية والحركة الثورية تعيش في جزء عميق. وقد ابتعد عن الحزب وعن كل نشاط سياسي معظم أولئك الذين كانوا يتقدمون الصفوف ويهتفون بأعلى أصواتهم في أيام النهوض بعد وثبة كانون. ووصل الوضع إلى ما أغرى الحاكمين بأن يتأملوا اختفاء كل نشاط شيوعي في العراق لعشر سنوات على الأقل ـ كما صرح بذلك مدير الشرطة العام آنئذ علي الحجازي. وبديهي أن النكسة ما كانت لتتعمق إلى هذه الدرجة لولا الانهيار الداخلي في الحزب وإباحة أسراره من لدن عدد من المسؤولين والكوادر. وكان بين المنهارين من ضعف أمام التعذيب واكتفى بإعطاء معلومات معينة دونما رغبة في محاربة الشيوعية والانضمام إلى صف أعدائه. ومنهم من استسلم للعدو كلياً وانزلق إلى حد وضع نفسه كلياً في خدمة الأجهزة القمعية بصورة مكشوفة أو مستورة.

❀ ❀ ❀

في غرفة هؤلاء الطلاب بمحلة (حمام المالح) بدأت نشاطي الحزبي الجديد وتعرفت على ما لم أعرفه سابقاً من الوضع الذي وصل إليه الحزب. سلمني هادي نشرة مخطوطة معنونة «الصراع» وعلى غلافها صورة مطرقة، وتحت اسمها جملة (لسان الطبقة العاملة العراقية). وقال لي:

ـ حميد عثمان هو الذي أصدر في حينه هذه النشرة. وقبضَ عليه قبل أن يصدر العدد الثاني.

تراءى لي أول الأمر أن علي أن أواصل إصدارها. وأصدرت عدداً جديداً منها ثم توقفت عن إصدارها بعد أن فكرت في الأمر بصورة أهدأ

وتساءلت: لماذا إصدار نشرة باسم الطبقة العاملة العراقية؟ وإذا كان بالإمكان إصدار شيء ما فلماذا لا يكون باسم الحزب الشيوعي نفسه؟

لم يطل بي المقام في غرفة حمام المالح إذ حدث ما شتتنا. كنا جالسين جميعاً عندما ظهر شخص كهل طويل أسمر في بدلة مدنية ووقف في باب غرفتنا ليسأل:

ـ هل في هذا المبنى غرفة فارغة للإيجار؟

فوجئت بالشخص وبادلت معه النظر إذ كنا نعرف بعضنا منذ سنوات. وهو يدعى أحمد جيشانه ومن أهالي مدينتي. كان ضابط صف في الشرطة، واجتاز دورة ليصبح بعدها مفوض بوليس وليدخل بعدئذ ضمن ملاك الأمن العام في بغداد. وهو لم يكن على علم بأني مختف عن أنظار السلطة وموجود في بغداد لممارسة النشاط الحزبي. لكنه يعرفني شخصياً وحياني وسألني عما أفعل في العاصمة. وانسحب بعد أن أخبر أنه لا توجد غرفة فارغة. وأخبرت رفاقي الثلاثة بما عرفته عن الرجل وطلبت منهم ترك الغرفة كإجراء احتياطي ولغرض الصيانة. رفض هادي تصديق ما قلته وأصر على البقاء في الغرقة. وقال نوري:

ـ بائع الكبة مصطفى الموجود أمام الدار يعرفه شخصياً. وأنا ذاهب إليه لأسأله عنه ـ ذهب نوري فعلاً وعاد بعد قليل ليخبرنا:

ـ يقول مصطفى أن هذا الشخص مجرد قواد وليس شيئاً آخر.

زاد ذلك من حراجة موقفي ومن صعوبة إقناع الآخرين بما قلت. لكن بائع الكبة قد وصل الغرفة، وهو يلهث وكرشه يهتز، واتكأ بكلتا يديه على جانبي الباب ليعلن أمامنا:

ـ سألت الجار، الذي يعرف جيداً هذا الشخص. فقال إنه مفوض في الأمن العام. إذا كنتم شيوعيين فاتركوا الدار فوراً، قبل أن يداهموكم ويلقوا القبض عليكم.

«إذن فإن مصطفى يدخل ضمن قوانا الاحتياطية» ـ فكرت مع نفسي. واقتنع الجميع بترك الغرفة. أخذني هادي إلى غرفة صغيرة في

دار ذات طابقين بحي عقد النصارى. وأخرج من جيبه مفتاحاً فتح به الباب وجلسنا سوية في المساء رجع ساكن الغرفة، الذي دعاه صاحبي بـ (عثمان). وكان شاباً دون العشرين من عمره متوسط القامة وجميل الطلعة. علمت في وقت لاحق أنه طالب يهودي شيوعي صدر أمر القبض عليه فترك منزل أبيه واستأجر هذه الغرفة على حسابه. واسمه الحقيقي (سعيد خلا صبيحي). وقد اعترف عليه هادي وسلمه إلى الشرطة في الشهر الثامن. وقيل أن سعيد انهار هو الآخر. ولم أعرف عنه شيئاً بعدئذ.

لم أستمتع بأي استقرار في غرفة عثمان أيضاً. بعد يومين أو ثلاثة، وفيما كنت وحيداً في الغرفة ومشرفاً على باب الدار الخارجي، رأيت مفرزة من الشرطة تقتحم المبنى. تصدى لها صاحب الدار المسيحي، الذي كان يسكن إحدى غرف الطابق الأرض، وصرخ في وجه ضابط البوليس:

ـ بأي حق تدخلون داري بهذه الصورة؟ أين ترخيص الحاكم بالتفتيش وأين المختار، الذي يفترض أن يكون معكم أثناء التفتيش؟

أسرع أحد رجال الشرطة في الصعود إلى سطح المبنى ماراً أمام باب غرفتي ونزل بعد أن وجده فارغاً. وفي باحة الدار الشرقية احتدمت المشاحنة الكلامية بين صاحبها وبين الضابط. وانتهزت من جانبي الفرصة،بعد نزول الشرطي مباشرة، فصعدت السطح وانتقلت من هناك إلى سطح آخر ونزلت عبر عمود الكهرباء إلى زقاق خلفي. اعتبرت ذلك كسباً كبيراً إذْ أفلت من قبضة الشرطة التي أتت ـ حسب تصوري ـ لكبس الدار وللقبض علينا. وذهبت لأفتش عن هادي وسعيد، اللذين كانا مولعين بالجلوس في المقاهي، ولأحذرهما من العودة إلى الدار. عثرت أولاً على هادي. وعثرنا بالتعاون معه على سعيد أيضاً. أفلتنا من الخطر الداهم ولكننا ظللنا بلا مسكن. وكنت شخصياً عاجزاً عن عمل شيء لتدبير أمري. كان علي أن أنتظر ما يفعله هادي.

في مساء نفس اليوم أخذني هادي، بمعاونة سعيد، إلى بيت عامل شيوعي (لا أذكر اسمه) لأعيش عنده بعض الأيام ريثما نجد حلاً أفضل للمشكلة. كان هذا العامل يهودياً وشيوعياً متحمساً، إنساناً بسيطاً ساكناً مع أمه العجوز الحركة الثرثارة في غرفة تشكل واحدة من اثنتين وثلاثين غرفة سميت (خانا) وسكنتها ٣٢ عائلة يهودية كادحة. كان وسط ساحة الخان المليئة بالقاذورات حنفية ماء مشتركة يأخذ الجميع منها الماء للشرب والطبخ والغسل. وكانت ملكية الخان تعود إلى أحد أثرياء اليهود، الذي لم يكن يسمح بتأجيل دفع الإيجار إليه ولا ليوم واحد من أي عائلة يهودية.

بقيت ٣ ـ ٤ أيام في بيت هذا العامل الشيوعي المتحمس. وأحسست خلالها بضيق. كان هذا هو المكان الثالث، الذي أقيم فيه خلال أيام من وجودي في بغداد. نشأت لدي فكرة أن علي أن أعتمد على نفسي في حل مشكلة السكن لكي أوفر لنفسي قدراً أكبر من الأمان ووضعاً أفضل لمواصلة مهماتي الحزبية.

سافرت مضطراً إلى مدينة بعقوبة كي أقضي بعض الأيام هناك، حيث لا يعرفني أحد. أقمت هناك في فندق بسيط مدعياً أني قادم لأداء الشهادة أمام المحكمة. وبعد أربعة أيام سافرت إلى خانقين كزيارة وتجارة معاً، أي لقضاء بعض الأيام، من جهة، وللاتصال بمنظمتنا الحزبية والاطلاع على وضعها، من جهة أخرى. قدمت رسالة مغلقة، كتبتها بنفسي، إلى الخياط الشيوعي علاء الدين محمود ـ إن لم تخني الذاكرة ـ الذي كان صاحب حانوت اتخذ منه عنوان الاتصال. وفي انتظار الجواب ذهبت أسأل عن المقهى المفتوح في شهر رمضان لآكل وأشرب فيه. وبعد ربع ساعة حضر أمامي شرطيان وطلبا مني مرافقتهما إلى مركز البوليس. تصورت أن هناك من عرفني ووشى بي. ولكن ليس من المعقول في حالة كهذه إرسال شرطيين فقط. عبثاً حاولت إرشاءهما. قال أحدهما رداً علي:

ـ أخبر عنك شرطي سري ولهذا لا نجرأ على إخلاء سبيلك لقاء

الفلوس. إذا كنت إيرانياً فسوف لن يسجنوك بل يكتفون بإرسالك إلى ما وراء الحدود وتعود هناك إلى بيتك.

ـ وإذا لم أكن إيرانياً؟

ـ يطلبون منك هويتك ويطلقون سراحك.

ـ ولكني لا أملك معي هنا الهوية.

ـ إذن عليك الإتيان بكفيل.

إن حديث الشرطي أعاد إليّ الهدوء إذ علمت أن التهمة الموجهة إلي هي كوني إيرانياً ودخلت العراق بصورة غير مشروعة. إذن ليست هناك وشاية سياسية ولم يعرفوا شيئاً عن صفتي السياسية. وفي غرفة مأمور المركز المفوض تأكد لي لا سبب لاستدعائي سوى ذلك. قال المفوض:

ـ أنت إيراني؟

ـ كلا لست إيرانياً.. أنا عراقي.

ـ هاتني هويتك لتثبت أنك عراقي.

ـ إني من السليمانية، وعندنا لا يطلبون الهوية من أحد. واشتغل في كركوك وهناك أيضاً لا يطلبون الهوية من أحد.. ولهذا لم أحمل الهوية.

ـ إذا كنت تشتغل في كركوك فلماذا قدمت إلى هنا؟

ـ لأبحث عن عمل أفضل في شركة النفط هنا.

ـ هات من يتكفلك وعندئذ نخلي سبيلك.

أعطيت اسم الشاب عبد القادر ملا أحمد، الذي كنت أعرفه منذ الطفولة، في السليمانية. وكانت المشكلة هي كيف يعرف هذا الشاب أنني أعطيت اسم (غفور محمد) بدلاً من اسمي الحقيقي. وعندما وصل إليّ بصحبة أحد رجال الشرطة أعلن أنه لا يعرفني. وبذلك أصبحت في موقف حرج. سألته بهمس:

ـ كيف ذلك يا قادر؟ أنا محجوز بتهمة كوني إيرانياً وأحتاج فقط إلى من يقول أنني عراقي وحسب.

ـ أنا أخاف ـ أجاب قادر. وأغلب الظن أنه لم يعرف أول الأمر سبب احتجازي وكان يعرف أني شيوعي ومختلف.

ـ إذن أريد منك إيصال الخبر إلى قريبي الشيخ علي القره داغي في سوق الأقمشة لعله يأتي ويتكفلني. قل له أن قريبك غفور محمد ـ لا تنسى غفور محمد ـ محجوز ويحتاج إلى كفيل ليطلق سراحه.

تركني ووعد بإيصال الخبر إلى قريبي. بعد عشرين دقيقة وصل الأخير وهتف من بعيد:

ـ أهلاً بقريبي غفور محمد. لماذا حجزوك ولماذا لم ترسل إليه الخبر فوراً؟

أخذوني برفقته إلى ضابط البوليس الخفر. قدم لنا الشاي في غرفته، واعتذر الضابط لقريبي وودعنا إلى باب مكتبه. قضيت تلك الليلة في منزل الشيخ علي دون أن أبوح له بمهمتي الحقيقية. وزارني مساءاً قادر ووالده مفتي خانقين وتناولا معنا العشاء، الذي كان أفخم ما أكلته منذ أكثر من سنة.

وعندما عرف الرفاق، الذين أرسلت لهم الرسالة عن طريق الخياط، بحادث القبض علي حاولوا التقاطي داخل الحدود الإيرانية، إثر نقلي المتوقع إلى هناك، على أنني رجعت صبيحة اليوم التالي إلى بغداد دون أن أحاول الاتصال بأحد من خانقين.

عند العودة إلى العاصمة كانت مشكلتي الملحة هي مشكلة السكن. قررت أن أعتمد على نفسي وأبحث عن غرفة للإيجار. وسرعان ما حصلت عليها في الحيدر خانه لقاء نصف دينار شهرياً، في دار تحتوي على ١٦ غرفة مؤجرة كلها لأمثال أو لأشباه عوائل. كان صاحب الدار السيد الأعرج ذو العمامة الخضراء يسكن داراً ملاصقة. وكانت الغرفة،

التي حصلت عليها، فوق مدخل البناء ومجاوراً لدار السيد، بل لها باب مغلقة تربطها بإحدى غرف السيد. وكانت أثاثي عبارة عن لحاف عتيق ممزق قيل أنه من تركة حميد عثمان مع حقيبة صغيرة مكسرة ومشربة ماء وكأس ألمنيوم لشرب الماء. ولا شيء سوى ذلك.

في البدء كان هادي الشخص الوحيد الذي عرّفته ليتردد علي أحياناً. وفي وقت لاحق أمكن لي استقبال مجيد عبد الرزاق، الذي كان قد صدر أمر القبض عليه في السليمانية ولم يعد من المناسب بقاءه هناك، وكنت من جانبي في حاجة إليه. كان شاباً موثوقاً ومفيداً لي كمراسل للاتصال ببعض الرفاق.

قبل استئجار هذه الغرفة كان يتعذر علي قراءة الرسائل الحزبية وكتابة الردود عليها بسبب انعدام مكان أجلس فيه بصورة آمنة واعتيادية. ووجدت نفسي أكثر من مرة مضطراً على قراءة الرسائل وحتى الإجابة عليها في أحد مراحيض الجامع باعتباره مكاناً أميناً. لكن استئجار الغرفة وفر لي المكان الآمن. على أن مشكلة أخرى واجهتني، وأنا في غرفتي الجديدة.

كيف وأين أقضي ساعات النهار يومياً؟ فالبقاء في غرفتي طيلة النهار يشير التساؤل والشبهات، خاصة من قبل صاحب الدار السيد. والخروج إلى الشوارع والمقاهي لساعات طويلة ـ كما كان يفعل هادي وأمثاله ـ أمر محفوف بالمخاطر. ما الحل إذن؟ وجدت الحل في استئجار غرفة ثانية. فتصبح تحت تصرفي غرفتان أقيم نهاراً في إحداهما مدعياً أني أشتغل في الليل وأقيم ليلاً في الأخرى مدعياً أنني أشتغل في النهار. وقد حصلت على الغرفة الثانية في دار رجل فيلي مؤلفة من ست غرف تسكنها ست عوائل ـ أنا بضمنها ـ مدعياً أني بانتظار أختي وأطفالها. وكنت في الواقع أنتظر عائلة عامل النفط الشيوعي المطارد رؤوف محمد لتأتي إلينا من كركوك ولنشكل أول وكر شيوعي فيه عائلة ببغداد.

كانت صلاتي الحزبية تتسع وتنتظم أكثر فأكثر سواء عن طريق

المراسلة أم عن طريق اللقاءات المباشرة مع البعض. وكان لدينا شيوعيون نشطون وهبوا جل طاقاتهم للعمل الحزبي، أمثال طالب الكلية الطبية طارق الأمين الذي كانت رسائلي إليه ورسائله إلي تذيل برقم ٩٩٩، وابن إحدى العوائل الأرستقراطية الطالب ثامر الجيجي، وطالب كلية الحقوق جورج حبيب... وفي حي الكاظمية، الذي كان يعرف في العاصمة باسم الحي الأحمر، كان أنشط رفاقنا عامل النسيج جاسم يحيى والطالب المفصول محمد راضي شبر. وفي السكك الحديدية برز الشيوعي الياس بطاح، الذي كان موظفاً صغيراً. وبرز كذلك الموظف الصغير (سامي جرجيس) والعامل النشط أمين.

وتمكنا من إقامة الصلات مع منظمات السجون الشيوعية. وأعدنا الصلات مع منظمات كانت مقطوعة في بعض المحافظات كالبصرة والحلة وكركوك وأربيل وخانقين وغيرها. وأصبح ما يرد من الاشتراكات والتبرعات الشهرية كافياً لتغطية نفقاتنا المتواضعة.

منذ الأيام الأولى من وصولي إلى بغداد تعرفت على الشيوعي اليهودي الشاب يعقوب قوجمان، الذي كان مطارداً ومختفياً. وجدته مندفعاً وساعدنا على إعادة الصلات مع بعض المقطوعين. وكان يحمل على الدوام حقيبة صغيرة مليئة بمسحوق التبغ. والغرض من ذلك ـ كما أوضح ـ هو أن يقذف هذا المسحوق في وجوه وعيون الجواسيس، في حالة مداهمتهم له، لكي يتمكن من الإفلات. وكان يهيء للسفر. وقد غادر العراق عن طريق خانقين ـ على ما أتذكر ـ في صيف ١٩٤٩. وبعد أعوام سمعت أنه أصبح أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي. وفي وقت لاحق سمعت أنه ترك إسرائيل والحزب الشيوعي الإسرائيلي وسافر ليقيم في بريطانيا.

حين استلمت المسؤولية الحزبية في بغداد كان هادي سعيد يعتبر نفسه ـ كما استنتجت لاحقاً ـ العضو الثاني في المركز القيادي. إلا أنني لم أجد فيه ما يؤهله لعضوية القيادة ولم أعتبره شريكاً لي في المركز

القيادي. وكان ذلك سبباً لإثارة الخلافات والأحقاد لديه تجاهي. ولما كان عاجزاً عن عمل شيء تنظيمياً ضدي فإنه قرر الإسراع في التوجه إلى البصرة بأمل جلب سكرتير منظمتها زكي وطبان والاستفادة منه في تحقيق غرضه بالوصول إلى المركز القيادي. وكنت بدوري راغباً في استقدام زكي إلى بغداد بهدف أن يكون العضو الثاني في المركز القيادي، الذي كنت وحدي أشكله في تلك الأيام.

❀ ❀ ❀

سبقني مجيد عبد الرزاق ذات صباح في العودة إلى غرفتنا في الحيدر خانه. وعندما وصلت وجدته واقفاً أمام باب الغرفة من الخارج، فيما كان صراخ السيد الأعرج متصاعداً داخلها. فتحت الباب فوجدت إلى جانب الرجل زوجته وولديه وابنته صامتين مندهشين. وهو نفسه في وضع عصبي حاد بسبب اكتشافه تلك الليلة لإرخاء المسامير التي كان قد ثبت بها الباب المغلق بين غرفتي وبين إحدى غرف بيته. وأعترف بأني كنت قد أرخيت المسامير فعلاً بهدف التسلل من هذا الباب إلى منزله والهروب من هناك في حالة مداهمة الشرطة لغرفتي. ويبدو أن صاحب الدار خشي، عند اكتشافه لهذه الحقيقة، من أن أكون سيء النية وأستهدف سرقة بيته. وحين فتش غرفتي، في غيابي بالطبع، لم يجد ما يشير إلى أني من اللصوص. ولكنه عثر على نشرات شيوعية فعرف من ذلك أننا شيوعيون وأصيب بالذعر من احتمال مداهمة الشرطة لنا. قال لي:

ـ أنتم تريدون تخريب بيتي.

ـ لن يخرب بيتكم إن شاء الله يا عم.

ـ وإذا أتت عليكم الشرطة؟

عبثاً حاولت تهدأته. استعنت بابنه الشاب ليهدأه، فأجاب:

ـ نحن أيضاً من الجماعة ولكن الأهل لا يقبلون.

أخيراً تمت التسوية على الوجه التالي: ندفع إيجار الأيام الماضية (وهو ربع دينار) ونغادر الدار فوراً. فحملنا اللحاف العتيق وخرجنا. كنت قد ابتعدت أكثر من مئة متر حين سمعت صوتاً نسائياً يناديني من الخلف:

ـ علي! علي! قف قليلاً!

وقفت وجاءت ابنة السيد الشابة مهرولة نحوي وأخرجت من تحت عباءتها كليشة «الصراع» التي كنا قد نسيناها في الغرفة، ودستها في يدي قائلة:

ـ انتبهوا إلى ممتلكاتكم ولا تضيعوها.

ـ شكراً جزيلاً يا أختي.

هكذا خسرنا غرفة الحيدر خانه ولكني لم أتحرج كثيراً لأن غرفة باب الشيخ ظلت بخير وأمان.

❀ ❀ ❀

عممت توجيهاً إلى رفاق منظمة العاصمة بخصوص حاجتنا الماسة إلى أدوات الطباعة وأخبارنا عن أي إمكانية متوفرة للحصول عليها. فوردت رسالة من الشيوعي النشط سامي جرجيس يذكر فيها أن بإمكانه سرقة جهاز للرونيو من إحدى المؤسسات الاستعمارية. وهو بحاجة إلى شخص آخر يساعده في التنفيذ. وبعد يومين أتى سامي والعامل الشيوعي النشيط أمين برونيو جستتنر جيد. وبقي أن ندبر الآلة الكاتبة. وجاءت رسالة من ثامر الجيبجي ينبؤنا فيها بأن لديه رفيقاً يعمل في إحدى الدوائر الحكومية وهو مستعد لطبع ما نريده في ساعات ما بعد الدوام الرسمي. ولم يكن بمستطاعنا آنئذ تأسيس بيت خاص للطباعة. فأخذت الرونيو إلى غرفتي في باب الشيخ. وكانت العائلة المنتظرة قد وصلت قبلئذ وسكنت معي في نفس الدار، وهي أم نضال وطفلتاها الصغيرتان. كما كان زكي وطبان قد وصل هو الآخر بصحبة هادي سعيد وأسكنته معي

مؤقتاً باعتباره عضواً في المركز القيادي للحزب.

بعد توفر الرونيو كان يجب إصدار بعض المنشورات لرفع المعنويات بين رفاقنا. لكن تشغيل الرونيو في غرفتنا الوحيدة المجاورة لخمس غرف أخرى تسكنها عوائل في مبنى شرقي صغير لم يكن بالأمر السهل، خاصة وأننا ملزمون بمراعاة قواعد العمل السري الصارمة، مما يستوجب ألاَّ يرى الآخرون ولا يسمعوا شيئاً. فما العمل؟ عزلنا قسماً من الغرفة بصندوق خشبي وضعت فوقه الأفرشة الموجودة ووضعنا هناك الرونيو خلف السياج الاصطناعي. وشغلنا أمام باب غرفتنا بريمزاً كبيراً من النوع الذي يضخ فيه الهواء ويطلق دوي كدوي محرك شاحنة عتيقة. أشعلته أم نضال ووضعت فوقه قدراً كبيراً من الماء ووقفت بجانبه لكي لا يدخل أحد من الجيران غرفتنا. وكنا، أنا وزكي وطبان، جالسين عند الرونيو، الذي نتعامل معه لأول مرة في حياتنا، كي نطبع المنشور الأول. كان منشوراً داخلياً مكرساً لتحية المناضلين الصامدين أمام جلادي الأمن العام في المواقف والسجون. كانت تجربتنا الأولى، وكانت ناجحة على أي حال، رغم أن الطباعة لم تكن نظيفة. وأولينا انتباهاً أكبر نحو طبع المنشور الثاني، الذي عنوناه (بيان الحزب الشيوعي العراقي حول الوضع السياسي الراهن). قررنا تهيئة تنظيماتنا مسبقاً لتوزيعه بنطاق واسع. وعممنا توجيهات حول كيفية التوزيع مع اتخاذ التدابير الأمنية من قبل الرفاق تجاه رد الفعل العنيف المتوقع لدى الأجهزة القمعية. وحددنا يوم ١٩٤٩/٨/٢٤ موعداً للتوزيع.

لم يلتزم هادي سعيد بالتوجيهات حول توزيع البيان ـ ربما بسبب موتوريته وتذمره. فذهب كعادته ليجلس في مقهى بسوق حنون، فيما جن جنون الأمن العام ونشر مفارزه في شتّى أنحاء العاصمة إثر توزيع المنشور. وكان هادي الصيد السهل لتلك المفارز. وقيل أنه انهار فور القبض عليه وأبدى استعداده للتعاون معهم. وقد اعترف لهم بجميع الأسرار التي كان يعرفها وسبب إلقاء القبض على كل من عرفه من رفاقه

وأمكن له تسليمه. كان نوري وعثمان أول من سلمهم في بغداد. وبالتعاون مع مفرزة من البوليس السري سافر إلى الحلة واصطاد سكرتير منظمتها الحزبية. وسلم وريا رواندزى في أربيل وقادر شيخ طه في السليمانية وغيرهما. وكان مصمماً على بذل الجهود لاصطيادنا، أنا وزكي ورؤوف زوج أم نضال، الذي وصلنا قبل أيام قليلة. وقد أرشد البوليس لكبس الغرفة التي كنت قد تركتها في الحيدر خانه ولم يحصلوا على ما يفيدهم من المعلومات. ولم أسمح له بالتعرف على غرفتي الثانية في باب الشيخ، بسبب عدم ثقتي به. إلا أنه كان قد حاول، كما إتضّح لاحقاً، تتبعنا بهدف معرفة بيتنا. وعلم بأننا نسكن حي باب الشيخ أو ما قاربه. وكتدبير صياني بقينا، أنا وزكي ورؤوف، في البيت طيلة ساعات النهار ولأسبوع كامل. كنا نخرج لأداء مهامنا الحزبية في ساعات الظلام.

في عصر ١٩٤٩/٩/٢، بعد أسبوع من اعتقال هادي، خرجنا من البيت لنبحث عن بيت جديد لنا في حي آخر، لكي نبتعد عن مصدر الخطر. وبسبب من حماقتنا خرجنا نحن الثلاثة سوية، دون أن يكون موجب لهذا الخروج الجماعي. كل ما فعلناه هو أنني أوصيت رؤوف بأن يسير وراءنا مسافة ٥٠ ـ ٦٠ متراً لكي ينجو بنفسه في حالة تعرضنا لخطر ما. وحين خرجنا من الزقاق إلى شارع الشيخ عمر بهدف العبور من جهة إلى أخرى، وقبل أن نطأ الشارع المزفت وجدت نفسي وقد أمسك بذراعيّ رجلاً من الخلف، أحدهما رفيق چالاك. وعلى بعد أمتار كان يقف هادي سعيد مصفر الوجه مرتبكاً. كان واضحاً أنه دليل هذه المفرزة من رجال الأمن العام، في الكمين الذي نصبته لنا. بصقت من بعيد في وجهه دون أن أكلمه بشيء. واحتقرته أشد ما يكون الاحتقار. ووجدت زكي وقد أمسك به اثنان، تماماً كما حدث لي. وعندما طلبت فك يدي وتوضيح السبب لما يجري خاطب چالاك واحداً من زملائه في المفرزة:

ـ ضع القيود في يديه.. اقتله. اقتله.

جمعت كل قواي وحررت يدي من الرجلين اللذين أمسكا بي

وخضت معركة غير متكافئة كتلك التي تشاهد في بعض الأفلام. عبثاً حاول الجواسيس السيطرة عليّ خلال المعركة القصيرة، التي كانت أدواتها الأيدي والأرجل. كنت أوجه ضربة قاضية إلى كل من يعترضني ويحاول أسري. وكان چالاك آخر من لويت رقبته وأسقطته أرضاً بحركة خاطفة. فتألم وأخذ يشتمني، للمرة الأولى، باللغة الكردية. وعندما أطلقت ساقي للريح وفسح المتفرجون، الذين لم يتدخلوا في المعركة، المجال أمامي كي أركض لجأ رجال المفرزة إلى مسدساتهم وأظن أنهم أفرغوا مخازنها. من المؤكد أنهم أطلقوا الرصاص بقصد القتل ولكن الحظ لم يحالفهم. وخلال ثوان بعدت المسافة بيني وبينهم. لم يكن بإمكانهم أبداً اللحاق بي، وهم يركضون ورائي. كنت أقوى منهم بكثير في الركض. وقد تجنبت الركض في الشوارع، وكنت أعرف الدروب والأزقة بصورة جيدة. ركضت حتى ساحة السباع، وكأني أخوض في السباق مع العدائين. في البدء كانوا يركضون ورائي ويصيحون:

ـ الزمه شيوعي! الزمه يهودي! الزمه صهيوني!

في رأس الزقاق القريب منهم كان يقف شاب بغدادي أسمر يلبس دشداشة ويشماغ. وهو يسمع نداءاتهم أو أوامرهم الداعية إلى القبض عليه. فأجابهم سمعته جيداً «كلوا....» وشجعني على الركض قائلاً «اركض حيل خلص روحك».

تلفت وراءا في ساحة السباع فلم أجد أثراً للملاحقين. كنت أحس بتعب شديد ودخلت منزلاً لمجرد أن بابه كان مفتوحاً. وجدت في الممر نساءاً شعبيات جلسن حول رجل شبه أشقر، وهن يضحكن. سألت عما إذا كان لي أن أبقى عندهم بعض الوقت. فأشار علي الرجل بالصعود إلى سطح المبنى. وصعدت ورائي إحدى النساء حاملة إلي كأس الماء. وسألتني، وهي تقدمه:

ـ ماذا حدث لك يا ولدي؟

ـ طاردني الانضباط العسكري، أنا جندي فرار.

لماذا هربت من الجيش؟

ـ عليّ أن أعيل أمي وأختي.. لا معيل لهما غيري.

ـ عمت عيني يمه. ابني هم چان فرار ولزموه.. الله كريم.

بعد بضع دقائق، وأنا لا زلت جالساً في مكاني، ارتفع وراء سياج السطح المجاور رأسان وقال أحدهما:

ـ لا تخف، نحن نراقب من هنا. إذا أتوا للقبض عليك فإننا سنأخذك عبر السطوح بعيداً.

ـ وماذا تعرفان عني؟ ـ سألتهما.

ـ أمي أخبرتنا بكل شيء.. الدربونة كلها تعرف.

عزلة النظام الحاكم واضحة وضوح الشمس. فالناس هنا احتضنوني وتحول البعض منهم إلى حراس لي، رغم أن أحداً لم يعرفني وأنهم اعتبروني مجرد جندي فرار وملاحق من قبل النظام. وبعد قليل عادت إلي العجوز بآنية مليئة بالرقي. ثم صعدت أربع عوائل إلى السطح نفسه، وتنافسن في دعوتي لتناول العشاء والشاي.

عدت إلى غرفتي تحت جنح الظلام ولم أجد أحداً من زميليّ، لا زكي ولا رؤوف. أسرعت في حرق بعض الأوراق لكي لا تقع في أيدي رجال الشرطة في حالة مداهمة البيت الفورية. وأخذت أم نضال وبناتها الثلاث، ولم يتجاوز عمر الثالثة منهن يومين أو ثلاثة، لنبتعد عن الخطر. تركت الرونيو العزيز علي في الغرفة. ليس لدي مكان محدد لأتوجه إليه. وليس من السهل تدبير الوضع. توجهنا إلى ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي كان مأوى طبيعياً للدراويش والفقراء. كنت آمل أن أجد فيه مأوى لنا أيضاً ولو لتلك الليلة فقط. غير أن أحد سدنة الضريح طردنا قائلاً:

ـ لا مكان للنساء والأطفال هنا.. لا يسمح لكم بالمبيت.

إذن كان الشيخ هو الآخر متحيزاً إلى جانب الرجال ضد النساء. ولا مفر من مغادرة الضريح. فذهبنا إلى خان (الصدرية) القريب، الذي كان مأوى للفلاحين القادمين مع حميرهم، لبيع الخضروات والفواكه في العاصمة، حين يضطرون على البقاء ليلاً. استأجرنا غرفة مفروشة بحصران البواري لقاء عشرين فلساً لليلة واحدة. لم يكف المولود الجديد عن البكاء طيلة الليل ولم تنم أمها أبداً، كانت ليلة صعبة. في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذنا سيارة أجرة وتوجهنا إلى الكرادة الشرقية بأمل أن يساعدنا جورج حبيب على إيجاد حل لمشكلتنا ولو مؤقتاً. إلا أن جورج اعتذر عن استقبالنا قبل الساعة التاسعة ـ أي قبل خروج والده من البيت إلى محل بيع المشروبات الذي كان يملكه. واضطررنا إلى الجلوس في شارع فرعي هناك. وظهر صدفة العامل الشيوعي صبري سباهي، وهو راكب دراجته ويوزع الثلج لصاحب حانوت لقاء مئتي فلس يومياً. وكنت قد تعرفت على صبري قبلئذ وسلمته رسالة ليرسلها مع والدته إلى السجناء الشيوعيين في سجن نقره سلمان. أتانا فور مشاهدته لنا وأخذنا من دون تردد، حين اطلاعه على وضعنا، إلى الكوخ الذي كان يعيش فيه مع أمه وأخويه الصغيرين صبيح وعبد الله في حي الزوية بالكرادة الشرقية. وهكذا وجدت حلاً لمشكلة السكن والفضل لهذا العامل الشيوعي.

قبل أن أعرف شيئاً عن مصير رفيقي زكي ورؤوف أرسلت صبري وأم نضال، وفق تدبير مدروس، لأخذ الرونيو وأثاث البيت بطريقة أمينة من غرفتنا في باب الشيخ. وعندما دوهمت هذه الغرفة في وقت لاحق، جراء اعتراف كلا الرجلين، كانت فارغة تماماً. واعتقل مالك الدار الكردي الفيلي المدعو (باشا) وعذب لأسابيع دون أن يكون له ذنب، ودون أن يستطيع تقديم أي معلومة إلى البوليس السري. وعلمت فيما بعد أن زكي كان قد حاول الهرب بدوره، حين كان معظم رجال المفرزة

منصرفين إلى ملاحقتي. وتمكن من الإفلات ولكنه أصيب بطلق ناري في ساقه ووقع جريحاً. وانهار بعدئذ وسلم الأسرار التي عرفها كما سلم مسؤول منظمة البصرة يحيى صالح. وبالنسبة إلى رؤوف فإنه اعتقل بسبب ارتباكه وحماقته حسب. وصمد أربعة أيام، مما منحنا الفرصة لنقل الأثاث، وأرشدهم إلى البيت بعدئذ.

حصل صبري سباهي، بناءاً على طلبي، على مبنى طيني صغير قرب بيته لكي نستأجره. وانتقلنا إليه لقاء دينارين شهرياً. وبعد قضاء ليلة واحدة فيه فوجئنا بصاحبة الدار وهي أتتنا لتصرخ وترعد وتطلب منا تركها فوراً. أجبتها بهدوء:

ـ اذهبي إلى البيت وارسلي إلينا زوجك لنتفاهم معه.

فذهبت وجاء الزوج وأصر على نفس الشيء دون تبيان أي سبب. وأعاد إلى بدل الإيجار المدفوع مقدماً عن شهر واحد. واضطررت إلى الذهاب للبحث عن دار أخرى ووجدتها بجانب مستشفى العزل (حالياً مستشفى الكرامة) بجانب الكرخ في نفس اليوم. وأتيت بباص خشبي صغير لنقل الأثاث. ووجدت صاحب الدار، الذي طردنا، موجوداً ويتوسل إليّ بأن أبقى في البيت. لم أستجب لطلبه. واتضح لاحقاً أنه حسبنا أول الأمر يهوداً فقرر طردنا. ثم عرف أننا أكراد فندم من فعلته وطلب منا البقاء.

في مبنى الكرخ كان لنا جار أعمى يعتاش على قراءة القرآن في مجالس الفاتحة أو المقابر.. الخ. وكانت له بنتان شابتان. نشأت بينهما وبين أم نضال علاقات الجيرة وتبادل الزيارات. وظهر أن إحدى الفتاتين أحبتني أو طمعت في الزواج مني، دون أن يكون لي علم بأمرها أو رغبة في الزواج منها. وفوجئت بأن فاتحتني أم نضال برغبة أم الفتاة في أن تزوجني ابنتها. وتملصت من الموضوع مدعياً أني خطبت إحدى قريباتي. وقد أصبحت من تلك اللحظة مكروهاً من تلك الأم.

٥

نقل مقر القيادة إلى كركوك

بعد أيام من حادث الاصطدام بمفرزة الأمن العام، جراء انهيار هادي سعيد، تبلورت لديّ فكرة جديدة، وكنت قد بقيت من جديد وحيداً في المركز القيادي بعد أن اعتقل زكي وطبان: الانسحاب من العاصمة ونقل المركز القيادي مؤقتاً إلى مدينة أخرى آخذاً بنظر الاعتبار أن العدو يركز على بغداد في البحث عني وأنه حصل على معلومات وافرة جراء اعتراف هادي وزكي ورؤوف. ووجدت أن كركوك هي الأفضل. فانتقلت إليها وأخذت معي بلال، الذي كان قد أفلت من يدي هادي سعيد في بغداد. لكن بلال ضاع عني في كركوك. واختفت معه حقيبة ملابسي، بضمنها صايتي «التاريخية» التي كنت ألبسها أثناء بعض السفرات لغرض التنكر. لم أعرف منذ ذلك الحين ولقرابة عامين شيئاً عن هذا الشخص فحسبته في عداد المفقودين.

عند مغادرة بغداد خلفت ورائي الرونيو. ثم جلبها صبري سباهي مفككة إليّ في كركوك. ولم نعرف إعادة تركيبها فخسرناها تقريباً.

انتقل معي إلى كركوك كل من محمد راضي شبر ومجيد عبد الرزاق. فيما أسندت مسؤولية العمل الحزبي في بغداد إلى الياس بطاح الذي كان موظفاً صغيراً في السكك. ورتبت معه صلات أسبوعية

واخترت صبري سباهي، الذي كنت أثق به، مراسلاً حزبياً بيني وبين العاصمة.

في كركوك أقمت أول الأمر في كوخ عامل النفط الشيوعي أحمد، الذي كان يواصل عمله في الشركة.. وقد وضع بيته وراتبه ونفسه في خدمة الحزب. وكان يملك كوخاً قرب ساحة كاورباغي. وكان عامل النفط الآخر نجم ينفق هو الآخر معظم راتبه الشهري علينا وعلى عائلة السجين الشيوعي كريم أحمد الداوود. وتركت كوخ أحمد بعد فترة واستأجرت داراً صغيرة بحي الإمام عباس وسكنتها مع عائلة كريم أحمد.

كنت أحس بقدر من السرور والانشراح عندما كنت أقف في مدخل شركة النفط لأتفرج على عمال النفط، وهم ينزلون من القطار ويتدافعون على بعضهم مسرعين، هذا إلى دراجته الهوائية وذاك إلى الباص الخشبي العتيق الموجود هناك، ليعودوا إلى بيوتهم وأكواخهم، وهم متسخون ومدهنون، ويتكلمون بلغات متعددة، كردية وتركية وعربية وآشورية وأرمنية. وبالقرب من نقطة تفرق هؤلاء العمال كان يقوم حي أوروبي راق مؤلف من الفيلات والقصور المحاطة بحدائق رائعة، يسكنها المهندسون والموظفون الأجانب القادمون لاستغلال نفطنا وعمالنا وللعيش على حسابنا في هذه البحبوحة. كانت هذه لوحة حية تجسد الاضطهاد الوطني والاستغلال الطبقي معاً.

وبعكس ما وجدته في بغداد من حيوية الشباب والحماس الثوري والتفاف جماهير غفيرة حول ح ش ع، فإني وجدت الوضع في كركوك على شاكلة مغايرة: السلبية والانكماش وانعدام أي اندفاع نحو النضال الثوري، هنا، في كركوك، حيث تحشد البروليتاريا الصناعية الحديثة. لم ألمس ذلك الاندفاع الثوري الذي لمسته في السليمانية، حيث لم يكن أي تحشد عمالي. في مدن من قبيل النجف وكربلاء والكاظمية، التي كانت مراكز دينية للشيعة، نافس ح ش ع بنجاح القوى الدينية والرجعية.

لكن نفوذنا في مدينة كركوك العمالية لم يكن شيئاً يذكر بين الجماهير التركمانية خاصة، بالمقارنة مع نفوذ الرجعية التركمانية. لماذا ذلك؟ بماذا تفسر هذه الظاهرة؟ هل هي من صنع الإنكليز أم هي نتيجة أخطاء الشيوعيين أم غير ذلك؟

❀ ❀ ❀

في كانون أول ١٩٤٩، حين كنت أسكن مع حمدية وأختها، وقع لنا حادث طريف. فبينما كنت منصرفاً إلى قراءة بعض الرسائل الحزبية وكتابة الأجوبة عليها أتتني الصبية شكرية راكضة مرتبكة لتقول:

ـ داهمتنا الشرطة يا أخي!

انتبهت إلى الدقات العنيفة المتواصلة على باب الدار. فذهبت لأتوثق بنفسي من أنهم الشرطة فعلاً ثم عدت إلى الوراء ركضاً وحملت كيس القماش الصغير الحاوي على رسائلي الحزبية وصعدت إلى السطح. من هناك انتقلت عبر أسطح أخرى وتأتى علي خوض معركة عنيفة مع كلب كبير عضني من رجلي فوق أحد الأسطح وهويت عليه بضربة عصا عنيفة كنت قد حصلت عليها هناك. وحين نزلت إلى باحة إحدى الدور هاجمتني نساء تركمانيات وعضت إحداهن يدي وهن يصرخن «خيرخز! خيرخز! ـ معناه حرامي، حرامي». ووجدتني مضطراً على تسديد ضربة عصى لها أيضاً. وقد أسرعت في الوصول إلى محمد شبر فحذرته من الذهاب إلى البيت. وكنت أبحث عن مجيد عبد الرزاق لتحذيره هو الآخر. فلاحت شكرية من بعيد، وهي تبحث عني خارج البيت كي تخبرني بأن هؤلاء الشرطة لم يأتوا لكبس دارنا، إنما بسبب نزاع حدث بين عائلتين مجاورتين. وعلى أثر هذا الحادث اضطررت إلى استبادل الدار بأخرى في حي آخر.

بعد ذلك بحوالي الشهر وقع حادث جديد أشد خطورة. كنت وشبر قد عبرنا شارع كاور باغى في مجرى التمشي الاعتيادي. فرأينا

شرطياً سرياً كان قد لاحقنا قبل يومين وعدنا أدراجنا لنتجنبه. وأثناء العودة وسط الشارع وبمجرد الصدفة، التقينا بمفرزة من رجال الأمن العام القادمين من بغداد للبحث عن الشيوعيين في كركوك. كان بينهم الشيوعي السابق والمسخر لخدمة السلطة جاسم الطعان، الذي كان يعرف شبر بصورة جيدة. التقت نظرات الرجلين مع بعضهما وهمس محمد قائلاً:

- رفيق! هذا جاسم الطعان!

- واصل المسير دون أي اهتمام - أجبته.

- قف يا ولد - صاح الطعان، وهو على بعد أمتار منا.

كان جوابنا أن انطلقنا ركضاً بأسرع ما نستطيع. وكان شبر متوعك الصحة. مرتدياً معطفي العتيق البوليسي الذي كنت قد اشتريته قبل عامين في سوق الملابس المستعملة بالسليمانية. كنت أخف وأقدر على الركض. في الأمتار المئة الأولى قبضوا على شبر بعد أن انزلقت رجله. وتابعوا الركض ورائي، وهم يصرخون كعادتهم:

- الزمه شيوعي! الزمه صهيوني!

واستجاب لندائهم العشرات من رواد المقاهي الشعبية التركمان الموجودين قرب مستشفى العزل وهاجموني من الأمام. واضطررت على العودة وراءا عبر زقاق آخر ضيق، نحو ذات النقطة التي انطلقت منها، لاجتاز الشارع وأدخل بستان كاور باغي. نزعت عن رجلي، وأنا أركض، جزمتي ورميت كذلك سترتي. أطلقوا علي الرصاص بعد أن يئسوا من القبض علي. لكنني كنت قد ابتعدت عنهم. ركضت خارج المدينة، خوفاً من التركمان، وغير بعيد عنها لكي أعود إلى داخل البيوت في مكان آخر. عبرت نهر خاصة الفائض جراء سقوط الأمطار الغزيرة. وحين دخلت حي الشورجة المكون من مبان طينية كانت الشمس على وشك الغروب. وتأتّى علي البقاء في زاوية مظلمة عند

حوض الماء لأكثر من نصف ساعة بانتظار أن يحل الظلام وأذهب إلى حيث أريد دون أن أثير انتباه المارة إلى ملابسي المبللة ورجلي الحافتيين. بت ليلتي لدى صديق في القلعة. ووجدت هناك بالصدفة سعيدة أسعد بانيخيلاني فأرسلته صبيحة اليوم التالي لإخبار مجيد عبد الرزاق بما حدث لنا وإخلاء الكوخ المستأجر، الذي لم يبتعد أكثر من بضعة عشر متراً عن مكان لقاءنا مع المفرزة، ونقل العائلة والرونيو إلى مكان آخر.

في اليوم التالي، وفيما كنت أحاول تطويق الخطر، ذهب أسعد ـ ربما بدون مبرر ـ إلى بيت بهية شقيقة حمدية وداهمته المفرزة نفسها. فقبض عليه غنيمة باردة. وقد سأله أحدهم عند كبس البيت:

ـ ماذا تعمل هنا؟

ـ جئت لأشتري الزبيب.

ـ وهل هنا بقالية لبيع الزبيب؟

غدت خسارتنا كبيرة بفقد شبر وأسعد. كان شبر شاباً نشطاً عالي الجهادية وذكياً وحسن الأخلاق. وقد صمد الاثنان ولم تفلح الأجهزة القمعية في انتزاع أي اعتراف منهما. كانت الضربة عنيفة وسلمنا أنا ومجيد عبد الرزاق. فاستأجرت غرفة صغيرة في مبنى طيني بحي الشورجة الأشبه بقرية في ضاحية كركوك. كان هذا الحي يتكون من مبان طينية بناها كلها القرويون الأكراد الذين هجروا قراهم في سهل گرميان الخصب هرباً من ظلم الإقطاع أو من الفقر أو النزاعات العائلية العشائرية.

وبهدف الابتعاد عن كركوك حتى تخف حملة الملاحقة البوليسية قررنا السفر إلى مدينة السليمانية لبعض الأيام. غادرنا كركوك مشياً على الأقدام حتى ابتعدنا كيلومترات. ثم ركبنا باصاً خشبياً إلى مقهى تينال ـ بازيان. هناك جاءنا شرطي وأجرى شبه تحقيق معنا عما إذا لم نكن من

الجنود الهاربين. ولكنه لم يشدد كثيراً. على أثر ذلك قررنا متابعة السير إلى السليمانية مشياً على الأقدام خوفاً من أمثال هذا الشرطي اللعين، فيما كانت الشمس على وشك المغيب. بعد حوالي الساعة حل ظلام دامس مقروناً بمطر غزير والتجأنا مضطرين إلى بقايا غرفة أو خرابة كانت في وقت ما مقهى على الطريق ثم هجرت وتهدمت. بقينا طيلة الليل تحت المطر وبرد الشتاء القارس. وفي الصباح الباكر استأنفنا السير وفي الظهيرة دخلنا السليمانية مشياً، بعيداً عن الطريق المبلط الذي كانت السيارات تسير عبره. ذهبنا في البدء إلى أمام جامع دعي ملاحسن گرده زبيري، وهو من رجال الدين الشبان ومن أصدقاء ح ش ع. في اليوم التالي ذهبت إلى بيت أختي والتقيت هناك مع والدي ووالدتي. وبذل أبي وخالي جهوداً كبيرة لإقناعي بالبقاء في المدينة أو السفر إلى إحدى القرى ابتعاداً عن النشاط الحزبي. رفضت بحزم ورجوت والدي ألا يلح في هذا الطلب ولا ينزعج من عدم إطاعتي له.

لم يتسن لي شخصياً ممراسة أي نشاط حزبي في السليمانية. وكانت عودتنا إلى كركوك أكثر سهولة. وحين حاول مجيد عبد الرزاق في غرفتنا بالشورجة إشعال البريمز لتهيئة الشاي وجد مضخ الهواء عاطلاً. طلبت منه إخراج المضخ وتشحيم الواشر. فرد علي بهدوء:

- إني لم أفتح قط مكينة البريمز أيها الرفيق، ولا أعرف عنها شيئاً.

ضحكت وشحمت المضخ وأشعلت البريمز. إلا أن بقاءنا في الغرفة لم يدم طويلاً. ولم يكن السبب في هذه المرة حملة البوليس علينا. بل كان رفيقي مجيد نفسه. فقد خرج ذات يوم إلى موعد حزبي له مع عامل أحذية ولم يعد. انتظرته طويلاً، وأنا في قلق شديد، ولم يعد. كنت على ثقة من أنه هو الآخر قد اصطيد من قبل الأجهزة القمعية. وبذلك تعمقت الضربة من بغداد إلى كركوك، غير أن لقاءاتي مع صبري سباهي ظلت مستمرة شأن صلاتي مع تنظيمات حزبية أخرى خارج كركوك.

بعد فقدان مجيد تركت الغرفة التي كان يعيش معها فيها، واستأجرت غرفة أخرى في الطرف الثاني من الحي. وكان الرونيو أول ما حملته على ظهري ونقلته إلى الغرفة الجديدة في منزل القروي الفقير عبد الله روژبياني، الذي كان قد خرج من السجن، بعد قضاء سنوات فيه بسبب نزاعات شخصية، وبقي مع عائلته في كركوك خشية أن يثأر منه خصومه في حالة رجوعه إلى القرية. كانت له زوجة نصف شقراء (حليمة) وطفلان صغيران اتخذت من أحدهما معلماً لي بأمل تعلم شيء من اللغة التركية التي كنت أود تعلمها ولم أفلح.

كانت في دار عبد الله غرفة أخرى صغيرة معروضة للإيجار لقاء ربع دينار شهرياً. ولم يكن من مصلحتي أن يأتي مستأجر آخر مجهول الهوية. ولهذا استأجرتها بنفسي رغم عدم حاجتي إليها. وساعدني منشأي القروي ومعرفتي بعادات وتقاليد الفلاحين على توثيق العلاقات مع عبد الله بقدر من السرعة. وقد كسبت ثقته، مما سمح لي بأن أفاتحه حول وضعي الخاص. فأعلمته بأني رجل مطارد من السلطة ولا أريد أن أسبب له متاعب، وهو صديقي الطيب ولا يعرف عني شيئاً. وضعته أمام أحد أمرين، أما أن أترك البيت، إذا لم يرق له بقائي، أو أبقى بموافقته وشريطة أن يتعهد بالحرص على سلامتي. فسألني عن سبب مطاردة السلطة لي ـ وأغلب الظن أنه فكر أول الأمر بالنزاعات العشائرية أو الشخصية. أجبته:

ـ أنا مطارد لأني شيوعي.

ـ آ. فهمت.. وما الضير في أن تكون شيوعياً؟ إن أحد أقاربي هو الآخر شيوعي.

ـ ما اسمه؟

ـ ملا جميل روژبياني.

كنت أعرف ملا جميل، إذ سبق أن زار والدي أكثر من مرة. ولم

أسمع بأن يكون شيوعياً. ولكنه كان يحاول لكي يبدو كرجل عصري أو ملا من الطراز الحديث. ولعل ذلك حمل عبد الله على الاعتقاد بأنه شيوعي. وراق لي بالطبع أن يعتبر نفسه من أقارب أحد الشيوعيين. وتحولت علاقتنا الشخصية تدريجياً إلى علاقة سياسية وحزبية وغدا نفسه وزوجته حريصين على حمايتي حرصهما على ابن عزيز عليهما.

أسرعت إليّ حليمة ذات يوم، وكنت أقرأ في كتاب، لتقول:

ـ أخرجا! أنت وضيفك يا علي! (وكان لدي صبري سباهي).. اخرجا من البيت لبعض الوقت!

ـ ولماذا نخرج من البيت؟

ـ لأن الشرطة تفتش الدور المجاورة بحثاً عن التبغ المهرب.

ـ ليس في هذا البيت تبغ مهرب. وهم لا يبحثون عن الناس.

ـ أرجوك أن تخرج لمدة ساعة واحدة. أخشى أن يحدث ما لا تحمد عقباه. وفي يوم آخر أتتنا حليمة، وكان لدى صبري أيضاً، لتقول:

ـ جارتنا تريد أن تراكم.

ـ ولماذا تريد أن ترانا؟

ـ لأن أحد الرجال قد أتى إليها وخدعها وسرق دهنهم. جاء ليقول لها أن زوجك أرسلني من السوق لآخذ ظرف الدهن إليه للبيع. فأعطته إياه. وعندما عاد زوجها مساء اتضح أنه لم يرسل أحداً، بل كان هناك سارق متحايل.

ـ حسناً. وماذا تريد الجارة الآن؟

ـ لأنها تشك فيكم.

ـ هل تعرف الشخص الذي سرقها؟

ـ تدعي أنها تعرف جيداً.

خرجنا من الغرفة نحو الجارة التي كانت واقفة في انتظارنا. رأتنا ونظرت إلى وجوهنا وقالت:

ـ أنا اليوم هنا، في هذه الدنيا، وغداً في الآخرة، وحرام علي أن أتهم الأبرياء. لا شبه بين هذين الشخصين وبين من سرقنا.

كان قد انقضى أكثر من أسبوعين على ضياع مجيد عبد الرزاق عندما التقيت في كركوك بالشاب الشيوعي من السليمانية نوري جلال وسمعت منه خبراً مفاجئاً: أن مجيد موجود في السليمانية، ولم يعتقل، بل انضم إلى كتلة «الاتحاد» المنشقة علينا ونشط بينهم ضدنا. لكن الأرجح ـ الكلام لنوري ـ أن يكون الآن قد ترك صفوفهم أو طردوه. فقلت لنوري أنني لم أتوقع مثل هذا الموقف من مجيد إذ كان بمستطاعه الذهاب بصورة اعتيادية، دون التخفي والهروب.

❀ ❀ ❀

سميت عن كتلة «الاتحاد». بهذا الاسم لأنها أصدرت نشرة بنفس الاسم. إنها ظهرت في السليمانية أيضاً، في أعقاب انقسام المنظمة إلى جماعتنا وإلى جماعة «النجمة». وكان مؤسس «الاتحاد» مسؤولي الحزبي السابق كريم صوفي، الذي أخلي سبيله وعاد إلى السليمانية ليستأنف نشاطه الحزبي بعد حوالي السنة من السجن. وهو لم يرض عن جماعتنا ولا عن جماعة «النجمة» فأسس كتلة ثالثة زاعماً بأنه هو المحق. وقد تمكن، مستفيداً من سمعته الجيدة في المدينة ومن انعدام كادر كفؤ لدى منافسيه، من تشكيل كتلة جذبت الأغلبية الساحقة من شيوعيي المدينة ولو لفترة. وكنت شخصيا أنظر إلى كريم كشاب مخلص ونزيه وجدير بالثقة. وأرسلت له رسالة عبرت فيها عن هذه الثقة ودعوته إلى إعادة النظر في موقفه وإلى التعاون والتكاتف معنا ضمن تنظيم شيوعي موحد. لكنه أخطأ في تصرفاته إذ لم يكتف بعدم الاستجابة لطلبي بل استغل رسالتي للاستشهاد بها كدلالة على أننا نعترف بـ «بلشفيته» في حين يرفض من جانبه الاعتراف بشيوعيتنا.

لم يبق كريم طويلاً ولم ينعم بالاستقرار بل اعتقلته السلطة من

جديد. كان مصاباً بالسل ومحتاجاً إلى العلاج والعناية ولم يوفروا له شيئاً من هذا القبيل حتى توفي في أحد المستشفيات شهيداً.

❀ ❀ ❀

بقيت وحدي في كركوك. وينبغي الاعتراف بأننا عجزنا، خلال الأشهر التي قضيناها في تلك المدينة العملاقة، عن بناء تنظيم حزبي جديد أو إقامة صلات وثيقة مع عمال النفط وسائر الفئات الشعبية. كنا وسط ظروف بالغة التعقيد وكنا معزولين شعبياً. وكان العدد الضئيل من رفاقنا وأصدقائنا في المدينة إما من الأكراد أو الأقليات. وظلت الجماهير التركمانية أرضاً حراماً ومغلقاً إلى حد أمام نشاطنا الحزبي، بعكس ما كان عليه الوضع في بغداد. وبعض المحافظات الأخرى، حيث كانت النجاحات تحرز بوتائر سريعة نسبياً في إعادة البناء وتوسيع الصلاة بالجماهير. وكان ضعف مستواي وقلة تجاربي السياسية - التنظيمية عائقاً أمام تطور نشاطنا إذ لم نضع برنامجاً للعمل الحزبي متلائماً مع متطلبات ظروف المدينة. وبالنسبة إلى الخط السياسي الذي كنا نتبعه فإنه كان ثابتاً إلى حد التركيز في نضالنا ضد الاستعمار ولطرد نفوذه، والتمسك بشعار إسقاط النظام العميل أو الوزارة العميلة.

في ربيع ١٩٥٠ نضجت لدي فكرة العودة إلى بغداد، بعد أن استنفذ الغرض من الإقامة المؤقتة في كركوك. وأوصيت صبري سباهي بالبحث عن دار صغيرة للإيجار في بغداد. كان علي أن أغادر دار صديقي الفلاح ورفيقي المناضل عبد الله روژبياني. فقد التقيت به لأول مرة إنساناً أميناً طيباً بسيطاً لم تربطه علاقة ما بالحركة السياسية. وها أتركه مناضلاً ثورياً حقيقياً يضع بيته الصغير تحت تصرف الرفاق كوكر للنشاط الحزبي.

غادرت كركوك بصحبة صبري وعبد الله. وقررت السفر عبر الموصل لتكون زيارة وتجارة معاً: التقي هناك بمسؤول منظمتنا الحزبية

واطلع على وضعها، من جهة، وأسافر إلى بغداد عن طريق أوفر سلامة، من أخرى. رأيت أربيل لأول مرة ومكثنا فيها بعض الوقت قبل أن نستأنف السفر. كانت مدينة ريفية الطابع يقارب عدد نفوسها الثلاثين ألفاً. وعند الوصول إلى الموصل أقمنا في فندق صغير رخيص بانتظار الاتصال مع سكرتير المنظمة في اليوم التالي. وشاهدت الموصل أيضاً للمرة الأولى. كان سكرتير المنظمة عمر معلماً شاباً أشقر أنيق الهندام هادئاً. عقدت معه اجتماعاً طويلاً في الهواء الطلق وبحثنا أموراً سياسية وتنظيمية. ولم أفهم خلاله الكثير عن وضعنا الحزبي هناك. وقدم إلي ٧٥ ديناراً من حصيلة الاشتراكات والتبرعات.

في المساء قطعنا تذاكر السفر بالقطار ذي المقاعد الخشبية التي لا تمنح المسافرين شيئاً من الراحة عبر طريقهم الطويل. وكان رصيف المحطة والفارغونات مزدحمة مليئة بالضجيج. واتخذنا مقاعد لنا بانتظار أن يتحرك القطار صوب العاصمة. وأتانا شاب طويل رشيق في بدلة مدنية أنيقة، وراءه بضعة رجال في ملابس الشرطة أو الملابس المدنية. وطلب مني ومن عبد الله هوياتنا. أخرجت هويتي المزورة، التي كانت في الأصل لشقيق حليمة المتوفي. في ذلك الحين لم تكن هناك صور ملصقة بدفاتر النفوس. الشيء الوحيد الذي لفت انتباه الرجل في الهوية هو أن تأريخ الولادة هناك لم يكن متناسباً مع مظهري. كان يبدو أقل عمراً فسألني:

ـ هل من المعقول أن يكون هذا عمرك؟

ـ والدي هو الذي سجلني على هذه الشاكلة ولا ذنب لي في الأمر.

ـ ألستم من اليهود الساعين إلى الهروب؟

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فوجيء الشرطي السري بجواب لم ينتظره وشعر بنوع من الإثم. ثم

سأل عما إذا كنت جندياً هارباً وأجبته بالنفي. لكنه أقلقني بتوجيه سؤال عن الشخص الثالث، الذي كان معنا ـ وكان يقصد صبري سباهي، الذي جلس بعيداً عنا ببضعة أمتار، فقط لأنه لم يجد مقعداً فارغاً بجانبنا. السؤال عن ثالثنا أوحى لي وكأننا كنا مراقبين مسبقاً. فأجبته بأننا اثنان فقط ولم يكن معنا شخص آخر فتشونا ولم يعثروا على شيء عندنا. أمر الشاب الطويل شرطياً بالبقاء عندنا لحين عودته هو وذهب مع بقية مرافقيه، ربما للبحث عن شخصنا الثالث. وبعد ذهابه مباشرة أفلحت في خداع الشرطي الحارس إذ قلت له:

ـ نحن جياع ولا أدري ما الذي يمكن شراءه للأكل هنا؟

ـ هنا على الرصيف أنواع الأكل.

ـ إذن هاتنا الأكل لك ولنا يا أبو إسماعيل. أو خذنا لنشتري سوية.

كان المبلغ الذي أعطيته إياه ـ نصف دينار بالكامل ـ مغرياً له. فنزل ليشتري الأكل على بعد بضعة أمتار. ونزلنا وراءه بحركة سريعة لنضيع بين الازدحام على الرصيف. وغادرنا المحطة فوراً ووجدنا مكاناً للمبيت فيه. وفي الصباح الباكر غادرنا الموصل عائدين، أنا وعبد الله، إلى كركوك. وفي اليوم التالي وصلنا صبري قادماً من بغداد وأخبرنا أن مفرزة البوليس ظلت تبحث عنا وعنه في عربات القطار حتى وقت متأخر من الليل. وأخبرني أنه استأجر بيتاً صغيراً مناسباً لنا في بغداد.

بعد أيام ثلاثة توجهت بالسيارة إلى كفري وبالقطار من هناك، إلى بغداد. أخذت معي العجوز أم حليمة وحفيدها الصغير كريم ليسكنا معي بعض الوقت ريثما أدبر أموري بشكل أفضل. أصبحت من جديد جاراً لمستشفى العزل ولضريح الست زبيدة عقيلة هارون الرشيد الشهيرة. وبقي صبري، لبعض الوقت، حلقة الوصل بيني وبين مسؤول منظمة العاصمة، التي كانت قد أحرزت بعض النجاحات في إعادة بناء نفسها.

في بعض الأحيان كنت أكلف هادي بأعمال الطبع أيضاً. كان في بيته رونيو وطابعة. ووقع له حادث طريف في حي الرحمانية بالكرخ، حيث كان قد استأجر مبنى صغيراً عائداً إلى رجل حاج دعي «الشكرجي». طبع في إحدى الغرف ذات مرة منشوراً حزبياً. ولكي لا تتسخ نسخة من الحبر، الواحدة من الأخرى، نشرها في الغرفة عن عمد. وغادر البيت قبل أن يجمعها. وبعد قليل دخل الدار المالك الشكرجي برفقة بنتيه الشابتين لتفقد المبنى أو لزيارة ساكنيه المستأجرين - كما يحدث عادة في الأحياء الشعبية. ودون استئذان من ربة البيت، التي كانت منصرفة إلى غسل الملابس، دخل الشكرجي والفتاتين غرفة الرونيو وشهدوا المنظر العجيب غير المألوف: طابعة ورونيو ومئات النسخ من منشور مطبوع - أخذت إحدى الفتاتين نسخة من المنشور وقرأت العنوان والتوقيع المذيل به وقالت:

- يابه! هذه مطبعة الحزب الشيوعي!

أدرك الحاج الشكرجي كل شيء، رغم أنه كان رجلاً أمياً. فأجاب ابنته بهدوء:

- لا يا بنتي! هذه مطبعة الحكومة وهذا المستأجر كاتب في دائرة حكومية وتتراكم عليه الأعمال فيضطر إلى إكمالها هنا في البيت بعد انتهاء الدوام الرسمي. هيا بنا نخرج.

خرج من الغرفة مع ابنتيه وسد الباب بعناية وتحدث بكلمات اعتيادية إلى ربة البيت التي كانت شديدة الارتباك. وغادروا البيت تاركين أم عدنان في قلق وحيرة من الأمر. ونزلت رحمة عليها عندما دخلت الدار لأخذ المنشور المطبوع. روت لي الحادث سريعاً فيما كانت الفتاتان واقفتين على سطح الدار المجاورة - وهي بيت خالتهما - تتفرجان علينا وتضحكان وتستغربان من وجود مطبع ح ش ع في هذا المكان وعلى هذه الشاكلة. وبات من الضروري ألا أسمح بضياع الوقت. وضعت الرونيو والطابعة ونسخ المنشور المطبوع لتوه في سلتين

وعلقتهما على سكان دراجتي الهوائية وغادرت البيت فوراً، بعد أن أوصيت أم عدنان بنقل الأشياء الأخرى ذات الخطورة على ظهرها إلى دكان صديق كانت تعرفه في الشيخ معروف. ولقيتها في السوق بعد أقل من عشرين دقيقة وأبلغتها بأن تخبر زوجها بالبحث عن دار أخرى دون أي تأخير وفي حي بعيد عن الرحمانية. وفي نفس اليوم وجد الدار المنشورة بين البساتين، في نفس المكان الذي أنشىء فيه القصر الجمهوري لاحقاً. كانت فيلا جيدة محاطة بحديقة كبيرة مليئة بالنخيل الباسقات وبأشجار الفواكه. كان قد بناها صاحبها الملاك لنفسه. ثم غادر العراق ربما بسبب المرض. وأجرت لنا لقاء ثلاثة دنانير شهرياً. كان أفخم وأروع مبنى عشت فيه حتى ذلك الحين. لكن الشيوعي النشط الثرثار الفضولي حمود الراوي لم يدعنا لنقيم فيه ونستمتع به طويلاً.

دخلت الصبية المراسلة فضيلة ـ شقيقة خضير ـ وهي مرتبكة. وقبل أن تسلم الرسالة، التي حملتها من أحدهم إلي، قالت:

ـ تلفت إلى الوراء حين دخلت الدار فوجدت الرفيق حمود يتابعني.

كان الخبر مفاجأ ومثيراً. نحن اعتبرنا حمود من كوادرنا الوسطية النشطة ولم نشك به قطعاً. وها هو يقوم بتصرف غريب يثير حوله الشكوك ويسبب لنا قلقاً مشروعاً. سألت فضيلة:

ـ لماذا لم تنتبه إلى الملاحقة وأنت في الطريق، قبل الوصول إلينا؟

ـ لم أنظر إلى الخلف إلا في اللحظة الأخيرة.

قد يكون الدافع الوحيد وراء تصرف حمود مجرد الفضول. لكننا مضطرون إلى أن نضع أكثر من علامة استفهام وأن نجابه الوضع على أساس أسوأ الاحتمالات. أخلينا الفيلا وتركنا البستان والتمر والفواكه بعد أقل من أربعين يوماً. وجد هادي بيتاً جديداً في حي كمب الصليخ وانتقلنا إلى هناك. ولم أتساهل مع حمود على تصرفه هذا. فقد طردته

من الحزب وأعلنت ذلك على الملأ. ولكني لم أتهمه بالتجسس بل بالثرثرة وحب الاستطلاع والتخريب. وسميناه «التيتوي الثرثار». ولم أكن بنفسي فاهماً معنى أن يكون المرء تيتوياً (نسبة إلى الزعيم الشيوعي اليوغسلافي تيتو). ولكني كنت محقاً تماماً في نعته بالثرثار. ولكنه كان شديد التأثر بأن يسمى «تيتوياً» حتى أنه قال لأحدهم:

ـ أقبل بأن يعتبروني ثرثاراً ومخرباً، ولكني لست تيتوياً ورجائي الوحيد ألا يوجه إلي الحزب هذه التهمة. أنا مخرب وانتهازي، ولكني لست تيتوياً.

كنت أسكن مع عائلة هادي صالح حين دخل المذياع إلى بيتي، لأول مرة في حياتي. وفرحت به لأنه كان وسيلة جيدة لمتابعة الأخبار والأحداث العالمية التي لم نملك وسائل لمتابعتها سوى الصحف والراديو. ذات يوم كنت جالساً في غرفتي أجيب على بعض الرسائل الحزبية ساعة دخلت أم عدنان علي مهرولة وسألت باستغراب:

ـ لماذا لم تفتح الراديو؟ لماذا؟

ـ ولماذا يجب أن أفتحه؟

ـ لميعة توفيق تغني.. تغني نايل؟

فتحت الراديو وشاركت أم عدنان في الاستماع إلى الأغنية. وأذكر أنني أعجبت فعلاً بتلك الأغنية الريفية الحزينة البديعة.

❀ ❀ ❀

اتسعت صلاتي الحزبية في بغداد حتى شملت مختلف أنحاء المدينة وصرت أواجه صعوبة التنقل. ذلك أن استخدام سيارات الأجرة كان يحمل بعض المخاطر فضلاً عن كلفتها المادية. ورأيت أن أفضل شيء هو ركوب الدراجة الهوائية. غير أن هذا لم يكن سهلاً بالنسبة إليّ، أنا الشاب الذي لم يتعلم ركوبها في الصغر. اشتريت دراجة مستعملة وبدأت أتمرن عليها. وسقطت عدة مرات قبل أن أتعلم السياقة. ولا أستطيع نسيان الحادث الذي وقع لي، قبل أن تتحسن سياقتي

للدراجة، يوم ركبتها متجهاً من بيت خضير في الكاظمية إلى بيت الفلاحي في الكرخ. كنت أسير بالدراجة في شارع ضيق بجانب خزان الماء قرب ساحة الزهراء في الكاظمية. جاءت سيارة من الاتجاه المعاكس. وكانت في نقطة الالتقاء نساء أربع من بائعات اللبن الريفيات السائرات جنب بعضها. وأصبحت، بسبب ضعف سياقتي، أمام أحد خيارين: أما أن اصطدم بالسيارة، وفي ذلك خطر جسيم، وأما أن أدعم إحدى النساء. وهذا أهون الشرين. أخذت الخيار الأخير. كان الاصطدام مفاجأة لبائعات اللبن الحافيات. دخل ويل دراجتي بين رجلي فتاة سمراء طويلة ورشيقة واسعة العيني ملتفة بفوطة وعباءة ومستقيمة في وقفتها ومشيها. وهي تحمل ثلاث علب خشبية كبيرة مليئة باللبن الرائب. مدت يديها بحركة خاطفة إلى علب اللبن ونجحت في الإمساك بعلبتين. لكن العلبة العليا كانت قد أفلتت منها وانقلبت على رأسي وانسكب اللبن بقدر من التناسق على جميع أنحاء جسمي. نزلت من الدراجة واعتذرت للفتاة، التي أذهلتها المباغتة أول الأمر. وحين نطقت كانت كلمتها الأولى طلب التعويض. وقد طلبت ربع دينار، أي ما يقارب ثمن العلب الثلاث. ولما وجدتني أدفع المبلغ دون أي اعتراض تشجعت على طلب درهم آخر أيضاً. دفعت الدرهم الإضافي وانطلقت نحو الكرخ غير مكترث باللبن الذي لطخني من قمة رأسي إلى أخمص القدمين. حيثما يراني الناس يضحكون علي.

في الفترة اللاحقة استفدت من الدراجة كثيراً. كنت أسير بها عبر الطرق الفرعية والجانبية في جميع أحياء العاصمة، من حي الزوية إلى الكريعات ومن حي العاصمة إلى حي الشاكرية، بعيداً عن أنظار الشرطة السرية التي كانت تركز عادة على الساحات والشوارع الرئيسية.

❀ ❀ ❀

بعد العودة إلى بغداد فكرت في استئناف إصدار جريدة الحزب (القاعدة) لكننا لم نملك في حوزتنا لا أدوات الطباعة ولا إمكانية

التحرير. وقد فضلت إصدارها ولو بخط اليد، كأداة لرفع المعنويات، مع مواصلة الجهود لتوفير أدوات الطباعة. أظن أنه تم إصدار عددين على هذه الشاكلة. وكانت أقلام الرفاق ومن ذوي الخط الجيد تشتغل في الاستنساخ. وكان الضابط الشيوعي المفصول عطشان ضيول الأزيرجاوي صاحب المبادرة في شراء أول رونيو من الشركة التجارية الإفريقية. وقد ذهب إلى الشركة مدعياً أنه يريد الرونيو للكنيسة. فطلبوا منه كتاباً رسمياً. وفي اليوم التالي عاد إليهم بكتاب رسمي مزور سهل له شراء الجهاز ونقله إلى عيادة الدكتور الشيوعي محمد الجلبي، الذي نقله بسيارته إلى حيث حدد له. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن عطشان كان مناضلاً نشطاً وجريئاً ومنح كامل طاقاته للعمل الحزبي، رغم أنه كان ميالاً على الدوام إلى التظاهر والتباهي بما يفعل، بعكس محمد الجلبي الذي كان شيوعياً رائعاً وجندياً مجهولاً بعيداً عن أي تظاهر.

ومنذ أن توفر لدينا جهاز للرونيو أصبح الشاب الشيوعي الصغير صبيح سباهي طباع ح ش ع الرئيسي. إنه وهب نفسه منذ سن مبكر، قبل أن يبلغ الثامنة عشر من عمره، لقضية الشعب. وكان كتلة من النزاهة والطيبة والجهادية والخلق الفاضل. وكان يدي اليمنى في تدبير الأمور الفنية لطباعتنا السرية النشطة التي دوخت الأعداء وأنعشت الأصدقاء خلال سني وجودي على رأس الحزب.

❀ ❀ ❀

في ١٩٤٩ تأسست حركة السلم العالمية إثر اجتماع عالمي لأنصار السلم منعقد في ستوكهولم، وإصدار نداء ستوكهولم الشهير الداعي إلى تحريم الأسلحة الذرية. وفي ١٩٥٠ تأسست حركة السلم في العراق وسط ظروف بالغة الصعوبة حيث انعدام الديمقراطية وملاحقة معارضي السلطة، بالأخص من الشيوعيين وكل القوى اليسارية. وكان للشاعر الكبير الجواهري دور شخصي هام إذ وجه نداءاً في الصحف العلنية دعا فيه العراقيين إلى التوقيع على النداء. غير أن ح ش ع كان المحرك الرئيسي

الحقيقي وراء إنشاء هذه الحركة في الساحة العراقية. فقد شجعنا الجواهري على مبادرته وهيأنا مسبقاً نسخ النداء في حوزة منظمتنا الحزبية للمباشرة بجمع التواقيع فور نشر النداء من الجواهري. واشتغل في هذه الحركة أنشط المثقفين المرتبطين بالحزب بهذا الشكل أو ذاك أمثال عطشان ضيول وعبد الرزاق الشيخ علي وعبد الجبار وهبي وعضبان السعد وعامر عبد الله وتوفيق منير وغيرهم. وربما لهذا السبب وصفت حركة السلام من قبل مؤيدي النظام الملكي، بل حتى من قبل أغلب قادة الأحزاب البرجوازية الوطنية المعارضة للنظام، بأنها حركة شيوعية أو تابعة للحزب الشيوعي. وهذا الاتهام لم ينسجم مع الحقائق ولم يستند على شيء سوى أن الشيوعيين كانوا نشطين في صفوفها. ولم تضع لنفسها هدفاً سوى تحريم السلام الذري وأبعاد خطر الحرب الكونية.

عند البدء بجمع التواقيع على نداء ستوكهولم تمرد مسؤول منظمة بغداد إلياس بطاح ورفض تنفيذ الأوامر الحزبية بحجة أن الجواهري، الذي بادر إلى توجيه النداء، شخص برجوازي وأن ليس من الصحيح أن نسير نحن الشيوعيين وراء البرجوازية. وإزاء هذا التطرف من إلياس لجأت بدوري إلى أسلوب متشدد في التعامل معه (وكان هذا التشدد سائداً في تلك الفترة) حيث قررت فوراً معاقبته ليس بسحب المسؤولية الحزبية منه بل بطرده من الحزب واتهامه بالتيتوية.

❀ ❀ ❀

لم تزل جراح الحزب تنزف، رغم إحراز بعض النجاحات في تضميدها، حين وردنا، عام ١٩٥٠، نبأ حدوث انشقاق في منظمة سجن نقرة سلمان. يبدو أن مشاكل غير قليلة واجهت السجناء الشيوعيين هناك وأن مسؤول المنظمة سالم عبيد النعمان والبعض من مقربيه كانوا ذوي سلوك بيروقراطي وأحياناً استفزازي تجاه رفاقهم. فيما كان حميد عثمان المسجون منذ حزيران ١٩٤٩ قادراً على استغلال نقاط ضعفهم لممارسة التحريض ضدهم وتهيأة الأجواء للانقسام أو ما سموه (التطهير) لقد

تمكن حميد من حشد الغالبية الساحقة من شيوعيي السجن ضد النعمان. فيما أبى هذا الأخير وبعض من ظلوا موالين له حتى النهاية أن ينزلوا عن بغلتهم ويقروا بأنهم غير مقبولين من غالبية قاعدتهم. كان النعمان، كأغلب المسؤولين الشيوعيين، أو جميعهم تقريباً، في بلدان كالعراق، متمسكاً بكرسي المسؤولية ولا يتزحزح عنه ما لم يزح عنوه. فكان الانقسام. وكان نفر قليل من الكوادر القديمة (أمثال محمد حسين أبو العيس ونافع يونس ويوسف حنا.. الخ) مع سالم..

كان زعيم المنشقين حميد عثمان المصدر الأول للمعلومات التي وصلتنا حول الحادث. وكان المفتاح في أيدينا، أو في يدي شخصياً، لأقرر من بغداد من يكون المنتصر ومن الخاسر في السجن. ولم أتردد كثيراً في التحيز إلى حميد عثمان والأغلبية ضد سالم ومن بقي معه. كان موقفنا هذا نقطة القوة الرئيسية لدى حميد عثمان. فالحزب يؤيده ضد الطرف الثاني وكفى. وعبثاً حاول الطرف الثاني إقامة صلات وتنظيمات له خارج السجن.

إذا حاكمت الأمور وفق عقليتي الراهنة ومقاييسي اليوم فإني مقتنع بأني قد تسرعت آنئذ في اتخاذ القرار بتأييد حميد عثمان ورفض سالم عبيد. كان علي التروّي وبذل المساعي لرأب الصدع بين السجناء الشيوعيين المنقسمين على أنفسهم. وكان ذلك ممكناً وسهلاً إلى حد بالنسبة إلي كمسؤول أول في الحزب.

وكان من أسوأ نتائج هذا الحادث أن موجة من «الانقلابات» قد اجتاحت السجون السياسية، خلال الفترة اللاحقة، فأزيح المسؤولون في سجن الكوت وبغداد بنفس الأسلوب. ولم يدرك أحد من مؤيدي الانقلابات السجنية أن مسؤولاً جديداً من قبيل حميد عثمان سيكون أقل كفاءة وأشد بيروقراطية وفردية بالمقارنة مع سالم عبيد.

لم يمض وقت طويل على عودتي إلى بغداد حين تلقينا طلباً من بقايا جماعة «الاتحاد»، التي أسسها كريم صوفي، بالتباحث والحوار معهم من أجل الاندماج. ولم أتعب نفسي كثيراً بالبحث عن حل مدروس للمشكلة. إنما وجدت الجواب فيما فعله فهد تجاه جماعة «وحدة النضال» في ١٩٤٥، حين طلبوا الحوار من أجل التوحيد فرد عليهم فهد قائلاً لن يكون هناك حوار معكم، بل عليكم حل تنظيمكم وطلب الانتماء كأفراد إلى حزبنا. وسيبتّ الحزب في كل طلب على حدة. وقد تم له ما أراد باستثناء القسم الكردي، وبالأحرى القسم الأفيلي، الذي كان على رأسه صالح الحيدري وكان في قوامه حميد عثمان ونافع يونس وجمال الحيدري وعزيز محمد. وقد اضطر هو الآخر على حل نفسه وطلب الانتماء كأفراد إلى ح ش ع عام ١٩٤٦.

حلت جماعة «الاتحاد» فيما استمرت في الصدور نشرة سرية صغيرة باسم «النضال» وهي كانت نشرة كتلة صغيرة انتقلت من المعسكر الوطني اللا ماركسي إلى المعسكر الشيوعي في ١٩٤٩. كان عزيز شريف على رأس هذه الكتلة. وهنا أود توضيح الأمور بصورة أفضل:

في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحلول فترة للتنفيس الديمقراطي ولتشكيل أحزاب قانونية مجازة اتفق فهد مع عزيز شريف على أن يؤسس الأخير حزباً ديمقراطياً قانونياً يدعمه الشيوعيون ويستفيدون منه لممارسة نشاط سياسي علني تحت لوائه وفي إطار ديمقراطي، دون التفريط بوجود ح ش ع كحزب سري مجاهد. ولكن عزيز شريف قد أخلّ بالاتفاق بمجرد حصوله على الإجازة القانونية لحزب الشعب. وبدلاً من أن يكون هذا الحزب ميداناً لنشاط الشيوعيين الجماهيري ـ القانوني فإن عزيز شريف أخذ يدعو على صفحات جريدته «الوطن» إلى حل ح ش ع وانضواء الشيوعيين تحت لواء حزب ديمقراطي قانوني بزعامته. ورفض فهد هذه الدعوة وتمسك بهدفه في محاولة تأسيس حزب قانوني ديمقراطي جماهيري. وترجم هذه المحاولة إلى تأسيس حزب التحرر

الوطني بزعامة حسين محمد الشبيبي.

في ١٩٤٧، حين كان الاستعمار البريطاني يهيىء طبخة معاهدة بورتسموث، سحبت السلطات إجازة حزب الشعب. وبعد وثبة كانون ١٩٤٨ ترك عدد من أبرز كوادر حزب الشعب (أمثال عبد الجبار وهبي وعامر عبد الله وتوفيق منير) صفوفه واتجهوا إلى ح ش ع. ولم يبق مع عزيز شريف إلا القليل. وإبان نكسة ح ش ع المريرة عام ١٩٤٩ انقلب عزيز شريف من فكرة حل الحزب الشيوعي إلى فكرة تحويل بقايا حزبه إلى منظمة شيوعية وأصدر نشرة سرية سميت (النضال) بوصفها صحيفة شيوعية سرية، آملاً أن يحل تنظيمه هذا محل ح ش ع الذي أصيب بجراح عميقة.

❀ ❀ ❀

في ١٩٥٠ أصدرت الحكومة العراقية قانوناً سمح لليهود العراقيين بإسقاط جنسياتهم العراقية والهجرة إلى الدولة العبرية الفتية. واقترن صدور القانون بنشر الإشاعات الرامية إلى بث الرعب بين اليهود، الذين كانوا موجودين في مختلف المدن العراقية، وخاصة في بغداد، بغية حملهم على التخلي عن جنسيتهم العراقية والانتقال إلى إسرائيل. وكان هؤلاء اليهود عراقيين منذ العصور السحيقة، وربما من عهد البابليين والآشوريين. ورغم أني لا أملك معلومات ملموسة إلا أنني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن إصدار هذا القانون جاء كنتيجة تواطؤ بين حكام بغداد ولندن من جهة وبين الصهيونية الحاكمة في إسرائيل من جهة أخرى. وهي كانت خدمة مقصودة لإسرائيل.

اتخذت، بصفتي سكرتيراً للحزب، موقف التأييد لإطلاق حرية الهجرة لليهود العراقيين منطلقاً في ذلك من حقيقة أنهم مضطهدون في العراق وأن حرية الهجرة قد تكون طريقاً لتحررهم من هذا الاضطهاد، فضلاً عن أن من حق الإنسان أن يقيم ويعيش حيثما يرغب. وبعد فترة

غيرت موقفي هذا وأدنت القانون الصادر عن حكام بغداد باعتباره تواطؤاً مع الاستعمار والصهيونية.

أود بهذه المناسبة أن أتطرق إلى موضوع كتب عنه خصوم الشيوعية الكثير من المقالات والكراريس وأحياناً المؤلفات الضخمة، سواء في العهد الملكي أم العهود اللاحقة، وخاصة في عهد النظام البعثي - العنصري... أعني موضوع سيطرة اليهود على الحركة الشيوعية في العراق وتأثير ما سموه بالنفوذ الصهيوني على سياسة ح ش ع. إن هؤلاء بذلوا الكثير من الجهود وأنفقوا الكثير من المال كي يعرضوا الصهيونية والشيوعية كشيء واحد ويثبتوا مزاعمهم في تسلط اليهود على ح ش ع.

إن جميع ما نشره هؤلاء بهذا الصدد ليست سوى أكاذيب نسجت عن عمد. فاليهود العراقيون كانوا أقلية مضطهدة دينياً وطائفياً وقومياً. وهم كانوا يهوداً ولم يكونوا قط عرباً ولا أكراداً ولا شيئاً آخر سوى اليهود ذوي المخاوف المشتركة والمشاعر المشتركة والتطلعات المشتركة. وكان من الطبيعي أن يلتف قسم كبير منهم - شأنهم شأن أي أقلية مضطهدة - حول الحزب العراقي الوحيد الذي وقف صراحة ضد التمييز الديني - الطائفي وطالب بالمساواة بين الجميع، وهو ح ش ع. وبتأثير سياسة العداء للصهيونية، التي اتبعها ح ش ع، فإن الغالبية الساحقة من اليهود العراقيين قد وقفوا خلال فترة معينة موقف العداء الشديد للصهيونية كفكرة وكحركة سياسية. وتجلت هذه الحقيقة في وقائع عديدة منها أن أول عراقي استشهد برصاص النظام الملكي في تظاهرة معادية للصهيونية ومؤيدية لقضية الشعب الفلسطيني إنما كان العامل اليهودي الشيوعي شاؤول طويق. كما أن عدداً كبيراً من اليهود العراقيين انضموا إلى صفوف عصبة مكافحة الصهيونية ولعبوا دوراً فعّالاً في كفاحها المشرف عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦.

بديهي أنه كان بين اليهود العراقيين عدد كبير نسبياً من التجار والأثرياء المتنفذين في السوق وفي حياة البلاد الاقتصادية. ولم يتعاطف

هؤلاء يوماً مع ح ش ع، بل كانوا مرتبطين مع الطبقة الحاكمة في العراق. وكان لهم ـ لمدة طويلة ـ من يمثلهم في الوزارة والبرلمان والمؤسسات الحكومية الأخرى.. في وقت كان الكادحون والفقراء اليهود ومثقفون من الفئات الوسطى يجدون في ح ش ع من يعبر عن مصالحهم، فيقبلون على صفوفه.

إني أعلن كرجل عاصر الحركة الشيوعية في العراق طوال ستة وأربعين عاماً الماضية وكإنسان تسنى له أن يعيش مع الهيود الشيوعيين لسنوات في السجون وخارج السجون، بأن العناصر اليهودية التي انتمت إلى ح ش ع لم تفعل ذلك في حينه إلا بدافع الشعور بأن هذا الحزب وقف ضد التمييز والاضطهاد ودافع عن حقوقهم المشروعة، شأن حقوق سائر العراقيين، وأنه ناضل بجد وإخلاص ضد الاستعمار والرجعية الحاكمة. إنني سأكذب إذا قلت أنني وجدت فرقاً بين أولئك الشيوعيين العراقيين، الذين قدر لي الاحتكاك بهم والعمل معهم، بسبب من اختلاف الدين أو المذهب أو القومية. إني وجدت شيوعيين جيدين خلقاً ومتقدين حماساً ومتفانين في النضال بين اليهود كما بين المسلمين والمسيحيين. كما وجدت شيوعيين سيئين وانتهازيين وجبناء بين اليهود كما بين المسلمين والمسيحيين. وإذا وجد بين اليهود الشيوعيين من انهار وأساء مثل يهودي صديق فإن بينهم منهارين وخونة من غير اليهود أيضاً أمثال العربي الصابئي مالك سيف والعربي المسلم هادي هاشم والكردي المسلم عزيز الحاج.. الخ. ويجدر بالذكر أن السلطات الحاكمة كانت تركز على اضطهاد الشيوعيين اليهود أكثر مما على الشيوعيين المسلمين والمسيحيين، في حين كان هناك نوع من التساهل تجاه اليهود الصهاينة.

هنا أتذكر حادثاً طريفاً أظن أنه وقع في بغداد عام ١٩٥١ وكشف عن الموقف الحقيقي للحكام تجاه الصهيونية. ففي ذلك الوقت شنت السلطات حملة اعتقالات ضد المنظمة الصهيونية في العراق وتمكنت من اعتقال أبرز العناصر القيادية الصهيونية، منها رئيس التنظيم الصهيوني

عزره والصهيونيان الموفدان من إسرائيل للمشاركة في قيادة المنظمة رودني وصالحون. خلال الأيام الأولى من الاعتقال أطلق سراً سراح رئيس المنظمة ـ ربما بسبب تدخل مباشر من السفارة البريطانية أو دفع رشاوى كبيرة لبعض الحكام ـ ووضع مكانه في إحدى زنزانات الأمن العام اليهودي البغدادي المجنون منذ أكثر من عشرين عاماً المدعو شلومو كراوي. وقد حكمت المحكمة على هذا المجنون المسكين بالسجن المؤبد، فيما ذهب عزره ليمارس نشاطه في إسرائيل أو بلد آخر. وفي نفس الوقت الذي عومل فيه قائد المنظمة الصهيونية على هذه الصورة فإن سلطات العهد الملكي أعدمت قادة ح ش ع فهد وزكي بسيم والشبيبي في ١٩٤٩ كما أن سلطات البعث الحاكم قتلت قائد ح س ع سلام عادل وكوكبة من مسؤوليه وكوادره تحت التعذيب عام ١٩٦٣. كما قتلت الكثيرين من كوادره خلال العهد البعثي الأخير.

❀ ❀ ❀

كان للحزب الشيوعي دور متميز في الحركة الوطنية الديمقراطية العراقية. وكان نفسه محور النشاط الديمقراطي اليساري ومحرك النضالات الجماهيرية. ولهذا كانت نكسته في ١٩٤٩ نكسة لكل الحركة الوطنية العراقية. وتجلت هذه الحقيقة مرة أخرى عندما قرر كامل الجادرجي عام ١٩٤٩ تجميد نشاط حزبه (الوطني الديمقراطي) إلى إشعار آخر بحجة أن الظروف السائدة لا تسمح بممارسة النشاط السياسي الاعتيادي. وفي ١٩٥٠، وبالارتباط الوثيق مع نجاحات ح ش ع في إعادة بناء نفسه وعودته إلى المسرح السياسي، قررت قيادة الحزب الوطني الديمقراطي استئناف نشاط الحزب الاعتيادي.

❀ ❀ ❀

في الأيام العصبية التي مرت على الحزب، يوم كنا بحاجة ماسة إلى الكادر الحزبي المتقدم، طلبنا من صالح الحيدري ـ كان منفياً

سياسياً يقضي حكماً بالأبعاد في سامراء أو مكان آخر لا أتذكره ـ الهرب والالتحاق بنا للمساهمة في العمل الحزبي. وكان لدي انطباع جيد عنه بسبب ما كنت قد سمعت عنه من بعض الرفاق سابقاً. غير أنه خيب أملي فيه ورفض الهروب وحياة الاختفاء من أجل العمل الحزبي.

❀ ❀ ❀

وردتني ذات يوم رسالة حزبية مفادها أن رفيقاً قادماً من أوروبا يريد مقابلة مسؤول حزبي. أرسلت له موعد لقاء في الشارع بحي الشيخ معروف. وجدته شاباً أنيقاً ومتردداً بعض الشيء في حديثه معي، خاصة خلال اللقاء الأول. أخبرني بأن الرفاق العراقيين الموجودين في فرنسا أرسلوا للحزب بعض الهدايا المتواضعة وسيأتي بها في اللقاء القادم. وفي موعد اللقاء الثاني، بعد يومين، انطلق في الحديث وذكر أن الرفاق العراقيين في باريس سمعوا عن نكسة الحزب واعتقدوا بأن الضربة كانت عنيفة وقاتلة ولم يعد بالإمكان وجود مركز قيادي للحزب داخل العراق. وتصوروا بأن المكان المناسب لمثل هذا المركز إنما هو باريس أو بلد أوروبي آخر. ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة وخطأوها فور اطلاعهم على نشرات حزبية صادرة في العراق. وأضاف الشاب القادم من باريس:

ـ أحمل لكم من هؤلاء الرفاق تحيات حارة ومبلغاً متواضعاً قدره (٧٥) ديناراً مع آلة كاتبة باللغة العربية.

ـ شكرنا وتقديرنا للرفاق هناك.

ـ أريد أن أضيف أني كنت حذراً ومتردداً في اللقاء الأول معك.. كنت أخشى أن أكون قد وقعت في الفخ. لكني ارتحت كثيراً من الأعماق عندما وجدت أن من ألتقي به عامل. وأعود بانطباع جيد إلى باريس.

في وقت لاحق عرفت أن هذا الشاب، الذي التقيت به، كان صفاء الحافظ الطالب الجامعي العراقي في فرنسا.

كنت ألتقي في بعض الأحيان مع الطالب في كلية الآداب حمدي أيوب العاني رغم أني لم أكن مسؤولاً حزبياً عنه. كان مسؤولاً حزبياً لتنظيماتنا الطلابية الحزبية في كليات ومعاهد العاصمة. وكان ابن عائلة فقيرة وشاباً نشطاً وذكياً أعطى نفسه لقضية النضال الثوري منذ أولى خطواتنا لإعادة بناء التنظيم الحزبي في بغداد. وفي أحد لقاءاتي به، بعد مرور الأسابيع الأولى من بدء السنة الدراسية، ذكر أن للحزب نفوذاً واسعاً بين الطلاب. غير أن من المستحيل استيعاب هذا العدد الكبير في التنظيم الحزبي. وفي سياق الحديث بيننا ولدت وتبلورت فكرة إعادة تكوين اتحاد الطلبة العراقي العام، الذي كان قد تأسس أثر انتصار وثبة كانون ١٩٤٨ وسحق إبان الحملة البوليسية على الحركة الجماهيرية في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩. وخلال بضعة أيام تم تشكيل لجنة قيادية للتنظيم الطلابي الجديد باسم «اللجنة العليا»، جميع أعضائها من الطلبة ومسئولها الأول هو حمدي نفسه ـ في خريف ١٩٥٠. وقد عين أعضاء اللجنة هذه تعييناً دون أي انتخاب.

اتسع نفوذ الاتحاد، رغم سريته، بوتائر سريعة ولم يلبث أن شكلت شبكة واسعة من اللجان الاتحادية بين طلبة الكليات والمعاهد وحتى بين طلبة الثانويات والمتوسطات. وتحول الاتحاد إلى منظمة طلابية جماهيرية ديمقراطية لا حزبية بحق ومعترف بها كقيادة لجمهرة الطلاب. كان الشيوعيون قادتها وكانت الجماهير الطلابية تعرف هذه الحقيقة وترضى بها. وقد أصبح البعض من الكليات والمعاهد (مثل كلية الآداب ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق.. الخ) شبه مغلقة للاتحاد وغدا بإمكان هذا الأخير أن يعلن الإضرابات الطلابية، في أغلب الكليات، متى شاء ذلك.

وكان سر نجاح الاتحاد أنه تمكن من الجمع بين أهداف الطلاب النقابية ـ المهنية وبين مطالبهم الوطنية العامة. وقد أصدر جريدته السرية (كفاح الطلبة). كما كان يصدر، حسب متطلبات الوضع، النداءات

والبيانات الطلابية وأحياناً الوطنية العامة. وكان الموجه والقائد غير المنازع للإضرابات الطلابية في تلك السنين. ولم يشكل الطلبة المعارضون له سوى أقلية ضئيلة في الوسط الطلابي غير منظمة وغير قادرة على خوض أي منافسة جدية ضده.

وإضافة إلى الإضرابات، التي بدأت وتكررت مراراً في الكليات والمعاهد منذ ١٩٥١، ابتكرت الجماهير الطلابية، لأول مرة بالنسبة للعراق، أسلوب الاعتصامات في الكليات. كانت كلية الآداب الواقعة في باب المعظم مركز الاعتصامات الرئيسي ومصدر الإقلاق للسلطات الرسمية. وكان المعتصمون يرشقون الشرطة بالحجارة إن هي اقتربت من مبنى الكلية ويستمرون في هتافاتهم ضد الاستعمار والنظام العميل لساعات عديدة.

من حزيران ١٩٤٩ وحتى أيار ١٩٥١ كنا منصرفين إلى إعادة بناء الحزب. ولم نخطط لأي نشاط جماهيري من الإضرابات والمظاهرات ولم يحدث شيء سوى إضراب عمال كري مكنزي (أحواض تصليح السفن) في البصرة، وكان عددهم ٦٠٠، في أواخر ١٩٥٠، وبعض الإضرابات الصغيرة للعمال في مؤسسات شبه حرفية. (وقد لعب عامل الميناء البصري ناصر عبود دوراً بارزاً في قيادة إضراب كري مكنزي). وحين حققنا قدراً من الاستقرار التنظيمي ومن انتظام صدور جريدتنا ومطبوعاتنا ومن تشغيل عدد كبير من الكوادر الفتية المتحمسة المتطوعة للنضال.. الخ، ارتأينا إجراء تعديلات على نهجنا بالانتقال التدريجي إلى النضالات الجماهيرية. وكان أول مظاهرة أقمناها بمناسبة عيد الأول من أيار ١٩٥١ صغيرة وخاطفة اشتركت فيها حوالي ١٥٠ متظاهراً وحملت فقط ثلاث لافتات وقطعت مسافة محدودة بشبه هرولة لتجنب الصدام مع الشرطة، قادها الشاب الشيوعي النشط الكادح طالب عبد الجبار. كانت هذه المظاهرة أول تمرين من نوعه وأول مظاهرة بعد

نكسة ١٩٤٩. وهي قامت في شارع الشيخ عمر حيث تحشد العمال والكادحين وحققت الغرض المرجو وتفرقت دون أي تضحية.

بعد اعتقال زكي وطبان في أيلول ١٩٤٩ وانهياره ومن ثم انهيار يحيى صالح واعترافهما على بقايا تنظيمنا في البصرة انقطع الاتصال الحزبي معها حوالي السنة، لم نعرف شيئاً عما يجري هناك ولم يكن بإمكاننا عمل شيء جدي لإعادة بناء المنظمة. وبشكل مفاجيء اتصلت بنا المنظمة الحزبية في ثغر العراق واتضح بأن عامل الميناء ناصر عبود، الذي كان قد أنهى سجنه وعاد إلى كوخه في البصرة، والعامل علي شعبان كانا قد أفلحا في إعادة بنائها. عملا أول الأمر منفصلين عن بعضهما ودون أن يعرف الواحد منهما شيئاً عن الثاني. ثم تعرفا على بعضهما واتحدا فوراً ودون وضع العراقيل والتعقيدات، التي غالباً ما يضعها بعض المثقفين في مثل هذه الحالات. واعترف علي شعبان بأن ناصر هو الأكفأ والأجدر بأن يقود.

ولكن ناصر من عمال الميناء فإنه كان على صلة بعمال كري مكنزي وساهم بنشاط في توجيه إضرابهم خريف ١٩٥٠. واستفادت المنظمة بدورها من هذا الإضراب كتمرين نضالي وكوسيلة لتوسيع الصلاة مع العمال.

مع انتعاش وضع ح ش ع حققت الحركة النقابية قدراً من الانتعاش في بغداد خاصة. وقد بدأنا العمل أولاً لإعادة بناء تلك النقابات التي لم تسحب السلطات إجازاتها القانونية من قبل، كنقابة عمال النسيج ونقابات الميكانيك والمطابع والتجارة.. الخ. وكانت السلطات تبدي بعض التساهل إزاء النشاط النقابي في هذه النقابات التي كانت تخص العمال الحرفيين وأشباه الحرفيين في القطاع الأهلي، فيما كانت تتصدى بحزم وشدة لكل نشاط نقابي في المؤسسات الصناعية

الكبيرة، الحكومية والأجنبية، كالسكك والنفط والميناء. وكان الإنكليز أنفسهم، المعترفون بحق العمال في التنظيم والنشاط النقابيين داخل بلدهم، بتصرفون بحزم وشدة وباللجوء إلى النار والحديد لقمع أي نشاط نقابي يبرز في المؤسسات التابعة لهم في هذه البلاد.

في مجرى النشاط النقابي برز عدد كبير من الكوادر الحزبية ـ النقابية الفتية النشطة. وبمبادرة من هؤلاء أسس، لأول مرة في العراق، اتحاد لنقابات العمال باسم «المكتب الدائم لنقابات العمال». وكان جميع أعضائه من الشيوعيين. ومارس نشاطا نقابياً واسعاً في الدفاع عن حقوق العمال وإشاعة روح التضامن الطبقي في صفوفهم دعم نضالاتهم وإضراباتهم في هذا القطاع أو ذاك. وقد سبب نشاط هذا «المكتب» انزعاجاً كبيراً للنظام الحاكم، الذي لفق ضد قادته تهمة زائفة وقدمهم إلى المحاكمة في ١٩٥٢. تحولت المحاكمة إلى نضال واسع ضد الاستعمار وأعوانه المحليين وإدانة سلوكهم المشين. مع ذلك حكم على قادة الاتحاد بالسجن لمدد متفاوتة بلغت بالنسبة لبعضهم أربع سنوات.

في تلك الفترة كان القطاع الرئيسي في صناعة العراق الأهلية النسيج والسجاير. وكان نفوذ ح ش ع طاغياً في كليهما، في نقابتيهما وبين العمال معاً. وقد تكررت الإضرابات العمالية في كلا القطاعين أكثر مما في سائر القطاعات. وبرز شيوعيون فعالون فيهما أمثال الفلاحي وهادي صالح وجاسم يحيى وحيدر حاتم وأخويه عبد الله وزامل وطه حسين.. الخ.

في ١٩٥١ أوفدنا عزيز الشيخ عن طريق التهريب إلى سوريا لغرض الاتصال مع قيادة الحزب الشيوعي السوري ولمحاولة تدبير السفر إلى مهرجان الشباب والطلاب العالمي في برلين. كان ذلك أول اتصال لنا، خلال عهدي بالقيادة، مع جهة شيوعية أخرى خارج العراق. وقد طلبنا

بلسان عزيز الشيخ إعادة عبد القادر إسماعيل إلينا ـ وكان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. وقال عزيز عند عودته إلينا أن خالد بكداش أيد الطلب ونصح عبد القادر بالعودة لكن هذا الأخير اعتذر عن تلبية الطلب ورفض العودة بدعوى أن العودة ستعرضه للإعدام. وقال له بكداش:

ـ حتى إذا أعدمت فإنك لست بأثمن من فهد، الذي أعدمه النظام الملكي.

وأظن أن عبد القادر قد عوقب هناك بسبب موقفه هذا أو بهذه الذريعة. وهو لم يعد إلى العراق إلا بعد ثورة تموز ١٩٥٨، التي أطاحت بالنظام الملكي العميل.

سافر عزيز الشيخ إلى برلين وترأس وفد الشبيبة العراقية في المهرجان. وكان الوحيد بينهم المسافر من داخل البلاد. كما كان أول مشاركة في مثل هذه المهرجانات لشيوعي يذهب من العراق مباشرة.

وقبل أن يعود عزيز من الخارج أصدرنا في بغداد نشرة كانت بمثابة الإعلان المبدئي عن تشكيل اتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي. كان القرار صادراً من الحزب بتأسيس هذه المنظمة. لكنها أصبحت من الناحية العملية منظمة ديمقراطية لا حزبية والتفت جماهير غفيرة من الشباب حولها رغم علم الجميع بأنها تتبع ح ش ع.

وقد شكلت لجنة قيادية للمنظمة باسم (اللجنة العليا لاتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي) من شبان شيوعيين عيناهم تعييناً دون عقد مؤتمر أو إجراء انتخابات. وكان في اللجنة العليا آنئذ عزيز الشيخ وعبد الجبار وهبي ومحمد صالح العبللي وفيما بعد دللي مريوش ونزيهة الدليمي ـ إن لم تخني الذاكرة. وأسسنا جهاز الطباعة الخاص بالمنظمات الديمقراطية ـ الطلبة والشبيبة ورابطة المرأة. واختير دللي، الذي كان قد انتقل من الناصرية إلى بغداد، للإشراف عليه.

حلت كارثة صغيرة بأم عدنان، ونحن في كمب الصليخ، بموت بقرتها الحلوب. كان زوجها قد استأجر قرب البيت قطعة من الجت (برسيم) بدل الشراء اليومي منه. وسرحت البقرة ذات يوم فيها لتأكل ما تشاء. فأكلت لحد التخمة أو الانتحار. وكان وقع هذه الكارثة كبيراً على أم عدنان، التي عرفت قدر بقرتها كمصدر للإعاشة يوم كان زوجها في السجن. ولكن وقعها كان أكبر على شقيقها شحاذة المتحدر من الريف، حيث قال، وهو يواسي أخته بفقد بقرتها:

ـ ليت الميت واحد من الأولاد بدل هذه البقرة.

«ـ انجيب يا زمال!» ـ أجابه هادي بخشونته الشعبية المألوفة.

كان ذلك آخر عهد لأم عدنان بالبقرة في سني صحبتي للعائلة. وفي وقت لاحق عوضت ربة البيت عن بقرتها بمعزة أجنبية حلوب.

كان عطشان ضيول قد رشح أخاه نعمة لعضوية الحزب وبدأ يثقفه ويكلفه بأعمال صغيرة. وكان نعمة شاباً عاطلاً عن العمل وخاوي الجيوب، رغم توفر السكن والأكل له في منزل العائلة. وكان قد باع نفسه للسلطة وأصبح عميلاً للأمن العام، دون أن يعرف عطشان شيئاً من أمره. لكن صدفة سعيدة قد كشفت عنه. كان الشاب الشيوعي عضو لجنة بغداد كامل السامرائي قد حجز في إحدى غرف الأمن العام. وفي ساعة متأخرة بعد منتصف الليل سمع كامل ضجيجاً خارج غرفته واقترب من الشباك ليستمع إلى ما يدور هناك من حديث. اتضح له أن شرطيين أتيا بأحد السكارى من ملهى ليلي إلى هذه الدائرة بعد أن كان قد عربد واعتدى هناك تحت تأثير الخمرة. وفي الطريق ادعى لدى مرافقيه الشرطيين بأنه أحد منتسبي الأمن العام. وجاء به الشرطيان إلى هذه الدائرة لمعرفة ما إذا كان صادقاً فيما يدعي. وحين سأله ضابط الخفر في دائرة الأمن العام عن هويته أجاب:

ـ بإمكانك أن تخابر السيد نايل عيسى وتخبره بأن رقمي السري كذا وكذا.

عاد الضابط إلى غرفته وخابر المسؤول الثاني في الأمن العام نايل ثم خرج وأمر الشرطيين بترك الشاب في الدائرة والعودة إلى حيث كانا، وأخبرهما مؤكداً أنه صادق فيما ذكر. وسمع كامل هذه الحكاية بكاملها وعرف أن الصوت هو صوت نعمة، الذي غالباً ما كان يراه في بيته. ولكي يوصل الخبر بأسرع وقت إلى الحزب تمارض في صباح اليوم التالي ليتذرع بذلك في طلب أمه «قبل أن يموت أو يجن» على حد تعبيره. وتحقق له ما أراد وأخبر أمه بما سمع ورأى لكي تخبر بدورها الحزب فوراً.

كان الإجراء الذي اتخذته أنا، بوصفي المسؤول الأول عن الحزب، أن قررت طرد نعمة من الحزب فوراً وفضحه كعميل للأمن العام. وقد نبذته عائلته، بما في ذلك أمه العجوز التي وجدت فيه عاراً كبيراً، وطردته من البيت محتقراً مهاناً قائلة:

ـ اخرج من هذا البيت ولن أسمح لك بدخوله وتوسيخ أرضه مرة أخرى...

لست ابناً لي بعد اليوم.

وقيل إن نعمة عاش بعدئذ مشرداً ولم يعمر طويلاً.

في تلك الفترة نفسها انكشف مندس آخر اسمه طه محمود ـ إن لم تخني الذاكرة. ودلت طريقة كشفه على العزلة الخانقة التي عاش فيها النظام الحاكم وعلى عمق الكره والاشمئزاز لدى الناس تجاهه وتجاه أجهزته القمعية. كان طه عامل نجارة عاطلاً عن العمل. وكان عضواً بسيطاً في الحزب، ومحتاجا دوماً إلى الدرهم الواحد. وطلب مراراً فليسات من ابن خالة له (لا أتذكر اسمه) كان عضواً في حزب قومي ضعيف ومعزول أسسه في حينه سامي شوكت ذو الميول النازية، دعي

(حزب الإصلاح). وفجأة لاحظ ابن الخالة أن طه لم يعد ذلك المفلس السابق، إنما يملك نقوداً ويرتاد دور السينما والمطاعم وينفق حتى على أصدقائه، في وقت لا يزال عاطلاً وليس له مصدر معروف يكسب منه الفلوس. فأثار ذلك لديه الفضول والريبة وبدأ يستطلع ويحقق مع طه حتى انتزع منه الاعتراف بأنه باع نفسه، تحت تأثير الفقر والجوع، إلى الأمن العام وأنه يقبض الآن راتباً جيداً لقاء خدماته. وأضاف أنه يخبر ابن خالته بهذا السر لثقته بأنه لن يكشفه لأحد.

ورغم أن ابن الخالة كان في تنظيم قومي معاد للشيوعية فإنه لم يغفر لطه هذه الخطيئة ولم يرتض التستر عليه. بل قرر إيصال الخبر إلى ح ش ع بأي ثمن كان. فبدأ يسعى طوال أسبوع كامل مفتشاً عن شخص موثوق يوصل رسالة منه إلى قيادة ح ش ع وحصل على من أوصله. قرأت بنفسي رسالته، التي بدأ فيها بأنه عضو في حزب الإصلاح ويشتغل في جريدته وأنه لا يتعاطف مع الشيوعية ولكنه يرفض أن يقبل انخراط أي مواطن شريف في سلك البوليس السري المعادي للشعب. ولهذا قرر إيصال الخبر المتعلق بابن خالته إلى ح ش ع ليتخذ الأخير الحذر والحيطة.

اكتفينا بطرد طه من الحزب وفضحه كجاسوس. ولم نفكر في أي إجراء آخر بحقه. كان هذا إجراءنا الاعتيادي تجاه أمثال طه ونعمة. وفي غضون السنوات الأربع، التي قدر لي أن أكون خلالها على رأس ح ش ع، لم يحدث شيء من حوادث الاندساس المعروفة لدينا سوى ما أشرت إليه. وقد ارتبنا من البعض نتيجة تقارير وردتنا أو تصرفات مثيرة للشكوك. على سبيل المثال قدم عطشان رسالة شكك فيها بشنور عودة، الذي كان كادراً وسطياً. ولكننا لم نعتبر المسألة منتهية بل أخضعناها للتحقيق الدقيق لغرض التوثق من براءته أو تثبيت الاتهام ضده. ولم نتوصل إلى ما يبرر اتخاذ أي إجراء حزبي ضده.

وفكرت بدوري في دس بعض الرفاق إلى صفوف الأمن العام

بهدف سرقة بعض المعلومات المفيدة لنا أو إيصال معلومات خاطئة ومشوشة إلى الخصم. بيد أن صعوبات رئيسية تعترض ذلك. فلم يكن من السهل أبداً إقناع رفيق حزبي جيد بالعمل في تلك الأجهزة، بسبب ما كان ينجم عن ذلك من قلق نفسي وخوف من الإساءة إلى السمعة. وقد بذلت شخصياً الجهود مع كادر وسطي اسمه صالح سطام - في بغداد - لإقناعه بالانخراض في البوليس السري وشرحت له الهدف من ذلك. ورد علينا ليس فقط برفض الطلب إنما بتقديم احتجاج شديد على هذا الطلب الذي يتضمن - على حد تعبيره - إهانة لكرامته واعتداء على شرفه النضالي، الأمر الذي يحمله على التفكير في جدوى العمل الحزبي معنا.

على أننا كنا نحصل، بهذه الطريقة أو تلك، على أناس داخل الأمن العام مستعدين للتعاون معنا. صحيح أننا لم نحصل على أي ضابط أو رجل ذي مركز هام ومستعد للتعاون. ولكن رجالاً متورطين في الانتساب إلى الأمن العام أو متحولين من سلك الشرطة الاعتيادية إلى جهاز البوليس السري، كانوا يرتبطون معنا عن طريق بعض أقاربهم وأصدقائهم الموثوقين ويوصلون إلينا المعلومات المتوفرة لديهم. وكان من أنشط هؤلاء شاب عاني اسمه حسن شرهان، الذي كان يعتبر نفسه شيوعياً. وكان يوصل إلينا يومياً ما يحصل عليه من معلومات. وقد كشفت السلطات عن أمره في وقت لاحق وحكم عليه بالسجن (وكان النظام الملكي يكتفي بسجن هؤلاء ولم يقتل يوماً أي شخص بتهمة الاتصال بحزب معارض أو تسريب المعلومات إلى جهة أخرى، بخلاف النظام البعثي الذي قتل المئات أو الألوف بتهم من هذا القبيل) وعاش بين السجناء الشيوعيين كواحد منهم وظل وفياً لفكرته حتى بعد خروجه من السجن.

في ظل الحكم الملكي كنا نشكو على الدوام من الاعتقال التعسفي والدوس على القانون وحرمان الموقوفين من حق الدفاع عن النفس وحرمان السجناء السياسيين من حقوقهم القانونية ومنع إدخال الكتب والصحف والراديو إليهم.. الخ. وكنا محقين في شكوانا. فالقانون كان يحرم الشيوعية كعقيدة وكحركة سياسية. والسلطات كانت تضع الحركات الديمقراطية، بضمنها حركة أنصار السلم، تحت طائفة القانون باعتبارها هي الأخرى جزءاً من الحركة الشيوعية. والأجهزة القمعية كانت تمارس التعذيب النفسي والجسدي بحق الموقوفين السياسيين بهدف حملهم على الاعتراف بما لديهم من أسرار حزبية. والإدارة العرفية كانت قائمة في معظم الفترات دون أي مبرر حقيقي. والمحاكم العسكرية كانت تصدر الأحكام القرقوشية بحق المتهمين دون أي تدقيق أو مراعاة للقوانين. والمثال الصارخ، الذي يكشف ذلك، كان الحكم الذي أصدره رئيس إحدى المحاكم عام ١٩٤٩ ـ وهو النعساني. لم يكلف نفسه عناء قراءة أسماء المتهمين المصطفين في قفص الاتهام أمامه، بل حسمها على طريقة فلاحية مضحكة:

ـ من أبو السترة لأبو الچراوية سنتين سجن ومنه «وغاد» أربع سنوات.

وهكذا ذهب حشد كبير من المتهمين بالتظاهر إلى السجون. وتأتى على كاتب المحكمة أن يفرز بنفسه فيما بعد أسماء المحكومين بالسجن سنتين عمن حكم عليهم بأربع سنوات. ومع كل ذلك لا يسعني إلا أن أقارن بين الاستبداد والتعسف في ذلك العهد وبين ما قام به النظام البعثي في ١٩٦٣ ثم في ١٩٦٨ ـ ١٩٩١. ففي العهد الملكي كان المتهم يحاكم في محكمة مدنية، في غير فترات الإدارة العرفية. وكان بإمكانه أن يوكل محامياً عن نفسه، أو توكل عنه لجنة معاونة العدالة لدى نقابة المحامين، وأن يميز الحكم الصادر بحقه وأن يعيش مع زملائه في أحد السجون أو المنافي وأن يستقبل عائلته مرة في الشهر وأن طلب طبيباً أو ينقل إلى أحد

المستشفيات في حالة مرضه.. الخ. وطوال سني العهد الملكي لم يشهد العراق أكثر من ثمانية إعدامات للمواطنين بتهمة الشيوعية.

وأما في سني العهد البعثي فإن الجميع يعرفون ما كان ولا يزال يحدث من إرهاب دموي وإقامة المجازر بين معارضي السلطة والمشكوك في ولائهم لصدام حتى بين البعثيين وأنصار النظام أنفسهم. لو عرف الجمهور العراقي بأن النظام الملكي العميل يسقط ويحل محله نظام البعث الدموي الفاشي العنصري، الذي لم يشهد التأريخ للآن مثيلاً له من حيث همجيته ولعه بالتقتيل، لدافع العراقيون عن الملك ونوري السعيد دفاعهم عن شيء عزيز عليهم.

كانت نقابة المحامين في سني العهد الملكي تحت سيطرة معارضي السلطة. وكانت تناصر المضطهدين من أبناء البلد قدر المستطاع. وبمبادرة من المحامين الشيوعيين والتقدميين شكلت لدى النقابة «لجنة معاونة العدالة» التي أخذت على عاتقها مهمة مشرفة: الدفاع الطوعي المجاني عن جميع الموقوفين الشيوعيين والوطنيين أمام الشرطة والمحاكم. وكان عدد كبير من المحامين، بينهم عامر عبد الله وتوفيق منير وعبد الوهاب القيسي وخالد عيسى طه ونافع سعيد ورزوق تللو وعبد الستار ناجي وغيرهم، مستعدين للمشاركة في أداء هذا الواجب الإنساني النبيل. وكانت السلطات تقبل منهم ذلك، ولو على مضض. فتفتح دوائر البوليس أبوابها أمامهم للالتقاء بموكليهم الموقوفين. وكانت المحاكم تسمح لهم بالحضور فيلقون دفاعاتهم الشفهية والتحريرية ويفضحون ما تعرض له الموقوفون من اعتداءات وانتهاكات.

❀ ❀ ❀

في ١٩٥١ أقمنا أول دورة دراسية حزبية، سرية بالطبع. كنا نجمع عدداً من الشيوعيين النشطين داخل أحد بيوتنا الحزبية لمدة ثلاثة أيام أو لمدة أطول، لتلقي عليهم محاضرات حول الاقتصاد السياسي وتأريخ

الحزب الشيوعي السوفيتي وقضايا العمل الحزبي ـ الجماهيري. وكان من مصادر التثقيف الرئيسية مؤلفات فهد (مستلزمات كفاحنا) و (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية) وغيرهما، وتأريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ومؤلف ستالين المعنون (أسس اللينينية). وكان عدد المشاركين في الدورة محدوداً. وهم ملزمون بالبقاء في المنزل، يأكلون وينامون فيه ولا يسمح لهم بالخروج منه، كتدبير صياني، لحين انتهاء الدورة. وكانت مشكلتنا الحقيقية الأولى انعدام محاضرين كفؤين لهذه الدورات. لكن ضعف مستويات المستمعين كان يغطي على ضعف المحاضرين أيضاً. كنت بنفسي أحد المحاضرين أحياناً. وكنت في الواقع غير قادر على القيام بذلك لولا المستوى الواطىء لجموع الشيوعيين في البلاد. وكان شريف الشيخ المحامي الذي انتمي إلى صفوف الحزب في ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ واختفى أثر نكسة ١٩٤٩ أحد المحاضرين، بل أصبح في فترة معينة محاضرنا الرئيسي إلى أن اضطررنا على أبعاده عن هذه المهمة بعد أن شكت ربة المنزل المكرس للدورة من أنه تحرش بها.

❀ ❀ ❀

فتحت ذات يوم رسالة مغلقة موجهة إلى المركز وفوجئت بما قرأت. كانت مكرسة لنقطة واحدة: اعتراف كاتبها العامل الشيوعي النشط عبد القادر العياش بأنه مارس الجنس مع فتاة في حانوت أحد الأصدقاء. ذكر العياش أنه كان جالساً لدى صديقه هناك حين قدمت فتاة من بائعات الهوى ومارس زميله الجنس معها وأغراه على أن يحذو حذوه في مجامعتها. وقال أنه ندم على فعلته هذه المغايرة للخلق الشيوعي وللتقاليد الاجتماعية التي تعهد بالوفاء لها. ولهذا قرر توجيه هذه الرسالة إلى الحزب لكشف الحقيقة أمامه ولانتقاد نفسه على ما تورط فيه. وهو إذ يصارح الحزب فإنه مستعد لتحمل أية عقوبة حزبية توجه إليه.

أجبته برسالة مغلقة ذكرت فيها أننا ننتقد ما فعلت ونراه وغير لائق بسلوك المناضل الشيوعي. لكننا نقدر فيه الصراحة الشيوعية والنقد الذاتي الجريء. ولا نعاقبه ما دام قد كشف بنفسه عما فعل. لكننا نطلب منه الاتعاظ بما فعل وعدم تكراره.

وردتني ذات يوم رسالة أخرى مماثلة من كادر حزبي وسطي - أثوري - ذكر فيها أنه ارتبط بعلاقة جنسية مع امرأة أثورية متزوجة منذ سنوات. وأن معظم أطفالها منه هو وليس من زوجها. وهو يشعر - حسب رسالته - بالإثم ويطلب النصح ويقبل كل ما يقرره الحزب بشأنه.

كانت هذه الأحداث والرسائل تكشف ليس فقط عن نمط من القيم والاعتبارات الخلقية السائدة في المجتمع العراقي آنئذ، بل كذلك عن ثقة الكادر وأعضاء الحزب بالقيادة وبالحزب نفسه وعن قناعتهم بضرورة التصرف بصراحة تامة معه وعدم إخفاء أي شيء عنه، حتى من القضايا الشخصية.

تحسنت وتطورت تدريجياً أجهزة طباعتنا السرية. وكان اعتمادنا الرئيسي على الطابعة والرونيو لسهولة تشغيلها وسهولة التعويض عن أي آلة تستهلك. وقد تلقيت رسالة من عبد الجبار وهي مفادها أن هناك ماكنة طباعة صغيرة مع قاصة الحروف وتشغل بالرجل وتطبع بحجم نصف فلسكاب. يمكن الحصول عليها بسعر مناسب إذا كان الحزب في حاجة إليها. في اليوم التالي ركبت دراجتي من الكاظمية إلى حي البتاوين ووصلت بيت عبد الجبار لأتحدث معه مباشرة حول الموضوع. بعد الاستيضاح والتداول اشترينا الجهاز بأربعين ديناراً ووضعنا تحت تصرف صبيح وتعلّم وتنضيد الحروف بسرعة قياسية وطبع بالماكنة بعض النشرات ولكنه ظل يفضل الرونيو لسهولة استخدامه وإنتاجيته العالية.

وطلبت من عضو لجنة بغداد الأستاذ المساعد في كلية التربية عزيز

الشيخ وكان قد تخرج من نفس الكلية بدرجة الناجح الأول، شراء آلة كاتبة جديدة لنا. في الموعد التالي أتى بالآلة. وسألته عن ثمنها لكي أدفعه له فقال:

ـ اشتريته بأربعين ديناراً.

ـ حسناً. وهل يمكن تأجيل الدفع إليك حتى يتوفر لدينا النقود بعد أسبوعين؟

ـ يمكن إلغاء الدفع. أنا الآن أقبض الراتب الشهري ولم أعد ذلك الطالب السابق. فليكن راتبي لهذا الشهر تبرعاً للحزب.. وهذا ليس إلا تضحية صغيرة.

ـ المبلغ كبير يا رفيق.

ـ وأي تضحية يمكن أن يقدمها المرء للحزب إذا لم يكن مستعداً للتضحية براتب شهر واحد؟

في ١٩٥٢ بلغت طباعتنا السرية أوج نشاطها، خاصة بفضل تجمع عدد من الشبان النشطين في بيت المطبعة السرية قرب جامع الإمام الأعظم. كان صبيح لا يزال طباعنا الرئيسي الأنشط والأمهر. وسكن عنده آخرون نشطون هم محمد صالح العبللي وحنا ماربين وأخوه الأصغر عبد الأحد وكذلك ـ لفترة قصيرة ـ ثمينة ناجي، التي أصبحت فيما بعد زوجة لسكرتير الحزب سلام عادل. وقد تم في هذا البيت طبع كتاب (أسس اللينينية) الذي ألفه ستالين بعد وفاة لينين. وكذلك تأريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي وكراسة (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية) التي ألفها فهد وكراسة (القضايا الاقتصادية للاشتراكية) لستالين وغيرها من الكتب. كان تكنيك الطباعة بدائياً. لكن الحرص والجهد المتواصل لدى الطباعين كان سبباً للغزارة في الإنتاج.

وقد حدث لهذا البيت ما أخلّ بوضعه الأمني. كان حنا وأخوه يعودان من السوق إلى البيت. وعلى مسافة لم تزد عن مئتي متر من البيت اصطدما بكمين نصبه لهما رجال البوليس السري. ولم تفلح محاولاتهما للإفلات سوية. فقبض على حنا فيما تمكن عبد الأحد من الإفلات ركضاً. وبعد حوالي ربع ساعة دخل المنزل قادماً من جهة أخرى وروى الحادث لصبيح والعبللي وذكر أن الحادث وقع قرب الدار نفسها. وهذا معناه أن الدار معرضة لخطر المداهمة إذ يحتمل أن تكون قد عرفت بسبب متابعة تحركات حنا في الأيام السابقة للكمين. يضاف إلى ذلك أن العامل الشيوعي الموقوف حنا قد يعجز عن الصمود أمام الأعداء ويعترف على البيت. وكما كانت العادة المتبعة في مثل هذه الحالة فإن سكنة البيت الطباعين قد غادروه فوراً تاركين وراءهم أجهزة الطباعة، التي لم تكن ذات أهمية كبيرة مقارنة بالكوادر الحزبية. وقع الحادث صباحاً وخرج الطباعون وليس بينهم من يعرف مسكني. وصلتني رسالة من صبيح حول الحادث عصر ذلك اليوم. أخذت معي هادي صالح فوراً وتوجهنا إلى بيت المطبعة لعلنا نستطيع نقل الأجهزة بشكل ما. اشترينا ملء سلة من الفواكه في سوق الأعظمية القريب من الدار وأعطيناها لصبي حمال كي يحملها ويسير أمامنا. وعلى مسافة خمسين متراً من باب الدار وقفنا أنا وهادي وأرسلنا الصبي وحده نحو البيت قائلين له:

- اذهب إلى ذلك الباب ودقه حتى يفتح وقدم هذه السلة إلى من تجده هناك وقل له أن عبد الله هو الذي أهدى لكم هذه الفواكه. وعند العودة خذ منهم السلة وأعدها إلى صاحب الدكان.

استهدفنا من كل ذلك معرفة ما إذا كان البيت مكبوساً أم لا. وقفنا من بعيد لنراقب ما سيحدث وما إذا كان هناك كمين. بعد دق متواصل وانتظار طويل عاد الحمال نحونا وقال أنه لا أحد في البيت. إذن لم تكبسه الشرطة وعلينا ألا نضيع الوقت. ذهب هادي ليستأجر سيارة

بيكآب والبدء بنقل الأشياء الهامة فوراً وإلى مكان آخر مؤقت. حتى إذا انهار حنا في اليوم التالي واعترف على البيت لما عثروا فيه على شيء مهم من أدوات الطباعة. نقلنا الأشياء بكاملها إلى مكان أمين. وصمد حنا تحت التعذيب الوحشي صمود الأبطال.

وأظن أنهم كانوا يخشون التمادي في تعذيبه هو بالذات بعد أن واجهوا فضيحة كبرى جراء تعذيب أخيه الشيوعي سلمان وممارسة الاعتداء الجنسي عليه قبل ذلك بفترة. لقد فضحنا بنطاق واسع هذا الاعتداء، الذي لم يتكرر بقدر معلوماتي في تلك الفترة، بخلاف ما حدث وتكرر آلاف المرات بحق الموقوفات والموقوفين معاً في ظل النظام البعثي.

❀ ❀ ❀

منذ وصولي إلى بغداد ١٩٤٩ ولأكثر من سنتين أعقبتا ذلك كنت أنفرد بقيادة ح ش ع ولم تكن هناك لجنة قيادية حتى من الناحية الصورية. بالأحرى لم يكن لمثل هذه اللجنة وجود بعد اعتقال فهد في ١٨ كانون الثاني ١٩٤٧ ولحين تسلمي القيادة. غير أن استمرار العمل الحزبي وإحراز نجاحات مطردة في إعادة البناء وفرت للحزب جيلاً جديداً واسعاً نسبياً من الكوادر الفتية بين العمال والطلاب والمثقفين والحرفيين وغيرهم. وكانت السمة المميزة لكادرنا عامة بدءاً مني أنا سكرتير الحزب ومروراً بالجميع ومن مختلف المستويات، هي أننا كنا شباناً صغيري السن. وباستثناء سليم الجلبي، الذي نبت في لحيته ورأسه بعض الشيب، فإني لا أذكر أن قابلت بين كوادرنا أناساً ذوي شعر أبيض. وفي لقاءات لرفاقنا مع بعض قادة الأحزاب البرجوازية كنا نشعر بأنهم يستهينون بنا ويحسدوننا في آن واحد. كان سبب الاستهانة أنهم اعتبرونا زعاطيط السياسة وهم كلهم كانوا بين شيوخ وكهول. وسبب الحسد أنهم كانوا يرون ما لحزب هؤلاء «الزعاطيط» من نفوذ شعبي واسع وقدرة نضالية كبيرة.

ومن المؤكد أن اتساع نشاط الحزب وتنامي دوره الكفاحي كان ذا ارتباط وثيق بتوفر هذا العدد الكبير من الكادر الحزبي النشط. وارتباطاً مع هذه الظاهرة قمت بتشكيل لجنة مركزية جديدة، بعد أن تحطمت اللجنة المركزية التي شكلت في المؤتمر الأول للحزب عام ١٩٤٥، وضمت أعضاء سبعة اخترتهم بنفسي بين الكوادر. ولم يخطر ببالي ولا ببال غيري في تلك الأيام بأنه يجب انتخابهم بشكل من الأشكال. وكانوا، إضافة إلى نفسي، كلا من عامل الميناء البصري ناصر عبود وعامل النسيج البغدادي صادق جعفر الفلاحي والمعلم الأربيلي المفصول المتحدر من عائلة فلاحية معدمة كريم أحمد والطالب المفصول البغدادي محمد راضي شهر والموظف البغدادي المفصول المنحدر من الطبقة الوسطى سليم الجلبي والطالب المفصول من السليمانية المنحدر من عائلة فلاحية فقيرة كاكه فلاح. وربما يمكن لومي على بعض التأخير في اتخاذ هذه الخطوة. لكن الأمرّ من التأخير هو أن تشكيل اللجنة المركزية لم ينه، ولم يكن من شأنه أن ينهي، أسلوب القيادة الفردية والبيروقراطية السائدة في تلك الظروف. لقد سادت الأساليب الفردية ـ البيروقراطية الحركة الشيوعية في العراق وفي العديد من البلدان الأخرى، خاصة المتخلفة. وتربيت أنا بعقلية هذه الأساليب. وكنا نعبد فهد كما لو كان إلهاً أو نبياً يعبده المتدينون. وهذا التقديس للفرد كان يغذي على الدوام عقلية القيادة الفردية. فأنا كنت ولا أزال معجباً بفهد كرجل عظيم قاد عملية بناء ح ش ع وتحويله إلى حزب جماهيري كبير. كان قائداً كبيراً ومناضلاً متفانياً بكل ما لهذه الكلمة من معان. ولكن لم يكن إلهاً، بل كان إنساناً من لحم ودم شأنه شأننا، في حين اتخذنا منه إلهاً محلياً إلى جانب آلهة آخرين أكبر في عالم الحركة الشيوعية.

أعود إلى قضية اللجنة المركزية. فأنا بقيت في الواقع فوق اللجنة المركزية كما كان كل مسؤول آخر فوق هيئته التي كان سكرتيراً لها. ولم

يكن هناك قدر من الانتظام في اجتماعات لجنتنا المركزية ولم يكن أعضاءها في المستوى الفكري ـ السياسي الذي يفرض ممارسة القيادة الجماعية. والشيء الذي أكدته الأحداث هو أنني كنت أكثر كفاءة بين أعضاء اللجنة رغم ضعف مستواي. وأظن أن مستوى العمل القيادي قد تدهور حين تسلم كريم أحمد، بعد اعتقالي في نيسان ١٩٥٣، زمام القيادة، وخصوصاً بعد أن سلم هذا الزمام إلى حميد عثمان الذي أمكن له الهروب من السجن.

❀ ❀ ❀

أكلت السوب ـ الشوربة ـ واستعملت الشوكة وجلست على كرسي وراء منضدة الطعام، للمرة الأولى في حياتي، في منزل شقيقة سليم الجلبي بالكرادة الشرقية، أخذني سليم إلى هناك، وكنا نتباحث في بعض الأمور. وتناولنا الغداء سوية. لم أكن معتاداً على تناول الطعام بهذه الطريقة. كان كل ما في غرفة الطعام يبعث على الاستغراب بالنسبة إلي، أنا الشاب القروي أصلاً وعديم الاختلاط مع الأثرياء العراقيين من مقلدي الحياة الأوروبية في تلك الحقبة. وقد فكرت مع نفسي: «هكذا يأكل البرجوازيون».

❀ ❀ ❀

في ١٩٥١ التقيت لأول مرة مع محمد صالح العبللي. وهو ابن عائلة شعبية كادحة من حي قنبر علي بالعاصمة. كان قد أنهى سنة من السجن وكان عليه أن يقضي سنة من الحكم بمراقبة الشرطة وأن يحضر إلى مركز البوليس ويوقع في السجل يومياً. وقد شكا نفسه من أن هذه المراقبة تضايقه وتحد كثيراً من نشاطه الحزبي. فسألته عما إذا كان مستعداً للاختفاء وتكريس كامل نشاطه للعمل الحزبي. وأجاب موافقاً ومرحباً بالفكر. ونقلناه منذ اليوم التالي إلى بيت آخر بعيداً عن منزله ليعيش فيه مختفياً. بيد أن اختفاءه لم يدم أكثر من بضعة أيام. فقد كتب

رسالة إلى الحزب ذكر فيها صراحة بأنه غير قادر على تحمل حياة الاختفاء وعندما التقيت به لأتفهم وضعه بصورة أفضل قال لي:

ـ حين أسير في الشوارع يتراءى لي أن كل من أراه من المارة ليس إلا شرطياً سرياً مكلفاً بمراقبتي وملاحقتي. ولهذا يتعذر عليّ تحمل حياة الاختفاء.

ـ إذن إنزك الاختفاء ودبر أمر العودة إلى بيتك وإلى مراقبة الشرطة، وواصل نشاطك الحزبي كالسابق ـ كان ذلك أول تمرين للعبللي في مواجهة مصاعب الاختفاء من أجل العمل الحزبي. وفي وقت لاحق اختفى من جديد بصورة طوعية واعتيادية ومن دون أي تردد. وحين اعتقلتني الشرطة في ١٩٥٣ كان العبللي كادراً حزبياً مختفياً. وحين خرجت من السجن في ١٩٥٨ كان ضمن التشكيلة القيادية للحزب وكان يدرس في المدرسة الحزبية بموسكو.

❀ ❀ ❀

مساء يوم من أيام كانون الثاني ١٩٥٢ كنت على موعد مع عزيز الشيخ بحي الوزيرية. نزلت من دراجتي وتمشينا في الشارع قرابة نصف ساعة. ثم صعد هو باص مصلحة نقل الركاب فيما ركبت دراجتي متوجهاً إلى محطة قطار باب المعظم (لم يعد لهذه المحطة أي وجود منذ سنوات طويلة). وبالقرب من السفارة المصرية اعترضني راكب دراجة شاب قائلاً:

ـ قف دقيقة واحدة رجاءاً.

ـ وماذا تريد مني؟

ـ أريدك أن تتوقف.

رفضت الوقوف وزدت من سرعة الدراجة باتجاه مدخل المحطة.

وطاردني الشاب بدراجته كما لو دخل في سباق معي. وحين وصلنا تحت جسر القطار، الذي يعبر فوق دجلة صرخ الجاسوس بصوت عال:

ـ ولك عباس! هذا هو!

مع هذه الصيحة خرج ستة رجال من كلا جانبي الشارع وهاجموني ركضا فيما كان راكب الدراجة قد سد علي الطريق بفضل قدرته على السير أسرع مني. وحين انحرفت عنه كي أسبقه خرجت من التبليط قليلاً ووجدت دراجتي غاطسة في الطين. لم يبق أمامي سوى تركها ومحاولة الهرب سيراً على الأقدام. أعطى ذلك الفرصة لسائق الدراجة ولسائر رجال المفرزة كي يصلوا إلي. وأمسك أحدهم بذراعي. فأخرجت مسدسي وهددتهم قائلاً:

ـ سأقتل من يمسك بي أو يحاول اللحاق بي.

ـ ابتعد عني الجميع خطوات إلى الوراء تحت تأثير التهديد بالمسدس. وأخرجوا بدورهم مسدساتهم وصاحوا بصوت واحد:

ـ ولك ارم المسدس! ارم المسدس!

كررت التهديد وركضت هارباً. بدأوا بإطلاق الرصاص من مسدساتهم وهم يركضون ورائي. كان الليل والظلام في صالحي. وانتبهت، وأنا أركض، إلى أن الوصول إلى باب المحطة المزدحم بالناس ورجال الشرطة والانضباط العسكري يجعل من شبه المستحيل الإفلات منهم. فانحرفت عن التبليط وركضت عبر ممر ضيق فوق نقطة من بقايا السدة الترابية، التي أقيمت ذات يوم لتقي العاصمة من خطر فيضان دجلة. وكررت التهديد بصوت عال للمطاردين. أفرغوا مخازن مسدساتهم في وقت كانت المسافة بيني وبينهم قد ازدادت وكان الظلام يحول دون أي تصويب في الرماية. توقفوا عن ملاحقتي حين دخلت الممر الطيني. ووجدت نفسي بعد قليل داخل فسحة المحطة المسيجة

بسياج عال والمكرسة لمخازن الأخشاب والحبوب وممتلكات المحطة نفسها. مررت راكضاً على حارسين جالسين عند نار مشتعلة ولاحقني كليهما بعض الوقت ولم يلاحظاني.

أنا الآن داخل المحطة. فما العمل؟ كيف أنجو بنفسي؟ عبور السياج أمر غير ممكن إذ لا أملك ما أقطع به الأسلاك ولا يمكن التسلق والقفز إلى الجهة الأخرى. والذهاب شطر ازدحام المحطة المكتظة بالناس أمر محفوف بمخاطر جدية إذ يحتمل أن يكون أغلب رجال المفرزة المطاردة موجودين هناك للبحث عني والقبض علي. بقي أمامي خيار آخر: أن أخفي نفسي في فسحة المحطة لبضع ساعات حتى ييأس المطاردون ويكفوا عن البحث عني. ورغم أن الظلام يساعدني على التخفي فإن الأمر ليس سهلاً طالما حوصرت في قفص مسيج ومملوك للسلطة الحاكمة نفسها.

لم يلبث أن دخل رجال المفرزة بقصد التفتيش واقترب الخطر مني جدياً. هم عدد كبير نسبياً ومسلحون وأنا وحيد وأملك مسدساً مع بضع طلقات. إذا فرض علي الاشتباك فسأخوضه وقد أهزمهم جميعاً. لكن إفلاتي من هذا القفص لن يكون سهلاً على أي حال. يجب اللجوء إلى السلاح كآخر حل اضطراري. والأفضل تجنب الصدام إذا أمكن الإفلات من دون الصدام.

كان هناك حفر لمجاري المياه داخل فسحة المحطة، وحوله براميل كونكريتية ستستخدم في بناء هذه المجاري. وكانت هناك ساقية مياه جارية ونبت الحشيش على أحد جانبيه. فهل الأفضل أن أتخفى في هذا الحفر الذي ليس فيه نماء؟ كلا ليس من المناسب لأن هؤلاء سيفتشون، أول ما يفتشون، المجاري المحفورة. والمكان الأكثر أماناً هو ساقية الماء التي يبلغ عمقها ٥٠ ـ ٦٠ سم. دخلت الساقية وتمددت داخل الماء غطساً باستثناء رأسي ويدي اليمنى الممسكة بالمسدس، متخذاً من

الحشائش في جانب الساقية ستراً لي. وقد وصل رجال البوليس السري للبحث عني. ومروا مراراً على بعد بضعة أمتار مني. كانوا يتكلمون همساً وكنت أسمعهم حين يقتربون. فتشوا المجاري جيداً. فتشوا كل مكان سوى ساقية الماء. لم يخطر ببال أحد منهم أن يكون الإنسان الذي يطاردونه مختفياً داخل الماء البارد في ليلة شتاء شديدة البرودة. استمر التفتيش من السابعة والنصف إلى ما بعد العاشرة مساءاً. كانت الفسحة واسعة مليئة بالمخازن وعربات القطار والأخشاب القديمة وغيرها. وربما كانوا يتأملون العثور علي في نهاية المطاف. لكن اليأس بدأ يتسرب إليهم تدريجياً وسمعت أحدهم يقول لزملائه:

ـ إنه تمكن من الهروب إلى خارج المحطة ولا جدوى وراء البحث عنه.

ـ قد يكون مختبئاً هنا ـ أجاب شخص آخر ـ والأفضل أن نضع له كمائن حين يخرج من مخبئه.

ـ نحن نبحث عنه ولا نعرف من هو وما جدوى البحث عنه... كل ما نعرفه أنه يحمل مسدساً.

ـ قد يكون صيداً دسماً لنا.. كادراً شيوعياً أو حرامياً خطيراً.

كفّوا أخيراً عن التفتيش وأقاموا كمائن في المداخل، التي كنت أراها على ضوء المصابيح الكهربائية. وخرجت من الماء في الساعة الحادية عشر لأدخل في برميل كونكريتي. شعرت لأول مرة بالبرد.. حين كنت متمدداً في الماء البارد جداً ما كنت لأحس بأي برد لأنه نشأت لديّ قوة خارقة لمقاومة البرد، ربما لأن الدماغ ضاعف من كمية الحرارة التي تتولد في جسمي اعتيادياً. حين يصبح تحمل هذا البرد طريقاً للتخلص من رجال يريدون لك السجن والتعذيب وحتى الإعدام فإنك ستملك مقاومة غير اعتيادية إزاء ما تتعرض له من البرد أو ما شابه.

يئس المطاردون ورفعوا آخر كمين لهم في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. أصبح بإمكاني أن أخرج من المخبأ. لكن الخروج كان يعرضني للمخاطر بعد أن غدوت مبللاً ومطيناً وحافي القدمين، الأمر الذي من شأنه أن يثير شبهات حراس الليل والمارة الذين قد يصادفونني في الطريق. رأيت من الأفضل أن أرابط في مكاني حتى الفجر. ولما سمعت آذان الفجر من الجوامع القريبة غادرت مخبأي وسرت مشياً على السدة الترابية التي كانت تمتد بمحاذاة حي الوزيرية نحو الصليخ. وقبل شروق الشمس دققت باب البيت الذي كنت أعيش فيه بحي كمب الصليخ. فتحت أم عدنان الباب، وكان هادي واقفاً خلفها. ووراءهما شابة شيوعية قصيرة القامة كانت قد انتقلت إلى هذا المنزل قبل بضعة أيام ـ هي مادلين التي أصبحت فيما بعد زوجة لي. استقبلني هؤلاء بمزيج من الفرح والاستغراب والقلق. فرحوا لأني عدت إليهم بعد غياب ليلة مثيرة للقلق عندهم. واستغربوا من منظري الغريب حيث كنت مبتلاً مطيناً حافي القدمين. سألت ربة البيت:

ـ ما الذي حدث لك؟ لماذا لم تعد إلينا في الليل وجعلتنا في قلق حتى الصبح؟

ـ وقع لي حادث مزعج وخرجت منه بسلام. وأحتاج الآن إلى بعض الراحة والتدليك.

كانت مادلين تعرف التضميد والتدليك إذ سبق لها أن اشتغلت ممرضة في أحد المستشفيات. وتعاونت مع أم عدنان في تدهين جسمي وتدليكي بحنان واهتمام فائق إلى أن استسلمت للرقاد في فراش دافىء. واستيقظت بعد ساعات ولم أشعر بأن تلك الليلة قد تركت أي أثر على صحتي ونشاطي.

في مساء اليوم التالي التقيت من جديد مع عزيز الشيخ في موعد بأحد شوارع الوزيرية نفسها. وقد سألني عما حدث وذكر أنه كان قلقاً

بعد سماع أصوات الرصاص بعيد افتراقنا. وبعد يومين حصلنا على معلومات عن سبب إقامة هذا الكمين الذي وقعت فيه. كان أحد الشيوعيين قد دأب على توزيع النشرات في ليال متعاقبة داخل حي الوزيرية. ويبدو أنه كان يستخدم دراجة في عملية التوزيع. نصبت مفرزة الأمن العام كميناً له. وكنت أنا الذي وقع فيه.

❀ ❀ ❀

في خريف ١٩٥١، وبعد أن كانت منظمات الشبيبة والطلبة واتحاد النقابات قد خرجت إلى الوجود، قمنا بمسعى لاستحصال الترخيص القانوني لمنظمة نسائية ديمقراطية باسم (رابطة الدفاع عن حقوق المرأة). قدم الطلب إلى السلطات من قبل فريق من الشيوعيات والديمقراطيات اللا حزبيات أمثال الشيوعية النشطة الطبيبة نزيهة الدليمي والديمقراطية اللا حزبية خالدة القيسي. ورغم توفر جميع الشروط القانونية في الطلب وفي الموقعات عليه فإن وزارة الداخلية رفضت الترخيص لمجرد اعتقادها بأن وراء الطلب عناصر شيوعية أو ما كانوا يسمونه «عناصر غير مرغوب فيها». وعلى أثر الرفض قدمت الرفيقات الشيوعيات رسالة إلى الحزب يسألن فيها عما يجب عمله في الخطوة التالية. وأجبنا على الرسالة (وأظن أن ذلك كان في آذار ١٩٥٢) موصين بمواصلة العمل لتحويل المنظمة إلى منظمة ديمقراطية سرية خاصة بالعمل النسائي كي تعمل مثل ما تعمل منظمتا الشبيبة الديمقراطية واتحاد الطلبة العام. وهكذا ولدت منظمة الرابطة وفق قرار حزبي، وتحولت تدريجياً إلى منظمة ديمقراطية نسائية جماهيرية.

وقد تكونت للرابطة لجنة عليا كان البعض من أعضائها ـ في فترة معينة على الأقل ـ من الرجال. وصيغ لها برنامج بالتعاون بين العناصر الشيوعية النسائية وبيننا. وأصدرت نشرة سرية خاصة بها. (وفي ١٩٥٨، أثر انتصار ثورة ١٤ تموز، حصلت على الإجازة القانونية).

❀ ❀ ❀

شهدت فترة من تأريخ السجون السياسية، وبالأخص في ظروف المد الثوري الجماهيري لأعوام ١٩٥١ ـ ١٩٥٣، كثرة من إضرابات السجناء السياسيين عن الطعام في سبيل حقوقهم السياسية والإنسانية. (وأشعر بالندم حين أتذكر أني كنت الموصي بالإضراب في إحدى المرات). وأثناء كل إضراب تقريباً كنا نصدر نداءات إلى الشعب لدعم مطالب المضربين العادلة. وغالباً ما كانت عوائلهم تتجمع لتقديم مذكرات إلى السلطات الحكومية وإلى الأحزاب والنقابات والصحف الوطنية داعية إياها لتأييد أبنائها المضربين. وفي بعض الأحيان كانت هذه العوائل تخرج في مظاهرات لإلفات النظر إلى قضية أبنائها المضربين.

عند إطالة الإضراب كانت صحة البعض من المضربين تتدهور مما يؤدي إلى نقل هؤلاء إلى المستشفى لغرض المعالجة. وكان السجين الشيوعي نعمان محمد صالح أحد المضربين المنقولين إلى مستشفى في بغداد. وبعد إجراء الفحص عليه أخبره الأطباء بأنهم يتوقعون موته إذا ظل مستمراً على الإضراب. وبذل البعض منهم جهوداً إنسانية مخلصة لحمله على إنهاء الإضراب أو ـ على الأقل ـ قبول تغذيته بسبل أخرى طبية من قبيل الماء المغذي أو زرق الإبر. غير أن الشاب المضرب رفض بحزم كسر الإضراب عن الطعام بصورة منفردة وأصر على أنه ينهي الإضراب فقط عندما تستجيب السلطات لمطالبه هو وزملاءه المضربين، كما رفض الماء المغذي وما شابه مستهيناً بالموت المخيم عليه. وقد توفي في نهاية الأمر داخل المستشفى. وفي اليوم التالي تجمع رفاقه الشيوعيون أمام المستشفى وانتزعوا جنازته من السلطات وشيع بمظاهرة جماهيرية تأريخية ضمت في صفوفها أكثر من عشرين ألفاً. وقد اشترك في المظاهرة رجال وطنيون من الأحزاب المعارضة للنظام ومن المستقلين. وكان الشاعر الكبير الجواهري بين المشاركين وأثار بكلمات وأبيات شعرية حماس الشباب. وكرس افتتاحية عدد اليوم التالي من

جريدته (الرأي العام) لنفس الموضوع فاضحاً ومديناً فيها السلطة والاستعمار البريطاني.

❀ ❀ ❀

في أواخر ١٩٥١ نشأت لديّ فكرة تعديل الميثاق الوطني ـ برنامج الحزب ـ الذي كان قد أقر قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥. وأخذت على عاتقي مهمة الصياغة الأولى، كما أخذت وثيقة ١٩٤٥ كأساس وحافظت على شكلها المختصر الواضح، الذي كنت معجباً به وأبقيت العديد من بنودها دون أي تعديل لأني لم أرَ ما يوجب التعديل. لكني أجريت تعديلات رئيسية حول القضايا الستراتيجية ـ حول السلطة والمسألة القومية ـ الكردية وكذلك حول القضية الزراعية:

ـ كان الشعار الستراتيجي المتعلق بالسلطة في وثيقة ١٩٤٥ يتخلص في «إقامة حكومية وطنية ديمقراطية» دون أي مساس بالنظام الملكي أو أي إشارة إلى مستقبله، الأمر الذي كان يفهم منه إعطاء موافقة ضمنية على بقاء ذلك النظام. وأنا لا أريد من ذلك توجيه اللوم إلى فهد، الذي صاغ ذلك البرنامج في ١٩٤٥، حيث كانت الظروف مغايرة تماماً وكانت الحرب الثانية مستمرة وكان النظام العراقي عضواً في الحلف المعادي للفاشية.. الخ. لكن تغيرات هامة قد طرأت في سني ما بعد الحرب على أوضاع العراق والعالم. واعتقدت أن الوقت قد حان لتغيير شعار الحزب الستراتيجي المتعلق بقضية السلطة. وهكذا تضمنت الصيغة الجديدة فكرة إسقاط النظام الملكي وإقامة حكم جمهوري شعبي يمثل إرادة العمال والفلاحين والجماهير الشعبية.

ـ تضمنت صيغة الميثاق القديم فكرة اعتبار الشعب الكردي في العراق أقلية لها حق المساواة. ولم تتضمن أية إشارة إلى أن هذا الشعب يشكل أمة ثانية في العراق وأن لهذه الأمة حقها في تقرير المصير. وأظن أن هذه الصياغة جاءت في وقت لم تكن المشكلة

الكردية في العراق واضحة لدى فهد وأن التنظيمات الحزبية ـ الشيوعية بين الأكراد العراقيين لم تصل إلى المستوى الناضج الذي تعرض معه قضية هذا الشعب عرضاً مدروساً صحيحاً. وبدلاً من هذا العرض الناقص تضمنت الوثيقة المعدلة فكرة حق تقرير المصير للشعب الكردي في العراق.

ـ وبدلاً من المطالبة فقط بتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين، كما ورد في وثيقة ١٩٤٥، تضمنت الوثيقة الجديدة فكرة توزيع أراضي الإقطاعيين وكبار الملاكين أيضاً على الفلاحين.

ـ وتضمنت الوثيقة الجديدة وضوحاً أكثر فيما يتعلق بالموقف من الاستثمارات والمؤسسات الاقتصادية الامبريالية في بلادنا.

وقد نشرت وأقرت صيغة الميثاق (البرنامج) الجديد في ربيع ١٩٥٢ من قبل لجنتنا المركزية ودون عقد أي مؤتمر أو كونغرس لمناقشة وإقرار هذه التعديلات. ولا أتذكر ما إذا كان هناك بين الشيوعيين خارج السجون من عارض هذه التعديلات لكن بعض العناصر الشيوعية في السجون عارض فكرة إسقاط الملكية وإقامة الجمهورية الشعبية. وكانت هذه المعارضة ضمن المقومات الفكرية التي استند إليها انقسام جماعة (راية الشغيلة) في آذار ١٩٥٣.

ومن المؤكد أن الجماهير المتعاطفة مع ح ش ع تقبلت صيغة البرنامج المعدل وأن ذلك هو الذي هيأ الأذهان والأجواء لطرح شعار إسقاط الملكية وإقامة الجمهورية أثناء انتفاضة تشرين ١٩٥٢، حيث هتفت به مئات الألوف من المتظاهرين في شوارع بغداد.

❀ ❀ ❀

كانت وفود من العمال والطلاب والشباب تأخذ نسخاً من عرائضها وبرقياتها، الموجهة إلى السلطات، لتذهب بها إلى الأحزاب الوطنية

وصحف المعارضة طالبة منها التأييد لمطالبها النقابية والسياسية. وفي زيارة وفد من هذه الوفود لمقر جريدة الأهالي، التي كانت تنطق بلسان الحزب الوطني الديمقراطي، قدم المراجعون العتاب الشديد إلى الجريدة وإلى كامل الچادرجي شخصياً بسبب عدم نشر شكواهم ومطالبهم خلال أيام مضت. فأجاب الچادرجي بما معناه:

ـ لماذا لا تقدرون وضعنا ولا تنصفوننا قليلاً أيها الإخوان؟ ألا ترون أن الإنكليز نصبوا حسين جميل رقيباً علي ليحسب أنفاسي؟

ورغم أنني لا أملك شخصياً معلومات موثوقة تسمح لي بإدانة أو تبرأة حسين جميل، ولا أعرف سوى أنه كان سكرتيراً للحزب الوطني الديمقراطي، فإن اللغط حوله كان موجوداً بين الكثيرين في العراق متهمين إياه بالارتباط مع الإنكليز.

كان الفلاحي يسكن في دار استأجرناها لعائلة باقر جعفر. واكتشف بعد حين أن الدراهم في جيبه تنقص. وشك في أم باقر وأخته، وفاتحني بالأمر. فنصحته بأن يتوثق أولاً وقبل أن يتهم أحداً. سألني:

ـ وكيف يمكن التوثيق؟

ـ احسب الدراهم في جيب سترتك قبل أن تنزعها وتعلقها. ثم أعد الحساب حين تلبسها مرة أخرى حين تخرج من الدار.

وحين التقينا في موعد لاحق أخبرني أنه توثق واتفقنا على أن ليس من المناسب العيش مع عائلة من هذا القبيل. ووجدنا له مكاناً آخر مناسباً. فركب دراجته الهوائية وغادر البيت في الصباح الباكر حاملاً خلفه فوق الدراجة جميع ممتلكاته المنقولة التي لم تزد عن بضع كيلوغرامات. في طريقه إلى البيت الجديد شكت به مفرزة من الشرطة الدورية قرب ساحة السباع إذ تصور المفوض المسؤول عن المفرزة بأن

راكب الدراجة هذا ليس إلا سارقاً للحقيبة المشدودة خلفه. وطلبوا منه الوقوف فلم يمتثل للأمر خوفاً من أن يكونوا قد عرفوه. وطاردوه حتى عثرت الدراجة بعارض ما وسقط صادق وقبض عليه بوصفه سارقاً. وحين فتحت حقيبته للتفتيش شوهدت لا ممتلكات مسروقة بل منشورات شيوعية. أخذوه إلى الأمن العام ووضعوه، كعادتهم دائماً، رهن التحقيق وتحت التعذيب. صمد أمامهم في هذه المرة أيضاً كما صمد في المرة السابقة. قدموه إلى المحكمة، وحكموا عليه بالسجن من جديد لأربع سنوات.

❀ ❀ ❀

كنت في الخامسة والعشرين من عمري عندما تزوجت ـ عام ١٩٥٢ ـ من الفتاة الشيوعية مادلين مير، وهي يهودية من بغداد. كانت مناضلة نشطة ومتقدمة. واختفت بعد صدور أمر القبض عليها من السلطات. كان سلوكها الشخصي والسياسي جيداً وكان شكلها مقبولاً رغم قصر قامتها ورغم أنه لم يمكن وضعها في عداد الحسناوات. وقد لامني خالد بكداش ذات مرة على زواجي من امرأة يهودية فأجبته بأني تزوجت إنسانة مناضلة وشيوعية جيدة. وفي الواقع لم أشعر أبداً بالحراجة بسبب زواجي من فتاة يهودية ولم أفضل عليها أية مسلمة أو مسيحية.

على أن الزواج لم يأت كنتيجة لعلاقات غرامية سابقة، على الأقل بالنسبة إلي، ولا بسبب التورط في أي علاقة جنسية مسبقة. إنما جاء بدون تخطيط مسبق وكنتيجة لحاجتي إلى بيت أسكنه مستقلاً وإلى عائلة خاصة بي وإلى امرأة أشاركها النوم على الفراش. وكنت ألتقي مع فتيات أخريات في بغداد، بحكم عملي الحزبي قبل أن أتزوج. لكني لم أحاول أبداً إقامة علاقة شخصية، غرامية أو جنسية، مع أي منهن. فالشيء الوحيد، الذي كان يشغل بالي، هو الحزب والحزب وحده. وكنت شديد الحرص على نقاء سمعتي بوصفي مسؤولاً في الحزب.

بعد الزواج أصبح في استطاعتي أن أعيش مع زوجتي في بيت مستقل وفي وضع أفضل من حيث ممارسة نشاطي الحزبي. وقد تزوجت دون إنفاق الفلس الواحد على مراسيم الزواج أو على شراء شيء لي أو لها. فالأثاث في بيتنا ظلت بسيطة أو دون البسيطة. وطيلة السنة التي عشناها زوجين لم نشتر شيئاً، لا السرير ولا فراش الزوجية ولا الأخشاب ولا أي شيء. كنا ثوريين لا هم لهما سوى أداء المهمات الحزبية على الوجه الأفضل. ولم ننفق فلساً من مال الحزب على الملابس الشخصية. كنا نكتفي بأخذ بعض القطع من تلك الملابس التي تأتي جراء التبرعات الموسمية من الرفاق والأصدقاء ذوي الوضع المعاشي الأفضل لغرض توزيعها على العوائل الحزبية المحتاجة إليها..

عشت مع مادلين قرابة عام واحد، كانت تواصل خلاله النشاط الحزبي. ولا أتذكر أن مشكلة جدية قد حدثت بيننا ذات يوم من حيث علاقاتنا الشخصية. إلا أن لحظات حرجة قد مرت علينا إبان حياتنا المشتركة. ومرت اللحظة الأشد حراجة في أواخر ١٩٥٢، حين كنا نسكن داراً صغيرة في حي الأعظمية. كنت أنظف مسدسي فيما كانت واقفة بالقرب من داخل الصالة. وفي مزاح بريء وسخيف قد يلجأ إليه الشبان في البلدان المختلفة وجهت فوهة المسدس إلى رأسها، وأنا على كامل الثقة بأني أفرغته من آخر إطلاقة. وضغطت على الزناد. ثارت الطلقة ويا لها من طلقة مخيفة! ربما مرت على بعد سنتيمتر أو أكثر بقليل من وجهها. وهي تصورت بأني أطلقت الرصاصة كمجرد مزاح ولغرض التخويف. وقالت دون أن تحس بخوف جدي:

ـ طرشتني يا رفيق!

فيما أصبحت أنا لبعض اللحظات في شبه إغماءة واصفرّ وجهي شديد الاصفرار إذ تراءى لي بأن الطلقة قد أصابتها وانتظرت سقوطها ميتة. طبعاً كان عدم إصابتها مجرد صدفة. وكانت صدفة سعيدة للغاية بالنسبة إلي شخصياً. هدأت قليلاً بعد أن تبين أن الطلقة قد أخطأتها.

لكن الحادث أثر تأثيراً كبيراً على أعصابي للفترة اللاحقة وتصورت أنني أنا الآخر كنت أموت أو أصيب بالجنون، فيما لو أصابتها الطلقة على أثر هذا المزاح السخيف. ولحد هذا اليوم تجتاحني رعشة حقيقية حينما أتذكر ذلك الحادث.

هناك لحظات أخرى حرجة مع مادلين، حين كنا نعيش سوية في دار صغيرة بكمب الصليخ ربيع ١٩٥٢. كان محمد شبر جالساً عندي ونتباحث في قضايا حزبية ـ قراءة رسائل والإجابة عليها. وسمعنا فجأة طرقاً عنيفاً على باب الدار، أعقبها دخول مادلين مسرعة إلى الغرفة لتهمس:

ـ داهمتنا الشرطة يا رفيق!

كان استمرار الطرق العنيف المثير للشك تأكيداً على صحة ما قالته زوجتي. ومع ذلك قررت التوثق بنفسي مباشرة فذهبت لأنظر من شباك صغير مطل مباشرة على مدخل باب الدار الخارجي. رأيت بعيني ضابط بوليس مع عدد من رجالهم في ملابسهم الرسمية. فتيقنت من أننا دوهمنا وعدت ركضاً نحو الغرفة فأخذت كيس القماش الحاوي على الرسائل الحزبية وهربت مع شبر ومادلين صعوداً إلى السطح كي ننتقل من هناك إلى سطح دار مجاورة من الخلف ونهبط عبر الدرج إلى حديقتها الصغيرة ونخرج من هناك إلى الشارع الفرعي. قمنا بكل ذلك في حركات خفيفة وسريعة كما يحدث في أفلام الكاوبوي. وتابعنا الركض السريع حتى ابتعدنا عن الخطر. لم تكن مادلين قادرة على القيام بكل ذلك من القفز والركض مثلما فعلنا نحن. ولكنها وصلت أخيراً بسلام وتفرقنا نحن الثلاثة فرحين بأن نجونا من قبضة الأعداء.

بعد أقل من ساعة واحدة كان سباهي على دراجته الهوائية في مهمة استطلاعية قرب دارنا التي تعرضت للمداهمة سعياً لتسقط الأخبار ولمعرفة ما حدث هناك. ولم يلبث أن عاد إلينا ليقول أن كل شيء اعتيادي وهادىء ولا يوجد ما يدل على أن شيئاً قد حدث. وكرر المرور

والاستطلاع عدة مرات خلال نفس النهار. كان يعود في كل مرة بنفس الانطباع أو المعلومات. وأصبحت أنا في حيرة من الأمر. هل فتحوا الباب بطريقة ما وأقاموا كميناً في البيت دون أن يثيروا أي ضجيج أم هناك شيء آخر؟ ما الذي جرى؟ ألم أر بنفسي ضابط البوليس مع رجاله؟ في صبيحة اليوم التالي أرسلت صبيح كي يطرق باب الدار المجاورة لنا. وكان رب البيت الساكن فيها أبو ناصر رجلاً كادحاً وثيق الصلة بنا دون أن يعرف شيئاً عن هويتنا السياسية ونشاطنا الحزبي. فتح باب أبو ناصر وسأله صبيح:

ـ هل تعرفون رجاءاً أين هم سكنة الدار المجاورة لكم؟ جئت ولم أجدهم في البيت لا ليلة البارحة ولا صباح اليوم؟

ـ لا أدري أين ذهبوا.. بالأمس أتوا عليهم ثلاث مرات ولم يكونوا في البيت وفي الليل لم نلاحظ أضوية مشعولة في البيت.

ـ هل أرادوا منهم شيئاً؟ يحتمل أن يكونوا مسافرين لكركوك. وسأذهب إليهم إن دعت الضرورة.

ـ الدار معروضة للبيع. وأتى الدلال مع ضابط الشرطة لكي يروها ويتعاملوا على شرائها.

إذن هذه هي القضية! لم تكن هناك مداهمة بوليسية للبيت، بل كانت معاملة بيع وشراء. ولأن الراغب في الشراء كان ضابط بوليس المنطقة فإن عدداً من رجال الشرطة قد رافقوه من المركز إلى الدار المغلقة، لمجرد المجاملة والملق. وعاد صبيح مبتسماً ليروي لي ما قاله الجار أبو ناصر. وعدت في الليل مع زوجتي إلى البيت. ونحن بمزاج متكون نتيجة ما حدث لنا. لكن الاستقرار لم يدم طويلاً. فبعد ٣ ـ ٤ أيام، في غيابي عن البيت، تجدد الطرق على البيت في المساء. وخيل إلى مادلين، وكانت وحيدة في البيت، بأن هناك شرطة ومداهمة وهربت من جديد بنفس الطريقة السابقة. حدث كل ذلك بسبب ارتباكها غير

المبرر وخوفها غير المشروع. وشوهدت أثناء هروبها من عائلة الدار الخلفية المجاورة. وكان المنظر مثيراً ـ امرأة شابة تقفز من السطح إلى أسفل الدار وتطلق ساقيها للريح. يجري كل ذلك في مجتمع فلاحي متخلف كالمجتمع البغدادي في ١٩٥٢.

أدركت مادلين، بعد هروبها مباشرة بأنها أخطأت ورجعت من تلقاء نفسها إلى البيت في نفس الساعة، وقبل أن أعود بساعة واحدة. وحين كنت واقفاً في باحة الدار الصغيرة مساءاً ظهر رجل على السطح وحياني وأبلغني بأنه يريد التحدث إلي. عرفته، كان جارنا الخلفي، صاحب الدار التي هربنا عبرها. صعدت إليه وبدأ يتحدث بشيء من الحرج والخجل:

ـ كل الناس حواليكم يعرفون كم أنتم طيبون، يا علي! كلهم ممنونون منكم. ولكن من المؤسف جداً أن تكون في بيتكم امرأة فاسدة كهذه، التي هي أختكم أم شيء آخر. هي لا تشبهكم في شيء ولم تبيض الوجه مع شديد الأسف.

عرفت فوراً ماذا يريد أن يقول الرجل الجار. وتظاهرت بإبداء الاهتمام البالغ بما يقول. فاستطرد:

ـ هذه المرأة سيئة الأخلاق وفاسدة.. ليتها لم تقرب منكم. إنها تستقدم الرجال إلى البيت كلما وجدت فرصة لذلك لكي تبيع نفسها. فقبل أيام كان معها رجلان يمارسان معها الفساد. وحين عدتم إلى البيت ودققتم عليها الباب خافت من انكشاف أمرها وهربت مع الرجلين... نعم هربوا عبر دارنا. وقبل يومين تكررت العملية المخزية نفسها وهربت من جديد عبر دارنا.. أنت تعرف لماذا تستقدم إليها الرجال عند غيابكم عن البيت.. وحتى نحن الجيران نشعر بالخجل والمخازي.

شكرت الرجل على إعلامي بهذه الأخبار الخطيرة وتظاهرت بأني لم أنتبه سابقاً إلى شيء من هذا القبيل. ورجوته رجاءاً حاراً لكي يكتم

النبأ حرصاً على سمعتنا نحن جيرانه. ولم يكن بمقدوري مكاشفته بحقيقة ما حدث للفتاة وبالدافع وراء هروبها وبأني كنت بنفسي أحد الهاربين معها. وعدني الرجل بكتم السر. واتخذت قراراً بالانتقال إلى دار أخرى في نهاية الشهر. لكن الأحداث المتلاحقة لم تمهلني حتى نهاية الشهر. فقد جاء صباح اليوم التالي بما لم يكن في الحسبان. اتضح أن الناس حوالينا سمعوا جميعاً بما حدث وعرفوا أن في بيتنا امرأة «عاهرة». وجاءني الجار الطيب أو ناصر، الذي كان يعتبر نفسه وكيلاً لصاحب الدار المؤجرة لنا. وقال:

ـ أنتم أناس طيبون جداً يا علي! لكن هذه البنت اللعينة شذت عنكم وسخمت الوجه. عليكم الانتقال بأسرع وقت ممكن إلى مكان آخر لكي لا يقوم الناس حواليكم بما لا تحمد عقباه.

ـ حسناً يا أبو ناصر! سننتقل إلى مكان آخر بأسرع ما يمكن.. أذهب الآن لأبحث عن دار أخرى للإيجار.

ذهبت واستأجرت فوراً داراً أخرى مكونة من غرفتين في الطرف الآخر من الحي واستعنت بصبيح ليساعدني على نقل الأثاث البسيطة في عربة يسحبها حصان. وبقيت وحدي، بعد إرسال الأثاث، لأتحدث ببعض الكلمات إلى الجار أبو ناصر. ربما لم يكن هناك داع لمثل هذا الحديث الذي قررت خوضه مع الرجل. ولكني خضته على أي حال، وأنا ممسك بدراجتي الهوائية. طرقت الباب وخرج إلي الجار:

ـ ها قد نقلنا البيت يا صديقي الطيب! وجئت لأودعك ولأخبرك بشيء لم تعرفه.

ـ بماذا تخبرني؟ ـ سأل أبو ناصر.

ـ أود أن تعرف أن تلك المرأة،التي اعتبرتموها مومساً، ليست كما تتصورون. بل هي زوجتي وأنا الذي هربت معها ومع رفيق لنا كان عندنا يوم حضر ضابط البوليس وطرق الباب. نحن شيوعيون مختفون

ومطاردون من الشرطة. وتصورنا بأنهم آتون لكبس البيت فهربنا. هذا كل ما في الأمر وأرجو لكم الخير والسعادة.. وداعاً يا صديقي!

حضنني أبو ناصر وقبلني بحرارة ورجاني أن أبقى في الدار وتعهد بألا يتكلم أحد في الحي بما يسيء إلينا. لكن بقائي كان مستحيلاً. فقد ودعته وركبت دراجتي وذهبت.

الطريف في أمر البيت الجديد، الذي انتقلنا إليه، أنه كان ـ بمجرد صدفة ـ ملكاً لزوجة السجين الشيوعي عبد الستار القيسي. ولم أعلم ذلك إلا بعد أسابيع حيث زارتنا عجوز وانطلقت تثرثر وتثرثر وتكشف عن كل شيء جميلاً كان أم كريهاً. وقد ذكرت قبل أن تغادرنا:

ـ ستار سينهي حكمه قريباً ويعود إلينا إن شاء الله.

وقبل أقل من شهرين دخل البيت ذات يوم شابان. وقال أحدهما:

ـ أنا صاحب هذه الدار واسمي ستار. وهذا الأخ مهندس جلبته معي لكي يرى المبنى ويدرس إمكانية بناء غرفة إضافية فيه.

وفيما كان المهندس يتفرج على الغرف وقع نظره على ستانسل مطبوع على الآلة الكاتبة ومهيأ لوضعه على جهاز الرونيو. أثار ذلك فضوله وسألني:

ـ ماذا تشتغل أنت؟

أدركت أن لهذا السؤال علاقة بمشاهدته للستانسل. ووجدت نفسي في موقف حرج. وأنقذني ستار القيسي فوراً وعن غير عمد، عن غير إدراك لما أنا عليه من وضع. فأجاب، قبل أن أتكلم، وأظنه كان قد أجاب بما تصوره هو شخصياً:

ـ إنه شرطي.

سكت المهندس ولم يوجه أي سؤال إضافي.. ربما سكت بدافع الخوف من خوض هذا الحديث مع شرطي. أو اعتبر وجود مثل هذا

الستانسل في بيت كاتب لدائرة البوليس أمراً اعتيادياً. والتزمت من جانبي الصمت كما لو أن ستار يعرفني وتكلم الحقيقة.

❀ ❀ ❀

في خريف ١٩٥٢ قررت تعلم سياقة السيارة زاعماً أن الوقت قد حان لاستبدال دراجتي الهوائية بسيارة صغيرة. أصبحنا أصحاب سيارة دوج قديمة وأصبح كامل السامرائي معلمي في السياقة. كنا نذهب سوية إلى بعض ضواحي بغداد الخالية من كل المساكن (حيث تسمى حالياً بغداد الجديدة) لأتدرب هنا. ولا أزال أتذكر حتى اليوم كم تحرجت وكم قلقت حين سقت السيارة، لأول مرة، وأنا أعبر الجسر الحديدي في العيواضية من جانب الكرخ إلى الرصافة. كان الجسر ضيقاً في ذاته وكان العبور مغامرة خطيرة بالنسبة إلي. يضاف إلى ذلك أن السياقة بذاتها كانت مغامرة لأني كنت مختفياً عن الشرطة ولم أملك، ولم يكن بالإمكان أن أملك، إجازة لسوق السيارات حتى ولا هوية شخصية مزورة في تلك الأيام. غير أن صاحب السيارة الخصوصية كان مهاباً ومحترماً من قبل رجال الشرطة وكل السلطات في عراق تلك الأيام. وأتذكر أنني سقت سيارتي ذات يوم في شارع غازي (لاحقاً شارع الكفاح). وبسبب ضعف البريك عندي دعمت سيارة تكسي قديمة من الخلف دعماً خفيفاً أشبه بالمداعبة. فنزل سائق التكسي غاضباً وتوجه إلي وهو محتد ويصرخ، رغم أن سيارته لم تصب بأي ضرر. ربما كان يأمل الحصول على بعض الدراهم مني بحجة التعويض عن الخسارة التي لحقت بسيارته. وقبل أن أتكلم وأدافع عن نفسي أو أعترف بذنبي تقدم نحونا شرطي المرور وتهجم بحدة على سائق التكسي قائلاً:

ـ أنتم سواق سيارات الأجرة لا تعرفون النظام ولا الأصول ولا تستحقون الاحترام. كل ما يقع من الأحداث في شوارع بغداد هو ذنبكم وحدكم.. أنتم لا تستحقون سوى السجن والتغريم.

كان واضحاً أن الشرطي متحيز إلى جانبي، أنا صاحب السيارة الخصوصية، ضد سائق سيارة الأجرة. وقد اقترب مني وحياني وسألني:

ـ بيك! خو ما صار شيء؟ هؤلاء السواق ليسوا مؤدبين ولا يفيد معهم اللين.

أجبت أن سائق التكسي غير مذنب وأن ضعف البريك في سيارتي أدى إلى الحادث ولكن ضرراً لم يقع لأحد. ورجوت الشرطي أن يتساهل مع ذلك السائق. وفرح الأخير وغير لهجته تجاهي كلياً وأصبح همه الوحيد أن أنقذه من يدي هذا الشرطي دون دفع الرشوة. وأظن أني لم أستطع إنقاذه إذ أبقاه الشرطي بعد ذهابي. وربما أخذ منه الدرهم المنتظر.

وقد حولنا سيارة الدوج، التي أخذناها، إلى سيارة تكسي ليسوقها حافظ ـ شقيق كامل السامرائي ـ ونستفيد منها في نقل البريد وبعض الأمور الحزبية. لكننا لم نستفد منها إذ استولى عليها حافظ كسيارة شخصية. وكنت قد اشتريت أنا سيارة أخرى صغيرة فرنسية الصنع بمبلغ (١٢٠) ديناراً لأستخدمها في تنقلاتي. وينبغي الإقرار بأن تعلم السياقة عاد علي بالضرر إذ أرغمني على تبديل قيافتي من قيافة عامل بسيط إلى رجل مثقف، ونقل سكني من الأحياء الشعبية الفقيرة إلى حي أرقى بعض الشيء وأقصد حي الأعظمية قرب الجامع، حيث تعرضت للاعتقال عام ١٩٥٣.

٧

انتفاضة تشرين ١٩٥٢

لا أكتم اعتزازي وفخري، وأنا أتحدث عن انتفاضة تشرين ١٩٥٢، ذلك ليس لأنها كانت هبة جماهيرية فريدة من نوعها طيلة سني العهد الملكي وحسب بل كذلك لأن نفوذ ح ش ع قد برز فيها بشكل لم يسبق له مثيل، في وقت كنت أشغل منصب المسؤول الأول في هذا الحزب.

قامت الانتفاضة كتتويج لسلسلة طويلة من الإضرابات والمظاهرات والنضالات التي شارك فيها العمال والطلاب والحرفيون والمثقفون والفلاحون في عامي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. ويكفي أن أشير إلى إضراب عمال السجائر ـ شركة الدخان الأهلية ـ الذي قام قبيل الانتفاضة في بغداد، تحت قيادة مناضلين شيوعيين وحقق زيادة في الأجور، فضلاً عن تحديد الحد الأدنى للأجور، لأول مرة في تلك المؤسسة، وإلى عصيان فلاحي آل ازيرج، الذين رفعوا السلاح في وجه الإقطاع والسلطة معاً في جنوب العراق، وإلى إضراب طلبة كلية الصيدلة والكيمياء، الذي كان عود الكبريت لإشعال نيران هذه الانتفاضة.

ومن المؤكد أن قيام حكومة مصدق بتأميم النفط في إيران وصراعاتها الناجمة عن ذلك ضد الدول الامبريالية كان ذا تأثير ملموس

على الوضع السياسي في العراق بالضد من مصلحة النظام الحاكم والاستعمار البريطاني.

وكانت المساعي الغربية الرامية إلى إقامة جناح شرق أوسطي لحلف الناتو باسم حلف للدفاع في المنطقة مبعث إثارة السخط والتوتر بين الجماهير العراقية، التي غدت ذات تقاليد نضالية راسخة ضد جميع المعاهدات التي فرضت عليها من قبل الدول الامبريالية منذ العشرينات وحتى النهاية.

والأهم من كل ذلك هو أن شعب العراق كان يضمر العداء والحقد الشديدين على الاستعمار البريطاني المهيمن على العراق بأشكال شتى سياسية واقتصادية وأن أي مد للحركة الجماهيرية الثورية كان يقود على الدوام إلى انفجار هذا السخط ـ كما حدث في كانون الثاني ١٩٤٨ وتكرر في تشرين الثاني ١٩٥٢.

يقينا أننا لم نحدد ساعة الصفر للانتفاضة. ولم يكن بمقدور ح ش ع أن يحدد ذلك. غير أن الحزب لم يكن ذيلاً للأحداث والتطورات، بل كان يواكبها ويؤثر فيها بصورة جدية وكان يثير ويوجه النضالات الجماهيرية. بكلمة أخرى أنه كان سيد الشارع والقائد غير المنازع فيه. وكنت أنا شخصياً أتوقع تصاعد النضالات الجماهيرية إلى الذروة والانفجار الشعبي. وقد ورد في العدد (١٣) من نشرة الحزب الداخلية «الإنجاز» ما يلي: «إن حركتنا الوطنية الديمقراطية تطورت وتعاظمت، رغم الإرهاب الفاشي والدكتاتورية السافرة ضد الشعب. فبينما كان هناك، في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠، أزمة للحركة السياسية الثورية في بلادنا، نجد اليوم مداً متعاظماً للحركة الثورية وأزمة عنيفة للرجعية ونلمس بوادر انتفاضة شعبية للاطاحة بالحكم الدكتاتوري ولانتزاع الحريات الديمقراطية وتحقيق مطالب الشعب».

يتضح مما تقدم أننا لم نفاجأ بالانتفاضة وأن الأحداث لم تأت

بصورة عفوية وأن لم تخل كلياً من العفوية، ولم تكن هناك ساعة صفر محددة مسبقاً.

وكان زعماء الأحزاب البرجوازية الوطنية مدركين أيضاً لخطورة الوضع السياسي المتوتر في البلاد وتطور الأحداث شطر الانفجار. وفي مذكرات شديدة اللهجة ألقى كامل الچادرجي ومهدي كبه وطه الهاشمي مسؤولية تردي الوضع إلى هذه الدرجة على البلاط الملكي وعلى شخص عبد الإله الوصي على العرش مباشرة وحذروا من مغبة الاستمرار على تجاهل المشاكل المستفحلة في البلاد.

لست أدري بماذا فكر السفير البريطاني ذو الكلمة المسموعة لدى الوصي ورجال الفئة الحاكمة آنئذ، غير أن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الكثيرين من أفراد الفئة الحاكمة كانوا منتبهين إلى خطورة الوضع ومتخوفين من حدوث انفجار شعبي. وبإلحاح من هؤلاء، وبينهم رئيس الوزراء مصطفى العمري، وافق عبد الإله على عقد ما سموه مؤتمر البلاط والذي سماه كريم أحمد ـ بعد اعتقالي أنا ـ بـ «مؤتمر البالوعة» سخرية من كلام توفيق السويدي الذي كان قد قال في إحدى جلسات المؤتمر أن أهالي الشواكة يعارضون رمي القاذورات في البالوعات.

وأظن أن الوصي عبد الإله كان أقل الجميع شعوراً بالخطر. فهو كان مغروراً وصلفاً وكان على ثقة تامة بقدرة الإنكليز على مجابهة أي مشكلة والتغلب عليها. ولعل ذلك كان نتيجة اجتيازه لمحن سابقة في حركة رشيد عالي عام ١٩٤١ ثم في وثبة كانون ١٩٤٨، بفضل قوة ودراية الإنكليز. وبدافع من هذا الغرور والصلافة أهان، في المؤتمر الذي دعا إليه بنفسه، رئيس حزب الجبهة الشعبية وأحد أقطاب المعارضة اللبرالية آنئذ طه الهاشمي، الذي كان نفسه من رؤساء الوزارات السابقين وكان منشقاً في الآونة الأخيرة على الطبقة الحاكمة ومنتقلاً إلى صف المعارضين للسلطة الحاكمة.

وكانت أحاديث أغلب رؤوساء الوزارات السابقين، كنوري السعيد وتوفيق السويدي وصالح جبر وحكمت سليمان.. الخ، أشبه بحديث رجل مخرف أو متخلف كثيراً عن ركب التطور.

وعلى الرغم من أن ح ش ع، الذي كنت على رأسه آنئذ، كان أقوى حزب سياسي في البلاد فإن مشاركة ممثل له في محادثات البلاط كان أمراً مستبعداً بالمرة ليس فقط في أذهان الحكام، بل كذلك في أذهاننا نحن الشيوعيين. وكان المألوف في مثل هذه المناسبات تجاهل اليسار العراقي بوجه عام. وكان هم اليسار إلا يكون ضحية قوانين جائرة أو دسائس تحاك ضده في الخفاء.

أعود إلى الانتفاضة، التي صنعتها جماهير بغداد الثائرة وقادها الشيوعيون بلا منازع. وكانت الانفجار الشعبي الذي حذرت منه مذكرات أحزاب المعارضة اللبرالية.

قبل الانتفاضة كان إضراب طلبة الصيدلة والكيمياء، الذي لم يحدث بمعزل عن حماقة العميد حين أجرى على نظام الكلية تعديلات إضافية أثار بها الطلاب. في هذه الكلية كان عدد الشيوعيين واليساريين المنظمين محدوداً وأضعف بكثير مما في كليات أخرى كالآداب والحقوق والتربية.. الخ. لكن حماقة العميد دفعتها إلى تصدر الحركة الإضرابية ـ النقابية بين الطلاب في تلك الفترة. وكان قرار الإضراب نتيجة مناقشات جماعية بين الطلاب وتعبيراً عن رغبة الغالبية الساحقة منهم. ولم يشذ عنه إلا طلبة الصف الثالث ـ كيمياء ـ الذين امتنعوا عن المشاركة فيه لسبب لا أعرفه ثم عدلوا عن هذه الفكرة وقرروا المشاركة بعد أيام من استمرار الإضراب. وانتخب الطلاب أنفسهم لجنة لقيادة إضرابهم ولإجراء اللقاءات والمفاوضات مع الدوائر الحكومية. وكان مطلبهم الرئيسي إلغاء النظام الجديد وإقصاء العميد المستبد ـ وكان عميداً بالوكالة ـ وربما أجرى التعديلات بأمل أن يثبت كعميد دائم.

وازداد قلق السلطة الحاكمة عندما تلمست مخاطر اتساع الإضراب الطلابي لكي يشمل كليات ومعاهد أخرى، بعد أن وزع اتحاد الطلبة العام بياناً بهذا الخصوص. فاستخدم جمال بابان، الذي كان يتولى وزارة المعارف بالوكالة آنئذ، ابنه الطالب لتدبير لقاء له في منزله مع وفد الطلاب المضربين. واستمع إلى مطالبهم وطلب إنهاء الإضراب لقاء تلبية مطلبهم الأساسي بإلغاء التعديلات التي أجريت على نظام الكلية. غير أن الطلاب أصروا كذلك على إقصاء عميد الكلية كأحد الشروط لإنهاء الإضراب. وأمكن الوصول إلى حل وسط: إبعاد العميد بإجازة موقتة ثم نقله. ووسط بابان نقيب الأطباء القيسي لاستخدام نفوذه في إقناع الطلاب. وانتهى فعلاً بانتصار الطلبة في ١٩/١١/١٩٥٢.

غير أن إنهاء الإضراب اقترن بتدبير اعتداء دبرته الأجهزة القمعية ضد عدد من أعضاء لجنة الإضراب. وأخذ الجرحى المعتدى عليهم إلى المستشفى. وهاج الطلاب وتجدد الإضراب فوراً وتوترت أجواء المجتمع الطلابي كله في بغداد توتراً شديداً، تخللته تجمعات وتظاهرات صغيرة وهتافات، لم تلبث أن تحولت في ٢٠/١١/١٩٥٢ إلى مظاهرة طلابية حاشدة سارت في الشارع وتصدت لها قوة كبيرة من الشرطة مهيأة مسبقاً ومزودة بالهراوات والبنادق. وبعد اشتباك عنيف تمكنت الشرطة من تفريق المظاهرة وملاحقة بعض فلولها. غير أن الكثيرين من الطلاب احتشدوا من جديد في كلية الآداب، التي كانت إحدى قلاع الحركة الطلابية الديمقراطية. وكبر الحشد تدريجياً أمام الكلية وخطب فيه الطالب الشيوعي النشيط وسكرتير التنظيم الحزبي في الكليات والمعاهد حمدي أيوب العاني. ولعبت الطالبة الاتحادية النشطة سافرة جميل حافظ دوراً مؤثراً في تظاهرة ذلك اليوم والتحركات الطلابية عامة. وكان من جملة ما قررته الحشود الطلابية في ذلك اليوم إرسال مذكرة، يحملها وفد طلابي كبير وتذيل باسم اتحاد الطلبة العام غير المجاز، إلى مقرات الأحزاب المعارضة والصحف الوطنية وإلى الجهات الحكومية المعنية.

كان ذلك مؤثراً على تنامي روح التحدي وتصاعد المد الثوري بين الطلاب وكل الجماهير.

وحين تفرق الاجتماع الطلابي الحاشد في كلية الآداب دعا حمدي أيوب الجميع إلى الحضور صباح السبت ١٩٥٢/١١/٢٢ في الزمان والمكان المحددين (أمام كلية الآداب) لاستئناف التظاهرة الشعبية.

أشيع في العاصمة خبر التظاهرة اللاحقة، التي ستخرج يوم السبت. وهيأنا اللافتات والشعارات وحدد الهتافون وعين من يشارك من الكوادر ومن يستثنى. ومن جهة ثانية بدأت السلطات تهيء نفسها لمواجهة الأحداث المحتملة خصوصاً بالاعتماد على الشرطة.

حوالي الساعة الثامنة صباح اليوم المحدد احتشد أمام كلية الآداب بباب المعظم ما يزيد عن ثلاثة آلاف طالب وشاب. وأمر قائد المظاهرة حمدي أيوب برفع اللافتات فوق الرؤوس. ووزعت قصاصات ورق تحوي الشعارات والهتافات التي تطلق في المظاهرة. ارتفعت قطع من الخام الأبيض كتبت عليها بأحرف كبيرة:

عاش السلام العالمي وليسقط دعاة الحروب العدوانية

تسقط الأحلاف والتكتلات الاستعمارية والعدوانية

يسقط الاستعمار وعملاءه الخونة المحليون

نطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٠

نطالب بإطلاق الحريات الديمقراطية

نطالب بإطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسيين الأحرار

تسقط الانتخابات المزيفة.. لا انتخابات حرة والأحرار في السجون

نطالب بانتخابات حرة على أساس قانون الانتخاب المباشر

نطالب بتوفير الخبز والعمل للكادحين.

عند تحرك المظاهرة التحقت بها جموع غفيرة من غير الطلاب أيضاً حتى جاوزوا الألوف. إنها لم تعد مظاهرة طلابية، بل غدت مظاهرة سياسية جماهيرية عامة سواء من حيث طابعها وأهدافها أم عدد المشاركين فيها. وهي اتجهت من باب المعظم إلى شارع غازي والجموع تهتف بحماس منقطع النظير: «يا الله يا شعب! جدد الوثبة!». وفشلت الشرطة في تفريقها عن طريق استخدام الهراوات، فالتجأت إلى القنابل المسيلة للدموع. وتلقف أحد المتظاهرين قنبلة، وهي في الفضاء، وأعادها برمية سريعة إلى الشرطة فانفجرت بينهم وهربوا بعيون دامعة. وفي حي الفضل أطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين وسقط شهيد واحد وجرحى وتفرقت المظاهرة. ولكن المتظاهرين سرعان ما أعادوا تجميع قواهم في نفس الشارع وبمزيد من التماسك ولم تجد القنابل المسيلة للدموع ولم تفلح الشرطة في صد المظاهرة بالهراوات. وانعطفت المظاهرة من ساحة الأمين شطر صوب الكرخ، وفوق الجسر ذكّر الخطباء الجماهير بأنهم يمرون على جسر الشهداء، ورمز وثبة كانون ١٩٤٨. وخطب قائد المظاهرة حمدي أيوب من جديد. ومع وصول الحشود المتظاهرة إلى حي الشواكة أصيبت السفارة البريطانية بذعر شديد. وعززت حولها الحراسة المسلحة. لكن المتظاهرين اكتفوا بالهتافات ضد الاستعمار البريطاني معاهداته وعملائه وضد تمثال الجنرال مود رمز الاحتلال البريطاني للعراق.

في الساعة الثانية بعد الظهر تفرقت المظاهرة بطلب من قائدها على أن تستأنف في الساعة السادسة مساء نفس اليوم أمام المدرسة الجعفرية. وقد استئنفت فعلاً في موعدها المحدد واستمرت حتى التاسعة مساءاً ليعلن حمدي انتهاءها وليدعو الجميع للحضور صباح اليوم التالي أمام كلية الآداب ويسيروا في مظاهرة جديدة.

في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ تشرين الثاني حدثت سرقة فريدة من نوعها في

المستشفى الملكي المجاور لكلية الطب ببغداد. ذلك أن طلبة الكلية الشيوعيين عرفوا بوجود جثة جديدة في المستشفى، وقد تكون جثة متظاهر شهيد. وتمكنوا من سرقتها واشتروا الثلج لوضعه فوقها كي لا تتفسخ ولكي يحملوها في مظاهرة اليوم التالي.

وأدخلت الشرطة سيارتين مليئتين بالخوذ والهراوات إلى الكلية، ربما لاستخدامها ضد الطلبة. وحين عرف الطلاب بذلك قرروا الهجوم على كلتا السيارتين ومصادرة الهراوات. وقرروا فيما بعد استخدام الهراوات المصادرة لملاحقة البوليس وحرق السيارتين. غير أن رجال الشرطة قد هربوا تاركين الكلية والهراوات معاً. وقدمت عمادة الكلية احتجاجاً إلى السلطات.

في صبيحة ٢٣ تشرين الثاني بدأت المظاهرة بصورة أكثر تنظيماً وأقوى معنوية وأكبر عدداً. ولم يكن رئيس الوزراء العمري متحمساً في استخدام الرصاص بشكل مفرط. جرى الهجوم على المظاهرة بالعصي ورد المتظاهرون وسقط جرحى من رجال الشرطة ومات ضابط منهم ولاذ الآخرون بالفرار. وقف المتظاهرون قليلاً أمام مقر حزب الاتحاد الدستوري (حزب نوري السعيد) وأخذوا القطعة المعلقة على بابه وعلقوها على باب المبنى العام في الميدان. فاحتجت إحدى المومسات مخاطبة من علقوا القطعة:

ـ نحن مومسات ولسنا خونة الشعب والوطن وليس من الإنصاف في شيء أن تساووا بيننا وبين أمثال نوري السعيد.

اتسعت المظاهرة حتى جاوزت عشرات الألوف. صبغ المتظاهرون لافتاتهم بدماء زملائهم الجرحى وتابعوا سيرهم. اتصل شاب بأحد مسؤولي المظاهرة وطلب منه السماح بأن يسير هو وجماعته وراء لافتة خاصة بهم. فأجابه، قبل أن يعرف هويته:

ـ على الرحب والسعة بمشاركتكم تحت لافتاتكم الخاصة.

بعد قليل كان هناك ما يقارب الثلاثين متظاهراً وراء لافتتهم الخاصة. لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً إذ لم يلبث أن تفرقوا على الحشود المتظاهرة. وبدافع الفضول حاول المتظاهر المسؤول التعرف على هوية هذه الجماعة واتضح له أنهم جماعة عزيز شريف.

في ٢٢ تشرين طلبت من سكرتير منظمة العاصمة ناصر عبود عقد اجتماع طارىء للجنة في صباح اليوم التالي وأبلغته بأني سأحضره. وقد وصلت بيت الاجتماع ماراً بجانب مظاهرة جماهيرية كبرى دشنت اليوم الثالث والعشرين. بعد مداولات قصيرة وسط مزاج ثوري متصاعد من لدن الجميع (وكان بينهم عزيز الشيخ ومحمد العبللي وكامل السامرائي وحيدر حاتم) قلت لهم:

ـ للأمس كنا نمنع الكوادر من المشاركة في التظاهر باستثناء من كنا نكلفهم بقيادة المظاهرة وتوجيهها. وكنا محقين في ذلك. وكان الغرض صيانة الكادر. واليوم تغيرت الظروف كلياً، بعد أن هبت الجماهير كلها إلى الشوارع وأصبحت الشوارع نفسها ليس فقط في مسيس الحاجة إلى المزيد والمزيد من الكوادر، بل كذلك المكان الأكثر أماناً لصيانة الكوادر. إذن فليشارك الجميع ولن يكون هناك استثناء.

تلقوا هذا التوجيه بسرور وحماس وخرجوا مسرعين كما لو كانوا يذهبون إلى لقاء أعز ما يملكون. كثر القادة للمظاهرات الشعبية المتسعة. بقيت بنفسي في الشارع أيضاً، متنقلاً على الأرصفة بين الحشود المتظاهرة التي لم تعد تنحصر في شارع معين أو حي معين. وظلت على صلة مباشرة بعدد من قادة الشارع. بتعبير آخر أصبحت قيادة ح ش ع كلياً في الشارع، مع الجماهير المتظاهرة.

في الضحى أطلق البوليس الرشقات الأولى من النيران على المتظاهرين في ساحة زبيدة. سقط هناك أربعة شهداء، فضلاً عن عدد أكبر من الجرحى. وتكرر إطلاق النار في أماكن أخرى. لكن الحشود

الثائرة الساخطة كانت أوسع وأقوى من أن تقمع بهذه السهولة. فالمظاهرات كانت تكبر وتتعاظم بسرعة خيالية.

منذ ٢٢ تشرين ظهرت هتافات في الشوارع بسقوط النظام الملكي. لكن مجازر اليوم دفعت شعار إسقاط الملكية نفسها في المقدمة وجعلته يطغي على سائر الشعارات لدى جميع المتظاهرين. وكان ذلك الانعكاس الطبيعي لما كان قد أثبت في برنامج الحزب المعدل منذ أوائل ١٩٥٢، الداعي إلى إسقاط الملكية وإقامة حكم جمهوري شعبي.

أظن أن مصطفى العمري لم يكن بطبيعته من غلاة الشرسين بين أفراد الطبقة الحاكمة الرئيسيين. ربما كان يفضل استخدام الهراوات من قبل الشرطة، بدل الأسلحة النارية، ضد المتظاهرين. وحين اتضح له أن ليس بمقدور وزارته السيطرة على الموقف المتفجر من دون المغالاة في سفك الدماء قدم استقالته في ظهيرة ٢٣ تشرين. إلا أن هذه الاستقالة لم تقترن بتنازل جدي لدى البلاط الملكي. فمع نشر الاستقالة أذيع نبأ من راديو بغداد يقول أن جميل المدفعي هو المكلف بتأليف الوزارة الجديدة ـ والمدفعي لم يكن سوى أحد أقطاب الفئة الحاكمة المعروفين بولاءهم التام للإنكليز. فكان من الطبيعي أن يقترن هذا النبأ بشعار جديد أنزلناه إلى الشارع فوراً: «تسقط وزارة العميل المدفعي». وقال الخطباء في المظاهرات أن المدفعي أسوأ من العمري وأن الشعب لم يقدم الضحايا لكي يستبدل العمري بالمدفعي. فيما كانت الهتافات بسقوط الملكية وإقامة الجمهورية تتسع أكثر فأكثر.

جاءني محمد شبر، وهو يقود إحدى المظاهرات الكبرى، وأنا واقف على الرصيف وقال:

ـ أيها الرفيق! لنقدم بديلا عن وزارة المدفعي ولا يكفي أن نهتف بسقوطها.

رأيتها فكرة سليمة تماماً. لن نسمح بإقامة وزارة جديدة برئاسة المدفعي. ولكن ماذا بعدئذ؟ إذن يجب تقديم بديل ملموس. وقد أعطيت اقتراح شهر صيغة ملموسة: تشكيل وزارة وطنية ائتلافية يكون رئيسها كامل الچادرجي، وهو رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، ويكون أعضائها من ممثلي الأحزاب الوطنية ومن عناصر المعارضة الوطنية المستقلين أمثال الجواهري وعبد الرزاق الشيخلي. واحتفظت لنا فقط بمقعدين وزاريين، ولكنهما كانا أهم مقعدين: وزارة الدفاع للضابط الشيوعي المفصول سليم الفخري ووزارة الداخلية لنائب رئيس نقابة المحامين المحامي الشيوعي توفيق منير. وكتبت قائمة بالتشكيلة الوزارية الجديدة مع ذكر اسم كل وزير وزارته ووزعنا نسخاً منها. وكان العبللي أول متظاهر مسؤول استلم القائمة وقرأها على الجمهور. وخلال ربع ساعة أخذت نسخ القائمة طريقها إلى مسؤولي شتّى أقسام المظاهرة وقرأت على الحشود المتظاهرة ولقيت الترحيب الحماسي من الجميع.

في الوقت نفسه دعوت عزيز الشيخ، وكان يقود حشداً من المتظاهرين، للتحدث إليه ولإرساله إلى كامل الچادرجي. فزاره وأبلغه بأنه موفد من قيادة ح ش ع إليه ليبلغه بأن الجماهير الثائرة في الشارع تطالب بإسناد منصب رئاسة الوزارة إليه. ونحن الشيوعيين ندعم هذا المطلب ونأمل أن يدعمه الحزب الوطني الديمقراطي وسائر الأحزاب الوطنية أيضاً، لكي نفرضه بجهودنا المشتركة على البلاط. استمع الچادرجي باهتمام إلى ما قاله موفدنا ولم يعلق شخصياً بشيء لكن رئيس تحرير جريدة الأهالي عبد الله عباس قد علق - وأظن أنه عبر بدقة عن رأي الچادرجي:

- ينبغي أن يكون لرئيس الوزراء رأيه في اختيار وزرائه، لا أن يفرضوا عليه فرضاً.

كان لقاء عزيز الشيخ مع الچادرجي ثاني لقاء إبان المظاهرات

الساخنة إذ كنت قد أوفدت إليه في ٢٢ تشرين الضابط الشيوعي المفصول غضبان السعد حاملاً إليه طلباً بالتعاون من أجل تحقيق مطالب الشعب أو المطالب التي وردت في مذكرات أحزاب المعارضة إلى البلاط. ولم نرسل أحداً إلى قادة حزبي الاستقلال والجبهة الشعبية باعتبار أن الچادرجي حلقة الوصل المناسبة بيننا وبين هؤلاء. وفي الواقع كان هذا التحسس في الصلات مع ذينك الحزبين ضرباً من التطرف عندي إذ كان الصحيح أن نوفد ممثلينا إلى الجميع مباشرة.

ومن الطرائف أن غضبان السعد قد أبلغ في عصر ٢٣ تشرين، أي بعد لقاء عزيز مع الچادرجي بسويعات، بأن الأخير لن يقبل بعبد الرزاق الشيخلي وزيراً للخارجية حتى ولو ضرب بالنعال على رأسه ـ وكان الشيخلي قد عين في قائمتنا وزيراً للخارجية.

في ٢٣ تشرين، وفيما كانت الثورة الجماهيرية في ذروتها، اجتمع قادة أحزاب المعارضة اللبرالية بدعوة من الچادرجي وفي مقره هو. وقيل أن الچادرجي عرض على المجتمعين إصدار بيان باسم الأحزاب الوطنية يتضمن التذكير بما أوردته هذه الأحزاب في مذكراتها من مطالب تجاهلتها السلطة حتى كانت النتيجة هذا الانفجار. ومن ثم دعوة السلطة إلى تلبية مطالب الشعب ودعوة الجمهور إلى التزام الهدوء والسكينة. وكان فائق السامرائي أحد قادة حزب الاستقلال أول من أجاب بعصبية واضحة:

ـ ماذا تقول يا أبو رفعت؟ من نحن الجالسين هنا لنصدر بياناً للشعب؟ ينبغي أن نكون واقعيين ونعرف الدور الذي نستطيع أن نلعبه نحن وأن يلعبه غيرنا.. أنتم ترون أن الجماهير تسير وراء ح ش ع وحده. وإذا رغبنا في عمل شيء ما فيجب الاتصال أولاً مع الشيوعيين.

وأيد آخرون هذا الرأي وانتهى الاجتماع دون إصدار أي بيان في

تلك الجلسة. وتطورت الأحداث بما لم يمهل هؤلاء لعقد جلسات لاحقة أو إصدار شيء ما.

في ظهيرة ٢٣ تشرين، وأثر مصادمات عنيفة مع الشرطة في عدة أنحاء من العاصمة، انسحبت قوات الشرطة إلى داخل مراكزها إقراراً بالهزيمة وبالعجز عن قمع التمرد الشعبي السلمي. وبقيت الجماهير الثائرة وحدها في الشوارع لبضع ساعات. كانت بغداد تغلي غلياناً لم يسبق مثيله. وكان البغداديون، الذين لم يفكر الكثيرون منهم ذات يوم في الأمور السياسية ولا في المشاركة بأية مظاهرة، متحشدين متحمسين جميعاً يهتفون ملء أشداقهم بشعارات ح ش ع. وكان الشيوعيون وحدهم الذين يقودون بلا منازع تلك الجماهير. كانت المظاهرات منظمة تنظيماً جيداً. ويكفي، للاستدلال على ذلك، أن يعرف المرء أن جميع ما حدث من المظاهرات الكبرى خلال تلك الأيام لم يقترن بأي عمل تخريبي أو مسيء إلى قدسية النضال الوطني الديمقراطي.. فلم تحرق سيارة أو مبنى ولم يكسر زجاج سيارة أو عمارة ولم ينهب من الأسواق الواسعة غير المحروسة حتى ولا إبرة أو غرام من البضائع. لقد شهدت العاصمة حريقين فقط، وكانا موجهين وتحت إشراف الشيوعين أنفسهم ـ حرق المركز الثقافي الأمريكي وحرق مركز شرطة باب الشيخ، كما سيأتي ذكرها.

كان المركز الثقافي الأمريكي في مبنى ذي ثلاثة طوابق بشارع الرشيد. وكان مغلقاً منذ يومين. ورد الاقتراح بحرقه من شخص لا أعرفه أو من الجماهير، لكنه كان مجرد اقتراح وتوقف التنفيذ على موافقة ح ش ع، بالأحرى موافقتي الشخصية. وقد وافقت موافقة مشروطة: «يحرق المركز الثقافي دون حرق المبنى». كسروا الأبواب خلال دقائق وبدأوا بإخراج ممتلكات المركز عبر الباب أو رميها من البلكونات إلى وسط الشارع. وبعد قليل، ووسط الهتافات الصاخبة بسقوط الاستعمار الأمريكي، شهد شارع الرشيد السنة النيران

المتصاعدة. وكانت هناك، بين المتظاهرين عامة وبين الشبان الثوريين بوجه خاص، قيم واعتبارات خلقية سامية تصون قدسية النضال الثوري من التشويه. لم أسمع أبداً أن يكون شخص ما قد سرق شيئاً من تلك الممتلكات أو من غيرها. ورأيت بعيني متظاهراً وهو يلقي بقلم حبر باركر (وكان ثمنه في ذلك الوقت خمسة دنانير) إلى النار الملتهبة وآخر يلقي بساعة يدوية إليها بعد أن عرضها على المشاهدين حواليه. كانت النفوس الثائرة تأبى اللجوء إلى أعمال النهب والسرقة.

لم يكن ضمن برنامج المظاهرات وخطة ح ش ع اللجوء إلى العنف ولا حرق أي مركز للبوليس. فهي كانت مظاهرات سلمية وكان أقصى ما لجأ إليه المتظاهرون استخدام العصي والحجارة عند تعرضهم لهجوم الشرطة. بيد أن شرطة مركز باب الشيخ تمادت ـ إما بدافع الخوف أو الحقد الشديد على المتظاهرين ـ في استخدام العنف بحق الجماهير وجابهت كل محاولة رامية إلى سير المظاهرة عبر شارع غازي برشقات جديدة من الرصاص وبقتل وجرح عدد جديد من الشبان. فأثار ذلك غضب الجماهير الشديد وقام بعض المتظاهرين بحمل صفيحتين من النفط وبالوصول عبر مبان مجاورة لمبنى البوليس. وأشعلوا فيه النار. وحتى بعد كل هذه الجرائم من رجال الشرطة وبعد انتصار المتظاهرين الكاسح فإن شرطياً منهم قد قتل، بسبب غبائه وحماقته، في حين أقام الشيوعيون سياجاً لصيانة سائر رجال الشرطة وإمرارهم بسلام وإنقاذهم من غضب الجمهور الساخط. وإذا قورن ما جرى في بغداد، أثناء انتفاضة تشرين ١٩٥٢، بما جرى في القاهرة حيث حرقت المدينة على أيدي المتظاهرين في أوائل الخمسينات، أو بما جرى مراراً في باكستان والهند وغيرهما من البلدان، اتضح للمرء كم كانت تلك المظاهرات منظمة وأي دور لعب الشيوعيون في قيادتها وتوجيهها وتجنيبها التورط في المطبات.

كان اندحار الشرطة في شوارع العاصمة، من جهة، وفشل

المحاولات الرامية إلى تهدأة الوضع عن طريق تكليف المدفعي بتشكيل وزارة جديدة، من جهة أخرى، قد وضع البلاط والسفير البريطاني وأقطاب النظام الملكي في وضع حرج. وتأتى عليهم اللجوء إلى آخر ورقة في أيديهم، الجيش، باعتباره الوسيلة الوحيدة لإنقاذ النظام من الانهيار. وهكذا أنزلت وحدات الجيش المدرعة إلى شوارع العاصمة وساحاتها العامة وأعلنت الإدارة العرفية العسكرية وعين رئيس أركان الجيش الجنرال نور الدين محمود رئيساً للوزراء، فيما عين العميد عبد المطلب الأمين حاكماً عسكرياً في البلاد وفرض منع التجول من المساء إلى الصباح وعطلت ١٧ جريدة ومجلة وحظرت المظاهرات والتجمعات وسحبت رخص الأحزاب والنقابات وعطلت الدراسة في الكليات والمعاهد ونظمت حملة الملاحقات والاعتقالات.

عليّ أن أعترف بأني لم أفكر مسبقاً في احتمال أمر كهذا ولم أتخذ أي استعداد مسبق لمجابهته. كان شبه الانقلاب وما اقترن به من إجراءات مفاجأة لي. وقد وجدت نفسي فجأة في وضع مغاير تماماً. ولم تكن لديّ، في أول الأمر، فكرة عما يجب عمله إزاء إنزال القوات المسلحة إلى الشوارع. لكن السويعات أو الدقائق الأولى علمتني شيئاً جديداً: تجب المبادرة إلى اتخاذ موقف ودّي وتحريضي تجاه العسكريين المتواجدين في الشوارع. لو كانت لنا خلايا حزبية، خصوصاً بين الضباط، لأمكن لنا التعامل مع الوضع بشكل آخر. ولكننا لم نملك شيئاً من هذه الخلايا ولم يكن أمامنا أي خيار سوى السعي من أجل كسب الجيش إلى جانب الجماهير أو من أجل تحييده. ولهذا الغرض بادرنا إلى إطلاق شعارات وهتافات جديدة في الشارع: عاشت أخوة الجيش والشعب وعاش تضامن الجيش والشعب ضد الاستعمار والرجعية. وسرعان ما سرت هذه الشعارات بين المتظاهرين وتحولت إلى هتافهم الرئيسي.

في الوقت نفسه توجهت مسرعاً إلى بيت مطبعتنا السرية، حيث كان

صبيح سباهي مرابطاً تحت الإنذار. وجلست لأتكلم شفهيا ـ إذ لم يتسن لي كتابة شيء مسبقاً ـ وليطبع بدوره على الستانسل ما أتفوه به. وبسرعة قياسية طبعنا النداء الصادر من ح ش ع إلى الجنود والضباط الشرفاء. وتركت صبيح ليحمل بعدئذ آلاف النسخ في صندوق دراجته الخشبي إلى محطة التوزيع ومن هناك إلى الشوارع. سلمت نسخ منه مباشرة إلى الجنود والضباط فوق دباباتهم وسياراتهم. وصعدت رفيقات ورفاق العربات العسكرية ليقرأوا من هناك نص النداء للجمهور. وأعتقد أن النداء كان موضع الارتياح والترحيب من أغلبيتهم الساحقة، إن لم يكن من جميعهم. وصفق الكثيرون من العسكرينن مع المتظاهرين لكلمات النداء الحماسية ودعواته إلى تضامن الجيش مع الشعب ضد الاستعمار وأعوانه المحليين.

طيلة ساعات ما بعد الظهر وحتى ساعة متأخرة من الليل استمرت المظاهرات دون أن تتعرض لها الوحدات العسكرية المرابطة في الشوارع. معنى ذلك أننا نجحنا في تحييد الجيش، وإن لم نفلح في كسبه إلى جانب الجماهير المنتفضة. وكان ذلك مبعث قلق شديد للخصوم وتهديداً جدياً للنظام وللمصالح الامبريالية في العراق. وتأتي على هؤلاء أن يفكروا جدياً بخطة جديدة تضمن استخدام الجيش فعلياً ضد الجماهير المتمردة. وقد لجأ الخصم، كما أوضحت الوقائع، إلى الإجراءات التالية:

١ ـ القيام بأوسع حملة من الاعتقالات ومداهمات البيوت ليلية ٢٣/ ٢٤ تشرين ليس فقط بين الشيوعيين، بل بين جميع معارضي السلطة على اختلاف ألوانهم، على أن تستمر الحملة في نهار ٢٤ وفي الفترة اللاحقة.

٢ ـ فرز وتهيئة وحدات أو مجموعات من العسكريين، بالأخص من الضباط المخلصين للنظام والمستعدين لتنفيذ الأوامر، لكي يعهد إليهم بمهمة قمع القلاقل، عن طريق العنف الدموي، أي إغراق

المظاهرات في الدماء في حالة تجددها يوم ٢٤/ تشرين.

اعتقل الكثيرون في تلك الليلة. لكن كوادرنا الحزبية كانت قد نبهت لكي تحتاط وتترك بيوتها. ولم يقع أحد منهم في قبضة البوليس. وفي صبيحة ٢٤ تشرين تجددت المظاهرات بسعة قاربت سعة اليوم السابق. وتحت إشراف الحاكم العسكري المباشر عبد المطلب الأمين أطلق الجنود الرصاص على المظاهرة قرب وزارة الدفاع، أولاً، وسقط قتلى وجرحى واصطبغت اللافتات بدمائهم. غير أن الجماهير ألعذل لم تستسلم، بل تحدت العدو المدجج بالسلاح. ورغم تكرار إطلاق النار ورغم استمرار الاعتقالات في الشوارع، فإن الجمهور ظل هائجاً ومائجاً طيلة النهار وإلى ساعة متأخرة من المساء. لكن بوادر الهبوط المعنوي كانت تلاحظ بين الناس وتركت عمليات القتل والاعتقال الواسع أثرها على الوضع لصالح السلطة. وفقدت وحدات عسكرية معينة حيالها، بخلاف ما كان في الأمس، وانحازت إلى سياسة القمع والتنكيل بالجماهير. وانعدمت إمكانية تجديد المظاهرات في ٢٥ تشرين.

اعتقلت وزارة نور الدين محمود العسكرية عشرات الألوف من الناس، بينهم جميع قادة الأحزاب البرجوازية الوطنية المعارضة للنظام. كان بين المعتقلين عدد من كوادر الحزب أمثال عزيز الشيخ ومحمد شبر وحمدي أيوب وغضبان السعد وحيدر حاتم وكثيرين غيرهم.

وفي معتقل أبو غريب التقى الچادرجي مع عزيز الشيخ، أحدهما يعود من التواليت إلى زنزانته والآخر يذهب من الزنزانة إلى التواليت، فبادر عزيز إلى تحية الزعيم الوطني ورد الأخير قائلاً:

ـ دعنا الآن من التحايا يا عزيز! قل لي هل أفلحت السلطة في اعتقال قيادتكم؟

ـ كلا لم تفلح.. قيادتنا في خير وسلام.

ـ هذا مبعث سروري وسنخرج جميعاً من السجن ما دامت قيادتكم سالمة. كانت هذه الكلمات من الچادرجي اعترافاً بحقيقة الدور الذي لعبه ح ش ع في حياة البلاد السياسية، وبالأخص في جبهة المعارضة الوطنية ضد الاستعمار والنظام الملكي، في تلك الفترات من تأريخ العراق.

كان أسلوب العنف ضد الجماهير هو الشيء الرئيسي المعتمد عليه من قبل السلطة. ومع ذلك مارست السلطة ـ الوزارة الجديدة ـ شيئاً من المناورة والخداع بهدف ترضية الناس. وكان أهم شيء بهذا الصدد إصدار مرسوم ألغي بموجبه قانون الانتخابات البرلمانية القديم وأقر حق الانتخاب المباشر بدلاً من الانتخابات على مرحلتين. وفي محاولاته لإظهار نفسه كرجل مهتم بمشاكل الفقراء أصدر رئيس الوزراء قائمة بتسعير عدد من الخضراوات والمواد الغذائية. وسخر منه مواطن من الناصرية إذ أرسل إليه البرقية التالية (وأظن أن إحدى الصحف قد نشرتها):

ـ تسعيركم للشلغم أثلج صدورنا. سيروا على بركة الله ونحن وراءكم.

وبرغم الأحكام العرفية والاعتقالات والإرهاب بقي لدى الناس قدر من روح التحدي والمعنوية العالية وبقيت السلطة تشعر بضعفها وعزلتها. ولعب استمرار نشرنا الحزبي السري المكثف دوره في ذلك.

بعد الانتفاضة بأيام كنت قد كتبت كراسة صغيرة مكرسة لتناولها. ويتعذر عليّ الآن إعطاء تقييم لتلك الكراسة، التي لم أرها بعد إصدارها في ١٩٥٢ وحتى يومنا هذا. غير أنني أتذكر أنه كانت هناك مآخذ عليها أو على بعض نقاطها من لدن بعض السجناء في سجن بغداد. ومن المرجح أن تحليلاتي للوضع في ذلك الوقت كانت تستند إلى خليط من المسائل الواقعية ومن الأفكار العقائدية الجامدة المأخوذة من الكتب، على الأقل بالنسبة لبعض الأمور.

أصبح المطلب الأساسي للانتفاضة إقامة وزارة وطنية ائتلافية

برئاسة الچادرجي. معنى ذلك أننا لم نطرح شعار الاشتراكية كهدف مباشر ولم نطلب انفراد الحزب الشيوعي بالحكم. وبعد أن أخفقت الانتفاضة في تحقيق هذا الهدف بقينا متمسكين بذات السياسة المتبعة قبل الانتفاضة ورفعنا شعار إسقاط وزارة نور الدين محمود العسكرية الدكتاتورية. وركزنا بوجه خاص على المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين من ضحايا الانتفاضة والإرهاب. وقد رفضت السلطات، كعادتها من قبل، اعتبار هؤلاء موقوفين سياسيين ـ باستثناء مسؤولي الأحزاب البرجوازية الوطنية. ولكنها اضطرت، تحت ضغط الاحتجاجات الواسعة والتهديد بالإضراب عن الطعام، إلى التنازل والتعامل مع الشيوعيين أيضاً كموقوفين سياسيين.

لم يسحق الإرهاب في ظروف الإدارة العرفية روح التحدي والمقاومة لدى الجماهير. وبقي بين الطلاب بوجه خاص قدر كبير من الاستعداد للنضال ضد السلطة. وبمبادرة من قيادة اتحاد الطلبة العام تكون وفد طلابي من (١٥٠) طالباً جامعياً منتسبين إلى مختلف الكليات والمعاهد لمراجعة الوزارات في شبه تظاهرة مطالبة بإطلاق سراح زملائهم الموقوفين. واقترح بعض الطلاب الشيوعيين القيام بمظاهرات. لكني وقفت ضد ذلك معتبراً إياه نهجاً انعزالياً وتطرفاً يسارياً قد ينتهي بإنزال ضربة جديدة بتنظيماتنا.

في آذار ١٩٥٣ تمكنت الشرطة من اعتقال زوجتي مادلين أثناء ما كانت ذاهبة إلى موعد حزبي. تركت الدار، التي كنا نعيش فيها، لحين انتهاء التحقيق معها والحكم عليها بالسجن ووصولها إلى سجن بغداد النسائي. كانت صامدة ولم تبد أي ضعف في التحقيق. حكم عليها بالسجن سبع سنوات. وكانت حبلى. وعند العودة إلى الدار اضطررت إلى أخذ العجوز الطيبة والدة عثمان خوشناو لتعيش معنا وتطبخ لنا الطعام في البيت. وكانت معها حفيدتها الطفلة سعاد ابنة كريم أحمد.

على أثر فشل الانتفاضة وبعد تبيان وجهات نظري حول الأحداث بدت أولى بوادر الخلافات الفكرية بيني وبين البعض من السجناء الشيوعيين في سجن بغداد وتجلى ذلك في رسائل متبادلة. ولم يكن لهذه الخلافات صدى يذكر في سجن نقرة سلمان والكوت. وفي سجن بغداد نفسه كانت الأغلبية الساحقة معنا. بعيداً عن أي خلاف فكري. وكان السجين الشيوعي عزيز محمد على رأس العناصر المخالفة في السجن. وأظن أن السجين الشيوعي اليهودي إبراهيم شاؤول كان المهندس الفكري والموجه النظري ـ على حد تعبير سليم الجلبي وصادق الفلاحي اللذين كانا آنئذ في السجن ـ للخلافات الفكرية. وكان جمال الحيدري منجرفاً وراء المخالفين، رغم أن منطلقاته الفكرية كانت مغايرة لمنطلقات عزيز وشاؤول.

الشيء الأكيد، الذي كان مثار الخلاف، إنما هو شعار إسقاط الملكية وإقامة النظام الجمهوري الشعبي، الذي تضمنه برنامجنا المعدل والذي كان قد وجد التعبير عن نفسه في مظاهرات تشرين ١٩٥٢. والمسألة الثانية، التي اعترض عليها هؤلاء، كانت سياستنا في ميدان التحالفات. كانوا يعتبرون سياستنا يسارية متطرفة إزاء الأحزاب البرجوازية الوطنية. وقد كتب إلينا مخلص (وهو الاسم المستعار لعزيز محمد في ذلك الحين) رسالة مطولة تضمنت كامل اعتراضاتهم وخلافاتهم. وأجبت عليها برسالة (عممت داخلياً في وقت لاحق) رافضاً منطلقاته ومعتبراً إياها انتهازية يمينية، خصوصاً بالنسبة للموقف من شعار الجمهورية الشعبية ومن قضية التحالف مع الأحزاب البرجوازية الوطنية. واعتقد الآن أنني كنت على حق بالنسبة للموقف من الملكية، وهو كان مخطئاً، في حين كانت الحقيقة ضائعة بين يساريتي وبين يمينيته هو بالنسبة لموقفنا من التحالفات. وعلى أي حال فإني عاجز الآن عن إعطاء تقييم دقيق لرسالته ولرسالتي الجوابية، خاصة وأنا لم أطلع على أي من الرسالتين منذ أن اعتقلت في ١٩٥٣.

شهدت سجون العراق الشيوعية قبلئذ انشقاقات وانقلابات تنظيمية داخلية بين السجناء أنفسهم. ولم نصبح نحن خارج السجون طرفاً في أي منها. ولم أتصور أن الخلافات بيننا وبين هؤلاء يمكن أن تصل حد الانشقاق، خاصة وأنهم كانوا أقلية ضئيلة حتى في سجن بغداد. ولم يكن لهم مؤيدون في السجون الأخرى. وقد دخلت وإياهم في مراسلات ومناقشات طويلة ـ حسب مستواي ومستواهم في ذلك الوقت. وأعتقد أنني أظهرت قدراً من المرونة العملية تجاههم بدليل أنني أرسلت لهم رسالة أسندت فيها مسؤولية التنظيم الحزبي في سجن بغداد إلى عزيز محمد، رغم أن الخلافات الفكرية بيننا كانت محتدمة ورغم وجود سليم الجلبي وصادق الفلاحي في السجن ـ وكانا عضوين في لجنة الحزب المركزية التي كنت قد شكلتها. غير أن عزيز رفض قبول هذه المسؤولية وفضل البقاء في صف المعارضين السجناء.

لا أستطيع الدفاع عن مواقف الجلبي والفلاحي كما لا أملك ما أدينهما به في تعقيد الأمور ودفعها نحو الانشقاق. لكن حادثاً واحداً على الأقل ألقى ظلال الشك على أن الفريق المعارض من السجناء كان يخطط للانشقاق مسبقاً. ذلك أن مسؤول منظمة النجف الحزبية عبد الأمير الخياط، الذي سجن في تلك الأيام لفترة معينة وخرج من السجن قبل الانشقاق، كان قد هيأ كل شيء في مدينته لاستقبال ودعم الانشقاق. وأظن أنه اتفق معهم على ذلك قبل خروجه من السجن. وربما كان موقفه الموالي لهم أحد عوامل التشجيع على الانشقاق.

في آذار ١٩٥٣ تطورت الخلافات إلى حدوث انشقاق تنظيمي. وقف عدد قليل مع الفريق المنشق فيما وقفت الغالبية الساحقة مع الجلبي والفلاحي. وعليّ الاعتراف بأن الانشقاق كان مفاجأة نوعاً ما بالنسبة إلي شخصياً. وقد اتخذت موقفاً متسرعاً وخاطئاً. كان عليّ التروّي وبذل الجهود لرأب الصدع وتأجيل التحيز إلى أي طرف ـ وكان ذلك

ممكناً بالطبع في تلك الظروف. لكنني لجأت إلى سكين العملية والبتر، أي الطرد الفوري للفريق المنشق من صفوف الحزب.

وبالنظر إلى مستوى الوعي والتجربة المنخفض عندنا، نحن والمنشقين، كان من الطبيعي أن يجري الصراع بأساليب خاطئة، على الأقل من بعض الأوجه. وكانت المشكلة الرئيسية، إن لم أقل الوحيدة، هي انضمام منظمة النجف إلى الانشقاق. ووقف اثنان من شيوعيي النجف ضد المنشقين هما محمد أبو كاله وغازي شريف. وباستثناء النجف لم تنضم أية منظمة أخرى خارج سجن بغداد. ورتبنا في نيسان ١٩٥٣ محاولة لاسترجاع منظمة النجف، فأصدرنا نداء إلى شيوعيي النجف ـ مدينة حسين الشبيبي ـ مهيبين بهم للعودة إلى صفوف الحزب. حمل عضو اللجنة المركزية للحزب ناصر عبود نسخ هذا النداء وتوجه إلى النجف بمعنوية عالية كي يقيم في بيت أبو كالة ويخوض الصراع ضد المنشقين. وبعد سفره بيومين جرى اعتقالي في بغداد ولم أعرف مدى نجاح ناصر في مهمته تلك.

كنت معتقلاً حين تمكن جمال الحيدري، الذي كان ضمن الفريق المنشق، من الهروب أثناء نقله من السجن إلى أحد المستشفيات. ويبدو أنه توجه إلى النجف، بعد هروبه، مستفيداً من وجود منظمتها إلى جانبهم. وأصبح المسؤول الأول لتنظيم الجماعة الانشقاقية خارج السجون. وأظن أن الحيدري لم ينجرف وراء الفريق المنشق بدافع الانسجام الفكري مع عزيز محمد وإبراهيم شاؤول. بل يمكن القول أنه كان على طرفي نقيض معهما. ربما انجرف بدافع قلة التجربة أو لأي سبب شخصي. واتضحت هذه الحقيقة بعد أن أصبح على رأس تنظيمهم خارج السجن وبعد أن أصبح متحرراً من رقابة عزيز الفكرية عليه فأصدر النشرة الناطقة بلسان منظمته (راية الشغيلة) كاشفاً فيها عن نزعة التطرف اليساري. وفي وقت حق اتهم خصومه الشيوعيين ـ ح ش ع ـ بالانحراف اليميني وخيانة قضية الشيوعية بسبب عقدهم جبهة انتخابية مع

الأحزاب البرجوازية المعارضة وموافقتهم على التعاون مع حزب الاستقلال (عام ١٩٥٤).

منذ أن اعتقلت في نيسان ١٩٥٣ غدوت بعيداً عن الصراع المباشر مع المنشقين. وفي سجن نقرة سلمان، في وقت لاحق، قرأت بعض منشوراتهم ومنشورات الحزب ضدهم ووجدت أن كريم أحمد نعتهم بـ «راية البلاط» إشارة إلى وقوفهم ضد شعار إسقاط الملكية.

❀ ❀ ❀

كان سكرتير منظمة البصرة قد أرسل إلينا رسالة يخبرنا فيها عن أن الاستعدادات تتخذ لإعلان إضراب شامل بين عمال الميناء (أو النفط)، وهو يطلب رأينا فيما يفعل. ونظراً لأهمية المسألة أوفدت كريم أحمد إلى هناك للاطلاع المباشر على الوضع ودراسة ما يجب عمله بغية تقرير الإضراب ودعمه أو العدول عنه. وبسبب اعتقالي قبل عودته إلى بغداد لم أعرف نتائج زيارته وتقديراته.

❀ ❀ ❀

من طرائف نيسان ١٩٥٣ كان الهروب الذي دبرناه لثلاثة من رفاقنا السجناء في سجن بغداد ـ وهم صادق الفلاحي وسليم الچلبي وحمدي أيوب. كان ذلك بعد الانشقاق بفترة قصيرة. وكانت خطة التهريب على الوجه التالي: أثناء المواجهة الأسبوعية للسجناء الشيوعيين أدخلنا إلى السجن ثلاثة من شباننا الموثوقين (كان بينهم إبراهيم الحريري) وأوصيناهم بالبقاء في السجن لمدة أسبوع، مع الحذر واليقظة. جرى ذلك بالاتفاق مع رفاقنا في السجن. وخرج السجناء الثلاثة المقرر هروبهم في نفس المواجهة، بعد تبديل أشكالهم بالصورة المناسبة. وقد نفذ الشبان الثلاثة المهمة الموكولة إليهم بحماس ودون أي اعتراض. واستقبل الهاربون وأخذوا إلى بيوت الاختفاء. وفي مواجهة الأسبوع التالي تحول شباننا الثلاثة من سجناء إلى مواجهين واختلطوا بالعوائل

للخروج عند انتهاء المواجهة. كانت العادة تعداد السجناء قبل خروج المواجهين. فاكتشف أمر هروب الثلاثة وأجري تدقيق شامل لهويات وأشخاص المواجهين فرداً فرداً قبل أن يخلى سبيلهم. سجل تقرير الشرطة أن هروب السجناء قد حدث في الليلة الفائتة وبطريقة غير معروفة لدى السلطات. ولم يخطر ببال أحد أنهم هربوا قبل أسبوع كامل وبتلك الطريقة المذكورة آنفاً.

فرقنا الرفاق الهاربين ليعيش كل في بيت. وبعد أيام وصلني خبر مفاده أن البيت الذي يسكنه الفلاحي مراقب ومعرض للمداهمة. فأوصيت بخروجه من هناك فوراً وبادرت إلى جلبه لمسكني باعتباره أحد أعضاء اللجنة المركزية الموثوقين. ولم أعرف أنني أجلبه لكي يعتقل معي بعيد ذلك، قبل أن يستمتع بهروبه.

١

وراء القضبان

كنت قد انتقلت إلى تلك الدار القريبة من ضريح أبي حنيفة في شباط ١٩٥٣ ولم أكمل فيها الشهر الثالث. فبعد حوالي الشهر قبض على زوجتي. وبعد ذلك بأسابيع دوهمت الدار وقبض علينا أيضاً، أنا والفلاحي وباقر جعفر، العامل الأمي الشاب الذي كانت مهمته تقتصر على فتح الباب لمن يدقه وشراء الصحف والحاجات اليومية من السوق. وهو لم يكن كادراً حزبياً ولا وجهاً شيوعياً معروفاً. واعتقلت معنا كذلك العجوز أم عثمان وحفيدتها الصغيرة سعاد البالغة من العمر أربع سنوات.

كنت في ذلك اليوم، الثالث عشر من نيسان ١٩٥٣، على موعد مع هادي صالح، الذي كان واحداً من أربعة رفاق يعرفون بيتي، في تمام الحادية عشر قبل الظهر. كان المفروض أن يجلب لي رسالة من سكرتير منظمة بغداد في ذلك الوقت رشيد العارف. لم تكن لي ثقة قوية برشيد شخصياً. وكانت صلته مع ناصر عبود. وبعد سفر الأخير إلى النجف ارتبط معي عن طريق المراسلة. كنت أتمشى في صالة الدار الصغيرة عندما طرق سمعي دقة واحدة على الباب. فتحته ظناً بأن الطارق هادي. وفوجئت بحشد صغير من الوجوه الغريبة المثيرة للشكوك. كان بينهم ضابط بوليس واحد مرتد ملابسه العسكرية ورجل

مسن يلف على رأسه. «كشيدة» دالة على أنه زار الكعبة وحصل على لقب الحاج ويلبس عباءة فوق صايته البغدادية القديمة. عرفته جيداً إذ كان مختار المحلة وفي الوقت نفسه كان دلال العقارات وكان الآخرون «أفندية» في بدلاتهم المدنية، وكلهم شبان. أيقنت منذ النظرة الأولى أنهم قادمون لكبس الدار ولاعتقالنا. قمت بحركة خاطفة سعياً لغلق الباب في وجوههم بأمل أن أكسب بعض الوقت لأهرب مع زميلي صادق وباقر. لكن بعضهم كان متهيأ ليفسد علي محاولة غلق الباب، فدفعوه واقتحموا الدار. هربت عبر الممر الداخلي والصالة لعلني أخرج من باب خلفي يوصلني إلى فسحة صغيرة يفصل بينها وبين حديقة الدار المجاورة من الخلف سياج يقارب ارتفاعه المتر ونصف المتر. لو أمكن لي عبور هذا السياج لتوفرت لدي فرصة مناسبة للهروب. وقد أطلقوا علي الرصاص، وأنا أهرب داخل الدار، ولم أصب. تسلقت السياج وكدت أطفر إلى حديقة الجار. لكن أحدهم أمسك برجلي في اللحظة الأخيرة الحاسمة وسحبني إلى الوراء. فسقطت ووقعت في قبضتهم. سحبوني إلى داخل الغرفة، التي كان يجلس فيها الفلاحي وباقر. بدأوا يكيلون لنا السباب والضرب، هم عشرة مسلحين ونحن ثلاثة عزل، مع الضرب بالايدي والركلات كانوا يسألون بإلحاح وتكرار:

ـ ولك أنت منو؟ ولك من أين؟

لم تكن المعركة متكافئة إذ هي تجري داخل غرفة صغيرة وبين عشرة مسلحين بالمسدسات وممثلين للسلطة الحاكمة، من جهة، وثلاثة عزل عن السلاح وهاربين من السلطة، من جهة أخرى. كان بأستطاعتنا أن نرد فقط بألسنتنا وبكلمات السب والإهانة. كنا نصرخ في وجوههم:

ـ أنذال! مجرمين! فاشست!

نزف الدم من أنوفنا ولطخنا قبل أن يتوقفوا عن ضربنا. كانوا يواصلون الضرب لأكثر من عشر دقائق، مع تكرار الأسئلة، إلى أن قال أحدهم بلهجة آمرية:

ـ بس! كافي! أوقفوا الضرب!

لم يكونوا متأكدين من أن الدار التي داهموها وكر حزبي سري. إنما كان مجرد شك. وبعد إيقاف الضرب فتح أحدهم حقيبة موجودة في ركن الغرفة ووقع نظره على بعض المنشورات الشيوعية فصاح فرحاً:

ـ الآن تأكدنا من أنه بيت شيوعي.

لكنهم لم يعرفونا ولم يكفوا عن السؤال نفسه: «ولك أنت منو». وركز أحدهم على وجه الفلاحي لبعض الوقت ثم هتف:

ولك هذا معميلنا (عميلنا) العتيق صادق الفلاحي! شوفوا صابغ شعره حتى ما نعرفه.

أوعز آمر المفرزة إلى أحدهم كي يذهب ويخابر تلفونياً الرجل الثاني في الأمن العام نايل عيسى ويحيطه علماً بما حدث. وأمر الآخرين في الغرفة:

ـ هيا فتشوا البيت!

أول ما خطر على بالي هو خطورة إقامة كمين في البيت للقبض على الرفاق القادمين إليه، وهم هادي صالح وكامل السامرائي وناصر عبود وكريم أحمد. قررت بذل الجهد من أجل إطالة التفتيش لعل ذلك يكسب لنا الوقت حتى ينتشر نبأ مداهمة الدار فيصل الخبر إلى مسامع الجميع ولا يقترب الرفاق عن الدار. طالبت باسم القانون بإجراء التفتيش وفق الأصول القانونية. كنت أعرف أن معهم مختار الحي. فطلبت إحضار ممثل الإدارة العرفية بحجة أن البلاد تعيش في ظروف الأحكام العرفية. لم يعترضوا على الطلب، بل أمر أحدهم بالذهاب لجلب ممثل الإدارة العرفية. وفيما كنا ننتظر اقترب مني الضابط الموجود بينهم بملابسه البوليسية وأخرج من جيبه صورة قديمة لي أخذت قبل أن ينبت في وجهي الشعر وسألني:

ـ أليست هذه صورتك؟ ألست صاحبها؟

لم أنف ولم أؤكد له. إنما أجبته بأني سأوضح الأمور أمام حاكم التحقيق فقال:

ـ إذا كنت صاحب هذه الصورة فاذكر اسمك لكي يحترموك.

قبل أن أجيب دخل ضابط برتبة مقدم وأعلن:

ـ أنا ممثل الإدارة العرفية وجئت لأشرف على التفتيش.

اعترضت من جديد قائلاً:

ـ إذا أردتم إجراء تفتيش قانوني فإن من الملزم إحضار حاكم التحقيق أيضاً. أطلب منكم التمسك بالقانون.

ـ حسناً. اذهبوا واستدعوا حاكم التحقيق أيضاً.

خرج أحدهم وعاد بعد أقل من ربع ساعة بصحبة رجل أسمر أنيق الهندام مربوع عبوس الوجه. وأعلن أن هذا هو الحاكم محمد أحمد العمر (كان يتردد اسمه أحياناً بين معارضي النظام اللبراليين).

ـ هل أستطيع التوثق من أن حضرتك حاكم فعلاً؟ هل يمكن التعرف على هويتك؟ ـ سألته. أصبح الرجل عصبياً فوراً إذ اعتبر سؤالي بمثابة إهانة كبيرة موجهة إليه. وأجاب بصورة استفزازية:

ـ (ولك أنجب).

لم أدخل في مشادة كلامية مع هذا الحاكم الأحمق، الذي كان يجسد البيروقراطية والعنجهية لدى فئة كبيرة من الموظفين الكبار في جهاز الحكم. إنما طلبت فرز وعد الأوراق والنشرات وسائر المستمسكات قطعة بعد قطعة وتثبيت ذلك في المحضر لكي لا يدس البعض بعدئذ ما يروق له بين الأشياء الموجودة وينسبه فيما بعد إلينا. استجيب أول الأمر لطلبي. وبعد ربع ساعة أدركوا أن التفتيش على هذه الطريقة سيطول يومين كاملين. فعدلوا عن هذا الأسلوب وأوجزوا: حقيبة في داخلها نشرات ومستمسكات شيوعية. وبعد انقضاء حوالي

الساعتين على كبس الدار نقلونا كل في سيارة إلى دائرة الأمن العام. ومنذ خروجي من البيت لم يسمح لي بأن أرى أحداً من رفيقيّ. واعتقلت العجوز أم عثمان أيضاً مع حفيدتها الطفلة.

في دائرة الأمن العام أعلنت أنني بهاء الدين نوري وأنني مناضل شيوعي وأن الشخصين اللذين اعتقلا معي في الدار هما شيوعيان أيضاً. أخذت أولاً إلى مكتب مدير الأمن العام بهجت العطية، الرجل الأسمر متوسط القامة الهادىء بعض الشيء. جلست هناك وتأتّى عليّ خوض أول جولة من المناقشات. كان اهتمامه منصباً، قبل كل شيء، على مسألة صفتي الحزبية. كانت لديه شكوك قوية قبل اعتقالي، بأني سكرتير الحزب، ولكن ربما لم يكن لديه اليقين. فسألني:

ـ ألست سكرتير ح ش ع الملقب بباسم؟

ـ كلا لست سكرتيراً للحزب. أنا عضو في الحزب ولست سكرتيراً.

وقد قررت الثبات على هذه الإجابة حتى النهاية وأن أدافع صراحة وبقوة عن الشيوعية وعن الحزب. ووجدت المدير العام محاججاً في كلامه وحاول أن يكون منطقياً. ولم يستعمل كلمات مهينة ولا تهديدات. وقد قال أنه كان زميلاً لفهد في المدرسة الابتدائية وأنه نصحه، بعد القبض عليه في ١٩٤٧، لكي يفكر ويندم على ما فعل، لكي لا يتعرض لعقوبات قانونية قاسية... وأن فهد لم يسمع نصائحه إلى أن حدث له ما حدث. كانت هذه الكلمات موجهة إلي بالطبع لغرض تخويفي وحملي على الاعتراف كي أنقذ رقبتي من حبل المشنقة. وكان هذا الحبل غير مخيف لي.

بعد خروجي من غرفة المدير العام أخذوني إلى غرفة مساعده نايل عيسى ذي الكرش الكبير، الذي كان وجهه يعبر عن نوع من البلاهة الفلاحية. تكررت هناك الأسئلة نفسها والمناقشات نفسها تقريباً. وبعد

خروجي من مكتب نايل أوقفوني في ممر، بجانب ديلاب كان قد نقل من دارنا المكبوسة، وأخذوا لي الصورة الأولى قبل أن يزجوني في زنزانتي الرطبة، حيث وضعوا في يدي القيود وربطوها بقيد مثبت وسط الزنزانة. ولم يلبث أن أخرجوني مرة أخرى إلى إحدى الغرف حيث كان يجلس ضابط برتبة مقدم وقدم نفسه قائلاً:

ـ أنا المعاون السياسي لقائد الإدارة العرفية المقدم صالح مهدي السامرائي.

أظن أنه كان أحد الضباط الرئيسيين في جهاز الاستخبارات العسكرية، الذي كان على علاقة وثيقة مع المخابرات البريطانية. كان هو الآخر راغباً في أن يناقشني ويسمعني. تكررت الأحاديث نفسها. وكان هذا الضابط هادئاً ولم يلجأ إلى التهديد والسب. وأعدت بعدئذ إلى زنزانتي لأقيد كالسابق ومن دون إعطائي أي فراش أو غطاء. وأبلغوني أن مفوض بوليس سيكون موجوداً بصورة دائمة أمام باب الزنزانة ويمكنني الاتصال به وطلب ما أريد. قدرت أن هذا الإجراء يهدف إلى أحكام الحراسة علي ومنع أي محاولة للهروب. كانوا يخشون من إمكانات ح ش ع الواسعة بفضل صلته الوثيقة بالشعب.

كان الظلام قد حل على بغداد حين فتح باب زنزانتي ودخل شرطيان بملابسهما الرسمية وقالا أنهما أمرا بالنوم ليلاً في نفس الغرفة. كان أحدهما ـ سعيد ـ رجلاً كهلاً متوسط القامة وممتلىء الجسم، تدل ملامحه الظاهرية على أنه رجل لا أبالي وغبي ولم يصبح شرطياً إلا لكي يعيش. وكان الثاني ـ كاسب أو چاسب ـ شاباً طويل القامة رشيقها باسم الوجه وبسيطاً بساطة فلاح عراقي لم تفسده بعد الأخلاق البرجوازية. ولم يصدف أن يحاول سعيد التحدث إلي، بعكس كاسب، الذي كان يبحث عن أي مناسبة ليبادلني الحديث. وفي مساء اليوم التالي جاءني كاسب قبل زميله بساعة كاملة. كان واضحاً أنه يبحث عن فرصة للتحدث إليّ. ذكر لي أنه ابن فلاح من ريف العمارة ويعيش مع أهله في

إحدى الصرائف. وأعلمته أنني أيضاً من القرية أصلاً وهجرت عائلتي إلى المدينة وأنا صبي، وأني أصبحت شيوعياً بعد أن كبرت ورأيت الظلم والاستغلال. وقال أنه شهد في هذه الدائرة الكثير من المرارة والتعذيب وأنه رأى من بين الشيوعيين من لم يصمد ولم يبيض الوجه، بل انهار، واعترف على زملائه.. كما رأى آخرين صمدوا رغم قساوة التعذيب. وأشاد بصورة خاصة بحميد عثمان الذي اعتقل في حزيران ١٩٤٩ وصمد صمود الأبطال. أجبته:

ـ من يصبح شيوعياً بملء إرادته ينبغي أن يتحمل العواقب ويصمد.

ـ هل تستطيع الصمود حتى النهاية؟

ـ لن أخون رفاقي ولن أبوح بأسرار الحزب حتى إذا مزقوني قطعاً تحت التعذيب.

نظر كاسب في وجهي كما لو كان يراني لتوه ولم يقل شيئاً بل نهض من مكانه في ركن الزنزانة واقترب مني وقبلني من جبيني قبلة حب وتقدير. ثم عاد إلى مكانه دون أن يتفوه بحرف واحد. كان وجهه يعكس صدق تعاطفه وطيبته. أقنعني ذلك بأني إزاء إنسان طيب بعيد عن أن يكون مدسوساً علي ومكلفاً بمهمة استخبارية. وسألني:

ـ ما الذي تحتاج لأجلبه لك مساء الغد؟

ـ فقد أحتاج جريدة يا كاسب!

ـ هذا خطر كبير. إذا علموا بذلك حكموا علي بالسجن سنتين.

ـ إذن لا داعي ولست بحاجة إلى أي شيء، مع شكري وتقديري.

عندما أتى في مساء اليوم التالي أخرج من جيبه الجريدة مع موزة وبرتقالة وعبثاً حاولت إقناعه باستلام ثمنها. فقد رفض استلام النقود مني بشكل قاطع. وكرر ذلك في الأيام التالية أيضاً بصورة مجانية رغم شحة دخله. وكان نفسه أول من تحدث إلي حول توقيف كامل السامرائي.

كان كامل عضو لجنة بغداد الحزبية وكان صديقي ومعلمي في السياقة. وكانت والدته وأخواته نساءاً جيدات ومشجعات له على النضال. وقد حضر إلى بيتي قبل مداهمته بساعة واحدة وأخذ سيارتي العتيقة الصغيرة لإجراء بعض التصليحات لدى بعض الميكانيكين، على أن يعيدها إلي في الظهر أو بعيدها. ويبدو أنه أعاد السيارة ووقع في الكمين المنصوب له داخل الدار. وقبض عليه مع السيارة، التي كنت قد اشتريتها منذ أربعة أشهر لقاء مئة وعشرين ديناراً.

سألت صديقي الشرطي كاسب:

ـ ماذا لديك من المعلومات عن زملائي الموقوفين الثلاثة؟ هل يعذبون؟ هل اعترف أي منهم؟

ـ أنا لم أر مباشرة أياً منهم ولا أستطيع ذلك. ولكني سمعت أنهم يضربون ويعذبون ولم أسمع باعتراف أي منهم. كلهم صامدون. لو كانوا معترفين لسمع الجميع هنا كما هي العادة الجارية.

في اليوم الثالث من اعتقالي أبلغت المفوض الحارس كاظم بأني أريد مقابلة المدير العام. فأجاب أنه ذاهب فوراً لإبلاغه. وخلال أقل من دقيقتين عاد مسرعاً وفتح باب الزنزانة وفك القيود من يدي وقال:

ـ تفضل يا أستاذ! سعادة المدير العام في انتظارك.

خرجت من الزنزانة فوجدت عدداً كبيراً من رجال الأمن العام مصطفين على جانبي الممر المؤدي من الزنزانة إلى مكتب بهجت العطية. وكلهم يتفرجون علي بفضول عجيب. وسمعت همسات بعضهم. كانوا يتوقعون من طلبي لقاء رئيسهم الاستسلام والاعتراف. وقال أحدهم «خلينا ندوخه هنا مثل ما كان مدوخناها السنوات». واستقبلني العطية في مكتبه بالترحيب وجلست لأبدأ حديثاً لم يكن ينتظره:

ـ جئت لأحتج على معاملتكم اللا قانونية ـ اللا إنسانية معنا واستنكر هذا التعذيب الوحشي.

ـ هل تعرض أحد لك بالضرب؟

ـ كلا لم يضربوني شخصياً ولكني مقيد اليدين منذ دخولي الزنزانة ومربوط إلى وتد حديدي مثبت في منتصفها كما يربط الحيوان وتركتموني على أرض رطبة وباردة دون إعطائي أي مفرش أو غطاء ومنعتم عني الصحف والراديو والمواجهة وكل اتصال بالعالم خارج زنزانتي، وأتلقى الشتم والتهديد من بعض رجالكم.. فهل هذه معاملة إنسانية؟ وهل تسمح قوانينكم بذلك؟

ـ وكيف كنتم تعاملوننا لو أصبحتم حكاماً وقبضتم علينا؟ هل كنتم ترحموننا_

ـ كنا نعتقلكم ونقدمكم إلى محاكم الشعب لتقرر هي مصيركم ـ قلت له ذلك ولم يخطر ببالي آنئذ أن هذا الرجل نفسه سيعتقل فعلاً ويقدم إلى محكمة الشعب (المحكمة التي ترأسها المهداوي) بعد حديثنا بخمس سنوات، وينتهي الأمر بتنفيذ حكم الإعدام فيه.

ـ ونحن اعتقلناكم وسنقدمكم إلى المحكمة لتصدر هي الحكم العادل.

ـ لم أجيء لأطلب عدم تقديمي إلى المحكمة، إنما لأطلب معاملتنا بصورة إنسانية وقانونية من قبل دائرتكم، بدل المعاملة الوحشية والفاشية كما يجري الآن. فأنا لم أرتكب جريمة ولا عداء لي مع أحد من الناس شخصياً. أنا معتقل سياسي لأني ناضلت ضد الاستعمار وأعوانه المحليين.

ـ ألا تعلم أنك رفعت شعار إسقاط النظام الملكي وإقامة النظام الجمهوري. وهذه جريمة عقوبتها الإعدام بموجب القوانين العراقية؟

ـ هذه مسألة متروكة للمحكمة يا سعادة المدير، ولا شأن لدائرتكم بها. أنا أطالبكم باسم الإنسانية والقانون بمعاملتنا كموقوفين سياسيين.

ـ حسناً يا سيد بهاء. عد إلى غرفتك وسنعاملكم معاملة قانونية ـ

قال ذلك ليدفعني وينهي أحاديثي المزعجة، بعد أن تأكد بأني لم أزره لكي أركع وأعترف.

رجعت إلى زنزانتي ولم يتغير شيء من التعامل سوى تزويدي ببطانية واحدة رثة. وقد أخبرني صديقي كاسب أن التعذيب مستمر بحق اثنين من زملائي. واستنتجت بأنهما كامل وباقر إذ كان «المعميل القديم» الفلاحي معروفاً لديهم وميؤوساً منه لأنه سبق أن اعتقل وعذب وصمد أكثر من مرة.

في اليوم السابع أو الثامن من اعتقالي أتاني كاسب بالقلم والورق سراً وكتبت رسالة إلى ل.م أو إلى كريم أحمد وأعطيتها مع عنوان أحد الرّفاق إلى الشرطي بأمل إيصالها. أشرت في الرسالة إلى أني اعترفت بانتمائي وانتماء كل من الفلاحي وباقر إلى ح ش ع كأعضاء فقط. وذكرت أن كامل غير حزبي ولا أعرف كيف جرى اعتقاله. كما أشرت إلى أني قد أضرب عن الطعام احتجاجاً على المعاملة السيئة إذا لم يتم نقلي إلى خارج الأمن العام. وعلمت فيما بعد أن كاسب كان قد أوصل الرسالة بأمانة واطلع عليها كريم أحمد.

في نفس اليوم هددت الأمن العام بأني أضرب عن الطعام فوراً إذا لم يحسنوا التعامل معي وإذا لم يحققوا معي كَي أنقل بعدئذ إلى معتقل اعتيادي. فسارع أحد مسؤولي الدائرة ليخبرني بأن التحقيق سيجري غداً ولا داعي لأي إضراب. وفي اليوم التالي بدأ التحقيق فعلاً. كان المحقق ضابط البوليس عبد اللطيف الوتار الذي اعتبر ثالث رجل في الأمن العام. واتفقنا على أن أكتب إفادتي بخطي وأن يسأل هو وأجيب على أسئلته. جلست في مكتبه. كان شخصاً هادئاً ولم يتوتر طيلة يومين من التحقيق إلاَّ مرة واحدة وبسبب إصراري على رفض الاعتراف بأني سكرتير الحزب الملقبّ باسم. قال:

- إن لدينا ألف دليل على أنك باسم. فلماذا الإنكار؟ عليك أن تعترف بأنك سكرتير الحزب.

ـ أنا شيوعي وعضو في الحزب ولست سكرتيراً له.

ـ إذن يجب ألا تقول أنك شيوعي.

ـ أقول وأصر على أنني شيوعي.

ـ سأقطع لسانك على هذا الإصرار.

ـ لك أن تقطع لساني ولكنك لن تستطيع إذلالي وحملي على الاعتراف.

نظر إلي الضابط المحقق قليلاً وبتأثر. لم أعرف ما إذا كان يضمر الحقد أم الإشفاق. ثم قال:

ـ أرجو المعذرة. لنستمر واكتب أجوبتك كما تشاء.

من الأسئلة التي أثارت استغرابي سؤال عما إذا كان محمد مهدي الجواهري عضواً في ح ش ع. فأجبته: ليته كان شيوعياً! إني لم أسمع يوماً بأن يكون شيوعياً. وجواباً على أسئلته عمن رشحني لعضوية الحزب ومن عملت معهم ومن أعرفهم من الشيوعيين.. كنت أكتب كليشة ثابتة: «لا أجيب على هذا السؤال» أو «لا أكشف سراً أؤتمنت عليه». وقد استمر التحقيق، وتتخلله المناقشات الشفوية، خلال يومي ٢٢ و ٢٣/ ٤. ونقلت بعده مباشرة إلى السجن رقم (١) في معسكر الرشيد. واتضح لي هناك أننا المعتقلين الأربعة محجوزون في غرف انفرادية متلاصقة ونعيش تحت حراسة عسكرية مشددة وبمعنى معين تحت رحمة آمر المعتقل الملازم الشرس عبد المهيمن.

كان في المعتقل عدد كبير من الموقوفين الشيوعين، بينهم من اعتقل لأسباب تعود إلى قضيتنا ـ أما لأنهم شاركوا في وفود إلى السلطات للمطالبة بإطلاق سراحنا أو لأن السلطات عثرت في بيتي على أوراق ساعدت على التعرف عليهم أو ما شاكل ذلك. وقد جرى التشديد خصوصاً لمنعنا من الاتصال مع بعضنا أو مع أي كان من سائر الموقوفين. وعندما كان يؤخذ أحدنا إلى المرحاض، البعيد عن زنزانتنا

قرابة ٧٠ متراً، كان السجناء الآخرون يحجزون في الغرف والطريق يخلى تماماً خشية أن يرانا أو يتحدث إلينا أحدهم. وكان آمر المعتقل يهابنا ويتجنب التحرش بنا، رغم شراسته وقسوته مع سائر الموقوفين.

كان الإنسان الوحيد، الذي يمكن لي التحدث إليه هو الجندي الحارس - المرابط دوماً في الممر أمام غرفتنا. وكان الحارس يتغير مرة كل ساعتين. فيتيح ذلك فرصة التحدث إلى إنسان آخر. ولم يكن من الصعب التفاهم مع بعض الحراس بوجه خاص. وقد تكررت اللقاءات وتبادل الحديث، عبر ثقب الباب الحديدي لزنزانتي، مع آمر فصيل الحراسة الجندي الأول (أكبر)، التركماني الشيعي من أهالي الدوز. كان هذا الجندي يعتبر نفسه شيوعياً. وكان يأتي إلي كلما وجد الحارس أميناً وموثوقاً. وفاتحني ذات يوم بتدبير هروبي وقال إنه سيهرب هو الآخر معي. وكان جدياً فيما ذكر. ولكنه كان إنساناً بسيطاً قليل التجربة. لم أرفض الهروب، ولكني استوضحت وطرحت أسئلة عديدة. وأظن أنه كانت فرصة حقيقية للهروب وكان هناك جنود آخرون مستعدون للتعاون معنا. بيد أن المحاولة انتهت إلى الإخفاق أثر نقل أكبر، ربما بسبب ثرثرته والشك فيه قبل وضع الخطة موضع التنفيذ.

تصادقت مع البعض من الجنود، الذين كنت أجد فرصة التحدث إليهم أثناء ساعات حراستهم. سألني أحدهم ذات يوم، وكان قروياً وأمياً:

- لماذا اعتقلت؟

- بتهمة الشيوعية.

- عجيب أمر هذه الحكومة. ولماذا تعتقل الناس بهذه التهمة؟ أليس نصف أمة محمد شيوعيين؟

كان لدي ١٦ ديناراً منذ أن اعتقلت ولم أصرف منها شيئاً في الأمن العام. وفي السجن رقم واحد كلفت أحد الحراس بشراء ٢ كغم

من التمر. كنت أعرف أن الفلاحي لا يملك في جيبه ولا فلساً. فأخفيت دينارين في كمية من التمر وقدمتها إلى الجندي الحارس راجياً إيصالها إلى الفلاحي. وبعد بضع دقائق جاءني آمر المعتقل وفي يده التمر، وألقى بالدينارين وبالتمر عليّ ودفعني نحو حائط الزنزانة مهدداً:

ـ كيف ترسل النقود إلى موقوف آخر؟

ـ أنا لم أرتكب جرماً ولم أرسل شيئاً ممنوعاً. من حقي أن أرسل الأكل والفلوس لرفيقي أو لأي إنسان. تركني الضابط وشاع الحدث بين الجنود فتهجموا جميعاً بكلمات نابية على الحارس، الذي اعتبروه «خائناً» وسبوه. وقد أتى إلي أكثر من مرة ليقدم الاعتذار ولم أجبه.

بعد حوالي ثلاثة أشهر من اعتقالي تسنى لوالدي، بمساعدة بعض المتنفذين من آل بابان في بغداد، استحصال الموافقة على زيارة لي في المعتقل. كان أول لقاء طيلة أكثر من ثلاث سنوات. وكان بصحبته المحامي الوطني محمد بابان ورجل دين آخر يدعى ملا محمد الأعرج. جرى اللقاء في مكتب آمر المعتقل عبد المهيمن وتحت إشرافه المباشر ولمدة عشر دقائق فقط. قال والدي:

ـ اعتقلوك في ١٣ نيسان وأنا قدمت إلى بغداد في ١٤ نيسان ولم أبرحها للآن. كنت أذهب إلى هذا وذاك وراء شيء من أخبارك أو سعي للتخفيف عنك.

ـ لم يكن من الضروري أن تتعب نفسك لهذه الدرجة يا والدي. إنك لا تستطيع عمل شيء لي ولا تملك ما تنفقه على إقامتك في بغداد كل هذه المدة.

ـ أعرف ذلك ولكني أب لك وأنت ابني يا ولدي! لم أقدر الابتعاد عنك.

كان اللقاء في شهر رمضان. وسألني الملا الأعرج:

ـ هل أنت صائم يا بهاء؟

ـ كلا لست صائماً يا أستاذ. حياة السجن لا تسمح بالصوم هنا.

ـ إنك تكذب.. فالذي يريد أن يصوم لله يستطيع ذلك في كل الظروف.

قبل أن أدافع عن موقفي تولى والدي الرد على زميله فقال:

ـ يبدو أنك نسيت ما درسته من أحكام الشريعة يا ملا محمد! فالشريعة الإسلامية لا تلزم أمثاله بالصوم طالما يعيشون في وضع كالذي يوجد هنا.

سكت الأعرج وقال عبد المهيمن:

ـ انتهى وقت المواجهة وليذهب كل إلى مكانه.

في اليوم التالي كنت متمدداً على بطانيتي حين دعاني الجندي الحارس قائلاً:

ـ لدي سؤال شرعي وأريد منك الجواب.

ـ ومن الذي أخبرك بأني قادر على الإجابة؟

ـ رأيت والدك بالأمس، عندما جاء لمواجهتك. كان رجلاً معمماً. وهذا يعني أن بإمكانك أن تجيب.

ـ ما هو سؤالك يا خضر؟

ـ إذا كان الصائم نائماً في النهار واحتلم في نومه فهل يبطل صومه؟

تهربت من الإجابة لأني لم أعرف ما تنص عليه أحكام الشريعة الإسلامية. وتحت إلحاحه قلت أخيراً أن الصوم يبطل في رأي البعض وبعكسه في رأي البعض الآخر.

ذات يوم فتح باب الزنزانة ودعاني عبد المهيمن لمرافقته إلى مكتبه. وجدت هناك شاباً طويلاً هادئاً وعرفته، رغم أن شاربيه كادا يوهمانني ـ كان مجيد عبد الرزاق، الذي لم أره منذ شتاء ١٩٥٠. سألني آمر المعتقل:

- هل تعرف هذا الشاب الجالس هنا؟

- كلا لست أعرفه.

- وهو يعرفك جيداً وتعرفه أنت أيضاً.

- قلت أني لا أعرفه ولم أره من قبل.

لم يسأل مجيد عما إذا كان يعرفني. ولم يتكلم الأخير من تلقاء نفسه بشيء. قدرت من ذلك أنه أنكر معرفته بي، رغم أنه شارك في وفد من السليمانية كان قد حمل عريضة إلى البلاط الملكي مطالبة بإطلاق سراحي.

بعد ذلك بيومين تكرر استدعائي إلى غرفة المدير. كان هناك شاب قصير القامة. رأيته لأول مرة، وهو ركز بدوره النظر علي لسبب لم أعرفه أول الأمر. سألني المحقق، الذي كان قد رافقه إلى هناك:

- هل تعرف هذا الشخص؟

- كلا لا أعرفه ولم أره يوماً في حياتي.

- إنه يعرفك وتعرفه.. إنه حسن شيخ سعيد، الذي كان مراسلاً حزبياً بينك وبين مجيد عبد الرزاق. أليس كذلك يا حسن؟

- نعم أعرفه ويعرفني. وكنت مراسلاً بينه وبين مجيد عبد الرزاق.

انتهى التحقيق الجديد الزائف ورجعت إلى زنزانتي وأنا أفكر فيما حدث. ما هذا الذي يغيرك؟ ما الغرض من الإتيان بشاب لا أعرفه فعلاً ولا يعرفني شخصياً، بينما يدعى العكس؟ واستنتجت أخيراً أنهم بحاجة إلى شهود ضدي. ولمّا لم يجدوا، لحسن حظي، شيوعياً منهاراً بين المعتقلين مستعداً للشهادة ضدي أتوا بهذا الشخص (وعلمت فيما بعد أنه كان شيوعياً سابقاً) ليتخذوا منه شاهداً ويثبتوا به أني سكرتير الحزب باسم.

واجهت في معتقل معسكر الرشيد مشكلة الملابس. فقد تمزقت

بجامتي القديمة التي كنت لابسها يوم كبسوا داري في الأعظمية ولم يسمحوا لي بارتداء ملابس أخرى بدلها. ورقعتها أكثر من مرة وتمزقت من جديد. وبقيت ألبسها على هذه الشاكلة حتى خلال الجلسات الأولى من أيام المحاكمة. وأخيراً أرسل الرفاق الموقوفون سروالاً وقميصاً فرميت البجامة الممزقة ولبست الملابس المرسلة إليّ سراً مع أحد الحراس.

لم يخبروني مسبقاً بموعد المحاكمة ولا أتذكر أي يوم بدأت من حزيران ١٩٥٣ كل ما أتذكره هو أن الأحكام العرفية كانت قائمة وأنهم فاجأوني بأخذي إلى المحاكمة. أخرجوني من زنزانتي وبعد قليل وجدت نفسي في زنزانة أخرى صغيرة داخل سيارة السجن المتجهة إلى مكان ما داخل المعسكر. وبعد قليل وجدت الحراس ينزلون من السيارة ويسوقونني إلى قاعة المحكمة.

كانت المرة الأولى في حياتي أدخل قاعة المحكمة. كانت محكمة عسكرية. رئيسها العميد جميل عبد المجيد. وجلس إلى جانبيه ضابط وقاضي مدني. وكانت أحكامها غير قابلة للتمييز. كان كاتب المحكمة في لباس مدني. وكان الحراس جميعاً عسكريين. ولم أشعر بشيء من الخوف أو التحرج حين دخلت القاعة. كنت مستعداً نفسياً لأسوأ الاحتمالات، لتلقي حكم الإعدام. ولم يكن لديّ إحساس بأني أهزم مهما كان الحكم الصادر بحقي. وانتعشت أكثر حين وجدت هيئة دفاع واسعة مؤلفة من ٢٦ محامياً متخذين أماكنهم في القاعة للدفاع عنا، نحن الأربعة. كان بين المحامين نواب في البرلمان ورجال لبراليون ومسؤولون في الأحزاب البرجوازية المعارضة، أمثال عبد الرزاق الشيخلي وحسين جميل ونجيب الصائغ.. الخ، ومحامون شيوعيون ويساريون. كلهم كانوا متطوعين للدفاع عنا، نحن الموقوفين الشيوعيين. ولم يدفع فلس واحد لأي منهم. بل لم أكن على علم بتطوعهم إلا في قاعة المحكمة. فالقضية كانت قضية سياسية تهم هؤلاء جميعاً. وكان

هذه الظاهرة تتناسب مع سعة نفوذ ح ش ع وشعبيته. وكان هناك نائب المدعي العام. وجلس بالقرب منه ممثل الأمن العام عبد اللطيف الوتار، الذي كان قد حقق معي شخصياً. وكان صاحب الكلمة العليا في المحكمة ضابطاً شاباً مخلصاً للنظام وملكياً أكثر من الملك نفسه ومغروراً.

وقد وقفنا في قفص الاتهام نحن الشبان الأربعة والعجوز أم عثمان وحفيدتها الطفلة سعاد كريم. وبدأ الاستجواب معي أولاً:

- اسمك واسم أبيك؟

- بهاء الدين نوري.

- عمرك؟

- ٢٦ سنة.

- مهنتك؟

- مناضل ضد الاستعمار.

- أقصد شغلك.. ماذا تشتغل؟

- مناضل ضد الاستعمار.. تلك هي مهنتي.

تجهم وتوتر رئيس المحكمة ونظر في وجهي لحظات نظرة الغضب وكرر السؤال. وتلقى نفس الجواب. وجرى استجواب الآخرين وقلدوني في الإجابة باستثناء السامرائي، الذي لم يعترف بانتمائه الحزبي. وعندما جرى استجواب العجوز أم عثمان سألها الحاكم:

- هل أنت شيوعية وعضو في الحزب؟

- كلا لست عضواً في الحزب.

- لكن بهاء يقول أنك عضو في الحزب.

- كلا لم يقل بهاء شيئاً من هذا القبيل.

وهي كانت صادقة بالطبع وأيدت كلامها فوراً مكذباً الحاكم الذي افترى علي. في الواقع كنا نحن الشبان الأربعة متفقين فيما بيننا على جوهر الإفادات. ولكننا لم نتفق على شيء بالنسبة إلى العجوز التي كانت في السجن النسائي بعيداً عنا.

في اليوم التالي، حين كنت لا أزال في سيارة السجن الواقفة أمام مبنى المحكمة، شاهدت حدثاً طريفاً. كنت أنظر من ثقب صغير يكفي لأن أشهد منه ما يحدث أمامي خارج السيارة. فرأيت ضابط الأمن عبد اللطيف الوتار واقفاً تحت شجرة في الحديقة الفسيحة. ورأيته يشير بيده إلى أحدهم داعياً إياه لملاقاته. وبعد لحظات حضر لديه الشاب القصير، الذي كنت قد رأيته في غرفة مدير المعتقل وادعى أنه كان مراسلاً بيني وبين مجيد عبد الرزاق. لم أسمع ما دار من حديث بينه وبين ضابط الأمن العام ولكنني رأيت الأخير وهو يخرج محفظة نقوده من جيبه. ودفع مبلغاً من العملة الورقية ـ لم أستطع تحديده ـ إلى الشاب حسن شيخ سعيد. وأخذ منه التوقيع بالاستلام في دفتر صغير أعاده إلى جيبه فيما وضع حسن المبلغ في جيب بنطاله الأيسر وافترقا عن بعضهما. وكان يفترض أن يدلي حسن بشهادته ضدي في هذا اليوم أمام المحكمة.

بدأت الجلسة وأدخلونا إلى قفص الاتهام كالعادة واستدعي الشاهد المدعو إبراهيم رشيد ـ وهو من أهالي السليمانية ـ ليدلي بشهادته زاعماً بأنه كان مراسلاً بيني وبين شيوعيين آخرين. كان هو الآخر شاهداً أجيراً وتكلم بعيداً عن الحقيقة إذ لم يسبق لي أن أراه يوماً ما طيلة أيام حياتي. وأخيراً وقف حسن ليدلي هو الآخر بشهادته الكاذبة. تركته ليكمل حديثه ويفرغ ما في جعبته ثم فاجأت المحكمة والمحامين بما كنت قد شاهدته:

ـ لم يعرفني هذا الشخص أبداً. وهو أدلى بشهادته كعميل أجير لقاء مبلغ استلمه نقداً قبل ساعة واحدة من ممثل الأمن العام عبد اللطيف الوتار الموجود هنا أمامكم.

رويت الحادث وطلبت تفتيش الجيب الأيسر لحسن بغية كبس المبلغ الذي دفع إليه من هذا الضابط وتفتيش دفتر الملاحظات الصغير الموجود في جيب الآخر للعثور على توقيع حسن باستلام المبلغ المشار إليه. فاصفرّ وجه حسن والوتار معاً وأصيبا بالذعر الشديد. وأثار بعض المحامين الضجيج مطالبين بتفتيش الرجلين. وارتبك رئيس المحكمة نفسه لبعض الوقت ثم استعاد أنفاسه وتدارك الوضع بأن أمر الشاهد بالخروج دون أن يتيح للمحامين فرصة لمناقشته.

سألني رئيس المحكمة عما إذا كنت مؤيداً لجميع أهداف الحزب المدونة في برنامجه فأجبته: بالطبع، أؤيد جميع أهداف الحزب المثبتة في برنامجه بصفتي عضواً فيه. كان يتردد في التفوه، مجرد التفوه، بشعارنا في إسقاط الملكية وإقامة النظام الجمهوري. فصاغ سؤاله بشكل آخر حول ما إذا كنت أريد تغيير الهيئة الاجتماعية كما ورد في البرنامج. وأجبته:

ـ أعطني نسخة من برنامج ح ش ع لأشرح لكم ما فيه من الأهداف.

ـ وهل تؤيد ما ورد فيه بشأن قلب نظام صاحب الجلالة؟

قبل أن أجيب لاحظت ارتباك بعض المحامين. وأشار إليّ أحدهم بأن تأييد هذا الهدف يعطي ذريعة لإصدار عقوبة الإعدام بحقي. وكان علي اختيار أحد الجوابين ـ نعم أو لا. ولكن هل لي أن أتنصل عن هدف صغته بنفسي قبل سنة واحدة وثقفت به رفاقي في الحزب؟ كلا. فقلت:

ـ طبعاً أؤيد ذلك وأؤيد كل هدف دوّن في وثيقة البرنامج.

استمرت المحاكمة عدة أيام، كنا نقلبها في كثير من الأحيان إلى محاكمة لنظام الحكم وللاستعمار. كان صادق وباقر جريئين في المحكمة. فيما ثبت السامرائي على موقفه إنكار الانتساب إلى ح ش ع.

ولم يغب بعض المحامين، كخالد عيسى طه وتوفيق منير وغيرهما، عن أية جلسة. وكان وجود داود الصائغ ضمن هيئة الدفاع بمثابة استفزاز شخصي لي في ذلك الحين، رغم أنني لم أره بالوجه قبلئذ ولم أكلمه حتى في المحكمة. كنت أكرهه كانتهازي منشق على ح ش ع ومخرب وقف ضد فهد في حينه.

قبيل انتهاء المحاكمة عرضت علينا المحكمة استلام القلم والورق لكي نكتب بأنفسنا الدفاع، إن كنا راغبين. واستلمت فوراً وبدأت أكتب دفاعي بقسميه القانوني والسياسي. وقررت أن ألقي بنفسي أمام المحكمة القسم السياسي وأكتفي بتسليم القسم الآخر إلى المحكمة. وفي ختام المحاكمة لبس المحامي الشيوعي الجريء توفيق منير جبته التقليدية السوداء ووقف أمام المحكمة لإلقاء الدفاع باسم (هيئة الدفاع). كان خطيباً فصيحاً وشجاعاً، رغم أنه ركز كلياً على الجوانب القانونية لقضية كانت سياسية في الجوهر. لكني لم أحذ حذوه عندما ألقيت بنفسي الدفاع الذي كتبته. فقد دافعت عما آمنت به وتهجمت بصراحة وعنف على النظام العراقي العميل وعلى عميد الرجعية نوري السعيد وعلى كل الأنظمة الرجعية في العالم العربي. ولم أستثن حتى محمد نجيب وجماعته ممن كانوا يحكمون مصر بأسلوب دكتاتوري عسكري وأغرقوا إضراب عمال النسيج في مصر بالدماء.

بعد المحاكمة بيومين أعدنا من سجن المعسكر إلى قاعة المحكمة كي نسمع قرار الحكم الصادر بحقنا. كنت أتوقع صدور حكم الإعدام بالنسبة إلي وللفلاحي وباقر والسجن المؤبد بالنسبة إلى السامرائي. انتظرنا أكثر من ساعتين ولم تعقد الجلسة. وتكرر ذلك في اليوم الثاني والثالث والرابع و... الخ. نذهب ونعود ولا حكم. كان واضحاً أن هناك خلافات بين الحكام ليس فقط على صعيد المحكمة العسكرية، بل على صعيد السلطة الحاكمة كلها، حول نوع العقوبة التي ينبغي اتخاذها. لو قارنت قضيتنا بقضية فهد ورفيقيه زكي بسيم والشبيبي، حيث صدر

حكم الإعدام على الأولين في ١٩٤٧ ونفذ في ثلاثتهم حكم الإعدام في ١٩٤٩، لكان من المتوقع أن يصدر وينفذ بحقنا حكم الإعدام فوراً. ذلك لأننا كنا شيوعيين مثل هؤلاء زائداً رفع شعار إسقاط الملكية وإقامة الجمهورية، غير أن الحملة الجماهيرية، التي نظمها الحزب لإنقاذ حياتنا، داخلياً وعربياً وعالمياً، قد أعطت ثمارها وأوجدت التردد والخلاف لدى الحكام.

كان خالد عيسى طه المحامي الذي لم يغب أبداً ولا لدقيقة عن قاعة المحكمة، طيلة أيام المحاكمة وحتى في تلك الأيام التي كنا نؤخذ إلى قاعة المحكمة لسماع الحكم ثم نعاد دون سماعه. وقد سمع معنا صدور الحكم في ١٢ تموز: السجن المؤبد لي وللفلاحي ولباقر والسجن خمسة عشر عاماً لكامل السامرائي، مع مصادرة جميع الممتلكات الموجودة في البيت، باستثناء ملابسنا الشخصية، التي أمرت المحكمة بإعادتها إلينا، ولكنها لم تعد هي الأخرى إلينا رغم قلتها وبساطتها.

كنت قد طلبت من زملائي الهتاف بحياة ح ش ع في حالة صدور حكم الإعدام بحقنا، وليس صدور حكم بالسجن. غير أن باقر نسي الفرق بين الإعدام والسجن وهتف بحياة ح ش ع بصوت عال. فهجم عليه الجنود بالضرب أمام الحكام، ولم يمنعوهم.

بعد صدور الحكم علينا نقلت وحدي إلى إحدى غرف المبنى، بدلاً من نقلي مباشرة إلى سيارة السجن. ولم أدرك أول الأمر أن ذلك قد جرى ليزورني العميد جميل عبد المجيد ويسدي إلي نصائحه أو تحذيراته الأخيرة، إلى أن حضر. كنت جالساً على مسطبة ولم أقم حين وصوله. فاعتبر ذلك ضرباً من الإهانة وأمر بعنجهيته العسكرية: «قم!» ثم توجه إلي قائلاً:

ـ منحناكم فرصة الحياة لهذه المرة. ولكننا سنأتي بكم من السجن ونعدمكم فوراً إذا ما قمتم بأي نشاط حزبي هناك بين السجناء.

أجبته بهدوء وتحد غير متوقع من قبله:

ـ أنا لست في حاجة إلى نصائحكم.

ـ لست في حاجة؟

ـ كلا.

فتركني عابساً متجهماً. قدرت أنه كان ضمن الذين أصروا على إصدار حكم الإعدام بحقنا ولكن السلطات العليا لم توافقهم، فبدلت الأحكام إلى السجن المؤبد.

بعد صدور الحكم علي بيومين سمح لوالدي بزيارتي من جديد ولكن بالوقوف خارج السياج السلكي العالي للمعتقل. وقفنا متقابلين دون أن نستطيع لمس بعضنا وبكي والدي بكاءاً مريراً وعميقاً. قلت له:

ـ انتظرت منك الضحك فرحاً يا والدي لأني نجوت من الإعدام.

ـ أبكي بكاء الفرح يا ولدي! المهم أنك نجوت مما كنت أخشاه. وستخرج من السجن. أملي كبير بأن تبقى في السجن طويلاً.

وآلمني أن لم أجد والدي في البيت حين عدت إليه بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ليشاركنا الفرح بالخروج من السجن واللقاء الحار مع الأهل والأصدقاء.

لم تدم المواجهة أكثر من خمس دقائق، إذ سحبني عبد المهيمن إلى زنزانتي وغادر والدي فرحاً قائلاً أنه ذاهب الآن إلى بيته في السليمانية معتزاً مطمئناً.

بعد صدور الحكم علينا نقلنا إلى سجن الموقف في بغداد لنبقى مؤقتاً وتحت إشراف مدير السجن عبد الجبار أيوب الذي كان معروفاً كموظف شرس وكجلاد للسجناء السياسيين، خاصة من الشيوعيين. والتقينا نحن الأربعة مع بعضنا لأول مرة منذ اعتقالنا. وبعد أيام معدودة طلبنا نقلنا إلى سجن اعتيادي بين الشيوعيين، لكي نتخلص من الجلاد

أيوب. ولما رفض طلبنا أعلنا الإضراب عن الطعام. كان ذلك أول إضراب لي عن الطعام طيلة حياتي. أتانا المدير مع عدد من سجانيه واعتدوا علينا بالضرب العنيف وبالكلمات البذيئة على طريقة الشرقيين المتخلفين وحاولوا حملنا على كسر الإضراب. لكننا تحدينا وتمسكنا بمطلب النقل وأصررنا على عدم عزلنا عن سائر رفاقنا السجناء حتى أرغمنا السلطة على الرضوخ لمطالبنا وتحديد الموعد لنقلنا إلى أحد السجون.

وضعنا في سيارات بوليسية مسلحة برفقة مفرزة كبيرة من الشرطة. وكان آمر المفرزة ضابط البوليس الذي رافق مفرزة المداهمة لبيتي في نيسان ١٩٥٣ ـ ويدعى شاكر العاني. وكان شرطياً هادئاً ومتفاهماً ومرناً معنا. ولم نعرف أننا ننقل إلى سجن نقرة سلمان إلا بعد وصولنا إلى السماوة، حيث بتنا فيها ليلتنا الأولى. تابعنا السفر في اليوم التالي عبر طريق ترابي صحراوي كثير العجاج نحو سجننا النائي في عمق البادية الجنوبية.

بوصولنا إلى سجن نقرة سلمان بدأت صفحة جديدة من حياتي. فأنا الآن سجين بين السجناء السياسيين، محاط بأربعة جدران وبحراس يطوقون المبنى ليل نهار. والسجن قلعة عسكرية بدائية شيدها في حينه الضابط الإنكليزي كلوب باشا الملقب «أبوحنيك» ليس كمبنى للسجن بل كمخفر عسكري حدودي لصد هجمات عشائر البدو من الأراضي السعودية ومن البادية الجنوبية. وفي وقت لاحق حولتها سلطات النظام الملكي إلى سجن لمعارضي النظام من مختلف الاتجاهات، وبالأخص من الشيوعيين. وحتى السجناء العاديين، الذين كانوا يعتبرون خطرين، كانوا ينقلون إلى هناك. ولم يكن في السجن لا الإنارة الكهربائية ولا إسالة الماء، ولا أي شيء من مستلزمات الحياة العصرية.

عند دخولنا السجن استقبلنا رفاقنا السجناء بحماس وحرارة منقطعين وعشنا بينهم كما يعيش الإنسان بين ذويه ومحبيه الحقيقيين. وأبرز ما لاحظته أن جو الحياة اليومية بينهم كان مرحاً والعلاقات الرفاقية كانت تشدهم إلى بعضهم روحياً. وكانت حياتهم منظمة تنظيماً جيداً من حيث الغذاء وتوزيع الأعمال اليومية.

كان في باحة السجن الصغيرة بئر للماء المر غير الصالح للشرب أو لغسل الملابس. وكان السجناء يستلمون يومياً حصصهم من الماء العذب المنقول بسيارة التانكر بمعدل ٩ ـ ١٨ لتراً لكل شخص. كانوا ينقلون الماء من السيارة بصفائح إلى خزان الماء في السجن لغرض الشرب والطبخ والغسيل.. الخ. وكانوا يسمون عمر الياس (أبو باسم) وزيراً للري، باعتباره مسؤولاً عن تنظيم خفارات نقل الماء من السيارة إلى السجن. وكان استعمال المياه مقنناً للجميع، معروفاً لديهم. وكان خفر الحمام مسؤولاً عن توزيع المياه عند تسخين الحمام أسبوعياً وعند غسل الملابس.

كان وجود السجن في تلك الصحراء النائية الجافة ضماناً لعدم هروب السجناء إذ أن من يهرب إنما يخاطر بحياته اللهم إلا إذا كان من البدو المحليين. وكان هذا البعد عائقاً أمام الإكثار من مواجهات السجناء من قبل عوائلهم. فلم يكن بإمكان أي عائلة أن تزور ابنها السجين شهرياً. ولعل ذلك جعل منه السجن المفضل لدى السلطات في تلك الفترة.

دخلت السجن لأفاجأ بما لم أتوقعه ولم أفكر فيه أبداً. فقد وجدت السجناء الشيوعيين، الذين أصبحنا بينهم، متمردين على إدارة السجن وعلى السلطات بوجه عام، مشكلين لأنفسهم جمهورية شعبية في قلعة أبي حنيك، بالأحرى في النصف الشمالي منها. كانت لهم فرق مسلحة بسيوف شبيهة بسيوف حقيقية من تلك التي كانت تشكل أسلحة الجيوش المقاتلة في الماضي السحيق. صنعت هذه السيوف من البراميل

الحديدية الموجودة في السجن. وكان السجين الشيوعي هادي هاشم الأعظمي المهندس والفني الرئيسي لصناعة السيوف وتجهيز السجناء بها.

وكان هناك علم أحمر على صارية عالية (أنبوب حديدي طويل) يرفعه السجناء صباحاً وهم ينشدون نشيد الجمهورية، الذي قيل أن السجين الشيوعي حسين أحمد الرضي قد نظمه وخلفه لهم هناك. وينزلونه مساءاً بنفس النشيد. وهو يبدأ بمقطع:

يا جموع الشعب! يا جيش الجياع! قد سئمنا العيش في ظل الطغاة
هـذه آخـر أيـام الـصـراع فأذلوا الموت كي تزهو الحياة
إلى الكفاح، إلى الأمام، إلى السلاح، للانتقام

وكانت هناك خطة مزعومة للهجوم على العدو وللتراجع في حالة نشوب المعركة مع العدو. وكان هناك توزيع للمهمات العسكرية. وكانت المهمة الموكولة إلى كل من زكي خيري وعزيز الحاج ـ وقد التقيت بهما لأول مرة في ذلك السجن ـ هي الحراسة الفوقية، أي مراقبة تحركات العدو عبر مزاغل القلعة الشمالية. ولم يعتبرا مؤهلين لحمل السيوف، فسلمت إلى كل منهما عصى قصيرة.

كانت هذه الجمهورية الشعبية، بكل ما لها من جيوش ودوائر وجماهير، قائمة داخل غرفة لم تزد مساحتها عن عشرات الأمتار المربعة. وكان حميد عثمان المسؤول الحزبي الأول ورئيس الجمهورية الشعبية ومؤسسها ومنظرها، معتبراً إياها نواة الجمهورية الشعبية اللاحقة في العراق كله.

وكان حراس السجن موجودين بأسلحتهم النارية حوله وفوق سطحه، دون أن يحاولوا اقتحامه أو التحرش بالنظام الجمهوري الشعبي القائم فيه. وكانت إدارة السجن تستقبل كل يوم ممثل الشيوعيين الضابط الشيوعي السجين مهدي حميد لتسليمه حصصهم من الأرزاق، كما كانت سيارة التانكر تستمر في تزويدهم بالمياه يومياً. بكلمة، كان قطع الماء

عنهم ليومين أو قطع الأرزاق لأسبوع واحد، دون اللجوء إلى أي عنف، كان كافياً لإسقاط وخنق هذه الجمهورية الشعبية. لكن إدارة السجن، وبالأحرى إدارة شرطة البادية، لم تلجأ إلى فرض الحصار الاقتصادي على جمهورية السجناء.

كان في القاعة الجنوبية من القلعة عدد آخر من السجناء الشيوعيين المحسوبين على تنظيم راية الشغيلة المنشق بينهم عزيز محمد ونافع يونس ويوسف حنا، الذين رأيتهم هناك لأول مرة. كما كان هناك عدد من السجناء العاديين ذوي الأحكام الثقيلة المنقولين إلى هذا السجن بسبب مشاركتهم في إثارة القلاقل السجنية وخلق المتاعب لإدارات السجون الأخرى. وكانت غالبيتهم مؤيدين للثورة للجمهورية القائمة.

أنا كنت بنفسي يساري المزاج قبل أن أسجن وبعده. غير أني لم أستطع هضم ما وجدته في السجن من تطرف صبياني مضحك. وقد أصبحت المسؤول الأول لمنظمة السجن الحزبية بعد وصولي إلى هناك، حيث تنازل حميد عثمان عن المسؤولية دونما حماس للتنازل. وشعرت بأن علي أن أدشن عهد مسؤوليتي في السجن بشيء يعالج هذا التطرف الصبياني. فجمعت اللجنة الحزبية ـ السجنية المسؤولة، بضمنها هادي هاشم وزكي خيري وحميد عثمان وعمر الشيخ وغيرهم، وعرضت عليهم ما ملخصه:

ـ أقامت السلطة الحاكمة مجزرتين رهيبتين في سجن بغداد والكوت واستشهد عدد كبير من رفاقنا أو جرحوا. والأحكام العرفية لا تزال قائمة في البلاد. وإذا لم نتصرف بصورة منطقية مرنة في سجننا هذا فإن المجزرة الثالثة ستقع بيننا بالتأكيد. نحن لا نملك بين هذه الجدران الأربعة مقومات التمرد على السلطة ولا أرى ما يبرر إعلان العصيان والجمهورية.. إن مجرد قطع الماء أو الأرزاق عنا يكفي لتدميرنا. لا مناص من إبداء المرونة الضرورية والاستعداد للتفاهم مع إدارة السجن

لكي نتجنب المجزرة. وليس من المعيب أن يتراجع الثوريون حين تتطلب الظروف مثل هذا التراجع.

لم يطل النقاش، أو لم يناقشوا ما طرحته. فالجميع كانوا مقتنعين بما عرضته باستثناء مسؤولهم السابق حميد عثمان الذي التزم الصمت الغاضب أسفاً على جمهوريته الشعبية. وأظن أن الكثيرين من أعضاء اللجنة لم يكونوا مع فكرة العصيان والجمهورية منذ البداية ولكنهم لم يملكوا ما يكفي من الجرأة لإبداء المعارضة المكشوفة خوفاً من اتهامهم بالجبن والتخاذل. وإذا لم تقم المجزرة في سجن نقرة سلمان قبل وصولنا إليه فإن الكثير من الفضل يعود ـ حسب تصوري ـ إلى مدير شرطة البادية جواد حسن، الذي كان المرجع الرسمي الأعلى. وكان مقره قريباً من السجن. فهو كان رجلاً مسناً وشرطياً مجرباً وهادئاً في طبعه. وكان يريد فعلاً تلافي المشاكل وتجنب إراقة الدماء البريئة.

بعد استحصال موافقة الهيئة الحزبية جلست مع ممثلنا لدى إدارة السجن مهدي حميد، الذي كان متطرف المزاج وحاولت إقناعه بضرورة المرونة وبإفهام إدارة السجن بأننا لا نريد العصيان بل نريد التفاهم وحل المشاكل ونريد أن نسمع ما تريده الإدارة وتسمع بدورها ما يريده السجناء السياسيون.

في الوقت نفسه قمت بإلغاء الجمهورية الشعبية ونزع أسلحتها، إذ ترك العلم الأحمر جانباً وكف السجناء عن قراءة النشيد الجمهوري ووضعت السيوف في المشاجب الخلفية.. الخ.

وبمجرد المصادفة اقترن خروج مهدي لاستلام الأرزاق ولتنفيذ المهمة التي كلفته بها بمجيء ضابط مقدم دعي جلال أسعد، الذي كان أحد مساعدي الحاكم العسكري عبد المطلب الأمين. وأخذ مهدي إلى مكتب مدير شرطة البادية، حيث كان الضابط الموفد لأمر يتعلق بقضية السجناء بالذات. واستهدفت السلطة المحلية من هذا اللقاء بين مهدي وجلال إحلال التفاهم، على أثر اختفاء العلم والسيوف لدى السجناء.

غير أن التقاء الضابطين الحكومي والشيوعي لم يؤد إلى التفاهم إنما انتهى بعراك عنيف استخدم فيه الجانبان الأيدي والأرجل في الضرب ولتأديب بعضهما. روى لي مهدي بعد عودته ما حدث. وجدت نفسي في موقف حرج وانتقدت مهدي كثيراً على ما فعل وطلبت منه العودة إلى إدارة السجن ومحاولة التفاهم. وأكدت له أنهم كانوا يحتجزونه ويشبعونه ضرباً ويقيدونه لولا مدير شرطة البادية الذي كان حريصاً على تلافي المشاكل.

كان المطلب الرئيسي لإدارة السجن أو السلطة هو أن ينقلوا من السجناء السياسيين والعاديين من يريدون نقله ويبقوا فقط من يريدون إبقاءه. وكان حميد عثمان متعنتاً برفض أي نقل ما لم يلغ سجن نقرة سلمان كلياً. والحل الذي قدمته أنا، عن طريق مهدي، هو أننا لا نرفض النقل ولكننا نرجو أن يكون لنا رأي مسموع في تحديد وجبات السجناء لغرض النقل رغبة منا في نقل ذوي الأحكام الثقيلة أولاً. وقد وافقت الإدارة على طلبنا وقامت بخدعة إذ زورت كتاباً رسمياً مطبوعاً بالآلة الكاتبة أكد أن السجن يلغي وينقل جميع السجناء السياسيين والعاديين معاً وأن السجناء يعطون الحرية في إرسال من يشاؤون في الوجبة الأولى إلى سجون أخرى. انطلت هذه الخدعة علينا، وأظن أنها كانت من تدبير جواد حسن. وهيأنا قائمة بأسماء من نريد نقلهم كوجبة أولى، تضمنت ذوي الأحكام الثقيلة من رفاقنا ومن جماعة راية الشغيلة وكذلك من السجناء العاديين. وكنا نحن الأربعة الجدد ضمن هذه القائمة لأن أحكامنا كانت ثقيلة. وجيىء بشاحنتين لنضع فيهما حاجاتنا ونجلس فوقها، ترافقنا سيارات مسلحة تابعة لشرطة البادية. وعندما غادرت الشاحنتان السجن، وسط توديع رفاقنا الحار الذين كانوا ينتظرون لقاءنا في سجن جديد بعد يوم أو يومين، ووصلتا إلى سراي البادية جاءنا مفوض الشرطة وطلب بأسلوب هادىء مؤدب نزول من في السيارتين من السجناء العاديين ـ وكلهم ذوو أحكام ثقيلة ـ لوضع القيود

في أيديهم وأرجلهم خشية هروبهم في الطريق. انبرى حميد عثمان، ولعله أراد أن يظهر بأنه أكثر الجميع ثورية، وكان على نفس الشاحنة التي كنت فوقها. فقال:

ـ لن ينزل أحد ولن نقبل وضع القيود في يدي أو رجلي أي سجين هنا.

ـ نحن لا نضع القيود في أيديكم وأرجلكم، أنتم السياسيين، إنما في أيدي هؤلاء من السجناء العاديين.

ـ كلا، لن نسمح أبداً ـ أكد حميد دون أن يأخذ رأيي ـ أنا المسئول الأول. وقد التزمت من جانبي الصمت ولم أتدخل فيما جرى أمامي ـ وهذا ما استحق عليه اللوم والتعنيف.

كرر المفوض طلبه بأسلوبه الودي للسماح بوضع القيود في أرجل العاديين وهدد بأنهم سيفعلون ذلك عن طريق القوة إذا أصررنا على الرفض. فأجاب حميد:

ـ نحن لا نخشى عنفكم ولا تهديداتكم. وراءنا الشعب العراقي ووراءنا المعسكر الاشتراكي كله.

أصدر المفوض أمره إلى رجال الشرطة المصطفين حولنا أو فوق سطح السراي بجانبنا.

ـ هيا اضربوا!

لم يحاول أحد من الشرطة صعود الشاحنة، حيث كنا جالسين. إنما استخدموا كسور الحجارة ـ وهي كانت متوفرة بكثرة وحادة كالسكاكين ـ وغدونا نحن السجناء العزل في كلتا الشاحنتين، هدفاً لقصف عنيف بالحجارة، فيما أطلق الرجال الواقفون فوق السطح رصاص بنادقهم فوق رؤوسنا في الهواء. وأصبحنا نحن في موقف حرج، دون أن يتظاهر الشعب أو يهب المعسكر الاشتراكي لنجدتنا. وقلّ بيننا من لم يصب في رأسه أو وجهه بجروح. وكان البعض يتلقف

الأحجار بيديه ليرميها بدوره على الشرطة. ورمى آرا خجدور (بستوكه) (جرة) موجودة بجانبه على الشرطة. وأتذكر جيداً منظر عمر الشيخ حيث كان الدم ينزم بغزارة على وجهه وهو ينشد نشيدنا السجني: (حرروا العراق واسحقوا الطغاة وانشروا الوفاق تبلغوا النجاة). كانت المعركة غير متكافئة وأصبحنا ضحية التطرف الصبياني لحميد عثمان.

جاءت المبادرة من زكي خيري إذ ناداني، وكان على نفس الشاحنة:

ـ كفى يا أبو سلام! فلننزل.

وافقت فوراً ونزلنا. وعلى الأرض انهالت علينا الضربات بالعصي. وتلقى حميد حصة خصوصية، عنيفة ووحشية، من الضرب فتورم وجهه ونزف. كانوا يضربونه بحقد خاص. استسلمنا دون قيد أو شرط وأصبح في إمكان الشرطة أن يتصرفوا إزاءنا بما يحلو لهم. ووضعت القيود في أرجل الجميع عاديين وسياسيين ثم فرق بيننا وأخذنا نحن الأربعة إلى غرفة خلفية معزولة في سراي البادية. ولم أعرف منذ تلك اللحظة ما جرى للرفاق الآخرين.

بعد يومين أعدنا نحن الأربعة إلى قلعة أبي حنيك. علمنا هناك أن جميع السجناء، السياسيين والعاديين معاً، قد نقلوا إلى سجون أخرى، باستثنائنا نحن والسجناء اليهود من الشيوعيين والعاديين ومن الصهاينة. إذن كان الهدف من عملية النقل عزلنا نحن الأربعة وعزل السجناء اليهود في هذا السجن الصحراوي النائي. ولم يطل بقاءنا في قلعة كلوب باشا إذ كان مبنى السجن الجديد الملاصق للقلعة، قد أكمل وهيىء لاستقبالنا نحن المقرر بقاءنا.

مبنى السجن الجديد تكون من عشر قاعات كونكريتية فسيحة مبنية في مجموعتين متقابلتين تفصل بينهما مسافة سبعين متراً. ويحيط بالقاعات سور طويل يمتد لأكثر من ٥٠٠ متر. ويبلغ طول كل قاعة ٣٥

متراً وعرضها خمسة أمتار. وفي السجن الجديد أيضاً لم تفكر السلطة لا بتوفير إسالة الماء ولا الكهرباء، بل ظللنا ننتظر سيارة التانكر المحملة بالمياه. الشيء الوحيد النظيف والجيد صحياً كان الهواء النقي الجاف والمنعش في ساعات الليل، وبالأخص بعد منتصفه.

بقيت مسؤول المنظمة الشيوعية المكونة من ٢٧ رفيقاً، بضمنهم ٢٣ شيوعياً يهودياً، في السجن الجديد. وكان عدد السجناء الصهاينة أربعة أضعاف عددنا. ولم تكن حياتهم منظمة ومشتركة كما كنا نحن. وكان بينهم اثنان من مسؤولي الحركة الصهيونية في العراق، هما رودني ـ اليهودي القادم من بريطانيا ـ الرجل الطويل الضخم الأشقر، الذي كان أوروبي الشكل تماماً، وصالحون الذي كان قد أوفد من فلسطين إلى بغداد ككادر صهيوني.

وكان بين السجناء اليهود العاديين عزره، اليهودي المعدم المسجون بتهمة السرقة. كان مسناً ومن زبائن السجن الدائميين. فهو خلق ـ على حد تعبيره ـ لكي يسرق ولكي يسجن وليس لشيء آخر. كان يسرق أساساً من اليهود وليس من المسلمين. وقد روي مراراً بعض القصص من سرقاته. ففي إحدى المرات أراد أن يسرق دجاجة دون أن يطاردها ويتركها لتنقنق. فأتى بمصران وأمسك بأحد طرفيه ورمى الطرف الآخر لتبلعه الدجاجة. وبعد أن بلعت شبراً منه أخذ الرجل ينفخ فيه حتى انتفخ في حلق الدجاجة وأصبحت هذه عاجزة عن النقنقة أو الحركة فغدت صيداً سهلاً.

كان من مهمات عزره نزح المراحيض، تنفيذاً لأوامر إدارة السجن. وكان يلقب المرحاض بالباشا نوري السعيد، فيخاطبه عند النزح قائلاً: افتح حلقك يا نوري باشا.

كان هناك سجين يهودي آخر مجنون أو مفتعل الجنون دعوه إسحق. كان مناضلاً شيوعياً في وقت مضى وسجن بسبب نشاطه السياسي. وتدهور في السجن. كان يعيش وحده وبطريقته الخاصة. فهو

قذر أشد ما تكون القذارة، مرتد ملابس رثة ممزقة ويسخم لباسه ووجهه ويديه بسخام القدر عن عمد ويجلس على بعض الخرق القذرة لساعات طويلة وكأنه إنسان ما قبل آلاف السنين. قال البعض عنه أنه يفتعل لنفسه هذا الوضع بأمل أن يعتبروه مجنوناً ويطلقوا سراحه.

على أن سلومو كرادي كان السجين الأغرب في السجن كله. إنه كان عالماً خاصاً قائماً بذاته، كان مجنوناً حقيقياً من نوع خاص ونادر جداً. كان من عادته أن يلبس ملابس رثة ممزقة ومتسخة ويعيش منفرداً في ركن إحدى القاعات. ويتمشى وحده أحياناً ومع غيره أحيانا أخرى. وإذا اشتهى سيجارة - وهو مدخن مفلس لا يملك شروى نقير ولا يستطيع أبداً شراء سيجارة من جيبه - ذهب إلى أحد السجناء المدخنين، بصرف النظر عما إذا كان شيوعياً أم صهيونياً أم غير ذلك، وطلب منه السيجارة. وإذا رفض طلبه مد أصابعه لأنفه وصفر كصافرة القطار تماماً. كان قادراً على تمديد الصافرة والاستمرار عليها مدة طويلة، حتى يزعج الرجل ويرغمه على تلبية طلبه بتقديم السيجارة المطلوبة. وإذا سألته لماذا حكم عليه بالسجن المؤبد - أي عشرين عاماً - أجابك فوراً:

- الحاكم ما كان عنده خردة.

- حسناً ولماذا سجنوك يا شلومو؟

- كنت لابساً شفقة وأتمشى على الجسر.

كان شلومو يؤخذ مرة كل سنة إلى مستشفى المجانين - الشماعية - ليبقى فيه بين الشهرين والثلاثة وليعاد بعدئذ إلى السجن تحت ضغطه وإلحاحه الشديد.

كان عدد السجناء الصهاينة أكبر بكثير من عددنا. ولم تكن هناك علاقة ما بيننا وبينهم. بالأحرى كانت هناك علاقة العداء وحسب. وذات يوم كدنا ندخل في عراك بالأيدي معهم بسبب محاولة كل طرف

الحصول على أسبقية الغسيل في الحمامات.

بقيت حياتنا منظمة كالسابق ـ هذا خباز وذاك طباخ وذلك يغسل الأواني أو يهيىء الشاي أو مكلف بغسل الثياب... مطبخنا واحد وما تأتي به أية عائلة يوضع تحت تصرف المسؤول الإداري ويأكله الجميع. في بعض الأمسيات تكون هناك محاضرات حول قضايا نظرية أو سياسية وفي الصباح نقوم برياضة جماعية أو فردية وفي أوقات الفراغ نطالع كتاباً أو نناقش أو نلعب الشطرنج.

كان رفاقنا اليهود أناساً طيبين لا أجد للآن ما يمكن أن أميزهم به عن الشيوعيين المسلمين أو المسيحيين. وقد انضمت إلينا في السجن عائلة مكونة من اليهودي المسن بنيامين وولديه الشابين حسقيل وإسحق وتعاملوا بيننا بمنتهى الطيبة والإخلاص وأصبحوا حاقدين على الصهيونية حقداً شديداً.

عرف بنيامين ذات يوم أننا في حاجة إلى مبلغ من المال لتدبير أمر ما. فجاءني وقال:

ـ لدي مئة دينار أيها الرفيق! أخفيتها ـ قبل أن أسجن ـ في كعب حذائي ولا زلت محتفظاً بها. وأود أن أقدمها لكم الآن إذا كانت تسهل لكم الأمر.

ـ شكراً يا أبو حسقيل. احتفظ بالمبلغ لنفسك فقد تحتاجه ذات يوم.

في ١٩٥٤ فوجئت ذات يوم بأن هناك من قدم لمواجهتي. كنت أعرف أن استحصال موافقة السلطات على مواجهتي أمر صعب للغاية. وحين خرجت من السجن وجدت أبويّ في انتظاري. جلست معهما بضع ساعات وأخبرني والدي بأنه لم يترك باباً إلا وطرقه طيلة عام كامل حتى حصل على إذن بمواجهتي. كانت المواجهة اليتيمة لوالدي إلى

السجن إذ لم أره بعدها أبداً وحتى أنني لم أسمع بموته في ١٩٥٦ إلا بعد مرور ستة أشهر.

كانت عزلتنا مزعجة وكنا نريد نقلنا إلى سجون أخرى تحشد فيها رفاقنا. ولهذا الغرض أضربنا عن الطعام أكثر من مرة. وقد خضت أطول إضراب في عمري خلال تلك الفترة إذ استمر إضرابنا سبعة وعشرين يوماً، كنا نشرب أثناءها الشاي فقط. وقد ضعفنا جميعاً وتحولنا إلى أشباح أو إلى جلد وعظم. وفي النهاية أنهينا الإضراب فاشلين إذ لم نفز بمطالبنا. أظن أننا كنا مخطئين من الأساس إذ لم يكن الإضراب في أوانه ولم يكن بمستطاعنا تحريك الناس في العاصمة لدعمنا بوفود ومظاهرات، وبعد إنهاء الإضراب لم نكن لنعرف الشبع خلال أكثر من أسبوع كامل. كان كل منا قادراً على أن يلتهم في كل وجبة طعاماً يعادل عدة وجبات لما قبل الإضراب.

كنا نقيم في شتى المناسبات الوطنية والأممية حفلات نهيء فيها أفضل ما يمكن من الطعام وتلقى كلمات وتؤدى أناشيد وأغان ثورية جماعية وفردية. ويعزف حسقيل قوجمان على عوده، الذي صنعه له ـ على ما أتذكر ـ سجين آخر بيننا في إحدى الحفلات أقاموا ما يشبه المنضدة ليقف خلفها من يلقي خطابه ـ كما يحدث في بعض القاعات الحديثة. غير أنني، وكنت أول من يلقي خطاباً، لم أقف وراء المنضدة إنما صعدتها لألقي كلمتي. وأثبت بذلك أنني لم أر في عمري وحتى ذلك اليوم حفلاً أصولياً في إحدى القاعات. كنت قد ألقيت الخطب مراراً ولكن في حشود شعبية داخل الساحات وشوارع المدن، متخذاً مكاناً لي فوق كرسي أو في أي مكان عال. على أن وقوفي فوق شبه المنضدة كان مدعاة لضحك زملائي وسخرية البعض منهم، رغم أنهم لم يضحكوا أثناء إلقائي الكلمة احتراماً لي.

وصلت بي الحماقة حد المشاركة في مسيرات مع رفاقي داخل السجن، بمناسبة ما وطنية أو أممية، لأنشد معهم نشيداً يتضمن الإشادة

بي وتقديسي، بدلاً من أن أمنعهم من ذلك، حيث كان أحد مقاطعه: «باسم الله قادنا»، أي أنني أنا الذي قدتهم إليه. وعندما أتذكر اليوم ذلك فإنني أضحك على نفسي وأحس بنوع من الخجل إزاء ذلك السلوك الصبياني البعيد عن التواضع. كانت عبادة الفرد وتقديس القائد هي الأسلوب السائد في الحركة الشيوعية آنئذ. وكان من المألوف أن أكون في تلك الأيام ضمن القادة المعبودين أو الآلهة المحليين للحركة الشيوعية.

وطيلة سني وجودي في السجن لم أستلم رسالة شخصية من أي كان سوى رسائل قليلة من زوجتي السجينة أم سلام. أوصل إلي البريد ذات مرة رسالة من صديق طفولتي وابن عمتي محمد. وحين قرأتها عرفت أن وصولها إلي كان بسبب ما حوته.. فقد طلب مني محمد في رسالته اليتيمة تلك التخلي عن الشيوعية وعن النشاط السياسي. وأجبته رافضاً معنفاً.

كانت حياتنا رتيبة هادئة خالية من الصخب الذي يلازم حياة أي حشد بشري كبير. فتسنى لي أن أتعلم قدراً لا بأس به من اللغة الإنكليزية. غير أنه لم يتسن لي، لا في السجن ولا بعد السجن، أن أتعلم التكلم عن طريق الممارسة الاعتيادية. وظلت هذه مشكلتي وعقدة نفسية لدي على مر السنين.

في ١٩٥٥ فوجئنا بعودة رفاقنا السجناء، الذين كانوا قد نقلوا من نقرة سلمان بعد انهيار جمهورية حميد عثمان في ١٩٥٣. كان معهم بالطبع سجناء جدد. وكان بينهم الكوادر القديمة باستثناء حميد عثمان، الذي تسنى له الهروب في ١٩٥٤ وسلم إليه كريم أحمد زمام قيادة الحزب إثر وصوله إلى بغداد. وبعودة هؤلاء الرفاق ازدحم السجن وطرأ تغيير كبير على نمط حياتنا اليومية وغدت المواجهات الشهرية للسجن أكثر ازدحاماً والحياة اليومية أكثر صخباً وبهجة. وقد خضت أول مسابقة شطرنجية في السجن (وكنت قد تعلمت لعبة الشطرنج في السجن) وفزت

بالمكانة الأولى فيما فاز عزيز الحاج بالمرتبة الثانية. وفي توزيع العمل الجديد أصبحت واحداً من سجينين مكلفين بتهيئة الشاي يومياً. كنا نهيء الشاي في قدر كبير ونصبه في أقداح لتوزع على الرفاق. وكان زكي خيري أحد السجينين القائمين بتوزيع الشاي وجمع الأقداح الفارغة وغسلها. عثرت رجله ذات مرة، وهو يحمل صينية مليئة بالأقداح، فتكسرت الغالبية الساحقة منها.

كان بين السجناء عدد كبير من رجال الأدب والثقافة والفنون والرياضة وغيرها. كان محمد صالح بحر العلوم، الشاعر النجفي المعروف والمناضل الثوري، على صلة بالحزب قبل سجنه وحين كنت أقود الحزب قبل اعتقالي. ولكني لم ألتق به مباشرة إلا في سجن نقرة سلمان. كان بسيطاً وبشوشاً وعالي المعنوية وذا علاقة طيبة مع الجميع. كما كان حريصاً دوماً على حلاقة لحيته المبيضة وصبغ شاربه بأمل أن يخفي كبر سنه. وكان شغوفاً بأن يلقي قصائد وأبياتاً من شعره في المناسبة وبدون المناسبة. وباستثناء الجانب التقدمي السياسي في إنتاجه الشعري، فإن أشعاره كانت فقيرة على الدوام في فنها وجماليتها. وكان أشبه بشاعر فلاحي منه إلى شاعر فنان.

وفي نقرة سلمان التقيت لأول مرة مع ابن مدينتي الشاعر الكردي المعروف عبد الله كوران. كان قد سجن بسبب نشاطه الشيوعي. كان لطيف المعشر، وبسيطا في تصرفاته وحياته اليومية وقوياً في معنويته وحريصاً على أن يثبت روح التحدي لدى الآخرين أيضاً. كنا نجلس للعب الداما وكنت أغلبه أحياناً وأخسر أحياناً. وكنا نثرثر مع بعضنا أثناء اللعب حول مختلف الأمور. وتميز بأنه حفظ عدداً كبيراً من النكات المتنوعة، بضمنها نكات تنسب إلى جدي بابا علي.

والتقيت هناك أيضاً مع السجين الشيوعي البغدادي ولاعب كرة القدم الأفضل في العراق آنئذ هادي عباس، الذي لم يشفع له كونه أحسن لاعب في أبرز لعبة فلم ينج من السجن. ولم يترك هوايته

الرياضية حتى في السجن، فنظم لعب كرة القدم. كان عرض الساحة أقل من العرض القياسي. لكن طولها كان قرابة ١٣٠ متراً. وشكل فرقتين تتباريان مساء أغلب الأيام، كان من أعضائها مهدي حميد وسليم إسماعيل وخضير عباس السماوي وأسعد خضر وغيرهم.

وكان ضمن العائدين إلينا عمر علي الشيخ، المهندس الذي لم يمارس مهنته أبداً ولم يشبه في قيافته مهندساً. وقد سجن عام ١٩٤٨، بعد إكماله الكلية. كان إنساناً بسيطاً متواضعاً لطيف المعشر، رغم أنه كان ميالاً إلى الانعزال وقلة الكلام. وقد أصبح، في أغلب أوقات سجنه، طبّاخاً لرفاقه السجناء. ولم أسمع يوماً بأن يكون طرفاً في أية مشكلة مع سجين آخر.

كان هناك أيضاً عزيز الشيخ العاني، عضو لجنة بغداد الحزبية في ١٩٥٢. وعلمت فيما بعد أنه أصبح عضو اللجنة الحزبية السجنية، إلى جانب مهدي حميد وعمر الشيخ وزكي خيري وغيرهم. وكان سكرتير اللجنة، المعين من قبل حميد عثمان في سجن بعقوبة، مهدي حميد، الإنسان الجهادي البسيط الطيب الذي لم يملك قط الحد الأدنى من المؤهلات والتجارب السياسية أو التنظيمية لكي يقود منظمة السجن. ربما كان كفؤاً لقيادة فوج أو لواء من الجنود ولكنه لم يكن كفؤاً لقيادة النشاط السياسي والتنظيمي.

كانت المسؤوليات الحزبية توزع عن طريق تعيينات فوقية ولم يكن هناك شيء من الانتخابات ولم يفكر أحد في الانتخابات ـ تماماً كما كانت الأمور قبل اعتقالي أيضاً.

وكان بين السجناء طالب عبد الجبار، الرجل الأول أو الثاني من حيث طوله في السجن والإنسان البسيط المتواضع المتحدر من عائلة فقيرة في بغداد، والذي وهب نفسه كلياً لقضية الثورة والشيوعية. وأتذكر أننا كنا نتناقش ذات يوم حول أضرار الانحراف اليساري وضرورة التخلص من مخلفاته وعواقبه. وسأل أحدهم:

ـ وما الضمان في ألاّ نقع في انحراف يميني إذا تخلصنا من الانحراف اليساري؟

ـ نحن الضمان. فنحن خلقنا يساريين ولا يسهل جرفنا نحو اليمين ـ أجاب طالب. لكن وقائع السنوات التالية قد أوضحت أن بالإمكان أن يقع الحزب في انحرافات يمينية، رغم وجود طالب وأمثال طالب الذين لم يكونوا أبداً يمينيين.

في إحدى القاعات أقام حشد ضئيل من السجناء الشيوعيين المنشقين ـ جماعة راية الشغيلة ـ الذين ظل عزيز محمد مسؤولاً عنهم. وكان لديهم عدد كبير من الدجاج وبنوا له صريفة أو صرائف، بجانب قاعتهم. وكان السجناء يسمون تلك الصرائف عاصمة الدجاج في نقرة سلمان.

وكا من طرائف السجن حسين روضة، الشاب النجفي الذي سجن في حينه بتهمة قتل مفوض للشرطة في إحدى المظاهرات. وقد أصيب في السجن بنوع من الجنون أو تصنّع الجنون. كان يعيش منفرداً. وفي الصباح يلبس عباءته الريفية، رغم أنه كان ابن المدينة. ويضع يشماخه وعقاله على رأسه، ويحمل بندقيته ـ وهي خشبة عادية يزيد طولها عن المتر ـ ويشد على طرفيها حمالة من الخيط ويؤدي وسط ساحة السجن التمارين التدريبية لجندي مكلف، وكأنه يقدم عرضاً لمجموع السجناء، ثم يضع البندقية جانباً ويأتي بطائرته الورقية من النوع الذي يصنعه بعض الأطفال في المدن، ويبدأ بفصل جديد من اللعب ماسكاً برأس الخيط الرفيع المشدود من طرفه الآخر إلى الطائرة.

كان سجننا يستقبل بين الفينة والفينة وجبات جديدة من المسجونين السياسيين الجدد من شتى المدن والمناطق. وجاءت إحدى هذه الوجبات إلينا من الجنود، الذين اعتقلوا وحكم عليهم بسبب نشاطهم الشيوعي. وعاشوا بيننا معززين إلى أن حدث، بعد فترة، ما لم يسبق مثيله في السجن ـ على الأقل أثناء وجودي. فقد اتضح أن أحدهم، ولم

يكن شيوعياً بل صديقاً لبعضهم، كان يتعاطى الجنس ويتساهل مع كل شخص يطلب منه ذلك. وقد انكشف أمره لبعضهم بطريقة لا أعرفها. وحمل الحرمان الجنسي الطويل مناضلين جيدين على التورط في علاقات جنسية معه. وحين عرف ضابط الصف السجين كسار بذلك (ويبدو أنه كان من ذوي العلاقة الجنسية معه قبل سجنهما أيضاً وبقي كذلك بعد سجنهما) كشف أمره للتنظيم إما بدافع الغيرة أو لسبب آخر. واعترف على نفسه كأحد ممارسي الجنس معه. وحين جوبه الفاعلون الآخرون باعتراف كسار ونوري المفعول به نفسه أصبحوا في موقف حرج. اعترف الفلاحي وحده بجريرته في حين رفض كل من منصور عزيز وجاسم يحيى الاعتراف وتعقدا حتى تركا النشاط السياسي في وقت لاحق.

❀ ❀ ❀

واجهت في حياتي الحزبية أول محاسبة وأول عقوبة حزبية على أثر عودة السجناء إلى نقرة سلمان. كان شيئاً اعتيادياً، بالنسبة إلي، أن يكون غيري مسؤولاً وأن أكون خارج الهيئة السجنية المسؤولة بصورة عادية ودونما حساب. لكن ما حدث كان شيئاً آخر. واتضح أنه كان علي أن أدفع الحساب عن الماضي. وخصوصاً عن تلك التصرفات التي لم ترق لحميد عثمان عند بداية وصولي إلى السجن. فاللجنة الحزبية المسؤولة، التي عادت إلى نقرة سلمان والتي كان على رأسها مهدي حميد، بدأت بمحاسبتي على الماضي، على الفردية والبيروقراطية واليسارية واليمينية، وأحياناً على شيء لم أعرفه. ولم يكن ماضي الحزبي في واقعه خالياً من الفردية والبيروقراطية وبعض الأخطاء السياسية... لكن الذين كانوا يحاسبونني لم يعترضوا في الماضي على شيء من هذه الأخطاء ولم يكونوا أنفسهم سوى كتلة من هذه الأخطاء. فالسبب الحقيقي لمحاسبتي ومعاقبتي كان موقفي من جمهورية السجن ومن شخص حميد عثمان. كان هذا الأخير قد أصبح المسؤول الأول عن الحزب وكان يرغب في أن ينتقم مني. والذين كانوا في اللجنة

الحزبية وأيدوا حميد عثمان يوم أسس جمهوريته في السجن وأقام التمرد المسلح بالسيوف، ثم أيدوني لإلغاء الجمهورية حين أصبحت أنا المسؤول، هم أنفسهم الذين أيدوا مرة أخرى حميد عثمان وانقلبوا ضدي حين أصبح حميد المسؤول الأول في الحزب. وهؤلاء هم زكي خيري ومهدي حميد وعمر الشيخ وهادي هاشم والآخرون. وباستثناء عزيز الشيخ، الذي كان يعرفني خلال العمل الحزبي في فترة ما قبل السجن، فإن الذين حاسبوني وعاقبوني لم يعرفوا شيئاً ملموساً عن وضعي ونشاطي الحزبي لسني ما قبل السجن وبالتالي لم يكونوا قادرين على تكوين فكرة موضوعية عني.. إنما كانوا مستعدين دوماً لتأييد من يكون مسؤولاً حزبياً فوقهم. وكان الجميع ميالين إلى التشدد في محاسبتي ومعاقبتي باستثناء زكي خيري وعزيز الشيخ اللذين أرادا عقوبتي ولكن بصورة أخف.

كانت إحدى التهم الموجهة إلي هي أنني وصلت حد العداء للاتحاد السوفيتي (وهذه التهمة كانت كافية آنئذ للطرد من الحزب ولإطلاق أسوأ النعوت على المرء). وكان الشاهد على هذه التهمة هو صادق الفلاحي، الذي روى لهؤلاء ما يلي: سمعت من بهاء في عام ١٩٥٣، حين أنهى الوفد السوفيتي في هيئة الأمم المتحدة مقاطعته لجلسات مجلس الأمن إبان الحرب الكورية، وهو يقول أن السوفييت أحسوا الآن بأن مقاطعتهم كانت خاطئة فتراجعوا عنها وعادوا للمشاركة في الجلسات.

وكنت قد أبديت هذا الرأي فعلاً أمام الفلاحي وغيره في ١٩٥٣. ولكني لم أكن بأي حال معادياً للسوفييت، بل كنت صديقاً، وكنت مقتنعاً بأنه حصن السلام والديمقراطية والاشتراكية. لكن إبداء مثل هذا الرأي كان يعتبر تجاوزاً على الأممية وجريمة لا تغتفر. وقد تساهل المسؤولون تجاهي ففسروا ما بدر مني بأنه تشكيك في سياسة الاتحاد السوفيتي، لا أكثر!

على أي حال فإن المحاسبة انتهت بإقصائي من جميع المراكز والمسؤوليات الحزبية وإبقائي مجرد عضو في الحزب. وكنت أخشى من أن تتطور الأمور حتى إلى طردي من صفوف التنظيم الحزبي ـ السجني. ولا أدعي بأني لم أكتئر لذلك ولم أنزعج. إلا أنني لم أعر المسألة اهتماماً كبيراً ولم أحاول إثارة الضجيج والمتاعب للجنة، بل بقيت اعتيادياً هادئاً وتصرفت وكأن شيئاً لم يحدث. واحتفظت بالعلاقات الودية الرفاقية مع الجميع، بمن فيهم اللجنة الذين تولوا محاسبتي ومعاقبتي. وفي وقت لاحق وردتني رسالة من شبان شيوعيين في مدن جنوبية وفي بغداد، وكان بينهم علي الشيخ حسين الساعدي، تستنكر ما جرى بحقي وتبدي الاستعداد للدفاع عني ولتلقي التوجيهات مني أنا الرفيق باسم السكرتير. وكان جوابي أن نصحت هؤلاء بالكف عن أي نشاط من هذا القبيل وبالالتفاف حول الحزب وحسب.

❀ ❀ ❀

كنا لا نزال في سجن نقرة سلمان حين وصلنا أن هناك مباحثات خارج السجن بين قيادة ح ش ع وبين جماعة راية الشغيلة بهدف إعادة التوحيد. ومن وحي هذا الخبر جرت مناقشات بين كوادر السجن، اشتركت فيها. كانت هناك آراء متباينة، منها المتطرفة ومنها المعتدلة. كان رأي عزيز الحاج متطرفاً لصالح جماعة الشغيلة ـ كما كان شأنه في الكثير من الأحيان. كان يدعي أن جماعة الشغيلة هم الحزب الشيوعي وأن علينا أن نذهب ونندمج معهم، في وقت كانت جماعة الشغيلة نفسها تعترف بأنها هي المنشقة. وكان هناك، بين الجانبين، من يعارض أي اندماج تنظيمي. وقد قررت أن أدرج رأيي في رسالة خاصة إلى قيادة الحزب ـ وكان حسين أحمد الرضى قد أصبح سكرتيراً للحزب في تلك الأيام، وأقصى حميد عثمان. ذكرت في رسالتي أن كل جانب هو المسؤول عن تصرفاته وأخطائه ولا يصح إلقاء تبعة أخطاء أحدهما على الآخر. وقلت أن الخطيئة الكبرى لهؤلاء هي أنهم انشقوا.

في تلك الأيام نفسها وردت رسالة من قيادة الحزب حول أخطاء وتصرفات السكرتير السابق (ص.) ـ حميد عثمان ـ وتصرفاته الفردية. ما كنت أعرف من هو البديل الذي حل محل حميد عثمان، لكني كنت على قناعة بأن هذا الأخير لا يصلح لمنصب المسؤول الأول.

❀ ❀ ❀

يمكن القول أني فكرت في كل شيء سوى أن تسقط عني الجنسية العراقية. ومع ذلك فإنها أسقطت. كيف ولماذا؟ ربما كأحدث أسلوب لتخويف الشيوعيين وإضعاف معنوياتهم وبالتالي إضعاف الشيوعية. ولا بد من الإشارة إلى أنني لم أكن الوحيد الذي أسقطت عنه الجنسية. فقد أبلغنا، أنا وزكي خيري وصادق الفلاحي وأكرم حسين، في سجن نقرة سلمان، بأن السلطات العراقية قررت إسقاط الجنسية عنا نحن السجناء الأربعة وصممت على تسفيرنا إلى بلد ما خارج العراق. وأمرنا بالتهيؤ للسفر إلى بغداد في صبيحة اليوم التالي. ولا زلت أذكر بمرارة أن رفاقي السجناء لم يعفوني من خفارة تهيئة الشاي لهم حتى في صبيحة اليوم الذي حدد لسفرنا. فقد انتهيت من خفارة الشاي لأبدأ مباشرة قبلات الوداع مع الرفاق ولنسافر تحت حراسة الشرطة إلى سجن الموقف في بغداد. ولحسن الحظ لم يكن المدير السابق جبار أيوب هناك. وقد أخذت إفاداتنا فرداً فرداً ولكننا كنا قد اتفقنا مسبقاً على ما نقول. كانت خلاصة إفادتنا أننا مواطنون عراقيون متمسكون بمواطنتنا ومصرون على أن نعيش في بلدنا ونموت فيه وندفن بين قبور أجدادنا، وأننا نرفض السفر إلى أي بلد آخر ونستنكر قرار السلطات بإسقاط الجنسية عنا ونعتبره قراراً مخالفاً لجميع الشرايع الأرضية والسماوية.

وكان قرار إسقاط الجنسية يشمل كذلك كلا من المحامي الشيوعي توفيق منير والمحامي الديمقراطي كامل قازانجي. ولكونهما غير سجينين فقد اعتقلا ووضعا في موقف آخر بعيداً عنا إلى أن أخذت منهما الإفادة ثم جلبا إلينا. سألناهما عن إفادتهما فقال القازانجي:

ـ إني تمسكت ـ في الإفادة بمواطنتي العراقية وأبديت عدم رغبتي في مغادرته والسفر إلى أي بلد آخر. وإذا تم تسفيري قسراً وبالرغم من إرادتي فإني أفضل السفر إلى أي بلد عربي. وإذا لم يسمح لي بذلك فإني أفضل بلداً محايداً.

وأما توفيق منير فإنه حسم الأمر بشكل مغاير إذ رفض ـ كما قال ـ إعطاء أية إفادة وكتب في الورقة التي قدمت إليه لكتابة الإفادة ما يلي:

ـ إني أرفض الاعتراف بهذه الحكومة أصلاً وبالتالي أرفض الاعتراف بأي قرار صادر عنها.

ـ ولماذا لم تعط إفادتك بشكل أفضل يا أبا موفق؟ ـ سألناه.

ـ لم أعرف ما هو موقف الحزب وماذا ستكون إفاداتكم. فأعطيت هذه الإفادة الموجزة خشية أن تكون إفادتي، فيما لو كانت بشكل آخر، مخالفة لإفاداتكم.

كان مدير سجن بغداد قد أوصى بتقديم وفر من اللحوم إلينا يومياً لغرض إرضائنا وتلافي مشكلة الإضراب عن الطعام خلال وجودنا في سجنه. وجراء إكثاره من أكل اللحم أصيب توفيق منير بالإسهال الشديد. وأوصى الطبيب، الذي زاره، بـ (١٦) حبة سلفاً كوانودين ليتناولها بوجبات خلال يومين. لكن الرجل ألقى بجميع الحبوب إلى فمه دفعة واحدة وشرب عليها جرعة ماء. وتصور بعضنا بأن أبا موفق قرر الانتحار. لكن النتيجة كانت إيقاف الإسهال سريعاً. وذكر الرجل بأن هذه ليست المرة الأولى في تناول الحبوب على هذه الصورة.

بعد أيام أعدنا إلى سجن نقرة سلمان ولم أسمع بعد ذلك شيئاً عن إسقاط جنسيتي، فكأن هذا القرار لم يكن أصلاً. ولا أدري هل كانت العملية كلها تمثيلية استهدفت التخويف أم أن السلطة تراجعت عن قرارها.

كانت قراءة الأغاني والأناشيد الثورية في السجن من الممنوعات.

وقد زيدت أحكام السجناء الشيوعيين بعشرات أو مئات السنين إجمالاً كعقوبة على قراءة هذه الأناشيد. وأذكر من بين السجناء د. حسين الوردي، الذي حكم عليه أول الأمر بالسجن سنة أو سنتين ثم ازدادت سنوات الحكم إلى اثني عشر عاماً خلال عدة محاكمات جرت كلها بسبب قراءته الأناشيد الثورية.

ووقفت شخصياً أمام قاض استقدم إلى سجن نقرة سلمان، بعد مرور سنة على وجودي في السجن، ليحاكمني على جريمة ارتكبتها بقراءة نشيد موجه ضد نظام الحكم. وقد اعترفت بقراءتي النشيد وشجبت محاكمتي بهذه الذريعة. في الأخير أصدر القاضي حكمه بالسجن سنة واحدة أقضيها بالتداخل مع حكمي بالسجن المؤبد.

كانت السلطة تسعى لحمل الشيوعيين المسجونين على تقديم البراءة والتخلي عن العقيدة الشيوعية وإعلان الإخلاص على قصاصة ورق للملك المعظم ولنظام الحكم. ووراء الحصول على هذه البراءة تعرض السجناء الشيوعيون طوال سنوات متعاقبة لألوان التعذيب والاضطهاد. وقد اشتهر ثلاثة من مدراء السجون السياسية بالوحشية والتعسف في تعاملهم مع الشيوعيين ومساعيهم لإسقاطهم سياسياً ولانتزاع البراءات منهم ـ هؤلاء هم جبار أيوب وعلي زين العابدين ومحمد سعيد شهاب. وكان هذا الأخير قد عين مديراً لسجن نقرة سلمان وجلب إلينا بالارتباط مع مشروع هجوم جديد خططت له السلطة الحاكمة وحبكته دائرة الأمن العام.

ذات يوم في ١٩٥٦ طلب مدير السجن محمد سعيد شهاب ثمانية سجناء بالاسم بذريعة أن الطبيب القادم ينتظرهم ـ وكان الطبيب يزور السجن مرة في الشهر. كنا نعرف جيداً أن المدير نفسه الذي يريدنا وليس الطبيب، الذي لم يطلب أحداً قط بل جرت العادة أن يطلب السجين مواجهته. ولكن ما العمل؟ لا بد من أن يذهب السجناء المطلوبون ـ وأنا أحدهم. وما أن وصلنا إلى المدير شهاب حتى أمر

بوضع الخطام (وهو قضيب حديدي مشدود إلى حلقتين يثبتان في ساقي السجين ويغدو من غير الممكن أن يبعد بين رجليه أو يقرب بينهما أكثر من طول القضيب نفسه) في أرجلنا جميعاً، إضافة إلى القيد رقم ٢، أي القيد الذي يزن كيلوغرامين، والذي كان في أرجل ذوي الأحكام الثقيلة منا بصورة دائمة. ورعاية لكبر سنه لم يقيد زكي خيري بالخطام، بل قيد فقط بالسلسلة رقم (٨) ـ أي ٨ كغم. ومن ثم وضعت القيود (كلبچات) في أيدينا جميعاً وأخذنا إلى غرفة الحجز التي كان من المصطلح أن تسمى (غرفة الرياضة). وربطت قيود أيدينا بأقفال إضافية إلى سلسلة حديدية مثبتة بوتد وسط الغرفة ويقارب طولها المتر الواحد. ودخل علينا المدير بعدئذ، وراءه سجان يحمل تنكة فارغة، ليقول لنا:

ـ هذه التنكة هي مرحاضكم هنا، تتبولون وتتغوطون فيها ولن يسمح لأي منكم أبداً بالخروج من هذه الغرفة إلى أن تموتوا جميعاً.

قدمنا الاحتجاج الشديد وصرخنا في وجه المدير الوحشي وطالبناه بالمعاملة القانونية. لكنه استدار وخرج دون اكتراث. وبدأنا نحن الضحك على وضعنا واصطلحنا فيما بيننا على تسمية المدير بـ «التنكة». وتكيفنا رغم أنفنا للظروف المستجدة مستخدمين التنكة فعلاً كمرحاض لنا. كل ما استطعنا عمله للتخفيف من أثر هذا المرحاض اللعين هو أننا غطيناها بيشماخ أحدنا. وفي صبيحة اليوم الثالث نادى المدير عليّ وعلى مهدي حميد وكامل السامرائي. وأمام غرفة الحجر أمر بضربي ـ ٢٥ ضربة فلقة على كف رجليّ. وحين انتهى السجان من كيل الضربات سألني المدير، وأنا لا زلت طريح الأرض:

ـ لماذا لم تصح آخ؟

ـ لن أصيح أبداً ـ أجبته بتحد.

ـ إذن اضربوه عشر ضربات أخرى.

وجاء بعدي دور مهدي حميد وضرب أيضاً (٢٥) ضربة فلقة، ثم

عشر ضربات أخرى لأنه لم يصح آخ. واكتفى المدير بتسديد ٢٥ ضربة إلى كامل السامرائي. ونقلونا بعدئذ إلى غرفة حجز أخرى ووضعوا فيها تنكة ـ مرحاض لنا. وخلال الأيام التالية أصبح كامل في وضع نفسي وصحي صعب. كان مريضاً ظاهرياً ولكني ومهدي اعتقدنا بأن السبب الحقيقي يعود إلى ضعفه العصبي ـ المعنوي وتردده بين أن يصمد وأن يقدم البراءة ويخرج من السجن. وكنا ندرك بأن إعادته إلى السجن ستغير وضعه كثيراً. وأصبح همنا الأول (أو مشكلتنا الملحة) أن ننقذه من الانهيار. وتذرعنا بمرضه للضغط على الإدارة بغية إعادته إلى السجن. وعلمنا ذات يوم أن الطبيب قد وصل في زيارته الشهرية. فأقمنا الضجيج حتى أرغمنا الإدارة على عرض كامل عليه كمريض ومن ثم عرضنا. شكونا حالنا إلى الطبيب ـ وكان إنساناً طيباً ـ وتساءلنا عمّا إذا كان من الإنسانية ومن مراعاة الشروط الصحية في السجون أن توضع التنكة في غرفة صغيرة كمرحاض للسجناء. فاحتج الطبيب بقوة وطالب المدير بإزالة التنكة وإحلال الوضع الاعتيادي وهدده باتخاذ الإجراءات القانونية في الدوائر الصحية والقضائية، كما كتب الأدوية لغرض العلاج والراحة لكامل. بذلك حلت مشكلة كامل حيث أعيد إلى السجن. وأزيلت التنكة وحصلنا،أنا ومهدي وسائر رفاقنا في الغرفة الأخرى، على «مكسب عظيم»! أخذنا مرتين يومياً إلى المراحيض.

كان عزلنا في غرفة الحجز الخارجية بداية هجوم بوليسي شامل على السجن كله بقاعاته العشر. فقد هيىء حشد كبير من السجانين البدو وشرطة البادية وقادهم المدير نفسه في عملية مداهمة وغزو ـ مقرونة بسلب الممتلكات الشخصية البسيطة للسجناء جميعاً، الذين شتتوا وأخذ الكثيريون منهم إلى غرف الحجز المتفرقة فيما قيد الكثيرون من أيديهم وربطوا إلى قضبان الشبابيك داخل القاعات. وكان السجانون ورجال الشرطة يتسابقون ويتنافسون على سرقة ونهب حقائب السجناء وملابسهم وأدوات حلاقتهم وأي شيء يقع تحت أيدي الفاتحين.

على أن الفصل المضحك من المأساة كان في عملية نهب الدجاج الموجود في السجن. فقد كان كبر مساحة السجن عاملاً ملائماً لتربية الدجاج. وكانت هذه «المهنة» تخلق فرصة أمام بعض السجناء، سيما من المتفرقة غير المنتسبين إلى أي تنظيم، لقضاء الوقت والانشغال بالدجاج والحصول على البيض. وكانت عاصمة الدجاج ـ كما أسميت ـ لدى جماعة راية الشغيلة. وبعد إكمال عملية نهب القاعات العشر بدأت عملية النهب التكميلية ـ نهب الدجاج. وكانت الدجاجات كلها طليقة في تلك الساحة الفسيحة، كما كانت نشطة، ومن النوع المحلي وليس من دجاج حقول تربية الدواجن. كانت هناك مطاردة جماعية، بالأحرى مسابقة جماعية، بين رجال الشرطة والسجانين وبمشاركة عدد من السجناء الشيوعيين الذين بقوا طليقين لغرض تهيأة الطبخ والخبز وتقديم الخدمات للمحجوزين. إذا أمسكت بدجاجة أصبحت ضمن ممتلكاتك. وعليك أن تحاول مسك أكبر عدد منها وأن تسرع في ذلك وتسرع في الركض لأن غيرك يسعى أيضاً، عدد كبير من السجانين والشرطة ومن السجناء يركض ركضاً سريعاً وراء أعداد من الدجاجات والديكة. وهذه الأخيرة تأبى الاستسلام بسهولة وتصر على الركض وتطير بقدر ما تستطيع وتنقنق للاستغاثة. فتصور هذا المنظر المضحك المحزن.

وقد ذبح رفاقنا السجناء الطليقون جميع ما أمكن لهم الحصول عليه من الدجاج. وكان يجب أكلها لكي لا تتلف. في مساء ذلك اليوم استلمنا، نحن فريقاً من السجناء المحجوزين خارج مبنى السجن، دجاجات مقلية بمعدل دجاجة لكل شخص. كانت أكلة لذيذة.

عندما حدثت عملية «الأنفال» السجنية كان السجين اليهودي المجنون سلومو كرادي في مستشفى المجانين، بعيداً عن السجن. وحين رجع ورأى الوضع متغيراً كلياً، حيث شتت السجناء وقيد الكثيرون وربطوا إلى قضبان الشبابيك، ولم يبق شيء من المشاهد السابقة التي كان يراها قبل ذهابه، مشاهد لعب كرة القدم والكرة الطائرة وتمشي

السجناء الاعتيادي في الساحة وتدريبات حسين روضة مع بندقيته وطائرته الورقية.. الخ، فعلق قائلاً:

ـ ما أدري المدير ليحق لو الجماعة ليحقين؟ (أي لا أعرف هل جنّ المدير أو الجماعة؟).

عند هجومه علينا لم يميز مدير السجن بين منتسبي ح ش ع ومنتسبي راية الشغيلة وحتى السجناء الذين لم تكن لهم أية علاقة بالشيوعية أو بالسياسة. فالجميع نهبوا وعوملوا بقسوة متناهية. وفي غرف الحجز والتعذيب التقينا مع عناصر راية الشغيلة. في هذا الوقت كانت المفاوضات جارية خارج السجون لغرض الوحدة التنظيمية، الأمر الذي كسر الحاجز النفسي وساعد على تهيئة أجواء أفضل للتوحيد العملي في السجن. في أيام الهجوم علينا تلك جلست لأول مرة مع عزيز محمد وآخرين من زملائه لنتعرف على بعضنا ونتبادل الأحاديث والنكات. وترك الكثيرون منهم انطباعاً حسناً لدي وغدوت أنظر إليهم كرفاق لي وكشيوعيين وضعتهم الظروف في ذلك الموقف.

فشل الهجوم على السجناء في تحقيق هدفه بحملهم أو حمل عدد منهم على الركوع وتقديم البراءة إلى السلطات. لم يعد وضعنا كالسابق من حيث الهدوء النسبي وممارسة النشاط الثقافي والرياضي اليومي. لكنهم وعدونا بنقلنا من نقرة سلمان إلى سجن آخر. وبعد أيام جرى النقل فعلاً. أخذونا إلى سجن بعقوبة، الذي كان قد أنشىء فيه جناح مكون من ٣٢ غرفة على طريقة حديثة إذ كانت مساحة الغرفة تسعة أمتار مربعة وفيها مرحاض ومغسل وشباك لا بأس به مطل على ممر بين قسمين من البناء. كان هذا الجناح يعتبر سجناً حديثاً ومريحاً فيما لو جهز بالأسرة ومستلزمات الحياة الاعتيادية من كتب وصحف ومذياع وأدوات التسلية البريئة وفيما لو كانت أبواب الغرف مفتوحة ليل نهار والسجناء أحرار في التحرك داخل السجن والتزاور فيما بينهم واستقبال ذويهم في مواجهات اعتيادية. بكلمة أخرى فيما لو كان في العراق حد

لا بأس به من الديمقراطية ومن الحضارة ومراعاة حقوق الإنسان. غير أن مدير السجن علي زين العابدين، الضابط الملازم المسؤول سابقاً عن أسطبل للخيل والبغال قبل نقل خدماته إلى السجون، كان قد حول هذه الغرف إلى جحيم حقيقي للسجناء السياسيين وإلى زنزانات انفرادية مغلقة الأبواب ليل نهار مخصصة للتعذيب الجسدي والنفسي.

عند وصولنا إلى السجن جمعونا، نحن أغلب الكوادر والمسؤولين، في قاعة متوسطة السعة للسجن القديم وعشنا لبعض الأيام في شيء من الهدوء النسبي، حيث لم يكن ضرب وتعذيب جسدي، رغم أن حرماننا من رؤية الصحف والكتب والراديو ولعب الشطرنج وجميع أشكال التسلية البريئة قد استمر، وأننا بقينا في ملابس السجن الحقيرة مقيدين بالسلاسل الحديدية..الخ. وقد ناقشنا وضعنا وبلورنا بعض المطالب التي لا غنى عنها حتى لحياة السجين الاعتيادي، والتي تكون جزءاً صغيراً مما يدخل ضمن حقوق الإنسان. واتفقنا على أن نسعى من أجل فرض عمر الشيخ تدريجياً كممثل لنا لدى إدارة السجن ـ كما كانت العادة في السجون الأخرى. وذهب عمر فعلاً لمواجهة المدير وعرض بهدوئه المعهود هذه المطالب الصغيرة واستمع إليه ولم نحصل على أية نتيجة.

بعد أيام استدعاني زين العابدين فجأة وأخذني أحد السجانين إلى غرفته. كان جالساً وراء مكتبه بعجرفة عجيبة. وطلب مني الوقوف في الغرفة أمامه خشية أن أجلس من تلقاء نفسي. وبقي بعض الوقت يتفرّس في وجهي كأنه يقرأ شيئاً. ثم قال:

ـ ما هي مطالبكم؟

ـ هي معروفة لديك إذ عرضها عمر الشيخ قبل أيام وليس لدي ما أضيفه.

ـ أريد أن أسمعها منك شخصياً.

ـ سيد! أستطيع أن أكرر ما ذكره عمر الشيخ.

نهض المدير من مكانه وتقدم خطوتين نحوي، وهو يفتعل الغضب وكرشه يهتز. وقال:

ـ أنا لست السيد المدير، إنما أنا سعادة مدير سجن بعقوبة رغم أنفك.

ـ خوش! أنت سعادة مدير السجن لكن كلمة السيد لا تحوي إساءة ولا تتعارض مع ذلك.

ـ لن أسمح لأي كان بأن يكون في حضوري غير مؤدب.. فهمت؟

مع هذه الكلمة الأخيرة أشر بعينيه على رئيس عرفاء السجن أبو كمال ذي الشاربين الضخمين المفتولين الأبيضين وذي الهندام النظيف المرتب كما لو كان أحد جنرالات الجيش في الامبراطورية التركية. ونفذ أبو كمال، مع سجان كان يقف خلفه متهيأ، أمر المدير المفهوم لديه جيداً. فانهال الوحشان علي بالضرب داخل مكتب الجلاد نفسه لبضع دقائق. ثم أخذت إلى حيث وضع في رجلي الخطام، فوق سلسلتي الاعتيادية ذات الكيلوغرامين، ووضع القيد (الكلبجه) في يدي ونقلت إلى إحدى غرف السجن الانفرادي لأترك هناك على أرضها الكونكريتية ويقفل علي الباب. وبعد حوالي عشرين دقيقة فتح الباب ودخل العريف السجان الموصلي المنشأ والشرس جداً أبو غانم. سألني دون أن أعرف هدفه من سؤاله:

ـ لماذا ضربوك ولماذا أتوا بك إلى هنا يا ولدي؟ ماذا عملت هناك؟

ـ لم أعمل شيئاً ولا أعرف لماذا أتو بي ولماذا اعتدوا علي.

ـ إذن ابق هنا ولا تتحرك أبداً.

ـ زين.

مع تفوهي بكلمة زين انهال علي العريف بالضرب الوحشي بنفس الطريقة التي جرت في غرفة المدير. كان يضربني ويقول: «لا تقل «زين» كلب ابن كلب! قل مليح». المسألة واضحة. المدير قرر الضرب والتعذيب الجسدي. والعريف الموصلي أرسل ليضربني من جديد وأنا مقيد اليدين والرجلين في غرفة السجن الانفرادي. وليس من المهم أن يكون هناك سبب وجيه. فالذريعة تفتعل والجريمة تنفذ. وهذا هو المهم لدى هؤلاء.

بقيت وحيداً مقيداً من اليدين والرجلين في هذه الغرفة الانفرادية، والباب مقفول علي ليل نهار لأربعة أشهر كاملات. وكان كل شيء ممنوعاً هناك، حتى ساعتي اليدوية أخذت مني لحوالي الشهر ويئست منها ولكنها أعيدت إلي ذات يوم وفرحت بها كثيراً. وكان لدي منديل من قماش منقط. وقد كررت عد النقاط الصغيرة مراراً وتكراراً لا لسبب سوى أنه لم يكن هناك ما يشغلني. ولم يحدث أن يفتح علي الباب طيلة الأسابيع المتلاحقة إلا مرة واحدة وليدخل الغرفة رجل لم أتوقعه ـ إنه جميل عبد المجيد، رئيس المحكمة العسكرية التي حكمت علي بالسجن في ١٩٥٣. هذا الرجل يعرفني جيداً، كما أعرفه أنا. وهو يكنّ لي الحقد والكراهية. بالأمس كان يحاكمني باسم حكومة صاحب الجلالة واليوم يعذبني في السجن بوصفه مدير السجون العام.

أظن أن المدير العام قد فوجيء بهذا اللقاء غير المتوقع في غرفة السجن الانفرادي. فتفرج علي بعض الوقت دون أن يتفوه بكلمة. وبادرت أنا بالكلام، وقد بقيت جالساً، فقلت:

ـ أنا أحتج على هذه المعاملة اللا إنسانية وأطالب باسم القانون وباسم الإنسانية بأن نعامل معاملة إنسانية وأن ينتهي التعذيب الوحشي بحقنا.

ـ ابقوه هنا مقيداً، ابقوه إلى الأبد.. ليكن هذا قبراً له ـ أجاب المدير العام، وهو يوجه كلامه إلى زين العابدين ـ فهو يستحق الموت

هنا لأنه يريد قلب نظام صاحب الجلالة المعظم.. يريد الجمهورية.

بعد هذه الكلمات خرج المدير العام وأقفل علي الباب من جديد. وبقيت في غرفة السجن الانفرادي أربعة أشهر كاملات تركت أثرها على وضعي الصحي، خصوصاً بسبب القيود الثقيلة في يدي ورجلي. وبعدها جاء الفرج إذ رفعوا عني الخطام والكلبجة وجمعونا، أنا وزكي خيري وآرا خجدور ومهدي حميد، في غرفة واحدة من نفس الطراز. كان ذلك تطوراً هاماً في حياتي اليومية إذ خرجت من عالم الصمت الدائم وأصبحت بين أناس أعرفهم وأستطيع التكلم معهم وتبادل الحديث والنكات والضحك. أعيد إلي شيء من آدميتي التي أفقدتني إياها الوحدة خلال الأشهر الأربعة المنصرمة. فأصبح الزمن أسرع والنهار أقصر. وغدت الزنزانة المكونة من تسعة أمتار مربعة قاعة للمناقشات السياسية والنظرية ولاستعراض أحداث تأريخية أو حوادث سجنية وفي فترات غير قليلة للضحك والنكات. وبقينا سوية في هذه الزنزانة قرابة عام ولم يحررنا منها إلا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وفي بعض الأيام، على ندرتها، كانت إدارة السجن تسمح لنا بالخروج إلى الشمس في ساحة صغيرة ما بين قسمين من المباني، فقط لمدة ٤٥ دقيقة. وكان يقف علينا رئيس العرفاء السجان أبو إسماعيل، الذي كان رجلاً هادئاً وحريصاً على تجنب أي إهانة أو إساءة إلينا. شكا لنا أبو إسماعيل حاله في أحد الأيام. فقال إنهم يعدوننا منذ مدة طويلة بمنحنا حق التقاعد، وما من قبض. فأجاب مهدي:

ـ أبو إسماعيل! من المؤكد أنهم لن يعطوكم التقاعد.

انزعج الرجل من ذلك. وأشرت على مهدي أن لا داعي لمثل هذا الإزعاج، فقال فوراً:

ـ أبو إسماعيل! أكيد يعطوكم التقاعد.

ولم أرض عن هذه الإجابة أيضاً. سألت عما إذا كان مهدي رئيس

الدولة حتى يؤكد أن الراتب التقاعدي سيمنح للسجانين. فقال فوراً:

ـ أبو إسماعيل! لو يعطونكم لو ما يعطونكم.

فضحك السجان وضحكنا معه وطيلة الأشهر اللاحقة.

روى لنا زكي خيري ذات يوم قصة خلف إبن أمين، الرجل البغدادي البسيط المغرم بالتظاهر الفارغ وبأن تنسب إليه أعمال غير اعتيادية من العراك والسرقة وما شابه دون أن يكون قد عمل شيئاً. وبعد ذلك كنا ندعو مهدي حميد بـ «أبو أمين» ثم عممنا الكنية على جميعنا كمزاح. وأجرينا انتخابات لتحديد خلف رقم واحد ففاز مهدي وزكي بالمرتبة الأولى.

كانت غرف السجن الانفرادي حوالينا مليئة بالسجناء، بمعدل أربعة أشخاص لكل زنزانة. وباستثناء غرفة واحدة كان فيها شبان أربعة بصريون، بينهم شاكر محمود وهشام البعاج، فإن جميع الغرف كانت مسرحا للمماحكات والمشاكل اليومية بين ساكنيها. كان العديد من الرفاق يدخلون مع بعضهم في مشادات ومشاكل لأتفه الأسباب، وأحياناً من دون سبب. فالإرهاق العصبي والقلق الدائم من مخاطر الاعتداءات والحرمان من نعمة الاختلاط مع الناس ومن التمتع بوسائل التسلية البريئة، بل الحرمان حتى من الشمس ومن الهواء الطلق... كل هذه جعلت الشاب المسجون متوتر الأعصاب وقد ينفجر لسبب تافه. فأصبحت إحدى المهمات الرئيسية هي إصلاح ذات البين بالإسهام في حل أو تخفيف المشاكل الناشئة في غرف أخرى. ولم يكن من الصعب أن نعرف هذه المشاكل. أصبح بإمكاننا أن نعرفها عن طريق المراسلة أو العرض الشفهي المباشر في نوبة حراسة البعض من بين سجانين، كانا بمثابة رفيقين حقيقيين لنا جديرين بالاعتماد عليهما.

كانت أعقد المشاكل التي أشغلتنا أكثر من غيرها طوال أسابيع أو أشهر هي مشكلة السجين الشيوعي عزيز الحاج، الذي كان نزيل إحدى

غرف السجن الانفرادي بصحبة عدنان البراك. كانت المشكلة أن عزيز بلغ درجة قصوى من الغضب وأصيب بالانهيار المعنوي لدرجة لم يعد بمقدوره أن يخفي شيئاً. كان من المحتمل أن يقدم البراءة في أي لحظة. وهذا ما كنا نخشاه ونحاول تلافيه آخذين بنظر الاعتبار أن الحاج كادر حزبي معروف. كان يبكي في ساعات طويلة من النهار والليل. كان متردداً ومتذبذباً بين أن يصمد ويبقى سجيناً أو يقدم البراءة ثمناً لإطلاق سراحه. وقد وجه بنفسه رسالة إلينا (اطلع عليها كل كادر السجن، بضمنهم عزيز محمد وعمر الشيخ، إضافة إلينا نحن الأربعة) ذكر فيها ما معناه أنه غير قادر على الصمود والبقاء في السجن وهو يستطيع أن يكون أديباً ديمقراطياً وليس شيوعياً. كان عدنان البراك يخبرنا تفصيلاً عن وضعه المتدهور ويسهم شخصياً إسهاماً نشطاً في تشجيعه على الصمود. وقد أمكن في النهاية التغلب على الأزمة النفسية لعزيز الحاج ومساعدته على اجتياز الفترة الصعبة. بيد أننا قد أخطأنا في تقديراتنا ـ حسب تصوري ـ إذ ضغطنا على هذا الرجل ليحمل عبئاً كان فوق طاقته. وكان الأفضل والأصح أن يترك ليخرج من السجن عن طريق البراءة ويصبح أديباً ديمقراطياً كما كان يرغب.

كان بين نزلاء السجن الانفرادي حسن عوينه النجفي مع ثلاثة شبان في غرفته بينهم سعيد موسى، وهو شاب طيب القلب وغبي. في إحدى الوجبات وزع المعكرونيا على السجناء وتمكن حسن من إيهام زميله سعيد، الذي لم يسبق له تناول هذه الأكلة، بأن ما يأكله هو مصارين الدجاج المجففة. وفي اليوم التالي سأل سعيد أحد زملائه، عند اللقاء خارج الغرفة، عما أكله ظهيرة اليوم السابق. فأجاب السجين:

ـ أظن أننا أكلنا المعكروني.

ـ وما هو المعكروني؟

ـ المعكروني هو المعكروني.

ـ لك الحق ألاّ تعرف ما أكلت أمس لأنه طعام الأكابر وليس طعاماً لأمثالك.

ـ ما هو هذا الطعام؟ ماذا أكلتم أنتم؟

ـ أكلنا جميعاً مصارين الدجاج المجففة.

وهكذا باع سعيد موسى لغيره البضاعة المزيفة، التي باعها إليه حسن عوينه.

❀ ❀ ❀

كان الشاعر عبد الله كوران بين نزلاء إحدى غرف السجن الانفرادي. وأبلغت ذات يوم بأن اللجنة الحزبية في السجن قد أنزلت به عقوبة تجميد عضويته في الحزب. ولم أكن عضواً في اللجنة الحزبية ولم يكن بمقدوري عمل شيء في ذلك الوقت. لكنني لم أنس القضية. ففي اليوم الأول من لقائي مع سلام عادل، أثر خروجي من السجن في تموز ١٩٥٨، عرضت عليه ما حدث لكوران وأبديت عدم رضاي وعدم صواب الإجراء المتخذ بحقه. فقال سلام عادل:

ـ إذن أبلغه بأن القرار المتخذ بعقوبته لم يحظ بموافقة الحزب وتقرر إلغاءه، وأن كوران عضو في الحزب كما كان في السابق.

وقد أبلغت كوران بذلك في لقاء معه في اليوم التالي، وأوضحت له موقف السكرتير شخصياً. وفرح بذلك كثيراً.

❀ ❀ ❀

حظيت في سجن بعقوبة بزيارة عائلية واحدة حيث. أتتني أمي والبعض من أخوتي وأخواتي سوية بعد أن استحصلوا الموافقة الرسمية على الزيارة بصعوبة بالغة. أشرف المدير نفسه على اللقاء مباشرة وكلف بعض رجاله بالجلوس معنا وسماع أحاديثنا العائلية. كانت المواجهة مفاجأة غير متوقعة بالنسبة إليّ. ولم أعرف بعضاً من أخوتي ألا بعد أن

أخبروني. كنت قد تركتهم في حينه وهم صبية صغار. ورأيتهم في السجن وهم شبان ذوو شوارب ضخمة.

منع المدير دخول صبي صغير، كان ابن أختي، إلى السجن ليرى خاله. ولم يكتف بذلك بل انتزع منه جهاز التصوير البسيط (الكاميرا) الذي كان يحمله بذريعة أنه حاول أخذ الصور للسجن أو للسجناء. ولم تطل المواجهة أكثر من عشر دقائق. فقد أنهاها المدير وصرف هؤلاء القادمين من السليمانية وأرجعني إلى السجن الانفرادي.

حين أتحدث عن سجن بعقوبة فإني لا أستطيع عدم التحدث عن الصديقين أو الرفيقين السجانين كاظم والسيد المنحدرين من الريف، من بين الفلاحين الفقراء. الأول من ريف العمارة والثاني من ديالي. تعرفنا عليهما في السجن، أثناء ساعات حراستهما. كان رجلين طيبين أصلاً. وازدادا طيبة بتأثير العلاقة معهما وتوعيتهما. وكان الحقد على الإقطاعيين، خاصة لدى كاظم، قد أوجد تربة خصبة للتفاهم معنا والتقرب إلينا.

أثناء حراستهما كنا نتحدث إلى بعضنا البعض في غرف السجن الانفرادي ـ واقفين وراء الأبواب الحديدية، مقربين أفواهنا من ثقوبها، متجنبين ارتفاع الأصوات والصخب ومعتمدين على يقظة صديقنا الحارس، الذي كان يطلق إشارة معروفة في حالة ظهور أخطار. وكان السجان السيد يجلب لنا بانتظام الرسائل والمطبوعات الحزبية من خارج السجن. وفي إحدى هذه الرسائل اطلعت على المزيد من المعلومات عن تصرفات حميد عثمان الصبيانية على أثر إزاحته من منصب السكرتير. وفي رسالة أخرى ـ أظن أنها وردت إلينا أواخر ١٩٥٧ كتبت إلينا القيادة تقول أن من المؤمل ألاَّ نبقى طويلاً في السجن وأن نسترجع حريتنا في وقت قريب ـ وكانت هذه إشارة إلى توجه ح ش ع نحو تدبير انقلاب عسكري، أو ثورة يستخدم فيها الجيش، للإطاحة بالنظام الملكي ولإطلاق سراح السجناء.. الخ.

علمنا ذات يوم أن فرحان طعمه ـ وكان أحد الكوادر الحزبية ـ قد جلب إلى إحدى غرف السجن الانفرادي لدينا، وأنه منهار ومعترف. رأينا من المهم جداً ومن الضروري إيصال الخبر على جناح السرعة إلى قيادة الحزب في بغداد لكي تحطاط إزاء ما لا تحمد عقباه من هذا الشيوعي المنهار. ولكن كيف يمكن إيصال الخبر بسرعة؟ دبرنا استدعاء صديقنا السجان كاظم، رغم أنه لم يكن في نوبة حراسته. وقلت له:

ـ لدينا رسالة مستعجلة جداً، يا أبا جواد، ونريد إيصالها إلى بغداد دون أي تأخير. أظن أنك تستطيع تدبير الأمر وإيصالها سريعاً.

ـ المشكلة أن نوبة حراستي ستحل بعد ساعتين ونصف والحراسة نفسها تستغرق ساعتين بعد ذلك يمكنني أخذ الرسالة إلى حيث تريدون.

ـ إنها قضية مستعجلة يا أبو جواد.. حاول الاتفاق مع أحدهم ليأخذ الحراسة بدلاً منك، لكي تسافر سريعاً.

بعد نصف ساعة كان السجان كاظم قد اتخذ مكاناً له في إحدى سيارات الباص المتجهة إلى بغداد، وفي جيبه رسالة صغيرة. وبعد قرابة أربع ساعات عاد إلينا ليخبرنا بأنه أوصل الرسالة إلى العنوان المحدد في بغداد.

بعد خروجنا من السجن بأكثر من ثلاثة أشهر أخبرني أحدهم، وكنت ساعتها في مقرنا شبه العلني، بأن هناك شرطياً يريد اللقاء معك، واسمه كاظم. قلت فليتفضل. فجاء وتعانقنا بحرارة ـ إنه الصديق السجان كاظم. عرضت عليه تقديم أي مساعدة في حدود إمكاناتي الشخصية أو الحزبية. فشكر وقال بإباء وعزة نفس:

ـ شكراً! أتيت فقط لزيارتكم كصديق.

من مشاهد سجن بعقوبة، التي لا يمكن نسيانها، كانت زيارة وزير الداخلية سامي فتاح. لم يخبرنا أحد بهذه الزيارة ولم نتوقعها. كل ما علمنا هو أن مدير السجن كان مرتبكاً وقام بجولة خاطفة في السجن

وخرج بسرعة. وبعدها أتى أحدهم وأخرجنا، نحن عدداً من السجناء المسؤولين، من غرفنا إلى الممر الذي يحيط بالمبنىٰ، وأوقفنا في مكان ما دون أن نعرف سبباً لذلك. كنا في حيرة من الأمر وننظر إلى وجوه بعضنا البعض وإلى السجان الواقف بجانبنا. بعد قليل أخذنا في جولة مستديرة داخل الممر المحيط بالمبنى، ثم أدخلنا إلى إحدى القاعات داخل المبنى ومن هناك إلى مكان آخر. يظهر أن العريف السجان، الذي كلف بتنفيذ هذه اللعبة، لم يتقنها. فاصطيد أخيراً. وجدنا أنفسنا أمام الزائر الوزير، الذي أراد المدير إخفاءنا عنه خشية أن نشكو حالنا إليه. ارتبك المدير عندما فوجيء بهذه الحالة لكنه لم يكن قادراً على عمل شيء. وقف الوزير عندنا وقدمنا الاحتجاجات والشكاوى التقليدية ولكنه لم يعر الكثير من الانتباه. فقد كان على علم ودراية بما نحن فيه من وضع. وكان أحد رجال السفارة البريطانية المعتمد عليهم. جاءنا وشاهد وخرج دون أن يترك أثراً على السجن، وكأن شيئاً لم يكن. وبقي الضابط المتوحش ـ يسرح ويبطش بالسجناء كما كان في السابق ولم يوقفه شيء عند حده سوى ثورة ١٤ تموز.

٩

ثورة ١٤/ تموز ١٩٥٨

منذ وقت مبكر من الصبح شعرنا، ونحن في زنزانتنا داخل السجن الانفرادي، بأن هناك شيئاً ما غير اعتيادي. ذلك لأن حركة غير اعتيادية دبت في ممرات السجن وأن المدير تجول وتفقد الوضع في السجن. وكان يظهر مرتبكاً. كانت جولته هذه مختلفة عن الجولات السابقة. في الماضي لم يحدث أن يتجول في مثل هذا الوقت، بل كان يتجول ويفتح الأبواب حوالي منتصف الليل أو بعيده، بعد أن يكون قد خرج من ناد للشرب والقمار. وكان يدخل غرف الانفرادي صارخاً شاتماً ضارباً. لكن جولته اليوم لم تقترن بشيء من العنتريات والاعتداءات. ما السر وراء ذلك؟

نشأت حسحسة بين السجناء أيضاً. وادعى البعض من ذوي السمع المرهف أنه يسمع ضجيجاً وهتافات خارج السجن، في مدينة بعقوبة نفسها. كان هناك لغز بالنسبة إلينا. ولم يحله لنا سوى صديقنا السجان السيد، الذي وصلنا ليهمس من فتحة باب زنزانتنا قائلاً:

ـ صارت الثورة وطار الملك! صارت جمهورية!

إذن هي الثورة. فرحة كبرى تغمر القلب ولا يجد المرء من الكلمات ما يعبر بها عنها.. أحاسيس لا يمكن أن توصف. إنها الثورة،

التي بها تغنينا ومن أجلها ناضلنا وضحينا.. من أجلها دخلنا السجن وصمدنا أمام الإرهاب والتنكيل وتحملنا العيش في جحيم جبار أيوب ومحمد سعيد شهاب وعلي زين العابدين.. فيا لها من بشرى عظيمة. السجين السياسي يحس الآن، في هذه اللحظات التأريخية المباركة، بما لم يتحسسه يوماً. يحس بزهو لم يسبق مثيله. فقد أثمرت جهوده وجهود رفاقه، الذين بشروا بالثورة وتنبأوا بحتمية حدوثها وناضلوا بجرأة ونكران ذات من أجل انتصارها. ربما شعر في يوم ما، قبل هذا اليوم العظيم، بالإرهاق والانزعاج والإرهاب جراء السجن والعذاب. جاء الحرمان من متع الحياة الاعتيادية بسبب حبسه وراء هذه القضبان الحديدية اللعينة. لكن كل إحساس من هذا القبيل قد تبخر الآن. فهو مسرور وفخور بنفسه. صمد وتمسك بقضية شعبه وبأمل الخروج من السجن في يوم ما مرفوع الرأس معتزاً.

تواترت الأخبار تدريجاً وتكاثرت المعلومات حتى تكونت لدينا لوحة لما حدث في بغداد: ثورة قام بها الجيش وجمهورية ولدت في صبيحة هذا اليوم. إلى جهنم وبئس المصير أيها النظام الملكي العميل! لنا الفخر في أننا وضعنا أمام الشعب مطلب إسقاطك منذ ١٩٥٢ وناضلنا من أجل قيام الجمهورية.. مرحباً بك أيتها الجمهورية الفتية المنبثقة من إرادة الشعب ومن نصره المبين.

بقدر ما فرحنا نحن بالثورة حزن بها مدير السجن وأمثاله من صغار أعوان النظام. هم كانوا يعرفون في الساعات الأولى أكثر مما عرفناه. عرفوا أن الوصي والملك قتلا. ولكنهم كانوا يعيشون في الأمل بعودة نوري السعيد، الذي أفلت من قبضة الثوار، إلى الحكم وإعادة المياه إلى مجاريها. جاء المدير وقت الضحى وتجول من جديد في غرفنا، وهو مرتبك ومذعور. وقال بلهجة من تهدده شر مستطير:

ـ لا تفرحوا كثيراً.. فالمسألة لم تنته بعد. غداً سيعود نوري السعيد على رأس قوة عسكرية ويستعيد السلطة من جديد ـ لم نجبه ولم

نناقشه لأننا لم نكن على معرفة دقيقة بما جرى ويجري في العاصمة وكل البلاد. فقط طالبناه بفتح أبواب الغرف والسماح لنا بالالتقاء والاختلاط مع بعضنا. ورفض طلبنا مدعياً أن للسجن نظاماً تجب مراعاته.

انقضت ساعات النهار كلها ونحن في غمرة الفرح ونريد أن نعرف المزيد والمزيد من الأحداث. وحل الليل في صمت دون أن نحس به، كما لو كان لصاً ماهراً. صدقوني أنني لم أنم ولا لحظة واحدة في تلك الليلة. ظللنا نناقش ونحلل ونعلق، أنا وزكي وآرا ومهدي، حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ثم تمددنا بزعم أننا نريد أن ننام. لكن النوم أصبح من المستحيلات في تلك الليلة، بالنسبة إلى الكثيرين منا. الثورة الظافرة أراحت أعصابنا وعوضتنا عن تلك الراحة التي يحتاج إليها المرء ويكسبها جراء تخدر خلايا مخه ـ أي جراء النوم. أظن أن حالتي كانت حالة رفاقي الثلاثة في الزنزانة، وكانت حالة الغالبية الساحقة من السجناء الشيوعيين في تلك الليلة.

لا أخفي أننا كنا قلقين أيضاً من بقاء نوري السعيد حياً طليقاً خارج قبضة الثوار. فهو كان عميد الرجعيين المعترف به محلياً وخارجياً. لكن الفرحة قد استكملت في اليوم التالي، حين سمعنا أن نوري السعيد قد قتل على أيدي الجمهور المتظاهر في شوارع العاصمة الثائرة.

قامت الثورة وسقط النظام الملكي بضربة خاطفة وانتهى الوصي على العرش عبد الإله وعميد الرجعيين نوري السعيد دون أن يكون لهما دفن وقبر. سحلا في الشوارع ومزقا إرباً ولم يبق منهما ما يمكن دفنه. هذا شيء غير اعتيادي، غريب بالطبع ومخالف للتقاليد السائدة عبر القرون المتلاحقة.. ولكنه هو ما حدث. وقد كتب عنه الكثير من جانب عراقيين وعرب وأوروبيين، كلهم استنكروا السحل وبكوا لهؤلاء وألقوا التبعة على الشيوعيين، وأحياناً على الرعاع و «الفوضويين الوحوش».. لكن أحداً لم ينصف، لا الشيوعيين ولا الشعب. فقد نظروا إلى هذا

الحادث وكأنه وقع في بلد تسوده الحضارة وحكم القانون ويتمسك فيه المواطنون جميعاً بالقوانين. وتناسوا أن ما حدث من سحل وتمزيق للجثث لم يكن قرار أي حزب سياسي أو مسؤول حزبي، بل جاء بصورة عفوية وكرد فعل شعبي لما قام به هذان الشخصان إزاء شعبهما وبلدهما طوال عشرات السنين. إنه كان انفجاراً لحقد الألوف من الناس في بلد متخلف محروم من الحقوق القانونية والحريات الديمقراطية، بلد لم يحترم حكامه القانون يوماً. لو حكم هذان الحاكمان وفق القانون ولو كانت هناك دولة القانون لأمكن تلافي الانفجار الشعبي بهذه الشدة، وجاز توجيه اللوم العنيف إلى من قاموا بالسحل والتمزيق. ومن المعلوم أن الأوساط الغربية الحاكمة كانت تلتزم الصمت الدائم تجاه تجاوزات نظام الحكم الملكي بحق الشعب العراقي ولم تتذكر أن السحل عمل وحشي إلا بعد أن تعرض أعوانها للسحل. أنا لم أكن يوماً من مؤيدي السحل، ولكني أفهم، وأدعو غيري إلى أن يفهم، الأحداث التي شهدها العراق في تلك الفترة بالارتباط مع ظروفها الواقعية الملموسة، ظروف التخلف الاجتماعي العام في بلد مارس فيه هؤلاء شتى أشكال الظلم والإرهاب بحق الشعب. فكيف لا يتوقع المرء أن يثأر بسطاء الناس لأنفسهم ولأبنائهم وأقاربهم؟ وما الذي يمكن توقعه غير السحل والتمزيق لجثة حاكم مثد صدام التكريتي، فيما لو أسقط اليوم جراء انتفاضة شعبية أو ما شابه، وهو الدكتاتور الذي ارتكب كل هذه الجرائم بحق أبناء العراق؟

بقيت في السجن أسبوعين كاملين بعد انتصار الثورة، زارني خلالها رفاق وأصدقاء، بضمنهم أبناء القرى في منطقة قره داغ، الذين كانوا جميعاً شيوعيين أو متعاطفين مع ح ش ع. كانت هناك لجنة لدراسة قضايا السجناء السياسيين والإفراج عنهم تباعاً، بوجبات. وقدر لي أن أكون ضمن وجبة ٢٨ تموز ١٩٥٨. وقد خرجت مع صديقي الشاعر عبد الله كوران وأخذتنا سيارة أحد الرفاق من باب السجن إلى

بغداد، عاصمة الثورة والانطلاقة الشعبية الكبرى. أية مشاعر يمكن أن تنشأ وأية عواطف يمكن أن تجيش في صدر رجل كان بالأمس محكوماً عليه بالسجن المؤبد، قابعاً في زنزانة السجن الانفرادي وراء القضبان، وها هو اليوم يسير بكامل حريته في بغداد، المدينة التي كان يسير فيها مختفياً حذراً حتى قبل أن يسجن؟

في بغداد كان سلام عادل (حسين أحمد الرضي) في انتظاري وأخذني إلى بيت حزبي في حي الصليخ كانت تسكنه عائلة الصفار المكونة من الشاب الشيوعي كاظم الصفار وأخيه الصبي وأخواته الثلاث وأمهم العجوز الطيبة. كانت عائلة شيوعية ضحت وعانت واستشهد ابنها عواد في إحدى المظاهرات السابقة. وأقام معها جمال الحيدري في النجف يوم كان مسؤول منظمة راية الشغيلة المنشقة.

خلال الأيام الأربعة التي قضيتها في بغداد التقيت بالعديد من الرفاق والأصدقاء، بضمنهم البعض من الأهل والأصدقاء في السليمانية. وأتى إليّ خالي المعمم مصطفى القره داغي ببدلة ملابس كردية. وكنت ألتقي يومياً مع السكرتير سلام عادل، الذي أبلغني منذ أول لقاء بأني أصبحت عضواً في المكتب السياسي. وقال في نفس اللقاء:

ـ كيف كانت علاقاتكم مع رفاق تنظيم راية الشغيلة المسجونين؟

ـ دمجتنا إدارة السجن مع بعضنا قبل أن نقرر بأنفسنا الاندماج.

ـ ارتحت من موقفك حين كنا نناقش قضية التوحيد. اتخذت وحدك، بين السجناء هناك، الموقف الصحيح من قضية الانشقاق وسبل معالجتها.

في أول اجتماع حضرته للمكتب السياسي وجدت نفسي إزاء تركيبة لم تخل من الغرابة ـ بالنسبة إليّ. فهو كان يتكون من سلام عادل وجمال الحيدري وعامر عبد الله. كان هذا الأخير إلى ما قبل خمس سنوات، أي إلى حين اعتقالي في ١٩٥٣، مجرد صديق أو مؤيد نشط

للحزب ولم يكن عضواً ولم ينظم في أية خلية حزبية ولم يتعلم شيئاً من أمور الحزب الداخلية. وكان جمال الحيدري على رأس المنشقين في راية الشغيلة حتى ١٩٥٦، فضلاً عنه أنه كان من جماعة شورش - الحزب الشيوعي الكردي - بين ١٩٤٥ - ١٩٤٦. ومع ذلك التزمت الصمت ولم أثر شيئاً، خاصة بعد أن وجدت قدراً مناسباً من الانسجام داخل الهيئة في تلك الأيام. والأهم من ذلك أن المد الثوري المتصاعد وضع الجميع وسط نشاط يومي كثيف لحد الإغراق.

عدت بعد بضعة أيام إلى مدينتي الحبيبة السليمانية - التي فيها خطوت أولى خطوات النشاط السياسي. كنت في إحدى السيارات وبرفقة عدد من السيارات التي وجد فيها رفاق وأقارب. ولم تكن لدي فكرة عن الاستقبال الذي سأحظى به، أنا والرفاق السجناء العائدين إلى السليمانية، إلى أن وصلنا مدينة الدوز حيث وجدت عدداً هائلاً من السيارات القادمة من كركوك والسليمانية وقصبات عديدة لاستقبالنا. وفي كركوك ألح علينا الشيخ علي الطالباني لكي نأخذ قسطاً من الراحة وتناول الشاي والطعام عنده. استجبت وذهبنا إلى (تكيته) التي كنت قد دخلتها ذات مرة سابقاً، أيام اختفائي في كركوك عام ١٩٤٩. وعندما غادرنا كركوك لاحظت أن عدد سيارات المستقبلين أخذ يزداد بإطراد مع اقترابنا من السليمانية، حتى غدا يعد بالمئات. وفي الطريق استوقفني آمر حامية السليمانية وجارنا في الحي منذ القديم العقيد نوري معروف وألحّ علي لكي أنتقل إلى سيارته العسكرية المكشوفة وأقف إلى جانبه خلال المدة المتبقية نحو المدينة. وعند الاقتراب من المدينة وبعد دخولها، فوجئت مرة أخرى بما لم أتوقعه مسبقاً. كان عدد المستقبلين المصطفين على جانبي الطريق أكثر بكثير من عدد سكان المدينة نفسها. كان هناك نهر بشري عظيم صاخب فائض كفيضان نهر في أسفل جبل قنديل عند زوبان الثلوج في موسم الربيع. كان استقبالاً فريداً من نوعه في تأريخ السليمانية، اشترك فيه إلى جانب سكان المدينة جمهور غفير من سكان

سائر مدن وقصبات وقرى المحافظة. وقد شارك فيه منتسبو وأصدقاء الپارتي وكذلك الناس الذين لم يرتبطوا يوماً بأي نشاط سياسي. وكنت أعرف أن هذا الاستقبال الكبير المتقد حماساً هو تعبير، قبل كل شيء، عن النفوذ الشعبي الكبير للحزب الذي تشرفت بالانتماء إليه، وتعبير عن تقدير الجمهور لي شخصياً بوصفي مناضلاً شيوعياً ثابتاً وصامداً ومتمسكاً بالأهداف والمثل العليا للجماهير نفسها.

تحت إلحاح الرفاق والجمهور المتحشد ألقيت كلمة موجزة من شرفة فندق وسط المدينة، قلت فيها:

ـ أنا ابن مدينتكم هذه فخور بكوني عضواً في ح ش ع وأجد في استقبالكم لي بهذه الصورة الحماسية تعبيراً عن حبكم وتقديركم للحزب الذي انتميت إليه وأخلصت له. والذي أستطيع أن أتعهد به أمامكم هو أنني سأبقى ابناً مخلصاً لهذا الشعب، للطبقة العاملة وكل الكادحين، أميناً لأهداف الحزب والشعب.

اقترح بعض الرفاق أن يرتبوا لي بيتاً كبيراً مناسباً لأقيم فيه بعض الأيام واستقبل الزوار المهنئين بإطلاق سراحي. لكني أخذت بنصيحة أحمد غفور، الذي قال لي أن الأفضل أن أقيم في شبه الكوخ الذي كنت أسكنها مع عائلتي قبل اختفائي، ولا تزال العائلة تسكنها، وأن استقبل المهنئين في باحة الجامع الفسيحة الموجود بجوارنا.

خلال الأيام الأربعة أو الخمسة، التي قضيتها في السليمانية، زارني عدد هائل من الأصدقاء وأهالي المدن والقرى بضمنهم المعارف الذين فارقتهم منذ عشر سنوات أو أكثر. لكن أغرب زيارة لي كانت زيارة منظمي الحزبي السابق حميد عثمان. فقد جاءني أحد مسؤولي منظمتنا الشيوعية في السليمانية ليقول لي:

ـ يود أحد مسؤولي الپارتي أن يزورك زيارة خاصة ويتحدث إليك في لقاء ثنائي بينكما.

ـ فليتفضل إلي بعد الظهر، وعلى الرحب والسعة. هاته إلى البيت مباشرة.

أتاني الرجل في الموعد المحدد وإذا به هو أبو خسرو ـ حميد عثمان ـ بلحمه ودمه. كان ظهوره على هذه الشاكلة مفاجأة لي. ولم يكن لديه شيء جدي ذو طابع مستعجل للتباحث بشأنه. ربما رغب في أن يعرّف نفسه بي كأحد قادة الپارتي وحسب. وبالنسبة إلي كان ذلك ثالث لقاء، أو ثالث فترة من اللقاءات مع حميد عثمان. في الفترة الأولى، أوائل ١٩٤٩، كان هو سكرتير منظمة السليمانية وكنت أنا واحداً من كوادرها الفعّالة. وفي الثانية التقينا في سجن نقرة سلمان عام ١٩٥٣، يوم كان قد أنشأ جمهوريته الشعبية وأسس نواة قواته المسلحة من حملة السيوف السجناء. وها نلتقي اليوم من جديد، بعد ثورة ١٤ تموز، وهو يزورني بصفته أحد قادة الپارتي وأنا أحد مسؤولي ح ش ع.

قبل أن أتعرف على أوضاع المدينة والناس عن كثب وقبل أن تخف موجة الزيارات المكثفة إليّ تلقيت برقية من سلام عادل طلب مني العودة الفورية إلى بغداد. فامتثلت للأمر وغادرت السليمانية نحو العاصمة.

منذ استئناف نشاطي الحزبي، إثر خروجي من السجن، عهد إلي بقيادة العمل التنظيمي في الحزب. وباقتراح من سلام عادل شكلنا في وقت لاحق ل ت م (لجنة التنظيم المركزية) التي كنت مسؤولاً عنها منذ أيلول ١٩٥٨ وحتى تشرين الأول عام ١٩٦٠، أي لحين مغادرتي العراق. وقد استفدت في العمل التنظيمي من تجربتي السابقة، بيد أن مستجدات الوضع حملت معها تعقيدات غير قليلة. ففي الماضي كنا نعمل في ظروف الإرهاب الشديد والملاحقات المتواصلة. وفي الظروف المستجدة أصبح نشاطنا شبه علني في ظروف توقف الملاحقات ـ على الأقل موقتاً. في الماضي كان علينا أن ننظم العشرات أو المئات في

مدينة كبغداد. وفي الظروف المستجدة غدونا أمام مهمة تنظيم الألوف وعشرات الألوف. فالإقبال على صفوف الحزب كان واسعاً جداً من شتى الطبقات والمراتب الاجتماعية. ولم يكن من السهل استيعاب هذا العدد الكبير على أسس صحيحة. وكانت إحدى المشاكل الجدية أمامنا، التي كشفت عنها ظروف وثبة كانون ١٩٤٨ والمد الثوري الذي أعقبها، هي التعامل مع العدد الهائل من الوصوليين والنفعيين ذوي الطموحات الشخصية الذين كانوا يدقون أبواب الحزب ويلحون في الانضمام إلى صفوفه ظناً منهم بأنه أصبح حزباً حاكماً أو على وشك ذلك وأن الانضمام إليه طريق إلى نيل مراميهم الخاصة في الحصول على المناصب والامتيازات الشخصية. كان هؤلاء شيوعيين أكثر من الشيوعيين السابقين!

كان لنا كادر محدود العدة والتجربة، رغم أن انتصار الثورة وفر للحزب فرصة تأريخية فريدة لتجميع كوادره لأول مرة في تأريخه، بضمنهم من كانوا في السجون والمنافي الداخلية والخارجية. كان كادرنا أقل بكثير من أن يستوعب المد المتصاعد وما ترتب عليه من مهمات سياسية وتنظيمية، في وقت أصبح الحزب قائداً سياسياً معترفاً به من لدن أغلبية الشعب. فكيف العمل من أجل حل مشكلة الكادر الحزبي؟

حاولت قدر المستطاع أن أبرمج العمل التنظيمي وأضمن تطور التنظيم بشكل متناسق من الناحيتين العددية والنوعية. ومن هذا المنطلق تقرر:

١ ـ منح العضوية لجميع الذين كانوا مرشحين للحزب قبل الثورة، دون أن ننتظر انتهاء فترة الترشيح.

٢ ـ تحديد النسب المسموح بها للترشيحات والقبول في الحزب بشكل يضمن نسباً مئوية معقولة للعمال والفلاحين ويجنب الحزب من الإغراق بالعناصر المتحدرة من المثقفين وبعض الفئات الاجتماعية الأخرى.

٣ ـ اتخاذ الإجراءات المناسبة لغرض تطوير شبكة الكادر الحزبي وفق متطلبات الوضع المستجد. وقد أصدرنا رسائل ونشرات داخلية في خدمة هذه الوجهة. كما كنا نقيم دورات تثقيفية قصيرة أو اجتماعات مطولة ندعو إليها المسؤولين المحليين من مختلف المدن والمحافظات بهدف التثقيف وتوضيح سياستنا كما كنا نقوم بزيارات إشراف واسعة زرت خلالها، ولأول مرة تقريباً، جميع مراكز المحافظات وعدداً من الأقضية والقصبات.

أذكر بهذه المناسبة أول زيارة لي إلى النجف لغرض الإشراف الحزبي، حين وصلت البيت الذي اجتمعت فيه لجنة القضاء وأحصيت الحاضرين فوجدت أن أحدهم متغيب عن الاجتماع. سألت عن سبب الغياب فأجابني سكرتير اللجنة:

ـ إنه لم يدع إلى الاجتماع بسبب كونه معاقباً.

ـ ولماذا عوقب؟

ـ ارتكب مخالفة.

ـ هل لي أن أعرف نوع المخالفة التي ارتكبها؟

ـ نعم بالطبع! أنه شرب مشروبات كحولية وسكر.

ـ وماذا شرب؟

ـ شرب البيرة.

ـ وهل سكر من شرب البيرة؟

ـ كلا، لم يسكر في الواقع ولكنه كان واضحاً أنه شارب.

أبديت عدم ارتياحي من هذه العقوبة وتوسطت لديهم كي يلغوها. وقلت: لو عوقب كل من سمح لنفسه بشرب البيرة لكنت أحد المعاقبين لأني شربت البيرة بل أكثر من البيرة، أيام ما بعد خروجي من السجن. رغم أني لم أذق البيرة ولا العرق أبداً قبل دخولي السجن. وقد شربت

مرتين أو ثلاثاً بعض النبيذ، بناءاً على توصية الطبيب عام ١٩٥١، حين كنت أعاني من فقر الدم والضعف بسبب مرض الدزانتري. لكني لم أستطع الاستمرار عليه وكففت عن شربه فعلاً. في الماضي كان للمجتمع رأي سلبي تجاه من يتناول المشروبات الروحية.. لكن الوضع قد تغير وأصبح بالإمكان، في الظروف المستجدة، تناول المشروبات ورفع الأنخاب في بيوت عديدة، بضمنها بيوت الشيوعيين من بعض سكان المدن.

في تلك الأيام مارسنا نشاطاً شبه علني تنظيمياً واستخدمنا مكاتب البعض من رفاقنا المحامين والأطباء وغيرهم أشباه مقرات لتمشية أمورنا الحزبية اليومية ولعقد اللقاءات والاجتماعات، دون أن يكون لنا مقر حزبي رسمي. وظللنا نستخدم بيوتنا الحزبية لاجتماعات مع الرفاق المستقدمين من خارج بغداد وكذلك لمبيتهم وإطعامهم. كنا نقوم بنشاط حزبي ـ سياسي مكثف. وكان يوم العمل يمتد عندي ـ شأن رفاق آخرين ـ ١٦ ساعة أو أكثر. ولم تكن لدينا تغذية جيدة ولا ظروف صحية مناسبة. ولكننا كنا في وضع نفسي جيدا جداً.. أتذكر أنني شعرت بالإرهاق والوهن ووجدت من الضروري أن أراجع الطبيب. فذهبت إلى عيادة الطبيب الشيوعي مهدي مرتضى وتعرفت عليه لأول مرة. كنت مصاباً بالدزانتري ـ المزمن. وخلال الفحص تبين أن وزني لم يزد عن ٥٣ كغم مع أن طولي كان ١٧٥ سم.

تأخر إطلاق سراح زوجتي مادلين لبعض الوقت. وبعد إخلاء سبيلها استأجرت داراً مناسبة في الكرادة الشرقية لقاء ١٦ ديناراً في الشهر وأبقيتها في وضع شبه سري لأسباب أمنية، لتلافي عصابات الاغتيال. وأصبح ابني سلام مع والديه، لأول مرة في عمره، بعد أن كان سابقاً مع والدته في السجن. ولسلام، الطفل الذي ولد وتربى في السجن، قصص لا تحدث إلا لطفل في مثل ظروفه. فهو عاش السنوات الخمس الأولى في السجن النسائي تصور خلالها أن العالم كله عبارة

عن مبنى السجن الصغير ذلك والجدران المحيطة به، لأنه لم يشهد شيئاً آخر من هذه الدنيا الفسيحة. في السجن رأى السجينات ومديرة السجن والسجّانات وربما السجّانين أيضاً في بعض الأحوال. كما رأى الحمامات والقطط ولا شيء سواها. ولما شهد ذات يوم حماراً يدخل السجن حاملاً بعض ما اشترته الإدارة استغرب وصرخ:

- شوفوا، شوفوا، شلون بزونة كبيرة!

- مو بزونة يا سلومي! - أجابت السجينات، وهن يضحكن.

- لعد شنو؟ حمامة؟

غادر السجن لأول مرة بصحبة امرأة صديقة من المواجهات، أخذته إلى منزلها. لم يتصور الطفل، وهو يدخل منزل المرأة، إلا الانتقال من سجن إلى سجن آخر، فيتجول في الغرف واستغرب من أن تكون كلها فارغة. فما كان منه إلا أن يسأل:

- خاله! وين السجينات؟ (ليش) القواويش كلها فارغات؟

كان من الصعب على تلك المرأة أن تفهمه بأن هذا بيت وليس سجناً. وكان يجب الانتظار لكي تعلمه الأيام. وعندما حل المساء أخذته المرأة إلى قاعة إحدى السينمات. هناك رأى الازدحام فعلق قائلاً:

- أيابا! شلون مواجهة مزدحمة!

وحين مل الجلوس في السينما ولم تعجبه الصور المتلاحقة على الشاشة قال:

- وينها مديرة السجن؟ خلي تجي تفض المواجهة.

كانت الدنيا كلها في نظر الطفل سلام بين سجين وسجان. ولم يكن هناك فريق ثالث.

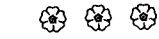

رغم التضييق على قبول طلبات الانتماء فإن تنظيمات الحزب كانت تنمو وتتسع بسرعة قياسية وشملت جميع المدن والقصبات ونسبة كبيرة من المناطق الريفية أيضاً، كان الحزب سيد الشارع غير المنازع. وكان بمستطاعنا أن نقيم تظاهرة جماهيرية كبرى خلال ساعة أو ساعتين لتسير في بغداد وليزيد عدد المشاركين فيها عن المئة ألف متظاهر. كان يكفي أن نخابر مسؤولي خطوطنا التنظيمية تلفونياً لكي نحشد جمهوراً هائلاً.

عقب انتصار ثورة تموز شكل عبد الكريم قاسم وزارة جديدة وأشرك فيها ممثلي جميع الأحزاب المشتركة في جبهة الاتحاد الوطني، باستثناء ح ش ع. كان هذا الاستثناء بالطبع موقفاً متعمداً من قاسم. غير أن هذا الإجراء الخاطىء لم يقلل من شعبية حزبنا، الذي ظل موضع الحسد من لدن الأحزاب البرجوازية، التي لم تفلح في استمالة الجماهير إلى جانبها. كان كل من حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي مكتفياً بتوجيه الانتقادات المريرة، بهذه الصورة أو تلك، إلى الشيوعيين وأحياناً العمل على تحريض السلطة ضدهم ولتقليص نشاطهم. وحين منح امتياز أول جريدة قانونية لنا ـ بعد حوالي ستة أشهر من انتصار الثورة ـ وبعد صدور أولى إعدادها (أعني جريدة اتحاد الشعب) قرر وزير الأعلام حسين جميل، وكان سكرتير الحزب الوطني الديمقراطي آنئذ، غلقها دون أي مبرر منطقي وبالضد من كل القيم والمفاهيم الديمقراطية التي كان حزبه من حملة لوائها. وقد ألغى القرار بتدخل مباشر من قاسم نفسه.

أما حزب البعث، الذي كان عضواً في جبهة الاتحاد الوطني منذ تأسيسها في شباط ١٩٥٧ وكان حليفاً للشيوعيين حتى ثورة تموز ١٩٥٨، فإنه اختار طريقاً مغايراً للتعامل مع ح ش ع ـ طريق الإرهاب والاغتيالات الفردية. وأظن أنه كان يعدل عن هذا الطريق فيما لو آمن بالديمقراطية أو كان على ثقة بقدرته في التغلب على الشيوعيين خلال التنافس السلمي لكسب الجماهير. لقد أصبحت سياسة الاغتيالات

الفردية ضد الشيوعيين هي السياسة الرسمية لحزب البعث. وكان من أوائل الضحايا لهذه السياسة الكادر الشيوعي التكريتي النشط الحاج سعدون، الذي اغتيل على يد ابن خالته البعثي صدام حسين التكريتي. وانحازت عناصر كثيرة من أجهزة الحكم الموروثة من العهد الملكي والمتربية بروح العداء للشيوعية إلى جانب البعثيين ودعمت نشاطهم في الإرهاب والاغتيالات.

وفي وقت لاحق انحازت السلطة نفسها إلى جانبهم واتخذت من أجهزة الشرطة أداة حماية وتشجيع للمعتدي وملاحقة للمعتدي عليه. وقد حدث عشرات المرات أن اعتقل المعتدى عليهم أو المعرضون للاعتداءات فيما كان يترك الجناة والمعتدون دون أي ملاحقة. وارتكبنا نحن خطأ فاحشاً حيث كنا نكتفي بالرد الإعلامي على هذه الاعتداءات وبمطالبة السلطة، المتواطئة مع المعتدين، بأن تتخذ الإجراءات، في وقت كان بإمكاننا ومن حقنا الشرعي أن ندافع عن أنفسنا على أساس المقابلة بالمثل. وكان لدينا من الحول والقوة ما يضمن تأديب المعتدين وردعهم. من المؤكد أن اللجوء إلى الاغتيالات لم تكن دليل القوة ولم تكن أسلوباً صحيحاً في الصراعات الحزبية ـ السياسية. وكان لا بد من فضحه واستنكاره ـ وهذا ما فعلناه ـ ولكن مع ردع المعتدي وتأديبه بنفس الأسلوب الذي يلجأ إليه، عندما لا يجدي الاستنكار.

لعبت جبهة الاتحاد الوطني، كتجسيد فعلي لتحالف الأحزاب والقوى السياسية المناوئة للاستعمار وللنظام الملكي، دوراً سياسياً أساسياً في النضال من أجل انتصار الثورة. لكن الجبهة قد تفككت عملياً، دون إصدار أي قرار بالتفكيك بعد انتصار الثورة مباشرة. وفسرت هذه الظاهرة تفسيرات مختلفة باختلاف الأحزاب والأشخاص. وألقى كل حزب تبعة تفكك التحالف على غيره، وبالأخص على الشيوعيين الذين اتهموا باحتكار حق النشاط السياسي والنقابي لأنفسهم

وحرموا غيرهم من ذلك. ولا بد من الاعتراف بأن نزعة الاحتكار كانت موجودة لدى الشيوعيين، كما كانت موجودة لدى سائر الأحزاب دونما استثناء. غير أن السبب الحقيقي لتفكك التحالف، في ظروف العراق الملموسة آنئذ، إنما يتمثل في حقيقة أن نقطة الاتفاق الرئيسية لقيام التحالف قد انتفت بعد أن تحقق الهدف الرئيسي للجبهة ـ إسقاط النظام الملكي ـ وأزيل الخصم المشترك، الأمر الذي دفع نقاط الخلاف ـ التي كانت ثانوية قبل الثورة ـ إلى المقدمة في علاقات تلك الأحزاب مع بعضها. فالبعثيون ما كانوا راضين بأقل من أن يصبحوا على رأس السلطة، رغم أنهم كانوا حزب أقلية ضئيلة. وبعض الأحزاب البرجوازية اللبرالية لم يرد أكثر من توطيد وتحسين النظام الجديد، مع التركيز على إضعاف نفوذ الشيوعيين. وح ش ع، الذي كان ذا نفوذ شعبي واسع جداً، ضل الطريق بين ما كان يرغب فيه بأغلبيته الساحقة وبين ما ترتضيه القيادة السوفيتية. وسط هذه التعقيدات كان من الصعب جداً بعث الحياة في جبهة الاتحاد الوطني، ولهذا انتهت المساعي بهذا الصدد إلى الإخفاق التام، بما في في ذلك مساعي ح ش ع لإقامة جبهة يسارية راديكالية مغايرة للتحالف السابق من حيث التركيب التنظيمي والأهداف معاً.

❀ ❀ ❀

كان للپارتي وضع مغاير عن وضع الأحزاب السياسية الأخرى. فهو لم يقبل في حينه ـ رغم مطالبة ح ش ع بقبوله ـ في جبهة الاتحاد الوطني لأن الأحزاب البرجوازية العربية كانت قد اتخذت تجاهها موقفاً قومياً شوفينياً معتبرة إياه حزباً انفصالياً. كان هناك ما يشد الپارتي و ح ش ع إلى بعضهما، رغم أن ذلك لم يستند إلى أي تعاطف من لدن الپارتي مع الشيوعية كعقيدة أو كحركة سياسية. من جهة أخرى كان التنظيم الوحيد المنافس للپارتي في ميدان نشاطه بين الجماهير الكردية هو ح ش ع. ولم يكن بمقدور أي من الأحزاب الأخرى أن يخوض

منافسة حزبية ضد البارتي في الوسط السياسي الكردي. وبالنظر إلى أن نفوذ ح ش ع كان أقوى بكثير من نفوذ البارتي بين الجماهير الكردية أيضاً فإن هذا الأخير كان يجد نفسه في موقف حرج وصعب إذ كان يتذبذب بين الأخذ بالتعاون مع الشيوعيين، من جهة، والرغبة في معاداتهم وإزاحتهم عن الساحة السياسية الكردية، من جهة أخرى. وكانت نزعة العداء تتجلى في المطالبة بحل التنظيم الشيوعي في كردستان العراق.

أظن أن الخلافات في صفوف البارتي، خصوصاً بعد ثورة تموز، كانت قد زادت من صعوباته وأثرت على مجرى علاقاته مع ح ش ع. وأسفرت الخلافات داخل البارتي نفسه عن تغيير في تركيب المكتب السياسي بشكل لم يضم في صفوفه ـ على ما أتصور ـ أياً من قادته ومؤسسيه القدامى باستثناء حمزة عبد الله، الذي ظل سكرتيراً له، والذي اعتبر ضمن العناصر اليسارية في القيادة. وقد دخل في تركيبة المكتب السياسي الجديد شيوعيون سابقون منضمون مؤخراً إلى البارتي كحميد عثمان ونجاة أحمد وخسرو توفيق وصالح الحيدري.

في ظروف المد الثوري المتصاعد وتنامي نفوذ ح ش ع أصبحت غالبية أعضاء قيادة البارتي مقتنعة بضرورة وجود علاقة ودية قائمة على شكل ما من التعاون مع الشيوعيين، فيما كنا نحن أيضاً مستعدين لمثل هذا التعاون. فعقد لقاء لهذا الغرض بين وفدين من قيادة كلا الحزبين في مكتب عامر عبد الله بشارع النهر. حضر من جانبنا سلام عادل وجمال الحيدري وعامر عبد الله وأنا. ومنهم عدد من القياديين بينهم نوري شاويس وجلال الطالباني. وبدأ الحديث وتبادل الآراء بصورة اعتيادية وودية، وأحياناً مع العتاب المتبادل. وحين أخذ جلال الطالباني الحديث بدا عصبياً واحتد دون مبرر منطقي وتهجم على ح ش ع وشبهه بالصهيونية. كانت هذه مفاجأة لنا، إذ كيف يمكن اللجوء إلى مثل هذا الأسلوب الاستفزازي إزاءنا في لقاء يستهدف عقد التعاون بين الحزبين.

وأظن أنها كانت مفاجأة لأعضاء وفد الپارتي أيضاً. ولم نجد نحن تفسيراً لها سوى رغبة الطالباني في خلق جو يتعذر خلاله التقارب والتعاون بين الحزبين. فاحتد سلام عادل بدوره وضرب بكفه على المنضدة، التي كنا جالسين حولها وقال بعصبية: «تأدب». وانسحبنا نحن جميعاً من الاجتماع تاركين وفد الپارتي وحده.

في اليوم التالي قدمت قيادة الپارتي اعتذاراً عن تصرفات عضو وفدها الطالباني وطلبت استئناف الحوار. واستجبنا للطلب واتخذت ترتيبات للحوار بأسلوب جديد. جرى الحوار اللاحق بين ممثلين للحزبين، بيني وبين إبراهيم أحمد. وفي جلسات معدودات تم الاتفاق الثنائي على مسودة ميثاق للتعاون الثنائي بين الحزبين. وكنت قد هيأت من جانبي المسودة واقترح إبراهيم أحمد تعديلات قليلة عليها. ثم عرضنا الوثيقة على قيادتي الحزبين وحظيت بالموافقة. وتجب الإشارة هنا إلى أنني وجدت أثناء لقاءاتي الثنائية مع إبراهيم أحمد اللين والمرونة لديه أكثر مما كنت أتوقعه. وربما كان ذلك بسبب سعة نفوذ ح ش ع في تلك الظروف.

كانت هناك مشكلة جدية مزمنة تخلق المتاعب أمام تحسن العلاقات وتطورها بين الحزبين طيلة أعوام متعاقبة ـ أعني مشكلة مطالبة الپارتي، أو مطالبة عدد من قادته، بحل التنظيم الشيوعي في كردستان. كانت هذه المطالبة قديمة قدم الپارتي نفسه. وكانت بالطبع منافية للقيم والمبادىء الديمقراطية وتجسيداً لنزعة الاحتكار لحق النشاط السياسي وفرض نظام الحزب الواحد في كردستان. ولم يكن ذلك مستغرباً في مجتمع متخلف كالمجتمع الكردي. غير أن ظروف ما بعد انتصار ثورة تموز أعطت هذه المطالبة بعداً جديداً وزادت من سلبياتها، خصوصاً عندما كانت تتخذ شكل مناقشات حادة في بلد متخلف خال من التقاليد الديمقراطية ولا يصعب تحول مثل النقاش فيه إلى صراعات دموية تستخدم فيها الخناجر والمسدسات بين أعضاء ومؤيدي كلا الطرفين.

وقد اختفت أو خفت هذه المشكلة خلال السنة الأولى من ثورة تموز، حيث كان النهوض الثوري العارم. ولكنها عادت إلى الظهور وأخذت طريقها إلى المناقشات الصحفية عند الطرفين، بعد أن غيّر قاسم نهجه نحو اليمين. وساهمت بقسطي في هذه المناقشات الصحفية، فكتبت مقالاً نشر بحلقات في صحيفة الحزب الكردية (آزادي) رداً على الپارتي وموضحاً ما يبرر وجود التنظيم الشيوعي وبطلان المطالبة بحله. وتساءلت في المقال ماذا سيكون موقف هؤلاء من الشيوعية والشيوعيين الأكراد إذا تسنى لهم الوصول إلى الحكم مستقبلاً، وهم ينكرون علينا اليوم حق التواجد ـ مجرد التواجد كتنظيم سياسي في كردستان؟

❀ ❀ ❀

عندما كانت الباخرة السوفيتية في طريقها إلى العراق، وهي تنقل الملا مصطفى البارزاني ومن معه إلى الوطن، أوصينا رفاقنا في مدينة البصرة بالمشاركة في تنظيم استقبال جماهيري مناسب للقادمين، الذين كانوا قد قضوا اثنتي عشر سنة من حياة المنفى في الخارج. وحين وصل الملا مصطفى نفسه إلى بغداد ذهبت مع عدد من قادة ح ش ع الآخرين إلى فندق سميراميس ـ محل إقامته المؤقتة ـ لزيارته والترحيب به. وكان ذلك أول لقاء بيني كسياسي شيوعي وبين الملا مصطفى.

بعد عودة البارزاني بحثنا في المكتب السياسي لحزبنا وضعه الشخصي والموقف منه واتفقنا بالإجماع أن الأمر الأفضل للجميع وللبارزاني شخصياً هو أن يبقى رجلاً لا حزبياً وشخصية سياسية مستقلة بعيداً عن الانتماء إلى أي حزب. وبدأنا ننشط بهذا الاتجاه ـ ولا أزال أعتقد أنه كان صحيحا ـ في لقاءاتنا ودعايتنا الشهفية. لكننا أخفقنا في تحقيق ما أردنا لأن قادة الپارتي لم يوافقونا، بل قاموا بنشاط مكثف لإقناع الملا مصطفى بأن يكون رئيساً لحزبهم. وكان الدافع الحقيقي وراء موقفهم هذا هو الشعور بضعف حزبهم والرغبة في استثمار شعبية البارزاني وسمعته الكبيرة لصالح عملهم الحزبي. ولا يمكن اعتبار ذلك

طموحاً غير مشروع من الوجهة الحقوقية المجردة. إلا أنه كشف في الواقع عن قصر نظر سياسي. بل يمكن القول أنه كان غلطة العمر بالنسبة لقيادة البارتي. ذلك لأن البارزاني عاش وترعرع في أجواء قروية عشائرية، رغم أنه كان مناضلاً سياسياً قومياً، ولم يتسن له فهم شيء من الحياة الحزبية، حتى بمفهومها العراقي، ولم يكن مؤمناً بها. فالحزب، بالنسبة إليه، كان أشبه بفخذ من العشيرة أو ما شابه، وليس شيئاً آخر.

وقد ارتكب القادة التقليديون ـ القدامى ـ وفي مقدمتهم إبراهيم أحمد خطأ جديداً فاحشاً عندما استعانوا بنفوذ البارزاني وسلطانه عام ١٩٦٠ للتخلص من سكرتير البارتي حمزة عبد الله ومن معه ممن اعتبروا يساريين، في ترتيب عملية شبه انقلابية أسفرت عن إزاحة فريق من المكتب السياسي وإعادة فريق آخر إليه. إن هذا التصرف، الذي وقف وراءه القادة القدامى، أباح للبارزاني حقاً ما كان من الصحيح أن يكون له، وأن المبادىء الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية قد انتهكت وديست تحت الحذاء. وبالتالي فإن من حل محل حمزة عبد الله سكرتيراً للبارتي كان معرضاً لأن يلقى في وقت لاحق نفس المصير.

في أيلول ١٩٥٨ شاركت في أول اجتماع للجنة الحزب المركزية بعد ثورة تموز. وبقرار من المكتب السياسي أشرك بعض الكوادر المتقدمة، منهم زكي خيري ومحمد حسين أبو العيس. لم يكن هناك تقرير مكتوب أمام الاجتماع. ألقى سلام عادل تقريراً شفهياً كنا قد اتفقنا على خطوطه العريضة وتضمن تحليلاً لطبيعة الثورة ـ من وجهة نظرنا ـ باعتبارها ثورة برجوازية ديمقراطية. وأكد أننا ندعم الثورة والسلطة الجديدة ضد الدسائس الامبريالية ـ الرجعية. وأشار إلى أن ح ش ع كان أول من رفع في هذه البلاد شعار الجمهورية، دون أن يشير إلى أن هذا الشعار قد اختفى في عهد قيادته. كنت أسجل ملخصاً بما يدور في

الاجتماع. وكلفت بعدئذ بصياغة التقرير الذي صدر باسم الاجتماع.

بعد ثورة تموز بدأنا نوسع قوام لجنة الحزب المركزية ومكتبها السياسي حتى بلغ العدد الإجمالي للأعضاء والمرشحين ٣٣ شخصاً ـ وكان ذلك رقماً قياسياً في تأريخ ح ش ع وحتى ذلك الوقت. وكان زكي خيري وأبو العيس وعبد القادر إسماعيل ـ الذي عاد من سوريا بعد أبعاد جاوز العشرين عاماً ـ وعزيز محمد من أوائل من جرى ضمهم إلى اللجنة المركزية. كما كان زكي وأبو العيس أحدث من ضموا إلى المكتب السياسي للحزب. وفي اجتماع اللجنة المركزية عام ١٩٥٩ جرى ضم عزيز محمد أيضاً إلى المكتب السياسي. وكنت ضمن من صوتوا لصالحه في الاقتراع السري.

أذكر بهذه المناسبة أن عضو اللجنة المركزية كريم أحمد الداوود قد غضب أشد ما يكون الغضب وقدم فوراً رسالة قصيرة أعلن فيها استقالته من عضوية الحزب. أطلعنا سلام عادل على قصاصة الورق المتضمنة استقالته. وكان السبب واضحاً لدينا: احتجاجاً على ضم عزيز محمد، بدلاً من ضمه هو كريم، إلى المكتب السياسي. كان يرى نفسه أحق بعضوية المكتب السياسي وكان يأخذ على عزيز كونه على رأس انشقاق جماعة الشغيلة سابقاً. ولم يهتم بمسألة أن الآخرين غير مقتنعين بإدخاله إلى المكتب السياسي. وكان سلام عادل مرناً وإيجابياً معه وبذل جهوداً مكثفة طيلة يومين كاملين حتى أقنعه في النهاية بسحب استقالته. وأظن أن موقف سلام عادل هذا كان خطأ، رغم أن الدافع وراءه كان الحرص على مصلحة الحزب. وكان الأفضل أن يترك كريم دون الضغط عليه والمساعي الكثيرة لإقناعه بالعدول عن رأيه ورغبته في الاستقالة.

في أحد اجتماعات ل م عام ١٩٥٩ طرح سلام عادل ترشيح عزيز الحاج إلى عضويتها وبرر ذلك بما لدى الحاج من كفاءات صحفية. وكان لي ولعزيز محمد موقف واحد: رفضت أنا ترشيحه وتحدثت بقدر

من التفصيل عن تخاذله في سجن بعقوبة وعن معرفة رفاق كثيرين بهذه الحقيقة. وحين انتهيت من تقديم الإيضاحات بهذا الصدد أعلن عزيز محمد قائلاً:

ـ أؤيد جميع ما أورده أبو سلام واتفق مع رأيه ضد ترشيح عزيز الحاج.

ومع ذلك حصل سلام عادل على أغلبية ثلثي الأصوات لترشيح شخص لم يكن مؤهلاً له ولم يمتلك أهم صفات القائد السياسي الثوري في بلد مثل العراق. ومن المؤكد أن عزيز الحاج كان يفيد الحزب بصورة أفضل وأكثر فيما لو أبقي خارج قوام اللجنة المركزية.

❀ ❀ ❀

بعد خروجي من السجن بأيام جلست من جديد وراء سكان السيارة. كنت أسوق لبعض الوقت سيارة كرسلر أمريكية أوتوماتيكية الكير، دون أن أملك إجازة السوق. وسقت فترة قصيرة سيارة أوستن إنكليزية اشتريت في حينه من ضابط إنكليزي في الحبانية. وكان سكانه في الجهة اليمنى ـ كما هي العادة في بريطانيا. وعندما قدمت طلباً للحصول على إجازة السوق كنت قد حسنت سياقتي وكنت واثقاً من أنني سأنجح دون أي واسطة، بخلاف زميلي جورج تللو، الذي كان قد تقدم هو الآخر بطلب الإجازة معتمداً كلياً لا على مهارته في السياقة، بل على رسالة من مدير شرطة بغداد طه الشيخلي إلى ضابط في شرطة المرور. وأذكر جيداً أن الضابط، الذي كان يمتحن تللو، قد سأله:

ـ لماذا تسخن ماكنة السيارة أكثر من الحد الاعتيادي؟

أجابه تللو، وهو يبتسم:

ـ طه الشيخلي يسلم عليك.

ـ يا له من جواب ميكانيكي رائع! ـ علق الضابط باسماً وسجل

لجورج تللو درجة النجاح لأنه كان موصى به من مرجع أعلى.

❀ ❀ ❀

أبان المد الثوري تعرفت على نوري شاويس ـ أحد قادة الپارتي ـ وتوثقت علاقات الصداقة بيننا. كان رجلاً طيباً خلوقاً ومن القلة النزيهة بين رجال محيطه. وكان أشبه برجل شذ بين أفراد عائلته، الذين كانوا جميعاً بين شيوعي وبين مؤيد لنا. وقد فاتحني في أحد لقاءاتنا برغبته في الانتماء إلى ح ش ع. فسألته: وكيف مع الپارتي؟ أجاب أنه سيتصرف حسب ما نطلب منه، بالبقاء في الپارتي أو الخروج منه. أمهلته لأعرض المسألة على سلام عادل. وفي حلقة ضيقة من أعضاء المكتب السياسي، بضمنها سلام عادل وزكي خيري وأبو العيس، ناقشنا القضية واتفقنا على ترشيحه لعضوية ح ش ع، مع بقائه بصلة فردية والحفاظ على سرية علاقته معنا. وصادق المكتب السياسي للحزب على هذا القرار. وبعد مغادرتي للعراق في خريف ١٩٦٠ انقطعت عن أخباره وعلاقته الفعلية بالحزب ولم أعرف شيئاً إلا في شباط ١٩٧٩، حيث التقيت به في مدينة برلين الشرقية (وكان آخر لقاء لي معه) وقال:

ـ أنا لا زلت ذلك الذي كنته في عهد قاسم (قصد انتمائه إلى الحزب). نقلت هذا الخبر إلى عزيز محمد أثناء لقائي معه إثر لقائي بشاويس.

يذكرني هذا بطلب مماثل قدمه رئيس نقابة المحامين السابق عبد الوهاب محمود لقبول انتسابه إلى الحزب الشيوعي ولكي يذهب إلى موسكو كسفير للعراق ـ معين من قبل قاسم ـ ويحمل صفة عضو الحزب. وفي حينه قبلنا انتماء عبد الوهاب أيضاً ونظمت له صلة فردية خاصة.

بهذه المناسبة أود التحدث ببعض الكلمات عن علاقة عبد الكريم قاسم مع ح ش ع. فقد أشيع ونشر الكثير عن أنه كان

شيوعياً وعضواً في الحزب تحت اسم مستعار هو (مطر). وردد هذه الإشاعة رؤساء دول ومسؤولون حكوميون وغيرهم.. وهي إشاعة لم تمت إلى الحقيقة بصلة. فهو كان ضابطاً وطنياً مستقلاً وتزعم الجناح الرئيسي من حركة الضباط الأحرار المستقلين في الجيش العراقي. وحدثني سلام عادل بأن قاسم كان على صلة مع ح ش ع عن طريق صديقه الشخصي الطيب رشيد مطلگ وأحياناً عن طريق الضابط الشيوعي الملازم حامد مقصود.

كان لماجد محمد أمين، المدعي العام في محكمة الشعب التي ترأسها فاضل المهداوي، صلة بالحزب على الأقل لفترة معينة، حسب اعتقادي. لكن المهداوي لم ينتسب يوماً إلى ح ش ع، شأنه شأن وصفي طاهر الذي كان من أقارب زكي خيري ومن أصدقاء الشيوعيين.

وبقدر ما يتعلق بجلسات محكمة الشعب وأسلوب المهداوي في المحاكمة ـ وهذا ما كتب عنه الكثير وبصورة غير موضوعية في أغلب الأحيان ـ فإننا، مسؤولي ح ش ع، كنا بين مؤيد دون أي تحفظ وبين مؤيد متحفظ ومنتقد في نفس الوقت ـ وكنت شخصياً من هذا الرأي الأخير. فالعلنية في جلسات المحاكمة ونشر وقائعها كما هي على الرأي العام مباشرة عبر الراديو والتلفزيون كانت من صميم الديمقراطية إذ كان بمستطاع الناس من مؤيدي السلطة ومن خصومها على حد سواء أن يطلعوا مباشرة على تفاصيل ما يجري. ويعرف الرجل المنصف قدر العلنية في جلسات المحاكمة عندما يقارن ما كان يجري في تلك الأيام بما أخذ يجري على أيدي الحكام البعثيين في السنوات الأخيرة حيث الاختطاف والاعتقال التعسفي والتعذيب الوحشي وقتل المئات والألوف تحت التعذيب وبأساليب هجمية حتى دون تسليم جثث القتلى لذويهم ودون إصدار كلمة واحدة عنهم. وفي عمليات الأنفال ضد كردستان عام ١٩٨٨ زاد عدد الذين قتلوا بصورة

همجية ودون أي محاكمة عن المئة ألف، أغلبهم من النساء والأطفال. إن مسؤولي حزب البعث وأعضاءه الذين قبض عليهم بتهمة التآمر أو بسبب مشاركتهم في محاولة اغتيال قاسم عام ١٩٦٠ قد حوكموا محاكمات علنية، على مرأى من الجميع، في محكمة المهداوي وتحت ظل حكومة قاسم. وكان لهم محامون يدافعون عنهم كما كان الناس يعلمون لماذا يدان هذا ويبرأ ذاك. في حين قتل رئيس الدولة قاسم ورئيس محكمته المهداوي والمدعي العام ماجد محمد أمين دون أي تحقيق أو محاكمة وبأساليب همجية.

فيما لو أجري استفتاء حر في عراق تلك الأيام لأيد أكثر من أربعة أخماس العراقيين محاكمات المهداوي. ولهذا فإنها كانت محكمة الشعب بحق. غير أن المهداوي كان يلجأ أحياناً إلى أساليب غير مقبولة في المحاكمات، إذا اعتمدنا المقاييس الحضارية في البلدان المتطورة ـ من قبيل تعليقاته الشخصية على أقوال المتهمين وما شاكل.

في إحدى جلسات المحكمة أدلى المتهمون ـ وكانوا من مسؤولي حزب البعث ـ بإفادات ومعلومات منافية للحقائق التأريخية، مستهدفين من ذلك نفي التهم الموجهة إليهم. ولما سمع عزيز الشيخ ذلك، وهو جالس في منزله يتفرج على التلفزيون، نهض غاضباً إلى حيث سماعة التلفون وخابر محكمة الشعب مكذباً ما قال هؤلاء ومبدياً استعداده للإدلاء بشهادته أمام المحكمة. وقد رحبوا به وطلبوا منه الحضور الفوري وسمعنا شهادته عبر التلفزيون. كانت مفاجأة لنا جميعاً. وأثارت السخط والاستنكار بيننا إذ لم يكن من تقاليدنا أن نسيء بأي شكل إلى ماضي هؤلاء في وقت كانوا في علاقة جبهوية معنا. كنا ننظر إلى ماضي البعثيين بشكل مغاير لحاضرهم كما كنا حريصين على ألا نكشف شيئاً من أسرار التحالفات السابقة بشكل يتضمن الإساءة إلى حلفائنا. وكان سلام عادل من المستنكرين الغاضبين على عزيز وتداول معنا عما يجب عمله. فاتفقنا على أن ننشر في صحيفتنا (اتحاد الشعب) شجباً لسلوك

عزيز الشيخ واعتذاراً عما حدث واستنكره كذلك سائر أطراف جبهة الاتحاد الوطني وطالبنا البعض بإجراءات أشد إلا أن الجادرجي قال أن ما نشر في جريدتنا يفي بالغرض.

❀ ❀ ❀

التقيت بكامل الجادرجي، لأول مرة، بعد ثورة تموز ١٩٥٨. زرته في منزله شبه الأرستقراطي بحي (الكسرة) في بغداد زيارة تعارف ومجاملة. وجدته لطيف المعشر أريحياً ومهتماً بمكتبته الكبيرة حريصاً على إغنائها. وفي معرض الحديث حول الوضع السياسي وما كنا نفضله من التطورات اللاحقة علق الجادرجي على سياستنا راوياً لنا القصة ـ أو النكتة ـ المتداولة بين البغداديين (لو سكينة لو زب الملا). وعندما أتى ابنه الشاب نصير، وكان عضواً في ح ش ع، ليقدم لنا القهوة قال الجادرجي بين الهزل والجد:

ـ أرجو أن تنصحوا ابني نصير لكي يتعامل مع أبيه بشكل ودي ولا يعتبره برجوازياً معادياً.

بالمناسبة كان وجود أولاد الرجال الوطنيين المناؤين للاستعمار ـ وأحياناً أولاد الشخصيات غير الوطنية أيضاً ـ إلى يسار آبائهم سياسياً وانتساب الكثيرين منهم إلى الحزب الشيوعي ظاهرة ملحوظة وعامة في عراق الأربعينات والخمسينات.

ولم يندر أن ينتسب أولاد الارستقراطية ورجالات الطبقة الحاكمة وبعض الإقطاعيين الكبار، من العرب والأكراد، إلى ح ش ع، بالضد من إرادة ورغبات آبائهم. وأنا أفسر تلك الظاهرة بشيئين: إشاعة الإرهاب والكبت وحرمان الشعب من ممارسة حقوقه الديمقراطية، من جهة، وصواب سياسة ح ش ع واتساع شعبيته، من جهة أخرى.

❀ ❀ ❀

قبل ثورة تموز جمع العداء للاستعمار وللنظام الملكي بين الضابطين الوطنيين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف في إطار حركة الضباط الأحرار. وأثناء تنفيذ الانقلاب، الذي مثل عملية عسكرية جريئة، عمل عارف تحت قيادة قاسم وبعد الانتصار أشغل عارف منصب المسؤول الثاني في الدولة. غير أن استلام السلطة سرعان ما أنهى العلاقة الودية وأحل محلها علاقة تصارع حاد بينهما كنتيجة لوجود خلافات فكرية ـ سياسية بينهما برزت إلى الوجود بعد زوال النظام الملكي ـ وكان عارف إلى يمين زميله قاسم سياسياً ـ من جهة والتطاحن على كرسي الزعامة من جهة ثانية. وفي مجرى هذا الصراع كان لا بد من أن يبحث كل منهما عمن يستند إليه ويحظى بتأييده من الأوساط والقوى السياسية الجماهيرية. وبحكم نزعته القومية اليمنية توجه عارف، بحثاً عن سند له، شطر الأوساط القومية اليمنية، وبالأخص شطر حزب البعث. فيما توجه قاسم شطر القوى الديمقراطية اليسارية، وخاصة شطر ح ش ع ذي النفوذ الشعبي الواسع، الأمر الذي ساعد على إقامة نوع من علاقات الود والتحالف ـ غير المكتوب ـ بين الجانبين، قاسم والشيوعين. وفي فترة تحالفه مع ح ش ع بالذات حق قاسم أهم منجزاته لتعزيز الاستقلال الوطني سياسياً واجتماعياً إذ خرج من حلف بغداد ومن طوق الاسترليني وشرع قانون الإصلاح الزراعي، مما زاد كثيراً من شعبية نظامه. وعلى أثر إخفاق عارف في محاولاته الرامية إلى تنظيم انقلاب عسكري جديد يضمن له الوصول إلى كرسي الحكم الأعلى تدهورت العلاقات بينهما حتى انتهت بإزاحة عارف وسجنه وتقديمه إلى المحاكمة. وبتحقيق النصر ازداد غرور قاسم وتعززت لديه النزعة الدكتاتورية العسكرية ـ الفردية. ولم يلبث أن أدار ظهره لحلفائه الشيوعيين وخفف من عدائه لخصومه القوميين.

وقف عبد الناصر بقوة ضد إبرام حلف بغداد وانضمام النظام

الملكي في العراق إليه. وخلال فترة معينة تزعم النضال القومي التحرري للأمة العربية ضد الاستعمار وأحلافه في المنطقة. ولهذا كان من الطبيعي ومن المهم أن يرحب ترحيباً حاراً وقوياً بثورة ١٤ تموز منذ ساعاتها الأولى. بيد أن الوقائع اللاحقة أوضحت بأن ترحيبه هذا لم يكن بمعزل عن رغبته في ضم العراق الجديد المتحرر لتوه إلى الجمهورية العربية المتحدة (المكونة آنئذ من مصر وسوريا) ضماً فورياً ودون أي مراعاة للأسس الديمقراطية. وفي العراق نفسه رفع حزب البعث شعار الوحدة الفورية أو الاندماج الفوري للوصول إلى الحكم وليس للوصول إلى الوحدة (فهو رفض أي وحدة فورية في فترات وجوده في الحكم). ولم نقف نحن ضد الوحدة ولكننا صغنا شعاراً أفضل وأكثر منطقية وتجاوباً مع متطلبات الظروف ـ شعار الاتحاد الفيدرالي. وطالبنا بأن يقوم الاتحاد على أسس ديمقراطية، مع مراعاة الخصائص التأريخية المحلية لكل قطر. وحظي موقفنا هذا بتأييد الغالبية الساحقة من الشعب العراقي وكذلك بتأييد نظام قاسم. ويمكن التأكيد على أن عبد الناصر قد ارتكب خطأ تأريخياً عندما أقدم على معاداة نظام قاسم و ح ش ع وأيد البعثيين وعبد السلام عارف وراهن على مطالبتهم بالاندماج الفوري. وحتى لو تسنى له دمج العراق في الجمهورية العربية المتحدة لكانت النتيجة في نهاية المطاف نفس ما حدث في سوريا عام ٩٦١.

❀ ❀ ❀

أقام نادي الأكراد الفيلية في بغداد حفلاً على شرف الملا مصطفى البارزاني إثر عودته من المنفى وعلى شرفنا نحن فريقاً من الشيوعيين الذين خرجنا من السجون إثر الثورة. وكان بين المدعوين فاضل المهداوي وماجد الأمين ووصفي طاهر. وقدموا في الحفل أناشيد وأغان وطنية تخللتها هتافات متنوعة ضد الاستعمار والرجعية. وعندما هتف الجمهور بحياة البارزاني هتافاً حماسياً نهض الأخير وأسكت الحاضرين طالباً منهم ـ على طريقته الفلاحية البسيطة ـ الهتاف بحياة الزعيم عبد

الكريم قاسم وليس بحياته هو البارزاني، الذي يشرفه ـ على حد تعبيره ـ أن يكون مجرد قيطان لحذاء الزعيم عبد الكريم.

في هذا الحفل كانت لي مفاجأة صغيرة إذ أتاني رجل وتصافح معي بحرارة وسألني:

ـ هل تعرفني يا أستاذ؟

ـ كلا لم أعرفك. من هو حضرتك؟

ـ أنا المواطن باشا، صاحب الدار الذي سجن وعذب شهراً كاملاً في أيلول ١٩٤٩ بسبب وجودكم في إحدى غرف الدار بباب الشيخ. هل تذكر؟ أخليتم الدار ثم دوهمت وقبض عليه.

ـ نعم أذكر جيداً ويسرني أن أراك هنا، بعد سقوط ذلك النظام الذي طاردنا وسجنك وعذبك.

❀ ❀ ❀

في شباط ١٩٥٩ أصبحت لأول مرة حامل جواز سفر عراقي قانوني وسافرت ضمن وفد، ترأسه سكرتير الحزب سلام عادل، إلى موسكو تلبية لدعوة الحزب الشيوعي السوفيتي، كي نشارك كضيوف في مؤتمره الواحد والعشرين. غادرنا بغداد في طائرة كي أيل ايم ومكثنا في أحد أرقى الفنادق بأمستردام ـ على حساب الشركة التي أقلتنا ـ بانتظار وصول الطائرة السوفيتية التي كانت تقلنا إلى موسكو. أردنا أن نستثمر وجودنا في هولنده لزيارة تعارف إلى مقر الحزب الشيوعي الهولندي. فركبنا سيارة باص وسألنا الجابي عن عنوان الحزب الشيوعي واهتم بالبحث عنه بعد أن عرف بأننا أجانب. وسألنا عن البلد الذي قدمنا منه وعبثاً حاولنا إفهامه أين هو العراق. إنه لم يسمع قط باسم العراق، رغم أن الثورة كانت قد وضعت أخبار العراق في المقدمة على الصعيد العالمي. هذا الجابي الهولندي كان بعيداً عن السياسة وحتى سماع أخبار الإذاعات والتلفزيون لدرجة لم يسمع باسم العراق وثورة ١٤

تموز. وحين أخبره عبد الرحيم شريف بأننا من بغداد مدينة ألف ليلة وليلة أجاب الرجل:

ـ أعرف بغداد ألف ليلة جيداً وقرأت قصصها مراراً. كل شيء واضح الآن.

في مطار موسكو كان أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بانتظارنا. ونقلنا إلى الفيلا التي كان مسكناً لستالين حتى يوم وفاته. كان مبنى بسيطاً فيه أثاث اعتيادية وأمام المبنى مسبح بسيط صيفي مكشوف وحدد عمقه بما تلاءم مع قامة ستالين القصيرة. وكان هناك في ركن الحديقة خارج المبنى بعض أشجار الحمضيات التي قيل أن ستالين كان مولعاً بمداراتها والسهر عليها في حينه. وتحيط بالمبنى غابة ـ ضمن غابات ضواحي موسكو ـ وعلى مسافة منه، داخل الغابة، مبنى آخر كان مقراً لفصيل الحماية سابقاً وحول لاحقاً إلى مستشفى تابع للجنة المركزية.

كان وفدنا موضع رعاية خاصة بوصفه وفد واحد من احزاب الشيوعية الكبيرة في بلدان العالم الرأسمالي. وكتقدير لدور ح ش ع ومكانته المتميزة أبلغنا السوفييت بأن وفدنا سيكون أول وفد بين الضيوف يلقي كلمته. واعتبرنا ذلك نوع من الامتيازات الهامة التي تمنح لحزبنا. لكن الوضع قد تغير فجأة إذ حل الموعد المحدد لإلقاء كلمتنا، التي كنا قد هيأناها، ودعي غيرنا لإلقاء كلمته وجرى تجاهلنا نحن دون أن نعرف السبب. في اليوم التالي عرفنا السبب: إن خطابنا لم يتضمن الإشادة بقاسم. وهذا ما لم يرض عنه مسؤولو القسم الدولي في اللجنة المركزية للحزب السوفيتي. رجونا تضمينه هذه الإشادة. ما معنى ذلك؟ معناه أننا لسنا أحراراً في إلقاء كلمة باسم وفدنا وحول ظروف بلدنا، الذي قدمنا منه. بل يجب أن تكون كلمتنا منسجمة مع رأي القيادة السوفيتية في شخص قاسم. بتعبير آخر فإن العلاقة بيننا وبين القيادة السوفيتية ليست قائمة على أساس المساواة

العملية، بل هي علاقة قائمة بين القائد والمقود.

استأنا، كلنا أو أغلبنا، من هذا التصرف. ولكننا رضخنا ولو على شيء من المضض وأدخلنا جملة «ابن الشعب البار» كإشادة بشخص قاسم. وبعد ذلك، وبعد يومين من الموعد المحدد سمح لنا بإلقاء الخطاب. ومن الواضح أن هذه الجملة كانت تعبيراً عن فكرة أدخلت في خطنا السياسي وكلفتنا غالياً خلال الفترة اللاحقة من حيث نهجنا السياسي تجاه السلطة. بتعبير آخر فإن ذلك كان تعبيراً عن جوهر النهج الذي سمي فيما بعد بالتطور اللا رأسمالي.

خلال إقامتنا في موسكو التقينا بقادة العديد من الأحزاب الشيوعية، بينهم سكرتير الحزب الشيوعي الأندنوسي أيدت (أو عائد ـ كما أشار نفسه) الذي كان يقود آنئذ أحد أكبر الأحزاب الشيوعية في العالم الرأسمالي. وقد استمع آيدت إلى حديثنا حول ثورة ١٤ تموز ونفوذ حزبنا الكبير وإمكاناته النضالية الهائلة. فعلق قائلاً:

ـ مررنا بوضع مشابه في أندونيسيا وتصورنا أن الأمور كلها أصبحت في أيدينا ثم اتضح أننا كنا متوهمين.

والشيء المؤسف هو أن آيدت ظل يعيش في الأوهام حتى بعد حديثه المشار إليه معنا وإلى أن تحطم الحزب الشيوعي الأندنوسي وقتل هو نفسه في ١٩٦٥.

بعد المؤتمر السوفييتي عاد أعضاء الوفد إلى العراق وبقيت أنا في موسكو لأعالج الدزانتري المزمن، الذي كنت مصاباً به منذ عشر سنوات. وقد حجزت شهراً في أحد المستشفيات وعولج مرضي علاجاً تاماً. ثم نقلت إلى مستشفى آخر حيث أجريت لنا، أنا وعلي الوتار وعبد الأمير عباس، عمليات جراحية في الأنف خلال يوم واحد وبقينا هناك بضعة أيام. قامت خلالها الممرضة الروسية الشابة الحسناء نتاشاً بخدمتنا إلى درجة تصورنا أنها موصى بها. لكننا لاحظنا أن هذا كان

سلوكها مع جميع المرضى وأن كل مريض كان ينظر إليها كصديقته الخاصة. وبعد ذلك بعشرين عاماً وجدت هذه الممرضة واحدة من أساتذة جامعة موسكو.

كنت في المستشفى حين سمعت عن محاولة آمر موقع الموصل العقيد عبد الوهاب الشواف تنظيم انقلاب عسكري. كان هذا الخبر مقلقاً للغاية وحملني على أن أسهر مع المذياع الصغير الذي كان في حوزتي طيلة الليل وحتى الصبح. في الضحى جاءني المرافق الروسي الطيب كارشين ليهنئني بفشل محاولة الانقلاب. ولم يتسن لي معرفة تفاصيل ما حدث في الموصل إلا بعد عودتي إلى بغداد في أواخر نيسان ١٩٥٩. وقد وجدت أن محاولة نظمت من الشواف وبعض أعوانه وبعض العناصر الرجعية من العوائل الأرستقراطية في الموصل ومن شيوخ العشائر. وأن عبد الناصر كان مشاركاً فعالاً في هندسة وتنظيم العملية وكان مخطئاً في حساباته. وكان عدد الضحايا من الشيوعيين وسائر مؤيدي السلطة قرابة مئة شخص مقابل ٤٠ شخصاً من ضحايا الطرف الآخر. وقد طغت نزعة الثأر على سلوك المسؤولين المحليين للحزب الشيوعي فقتلوا (١٧) شخصاً ـ وهم ضمن الأربعين قتيلاً ـ من أبرز الخصوم السياسيين المؤيدين لمحاولة الانقلاب، في وقت كانت المحاولة قد قمعت.

وحين التقيت بعضو اللجنة المركزية لحزبنا المحامي حمزة سلمان، الذي كان قد أوفد من بغداد إلى الموصل كمشرف حزبي إبان الأحداث، وجهت إليه اللوم بحضور أبو العيسى وزكي خيري وجورج تللو، بسبب قتل هؤلاء السبعة عشر شخصاً بعد أن كان التمرد قد أخمد. فمد يده إلى جيب سترته وأخرج رسالة مقدماً إياها إلي وقال:

ـ كنت أتوقع مثل هذا اللوم منك ومن رفاق آخرين. ولهذا احتفظت بهذه الرسالة لأدافع بها عن نفسي. أرجو أن تقرأها الآن وتعيدها إلي.

قرأت الرسالة، وكانت بخط جمال الحيدري ومرسلة بتوقيع المكتب السياسي. كانت التوجيهات المدونة متطرفة إذ أمرت باستثمار الموقف لتصفية الرؤوس المعادية ولم أعرف ماذا إذا كان الحيدري قد كتب هذه الرسالة بالاتفاق مع سلام عادل أم مع غيره أيضاً. ورغم هذا التطرف، ورغم وجوب شجب ما قام به رفاقنا هناك فإن من الإنصاف أن يشجب أولاً سلوك وجرائم رؤوس التمرد العسكري الذين قتلوا، خلال اليوم الأول من التمرد، ستة أضعاف هذا العدد، بينهم المحامي الديمقراطي البارز كامل القازانجي.

❀ ❀ ❀

في طريق العودة من موسكو إلى بغداد مررت بلبنان وقضيت فيه ثلاثة أيام شاهدت خلالها عاصمة البلد الجميل ومدن صيدا والجزين ودير القمر ومناطق أخرى. في مقهى بالجزين طلب مني بعض الجالسين السماح باطلاعهم على الصحف اليومية، التي كنت قد اشتريتها في بيروت. وسألتهم عن الصحف المفضلة لديهم لقراءتها. فأجابوا:

ـ أنا النداء ـ وهي جريدة الحزب الشيوعي اللبناني ـ وأما الدستور وهي جريدة مسيحية يمينية متطرفة تقريباً.

وعند زيارتي لمكتب جريدة النداء في بيروت التقيت بعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني أحمد غربية وقدمت نفسي بصفتي الحزبية. وبعكس ما كان لدينا من التقاليد في بغداد فإنه لم يتفضل علي بقدح من الشاي ولا بسيجارة من علبته التي أخرجها ليدخن وليقدم سيجارة إلى زميله مصطفى العريس.

❀ ❀ ❀

بعد ثورة تموز التقيت لأول مرة بسكرتير حزب توده الإيراني رضا رادمنش، الذي كان قد أتى من أوروبا إلى بغداد بأمل الاقتراب من إيران وإجراء بعض الاتصالات مع بقايا رفاقه في إيران. أقام أياماً في

منزلي وبدا لي إنساناً بسيطاً وطيباً وخلوقاً. ولم أدخل يوماً في الحديث حول نشاطه الحزبي ونتاج عمله وأوضاع حزبه البائسة. وقد علمت في وقت لاحق بأنه أقام الصلاة، بمساعدة صالح دكله في البصرة، مع (عباس) الذي كان قد صور نفسه كأحد كوادر حزبه، ثم اتضح أن عباس هذا لم يكن سوى أحد عملاء السافاك (الأمن العام) الإيراني. وتمكن من تصفية بقايا التنظيمات التودوية هناك قبل أن يقتل من قبل جماعة فدائيي الشعب في وقت متأخر.

❀ ❀ ❀

نظمنا مظاهرة الأول من أيار ١٩٥٩ في بغداد إبان النهوض الثوري المتصاعد الذي أعقب قمع تمرد الشواف في الموصل. وقد أوصينا تنظيماتنا في المدن غير البعيدة (كالنجف وكربلاء والحلة والفلوجة وديالى.. الخ) بإرسال العمال والشباب للمشاركة فيها. وحددنا لها شعاراتها وقررنا أن يكون مهرجاناً عمالياً ـ شعبياً يعكس نفوذ الحزب وإرادة الشعب، كما قررنا أن تشارك قيادة ح ش ع نفسها في المظاهرة باسم (موكب جريدة اتحاد الشعب). وحين بدأت المظاهرة في صبيحة الأول من أيار خرجنا نحن كأول موكب اخترق شارع الرشيد من الباب الشرقي لينتهي في باب المعظم. وقع حادث طريق لموكبنا، وقد اقتربنا من باب المعظم: وقف جندي في زيه الرسمي وسط الشارع أمام موكبنا وهتف بحماس كبير:

ـ تعيش اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بقيادة زعيمنا الأوحد عبد الكريم قاسم.. تا.

يبدو أنه كان يتوقع تجاوباً حماسياً بمستوى حماسه هو. لكنه جوبه بالصمت من جانبنا فغادر الشارع وهو في حيرة من الأمر.

استمرت المظاهرة من العصر وحتى الفجر وكشفت عن أكبر مهرجان عمالي ـ شعبي في تأريخ العراق وحملت بعض المفاجآت

السياسية، وبالأخص مفاجأة رفع شعار مشاركة ح ش ع في الحكم. لقد هتف أكثر من نصف مليون، بل ما يقارب المليون، من العمال والشباب وغيرهم، في شارع الرشيد مطالبين قاسم بإشراك الشيوعيين في السلطة. علماً أننا حددنا في المكتب السياسي جميع شعارات المظاهرة ولم ندخل فيها هذا الشعار، الذي ولد بصيغة توفيقية شعبية هادفة إلى دعم الشيوعيين مع تجنب إثارة قاسم: «عاش زعيمي عبد الكريمي ـ حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي».

لم يشترك سلام عادل في موكب اتحاد الشعب. وبعد تفرق الموكب توزعنا، نحن أعضاء المكتب السياسي، على شارع الرشيد لنتفرج من بلكونات على المظاهرة ونراقب مدى تنظيمها. وكان أبو العيس أول من لاحظ ظهور ذلك الشعار غير المقرر. فذهب إلى سلام عادل، الذي كان موجوداً في مكان قريب منه. وسأل عما إذا جاز السماح بطغيان شعار لم يقرر مسبقاً ـ شعار مشاركة ح ش ع في الحكم. فأجابه سلام عادل:

ـ دعهم ليهتفوا كما يروق لهم ولا داعي للتدخل والتغيير.

في اليوم التالي اجتمعنا لدراسة وتقييم نتائج المظاهرة. وبعد نقاش ضاف قررنا في المكتب السياسي تبني شعار المشاركة في الحكم باعتباره تعبيراً عن إرادة العمال والجماهير ـ وكان كذلك فعلاً. وقررنا القيام بحملة إعلامية ـ تثقيفية داخل تنظيماتنا وبين الجماهير لدعم هذا المطلب. وكلفني الاجتماع بنشر مقالات في جريدة اتحاد الشعب بنفس الهدف، وقمت بنشرها. وكانت حملتنا مستمرة وسط حماس أعضاء الحزب ومؤيديه عندما تلقينا مذكرة من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، وهي توجه لنا النقد على مطالبتنا بالمشاركة في الحكم وتعتبر موقفنا تطرفاً يسارياً وتؤكد أن من الضروري دعم سلطة قاسم ضد ما تتعرض له من دسائس ومؤامرات امبريالية رامية إلى إسقاطها.

قبل تلقي هذه المذكرة من القيادة السوفيتية كانت أغلبيتنا في قيادة ح ش ع ميالة إلى استلام السلطة. وكنا ننظر إلى شعار المشاركة في الحكم كخطوة نحو استلام السلطة. وكان طموحنا هذا مشروعاً لأن ح ش ع كان أقوى حزب سياسي في البلاد وكان حزب الأغلبية الحقيقية من الشعب. فكان من حقه، وفق جميع الأعراف والمعايير الديمقراطية، أن يصبح الحزب الحاكم في البلاد. وأما مذكرة (أو رسالة) القيادة السوفيتية فإنها لم تكن سوى تدخل أناس مغرورين كانوا يجهلون ظروف العراق الملموسة وكانوا يجلسون وراء مكاتبهم في موسكو على بعد آلاف الكيلومترات من بغداد، ليسيؤوا إلى علاقات التآخي بين الشيوعيين في شتى البلدان وليملوا علينا سياسة خاطئة غير منسجمة مع واقع العراق، بدلاً من أن يحاولوا تفهم وضع بلدنا منا نحن المناضلين من أهل هذا البلد والملمين بظروفه. وكنا من جانبنا أسرى التقاليد والتقديرات السائدة في نظام العلاقات داخل الحركة الشيوعية آنئذ. كنا دراويش للقيادة السوفيتية معتقدين بأنها أكثر فهماً لأوضاع بلدنا نحن الشيوعيين العراقيين. فامتثلنا للأمر وتخلينا عن شعار المشاركة في الحكم وبالتالي تخلينا عن هدف الوصول إلى السلطة طيلة حكم عبد الكريم قاسم. أظن أننا كنا نرفض طلب السوفيت فيما لو كنا أكثر تجربة ونضجاً. لكننا أضعنا فرصة العمر التأريخية في تحقيق الهدف المشروع الذي من أجله يتكون كل حزب سياسي ـ هدف الوصول إلى السلطة لتحقيق البرنامج السياسي ـ الاقتصادي الذي يؤمن به ويقوم على أساسه.

منذ أن تخلينا عن محاولة الوصول إلى السلطة في أواسط ١٩٥٩ استقر خطنا السياسي العام على نهج يميني ذيلي إزاء نظام قاسم وإزاء قضية السلطة بوجه عام. غير أن نشاطات وخطط الحزب بوجه عام ونشاطات بعض منظماته بوجه خاص لم تخل من التطرف اليساري والشطحات الصبيانية. كان المد الثوري المتعاظم وسعة الفعاليات

الجماهيرية وسعة تنظيماتنا الحزبية والنقابية، في بلد شرقي متخلف وخاضع للكبت والإرهاب طيلة عشرات السنين المنصرمة، أوسع من أن يستطيع الحزب استيعابه. وكان بين كوادرنا القيادية، وخاصة الوسطية، أناس شديدو التطرف من أمثال حسن الركاع في المسيب وحميد بخش في البصرة.

١٠

تغيير نهج قاسم وانتكاسة ثورة ١٤ تموز

أظن أن مظاهرة الأول من أيار ١٩٥٩ أرعبت عبد الكريم قاسم إذ كشفت له بأن ح ش ع ليس مجرد قوة سياسية داعمة له ضد خصومه من أمثال عبد السلام عارف والبعثيين، بل يشكل خطراً عليه من حيث أنه يملك نفوذاً شعبياً هائلاً ويفكر أن يكون شريكاً في الحكم، وقد يزحف لاحقاً على السلطة. من هنا بدأ التغيير في نهج قاسم السياسي، مقروناً بحملة إعلامية نشطة من التشويه والافتراءات ضد الشيوعيين. وكما هي العادة الجارية في أغلب الأحيان فإن الحملة وجهت إعلامياً (من الناحية الشكلية على الأقل) ضد أشخاص معينين ـ ضد سكرتير الحزب سلام عادل وعضوين في المكتب السياسي هما جمال الحيدري وعامر عبد الله ـ لإظهار المسألة كما لو كانت مسألة تصرفات أشخاص معينين وليست مسألة محاربة الحركة الشيوعية كلها. ربما يعود التركيز ضد هؤلاء إلى كونهم بارزين على صعيد علاقات الحزب مع أوساط أخرى.

يجدر بالذكر أن الملا مصطفى البارزاني شارك بنشاط في هذه الحملة. ولكنه كان يركز بالدرجة الأساسية ضد شخص جمال الحيدري

ـ ولا أدري ما إذا كان سبب ذلك هو أن الحيدري كان الشخص الكردي الوحيد بين هؤلاء الذين تعرضوا للحملة.

لم يكن هناك أساس واقعي لمخاوف قاسم وأوهامه، بعد أن تخلينا عن شعار المشاركة في السلطة. ذلك لأننا أصبحنا مؤيدين لحكمه وجمدنا على السياسة التي رسمناها خلال الفترة الأولى من الثورة، أعني سياسة التضامن معه والدفاع عن نظامه ضد أي محاولة لإسقاطه. ذلك في وقت كان قد غير سياسته جذرياً من نهج التعاون معنا إلى نهج محاربتنا بشتى الأساليب. وكان في البلاد أناس كثيرون، بل طبقات اجتماعية ومنظمات سياسية، من أعداء الشيوعية. وكانوا ضعافاً في وجهنا قبل أن ينضم نظام قاسم إليهم بما في حوزته من أجهزة قمعية. بيد أن تغيير نهج قاسم غير توازن القوى على المسرح السياسي في البلاد وخلق جواً مؤاتياً لانتعاش النشاط المعادي للشيوعية وللديمقراطية، ولقاسم نفسه بمعنى معين. وكان من الطبيعي أن تسارع الأوساط الامبريالية والرجعية العربية والمجاورة أيضاً إلى السعي لاستثمار الوضع المستجد في صالحها ولاستعادة الامتيازات، التي خسرتها في هذه البلاد على أثر انتصار ثورة ١٤ تموز.

لم يكن هناك شيء معلن عن الخلافات بين قيادتي الحزبين الشيوعيين الصيني والسوفيتي في ١٩٥٩، عندما عاد أبو العيس من زيارته، التي استغرقت أكثر من شهر إلى الصين، حاملاً إلينا بعض الأنباء عن هذه الخلافات. فقد قال ما أسمعه الصينيون بصور رسمية:

ـ نحت القيادة الصينية ثلاثة من أعضاء مكتبها السياسي عن مراكزهم الحزبية بينهم جوني وينك تي هوا الذي قاد العملية العسكرية لطرد القوات الأمريكية من كوريا الشمالية عام ١٩٥٣، بسبب انحرافهم الفكري.

لم يعرف أبو العيس نفسه ولم نعرف نحن ما هو هذا الانحراف الفكري. لكن المسألة كانت تتعلق، كما اتضح لاحقاً، بالموقف من الخلافات مع القيادة السوفيتية.

وظهرت هذه الخلافات بصورة أوضح في المقالات المعنونة (تحيا اللينينية) التي نشرتها القيادة الصينية في صحيفة (جين مين جيياو) كرد على الأفكار والمفاهيم التي تبنتها القيادة السوفيتية في عهد خروشيوف. وحصلنا في بغداد على هذه المقالات مترجمة إلى اللغة العربية لدى السفارة الصينية.

وعندما اطلع سلام عادل على هذه المقالات، وهو لا يعرف شيئاً عن الغرض من نشرها ولا عن الخلافات المتزايدة بين القيادتين الصينية والسوفيتية، أعجب بها ووجدها منسجمة مع تصوراته وتصورات ح ش ع عامة. فبادر إلى مطالبة هيئة تحرير جريدتنا (اتحاد الشعب) بنشرها ـ وقد نشرت فعلاً. معنى ذلك أن الاتجاه الفكري لسلام عادل وللغالبية الساحقة من قادة ح ش ع كان أقرب إلى اتجاه القيادة الصينية، الذي عبرت عنه تلك المقالات. غير أن الإخلاص للسوفيت كان فوق كل شي ـ هكذا تربى الشيوعيون العراقيون ـ شأن معظم شيوعيي العالم في حقبة تأريخية معينة. فما أن كشف عن الخلافات حتى أعلن سلام عادل الانحياز الصارخ اللا شرطي إلى جانب السوفيت ضد القيادة الصينية. واعتبر كل شخص أو حزب يطالب باتخاذ موقف مستقل غير متحيز وغير تابع إلى أي جانب منحرفاً ومعادياً للشيوعية. وكان ذلك ضرباً من الجمود العقائدي ومعولاً من معاول الهدم التي استخدمتها كلتا القيادتين، السوفيتية والصينية معاً، لإلحاق الأذى بالحركة الشيوعية العالمية وللنيل من سمعتها وهيبتها وإثارة الشقاق في صفوفها في عشرات الأقطار والأحزاب. ففي الوقت الذي كان ماوتسيتونك، القائد الثوري العظيم والمفكر الصيني الكبير، قد أخذ يفتر ويتغير، بعد استلامه السلطة، سائراً نحو الجمود والضلال والتدهور، ارتكب خروشيوف

بدوره أخطاء جسيمة. إنه انتبه إلى الخراب الناجم عن البيروطراقية الستالينية وأتى بأفكار ومفاهيم جديدة وخطا خطوات معينة لمعالجة الوضع. لكنه لم يع، ولم يكن من السهل أن يعي، عمق المشاكل وأبعادها ولم يتبع أساليب صحيحة في العلاج، مما أتاح لأنصار النهج الستاليني ذوي النفوذ السائد في الحزب السوفيتي أن يطيحوا به بسهولة، وأن يحل محله زميله برجنيف الذي ورث من ستالين كل ما كان سيئاً وزاده سوءاً وخراباً طوال سني حكمه على رأس الحزب والدولة.

فيما كانت الحملة الدعائية مشتدة ضد ح ش ع، عام ١٩٦٠، أمر الملا مصطفى البارزاني بإقصاء حمزة عبد الله ومن معه من أعضاء المكتب السياسي للپارتي بصورة بيروقراطية شبه انقلابية، تجاوزا على النظام الداخلي الذي كان يعطي المؤتمر واللجنة المركزية ممارسة حق كهذا. وعين مكتب سياسي جديد برئاسة إبراهيم أحمد. ومن المؤكد أن هذا الإجراء أوجد التربة الخصبة لاشتداد الصراعات بين الشيوعيين والپارتيين في المجتمع الكردي المتخلف الذي سادته الأمية والتقاليد العشائرية. وغالباً ما حل فيه الخنجر والبندقية حكماً بين المتخالفين فكرياً والمتصارعين سياسياً.

في تلك الأيام سافرت إلى مسقط رأسي ـ قرية تكيه ـ في زيارة عائلية. كنا جالسين فوق أحد الأسطح في لقاء اعتيادي مع الفلاحين، حين جاءنا الفلاح الفقير (حمه جمه) وهو يلهث ويحمل بندقيته. واضح أن وضعه غير اعتيادي. سأله أحد الفلاحين:

ـ هل حدث لك مكروه يا حمه؟

ـ نعم! هناك في قرية مسويي (وهي قرية تبعد حوالي عشر كيلومترات) تعاركت مع بعضهم واضطررت إلى الهروب منها، بعد أن اعتدوا علي وأطلقت بدوري النار على بعضهم.

ـ ولماذا العراك؟

ـ لأنهم پارتيون وشتموا الشيوعية وأنا لم أستطع التزام الصمت إزاءهم.

ـ معناه أنك شتمت بدورك الپارتي.

ـ بالطبع. وقد هجموا علي وضربوني قبل أن تصل يداي إلى بندقيتي وأصليهم بوابل من الرصاص. وبعد ذلك وجدت نفسي مضطراً إلى ترك القرية والمجيء إلى هنا.

ذلكم كان شكلاً من الصراع الفكري ـ السياسي الدائر آنئذ، خصوصاً في القرى الكردية. ولسوء الحظ فإن مستوى المسؤولين المحليين لكلا الحزبين في المناطق الريفية كان واطئاً إلى حد الانجرار وراء هذه الصراعات المأسوية الخاطئة، بدلاً من التنافس الحزبي السلمي الديمقراطي.

إثر عودتي من تكيه إلى السليمانية، وأنا في طريقي إلى بغداد، تلقيت تبليغاً رسمياً بأن أحضر لدى مدير شرطة المحافظة. كان واضحاً أنه مجرد تحرش وإرهاب. فتجاهلت الطلب وعدت إلى بغداد. وفي اجتماع المكتب السياسي تقرر أن نزور، أنا وعزيز محمد، الملا مصطفى البارزاني في منزله مجاملة ونعمل سعياً لإبعاده عن المشاركة في حملة التشهير بالشيوعيين وتعميق الفرقة في الصف الوطني الممزق. وكان معنا ـ إن لم تخني الذاكرة ـ عزيز شريف أيضاً. وقد تحدثنا إلى البارزاني بلهجة ودية ورجوناه استخدام نفوذه لرأب الصدع وإشاعة الوفاق بين القوى الوطنية. غير أننا لم نفشل فقط في تحقيق ما ذهبنا من أجله، بل تأتى علينا أيضاً أن نسمع ونبتلع على مضض الكثير من السب والتنديد بالشيوعيين العراقين عامة وببعض الأشخاص منهم بصورة خاصة. وقد تركت البيت نادماً على هذه الزيارة.

وحين وصل الشيخ أحمد البارزاني إلى بغداد زرناه أيضاً في منزل

أخيه الملا مصطفى. كان الشيخ الرئيس المعترف به بين البارزانيين ومن قبل الملا مصطفى نفسه كرئيس للعشيرة. وكان رجلاً متوسط القامة بسيطاً بساطة الفلاح البارزاني وطيباً وقليل الكلام. ولم يكن لديه أي طموح في أن يكون زعيماً سياسياً قومياً خارج نطاق عشيرته. كما لم يكن هناك من يتحدى زعامته لأبناء عشيرته. وقد رحبنا بالشيخ وشكونا له على أخيه الملا مصطفى بسبب مشاركة هذا الأخير النشطة في الحملة الدعائية ضد ح ش ع. وكنا جالسين بجانب الشيخ المسن في صدر الغرفة. وحين دخل الملا مصطفى نهضنا ووقفنا احتراما له وأفرغنا له مكان الجلوس بجانب أخيه الأكبر. لكن الملا ظل واقفاً دون حراك في أسفل الغرفة واضعاً يده على صدره، منتظراً صدور الإيعاز إليه من الشيخ أحمد ـ حسب التقاليد العشائرية لدى البارزانيين. ولم يجلس إلا بعد أن أذن له الشيخ:

ـ مستور رووه! (اجلس يا مصطفى!).

ورداً على الشكوى التي قدمناها إليه ضد الملا مصطفى قال الشيخ بلهجته الريفية البسيطة:

ـ عندما ذهب رجالنا إلى روسيا فإنهم لم يملكوا شيئاً سوى الملابس التي كانوا يرتدونها. وحين عادوا من هناك كانوا يحملون حقائب مليئة بالأشياء الثمينة وساعات في أيديهم.. فيجب أن نكون أوفياء لروسيا وللشيوعية ممتنين لهم على الدوام.

وأضاف إلى ذلك:

ـ حين لحقت الأذى بنا لحقت بالشيوعيين أيضاً.

واختتم كلامه بتوجيه النقد إلى الملا مصطفى. ولم يكن بمقدور الأخير أن يعترض أو يناقش ما يتفوه به الأكبر. لكن شيئاً من سلوكه لم يتغير بعد عودة الشيخ إلى منطقته.

في سنة ١٩٦٠ أصدر قاسم تشريعاً حول تشكيل الأحزاب القانونية. وكان على كل فريق يريد الحصول على ترخيص قانوني أن يتقدم بطلب يحمل ٥٠ توقيعاً لأناس تتوفر فيهم الشروط القانونية. وقد قدمت طلبات، كان بينها طلبنا الذي وقع زكي خيري على الطابع فيه، في حين استثني اسم سلام عادل لتلافي اعتراض السلطة بذريعة عدم توفر الشروط القانونية فيه. وإلى جانب طلبنا كان هناك طلب آخر مفتعل بنفس الاسم (ح ش ع) قدمه عميل السلطة داوود الصائغ، الذي كان يتلقى التوجيهات من رجل شبه أمي تافه اسمه (جبار حمزة)، الذي قدر له أن يكون من معارف قاسم ومن المرتبطين به مباشرة، (وأشيع أنه رئيس استخبارات). كان واضحاً أن الهدف من هذا الطلب المفتعل إيجاد ذريعة صورية لرفض طلبنا بحجة عدم جواز وجود حزبين بنفس الاسم. واحتطنا لهذه المفاجأة بتهيئة ما ينزع الصفة القانونية عن طلب الصائغ. وقد كلفت شخصياً بالإشراف على هذه العملية واتخذت من المهندس الشيوعي عيسى العزاوي مساعداً لي كما اتصلت بالشيوعية النشطة آنئذ بشرى برتو. واستفدنا كثيراً من (عدنان) الذي كان في تشكيلة الصائغ وكان على ارتباط سري معنا.

كانت حصيلة نشاطنا أن غدت الغالبية الساحقة بين الموقعين على طلب الصائغ من رفاقنا المرسلين إليه، بضمنهم الطالبة الجامعية الشيوعية ليلى الرومي ـ العنصر النسائي الوحيد بينهم. وكان الصائغ غبياً ومعزولاً وعاجزاً عن تجميع العدد المطلوب قانوناً. وعند اقتراب الموعد القانوني الذي كان يجب على السلطة أن تجيب الطلب سلباً أو إيجاباً نظمنا استقالة جماعية شملت أكثر من ثمانية أعشار الموقعين على طلبه التأسيسي. أبقينا من رفاقنا شخصاً واحدا لغرض الاستطلاع. وبذلك نسفنا الأساس القانوني لطلب الحزب المفتعل. غير أن السلطة أتاحت للصائغ فرصة إعادة تشكيل هيئته المؤسسة بضم عناصر جديدة بدل المستقيلين. وللمرة الثانية أرسلنا وجبة جديدة من رفاقنا إلى هذا الغبي

الذي ضمهم إلى هيئته المؤسسة. وللمرة الثانية نظمنا، في الوقت المناسب، استقالة شبه جماعية جديدة بين الموقعين على طلبه ناسفين من جديد الأساس القانوني للطلب.

ورغم كل ذلك وجهت السلطة كتاباً جوابياً إلينا زعمت فيه أنه لا يجوز ترخيص حزبين بنفس الاسم. ولهذا ترفض طلبنا. معنى ذلك أنها افتعلت طلب الصائغ لترفض طلبنا. وقد أجازت الحزب الشيوعي الكارتوني، رغم انتفاء أسسه القانونية، الأمر الذي أكد أن قانون الأحزاب لم يكن أكثر من مهزلة ديمقراطية. في هذه الحالة أيضاً بقينا مرتين وقررنا نسف حجج قاسم لرفض طلبنا. عقدنا اجتماعاً طارئاً للجنة الحزب المركزية واتفقنا خلاله بالإجماع على تغيير اسم حزبنا من ح ش ع إلى (حزب اتحاد الشعب) وتقديم الطلب على هذا الأساس.

كان قرارنا بتبديل اسم الحزب قراراً مفهوماً لجميع رفاقنا وأصدقائنا ومنسجماً مع متطلبات الوضع المستجد. لكنه لم يكن مفهوماً لدى القيادة السوفيتية التي رأت فيه ما يستوجب التدخل والاعتراض الفوري على ما فعلنا وكأننا ارتكبنا خطأ مبدئياً جسيماً. فقد ذهبنا، أنا وزكي خيري، إلى الملحقية التجارية السوفيتية في الكرادة الشرقية ببغداد، تلبية لدعوة السفير السوفيتي زايتسيف، الذي أرد اللقاء معنا كي يقرأ لنا رسالة موجهة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى لجنة حزبنا المركزية ومترجمة إلى اللغة العربية. وخلاصتها توجيه النقد الشديد لما كنا قد فعلنا (طبعاً دون استشارة السوفيت) من تغيير في اسم الحزب. والأغرب من ذلك أنهم نصحونا بالتفاهم مع داود الصائغ وإدخال اسمه ضمن هيئتنا المؤسسة لغرض استحصال الإجازة القانونية. ناقشنا ما في الرسالة كما ناقشنا السفير نفسه، الذي كان يؤيد الرسالة بحماس. ودافعنا عن قرار لجنتنا المركزية باعتباره الموقف الصحيح في الظروف الملموسة. وأبلغنا زايتسيف أن بسطاء الناس حوالينا فهموا واستحسنوا ما فعلنا كي نحرج نظام قاسم ونثبت للجميع أنه ليس جاداً

في الادعاء بحرية العمل الحزبي. كما رفضنا بقوة ضم شخص من قبيل الصائغ إلى هيئتنا المؤسسة المقدمة إلى السلطة وإلى الرأي العام معاً.

كانت النتيجة رفض طلبنا بصيغته الجديدة أيضاً. ذلكم كان قرار قاسم شخصياً. وتحت إشراف جبار حمزة خصص مبنى ليكون مقر حزب الصائغ المزعوم.

بهذه المناسبة أروي حادثاً طريفاً وقع لزعامة الحزب الكرتوني بعيد إجازته. دعتهم السفارة السودانية في بغداد لحضور حفل أقامته بمناسبة عيد استقلال السودان. وهناك أفرط «الزعماء» في شرب الخمرة وسكروا وأثاروا فيما بينهم ضجيجاً حول كيفية توزيع ألفي دينار كان الصائغ قد استلمه من جبار حمزة لتمشية أمورهم الحزبية المزعومة. واضطر موظفو السفارة على طردهم من الحفل الدبلوماسي. فانتقلوا ونقلوا معهم نزاعهم إلى مقرهم، الذي كان حارسه الوحيد أحد رجال الأمن العام. احتدم النزاع داخل المقر بين الصائغ من جهة وبين زميليه جميل محمد علي وآخر لا أذكر اسمه، من جهة أخرى. وكان معهم عدنان، الشاب المتعاون معنا سراً، الذي سكب النفط على نار النزاع حتى وصل الأمر بينهم حد الضرب بالأيدي والأرجل، إضافة إلى الصراخ والشتائم المتبادلة. كان زميلا الصائغ يطلبان حصتهما من المبلغ فيما كان الصائغ نفسه يرفض الطلب مدعياً أنه هو المؤتمن من قبل الزعيم قاسم كي ينفق المبلغ. أخيراً لجأ حارس المبنى إلى إطفاء الضوء وغلق الأبواب على الزعماء المتقاتلين مهدداً إياهم باستدعاء جبار حمزة. وبعد أقل من نصف ساعة، وفيما بقي هؤلاء موقوفين في الظلام، حضر جبار حمزة وعنف القادة وحل النزاع باسترجاع المبلغ كله من الصائغ وبإرسالهم كل إلى مسكنه الشخصي. وعندما قدم الصائغ المبلغ إلى جبار حمزة قال له:

ـ تفضل خذ! أنا أقدم المبلغ برحابة الصدر إلى ممثل الزعيم.

كانت علاقات ح ش ع متأزمة إلى حد مع قاسم عندما أصيب بجراح أثناء محاولة اغتياله من قبل البعثيين. وقد زرناه، أنا وزكي خيري، في المستشفى الذي كان يعالج فيه واستقبلنا بقدر من الترحيب وهنأناه باسم ح ش ع على سلامته ونجاته من الموت واستنكرنا الاعتداء عليه. كان متمدداً في سريره، وبجانبه ملابسه الملطخة بالدماء. قلت له مجاملة:

ـ محاولة اغتيالك كانت انتقاماً منك لأنك كنت على رأسي ثورة ١٤ تموز.

ـ لو لم أكن أنا ولو لم أقم بهذه الثورة لبقي الشعب العراقي خمسمئة سنة أخرى تحت رحمة الاستعمار والنظام الملكي العميل ـ قال ذلك بتباه وبسذاجة فلاح مغرور.

لم يكن بمقدورنا أن نقول له «كلا يا سيادة الزعيم»! واكتفيت بإلقاء نظرة فاحصة على وجهه. لقد كان كتلة من الغرور والاعتداد بالنفس. كان ينظر إلى نفسه وكأنه المهدي المنتظر. وأظن أنه لم يستنتج أي درس من محاولة اغتياله. وعبثاً انتظر البعض بيننا أن يعيد النظر في موقفه من ح ش ع. وظهر أن الاعتداء عليه زاد من جنوحه نحو اليمين. كما أظن أن الوضع كان يتجه نحو الأفضل فيما لو انتهت المحاولة باغتياله.

كانت العلاقات بيننا وبين قاسم تسير نحو مزيد من التدهور والتعقيد رغم جمودنا على سياستنا في الدفاع عن نظامه ضد أي محاولة رامية إلى إسقاطه. وكان البعض من المسؤولين في حزبنا يحلم بتجاوز هذه الصعوبات وإعادة العلاقة إلى عهدها الذهبي السابق، حيث كان الوئام والتعاون. وكسبيل إلى تحسين العلاقة ـ حسب تصوره ـ اقترح عضو المكتب السياسي عزيز محمد، في ١٩٦٠، حل تنظيماتنا الحزبية

داخل الجيش بهدف بعث الطمأنينة لدى شخص قاسم واستعادة ثقته بنا على أساس من إقناعه بأن ح ش ع لا يضمر أية نوايا انقلابية ضد حكمه.

يجدر بالذكر أن نفوذ الحزب في الجيش كان كبيراً وتنظيماته واسعة وقوية ضمت الألوف من الضباط وضباط الصف والجنود، خصوصاً خلال السنة الأولى من ثورة تموز. وكان الضباط الشيوعيون يشغلون عدداً من المراكز الهامة في القوات المسلحة، أمثال قائد القوة الجوية جلال الأوقاتي وقائد الفرقة الثانية داود الجنابي ومدير الحركات العسكرية طه الشيخ أحمد وقادة وحدات مدرعة من قبيل سلمان الحصان وخزعل السعدي وضباط متنفذون أمثال هاشم عبد الجبار في وحدات المشاة وغيرها. وكانت تحركات سكرتير الحزب سلام عادل بين الضباط، وأحياناً التقاط الصور له معهم في لقاءاته، مبعث القلق لدى قاسم. ولم يندر من يوصل أخبار هذه التحركات وتلك الصور إلى قاسم لإثارة المزيد من مخاوفه إزاء النشاط الشيوعي المتنامي في الجيش.

بدلاً من التفكير في الاستفادة من هذه الإمكانات لغرض الوصول إلى السلطة كان بيننا من فكر بمحوها وإزالتها من الوجود إرضاءاً لقاسم. وحين اقترح عزيز محمد حل تنظيماتنا في الجش فإنه كان على علم بوجود آخرين من مؤيدي رأيه داخل المكتب السياسي. وقد جرت مناقشات طويلة حول هذه المسألة استغرقت أياماً دون أن نتوصل إلى الحسم، إذ كان البعض يتذبذب ويفضل التروي واتفقنا بالإجماع على أن نستشير قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي باعتبارها صاحبة تجربة أوسع بهذا الصدد. وكلف ممثل الحزب في العلاقات مع السفارات جورج تللو بعرض المسألة على الممثل الحزبي في السفارة السوفيتية ببغداد. فيما واصلنا بيننا مناقشة القضية. وقبل أن نتلقى أي جواب من السوفيت توصلنا في بغداد إلى اتخاذ قرار بالأغلبية، رفض اقتراح عزيز محمد. صوتنا ضد الاقتراح أنا وسلام عادل وأبو العيس وزكي خيري. وصوت

إلى جانبه عزيز محمد وجورج تللو وهادي هاشم. ولم يشترك في هذا النقاش اثنان من أعضاء المكتب السياسي بسبب وجودهما في خارج البلاد، هما جمال الحيدري وعامر عبد الله. واعتقد أن النتيجة تبقى هي في حالة وجودهما بيننا إذ كان الحيدري يصوت معنا ضد الاقتراح، فيما كان عامر عبد الله يصوت إلى جانب الاقتراح.

في وقت لاحق استلمنا جواب القيادة السوفيتية. وكان منسجماً مع رأي الأغلبية بوجوب استمرار النشاط الحزبي والسهر على تنظيماتنا في الجيش. غير أن مشكلة جدية أخرى قد ظهرت بعد أن صوتت الأغلبية ضد حل تنظيمنا في الجيش. فقد اتضح أن هادي هاشم، الذي كان مشرفاً آنئذ على تنظيماتنا العسكرية وجورج تللو قد نفذا عملياً الرأي الداعي إلى الحل وأبلغ الكادر الحزبي العامل في اللجنة القيادية المسؤولة ولجان أدنى منها بذلك. وتأتى على الرفاق فيما بعد القيام بجهد مكثف لإزالة آثار هذا الإجراء ولإعادة بناء هيئاتنا الحزبية ـ العسكرية في الجيش.

ومهما يكن الأمر فإن الاقتراح كان إيغالاً في الذيلية ومتناغماً مع سياسة مراضاة قاسم بأي ثمن كان. كان ذلك تعبيراً واضحاً عن وجود تيار يمين ذيلي في الحزب فكرياً على الأقل. غير أن العقلية اليمينة لم تكن هي السائدة حتى ذلك الوقت بين قيادة وكوادر ح ش ع. وكان اتباع الخط السياسي اليميني الذيلي ناتجاً عن تأثير القيادة السوفيتية وليس عن قناعة ذاتية لدى الشيوعيين العراقيين أنفسهم.

كان أبو العيس يردد أكثر من غيره التساؤل عن آفاق تطور الوضع. ولم نرسم لنا في الواقع آفاقاً مستقبلية ـ ستراتيجية ـ بعد أن ربطنا مصيرنا بمصير قاسم. إلا أن محاولة اغتيال قاسم طرحت أمامنا بقوة السؤال التالي: ما الذي نعمله في حالة اغتيال قاسم أو حدوث انقلاب

عسكري؟ ودون أن نجري تغييراً جذرياً على سياستنا اتفقنا على ما سميناه خطة الطوارىء، أي التحوط للحالات الطارئة التي قد تحدث. وقد عهد إلي ـ عام ١٩٦٠ ـ بالإشراف على الخطة، أو قسم كبير منها، من حيث تهيئة تنظيماتنا الحزبية ـ المدنية. فيما عهد بمهمة التهيئة والتنفيذ، بقدر ما يتعلق بدور العسكريين الشيوعيين في الجيش، إلى اللجنة الحزبية المسؤولة في القوات المسلحة. عقدت اجتماعات عديدة مع الكوادر الحزبية وبحثنا عن قطع الأسلحة الخفيفة (مسدسات، غدارات.. الخ) الموجودة في حوزة رفاقنا وعما يمكن شراءه منها. وشكلنا فرقاً صدامية صغيرة وعينا لها مسؤولين ورسمنا خطة للتحرك عند الضرورة... كل ذلك كمجرد تدبير احتياطي يوضع موضع التنفيذ في حالة اغتيال أو سقوط قاسم. وكان الجانب الأهم من الخطة هو تحرك رفاقنا من العسكريين في الجيش.

تركت العراق قبل أن تحل ظروف نجرب فيها هذه الخطة. غير أنها كانت خطة فاشلة، حسب تصوري، لأنها كانت مرتبطة بخط ستراتيجي خاطىء وفاشل من الأساس. كانت قائمة على افتراض أن قاسم سيضرب ويسقط على أيدي غيرنا وعندئذ سننهض ونحسم الوضع في صالح الحزب والشعب. ومع مرور الوقت كانت فاعلية هذه الخطة تتقلص وتضمحل تدريجاً بسبب التدهور المستمر في سياسة قاسم وهبوط شعبيته المستمر. وحين تنفيذ انقلاب ١٩٦٣ حلت اللحظة الحاسمة لوضع تلك الخطة موضع التنفيذ وثبت أن الأوان قد فات وأن النظام فقد تأييده ولم تعد الجماهير، حتى ولا العسكريون الشيوعيون، على حماسها السابق في الدفاع عنه والتصدي لخصومه. وكان ذلك طبيعياً ونتيجة منطقية لذات السياسة التي سار عليها قاسم في سني حكمه، حيث فقد تأييد الشعب الكردي بسبب حربه العدوانية ضد كردستان وفقد الكثير من تأييد الفلاحين العراقيين بسبب التلكؤ والتراجع في تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي وفقد تأييد العمال بسبب تزييفه لحقهم في التنظيم

النقابي وتحيزه إلى مستغليهم، كما فقد تأييد جمهرة غفيرة من الطلاب والشباب والمثقفين وغيرهم بسبب معاداته للديمقراطية وتشبثه بأساليب الحكم الدكتاتورية.

❀ ❀ ❀

في عام ١٩٦٠ عقد اجتماع عاصف للجنة المركزية، استغرق أربعة أيام بلياليها ثم نغادر خلالها الدار التي تجمعنا فيها بحي السعدون. كان جو الاجتماع متوتراً ومشحوناً، أولاً بسبب الجو السياسي العام المتدهور في البلاد، وثانياً بسبب تورط الحزب في سياسة خاطئة مفروضة عليه، وثالثاً بسبب اشتداد الصراعات بين مسؤولي الحزب وكوادره أنفسهم.

دلت الوقائع على أن التجربة الغزيرة، التي تراكمت لدى ح ش ع في الكفاح ضد الاستعمار وضد النظام العراقي الموالي للاستعمار عبر ربع قرن من النضال لم تفدنا كثيراً في الظروف المستجدة، عندما طرأ تغير سياسي جذري على وضع البلاد وحل نظام جديد من حيث تركيبه ومحتواه الطبقي ـ الاجتماعي محل النظام القديم المنهار في تموز ١٩٥٨. وقد لعبت القيادة السوفيتية دوراً حاسماً في تضليلنا وتحويلنا إلى ذيل لنظام قاسم من حيث الجوهر. وكما هو المنتظر في أغلب الأحيان فإن التخبط السياسي في مسار الحزب المقرون بتزايد الإرهاب والقمع ضد الشيوعيين وضد المنظمات والحركات الجماهيرية قد أدى ـ وكان لا بد من أن يؤدي ـ إلى نشوء ونمو نوع من التوتر والتأزم في العلاقات داخل ح ش ع، وبالأخص داخل قيادته. وتجلى ذلك في مجرى مناقشات وأعمال الاجتماع الكامل الذي عقدته اللجنة المركزية.

قبل هذا الاجتماع كنا نشعر بالصعوبات الكبيرة التي تواجه مسيرة الحزب النضالية. وكنا نبحث عن مخرج من المأزق الحقيقي. لم نعرف السبب الحقيقي للمأزق. لم ندرك أن نهجنا السياسي الخاطىء ـ الذي فرضه علينا السوفيت بمعنى معين ـ هو الذي أوجد هذا المأزق. وكنا

نبحث عن السبب في أخطاء أخرى، سياسية وتنظيمية، يمكن أن تكون قد وقعت، واعتقد البعض بيننا بأن السبب يعود إلى بعض مواقف التطرف اليساري لدينا أو لدى بعض منظماتنا ومسؤولينا. قال البعض ـ على سبيل المثال ـ أن لقاءات سلام عادل العلنية أو شبه العلنية مع الضباط، وأحياناً في داخل الثكنات العسكرية، كان السبب الرئيسي لتخويف قاسم وحمله على تغيير نهجه، وبالتالي فإن سلام عادل يتحمل المسؤولية عن تأزم العلاقات مع قاسم وتغير نهجه. ولم يفطن أحد منا إلى أن تغيير نهج قاسم وبالتالي توتر العلاقة بين القوتين الرئيسيتين على المسرح السياسي ـ بين قاسم وبين ح ش ع ـ كان أقرب إلى ظاهرة طبيعية متوقعة، وأن السبيل الصحيح إلى حل هذه المشكلة إنما كان في إعادة صياغة سياستنا على أساس التوجه إلى استلام السلطة كحق مشروع للشيوعيين. واعتقد أن انتهاج مثل هذه السياسة كان يؤدي إلى تعزيز الانسجام داخل قيادة ح ش ع وتجنيبنا المشاكل التي حدثت لنا.

اعتقدنا، نحن غالبية أعضاء المكتب السياسي ـ أنا وأبو العيس وزكي خيري وعامر عبد الله وجورج تللو، وجزئياً بعض الآخرين أيضاً ـ بأن سلام عادل غير كفوء للقيادة وأنه السبب فيما يواجه الحزب من مشاكل. ورأينا أن العلاج يكمن في استبداله بشخص آخر. لكننا لم نبشر بهذه الفكرة ـ ربما باستثناء عامر عبد الله ـ خارج قوام المكتب السياسي ولم نكاشف حتى أعضاء اللجنة المركزية بالأمر. كنا نرى في أن الفردية والبيروقراطية لدى سلام عادل هي سبب الأخطاء والمشاكل. وأود أن أقول الآن بأن هذه المشكلة كانت تقع في تلك الظروف بالارتباط مع النهج الذي اتبعناه، أياً كان السكرتير بدلاً من سلام عادل. فالذنب لم يكن ذنبه رغم ما اتصف به من الفردية والبيروقراطية. وهو لم يكن يتحمل المسؤولية أكثر من غيره بين العناصر الرئيسية التي كانت ترسم سياسة الحزب.

لقد فوجئت اللجنة المركزية بما طرحنا عليها في الاجتماع وما

عرضنا من مطلب إقصاء سلام عادل. وبعد مناقشات طويلة ومريرة توصل الاجتماع إلى حل وسط: بقاء سلام عادل سكرتيراً كالسابق، مع تشكيل هيئة سكرتارية يضم إليها ـ بالإضافة إلى سلام عادل ـ كل من بهاء وهادي هاشم. وهذا الإجراء لم ينه التصارع الداخلي في القيادة. كما أن سلام عادل لم يغفر لمن طالبوا بإقصائه من منصبه.

ينبغي علي أن أعترف الآن بأني كنت أحد العناصر الرئيسية المقررة لسياسة الحزب وبالتالي فإني كنت أحد المسؤولين الرئيسيين عن تلك السياسة الخاطئة التي انتهجها ح ش ع في ٥٩ ـ ١٩٦٠. ولم أدرك، شأني شأن الآخرين في القيادة، بأن السبب الرئيسي لفقدان الانسجام واشتداد الصراعات في القيادة إنما يعود إلى فقدان استقلاليتنا الفكرية وتخلينا عن حقنا في أن نكون أصحاب القرار فيما يتعلق برسم سياستنا العراقية الخاصة. لقد ارتضينا عن قناعة ودون وعي سليم بالسير على خط سياسي لم يرق لنا، بل راق لغيرنا، إزاء نظام قاسم. وكانت النتيجة أن وجهنا الاتهامات لبعضنا البعض ودخلنا في صراعات فكرية ألحقت أضراراً جسيمة بحزبنا وبمجمل الحركة الوطنية الديمقراطية في العراق. ولا أريد أن يفهم القارىء مما أسبقت بأنه لم تكن هناك أخطاء ولا أغراض شخصية وصولية لدى البعض إبان تلك الصراعات. فقد كان بيننا أناس موسميون وذوو ماض نضالي هزيل وبالتالي ذوو ارتباط روحي ضعيف بقضية الشيوعية والشعب. كما كان بيننا أناس غير كفؤين بالمرة للمراكز الحزبية التي أشغلوها.

بقدر ما يتعلق الأمر بسلام عادل، الذي تسلم منصب المسؤول الأول في الحزب عام ١٩٥٥، فإنه كان مناضلاً شيوعياً مخلصاً وشجاعاً وجدياً في عمله الحزبي. وكان أحد الأشخاص الرئيسيين في التشكيلة القيادية. وأحرز ح ش ع تحت قيادته نجاحات كبيرة حتى انتصار ثورة ١٤ تموز. وهو كان قائداً شعبياً متحدراً من عائلة شعبية بسيطة. غير أنه لم يكن بالقائد المتميز من حيث ثقافته وتجربته وكفاءته ـ كما كان فهد

في سني قيادته ـ بين الرفاق المحيطين به في التشكيلة القيادية. ولم يكن له تأريخ نضالي متميز. بل كان واحداً بين عدد من ذوي المستويات والكفاءات المتقاربة. وكانت له نقاط ضعفه من قبيل نزعته الفردية والتسلطية وتسلكاته البيروقراطية (وكانت هذه ظاهرة عامة في القيادات الشيوعية خلال تلك الفترة) وميله إلى التشدد لحد الإفراط تجاه كل رفيق يتجرأ على انتقاده شخصياً أو يعارض سياسته وبعض تصرفاته. وكانت قدرته على الكتابة السياسية ضعيفة، مما كان ينعكس على كفاءته القيادية. ولو سألوني اليوم من كان أفضل منه لمنصب المسؤول الأول في تلك الفترة لأجبت دون تردد أن أبو العيس كان الأفضل والأجدر.

❀ ❀ ❀

بعد اجتماع اللجنة المركزية عدت إلى بيتي في عرصات بحوشي مرهق الأعصاب بعد أربعة أيام من المناقشات الجدية والمتوترة أحياناً. وقررت أن أمنح عقلي إجازة قصيرة، على الأقل لتلك الليلة بالكف عن أي تفكير في القضايا السياسية والحزبية فأرسلت سعيد موسى ليشتري لي بعض المشروبات ولأشرب ثم أنام متخدراً تحت تأثير الكحول. مع حلول الظلام وقبل أن أشرب شيئاً رنّ جرس البيت ودخل زكي خيري. وقبل أن يجلس بجانبي أعلن قائلاً:

ـ أنا متعب الأعصاب جداً وقررت أن أبتعد عن أجواء المناقشات السياسية وأن أشرب وأرتاح.. ولهذا جئت إلى هنا.

رحبت به وأبلغته أنني قررت نفس الشيء. بعد بضع دقائق رن الجرس من جديد ودخل محمد حسين أبو العيسى وقال نفس ما ذكره زكي. وعلى أثر الرنين الثالث دخل جورج تللو وأعلن الشيء نفسه. فرتبت لنا أم سلام المائدة ووضعت قنينة الويسكي مع قناني البيرة وبدأنا نشرب ونبادل النكات العادية. وكلنا مصممون على تجنب المناقشات السياسية. وقبل أن يصل المشروب إلى نصفه بدأ النقاش السياسي وعدنا

إلى ما جرى في الاجتماع. وحين كانت قنينة الويسكي وقناني البيرة الأربع والعشرون قد فرغت تماماً، بعد منتصف الليل، كان النقاش بيننا لا يزال محتدماً. تذكرت تلك النكتة الشائعة بين العراقيين في موسكو: لماذا تكون غرفة القسم الداخلي في جامعة موسكو مضاءة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل؟ الجواب: هناك طلبة عراقيون يناقشون في السياسة أو فيتناميون يتعلمون اللغة الروسية أو كوبيون يرقصون.

❀ ❀ ❀

في خريف ١٩٦٠ أصبت بمرض فجائي ـ آلام في كلتا الرجلين أثناء المشي ومصدرها الفقرات. ولا زلت أعتقد أنه نجم عن الإفراط في استعمال الانتي بيوتيك، حسب توصية الطبيب الجراح إسماعيل جاسم، لغرض التخلص من دنبلة (خراج) دونما حاجة إلى عملية جراحية بسيطة.

ولما كان ح ش ع مدعواً إلى المشاركة في الاجتماع العالمي للأحزاب الشيوعية والعمالية، الذي كان من المقرر عقده في موسكو تشرين الثاني ١٩٦٠، فإنني اخترت للمشاركة في هذا الاجتماع رئيساً للوفد، ولكي أعالج المرض في الوقت نفسه. ولم يخطر ببالي آنئذ أن يستهدف البعض من إرسالي إلى موسكو تحقيق شكل من النفي، لكي أبتعد عن المشاركة في العمل القيادي.

عقد الاجتماع العالمي في إحدى قاعات الكرملين وسط الخلافات المحتدمة، التي كانت قد خرجت إلى العلن بين الأحزاب الشيوعية، وبالأخص بين الحزبين السوفيتي والصيني. كان في القاعة عدد من أبرز رجال الحركة الشيوعية العالمية الذين رأيت أغلبهم لأول مرة، أمثال موريس توريز وبالميروتوغلياتي وخروشيوف وليو شاوشي وهوشي منه وغيرهم. وكانت الغالبية الساحقة من الأحزاب الشيوعية تقف وراء الحزب السوفيتي. فيما وقف الحزب الشيوعي الألباني إلى جانب الحزب الصيني، والكوري بين بين. وبالنسبة إلى ح ش ع كان منحازاً

انحيازاً تاماً غير مشروط إلى السوفيت ضد الصينيين، الأمر الذي زاد من تعقيدات مهمتي كرئيس لوفد الحزب.

كان خطاب القيادة السوفيتية، الذي ألقاه خروشيوف، طويلاً وهادئاً نسبياً وحظي بتأييد الكثيرين من مندوبي الأحزاب الشيوعية. وكان بين الخطباء المتحيزين إلى السوفيت ملكيون أكثر من الملك نفسه ـ أمثال خالد بكداش ومحمد حرمل. وعلى العكس من ذلك كان خطاب الوفد الصيني، الذي ألقاه ليان پياو، حاداً ومليئاً بالأراجيز وحاوياً على اتهامات وإثارات مكشوفة ضد القيادة السوفيتية ودفاعاً مكشوفاً عن النهج الستاليني التقليدي، الذي كان خروشيوف قد أدانه منذ المؤتمر العشرين للحزب السوفيتي في ١٩٥٦. وجاء خطاب أنور خوجه (الألباني) أشد وأكثر إثارة. وكان للوفد الإيطالي موقفه المستقل المتميز إذ لم ينجز إلى أي طرف ضد الآخر.

أظن أن خطاب وفدنا، الذي كنت قد كتبته بنفسي وألقيته في المؤتمر، كان هادئاً نسبياً وانعكس فيه قدر معين من الاستقلالية في الرأي. ولهذا السبب قبل به أعضاء وفدنا دون أي حماس، بل على مضض، ورفضه الحيدري. وفي كلمة فرعية لاحقة ألقيت باسم وفدنا، داخل اجتماع لجنة مكونة لتحرير الوثيقة المفترض صدورها باسم الاجتماع، ألقاها الحيدري في غيابي بسبب المرض، شنّ هجوم عنيف على الصين وجميع منتقدي السوفيت مقروناً بالولاء اللا شرطي للقيادة السوفيتية المؤلهة. وفي اليوم التالي اطلعت على هذه الكلمة وانتقدتها. فأجابني الحيدري بحضور الآخرين من أعضاء الوفد قائلاً:

ـ نحن وجدناك متهاوناً تجاه الصينيين وغير جاد في التعبير عن اتجاه حزبنا فاستثمرنا فرصة غيابك أمس لنقول باسم وفدنا ما يعبر عن وجهة نظر الحزب وما يجب أن يسمعه الجميع في هذا الاجتماع.

كنا في لقاءات يومية مستمرة مع السوفيت. لكننا لم نلتق ولا مرة مع الوفد الصيني أو أي وفد مشابه. وقد أبديت رغبتي في عقد لقاء مع

الصينيين لمناقشة وجهات نظرهم التي لم أكن في الواقع متحيزاً إليها. لكن رفاقي في الوفد عارضوني بشدة. فلم يتم اللقاء.

❀ ❀ ❀

وحين عرضت الوثيقة الختامية على المجتمعين فإنني لم أرىٰ موقفاً أسوأ من موقف الوفد الكوري الشمالي، الذي كان يعارض صراحة وبشدة أي نقد أو إدانة لظاهرة عبادة الفرد مدعياً أن ذلك ينطوي على الإساءة إلى قيادة الحزب الكوري، وأن لكوريا الشمالية ظروفها الخاصة. ولم تكن هذه الظروف سوى رغبة كيم ايل سنگ في أن يظل الآله المعصوم في ذلك البلد وألا يتجرأ أحد على توجيه النقد إليه. وباستثناء تحفظ الوفد الكوري فإن جميع الوفود قد وقعت على الوثيقة الختامية التي صدرت من الاجتماع.

كان الاجتماع منتهياً وكان جميع الوفود مجتمعة في حفل استقبال أقامته القيادة السوفيتية على شرف الضيوف في الكرملين. اتفق خروشيوف وتوريز وتوغلياتي ضد ميكويان الأرمني الجالس جنبهم. فبدأوا يروون النكات والأقاويل التي تنسب إلى الأرمن وإلى راديو يريفان. وقال ميكويان:

ـ أريد أن يجيبني نيكيتا خروشيوف: هل الكونياك الفرنسي أفضل من الكونياك الأرمني السوفيتي، كما يدعي الرفيق توريز؟

ـ إذن نجح ميكويان في إثارة الخلاف بيننا ـ علق توريز.

قدمت في الحفل أغان وعروض فنية أعجبتني منها رقصة روسية قديمة شارك فيها ستة فتيان وخمس فتيات. كان أحد الفيتان يطمح إلى أن يصادق في آن واحد عدة فتيات. فكان يترك هذه ليلتحق بتلك ويترك الثانية لينضم إلى الثالثة. وفي الأخير اتفقا الفتيان الآخرون مع الفتيات الخمس وبقي هو وحيداً دون أي صديقة.

❀ ❀ ❀

بعد انتهاء الاجتماع دخلت مستشفى اللجنة المركزية بموسكو فيما عاد أعضاء الوفد إلى بغداد. وعلمت في وقت لاحق أنهم ذكروا في تقريرهم إلى المكتب السياسي بأني خالفت سياسة الحزب وتوجيهاته إذ لم أنحز بالقدر الكافي إلى جانب السوفيت أثناء الاجتماع. وكلفتني هذه الغلطة المزعومة ثمناً غالياً إذ أثيرت في وقت لاحق ضدي واعتبرت سبباً من الأسباب الرئيسية لتبرير معاقبتي بتنحيتي من القيادة وتجميد عضويتي في الحزب.

بعد خروجي من المستشفى طلبت من فاليوشن ـ عضو لجنة الشرق الأوسط التابعة للجنة المركزية في الحزب السوفيتي ـ بطاقة السفر كي أعود إلى بغداد. وفي اليوم التالي جاءني إلى الفندق ليقول:

ـ استلمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي برقية من المكتب السياسي لحزبكم مفادها أن قيادتكم قررت بقاءك في موسكو والتحاقك بالمدرسة الحزبية العليا.

لم أكن راغباً في البقاء ولم أطلب الدراسة الحزبية. فكررت الطلبات لأعود إلى بغداد، ولم أتلق سوى التأكيد على الرفض ووجوب بقائي للدراسة. ولم أفكر بتحدي القرار والعودة رغم أنف المكتب السياسي. ولكنني اقتنعت جيداً بأن بقائي في موسكو ليس إلا شكلاً من العقوبة والإبعاد عن العراق وعن المساهمة في نشأة الحزب القيادي. فأنا لم أكن العضو القيادي الأكثر حاجة إلى دراسة القضايا النظرية في الفلسفة والاقتصاد السياسي وبناء الحزب وما شاكل. لكنني كنت العضو القيادي غير المرغوب فيه من لدن السكرتير. ولهذا ينبغي أن أدرس، احتجت أم احتج وشئت أم أبيت. وهذا ما أقنعني بأن من يعمل مع سلام عادل يجب أن يكون مسايراً ويتجنب توجيه أي نقد جدي إليه. وتذكرت لقائي الثنائي معه عقب اجتماع اللجنة المركزية العاصف في ١٩٦٠، حيث ناقشته بمنتهى الهدوء على بعض تصرفاته وتطور وضع الحزب ونصحته بأن يتنحى

عن منصب السكرتير ويبقى عضواً في المكتب السياسي. فأجابني قائلاً:

ـ عندما ترى العقرب أن النيران قد طوقتها من كل الجهات تبادر إلى لدغ نفسها وتنتحر.

خرجت من ذلك اللقاء وأنا على قناعة بأن سلام عادل لن يفكر أبداً بالتخلي عن منصبه كسكرتير للحزب. وها أنا أرغم بطريقة بيروقراطية على أن أتخلى فعلياً عن مركزي كعضو في المكتب السياسي وفي سكرتارية اللجنة المركزية لأقيم في شبه منفى، بعيداً عن العراق.

ولم يلبث أن ألتحق بنا في هذا المنفى غير الرسمي كل من عضو م س (المكتب السياسي) عامر عبد الله وعضو اللجنة المركزية ثابت حبيب العاني. كنت أعلم أن عامر هو الآخر مغضوب عليه لأنه كان بين المطالبين بإقصاء سلام عادل عن منصب السكرتير. لكني لم أعرف أن العاني مغضوب عليه أيضاً إلا في وقت لاحق.

❀ ❀ ❀

بين أيلول ٦١ ـ أيلول ١٩٦٣ بقيت في المدرسة الحزبية العليا بموسكو، ضمن فريقنا الدراسي الذي كان يتألف، إضافة إلى المنفيين المشار إليهم، من هادي هاشم وسلام الناصري وجمال الحيدري ونزيهة الدليمي وعادل حبة ومهدي عبد الكريم وثمينة ناجي (زوجة سلام عادل) وكذلك ـ في وقت لاحق ـ آرا خجدور وحسين سلطان. كان برنامجنا الدراسي يشمل مواضيع الفلسفة والاقتصاد السياسي وقضايا بناء الحزب وتأريخ الحزب الشيوعي السوفيتي والحركة العمالية والتحررية العالمية والقانون الدولي والجغرافيا الاقتصادية، إضافة إلى اللغة الروسية. وقد درست بجد ولم يحدث أبداً أن استلم في أي امتحان أقل من (٥) وهي أعلى درجة.

كان هادي هاشم أضعف الجميع في الدراسة، رغم أنه كان عضو

المكتب السياسي والسكرتارية. وقد اعتاد التهرب من أداء الامتحانات في العديد من الحالات لأنه لم يكن قادراً على الإجابة ولم يرد مجابهة الفشل والرسوب. ورغم طول بقائه فإنه لم يتعلم شيئاً جدياً من اللغة الروسية سوى أسماء ما كان يحتاج لصنع ما كان مولعا به من الطرشي والطبخات المعقدة كالكبة بشتى أنواعها والدولمة وما شابه. وكان يعرف جميع المخازن والدكاكين التي تباع فيها تلك المواد. وينبغي الاعتراف بأنه كان خلوقاً لطيف المعشر مع زملائه في الفريق الدراسي وكان على علاقة جيدة معهم ومهتماً بهم. لكنه لم يهتم بنفسه ولا بغيره في القضية الأساسية الموفد من أجلها، قضية الدراسة. ويبدو أنه كان في طريق التدهور ـ كما هي العادة بالنسبة لبعض الناس ـ وكان يفتقر إلى سمات القائد السياسي.

أظن أن الجميع تعلموا قدراً لا بأس به من اللغة الروسية باستثناء هادي هاشم وحسين سلطان وثابت العاني. وكان هذا الأخير يتعب نفسه لتعلم اللغة، ولكنه دون جدوى.

أضاعت نزيهة الدليمي ذات صباح ساعتها اليدوية. وعبثاً فتشت عنها في كل مكان. وحين التقيت بها بعد الظهر سألتها:

ـ هل وجدت ساعتك؟

ـ كلا لم أعثر عليها.

ـ المصيبة ليست كبيرة ما دمت تملكين ساعة احتياطية ـ قلت لها ذلك بعد أن رأيت في يدها ساعة حقيقية.

ـ كلا، لا أملك أي ساعة احتياطية.. كانت هي الساعة الوحيدة.

ـ ولمن هذه الساعة الموجودة في يدك؟

نظرت إلى يدها وصرخت باستغراب ودهشة كمن يفاجأ بشيء عجيب:

ـ هذه هي ساعتي التي ظننت أنها ضاعت وغدوت أفتش عنها منذ الصباح وحتى الآن!

واتفق عامر عبد الله مع ثابت العاني على إقامة كومونه ثنائية لهما بتوحيد الأكل صرفاً وعملاً. ولم يلبث أن انهار الاتفاق. ولما سألت ثابت العاني عن السبب أجاب:

ـ كان علي أن أنفق من جيبي وأهيء بنفسي الطعام والشاي، وكان على عامر أن يحضر فقط لتناول الطعام والشاي. ولهذا انهارت الكومونه.

ذهب عادل حبه ذات يوم إلى مطعم المدرسة دون أن يجد من يترجم له. أشارة من أصابعه إلى قائمة الطعام ثلاثة أنواع من الأكل ودفع الثمن. وحين استلمها تبين له أنه كان قد عين ثلاثة أنواع من السوب لا غير.

وفي سفرة مدرسية نظمت لنا إلى مدينة كيف، وكنا مقيمين في مبنى القسم الداخلي من المدرسة الحزبية هناك، كان علينا أن نحدد كل يوم ما نختار من الطعام في اليوم التالي. في ظهيرة اليوم التالي لم يأتوا بالأكلة الرئيسية إلى سلام الناصري وعندما طلبها أجابوه أنه لم يسجل شيئاً. فأصر على أنه سجل وطلب القائمة وحين أتوا بها أشار إلى كلمة «المدير» المذيلة بها القائمة. بعد دقيقة واحدة حضر المدير أمامه. وبعدئذ اتضح أن الناصري كان قد أشار في القائمة إلى كلمة المدير زعماً بأنها أكلة شبيهة بالأكلات العراقية.

❀ ❀ ❀

أحببت موسكو بعد أن عشت فيها واختلطت بأهلها وتعلمت لغتهم وعاداتهم لقد وجدتها مدينة الأمان والطمأنينة والطيبة والمرح والمسارح الكثيرة والحدائق الجميلة. لم أشهد ولم أسمع بما يعكر صفو أحد من فريقنا الدراسي، رغم أننا كنا نسير في الغابات وفي الشوارع الفارغة بعد منتصف الليل. وأحياناً نظل في الحدائق العامة ليلاً ونتجول في كل مكان. وقع حادث واحد فقط: عاد الشيوعي السوداني (وأظن أنه كان

يدعى معاوية ومن العناصر القيادية في الحزب الشيوعي السوداني آنئذ) الطالب في المدرسة ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، وكان قد سكر، ومعه جهاز تسجيل عادي. فأنزله سائق التكسي وسرق منه المسجل. ونحن لم ننزعج كثيراً لأن هذا الشاب السوداني كان سيء الأخلاق ومكروهاً بيننا.

وجدت الشعب الروسي بسيطاً طيباً حسن السلوك والتربية. وأجزم قطعاً، إذا سمحت لنفسي أن أقارن بين الشعوب التي قدر لي أن أعيش معها وأتعرف على عاداتها ونفسيتها، أن الشعب الروسي هو ألطف وأروع ما رأيت من الشعوب. أكتب هذه الكلمات الآن، أواخر ١٩٩١، وأنا أعرف جيداً الكثير مما حدث وتغير هناك في موسكو. ولكن ما أكتبه هو قناعتي التامة عن روسيا ٦١ ـ ١٩٦٣.

رأيت سواحل البحر الأسود كلها، باستثناء أوديسا. وعشت كضيف في فنادق اللجنة المركزية وكسائح اعتيادي غير رسمي. زرت مصح سوچي مراراً، وهربت منه في المرة الأولى ـ عام ١٩٥٩ ـ بعد بضعة أيام، حيث لم أكن أعرف اللغة الروسية. واقتنعت لاحقاً بأن التمتع بالعطل والراحة يحتاج كذلك إلى نوع من التجربة والكفاءة. وكانت آخر سفرة للراحة والاستجمام على البحر الأسود و ـ قليلاً ـ على بحر البلطيق في عام ١٩٧٤، حيث سافرت من بغداد بصحبة زوجتي عايدة ياسين.

في شتاء ١٩٦٢ وصلنا سلام عادل رئيساً لوفد ح ش ع إلى مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي. بعد المؤتمر وردته برقية لكي يلتحق بالمدرسة الحزبية، أي أنه عومل كما عمل معي. بتعبير آخر كان قد وقع في نفس البئر الذي أوقع فيه غيره. وأظن أن زكي خيري هو الذي تمكن من إقناع سائر أعضاء المكتب السياسي بإيفاد سلام عادل

للدراسة في الاتحاد السوفيتي كسبيل لإبعاده عن القيادة. وقد عاش مع زوجته وطفلتيه في شقة خارج مباني المدرسة. ولا أدري ما إذا استفاد من الدراسة الحزبية أم لا، لكن الجميع كانوا على علم بأنه غير راغب في البقاء وأنه يبحث عن أي فرصة لقطع الدراسة وللعودة إلى العراق.

قررت أن أكذب كذبة الأول من نيسان ١٩٦٢ مع رفاق الفريق الدراسي، بضمنهم سلام عادل. فخابرت أحدهم مدعياً أن انقلاباً عسكرياً قد وقع في بغداد وأن عبد الكريم قاسم قد قتل على أيدي الانقلابيين. وبمجرد الصدفة رتب رفيق سوري نفس الأكذوبة وخابر بعض العراقيين. فصدقوا بعد أن تعددت المصادر. وخابرني سلام عادل ـ وهذا ما كنت أنتظره ـ مستفسراً عما حدث. فأجبت مؤكداً الخبر نفسه. وانغمر رفاق فريقنا كلهم في التحليلات والتعليقات قرابة ساعتين ودون أن يفطن أي منهم إلى أنه الأول من نيسان. أخيراً قلت لهم:

ـ مصدر الخبر هو مراسل راديو أرمينيا بمناسبة الأول من نيسان ـ وكان من المعتاد في موسكو أن تنسب الأكاذيب والنكات إلى راديو يرفان.

أثناء وجود سلام عادل في موسكو كانت الحرب الأهلية دائرة في كردستان العراق. وكان سلام عادل قلقاً بشأن موقف قيادة الحزب اللا أبالي إزاء المشكلة الكردية. كان يؤكد ضرورة الاهتمام بالمسألة وتبني مطلب الحكم الذاتي وليس فقط معارضة الكفاح المسلح من قبل القوميين الأكراد ضد نظام قاسم. أنا كنت في تلك الفترة مبعداً مجمداً عملياً ولم أعرف بالملموس موقف هذا الشخص أو ذاك من أعضاء القيادة إزاء بدء وتطور الكفاح المسلح في كردستان. كنت أطلع فقط على النشرات الحزبية العامة. وكنت أعرف أن ح ش ع يطالب الپارتي بإلقاء السلاح والبحث عن الحل السلمي للمشكلة.

لكن ما ذكره سلام عادل - وأسبقته - دل على وجود خلاف في وجهات النظر داخل القيادة. واعتقد أن زكي خيري هو الذي كان يطالب بإلقاء السلاح دون تبني مطلب الحكم الذاتي، لأنه كان القائم بالأعمال بعد إبعاد سلام عادل نفسه إلى موسكو. وكان موقف سلام عادل أسلم وأقرب إلى الصواب.

خابرني أحدهم ذات مساء قائلاً:

- سيسافر سلام عادل غداً إلى الوطن. وبهذه المناسبة فإنك مدعو معنا مساءاً إلى بيته لكي نودعه ونتعشى ونشرب معه.

لم أكن متحمساً للمشاركة في هذا الحفل ولكنني لم أر من اللياقة أن أرفض، خاصة وأنه عائد إلى العراق. فذهبت وشاركت. وتحت تأثير الوضع النفسي الصعب أكثرت من الشرب حتى وصلت الوضع الذي استوجب العودة إلى غرفتي في المدرسة،بمساعدة أحدهم. كانت المرة الوحيدة في حياتي التي أفرطت فيها في الشرب حتى فقدت وعيي. ولم يتكرر ذلك أبداً.

❀ ❀ ❀

في سنة ١٩٦٢ نفسها عاد سلام إلى العراق. واتضح بعد فترة أن القضية الرئيسية، التي أخذت منه جل اهتمامه إنما كانت قضية توطيد سلطانه القيادي في الحزب وإقصاء العناصر التي هددت قبلئذ هذا السلطان. وهكذا أثير ما عرف بقضية الكتلة الرباعية، أي التكتل المنسوب إلى أربعة من أعضاء م س. وطرح الأمر على اجتماع اللجنة المركزية، وانتزع قراراً من الاجتماع مفاده أن تكتلاً قد حدث وأن اللجنة المركزية تدينه بوصفه تجسيداً لاتجاه يميني ذيلي تصفوي. جرت المناقشات والمحاسبات داخل الاجتماع في غيابي أنا وعامر، اللذين اعتبرا قطبي الكتلة الرباعية، وغياب ثابت العاني الذي كان العضو الوحيد في اللجنة المركزية المرتبط بالكتلة (عن طريق علاقته مع عامر

عبد الله). ولم يطلب منا حتى تقديم رسائل حول المسألة، قبل أن يتخذ الاجتماع قرارات العقوبة القاضية بما يلي:

١ ـ تنحية كل من بهاء وعامر من جميع مراكزهما الحزبية وتجميد عضويتهما في الحزب بانتظار معرفة ما سيتخذانه من موقف إزاء قرار المعاقبة، لكي يتقرر فيما بعد بقاءهما عضوين أم لا، وتنحية ثابت العاني أيضاً من جميع مراكزه الحزبية.

٢ ـ تنحية كل من زكي خيري ومحمد حسين أبو العيسى من المكتب السياسي واللجنة المركزية، وجعلهما بمستوى عضو اللجنة المنطقية.

اتخذت هذه الإجراءات كلها دون أن أسمع عنها شيئاً، كما لو كانت القضية غير ذات علاقة بي، إلى أن فوجئت ذات يوم، وأنا في المدرسة الحزبية، باستدعائي إلى إحدى الغرف لأطلع على وثائق اجتماع اللجنة المركزية. كان هناك المسؤول الحزبي للفريق سلام الناصري مع عضوي اللجنة المركزية آرا خجدور وحسين سلطان. كان بين الوثائق ثلاث رسائل من زكي خيري. يعترف في إحداها بوجود التكتل ومشاركته فيه. وفي رسالة ثانية كتبها حسب طلب سلام عادل يعمق الاعتراف بالتكتل. وفي رسالته الثالثة يعمق الاعتراف أكثر ويبذل الجهد لترضية من بيده الحل والربط. وقد أثارت رسائل زكي خيري الثلاث اشمئزازي الشديد ودفعتني إلى إعادة النظر في تقييمي لشخصيته إذ أظهر نوعاً من الذل والخضوع. وأظن أنه استهدف من هذا الموقف المتخاذل إنقاذ نفسه من العقوبات أو تلقي عقوبة أخف. وعند مطالعتي لرسالة أبو العيس الملحقة أيضاً بالوثائق وجدت أن الرجل أنكر بادىء الأمر وجود أي تكتل ولكنه اعترف أخيراً تحت الضغط. فهو يقول في رسالته أنه استفسر من الرفيق السكرتير كيف يمكن تسمية ما حدث بالتكتل في وقت لم يكن هناك برنامج عمل للكتلة ولا اجتماعات منتظمة ولا ما شاكل.. فأوضح له السكرتير ـ

الكلام لأبو العيس ـ أنه لا يشترط في التكتل وجود شيء من البرامج.

وقد سمعت لاحقاً من آرا وسلطان بأن عامر اعترف هو الآخر في الرسالة التي قدمها على غرار ما فعل زكي، وأرسل جوابه هذا إلى العراق. ولم أدر ماذا كتب ثابت العاني في رسالته. لكني أعرف جيداً أن مشاركة ثابت في التكتل المزعوم لم يتجاوز تبادل الأحاديث و «الثرثرة الرفاقية» بينه وبين عامر شخصياً حتى دون أن نسمع نحن شيئاً حول المسألة.

إن قصة التكتل قد فبركت أو لفقت من الأساس لتتخذ منها ذريعة لإقصاء العناصر القيادية التي كانت تستطيع التحدث بحرية داخل اجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية، بما في ذلك توجيه النقد إلى شخص السكرتير والتصرف تجاهه من موقع الند للند. إن الاستقلالية في الرأي وعدم التخوف من عرض أي رأي يقتنع به حامله ـ ذلك ما لم يرق لسلام عادل. وأما تهمة اليمينية والذيلية والتصفوية، التي ألصقت بالكتلة المزعومة، فإنها لم تقم على أسس منطقية. وذلك:

١ ـ لأن الخط السياسي اليميني المتبع تجاه نظام قاسم لم يكن خط عناصر الكتلة المزعومة وحدها، إنما كان خط الحزب أو القيادة بأسرها، بما في ذلك سلام عادل ومن وقف معه. وقد لعب السوفييت دوراً رئيسياً في فرض هذا الخط على ح ش ع ـ كما أسبقت.

٢ ـ لأن الإجراءات التي اتخذت ضد المتهمين بالتكتل لم تقترن بأي تعديل في ذلك الخط. فلم يرفع شعار إسقاط النظام ولم يعد النظر في الموقف من الفئات المعارضة لقاسم ولم ترسم خطط لإيصال الحزب إلى السلطة.. الخ.

٣ ـ وفي قضية هامة من قبيل ممارسة النشاط الحزبي في الجيش أو عدم ممارسته فإن من وصفوا بالتصفوية واليمينية ـ وهم بهاء وزكي

وأبو العيس - هم أنفسهم الذين وقفوا مع سلام عادل عام ١٩٦٠ ضد حل التنظيم الحزبي في الجيش. في حين بقي معه المطالبون بالحل - بعد إثارة قضية التكتل اليميني التصفوي - وهم هادي هاشم وعزيز محمد وجورج تللو.

وأود الإشارة إلى أن هؤلاء الذين وقفوا مع سلام عادل ضد الكتلة اليمينية التصفوية المزعومة هم أنفسهم الذين رسموا للحزب السياسات اليمينية الذيلية في ١٩٦٤ وخاصة في سنوات التحالف الذيلي مع النظام البعثي (٧٢ - ١٩٧٩).

انقلاب شباط/ ١٩٦٣

كنت في السنة الثانية من الدراسة عندما حملت وكالات الأنباء نبأ انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣، الذي جاء حصيلة جهد مشترك بين الأوساط الغربية وحكام القاهرة وأطراف عربية أخرى، إضافة إلى حزب البعث العراقي وفئة من العسكريين الرجعيين واليمينيين في الجيش. أصبحنا نحن العراقيين في المدرسة الحزبية بموسكو في وضع نفسي صعب للغاية، دون أن يكون بمقدورنا عمل شيء سوى متابعة الأخبار من بعيد. وقد راق لنا موقف القيادة السوفيتية، التي كان على رأسها خروشيوف، في إدانة الانقلاب بحزم وفضح جرائمه التي فاقت جميع ما شهدته أرض العراق من الجرائم حتى ذلك الحين. وكانت الحملة الإعلامية السوفيتية جزءاً أساسياً من حملة عالمية أربكت صفوف الانقلابيين وزادت من تناقضاتهم وقصرت من عمر الحكم البعثي.

وكجزء من الدعم الإعلامي لنا ضد الانقلابيين ظهرت، بعيد الانقلاب، إذاعة صوت الشعب العراقي التي كانت تبث من بلغاريا. وكانت المبادرة، أول الأمر، من التودويين الإيرانيين، الذين كانوا يديرون إذاعة پيك إيران السرية هناك، وخصوصاً من التودوي الكردي حسن القزلجي، الذي كان يعرف قدراً من اللغة العربية. وبدأ يذيع الأخبار والتعليقات بلغته العربية المخربطة قبل أن يتخذ الشيوعيون العراقيون مكانهم في الإذاعة. وكان القزلجي قد تعلم العربية خلال

دراسته للعلوم الدينية في الجوامع. وطورها خلال ما يقارب عشرين عاماً قضاها في العراق، والبعض منها في بغداد، هارباً من نظام الشاه، متشرداً ومتنقلاً بين عامل زراعي في القرى وعامل بناء في المدن.. كان نموذج المناضل الثوري الصلب الذي لم تلن له قناة. ووصل أخيراً إلى بلغاريا عن طريق ارتباطه بحزب توده ليعمل هناك في القسم الكردي من بيك إيران.

بعد انقلاب شباط ساعد السوفيت على إبراز سلام الناصري ـ أو أنور مصطفى ـ الذي كان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ومسؤولاً حزبياً عن فريقنا الدراسي. فنشروا له تصريحات وبيانات وأتاحوا له فرص توجيه رسائل ومذكرات إلى الأحزاب الشيوعية والأوساط الخارجية. وكان الناصري نفسه متحمساً لأداء هذه المهمة، رغم افتقاره إلى الكفاءة المطلوبة إذ لم يكن قادراً على كتابة مقال أو تصريح سياسي معقول.

بعد الانقلاب بمدة نقل مهدي عبد الكريم من فريقنا الدراسي في موسكو إلى بلغاريا للعمل في إذاعة صوت الشعب العراقي. ولم يعرض علينا، أنا وعامر عبد الله، الانتقال إلى هناك رغم أننا كنا أكثر الجميع في الفريق قدرة على الكتابة والعمل الصحفي. كان أنور مصطفى لا يزال غاضباً علينا بسبب وجود أسماءنا في القائمة السوداء نتيجة اتهامنا بالتكتل. على أنني بادرت إلى كتابة تعليقات وكلمات للإذاعة، بينها كلمة مكرسة للإشادة بسلام عادل بعد أن استشهد تحت التعذيب.

بعد الانقلاب قدمت رسالة إلى سلام الناصري مبدياً فيها استعدادي للعودة سراً إلى العراق من أجل المشاركة في إعادة بناء الحزب. وأجبت بأن أنهي السنة الدراسية وأستعد بعدئذ للعودة. وقد أنهيت السنة الثانية وشاركت في سفرة الطلاب الصيفية (المسماة بالتطبيق) ضمن فريق ضم عراقيين وسوريين ولبنانيين وأردنيين وكوبيين وإيطاليين، إلى جورجيا السوفيتية في القفقاس. في العاصمة تبلسي زرنا

معملاً لإنتاج المشروبات الروحية. وحين خرجنا كان البعض يترنّح تحت تأثير الخمرة. وفي المساء سمعت أن شاباً كوبياً وأستاذة روسية من فريقنا قد ضربا ونهبا في ضاحية المدينة حيث كانا يتمشيان. وكان من السهل أن يلاحظ المرء بين الجورجيين وجوداً واسعاً نسبياً للأفكار والنزعات القومية. وفي جمهورية ابخازيا ذات الحكم الذاتي ـ وهي قسم من جورجيا ـ فرح الكولخوزيون الجورجيون المسلمون بزيارتنا لهم. وكانت أسماءهم عربية عامة مثل محمد وعمر وعلي وحسن.. الخ. وفي إحدى المناطق الريفية زرنا معملاً للنبيذ يتبعه نفق اصطناعي تحت الجبل يبلغ طوله (١٣) كيلومتراً ويتسع لثمانين مليون لتر من النبيذ. واستمتعنا بوليمة تحت أشجار شاهقات وعلى نبع بديع في سفح أحد جبال القفقاس. وقد انطلق أحد الفلاحين الجورجيين، بعد أن سكر، يهتف بحياة ستالين ـ المتوفي قبل ذلك بعشر سنوات ـ مبدياً انزعاجه من إجراءات خروشيوف ضد ابن جورجيا الشيوعي الذي حكم الاتحاد السوفيتي ثلاثين عاماً ـ ستالين. وكان من التقاليد الجورجية في حفلات الشرب والسهر أن يتصدر الوليمة رجل يدعونه (تمدان) وتكون أوامره مطاعة طيلة وقت الوليمة.

كان أوائل تموز ١٩٦٣ عندما نهضنا صبيحة أحد الأيام لأسمع من مهدي عبد الكريم وهو يعلن:

ـ أن شيئاً مهماً قد حدث في العراق اليوم.

ـ وكيف عملت ذلك يا أبو كسرى؟ هل حلمت؟ ـ سألته.

ـ نعم حلمت، وسترون..

كان بيننا من سخر من حلمه ومن كل الأحلام. وفي مساء نفس اليوم سمعنا من إذاعة بغداد بياناً رسمياً حول محاولة الانقلاب العسكري الشيوعي المعروفة بحركة نائب العريف حسن سريع، التي قامت في معسكر الرشيد وكادت تحرز النصر الحاسم. وحين قلت لمهدي أنه لم

يحلم عبثاً ولم ينطق عن الهوى روى لي قصة أخرى وصدقته، دون أن أؤمن بالخرافات والغيبيات. قال مهدي:

ـ كنت طالباً في دار المعلمين العالية (كلية التربية) وكانت ثروتي النقدية عبارة عن نصف دينار لأعيش بها خلال الخمسة عشر يوماً المتبقية من الشهر في العاصمة. وقد فقدت المبلغ أثناء جولة بشارع الرشيد. وجلست مهموماً حزيناً في غرفتي بالقسم الداخلي وأغمضت عيني وأنا أفكر فيما يجب عمله لتدبير أمري. ورأيت فجأة قطعة النقد الورقية ملقاة جنب برميل للقمامة في زقاق بـ (رأس القرية). لبست حذائي وغادرت القسم الداخلي متوجهاً إلى نفس الزقاق الذي كان يبعد قرابة عشرين دقيقة. وقد وجدت المبلغ بنفس الصورة التي تراءت لي سابقاً وعدت به فرحاً كطفل اشتروا له لعبته المفضلة.

❀ ❀ ❀

في أيلول ١٩٦٣ غادرت موسكو، بصحبة عادل حبه، لنستقر في جيكوسلوفاكيا ونتهيأ للعودة إلى العراق بصورة سرية. وكنا قد قطعنا الدراسة الحزبية قبل بدء سنتها الثالثة والأخيرة. وفي چيكوسلوفاكيا أقمنا في فيلا ريفية وسط الغابة على بعد ثمانين كيلومتراً من براغ. والتحق بنا فرج محمود. وكان مسئولنا العراقي حسين سلطان. وكنا في ضيافة جهاز أمني خاص مكلف بمساعدة الشيوعين العراقيين الراغبين في العودة إلى بلدهم سراً لمواصلة النضال الثوري. كانت تدفئتنا تعتمد على الفحم الحجري. وكانت الغابة المحيطة بنا غنية بالفطر من النوع الجيد. أرسل إلينا جندي مكلف كطباخ چيكي وتعلم الكثير، خلال فترة بقائه عندنا، من فنون الطبخ الشرقي لدى فرج محمود. وفرح بذلك قائلاً إنه سيصبح طباخاً من الدرجة الأولى بعد إنهاء الخدمة العسكرية. وأرسل إلينا رجل چيكي ليلقي علينا محاضرات حول العمل السري. وقد وجدته في حاجة حقيقية إلى أن يسمع محاضرات منا حول العمل السري.

في فترة بقائنا في چيكوسلوفاكيا التقيت عدة مرات مع (ميلان)، رجل الأمن المسؤول عن قضايا تسفيرنا نحن العراقيين. بدا لي رجلاً معقولاً وجدياً في عمله ونزيهاً. وأسمعني ذات يوم نقداً عنيفاً لقادة حزب توده بسبب تشبثهم بالبقاء في الخارج بعيداً عن ساحة النضال الساخن في بلادهم. وانتقد ذات مرة سلام الناصري على تردده وتخوفه من العودة وقال عنه:

ـ من الصعب جداً أن أتصور عودة الناصري إلى العراق مختفياً. فهو ليس رجل الصعوبات.

❀ ❀ ❀

قضيت أشهراً في براغ قبل أن أعود إلى العراق. وقد أقمت فترة في أحد الفنادق. وكان علي أن أعيش بمبلغ (١٥٠٠) كروناً شهرياً. فكنت في ضائقة معاشية حقيقية إلى أن تحولت إلى مجلة قضايا السلم والاشتراكية، حيث اشتغلت كواحد من شغيلتها براتب قدره (٣٥٠٠) كروناً.

براغ هي (متحف أوروبا) كما يسميها الكثيرون من الأوروبيين. فهي مدينة جميلة بتلالها وبالنهر الذي يخترقها وبآثارها التأريخية البديعة وبفتياتها الجميلات.. لكن طقطقات الترام المستمرة على الشوارع المبلطة بالطابوق والدخان الذي يتصاعد من المعامل ليفسد الجو الرطب ـ ذلكم يقلل من جمال المدينة وبداعتها. وإذا شربت قدحاً من بيروت بلزن درجة أولى فإنك تقتنع سريعاً بأنها ملكة البيرة في العالم، وإذا كنت سائحاً أجنبياً وأردت سريراً في الفنادق فإن عليك أن تقدم الرشوة إلى مدير الفندق أو شخص ما هناك. وإذا حاولت التكلم مع الجيكيين باللغة الروسية فإنك لن تجد الترحيب الحار بك بين أغلب الذين يعرفون قدراً من اللغة الروسية. فهم يكرهون الروس رغم أن الجميع سلافيون.

احتككت في براغ بالمجتمع العراقي الصغير، وغالبيته الساحقة من

الشيوعيين العراقيين. كان بينهم عزيز الحاج ونوري عبد الرزاق وماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ وموسى أسد وبهنام بطرس وقادر ديلان وغيرهم. وقد التقيت، لأول مرة، مع الشخصية الديمقراطية العراقي عبد الفتاح إبراهيم في أحد فنادق براغ، وكان قادماً كسائح. والتقيت بالشاعر الكبير مهدي الجواهري ودعوته ذات مساء إلى شقتي. وعندما لعبت الخمرة بعض الشيء برأسه نهض ليتمشى في الصالة وليضحك مرحاً ويردد المرة تلو المرة نكتة بغدادية معروفة كنت قد رويتها له وخلاصتها أن رجلاً ـ أفندياً ـ بين البغداديين الذين تظاهروا ضد المعاهدة العراقية ـ البريطانية عام ١٩٢٦ استدعي للقاء الملك فيصل بغية عرض مطالب المظاهرة. فقال للملك:

ـ اسجنه وأعدمه يا صاحب الجلالة!

ـ من الذي تريدون سجنه وقتله؟ ـ سأل الملك.

ـ منصور أبو العرگ.

ـ ولماذا تريدون سجنه وقتله؟

ـ لأنه يغش العرق بإضافة الماء إليه ثم يبيعه غالياً.

كان موسى معروفاً بين العراقيين بأنه فضولي من الدرجة الأولى وأنه يعرف جميع ما يحدث بينهم. وخرجنا ذات يوم، مع نوري عبد الرزاق وماجد ومهدي وآخرين، في نزهة إلى خارج براغ. وقررنا ألاّ يعرف موسى أسد بسفرتنا ولا يشاركنا. وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً من براغ جلسنا في فندق سياحي لنشرب البيرة. وقال أحدهم: لن يكشف موسى مكاننا ولن يصل إلينا. ولم تنقض على ذلك دقائق حتى فتحت الأبواب وداهمنا موسى أسد!

كان عزيز الحاج ممثل ح ش ع في هيئة تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية ويقبض أعلى راتب بين الشيوعيين العراقيين في چيكوسلوفاكيا. وكان معروفاً بينهم بأنه أكثر الجميع بخلاً. وقد زارني

عدة مرات في الفندق الذي سكنته، في إحدى المرات أبلغته، في مجرى الحديث بيننا، بأني توصلت إلى حل مشكلة فكرية بالنسبة إلي شخصياً، بعد أن ظلت موضع النقاش لسنوات طويلة. تلك هي مسألة ما إذا كان الأكراد يشكلون أمة أم لا. أوضحت أن الشعب الكردي يشكل أمة لم تستكمل بعد مقوماتها كاملة، بل توفر البعض منها، وبالأخص ما يتعلق بالشعور القومي المشترك، والبعض الآخر في طريق التكوين. وبعد بضعة أيام نشرفي مجلة (الغد) مقال بقلم عزيز الحاج تحت عنوان (هل الشعب الكردي يشكل أمة؟). ولم يشر الحاج بكلمة واحدة إلى أنه سمع هذه الفكرة من غيره وصاغها في مقال.

❀ ❀ ❀

في حزيران ١٩٦٤ سافرت من براغ إلى موسكو كي أشارك، لأول مرة بعد تجميد عضويتي في ١٩٦٢، في اجتماع حزبي للكوادر حضره أعضاء اللجنة المركزية الموجودون في الخارج وكوادر أخرى أمثال نوري عبد الرزاق وماجد ومهدي وثمينة ناجي وأنا وعامر عبد الله.. قاد الاجتماع سلام الناصري وأراد منه تبني نهج معين، يميني ذيلي. وكان نفسه يميني المزاج على الدوام. كما كان السوفيت ـ بالأخص القسم الدولي لدى اللجنة المركزية ـ يباركون له مثل هذا النهج.

غادرنا مطار موسكو ونحن في طريقنا إلى موسكو حين أخبرنا مرافقنا السوفيتي بأن خروشيوف قد أقصي من منصبه كسكرتير أول للجنة المركزية. وسمعت في وقت لاحق أنه أزيح بعملية تآمرية أو شبه تآمرية قادها بريجنيف، الذي تسلم بعده الزعامة وأعاد في سني حكمه النهج الستاليني على أقبح ما يكون.

أعود إلى اجتماعنا. جرى نقاش حيوي واسع وعارض البعض الأفكار المطروحة من قبل الناصري. لكن الأغلبية ـ وكنت ضمنها ـ أقرتها. وجوهر هذه الأفكار هو أن أنظمة برجوازية صغيرة ـ من قبيل

نظام عبد الناصر ومن على شاكلته ـ يمكن أن تتحول، تحت تأثير النظام الاشتراكي العالمي، إلى أنظمة اشتراكية. وزعمنا أن نظام عبد السلام عارف هو من تلك الأنظمة. كانت تلك هي ذات الأفكار التي سميت فيما بعد نهج التطور اللارأسمالي. كان هذا الاجتماع خطوة من الخطوات التمهيدية الرامية إلى إنجاح اجتماع اللجنة المركزية المرتقب.

❀ ❀ ❀

بعد حوالي الشهرين من اجتماع الكادر في موسكو عقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب في براغ. وأثناء جلسات الاجتماع أبلغنا، أنا وعامر وثابت، بالحضور لأن العقوبات المتخذة بحقنا في اجتماع ١٩٦٢ قد ألغيت وبالتالي فإننا أعدنا إلى مراكزنا كأعضاء في اللجنة المركزية للحزب. والذين كانوا قد وقعوا على قرارات العقوبة عام ١٩٦٢ اقتنعوا في آب ١٩٦٤ بأن لم يكن هناك أي تكتل أصلاً وأن العقوبات كانت جائرة وباطلة.

غير أن اجتماع آب أبقى على عقوبة واحدة، مع تخفيفها، بالنسبة إلي شخصياً ـ وهي عقوبة الإنذار الموجهة إلي بسبب موقفي الذي لم يرق لهم إبان الاجتماع العالمي للأحزاب الشيوعية عام ١٩٦٠ ـ وهذا ما تطرقت إليه سابقاً.

كانت القضية الرئيسية في جدول العمل أمام الاجتماع هي التقرير السياسي الذي حدد وجهة العمل اللاحق. وقد وقعت اللجنة المركزية ـ وأنا ضمنها ـ في خطأ جسيم إذ أقرت خطأ سياسياً ذيلياً مبنياً على الأمل في أن يتطور نظام عبد السلام عارف الدكتاتوري العسكري إلى نظام تقدمي سائر نحو الاشتراكية، شأن نظام عبد الناصر في مصر. هذا، مع العلم أن عبد السلام كان شريك البعثيين في ردة ٨ شباط الفاشية الدموية وأنه أعدم خلال سنة أعقبت انقلاب تشرين على شركائه أربعين شيوعياً. وقد أقر الاجتماع هذا الخط السياسي اليميني الذيلي بأغلبية (١٢) صوتاً

من مجموع (١٤). وصوت ضده فقط العضو المرشح للجنة المركزية عزيز الحاج، وتحفظ آرا متذبذباً بين مؤيد ومعارض.

كان الوضع القيادي ـ التنظيمي للحزب مختلاً بعد حملة النظام الفاشي البوليسية التي أدت إلى اختطاف وتصفية تسعة من أعضاء اللجنة المركزية، بضمنهم سكرتير الحزب سلام عادل وعدد من أعضاء المكتب السياسي والسكرتارية، وانهيار عدد آخر بضمنهم عضو المكتب السياسي والسكرتارية هادي هاشم الأعظمي، الذي سلم سلام عادل وغيره ممن عرفهم. فكان لا بد من إعادة الوضع التنظيمي الطبيعي إلى الحزب بانتخاب السكرتير والمكتب السياسي. من ينتخب سكرتيراً؟ كان هناك شخصان فقط لتوجه الأنظار إليهما ـ عزيز محمد، الذي كان عضو المكتب السياسي وسكرتير منظمة اقليم كردستان قبل ردة شباط. وسلام الناصري الذي كان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي مقيماً في الخارج ضمن الفريق الدراسي. وقد اعتذر هذا الأخير عن ترشيح نفسه، فضلاً عن أنه لم يكن بالشخص المناسب من حيث مجمل وضعه. وبقي عزيز محمد وحده الشخص المقبول في ذلك الوضع الملموس. وجرى انتخاب المكتب السياسي. وانتخبنا أنا وعامر، إضافة إلى باقر إبراهيم وعمر الشيخ وعزيز محمد وسلام الناصري.

ولم ينتخب زكي خيري إلى المكتب السياسي لأن رسائله التي عمق فيها اعترافه بالتكتل المزعوم قد تركت أثراً سيئاً لدى الجميع. وكان لا بد من فترة انتقالية ـ على حد تعبير عزيز محمد ـ قبل أن يعاد إلى المكتب السياسي. لكن زكي نفسه لم يكن من النوع الذي يغفر للآخرين موقفهم هذا تجاهه لأن مسألة الزعامة بالنسبة إليه، كانت تأتي في المرتبة الأولى وكل المسائل الأخرى في المرتبة الثانية. ولهذا اقترن وصوله إلى براغ، بعد انتهاء الاجتماع (الذي تغيب عنه) بإعلان حملة من التهجم على نتائج الاجتماع وبالتعاون الوثيق مع عزيز الحاج ضد خط آب.

كان أحد قرارات الاجتماع أن يعود من الخارج إلى العراق أعضاء اللجنة المركزية وكل الكوادر الموجودين قبلئذ خارج الوطن وأن يخرج من البلد من كانوا فيه قبل انقلاب شباط. كان ذلك قراراً رائعاً واستمراراً للتقاليد الكفاحية المترسخة في ح ش ع منذ السابق. وقد أرسل عزيز محمد وباقر إبراهيم وكريم أحمد إلى الدراسة الحزبية في موسكو وأبقى زكي خيري ممثلاً لنا في مجلة قضايا السلم والاشتراكية. فيما بدأنا نحن بالعودة تباعاً إلى العراق، باستثناء عزيز الحاج الذي تأخر عن العودة حتى أوائل ١٩٦٧ بسبب جبنه.

❀ ❀ ❀

حين حكم عليّ بالبقاء في موسكو للدراسة الحزبية بقيت زوجتي وأطفالي الثلاثة الصغار في بغداد. وكان ذلك ظلماً صارخاً بحقهم خاصة. وفي ١٩٦٣ اعتقلوا جميعاً. وبعد أشهر عديدة تمكنت أمي العجوز من الوصول إلى بغداد واستلام الأطفال من السجن لنقلهم إلى السليمانية. وفي ١٩٦٤ قررت حكومة عبد السلام إسقاط الجنسية عن زوجتي وعن عمومة مصري ونفيهما إلى خارج العراق بذريعة أنهما يهوديتان. وقد التقيت مع أم سلام في براغ وعشنا سوية لبضعة أشهر حياة عائلية طبيعية هادئة ساكنين في شقة حصلنا عليها من مجلة قضايا السلم والاشتراكية التي كنت أحد شغيلتها المحررين.

أثناء عملي في المجلة نشرت، وفق تكليف من المكتب السياسي، مقالاً فيها مذيلاً باسم (منير أحمد) مكرساً لتوضيح الخط السياسي الذي أقره اجتماع آب. وقد كان المقال خاطئاً وسيئاً في منطلقاته ـ شأن الخط السياسي المتبع. لكن المحرر الروسي، الذي كان يترجمه ويعيد صياغته، قد زاده سوءاً وأدخل فيه بعض ما لم أكتبه أنا ولم أعرف به إلا بعد النشر في المجلة.

وخلال الأيام التي قضيتها في براغ بعد الاجتماع تأتى علينا أن

نعير قسطاً غير قليل من الانتباه إلى نشاطات عزيز الحاج، الذي قال كلمة الحق ـ بالنسبة لخط آب ـ وأراد بها الباطل. وكان يتعاون معه، على ما ظهر، كل من زكي خيري وآرا خجدور ونوري عبد الرزاق وماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ. وقد وزعت كراسة صغيرة في براغ مذيلة بتوقيع «لفيف من الشيوعيين» ومكرسة لنقد سياسة ح ش ع والتهجم على خط آب. وأنكر عزيز الحاج علاقته بها. ولكن هشام البعاج، الذي كنت قد تعرفت عليه لأول مرة في سجن بعقوبة الانفرادي عام ١٩٥٧، اعترف أمامي أثناء لقائنا الثنائي بأن عزيز وراء النشرة.

وفي وقت لاحق، وكنت قد رجعت إلى العراق، أصدر عزيز الحاج وزكي خيري سوية كراسة مكرسة لتقييم سياسة الحزب بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤، ووزعاها في البلدان الأوروبية وحيثما أمكن لهما.

١٢

في بغداد من جديد

في تشرين الثاني ١٩٦٤ غادرت براغ بصحبة مهدي الحافظ عائدين إلى بغداد بجوازي سفر مزورين. كانت محطتنا الأولى روما، التي رأيتها لأول مرة. ومكثنا فيها ٢٤ ساعة، كنا نسير في شوارع العاصمة الإيطالية ونشاهد تكراراً قطعة تحمل الكلمة نفسها ـ سپاكيتي ـ على أبواب العديد من الحوانيت والمطاعم الصغيرة، فدخلنا واحداً منها لنجرب هذا الطعام الإيطالي الشائع وإذا بالمعكروني يوضع أمامنا مع قنينة من البيرة المثلجة. وعند مغادرتنا لروما اشتريت في سوق المطار الحرة قنينة نبيذ، وهي كل ما اشتريته في إيطاليا. وتخلصت منها بصعوبة في مطار الكويت، حيث نزلنا من الطائرة، تلافياً للمتاعب التي كان يمكن أن تنجم عن حيازتي لها في بلد إسلامي حرمت فيه المشروبات الروحية.

نزلنا في أحد فنادق الكويت وتجولنا في شوارع المدينة وأسواقها العامرة بالسلع المتنوعة. والتقينا برفاق عراقيين هاربين من النظام الدكتاتوري. النفط هنا صنع الأعاجيب ـ حول بلاد البدو المتخلفين، الذين كانوا يعيشون إلى ما قبل سنوات عيشة القرون الغابرة، إلى بلاد السيارات الفخمة والرفاه الواسع، لكن هذه التغيرات لم تشمل عادات وتقاليد الناس إلا بشكل ضئيل.

بعد يومين وصلنا مدينة البصرة وافترقنا لنلتقي مرة أخرى في بغداد. وقد وصلت بغداد في ساعة متأخرة من الليل وأخفقت في العثور على العنوان الذي كنت أحمله. فاضطررت إلى البقاء في سيارة التكسي لقاء خمسة دنانير إضافية. وعند فتح أول مطعم للباجه في شارع الكفاح فجراً دخلنا وجلسنا. وظهر بغداديون آخرون وبدأوا يتحدثون إلى بعضهم بلغتهم الشعبية البسيطة.

في الصباح الباكر وجدت العنوان واستقبلني بحرارة. وكان مقدماً في الجيش متقاعداً. وعنده التقينا مع مهدي وذهبنا إلى العنوان الثاني حيث التقينا بالشيوعية المعروفة زكية خليفة، التي كانت مسؤولة عن استقبال العائدين من الخارج وتدبير أمورهم ريثما يستقرون. أخذتنا إلى بيتها، وهناك التقيت بشابة رشيقة طويلة واسعة العينين، كانت تسعى لتبادل الحديث معي وللاستفسار عن بعض الأمور. ولم يخطر ببالي أنها ستصبح بعد حوالي السنتين شريكة حياتي الجديدة.

وعن طريق زكية التقيت بعمر الشيخ، الذي كان يضطلع بدور المسؤول الأول بالوكالة والذي بقي في البلاد، بخلاف المسؤولين الآخرين الذي خرجوا منها. والتقيت كذلك بناصر عبود الذي سبقني في العودة من أوروبا إلى الوطن، وبصالح دكله الذي اعتقل في ١٩٦٣ وهرب من السجن وخرج من العراق ثم عاد إليه بعد اجتماع آب. وقد اعتقله البوليس المصري في مطار القاهرة، وهو في طريق العودة إلى بغداد ثم أخلي سبيله مع التأكيد له بأنه يحمل جواز سفر مزور.

بدأت أتعرّف تدريجاً على ظروف البلد، الذي كنت قد غادرته قبل سنوات أربع، وعلى مزاج الجماهير ومزاج رفاقي الشيوعيين أنفسهم. وجدت نفسي غريباً بعض الشيء عن الأجواء الجديدة التي عدت إليها. لا شيء هنا، في هذه البلاد، شبيه بأوروبا التي جئت منها. غير أنه لم

يكن من الصعب أن أفهم، منذ الأيام الأولى، بأن السياسة التي صغناها في براغ آب ١٩٦٤، على بعد آلاف الكيلومترات من بغداد، ليست مقبولة لدى الشيوعيين والجمهور المتعاطف معهم هنا داخل البلد.

في أواخر كانون الأول ١٩٦٤ قبضت السلطة على عمر علي الشيخ عندما كان يسير مشياً في ساحة التحرير ببغداد. ومن المفارقات أن باقر جعفر، الشيوعي السابق الذي قبض عليه معي عام ١٩٥٣ وحكم عليه بالسجن المؤبد ثم انهار في السجن وتحول إلى عميل للأمن العام، هو الذي شاهد عمر وقبض عليه. وعلى أثر هذا الحادث أصبحت أنا المسؤول الأول بالوكالة داخل العراق حتى ربيع ١٩٦٦. وعشت فترة مع عائلة الكادر الشيوعي زين العابدين رشيد من الدوز، الذي ذهب للدراسة الحزبية في موسكو، مناضلاً ثورياً. ومدد هناك دراسته ـ بدعم من كريم أحمد ـ إلى سنتين وعاد بعدها متدهوراً فاسداً.

توفرت الآن لدي إمكانية حقيقية، وأنا المسؤول الأول للحزب وكالة لكي أعمل من أجل تعديل السياسة الخاطئة، التي كنت قد ساهمت في رسمها. فكيف البدء؟ وما العمل؟

أول ما قمت به لتقليص الأثر السلبي لسياستنا الذيلية الخاطئة كان إصدار عدد من المنشورات التي كانت تضع النقاط على الحروف وتفضح بصورة واقعية جريئة جرائم حكم عارف الدكتاتوري بحق الجماهير الشعبية وبحق الشيوعيين أنفسهم. في الوقت نفسه أعيد نشاط الهيئة القيادية ـ كهيئة ـ مؤلفة من أعضاء اللجنة المركزية الموجودين داخل البلد. كنا نعقد اجتماعات منتظمة ونبحث الأمور المختلفة الحزبية والسياسية. وخلال الأشهر الأولى من عام ١٩٦٥ عاد إلى البلد عضوا المكتب السياسي عامر عبد الله وسلام الناصري. وبدأنا نعقد اجتماعات للمكتب السياسي كهيئة.

وقد أعاد عامر النظر في تقديراته وموقفه من خط آب ١٩٦٤

أيضاً، وانتهج طريق الطفرات وليس التحول التدريجي، حيث قدم بعد أربعة أيام من عودته رسالة بخطه الجميل شكلاً، والذي لم أتعلم قراءته بسهولة طيلة عشرات السنين من مصاحبتنا لبعضنا، انقلب فيها على اتجاهه الفكري ـ السياسي السابق على ١٨٠ درجة وعرض خطة لتجميع الضباط، بصرف النظر عن انتماءهم الحزبي، للقيام بانقلاب عسكري فوري. قدم هذا الاقتراح قبل أن يتسنى له الاحتكاك بمنظماتنا الحزبية نفسها.

في شباط ١٩٦٥ أقر المركز القيادي للحزب (ولم نسمه آنئذ اللجنة المركزية)، باقتراح مني، إعادة النظر في سياسة الحزب التي رسمها اجتماع آب ١٩٦٤. وحدد الشكل الملموس لتنفيذ الاقتراح: كتابة صيغة أولية لوثيقة جديدة تتضمن السياسة الجديدة المعدلة ثم عرضها على المركز القيادي ليناقشها ويعرضها بعدئذ على الكوادر الحزبية كي تناقشها بدورها وتبدي الملاحظات بشأنها. ثم تشكل لجنة لدراسة جميع الملاحظات الواردة من الكوادر ولإعادة صياغة الوثيقة على ضوئها، تمهيداً لعرضها على اجتماع للجنة المركزية نعقدها في بغداد وننجز خلاله مهمة تعديل سياسة الحزب.

عمم مشروع الوثيقة على كوادر الحزب وشارك في مناقشتها قرابة (١٥٠) كادراً وأنجزت اللجنة المكلفة بدراسة ملاحظات الكوادر مهمتها. وفي ١٨ نيسان ١٩٦٥ ترأست أول اجتماع للجنة المركزية في بغداد، بعد انقلاب شباط ١٩٦٣، عقد في حي جميلة بدار مستأجرة خصيصاً لهذا الغرض. شارك في الاجتماع جميع أعضاء ومرشحي ل م العشرة الموجودين في الوطن، وهم كل من الناصري وعامر وناصر عبود وآرا وحسين سلطان وصالح دگله وتوفيق أحمد وصالح الرازقي.. الخ واستمر النقاش أربعة أيام لم يسمح لأحد خلالها بالخروج من البيت. وأصررت على أن تقر الوثيقة بصيغتها النهائية، بشكل لا تمس ولا يمكن إجراء أي تعديل عليها بعد الاجتماع، تلافياً للتقليد السيء الموروث

الذي يترك للمكتب السياسي أن يقوم، بعد اجتماع اللجنة المركزية، بصياغة تقرير يصدر فيما بعد باسم ذلك الاجتماع.

لم نختلف في الاجتماع حول تحديد الطبيعة الدكتاتورية العسكرية لسلطة عارف وفضح جرائمها. ودار النقاش بصورة رئيسية حول نقطتين:

١ ـ هل نرفع فوراً وعلناً شعار إسقاط السلطة، أم نكتفي بطرح البديل فنرفع شعار حكومة ائتلاف وطني ديمقراطية؟ وكنت من الرأي الأخير لكي تتاح لنا فرصة إعادة بناء الحزب وتقويته.

٢ ـ هل هناك قوى سياسية ـ اجتماعية أخرى يمكن أن تؤيد الاشتراكية، أم أن الشيوعيين وحدهم المؤيدون؟ كنت مع الرأي القائل بوجود قوى أخرى يمكن أن تؤيد الاشتراكية. وقد طال النقاش حول هذه المسألة، فيما كان الرازقي مستغرقاً في النوم، وهو جالس، كعادته دوماً. وبعد أن أدلى الجميع بآرائهم عدا الرازقي ضغطت بأصابعي على كتفه وناديته:

ـ أبو مهدي! أبو مهدي! وما رأيك في هذه المسألة؟

ـ أية مسألة؟ ـ استيقظ وتساءل.

ـ مسألة الاشتراكية.

ـ چا منو ما يريد الاشتراكية.

عند انتهاء الاجتماع أبقيت الحاضرين، رغم اعتراض الكثيرين منهم. ووزعت عليهم صفحات الوثيقة المقرة لكي يقوموا كل باستنساخ قسم منها ولكي تتوفر نسخة ثانية احتياطية منها لديّ. وأعطيت الرازقي النسخة الأولى كي يأخذها إلى مطبعتنا السرية، التي كان يشرف عليها، وتطبع في عدد خاص من جريدتنا السرية (اتحاد الشعب). ومع انتهاء الاجتماع وتفرق الرفاق نقلت الأثاث وأفرغ المبنى كتدبير احتياطي للصيانة.

كان قد انقضى يومان على انتهاء الاجتماع حين ذهبت بصحبة دگله إلى منزل الرازقي في بغداد الجديدة لمعرفة ما إذا تم طبع الجريدة أم لا. أبلغتنا زوجته بأنه خرج من البيت صباحاً ولم يعد، رغم أنه وعد بالعودة ظهراً لتناول الغداء سوية. سألتها:

ـ هل أخلف الميعاد في الأيام السابقة أيضاً، أم هذه هي المرة الأولى؟

ـ من عادته أن يخلف الميعاد.

انتظرنا بحذر حتى التاسعة مساءاً ثم دققت أجراس الخطر وغادرنا البيت واتخذنا بعض التدابير الاحتياطية، منها إبلاغ الرفاق ذوي الصلات مع الرازقي. واتفقنا على اللقاء مع زوجة الرازقي خارج بيتها لمتابعة ما يحدث. ولم يلبث أن سمعنا أن بيت مطبعتنا السرية قد كبس واعتقل فيه الطباعان سليم إسماعيل البصري ورفيق أثوري، كما اعتقل صالح الرازقي. وهكذا فقدت الوثيقة الصادرة عن اجتماع اللجنة المركزية قبل أن ترى النور.

لم يعترف الرازقي على بيته ـ ربما كان ذلك من أجل زوجته الشابة التي كان قد تزوجها حديثاً ـ ولكنه اعترف على بيت عضو اللجنة المركزية توفيق أحمد، الذي كان يعيش مختفياً في حي المشتل. وقد اعتقل توفيق دون أن نعرف بذلك. مررت مساءاً بسيارتي ومعي زوجة الرازقي أمام داره ـ أعني توفيق ـ ووجدت الضوء مشعلاً فقط في إحدى غرف الطابق الثاني. فازدادت شكوكي حول سلامة البيت. وذهبت فوراً لتحذير حميد الدجيلي العضو المرشح للجنة المركزية، الذي كان على موعد ـ كما علمت صدفة ـ مع توفيق في الشارع.

اتضح في اليوم التالي أن حميد لم يأخذ التحذير مأخذ الجد، فذهب إلى بيت توفيق على أثر غياب الأخير في موعد الشارع. وعندما

دق الباب خرج إليه رجال الكمين الموجود هناك فركض ولاحقوه وأطلقوا عليه نيران مسدساتهم. أصيب واستشهد فوراً. وبذلك خسرنا كادراً حزبياً رائعاً وشجاعاً عظيم الجهادية جيد الأخلاق. وخسرنا معه إمكانية الارتباط اللاسلكي الذي كان لنا مع رفاقنا في براغ. وكان فنينا الوحيد لتدبير الأمر هو حميد.

عندما عرفت بكبس المطبعة أسرعت إلى طباعنا السري الاحتياط (عزيز بقبقي) الذي كان في بيته جهاز رونيو وطابعة. قدمت إليه النسخة الاحتياطية من الوثيقة. وفي صبيحة اليوم التالي أخرجت من منزله مئتا نسخة مطبوعة منها لتوزع بين المنظمات الحزبية. وبذلك تلافينا خطر ضياع الوثيقة، التي بذلنا جهوداً كبيرة في صياغتها. ولا أكتم أني كنت معتزاً بهذه الوثيقة، شديد الحرص عليها، لأنه كان لي شرف المشاركة الفعالة في العمل على إخراجها كإعلان عن تعديل جذري لخط آب ١٩٦٤، في وقت لم يكن هناك أي دور للمسؤولين الحزبيين الذين كانوا مقيمين خارج البلد. وقد تركت الوثيقة تأثيرها الجيد على الشيوعيين والجماهير المتعاطفة معهم وأعادت الاعتبار إلى الحزب وأعادت إلى صفوفه قدراً من التماسك.

❀ ❀ ❀

على أثر اتباع سياسة آب ١٩٦٤ شاع التذمر بين بقايا التنظيمات الحزبية وترك الكثيرون صفوف الحزب. وتجمع البعض من المنسحبين في تكتل خاص بهم سمي «الثوريون». لكن هذه الكتلة لم تفلح في استقطاب الكثيرين ولم تجد من الكوادر الكفوءة من ينضم إليها ويقودها. وظهر أن الأجهزة القمعية تمكنت من شراء عناصر فيها أو دس بعض العملاء إلى صفوفها واصطياد العناصر النظيفة النشطة فيها. وفي وقت لاحق، في عهد عبد الرحمن عارف، أصبح سليم الفخري أحد ضحايا هذه المصيدة إذ اتصلوا به، وهو مقيم في كردستان، وأبلغوه

بأنهم اختاروه زعيماً لهم وأنهم هيأوا كل شيء للقيام بثورة (أو انقلاب عسكري) وهم في انتظاره ليقود الثورة ويحرر البيان الأول. ورغم أنه كان شيوعياً قديماً ومجرباً فإنه انخدع بهم واستجاب لهم وتوجه إلى بغداد. وقيل أنهم نظموا له لقاءات مع مسؤولي تنظيماتهم العسكرية المزعومة وأظهروا أمامه استعداد قطعاتهم العسكرية لتنفيذ الأمر الصادر إليها بالثورة. وبناءاً على طلبهم حدد موعد الثورة وحرر سليم البيان الأول ليذاع من محطة بغداد في فجر اليوم المعين. وبعد منتصف الليل دوهم المنزل من قبل رجال الأمن وقبض على سليم الفخري وأخرج من جيبه البيان الأول.. ثم اتضح أن جميع ما جرى، بدءاً بجلبه من كردستان إلى بغداد ومروراً بلقاءاته مع مسؤولي خط التنظيم العسكري المزعوم وانتهاءاً بتحديد موعد الثورة وتهيأة البيان الأول.. الخ، إنما كان من صنع الأجهزة الأمنية. ولحسن حظه فإن الحكم كان في يد عبد الرحمن عارف وليس في أيدي صدام ووحوش البعث. فاكتفى بسجنه ولم يقتل.

منذ أوائل ١٩٦٥ جلبت أطفالي الثلاثة سلام وأختيه من السليمانية إلى بغداد بأمل تسفيرهم إلى الخارج حيث لم تكن ظروفي مساعدة لإبقائهم عندي في حياة الاختفاء الصعبة. واضطررت إلى إعادة البنت الصغرى پري مع والدتي العجوز إلى السليمانية، بسبب تعلقهما الشديد ببعضهما. وكانت ابنتي حياة البالغة ست سنوات قد نسيت اللغة العربية كلياً وتعلمت اللغة الكردية بصورة جيدة، شأن أي طفل كردي. وفي غضون شهرين استعادت لغتها العربية ونست اللغة الكردية. وبعد أكثر من سنة أمكن لي تسفيرها مع زكية خليفة التي سافرت بجواز سفر مزور بأمل أن تصل إلى زوجها عبد الرزاق الصافي بعد انقطاع دام عدة أعوام. وقد التحق سلام وحياة بمدرسة تابعة للصليب الأحمر السوفيتي بمدينة ايفانوفا على بعد (٣٠٠) كم من موسكو. وبعد حوالي تسع

سنوات أرسلت پري لتلتحق بدورها بنفس المدرسة. كما التحق بها ابني الأصغر علي في ١٩٨٠. وهكذا فإن أطفالي الأربعة كبروا ودرسوا وتربوا في ظروف صعبة محرومين من رعاية أبيهم ومن الحياة الطبيعية التي عاش فيها الأطفال الآخرون في هذه البلاد. ويجب الإقرار بأن أم سلام لم تدخر جهداً في خدمتهم ورعايتهم. لكنهم كانوا يذهبون إليها في موسكو فقط أيام العطل الدراسية. وهي كانت محدودة الإمكانات مادياً وغير قادرة على دعمهم مالياً كما أن إمكاناتي لتقديم العون المالي إليهم كان شحيحة عموماً. وفي بعض الأحيان كنت أحصل على شيء من المال لدى بعض أقاربي لأرسله إليهم.

بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ انقطعت العلاقات مع السفارة السوفيتية في بغداد. وقد جلب أحد رفاقنا العائدين من الخارج موعداً لي كي أعيد العلاقة. كان اللقاء الأول في الشارع والتقيت بسكرتير السفارة المسؤول عن العلاقات الحزبية. وطوال الفترة اللاحقة وحتى ربيع ١٩٦٦ استمرت علاقتي المباشرة. وقد بدا لي الرجل هادئاً طيباً وحريصاً على التضامن الأخوي الأمين. وكان متفهماً إلى حد للوضع السياسي المعقد في العراق. وناقشته ذات يوم حول موقف الحكومة السوفيتية من تشديد الغارات الهمجية، البحرية والبرية والجوية، على فيتنام الديمقراطية. وسلمته لاحقاً رسالة باسم قيادة ح ش ع وبنفس المضمون ليرسلها إلى قادة حزبه. ولم أتلق أي جواب عليها. وأود التأكيد على أنني لم أستشر السوفيت ولا مرة حول قضايا حزبنا وبلدنا طيلة الفترة التي بقيت خلالها طرفاً في العلاقة وكانت علاقتنا محصورة بهذا السوفيتي ولم تكن لنا صلات بأية سفارة أخرى.

كان العضو المرشح للجنتنا المركزية عزيز شريف قد انقطع عن الحزب وضاع له كل أثر منذ انقلاب شباط ١٩٦٣. وبمساعدة الصديق

السوفيتي المشار إليه آنفاً أمكن لي العثور عليه وأخبرني أنه ظل مختفياً في إحدى السفارات طيلة تلك الفترة. أسكنته في أحد بيوتنا الحزبية موقتاً وتباحثت معه حول وضعه وما يقترح لنفسه من المهمات الحزبية. كما أشركناه، بوضعه مرشحاً لعضوية اللجنة المركزية، في بعض اجتماعات مركزنا القيادي. وهو كان رجلاً طيباً وهادئاً ومؤدباً.. غير أنه لم يكن رجل التحرك والتحدي في ظروف الاختفاء الصعبة. وقد وافق على الاقتراح الذي قدمته إليه شخصياً، قبل أن أقدمه إلى رفاق الهيئة القيادية. وفحواه أن يذهب إلى كردستان ويقيم سفيراً غير رسمي لنا عند الملا مصطفى البارزاني ـ طبعاً مع إخفاء صفته الحزبية ـ ويمارس نفوذه كصديق قديم للبارزاني من أجل خير الحركة التحررية الكردية وكل الحركة الوطنية العراقية وسفرناه بعدئذ إلى هناك ورحب به البارزاني واستضافه طيلة بقائه هناك.

❀ ❀ ❀

كنا، أنا ودگله، نائمين في منزل الرازقي حين رن جرس الباب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. نظرنا من الشباك وإذا بالشرطة واقفون جنب سيارتهم ويلحون على فتح الباب. أيقنا أنهم آتون لكبس الدار وللقبض علينا، نحن المختفين المطاردين. أسرعنا في حرق الرسائل وبعض المستمسكات الحزبية داخل الحمام قبل أن نجيب بشيء. بعدها نادتهم زوجة الرازقي، وهي مرتبكة ومذعورة، وسألت عما يريدون. فأجاب أحدهم:

ـ نحن شرطة النجدة وجئنا بناءاً على مخابرتكم لنا تلفونياً.

ـ إننا لم نخابر ولا نملك التلفون.

ـ لكن هذا هو عنوان الدار التي أعطيتموها بالتلفون.

أخيراً اتضح لنا أن أحد الناس في بيت قريب قد خابرهم فعلاً بعد أن شاهد لصاً أو تراءى له بأنه شاهده. وأن العنوان أعطي بصورة

خاطئة. وكان هذا الخطأ سبباً لهذه المشكلة التي سبق ذكرها.

❀ ❀ ❀

بعد تعديل خط آب ١٩٦٤ أخذ التيار الفكري اليساري ينمو ويصارع في سبيل فرض نفسه على خط الحزب السياسي، مستفيداً من رد الفعل الواسع في الحزب ضد اليمين ومن الفرص المتاحة عام ١٩٦٥ لخوض الصراعات الفكرية. وكان عامر عبد الله وماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ وكاظم الصفار وحسين جواد القمر وكاظم فرهود وغيرهم من الكوادر دعاة نشطين للتطرف. واستجابة لرغبة الكادر وحرصاً على تسيير الصراع الفكري بأسلوب ديمقراطي بادرت إلى اقتراح عقد اجتماع حزبي موسع لدراسة الوضع واتخاذ القرارات المناسبة بشأنه. وحظي الاقتراح بموافقة المركز القيادي واتجهنا للتنفيذ.

❀ ❀ ❀

مع اتخاذ قرار الاجتماع الموسع كلفت زين العابدين رشيد بالبحث عن دار لنا مناسبة تستأجر لهذا الغرض. ووجدها في أسفل حي جميلة بالقرب من العلوة. لم يكن فيها إسالة الماء. فاشترى ١٢٠ متراً من الصوندة لسحب الماء من مسكن جار كان عريفاً في البوليس السري. وأوصيته، بعيد الانتقال إلى الدار، بذبح خروف وتوزيع لحمه على الجيران كنذر للمولود الجديد الذي رزقت به العائلة. وعند حلول موعد الاجتماع كلف دگله وحده بنقل المشاركين إلى بيت الاجتماع شرط أن يكون تحت جنح الظلام وأن يسير سيارته في دروب ملتوية لكي لا يعرف أي منهم المبنى. وحرم على الجميع الخروج من الدار والرجوع إليه قبل نهاية الاجتماع. ولسوء الحظ حدث ما أدى إلى أن يشذ عن هذه القاعدة مسؤول منظمة الفرات الأوسط آنئذ حمد الله مرتضى.

وقع حادث طريف لصالح دگله، وهو يقود سيارة (بيك آب) خارجاً من البيت بعد أن جلب إليه أحدهم. خرج ويل سيارته في شارع

القناة، في وقت كان رئيس الجمهورية عبد السلام عارف سائراً في سيارته وراءه. فوقف عارف وأمر مرافقيه بمساعدة سائق البيك آب وتفقده بنفسه وسأله عن سلامته وعرض عليه أي خدمة يحتاج إليها. وبديهي أن الرئيس عارف فكر في كل شيء سوى أن يكون هذا الشخص أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ومكلفاً بنقل رفاقه إلى بيت سري لعقد اجتماع حزبي سري سيرفع شعار إسقاط السلطة.

شارك في الاجتماع خمسة وعشرون شخصاً، بينهم سبعة من أعضاء اللجنة المركزية (أنا والناصري وعامر وآرا وناصر عبود ودگله وحسين سلطان). وكان أغلب الكوادر الحزبية من منظمة بغداد. وكان المفروض أن يكون عدد المشاركين أكثر من ذلك. لكن مندوبي منظمة الاقليم لم يصلوا (وكانت هي كبرى منظمات الحزب آنئذ). وقد ناضلت بقوة من أجل تأجيل الاجتماع لحين حضورهم لكن الآخرين لم يستجيبوا لطلبي وأصروا على عقد الاجتماع.

كانت غالبية المشاركين من ذوي الاتجاه اليساري المتطرف، الذي كان يعبر في الواقع عن رد فعل عنيف ضد النهج اليميني الذي ساد سياسة الحزب لسنوات سابقة. كانت المناقشات حيوية وحادة، رغم أن الاتجاه الفكري اليميني كان ضعيفاً ومتمثلاً بالدرجة الأساسية في سلام الناصري ولدرجة أقل حسين سلطان. وكان الموضوع الرئيسي، الذي دار حوله معظم النقاش، هو الخط السياسي اللاحق للحزب. كان القسم الأكبر يطالب بتبني خط سياسي أطلق عليه اسم «العمل الحاسم» أي الاستيلاء السريع على السلطة عن طريق انقلاب عسكري فوري. وكان الناصري من الرافضين لهذا الخط أصلاً. فيما كنت أقف بين الرأيين إذ كنت من مؤيدي اللجوء إلى الجيش من قبل الشيوعيين أيضاً، شأنهم شأن الأوساط الأخرى، كسبيل للوصول إلى السلطة في بلد تنعدم فيه الديمقراطية وتظل لغة العنف هي السائدة وهي الحكم الفاصل. وبهذا المعنى كنت مع تكتيك العمل الحاسم. غير أنني لم أكن على قناعة بأن

الحديث عن «العمل الحاسم» في تلك الظروف الصعبة، التي أعقبت نكسة ١٩٦٣ الكبرى كما أعقبت انحراف ١٩٦٤ اليميني، يحمل شيئاً من الجد حيث لم يكن لدى ح ش ع ـ الذي كنت على رأسه آنئذ، في غياب السكرتير ـ أي تنظيم حزبي في الجيش مؤهل للاضطلاع بمثل هذه المهمة. كنت أرى في إصرار هؤلاء على العمل الحاسم بتلك الكيفية ضرباً من الصبيانية. وكنت أقول أن من يريد الوصول إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري لا يقدم على إثارة الضجيج حول العمل الحاسم، بل يعمل بهدوء تام وبمنتهى الكتمان لكي ينتهز الفرصة المؤاتية من أجل توجيه ضربته الحاسمة. ورغم كل ذلك فإن الاجتماع أقر بأغلبية ساحقة خطة العمل الحاسم، كما أقر ما اعتبر دعماً لهذه الخطة بتشكيل ما سمي «خط حسين» ـ أي تكوين تشكيلات مسلحة من بين الشيوعيين المدنيين لدعم أي عمل انقلابي يقوم به العسكريون الشيوعيون في الجيش.

وبعد مناقشات طويلة اتخذ قرار بتخطئة وإدانة خط آب ١٩٦٤، لكي ينتقل الاجتماع بعد ذلك إلى المسألة الأخيرة والمعقدة في جدول العمل ـ إعادة بناء الهيئة الحزبية القيادية. كانت هذه مشكلة حقيقية لأن القيادة كانت قد فقدت ثقة معظم الكوادر جراء الأخطاء السابقة. وكنت أنا أمام أحد خيارين: التشبث بالنظام الداخلي، الذي كان يبيح لي رفض الانتخابات والحيلولة دون معرفة ما إذا كانت العناصر القيادية، سيما الموجودة داخل الاجتماع، تفوز بثقة من كنا نقودهم، أم المبادرة إلى إجراء الانتخابات لإعادة بناء المركز القيادي ولإبعاد من لا يفوز بالثقة. وقد اخترت، بوصفي المسؤول الأول وكالة، قبول التحدي والخروج من الهيئة القيادية في حالة عدم فوزي بثقة من كنت أقودهم. واقترحت على الاجتماع ما يلي:

ـ إخضاع جميع أعضاء اللجنة المركزية الموجودين في الاجتماع لاختبار الثقة وإخراج من لا يحصل على أغلبية الأصوات المطلقة في

الانتخابات من قوام الهيئة القيادية.

ـ استثناء غير الموجودين من أعضاء القيادة من هذا الاختبار، وعدم المساس بمراكزهم الحزبية.

ـ تجديد دم اللجنة المركزية عن طريق إضافة أعضاء جدد إليها من بين الحاضرين الذين سيفوزون في الانتخابات الحزبية.

حظيت مقترحاتي بالموافقة الإجماعية ووجد الاجتماع نفسه أمام مهمة تنفيذها وسط صراعات عنيفة. أرادوا أن تكون هناك قائمة بأسماء المرشحين إضافة إلى حق الترشيحات الفردية. وطلبوا مني المشاركة في اختيار هذه القائمة. اعتذرت عن ذلك ورفضت المشاركة الشخصية في مثل هذه القائمة وفي الهيئة القيادية المقبلة كما رفضت تسلم المسؤولية الأولى بالوكالة على الشاكلة التي كانت سابقاً. وبررت هذا الرفض بأني لست موافقاً على آراء وتقديرات غالبية المشاركين في الاجتماع وبالتالي لا أريد تحمل مسؤولية العمل لتنفيذ قرارات لست مقتنعاً بها. وقدم الناصري الاعتذار عن ترشيح نفسه أيضاً. وطوال أكثر من ساعتين ألح المجتمعون على أن أبقى وأقبل البقاء كمسؤول أول بالوكالة. فرضخت آخذاً بنظر الاعتبار أنها مهمة مؤقتة. وقدمنا قائمة للمرشحين من (١٦) اسماً على أن ينتخب (١٢) اسماً فقط. كانت النتيجة انتخاب ستة من بين سبعة أعضاء للجنة المركزية الموجودين، مع انتخاب ستة جدد هم كل من شاكر محمود وكاظم الصفار وكاظم فرهود وكاظم جواد وماجد عبد الرضا وإبراهيم الياس. وهكذا اتسعت الهيئة القيادية الميدانية إلى ١٢ رفيقاً. وأخرج من قوام الهيئة العامل البصري والشيوعي القديم ناصر عبود، الذي كان في واقعه أفضل من الكثيرين منهم.

انتهى الاجتماع. وفي صبيحة اليوم التالي نقلنا أثاث البيت إلى مسكن جديد مهيأ مسبقاً في حي علي الصالح، كتدبير احتياطي من تدابير الصيانة. وفي اليوم نفسه قبض على مسؤول منظمتنا في الفرات الأوسط حمد الله مرتضى عند عودته إلى مدينته. ويبدو أنه انهار فور وقوعه في

قبضة البوليس واعترف بكافة الأسرار التي كان يعرفها، بما في ذلك أسرار الاجتماع. وسار أمام رجال الأمن العام ليبحث عن الدار التي عقد فيها الاجتماع. لم يعثر على الدار بسهولة بل تأتى عليه التجول مع البوليس السري طيلة يومين ـ كما قيل في حينه ـ إلى أن عثر عليها. وحين كبسوها وجدوها فارغة. سألوا الجيران، بضمنهم عريف الأمن حسن، عمن كانوا في البيت وعن المكان الذي ذهبوا إليه. فأجابهم حسن:

ـ كانت هنا عائلة طيبة.

ـ وكيف علمت أنها كانت عائلة طيبة؟

ـ بعد مجيئهم بأيام قليلة ذبحوا خروفاً ووزعوا لحمه على الجيران كنذر.

ـ إنهم ضحكوا عليك وعلى أمثالك أيها الرجل المغفل! إنهم كانوا شيوعيين.

تمكن رجال الأمن من العثور على رقم سيارة البيك أب، التي كنا قد استخدمناها في نقل الأثاث، وألقوا القبض على صاحبها المعمار طارش، الذي كان من أصدقاء أبو باسل. وسجنوه شهراً كاملاً وعذبوه بوحشية. ولم يكن لديه ما يعترف به ويكشف لهم شيئاً مفيداً. أوصلنا مئة دينار إلى عائلته كمصرف لها أيام اعتقاله.

أسفر الاجتماع عن تحويل آراء وتطلعات التيار اليساري المتطرف في الحزب إلى سياسة رسمية له وأوجد لدى البعض الحماس الثوري فيما عزز الأوهام لدى البعض الآخر. ونشر المتطرفون المتحمسون وعوداً للناس بقرب حسم الوضع واستلام السلطة السياسية. واندفع البعض يبحث هنا وهناك عن قطع الأسلحة الصغيرة وأحياناً الصدأة والفاسدة، لتجهيز خط حسين. كان كاظم فرهود في مقدمة الباحثين عن الأسلحة والمبشرين بأن الثورة على وشك الانتصار عن طريق العنف والانقلاب العسكري. وقد أبلغني ماجد عبد الرضا ذات يوم، حين كنت

أقود سيارتي بشارع القناة وبجانبي كل منه ومن دگله، بأننا قادرون على أخذ السلطة بدبابة واحدة تهاجم القصر الجمهوري. اعترضت على هذا التقدير اللا واقعي وسألت:

ـ وماذا ستفعل بعد أن ينفذ عتاد دبابتك الوحيدة وتتحول إلى حديدة ملقاة على قارعة الطريق وأنت لم تستول بعد على شيء؟

ـ إذن فلتكن دبابتان ـ قال ماجد.

هكذا اختزل العمل الحاسم إلى حيازة دبابة واحدة منعزلة وقادرة على التحول إلى (سوبرمان). وفي وقت لاحق كان دگله يسوق سيارته، وهو في الشارع المار أمام القصر الجمهوري، ليحصي الدبابات الموجودة هناك. وإذا به يصطدم بمظلة الحرس وسط الشارع. ولم ينج من الاعتقال والتحقيق إلا بصعوبة بالغة.

وبعد حين قام رئيس الوزراء الضابط عارف عبد الرزاق، الذي كان معروفاً بميوله الناصرية، بمحاولة انقلابية واستخدم قطعات عسكرية، بما فيها قطعات من الدروع. وخاض معركة حقيقية ساخنة، للاستيلاء على السلطة.. ولكنه أخفق وسحقت محاولته واعتقل.

❀ ❀ ❀

غادرت منزل أحد الأصدقاء في حي البياع متجهاً إلى منزلي في حي الشرطة. لاحظت أن حركة السير في الشوارع تكاد تكون معدومة. ولم أعرف السبب حتى استوقفتني في أحد الشوارع سيارة من سيارات البوليس وسألني مفوض الشرطة:

ـ هل لديك ورقة السماح بالتجول؟

ـ كلا ليست لدي.. وهل لا يسمح بالتجول؟

ـ ألم تسمع الإذاعة؟ ألا تعرف أن منع التجول قد أعلن في بغداد منذ صباح اليوم؟

ـ لا لم أعرف شيئاً ولم أفتح الراديو.

نظر المفوض إلى هويتي ـ وكانت بالطبع مزورة ـ ثم قال:

ـ أصدقك بأنك لم تسمع عن منع التجول وأسمح لك بمتابعة السير إلى بيتك شرط أن تعطينا جك سيارتك لبعض الدقائق كي نبدل إطار سيارتنا هذه.

بدأنا نتبادل أطراف الحديث مع الشرطة، فيما انصرف البعض إلى تبديل الإطار. قلت أن الكثيرين من الناس لم يسمعوا بمنع التجول. ولهذا ينبغي التسامح وعدم التشديد. فأجاب المفوض قائلاً:

ـ نحن لسنا بالحرس القومي ـ البعثي ولا نريد إلحاق الأذى بأحد.

ـ شكراً لكم.. ولكني أخشى أن أتعرض لمضايقات غيركم، وأنا في طريقي إلى البيت.

ـ نحن نأتي بسيارتنا معك حتى نوصلك.

بعد إصلاح سيارتهم رافقوني فعلاً ولم أتعرض لشيء. دعوتهم إلى تناول الشاي في بيتي واعتذروا.

كان إعلان منع التجول الفجائي في ذلك الصباح الباكر من نيسان ١٩٦٦ بسبب موت رئيس الجمهورية عبد السلام عارف جراء سقوط طائرته العمودية أثناء جولة إلى جنوب العراق. ولا أملك معلومات عن سبب سقوط الطائرة ولكني أرجح أنه كان شيئاً مدبراً. وقد نافس رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز المدني شقيق عبد السلام (أي عبد الرحمن) على منصب الرئاسة. لكن كفة الأخير رجحت بسبب دعم الضباط الكبار له.

التقيت بوالدتي بعد هذا الحادث بأيام فوجدتها فرحة أشد ما يكون الفرح. كانت تؤكد بشكل قاطع أن موته بهذه الصورة كان بسبب دعائها. فهي توسلت إلى الله لكي يقضي عليه حرقاً ويحوله إلى كتلة فحم. فاستجاب تعالى وحوله فعلاً إلى فحم.

١٣

عودة السكرتير وانتقالي إلى كردستان

في آذار أو نيسان ١٩٦٦ عاد سكرتير الحزب عزيز محمد من موسكو إلى البلاد، بعد إكمال الدورة الدراسية الحزبية. واستلم مهماته كسكرتير للحزب. وبعد أسابيع قليلة تهيأت لأسافر إلى اقليم كردستان كي أكون سكرتيراً للمنظمة الحزبية، التي كانت تعاني منذ أمد من أزمة قيادية حادة. وكان ستار خضير قد أصبح سكرتيراً لها عن طريق الحصول على ثلاثة أصوات فقط من أصل عشرة أصوات أو أكثر. ولم يحصل أي من المرشحين الآخرين حتى على الثلاثة.

في ٤ أيار ١٩٦٦ وصلت السليمانية لأسافر من هناك، بصحبة الشاب الشيوعي جلال أبو شوارب، إلى مقر قيادة الاقليم في قرية (كليته) بسفح جبل كاروخ. كان هناك كونفرنس حزبي لمنظمة الاقليم وكان المفترض أن أشارك فيه. وقد استعجلت في السفر ولكني لم أصل إلا في اليوم الأخير ومع اختتام أعمال الكونفرنس (المؤتمر).

كان عدد المشاركين فيه (٢٦) مندوباً. وقد وجدت أن ليس هناك ما يصدر من الكونفرنس كبلاغ أو وثيقة سياسية. ومعنى ذلك أن يكون ما حدث أشبه باجتماع حزبي مغلق لا شأن له بالجماهير وبمشاكلها السياسية والقومية المحتدمة. فاقترحت إصدار بيان باسم الكونفرنس

يتناول الوضع السياسي السائد ويوجه النقد إلى قيادة الحركة الكردية المسلحة ويقدم مقترحات وحلولاً لمعالجة بعض المشاكل ولتحويل الهيئات الصورية إلى هيئات حقيقية ذات صلاحية في الثورة الكردية.. الخ. صغت بنفسي مشروع البيان وأقره المندوبون بالإجماع.

❀ ❀ ❀

قدر لي أن أكون في قرية كليته، بالقرب من جبل هندرين العملاق، يوم معركة هندرين التأريخية، التي كانت أكبر معركة عسكرية وأبرز نصر تحرزه الفصائل المسلحة في كردستان العراق حتى ذلك اليوم. وقد بدأت المعركة في الثاني من أيار ١٩٦٦، عندما تسللت تحت جنح الظلام وحدات من الجيش بمساعدة ومشاركة الجيوش الأكراد إلى مرتفعات فوق الجبل واتخذت لنفسها مواقع قبالة فصيل الحراسة الشيوعي الصغير. وعندما نقل المسلحون الشيوعيون من مقرهم في قرية برسرين ومن سفوح هندرين بعض التعزيزات إلى فصيل الحراسة الأمامية كان الجيش قد أقام لنفسه العديد من الربايا والتحصينات العسكرية والمدافع الخفيفة. وقد أثار البعض من خصومنا ضجة كبيرة ضد رفاقنا الفدائيين متهمين إياهم بالتواطؤ مع السلطة وببيع هندرين لها. كان لا بد من عمل كبير يعيد المياه إلى مجاريها.

كان المسؤول العسكري لوحدتنا المسلحة كمال نعمان، النقيب الشيوعي العربي من أهالي ديالى، الذي كان قد هرب من الجيش إثر انقلاب ١٩٦٣. كان كمال رجلاً هادئاً خلوقاً ومحترماً بين الفدائيين. وقد تأثر بما حدث في هندرين شديد التأثر ليس فقط كمسألة سياسية وعسكرية، بل كذلك كمسألة شخصية مسته بوصفه قائد الفصائل الفدائية المناطة بها حراسة هندرين. فسهر على وضع خطة لشن هجوم مضاد يؤدي إلى استعادة الجبل. وكان عليه تدبير الأمر في ظروف عدم تكافؤ القوى العسكرية عدداً وتكنيكاً. فقد كانت في حوزته قرابة (٢٥٠) مسلحاً بأسلحة بدائية بسيطة أفضل ما فيها بندقية سوينوف، إضافة إلى مدفعي

هاون عقدة (٣)، في حين قدرت قوات السلطة بما يزيد عن ألفي جندي مع تجهيزات جيدة ومع دعم قوي بالمدفعية والطيران.

هنا أتذكر إحدى الطرائف. كان عريف الشرطة السابق شبه الأمي عبد الله پشدري آمرا لهيز (أو قوات) منطقة بالك. وكانت وحدة الفدائيين الشيوعيين، التي يقودها كمال نعمان، جزءاً من هذه القوات خاضعاً لعبد الله. وفي إحدى الليالي ظهر هذا الأخير في زيارة عمل إلى كمال نعمان. جلس الاثنان في شبه كهف تحت صخرة كبيرة. وطلب آمر الهيز عرض خطة الهجوم التي رسمها كمال ليطلع عن كثب عليها. فاستجاب كمال وعرض الخريطة على ضوء اللوكس المشعول، وهو يشرح ما قرر مع رفاقه. اقترب عبد الله من الخريطة وقرب اللوكس إليها. ولم يكتف باللوكس بل أخرج من جيبه المصباح الكهربائي اليدوي وشعله فوق الخريطة. ثم لبس نظاراته المكبرة وأخذ يتفحص الخريطة. وبعد دقيقتين أو ثلاثة من النظر بغباء انسحب إلى الوراء ـ والكلام لكمال نعمان ـ دون أن يفهم شيئاً من الخطة أو الخريطة.

في صبيحة ١٢ أيار وبعد إطلاق القذيفة الثالثة من مدفع الهاون الصغير صدر الأمر إلى الفدائيين، بضمنهم قسم من مسلحي عزت سليمان بك القريب منا سياسياً، بالهجوم. وفي معركة عسكرية خاطفة ألحقوا الهزيمة الكاسحة بالعدو ولاحقوه حتى اقتربوا من معسكر رواندوز. استشهد خمسة من فدائيينا، بضمنهم الفدائي الشجاع عريف يونس، الذي كان آمر فصيل الحراسة حين تسلل الجيش إلى الجبل. وحسب المعلومات التي أرسلها رفاق منظمتنا في رواندوز بلغ عدد قتلى العدو ٧٥ قتيلاً إضافة إلى حوالي ٢٥٠ جريحاً، أصيبت غالبيتهم جراء سقوطهم في الأرض الجبلية الوعرة.

كنت لا أزال في (كليته) حين أتى إلينا مراسلنا السريع مشياً (عريف نوري) حاملاً إلينا نبأ الانتصار المفرح فوق الجبل. بادرت إلى إرسال جميع مندوبي الكونفرنس ومن حوالينا شطر هندرين كي يشاركوا

في جمع ونقل ما يمكن الحصول عليه من الغنائم المفيدة لنا من سلاح وعتاد وأجهزة لاسلكية وغيرها. ذهبوا جميعاً، وسبقهم رؤوف قادر ثم عاد نحوهم قبل أن يصعدوا الجبل وأخبرهم بأن ليس هناك ما يمكن جلبه ولا داعي لمواصلة السير. فرجعوا أدراجهم دون أن يجلبوا شيئاً. وفي وقت لاحق حصلنا فقط على عدد من أجهزة اللاسلكي، التي جلبها لنا فدائيونا المشاركون في المعركة. وأشيع على نطاق واسع بأن الشيوعيين أخذوا وأخفوا أسلحة كثيرة ـ وكان حجم الانتصار الكبير يساعد على خلق وتصديق مثل هذه الإشاعة. وأرسلت قيادة الحركة المسلحة إلى رفاقنا من طلب منهم عدداً من الغدارات بذريعة أنها بحاجة إليها كي ترسلها إلى الفدائيين المكلفين بالعمليات العسكرية في المدن.

بعد خسران معركة هندرين لجأت حكومة عبد الرحمن عارف إلى السلاح الجوي بتكثيف القصف المتواصل. كانت طائرات (هنتر) الإنكليزية الصنع، التي صممت أصلاً لاستخدامها في حرب العصابات ضد الفادئيين الماليزيين، أخطر ما في الجو إذ كانت تطير على ارتفاع منخفض وتسير بسرعة قليلة تجعله قادرة على قصف الهدف فور مشاهدته ودون أية مناورة. وقد قتلت هذه الطائرات خاصة والطائرات الحربية عامة عدداً كبيراً من الأغنام والأبقار والبغال والكلاب في منطقة بالك وفرضت عملياً منع التجول على البشر وعلى المواشي طيلة ساعات النهار. وكان أحد فدائيينا، ويدعىٰ عدنان ـ وهو من بغداد ـ قد خرج من مخبأه للحظات فيما مرت في الجو طائرة هنتر وجعلت منه أحد ضحايا هذه الغارات.

وكانت الطائرات السوفيتية الصنع ـ كالميك والباجر ـ تستخدم في الغارات أيضاً، ولكنها كانت أقل قدرة على إلحاق الأذى بالفدائيين في هذه الغابات الكثيفة ـ الجبلية، ربما لأنها كانت مصممة للحرب النظامية وحسب. وكانت القاصفات الثقيلة تقوم يومياً برحلة النهار والليل وتلقي بقنابلها كيفما اتفق لتعود بعدئذ أدراجها. ولم أسمع أن تلقي القنابل على أية قرية في المنطقة.

كنت جالساً عند الطبيب العربي الشيوعي المجند والهارب من الجيش منذ ١٩٦٣ د. حسن في مستشفىٰ (ناوپردان) حين جلبت إليه امرأة جريحة. كان منظراً مأسوياً مرعباً: امرأة شابة أنزلها زوجها من ظهر البغل وطرحها أمام الطبيب وهي مغمى عليها، ويداها مقطوعتان برصاصات المدفع الرشاش من إحدى الطائرات. لم يتأثر د. حسن قدر تأثري بالمشهد لأن هذه المشاهد أصبحت يومية بالنسبة إليه. وقد عاد إلى الجريحة وعيها للحظات فصرخت بين الهذيان والكلام الطبيعي:

ـ طيارة. طيارة. جاءت الطيارة.

ـ ثم عادت إلى الإغماءة. ويظهر أن نزفاً كثيراً قد زاد من إنهاكها. سألت زوجها، الذي جلبها وكان أكبر منها بحوالي ٢٠ ـ ٢٥ سنة:

ـ كيف أصبحت على هذه الشاكلة؟

ـ عندما ظهرت إحدى الطائرات كان ابنها الصغير فوق البغل. فركضت إليه ومدت يديها لعلها تنزله من البغل قبل أن ترميه الطائرة. وجاءت رشقة رصاص من الجو أصابت يديها على هذه الصورة.

فكرت مع نفسي قليلاً: أية مأساة هذه الحرب وكم من الضحايا الأبرياء أمثال هذه الأم الريفية المسكينة! وأين هم الآن أولئك المجرمون الذين في أيديهم الأمر والنهي ويصدرون إلى الطيارين الأوامر بقتل الأبرياء.

وكان الزوج المسكين شديد التأثر. وكان أصعب ما يفكر فيه هو أن تعيش زوجته من دون اليدين ـ كما أفصح. إذا بقيت بلا يدين فإنها سوف لن تستطيع الإسهام في تدبير أمور المواشي والبيت، بل تحتاج دوماً إلى من يساعدها في الأكل والشرب وفي كل شيء.

شهدت منظراً مأسوياً آخر في كهف بأسفل قرية (درگله). كانت امرأة من تلك القرية قد لجأت مع ابنتها الشابة وطفليها الصغيرين إلى ذلك الكهف هرباً من الطائرات. وألقت طائرة هنتر قذيفة صاروخية إلى

داخل الكهف فحولت هؤلاء الأربعة إلى كدس من اللحم المثروم.

وفي رايات جلس جمع من الغجر داخل أحد البساتين تحت الأشجار. وتصاعد الدخان من نار أشعلوها لتهيئة الشاي. فألقت إحدى الطائرات صاروخاً على البقعة التي يتصاعد منها الدخان. وكان عدد الضحايا ٢٦ شخصاً من أطفال ونساء ورجال.

كانت لمعركة هندرين طرائفها أيضاً. وقد كلفت قيادة منظمة الاقليم، الدكتور عز الدين مصطفى، الذي كان موجوداً هناك بتحقيق صحفي شامل وكتابة كراسة حول المعركة. وهو قام بذلك فعلاً، ولكن حصيلة عمله لم تطبع مع الأسف. ومن أطرف الطرائف ما فعله الفدائي العريف عثمان. فقد دخل، خلال الدقائق الأولى من الهجوم، خيمة ضباط كانوا قد هربوا تاركين قنينة العرق فوق منضدة صغيرة قبل أن يكملوا الشراب. أخذ عثمان القنينة المليئة حتى منتصفها وجلس هناك وسط المعركة الساخنة، متكئاً على صخرة كبيرة. وبدأ يشرب العرق من القنينة مباشرة وبشكل مثير للفضول. سأله أحد المقاتلين:

ـ ماذا تفعل يا عثمان؟ هل هو وقت الشرب الآن؟

ـ دعني لأشرب كل ما في هذه القنينة حتى أغدو حماراً ولا أتراجع إلى أن أصل ثكنة رواندوز.

وعثر في نفس خيمة الضباط تلك على رسالة ضابط شاب موجهة إلى خطيبته أو صديقته في بغداد. بعد إبداء سروره العظيم بما نال منها في آخر لقاء بينهما يدعو الله تعالى إلى أن ينهي الحرب ويفرجها عليه وعلى الجنود وعلى العصاة معاً.

وكانت لمعركة هندرين نتائجها السياسية الهامة أيضاً. قبل المعركة كانت الكلمة الحاسمة لكبار الضباط، الذين كانوا يتشبثون بالحل العسكري للمشكلة. وعبثاً حاول رئيس الوزراء آنئذ عبد الرحمن البزاز تحقيق هدنة والدخول في مفاوضات مع الملا مصطفى البارزاني. وبعد

هزيمة الجيش الشنيعة وتحت تأثيرها عادت الكلمة الحاسمة إلى رجال السياسة المدنيين فقبل البزاز باتفاق ٢٩ حزيران ١٩٦٦ وأصدرت السلطة بياناً تضمن مطالب للأكراد أقل من الحكم الذاتي. لكن البارزاني قبل بها لأنه كان يرغب في إيقاف القتال مع الحكومة والتفرغ لضرب الجناح المتمرد عليه والمتعاون مع السلطة منذ أوائل صيف ١٩٦٦، وأعني جناح إبراهيم أحمد ـ جلال الطالباني ومن كان معهم من أعضاء المكتب السياسي السابق للپارتي، الذين كانوا قد عادوا من همدان في ١٩٦٥ على أثر المصالحة مع البارزاني. ورغم أن الهدنة المذكورة خففت من المشاكل والمآسي بعض الشيء إلاّ أنها لم تضع حداً للحرب الأهلية، بل تحولت الحرب إلى مقاتلة الأكراد بالأكراد.

لم يستشرنا أحد، ولم أسمع أن يستشار غيرنا في إبرام هدنة ٢٩ حزيران. وقد كتبت مقالاً نشر في جريدتنا الاقليمية (ريگاي كردستان) وكرس لمناقشة الاتفاق. انتقدت نقاط الضعف في الاتفاق وتنبأت بأن الهدنة لن تقود إلى حل وطيد للمشكلة الكردية ولن تدوم طويلاً، بل سيتجدد القتال، خاصة في ظروف غياب الديمقراطية في البلاد واستمرار الحكم العسكري والأوضاع الاستثنائية. وهكذا سارت الأمور عملياً.

طيلة أيام القصف الجوي المكثف بقي الكهف الحصين خلف قرية كليته مقراً لنا. كان البعوض يزعجنا ويؤذينا في الليل وحتى في النهار عندما نكون خارج الكهف. لكن البعوض لم يدخل الكهف أبداً، لا في الليل ولا النهار، لسبب لم أعرفه. ولا زلت أتذكر بأي تلهف سمعت ذات ليلة صوت أم كلثوم البديع في أغنية (بعيد عنك). وكنت أحس بوطأة البعد عن الفتاة التي بادلتها الحب في بغداد.

بعد بيان ٢٩ حزيران انتقلنا من الكهف إلى قرية درگله واتخذنا من مدرسة القرية مقراً لنا. وربطت بيني وبين آغا القرية المسن سليمان بگ، الذي لم يكن ثرياً، علاقة ودية. وكان هذا الآغا من مرافقي البارزاني في تمرده على السلطة وذهابه إلى مهاباد، أثناء قيام جمهوريتها، ثم إلى

الاتحاد السوفيتي كلاجئين. وهو كان شيخاً طيب القلب وسخياً ومنكتاً. وعندما كان يجري النقاش حول ما يمكن أن يسفر اتفاق ٢٩ حزيران، روىٰ سليمان بگ لنا النكتة التالية: عاد صبي إلى بيته شديد التألم حزيناً. فاستفسرت منه أمه عن السبب. قال:

ـ إن أحد الأطفال شتمني شتماً غريباً.

ـ وما هو هذا الشتم الغريب؟

ـ حول الشاتم قضيبة إلى ما بين فرج أمي ودبرها، وهذا سبب لي الحزن العميق.

ـ لا تحزن ولا تهتم بالأمر يا ولدي! فالقضيب لن يستقر بين الاثنين ولا بد أن ينزلق إلى أحدهما.

والوضع بعد هذا البيان ـ علق سليمان بگ ـ لن يظل معلقاً حتى زمن طويل، بل لا بد من أن يستقر في إحدى الحالتين.

كانت هناك حفلة في القرية. واحتشد القرويون والفدائيون في دبكات وأغان بساحة المدرسة. وكما هي العادة في الريف جرني سليمان بگ معه للمشاركة في الدبكة. وتحمس عضو مكتب الاقليم أحمد بانيخيلاني فأخرج مسدسه وبدأ يضرب الرصاص في الهواء. لم يلبث أن ارتفع الصراخ في الجانب الأعلى من القرية وانقلب العرس إلى بكاء. كانت زوجة زرار سليمان بگ، وهي شابة سوفيتية تزوجها أثناء وجوده مع والده هناك، قد أصيبت في عضدها بطلق ناري من مسدس بانيخيلاني. وحين عرف سليمان بگ بذلك علق على الحادث فقال:

ـ شكراً لله على أن المصابة كانت من عائلتنا، رغم أن ابني زرار لن يرضى بأربع نساء منكم كبديلة عن زوجته هذه فيما لو توفت.

❀ ❀ ❀

بعد وصولي بأيام إلى كليته أصبت بعرق النسا وأصبحت أسير

متكئاً على العصى. ورغم ذلك قررت زيارة الملا مصطفى البارزاني والمكتب التنفيذي للثورة الكردية. وجواباً على طلبي حدد البارزاني موعد لقائي به في نادي الموظفين السابق بقرية گلاله في المساء. وفيما كنا جالسين هناك ظهرت طائرة باجر وهرب الناس مذعورين إلى خارج القرية فيما بقينا، البارزاني وأنا، دون حراك. وقد ألقت الطائرة قنبلتها الضخمة على بعد مئات الأمتار من القرية وعادت أدراجها. كانت زيارتي للمجاملة فقط، بعد أن أصبحت سكرتيراً لمنظمة ح ش ع في الاقليم. وأبرز ما لاحظته خلال الحديث هو أن البارزاني كان مهتماً بمسألة الحصول على المساعدة السوفيتية. وقد كاشفني بذلك وطلب منا، نحن مسؤولي ح ش ع، أن نبذل الجهد لتحقيق ذلك. وكتبت بهذا الصدد في حينه إلى قيادة الحزب.

وتوجهنا فيما بعد، أنا وأحمد بانيخيلاني وعادل سليم، إلى مقر المكتب التنفيذي للثورة الكردية، الموجود في قرية بسفح قنديل. وفي طريقنا زرنا نوري شاويس وعلي عبد الله، عضوي المكتب السياسي السابق في الپارتي، اللذين كانا يقيمان في قرية (ولزي) ورفضا الانضمام إلى التمرد الذي قاده إبراهيم أحمد. وقد باركت لهما هذا الموقف وحثثتهما على الثبات فيه. وفي المساء انتقلنا إلى قرية أخرى لنبيت ليلاً عند رفيقنا عامل الطباعة أبو شامل، الشاب الشيوعي الكلداني الذي كنا قد وضعنا خدماته تحت تصرف الپارتي لطبع جريدته (خبات).

زارنا لدى أبو شامل منظمي الحزبي السابق حميد عثمان، الذي كنت قد التقيت به لآخر مرة في أيلول ١٩٥٨، يوم كان عضواً في المكتب السياسي للپارتي، سألته عما إذا كان قد عاد إلى الپارتي. فأجاب:

ـ كلا لم أعد إلى الپارتي، بل أنا مجرد ممثل شخصي للبارزاني.

ـ لكنك تعمل الآن، كما سمعت، في جريدة (خبات) الناطقة بلسان الپارتي.

ـ نعم أنا رئيس تحريرها.

ـ وكيف يمكن أن يكون رجل لا حزبي رئيساً لتحرير جريدة حزبية مركزية؟

ـ في حزب كالپارتي تسير الأمور على هذا المنوال.

كانت هذه مسألة غريبة بالنسبة إليّ إذ كيف يستطيع شخص غير حزبي التعبير عن سياسة وأفكار حزب ما؟ لكنه شأن خاص بالآخرين. بادلت الحديث مع حميد عثمان حول الوضع السياسي في العراق عامة والثورة الكردية على وجه الخصوص. وفي مجرى الحديث أدلى حميد بمقولتين طالما رويتهما في شتى المناسبات.

في مقولته الأولى أورد المثل الشعبي الكردي: «في يدي عصى مخري بها من الرأسين» وأضاف: أن العصي الموجودة في أيدينا مخري بها من وسطها أيضاً.

وفي مقولته الثانية قال «إنه لرائع أن يخرج المرء من هذه الثورة ـ الثورة الكردية ـ ويقول عنه الناس أنه لا يزال وطنياً، وكنت متفقاً في أعماقي مع كلتا المقولتين.

في اليوم التالي وصلنا المكتب التنفيذي، الذي بدا لي هيئة صورية هزيلة لا حول لها ولا قوة. كان المسؤول عن المكتب التنفيذي علي سنجاري، ومعه رجلان أميان سياسياً وغير محسودين على مستواهما ـ نافذ جلال ومحمد أمين. وقد أثار أحدهما ضجيجاً أخجلنا نحن الضيوف، لا لسبب سوى أن الغداء قد تأخر قرابة نصف ساعة، ونهض وابتعد خطوات محتجاً. وعندما قيل له أن الدجاجة لم تستو بعد ابتسم ورجع ليجلس في مكانه أشبه بطفل استجيب لطلبه. ووجدت نفسي مرغماً على أن أتساءل مع نفسي: أي مكتب تنفيذي للثورة وأي نجاح يمكن انتظاره لثورة يكون تنظيمها على هذه الشاكلة.

كان مكتب الاقليم يتكون مني ومن أحمد بانيخيلاني وعادل سليم ويوسف حنا القس، فيما كان أعضاء لجنة الاقليم الآخرون موزعين على تنظيماتنا في المحافظات. وقد عقدنا أول اجتماع للجنة الاقليم ـ أثناء وجودي هناك ـ في صيف ١٩٦٦ وكنت قد هيأت التقرير الذي أقره المكتب ليعرض على الاجتماع. النقطة الجديدة التي خرجت بها على التقاليد السائدة في اجتماعاتنا الحزبية كانت تتعلق بتقييم مكرس لشخص الملا مصطفى البارزاني من حيث وضعه الفكري وانتماءه الطبقي وكفاءاته.. الخ. وبموجب هذا التقييم وضعنا البارزاني ضمن ممثلي الطبقة البرجوازية الكردية من الجناح الذي يحمل خليطاً من العقليات الفلاحية ـ العشائرية ومن عقلية مثقفي العصر الماضي، ويعتمد في عمله الأساليب العشائرية. وأكد التقييم أنه زعيم وطني وقومي يخدم شعبه. وأخطأنا في التقييم بالنسبة لموقف البارزاني من الشيوعية إذ ذكر التقييم أنه لن يكون أبداً من المعادين للشيوعية وقد عممنا الفقرة الخاصة بتقييم البارزاني فقط على لجان المحافظات طالبين عدم نشرها والاحتفاظ بها كوثيقة سرية. وظهر أن فاخر مرگه سوري خرق هذا القرار في وقت لاحق وربما أوصلها إلى عائلة البارزاني أيضاً لتأكيد ولائه الشخصي لها.

❀ ❀ ❀

حين توليت قيادة اقليم كردستان كانت منظمتنا الحزبية في الموصل منقسمة على نفسها، يسير قسم منها وراء مصلح الجلالي، الذي كان عضواً في لجنة الاقليم، والقسم الآخر ـ وأغلبيته من الشيوعيين الكلدان والآثوريين ـ وراء توما توماس. وبعد التحقيق والتدقيق توصلنا إلى قناعة تامة بأن مصلح، الذي أوفد سابقاً لقيادة المنظمة الحزبية في تلك المحافظة، لم يكن عنصر الانسجام أبداً ـ طبعاً دون أن أبرىء سلوك توما من التقصير. وقد أوفدنا علي البرزنجي ليحل محل مصلح الجلالي. وتمكن من رأب الصدع وإعادة توحيد المنظمة.

وبحكم القرب من سوريا كلفت علي بزيارة دمشق لغرض فتح

الطريق أمام السفر ذهاباً وإياباً ولإقامة الصلة مع الحزب الشيوعي السوري. وبمجرد الصدفة وجد رسولنا البرزنجي عزيز الحاج، الذي كان قد وصل من براغ إلى الشام أوائل ١٩٦٧، وقيل أنه كان شديد التردد في المجيء إلى العراق، بل كان قد قرر العودة إلى أوروبا لولا نقد خالد بگداش له ووصول البرزنجي إليه في الوقت المناسب. وقد نقله هذا الأخير، عند عودته، إلى مدينة الموصل ليسفر من هناك إلى بغداد في وقت كنت موجوداً هناك للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية شباط ١٩٦٧. أوصلت عزيز الحاج إلى الكادر الحزبي عزت، الذي كان يسكن وكراً حزبياً سرياً، ليقيم عنده بعض الأيام. بعد ٣ ـ ٤ أيام أتاني عزت ليقول لي:

ـ أنا لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، من هو ذلك الرفيق الذي جلبته للسكن معنا. لكني أجزم أنه جبان للغاية وإذا وقع في قبضة السلطة فإني لا أتوقع فيه الصمود، بل سينهار فوراً ويقدم كل ما لديه من معلومات.

حاولت تبرير موقف الحاج بذريعة أنه لم يتعود بعد العيش في مثل هذه الظروف. لكنني لم أكن بنفسي مقتنعاً بالآراء التي قدمتها بهذا الصدد.

استلمنا ذات يوم محضر اجتماع لجنة المحافظة، التي كان يقودها فاتح رسول وفوجئنا بمناقشة كانت غير اعتيادية وغير متوقعة في تلك الظروف على الأقل. فالمحضر يعرض رأي فاتح أو اقتراحه إلى اللجنة، بحل تنظيمات ح ش ع في اقليم كردستان وانضمام الشيوعيين إلى الپارتيين لتكوين حزب ديمقراطي. وقد وقف ضد الاقتراح أغلبية أعضاء لجنة المحافظة. وذكر البعض بيننا بما حدث في ١٩٥٧ من حدث مشابه في منطقة كردستان وأدى إلى خروج بعض الكوادر من صفوف ح ش ع وانضمامهم إلى الپارتي.

وقفت من جانبي ضد أي عقوبة أو إجراء انضباطي إزاء فاتح رسول بسبب تبنيه هذه الفكرة وعرضها على لجنة المحافظة. واكتفينا بإرسال جواب رفضنا فيه الفكرة وأوردنا مبررات الرفض وانتقدنا فاتح نفسه، وقد عممنا الجواب على لجان المحافظات الأخرى لغرض الاطلاع والتثقيف.

❀ ❀ ❀

في آب ١٩٦٦ صعدت برفقة زرار سليمان وبضعة فدائيين جبل كاروخ الشاهق الذي لا أستبعد أن يكون اسمه آشورياً قديماً. أقمنا هناك بجانب حفرة مليئة بالثلوج الأبدية وكنا نخرج الثلج لنذيبه من أجل الشرب والطبخ والغسل. في الليل تفرجت من هناك على نيران النفط في كركوك. وفي النهار تفرجت على منطقة بالك. هي منطقة عجيبة وبديعة، تشبه مشتلاً حقيقياً للجبال أوجدته الطبيعة في وقت ما من عمر هذا الكوكب. تشكل سلسلة جبال كاروخ وهندرين وزوزك وقمة (حسن بگ) وجبل (حساروست) في الجنوب والغرب حزاماً جبلياً لها فيما تشكل سلسلة قنديل ـ حاجي عمران حزامها الشمالي. وفي هذه المنطقة بالذات، وفوق جبل حساروست انتصبت قمة (هلگورد) التي تشكل أعلى بقعة جبلية في العراق. وفي سفوح حساروست وجدت قرية روست ـ گرتك، البديعة بمناظرها الجميلة والغنية ببساتينها ذات الفواكه المتنوعة. وأكاد أجزم أن هذه القرية كانت فريدة من نوعها في العراق من حيث إنتاج الفواكه. وقد انمحت هذه القرية كلياً في السبعينات على يد صدام.

يدخل شارع، مبلط ومنحوت في العديد من أماكنه نحتاً، إلى منطقة بالك قادماً من اربيل واصلاً إلى إيران. اهتم الانكليز في وقت مضى بإنشاء هذا الشارع ليس بمعزل عن الأغراض العسكرية. وأقرب نقطة من الشارع إلى مقرنا تدعى (حافيز) وهي تحوير لكلمة (أوفس) الإنكليزية ومن مخلفات الأيام التي أشرف خلالها الإنكليز على إنشاء الشارع.

وفي قمة موضعية (أو شتلة من الشتلات الجبلية) تدعى (مامه روته) يبحث الفلاحون حتى الآن عن مخلفات الجنود الروس، الذين وصلوا إلى هنا إبان الحرب العالمية الأولى، في طريقهم إلى رواندوز. ويقال أن البعض حصل على خوذ وبنادق روسية قديمة.

إن سفوح كاروخ المطلة على منطقة بالك ستصبح ذات يوم من أجمل المصايف إن لم تكن أجملها إطلاقاً، في هذا البلد. فالجو معتدل أو بارد والمناظر خلاّبة والمجال فسيح لإنشاء الشوارع والحدائق والفنادق وبيوت الاستراحة وخطوط (التل فريك) ومختلف منشآت الاستجمام والرياضة.

وبعد سفرة كاروخ بأيام ذهبت مع عزت سليمان إلى جبل حساروست وصعدنا قمة (هلگرد). كنت جالساً مع الشاعر أحمد دلزار في ١٠ أيلول ١٩٦٦، نتفرج من قمة الجبل على أحواض ماء بديعة وكأنها من صنع الإنسان وسط الجبل. تجمعت الغيوم وسقطت ثلوج - وهي المرة الأولى والأخيرة التي شاهدت فيها سقوط الثلوج في مثل هذا الوقت المبكر. في المساء نزل زملائي إلى شبه كهف يبعد عن القمة فقط ٣٠٠ ـ ٤٠٠ متر. في حين أصررت على أن أنام فوق أعلى نقطة لأكون أعلى من جميع العراقيين في تلك الليلة. كنت أملك كيس نوم من الريش يقي من البرد. وبقي معي فدائي واحد من أهالي خانقين أسمر كبير الشاربين، كنا ندعوه (چاپاييف). شربنا قنينة البيرة اليتيمة وشربنا القهوة قبيل غروب الشمس. وبعد ٤٥ دقيقة أردنا تسخين بقايا القهوة فوجدناها متجمدة تماماً.

كنا تغطينا ونحن نتحدث إلى بعضنا. سألت چاپاييف:

ـ ماذا يعجبك الآن؟ قل دون تحرج أو خجل:

فأجاب الفدائي ذو المنشأ الريفي:

ـ تمنيت لو أكون خيالاً في الليل واقترب من بيت الشعر، الذي

تقيم فيه حبيبتي. وعندئذ أربط حصاني على بعد ٥ ـ ٦ دقائق وأذهب مشياً وأتسلل إلى بيت الشعر من إحدى زواياه. وأحضن حسنائي، فيسقط رذاذ المطر عبر ثقوب البيت الشعري على وجهي وأنا أقبل وجه الحبيبة.

صعدت جبل هندرين أيضاً. كنت بصحبة آمر إحدى السرايا من فدائيينا العم صديق ديوانه، الذي كان يحمل بندقية برنو وكان يعتبرها أجمل وأفضل بندقية في العالم. وكان معنا شاب صغير من شغيلة المقر وابن حائك من جيراننا القدامى في مدينة السليمانية. تفرجت هناك على معظم الربايا الست والثلاثين، التي أقامها الجيش خلال الأيام العشرة من تواجده هناك في أيار ١٩٦٦. وصعدنا قمة (كپكمو) التي هي أعلى قمة فوق الجبل. وقبل أن نعود أفلح العم صديق في قتل معزة جبلية سحبناها إلى مقرنا في درگله وأكلنا منها أكثر من ثلاثين كغم من أطيب اللحوم.

يوم جلست فوق قمة هلگرد، وأنا في أواخر العقد الرابع من عمري، ذكرت عائدة، الفتاة الشيوعية التي بادلتها الحب. في شبابي لم أبادل أي فتاة الحب. كانت عائدة أول فتاة أحببتها. وقد كاشفتني هي في آذار ١٩٦٦ بأنها تحبني. وبعد سفري إلى كردستان كنت أتلقى منها الرسائل الغرامية الحارة وأجيبها بمثلها. ومن فوق قمة هلگرد كتبت إليها رسالة حب ساخنة اعترفت لاحقاً بأنها أجمل وأحر رسالة غرامية تلقيتها مني. في تلك الأيام كنت أسمع كثيراً أغنية أم كلثوم (بعيد عنك) وكأنها مغناة خصيصاً لأمثالي. وكتبت إلى عائدة في إحدى رسائلها بأنها تستمع بشغف إلى أغنية (أنا بستناك) لنجاة الصغيرة.

❀ ❀ ❀

منذ انقلاب شباط ١٩٦٣ بدأ الشيوعيون بالمساهمة في الكفاح المسلح القائم في كردستان. في مناطق سيطرة المكتب السياسي للپارتي لم يسمح للشيوعيين بحيازة وحمل الأسلحة. هوجموا وجردوا من

أسلحتهم في أكثر من مكان. وسمعت أن سكرتير البارتي إبراهيم أحمد كان قد عمم بعيد الانقلاب برقية على تشكيلات حزبه طلب فيها المزيد من مضايقة الشيوعيين وبهذلتهم. وقد قتل عدد من الشيوعيين في منطقة (بمو) على أيدي الفدائيين البارتيين. وكان أسوأ ما في الحادث أن قتل علي العسكري بمسدسه الشخصي اثنين من الشيوعيين الذين وقعوا في أسره بعد معركة بمو. على أن بعض الشيوعيين، خصوصاً من الضباط العرب الذين وصلوا إلى كردستان وجدوا في مناطق سيطرة المكتب السياسي أيضاً الملجأ الأمين. وقد نقل البعض منهم من بغداد إلى كردستان من قبل مسؤولي البارتي أمثال جلال الطالباني مباشرة.

وفي مناطق سيطرة البارزاني اختلف الوضع ولم يجرد أي شيوعي من سلاحه بل وفر لهم مكان للتجمع والإقامة واستفيد من كفاءاتهم. وحين أصبحت سكرتيراً للاقليم كانت لنا سرايا فدائية مسلحة وتابعة لقيادة البارزاني في مناطق بالك وقره داغ وگرميان وبتوين وبهدينان. واستفاد البارزاني من كوادر شيوعية في مجالات الطبابة والتكنيك. وكان أحد هؤلاء الكوادر الملازم الشيوعي الآشوري يوسف، الذي أصبح مديراً لمعمل فني صغير للإنتاج الحربي.

طلبنا من الملازم يوسف صنع قنابل لنا لنزود بها فدائيينا، خاصة في بعض المدن. فطلب بدوره شراء بعض المواد التي تدخل في صنع هذه القنابل. وكان ضمن طلباته قنينة عرق. لم أعرف ما إذا كان يريدها لنفسه أم كجزء من المواد لتصنيع القنابل. واشترى مسؤولنا المالي عادل سليم المواد المطلوبة وأوصى بنقلها من برسرين إلى المعمل مباشرة. وبعد أيام أثير ضجيج بين بعض الفدائيين حول تناول المشروبات في مقر قيادة الاقليم، وكان ذلك خلاف الحقيقة. فأجريتا تحقيقاً في الأمر واتضح أن بعض فدائيينا ـ بينهم تحسين محمد خليل ـ كانوا قد سرقوا قنينة العرق بين المواد المشتراة للملازم يوسف، وشربوه ثم أثاروا هذا الضجيج ضدنا.

وفي واقع الحال لم يكن بيننا من يبحث عن المشروبات الروحية. نادراً ما كنا نشرب. وكنت شخصياً أكره العرق العراقي بوجه عام. وكان بين فدائيينا عدد قليل من الراغبين في الشرب الكثير. وتحت إلحاح وتحريض هؤلاء قررنا شراء قناني من العرق المحلي، الذي كان يصنع في بعض بيوت الأثوريين بقرية ديانا، ليقدم في حفل بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر، على ألاّ يكون هناك إفراط وسكر. ولما قدمت أقداح المشروب إلى المحتفلين ليرفعوا أنخاب اكتوبر اعتذر طباخ المقر عبد الله ـ وهو رجل قصير القامة هادىء وكهل من أهالي السليمانية ـ عن أخذ القدح مدعياً أنه لا يتعاطى الشرب. فألح عليه الساقي وناوله قدح العرق. ومع أول جرعة انكشف أمر الطباخ كخبير بالمشروبات إذ قال فوراً: «إنه عرف ديانا القواد»!

❀ ❀ ❀

كان الضابط البغدادي المقدم سعيد مطر، الشيوعي الهارب من بغداد منذ ١٩٦٣، آمراً لسريتنا الفدائية في قره داغ. وكان محترماً ومحبوباً كثيراً بين فدائييه الأكراد والناس حواليه في المنطقة. وكان هناك الكثيرون من الراغبين في الانضمام إلى سريته. لكن شحة السلاح كان عائقاً. فقرر التوجه بنفسه إلى مقر البارزاني وطلب البنادق والمال. وحين وصلنا في درگله كان متفائلاً، معتقداً أن طلباته ستستجاب آخذاً بنظر الاعتبار أنه ضابط عربي وضع خدماته تحت تصرف الحركة الكردية المسلحة. وبعد ٣ ـ ٤ أيام عاد مطر من مقر البارزاني إلينا متكدر المزاج وحلف أمامنا بأنه لن يحمل السلاح مرة أخرى في كردستان وفي ظل الوضع السائد. وحين سألنا عن السبب أجاب:

ـ شرحت حاجتنا الماسة إلى المال والسلاح ولم أحصل هناك على شيء سوى (١٢٠) ديناراً، وعدت بخفي حنين. وجاء إلى هناك إقطاعي من أغوات پشدر يدعى علي آغا، وهو الذي انتقل أكثر من مرة بين الثورة وبين السلطة، فحصل على عشرين بندقية وأربعة آلاف دينار.

وقد نفذ سعيد مطر ما قال إذ لم يعد إلى سريته، بل أقام في مكان ما قريباً منا.

❀ ❀ ❀

لم نتردد في إدانة التمرد الذي أعلنه فريق منشق من الپارتي، بزعامة إبراهيم أحمد، ضد البارزاني. وجدنا في هذا التمرد رضوخاً للسلطة وسميناه في أول بيان صادر من قيادة منظمة الاقليم موقفاً خيانياً. وأوصينا مسلحينا بالمشاركة في مقاتلتهم. وقاتلوهم فعلاً في منطقة قره داغ. إلا أننا ظللنا ننظر إلى الجناح المتمرد كمنظمة سياسية قومية سائرة على نهج خاطىء وحتى خياني وقابلة لأن تغير هذا النهج وتعود إلى المعسكر الآخر. ومن هنا اختلف موقفنا عن موقف الپارتي والبارزاني إزاء المتمردين. وقد تعرضنا لضغط شديد كي نتخذ موقفاً مماثلاً لموقف الپارتي ونسمي المتمردين جحوشاً خونة. وخلق ذلك متاعب جدية لنا وأصبحنا أمام الاختبار الفعلي لمعرفة ما إذا كنا نحتفظ باستقلالية الموقف أم نكون تابعين لغيرنا. وشارك الكادر الشيوعي الفدائي فاخر ميرگه سوري ـ وهو ابن خال الملا مصطفى نفسه ـ في ممارسة الضغط علينا لحملنا على اتخاذ الموقف الذي يرضي الپارتيين. واتضح لاحقاً أن موقف فاخر هذا لم يكن بمعزل عن صفقة سرية كان قد أبرمها مع عائلة البارزاني.

كنت حريصاً على أن تبقى العلاقة الطبيعية والودية بيننا كشيوعيين وبين الملا مصطفى البارزاني. وبهذا الدافع ذهبت بصحبة أحمد بانيخيلاني والملازم نعمان التميمي، الذي كان قد أصبح قائداً لفدائيينا في بالك بعد كمال نعمان، لزيارة البارزاني، الذي كان لا يزال مقيماً في مقره الصيفي بالحاج عمران خلال الشهر العاشر من ١٩٦٦. أردنا تهدأته وتجنب انفجار غضبه بسبب تباين موافقنا إزاء تمرد المنشقين عليه. كان له مضيف عام وآخر خاص وأحياناً مضيف أخص. كنا جالسين مع جمع من الضيوف في حضور البارزاني نفسه حين أعلن قائلاً:

ـ سلمت ١٦ ألف دينار إلى آمر هيز بالك عبد الله آغا لينفقها على البيشمرگه ولكنه سرق المبلغ ولم ينفق حتى ألفي دينار على البيشمرگه.

تراءى لي أن آمر الهيز، هذا الحرامي الكبير، سيسجن أو يعدم على أثر هذه الإدانة الصريحة. وبعد عشر دقائق قدم عبد الله نفسه وجلس بيننا في المضيف. وقدم كذلك آمر البتليون البهديني علي هالو شاكياً على سائق إحدى السيارات لأنه رفض نقله من دربند رايات إلى الحاج عمران. بعد أخذ ورد طويل جرت تسوية مشكلة علي هالو بعد أن تدخل البارزاني وأمر بجلب السائق وضربه وتجريده من السلاح وسجنه. لكن السارق الكبير عبد الله آغا لم يمس بسوء على جريمته، بل بقي في مركزه العسكري كآمر هيز لسنوات أعقبت ذلك التأريخ أيضاً.

وفر البارزاني فرصة اللقاء معه على بعض الصخور في الهواء الطلق. تبادلنا أطراف الحديث في جو ودي. وأظن أنه لم يضمر شيئاً ضدنا في تلك اللحظات. غير أنه كان هناك من يحرض ضدنا ويصب النفط على اللهيب.

بعد ذلك اللقاء بحوالي الشهرين، أي في كانون الأول ١٩٦٦، توجهت بصحبة عضوي مكتب الاقليم أحمد بانيخيلاني وعادل سليم إلى قرية ديلمان في سفح قنديل، حيث كان المقر الشتوي للبارزاني، تلبية لطلب منه. في الساعة العاشرة مساءاً دخلنا المضيف الخاص، وكان يجلس هناك شاب في زيه الكردي التقليدي. وأخبرني أحمد بانيخيلاني أنه بايز ابن عباس مامند رئيس عشيرة آكو، وتراءى لي أن إحضاره هناك ليسمع هذا الحديث الخاص كان شيئاً مقصوداً من البارزاني.

ـ جئناكم بناءاً على طلبكم ـ قلت للبارزاني ـ ولسماع ما تتفضلون به.

ـ أريد منكم أن تقتلوا هؤلاء الكلاب.

ـ ومن هم هؤلاء المطلوب منا قتلهم؟

ـ أقصد جله وبله (أي جلال الطالباني وإبراهيم أحمد).

قررت فوراً أن أحاول إقناعه بالكف عن هذا الطلب، فقلت له:

ـ لكن هؤلاء في بغداد وتحميهم مفارز مسلحة من رجالهم ومن رجال السلطة في حين لا نستطيع نحن التواجد إلا في وضع الاختفاء. فكيف يمكن لنا قتل هؤلاء؟

ـ أن تقتلوهم هناك أسهل من أن يأخذ عادل نفساً من سيجارته (وكان عادل مدخناً وفي يده سيجارة).

سكت قليلاً ثم استأنف الحديث فقال بلهجة لم تخل من التهديد:

ـ أنا أملك حوالي هذا البيت مئتي مسلح... أن تقتلوهم في بغداد أسهل من أن أقتلكم هنا.

أطلنا النقاش والمحاججة واستخدمنا كل قدراتنا لإقناعه برأينا ولكي يعفينا بنفسه عن هذه المهمة دون أن يغضب علينا. لكنه أصر بثبات وحزم على وجوب قيامنا بهذه المهمة. وأخيراً وجدت نفسي مضطراً على أن أغير لهجتي في الحديث، فقلت له بالقلم العريض:

ـ لك حزبك ـ البارتي ـ وتحت تصرفك الفدائيون والمال والسلاح، وبإمكانك أن تكلف رجالك بهذه المهمة ونحن نبقى حزباً صديقاً مستعداً للتعاون معكم فقط ضد السلطة.

ـ أريد منكم قتلهم، ولا أطلب ذلك من غيركم.

ـ أود أن أحيطكم علماً بأن القيام بمهمة كهذه لا ينسجم مع أخلاقنا ومبادئنا. نحن لم نقدم على قتل شيوعيين خانونا وسلموا للعدو أسرارنا. نحن أصدقاءكم ومستعدون لمقاتلة السلطة كحلفاء لكم. لكننا لسنا مستعدين لقتل أناس من أمثال هؤلاء.. كلف من تشاء من رجالك ولا تنتظر منا مثل هذا العمل.

نظر إلي وإلى رفيقي نظرة مليئة بالغضب وقال بلهجة حازمة:

ـ إذا لم تقتلوهم فإني سأصدر الأمر بتدمير ما يسمى بفرع كردستان للحزب الشيوعي وبقتل وملاحقة الشيوعيين في جميع أرجاء كردستان.

ـ في مناطق سيطرة الحكومة عملنا طيلة عمرنا في ظروف العمل السري. ولا نزال مختفين في تلك المناطق. وسنعمل مختفين في مناطق سيطرتكم أيضاً.

ـ أعطيكم مهلة شهر واحد.. إذا لم تنفذوا ما طلبت فسأصدر الأوامر ضدكم وأجعلكم تندمون.

ـ لن يتغير موقفنا ولن ننفذ مثل هذا الطلب.

توقف عن الكلام قليلاً ثم قال:

ـ إنه الشتاء. ولهذا أمهلكم حتى نهاية شباط. وبعدئذ سأصدر الأوامر ضدكم.

نحن ثبتنا على موقفنا ولم نتزحزح قيد شعرة. كان بايز يسمع بنوع من الاستغراب ما يدور أمامه من حديث. وأظن أن موقف التحدي الذي جابهنا به البارزاني أثار إعجاب هذا الشاب الإقطاعي وعزز فيه الروح المعنوية. وقد غادرنا ديلمان ونحن متفقون على أن نمارس الضغوط الممكنة على البارزاني لحمله على التراجع وعدم تنفيذ تهديداته. ولم ينفذ فعلاً تلك التهديدات ولكني أدخلت منذ ذلك اليوم ضمن قائمة المغضوب عليهم بالنسبة إليه.

❀ ❀ ❀

كان فاخر ميرگه سوري لا يزال على صلة حزبية، وإن غدت واهية، معنا حين تلقيت منه رسالة ـ وأظن أنها كانت في شباط ١٩٦٧ ـ مفادها «أن حكم الثورة قد نفذ في الخائن جلال الطالباني، فأعدم رمياً بالرصاص». تصورت للوهلة الأولى وكأن الطالباني قد اختطف وجلب

إلى منطقة بالك وقتل. وسرعان ما اتضح أن الأمر ليس على هذه الصورة. فكتبت بدوري رسالة مستعجلة إلى فاخر أوردت فيها استفسارات وطلبت منه الجواب الفوري مع المراسل. تهرب فاخر من الإجابة طيلة يومين. ثم أجابني بشكل أوجد لدي الشكوك ليس فقط حول صحة الخبر، بل كذلك حول علاقته الشخصية بما كتب عنه إلينا. وبعد أيام استدعيته وحققت معه وأحرجته بأسئلة معينة. فاعترف أمامي بأنه اتفق مع بعض أبناء البارزاني على تدبير قتل الطالباني. واتضح أنه كان قد استلم لهذا الغرض الأسلحة والنقود وتعهد بالتنفيذ.

أما كيف نفذ حكم الإعدام المزعوم، فإليك ما ذكره فاخر بنفسه أمامنا:

ـ سلمت مبلغاً من المال إلى عميل للأمن العام كردي مقيم في أربيل يدعى عبد الوهاب، لقاء مشاركته في تدبير اغتيال جلال الطالباني. وبعد أيام كتب إلي عبد الوهاب يخبرني أنه اتفق مع عميلين بعثيين للأمن العام في بغداد لكي يقوما بالاغتيال. وقال هذان لعبد الوهاب بأنهما سينفذان المهمة في الساعة كذا من يوم كذا، كما أخبرني هو. وفي الموعد المحدد، وقبل التوثق من صحة ما سيكون، أخبرت البارزاني برسالة مستعجلة بأن حكم الإعدام قد نفذ في الخائن الطالباني.

هكذا تورط فاخر نتيجة تصديق ما قاله بعض الجواسيس. وورط البارزاني معه وعمم الأخير خلاصة الخبر في برقية إلى مقرات البيشمرگه، كما أخبر في نفس اليوم وزير الدفاع شاكر محمود، الذي التقى به في برسرين، بأن الطالباني قد صفي، فأجاب الوزير أنه لم يسمع شيئاً من هذا القبيل.

ويبدو أن المكتب السياسي للپارتي صدق الخبر في بادىء الأمر، ولكنه أخذ يشك بعدئذ. وقد سأل أحدهم رفيقاً لنا عن معلوماتنا بهذا الصدد فأجابه:

ـ لم نعرف مدى صحة هذه الإشاعة. لكن من المؤكد أن الخبر لم يأت من أربيل إلى هنا بل نقل من هنا إلى أربيل.

أنهينا العلاقة الحزبية مع فاخر بعد أن اتضح لنا، على أثر الحادث المذكور أنه نقل خدماته فعلاً إلى جهة أخرى، واعتبرناه منضماً إلى البارتي. وفي آخر لقاء معه أبلغته بما يلي:

ـ إنهم سيرفعونك ويضعونك في طوابق عليا من المبنى ثم يلقون بك من هناك إلى الأرض ويهشمون رأسك تهشيماً.

وآخر شيء اكتشفناه لدى فاخر، قبل تصفية علاقته معنا تصفية تامة، هو أنه كان منشغلاً بتكوين منظمة جديدة باسم (پاراستن) ـ منظمة استخبارية تابعة لقيادة البارزاني والپارتي في تلك الفترة ـ وقد تلقينا أكثر من رسالة من شيوعيين سابقين، وحتى من أناس لم يقطعوا العلاقة الحزبية معنا، ذكروا فيها أن فاخر اتصل بهم وطلب منهم التعاون في تكوين هذه المؤسسة، التي أقصى نفسه عنها لاحقاً وأنيطت مسؤوليتها بمسعود البارزاني.

❀ ❀ ❀

أضيء مقرنا، لأول مرة، بالإنارة الكهربائية بعد أن شغل نافع المولد الصغير الذي اشتريناه، وكان حدثاً هاماً أن شعلت لمبة كهربائية في مضيف سليمان بگ.

في تلك الفترة استقبل مقرنا ضيفين لا يمكن نسيانهما. أحدهما عزيز عقراوي، الذي كان آمر هيز هيران في الحركة المسلحة وجاء ليبقى عندنا ليلة واحدة ولكن الثلوج اضطرته إلى البقاء أياماً. كان رجلاً غريب الأطوار، ضابطاً هرب من الجيش والتحق بالحركة المسلحة وبقي من القلائل الذين لم يغرهم المال ولم يسوء سلوكهم. على أن الأعجب هو أنه كان يحمل معه كدساً كبيراً من الأوراق وكان منشغلاً بتأليف قاموس كردي. وكان جدياً في عمله. وسمعت في وقت لاحق أنه أنجز قدراً من عمله وطبعه.

ضيفنا الثاني، الذي قدم في آب ١٩٦٦، كان الشيخ لطيف الحفيد، الذي كان يبحث على الدوام عن النكات والطرائف المضحكة. وفي مجلس عام سأل سليمان بگ عن عدد النساء اللائي تزوجهن شيخ قرية ماوليان في زمانه فأجاب الأخير:

- إنه تزوج من اثنتين وأربعين امرأة.

- إنني أحسده على ذلك وأفتدي قضيبه المبارك.

وقد سألته عن رأيه في الوضع السياسي بعد اتفاق ٢٩ حزيران ١٩٦٦، فأجاب:

- يمكن تلخيص الوضع في كلمتين - الذين كانوا حتى ٢٩ حزيران في خنادق القتال الأمامية أصبحوا اليوم في الخط الخلفي. والذين كانوا بالأمس في الخط الخلفي، ووقف الصابون على أرجلهم تحت الدوش، يجلسون اليوم في الخط الأمامي.

أراد المكتب السياسي الجديد للپارتي، وكان على رأسه حبيب محمد كريم، إجراء بعض الإصلاحات لكسب ثقة الناس - كما حدثني بانيخيلاني - ولهذا الغرض قرر تشكيل لجنة لتجري التحقيق مع الكوادر والمسؤولين المحليين على أساس «من أين لك هذا؟». واقترح بعضهم إدخال عناصر لا حزبية إلى هذه اللجنة لتلافي الطعن في إجراءاتها. ولما استحسن هذا الاقتراح ذهب أحدهم إلى نوري أحمد طه، الضابط الكردي القومي المفصول من الجيش والمقيم في المنطقة الكردية المحررة آنئذ، وطلب منه الانضمام إلى اللجنة. وبعد أن تفهم نوري الموضوع بصورة جيدة خاطب الرجل المكلف بمفاتحته قائلاً:

- هل أنت جدي فيما تقول؟

- ولم لا؟

ـ لا تكونوا سذجاً إلى هذه الدرجة.. إذا كنتم جديين فشكلوا لجنة تحقيقية لكي تحقق مع الكوادر والمسؤولين الذين بقوا بعيدين عن السرقة والكسب غير المشروع ـ وعدد هؤلاء لا يزيد عن ٣ ـ ٤ بين كوادركم. حققوا معهم واسألوهم: لماذا لم يسرقوا؟ لماذا شذوا عن الجميع؟

❀ ❀ ❀

في شباط ١٩٦٧ كنت قد توجهت من درگله إلى بغداد للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية. بتنا الليل في قرية ورتي (وهي قرية كردية تحمل اسماً آشورياً قديماً وتقع في سفح كاروخ) وخرجنا منذ الفجر في طريق غطته الثلوج. وتحت شمس ساطعة وفي طقس شديد البرودة هيأنا الشاي في (دولة رقه) ـ وكان ألذ شاي شربته، وربما شربه من كانوا معي، طيلة العمر. في المساء توقفنا في مقر سريتنا الفدائية بقرية سروچاوه. في اليوم التالي رافقنا آمر السرية أحمد الجبوري في نزهة صدنا فيها بقنبلة واحدة قرابة مئتي كغم من السمك. وفي المساء حدث نزاع حاد بين بعض فدائيينا الفلاحين ليس على شيء سوى السمك! احتج البعض لأن الأسماك الكبيرة لم تكن من نصيبه. في اليوم التالي وصلت كويسنجق وبت في منزل الشاب الشيوعي حسن كاكه وسافرت في اليوم التالي بصحبة عائلته إلى بغداد.

ساهمت في اجتماعات المكتب السياسي قبل أن نعقد اجتماع اللجنة المركزية، كان الوضع داخل الحزب، وبالأخص في بغداد، متوتراً إلى حد إذ كان التيار اليساري المتطرف يواصل نشاطه من أجل «العمل الحاسم» ومن أجل التسلط على الحزب. وكان سكرتير الحزب عزيز محمد يعتمد على المناورات والمراضاة التوفيقية أكثر من اعتماده على المجابهة الصريحة والدفاع المبدئي المكشوف عما يؤمن به، وقد استفاد التيار اليساري المتطرف من سلوك السكرتير ليعزز مواقعه داخل منظمة العاصمة بوجه خاص.

انعقد اجتماع اللجنة المركزية وسط هذه الصراعات وبمشاركة العناصر الجديدة التي صعدت إلى القيادة في تشرين ١٩٦٥. كان شيئاً متوقعاً أن تحمل القرارات المتخذة طابعاً توفيقياً. غير أن السكرتير أدخل التوفيقية إلى الانتخابات أيضاً إذ أراد ترضية اليسار المتطرف بإدخال بعض من يرضيهم إلى قوام المكتب السياسي. وهكذا فسح المجال أمام عزيز الحاج ليدخل إلى المكتب السياسي بالحصول على أصوات عزيز محمد ومن سايره في اللجنة المركزية، إضافة إلى أصوات العناصر المتطرفة. وقد نسي عزيز أنه وقف في حينه ضد ترشيح الحاج إلى اللجنة المركزية بسبب من جبنه وعدم انضباطه. وحصلنا، أنا وعامر عبد الله على عدد متساو من الأصوات عند انتخاب م س، مما استوجب إعادة التصويت ثانية، أصبح فيه عامر خارج قوام المكتب السياسي.

وبانضمام الحاج إلى المكتب السياسي اختل فيه الوضع كلياً، وأخذ الحاج يتاجر، بين العناصر اليسارية المتطرفة، بما يحصل عليه من المعلومات أثناء الاجتماعات، ويحاول كسب ودهم. ولم يعد هناك ما يمكن اعتباره سراً لدى القيادة. ولما كان الحاج الشخص الوحيد الميال إلى اليسار المتطرف في القيادة فإن العناصر اليسارية المتطرفة التفت حوله واتخذت منه زعيماً لها.

❀ ❀ ❀

في سفرتي إلى بغداد اتفقت مع عائدة على الزواج. وقبل الاتفاق النهائي وضعت أمامها التفكير في فارق العمر حيث كنت أكبرها بسبعة عشر عاماً. فأجابت أنها تعرف ذلك ولا تجد فيه ما يمنع. وعرضت عليها كذلك النقاط الثلاث التالية:

١ ـ أنا رجل سياسي وثوري وأضع قضية العمل الحزبي ـ السياسي فوق أي اعتبار آخر. وأضرب عرض الحائط كل ما يعترض طريق نشاطي الحزبي.

٢ ـ أنا لست ثرياً ولا أملك في هذه الدنيا شيئاً سوى ملابسي الشخصية، ولن أملكه في المستقبل أيضاً. وإذا كانت تريد الرفاه والرغد والثياب الفاخرة فإن عليها التزوج من رجل ثري وليس من شخص مثلي.

٣ ـ أنا معارض لنظام الحكم القائم، مما يجعلني معرضاً دوماً للملاحقة والسجن والقتل وقد نتزوج اليوم وتخسرينني غداً.

بعد صمت قليل أجابتني:

ـ ألست مثلك في هذه الأمور؟ ومن يدري أني لن أسجن أو أقتل قبلك؟

بمناسبة الزواج أخذت من الحزب فقط أربعين ديناراً، أنفقت ٥ و ٤ دينار على شراء حلقتين وستة دنانير على شراء زوج من الحذاء وثوب لنوم الليل لها. كما أنفقت (١٥) ديناراً على حفل الزواج العائلي، الذي حضره عزيز محمد والصديق الذي أرسلته إلى البصرة ليخطب لي عائدة، كما حضر شقيقها واثنتان من أخواتها. ولم أشتر شيئاً من الأثاث البيتية أو غيرها. وكان شهر العسل عبارة عن السفر إلى السليمانية سوية وفي ظروف الاختفاء لأتركها هناك بعد ثلاثة أيام ولمدة ثلاثة أسابيع، التحقت بعدها بي وقضينا أياماً جميلة من ربيع درگله في سفح جبل هندرين. كان لدي من الوقت ما يكفي للجمع بين أداء مهماتي الحزبية وبين التمشي معها، هي الفتاة البصرية التي لم تكن قادرة على أن تباريني في السير والتسلق في تلك المنطقة الجبلية الخضراء. وقد تعلمت قليلاً من اللغة الكردية لكنها لم تتعلم التمييز بين الحصن والبغال.

❀ ❀ ❀

أوفد عضو المكتب السياسي كريم أحمد إلى كردستان، فيما كنا نهيىء الاجتماع جديد للجنة الاقليم. وظهر أن هذا الإيفاد كان تمهيداً لسحبي من الاقليم. ولم يكن عقد اجتماع لجنة الاقليم من الأمور السهلة في تلك الفترة، حيث كان يتأتى على من يأتي من المحافظات

إلينا لحضور الاجتماع أن يقطع مسافات طويلة مشياً على الأقدام أو ركوباً على الخيل والبغال في مسيرة تستغرق أياماً عديدة وتمر بطرق خطرة ووعرة. وكان لمصلح الجلالي، الذي كان من أضعف أعضاء لجنة الاقليم، حصانه الذي كان يحظى على الدوام بعناية خاصة منه. وبعكس ما كان الفدائيون يوجهون دوماً من نقد وعتاب إلى هذا الرجل بسبب اهتمامه الدائم بحصانه، فإني كنت أرى في ذلك شيئاً حسناً وإيجابياً.

خلال وجودي في الاقليم، أي خلال اجتماعي لجنة الاقليم، جعلت من مسألة تجديد انتخابات السكرتير والمكتب نقطة ثابتة في جدول العمل. وقد نافسني كريم أحمد على منصب سكرتير الاقليم في آخر اجتماع وفزت بأغلبية ضئيلة.

في أيار ١٩٦٧، وأنا في درگله، التقيت لآخر مرة بالملا مصطفى البارزاني. كان اللقاء أشبه بصدفة إذ وصل البارزاني عصر أحد الأيام بصورة فجائية إلى القرية. وقد ذهبنا، نحن أعضاء مكتب الاقليم، مسافة مئتي متر ـ تلبية لرغبة صديقنا سليمان بگ ـ لاستقباله وللترحيب بمقدمه. لكنه أجاب على تحياتنا ببرود، بل كاد يتجاهلنا وبقي فوق البغل الذي كان يركبه ممتنعاً عن مصافحتنا وكان سبب هذا التجاهل واضحاً ـ رفضنا لقتل إبراهيم أحمد وجلال الطالباني. وتحت إلحاح سليمان بگ ذهبنا في المساء إلى مضيفه لتناول العشاء. وضعت أمام البارزاني صينية خاصة فوقها دجاجة مقلية، دون أي طعام آخر. وقد أكلها كلها تقريباً. وبعد العشاء حاولنا التحدث إليه كمجاملة. واعتقدت أن الحديث حول سفرته إلى جبل كاروخ قد يبعث على السرور عنده. فقلت له:

ـ سمعت أن سيادتك ذاهب للبحث عن أشياء تحل بها المشكلة المالية للثورة، ونأمل لكم التوفيق في تحقيق ما تصبون إليه.

ـ إذا وفقنا الله فسنحل مشكلتنا دون أن نمد أيدينا إلى أحد.

ـ وهل دلت الأبحاث عن وجود الماس في هذا الجبل؟

ـ من المؤكد أن هناك الماس.

ـ وهل الماس غال لدرجة كبيرة؟

قبل أن يجيب مد يده إلى كيس من القماش موجود بجانبه وأخرج منه صخرة صغيرة يقارب وزنها النصف كغم ليعرضها علي وليقول:

ـ في هذه الصخرة مادة الكرستال، التي تشكل جزءاً من عشرة آلاف جزء في صناعة زجاجة السيارات الغالي. وأما الماس فإن قطعة كهذه تباع بمليوني دينار.

ـ عظيم! أتمنى لكم العثور على الكثير من قطع الماس ـ قلت ذلك وأنا أضحك في سرّي.

لم أحاول مرة أخرى اللقاء مع البارزاني. ولكنني كنت أتابع من بعيد أخباره لحين رحيله في ١٩٧٩. وهنا لا بد من التأكيد مرة أخرى على أنه كان زعيماً قومياً من الطراز القديم، زعيماً مقبولاً بين الجماهير الفلاحية الأمية التي كانت تشكل الغالبية الساحقة للمجتمع الكردي حتى النصف الأول من هذا القرن.

❀ ❀ ❀

في وقت مبكر من صبيحة أحد الأيام أيقظني الحارس في مقرنا بدرگله ليخبرني بأن ضيفاً يسأل عني ويريدني. فنهضت ووجدت فائق (سليمان معيني) المسؤول عن الحزب الديمقراطي الكردي في إيران جالساً في انتظاري. كان في الزيارة أمر غريب لأنه لم تكن في موعد اعتيادي للزيارة. وجواباً على سؤالي عن سبب مجيئه قال:

ـ جئت أستشيركم في أمر ما. طلبني البارزاني ولا أدري هل أذهب إليه أم لا. أريد رأيكم بهذا الخصوص.

ـ ولماذا تريد رأينا في مسألة كهذه.

ـ أخشى من أن يسلموني إلى إيران. وإذا كان بمستطاعكم الحيلولة دون تسليمي إلى إيران فإني أذهب إلى حيث يريدني وأرضى بأن يدخلوني السجن هنا في كردستان العراق.

ـ إذن أعطنا مهلة قليلة لنتداول في مكتب الاقليم ثم نجيبك بما نتفق عليه.

جمعت مكتب الاقليم وتداولنا فيما بيننا واتفقنا على ما نجيب به. ثم جلسنا مع الضيف وقلنا له:

ـ يؤسفني أن أبلغك بأننا لا نستطيع تقديم أي ضمان لك بالحيلولة دون تسليمك إلى إيران ولا بالحيلولة دون سجنك هنا. وعليه نترك لك البت في القرار الذي يتعلق بمصيرك. ولا ننصحك بالطبع بتعريض نفسك للاعتقال ولمخاطر التسليم إلى إيران. إذا كنت تجد خطورة هنا فيمكنك البحث عن مكان أكثر أماناً لك.

تفهم فايق ما قصدنا وعاد إلى مقره في (نوري). وعلمنا بعدئذ أنه لم يذهب إلى مقر البارزاني، بل ترك المنطقة واختفى في مكان آخر بعيداً عن متناول أيدي البارزاني. ومرت سنوات على ذلك حين سمعت بأنه اعتقل من قبل (قادر تگراني) وسلم إلى مقر الملا مصطفى البارزاني، حيث قتل وسلمت جثته إلى سلطات الشاه لتعرض هناك قتيلاً. وهذه خطيئة من الخطايا التي لا تغتفر.

العودة إلى بغداد

عدت إلى بغداد بطلب من المكتب السياسي للمساهمة في بعض اجتماعاته ـ كما ورد في رسالة الاستدعاء. وقد صاحبتني زوجتي في العودة. كان المسؤول الأول بالوكالة زكي خيري إذ كان السكرتير عزيز محمد قد سافر إلى الخارج. وحين هممت بالعودة إلى كردستان اعترض زكي وترجى بقائي معه وترك قيادة كردستان إلى كريم أحمد. كان إصرار زكي على بقائي يعود إلى سببين، أولهما رغبة أعضاء م س جميعهم تقريباً في إبعادي عن كردستان ترضية للبارزاني، الذي كان غاضباً علي. والثاني كان يخص زكي وحده إذ كان يدرك بأنه لا يستطيع أداء مهماته كمسؤول أول وكالة في مثل تلك الظروف المعقدة من دون الاستناد إلى تأييد ودعم شخص مثلي. كان زكي يحب كرسي المسؤولية والزعامة ولكنه لم يكن قادراً على الاضطلاع بها اعتماداً على كفاءته الشخصية، لا من حيث المقدرة التوجيهية ولا التنظيمية. وكان الشخص الآخر معه عزيز الحاج، الذي لم يعد بمستطاع زكي أن يعتمد عليه من أي ناحية، فيما كان النشاط التكتلي في منظمة العاصمة ينمو ويتسع باستمرار.

❀ ❀ ❀

قدر لي أن أكون، أثناء حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧، في بغداد، اجتمع المكتب السياسي المؤلف في ذلك اليوم مني ومن زكي

وعزيز الحاج، وحدد الموقف من الحرب: إدانة الصهيونية المعتدية والدعوة إلى الكفاح العربي الموحد ضدها وضد سندها الاستعمار. وعلى صعيد العراق رفعنا شعار (حكومة دفاع وطني)، الذي كان مبادرة من زكي، كبديل عن حكومة عبد الرحمن عارف ولكي يمكن للعراق الاضطلاع بدور فعال في الكفاح السياسي والعسكري ضد إسرائيل. أصدرنا بياناً حول الحرب. وفي وقت لاحق نشرت جريدتنا السرية مقالاً طويلاً كتبه عامر عبد الله وأجرينا عليه تعديلات شاملة كي يصلح للنشر، للتأكيد على أن من خسر الحرب ليس الشعب العربي المغلوب على أمره والمحروم من أبسط حقوقه الديمقراطية، بل هو النظام المصري تحت زعامة جمال عبد الناصر وسائر الأنظمة العربية المناوئة للديمقراطية.

وقد أعجبني من عبد الناصر أن حمل نفسه المسؤولية عن هزيمة حزيران وقدم استقالته. كان ذلك صحوة ضمير حضارية منه، بعكس ما فعله حاكم بغداد صدام التكريتي بعد ذلك بأربع وعشرين عاماً، حيث تشبث بالبقاء على كرسيه رغم هزيمته الشنيعة وإذلاله المهين جراء حرب الخليج.

ورغم أن حكومة عبد الرحمن عارف كانت هزيلة وغير قادرة على الإسهام في الحرب ضد إسرائيل، فإن موقفها في الحرب لم يكن سيئاً. وقدم دعماً عسكرياً وسياسياً ملموساً إلى مصر وسوريا.

لم تفلح محاولات عزيز محمد في التغلب على اليسار عن طريق المناورات ومراضاة البعض. فسافر إلى أوروبا مخلفاً وراءه هذه المشكلة لمن بقوا في ساحة العمل الساخن. والعناصر الشيوعية ذات الاتجاه المتطرف، التي وجدت لنفسها مواقع في القيادة منذ اجتماع تشرين ١٩٦٥، تمكنت من توطيد أقدامها، خاصة في منظمة العاصمة، خلال ١٩٦٦، وأقامت صلات مع بعض العناصر بين المسؤولين المحليين في

المناطق والمحافظات أيضاً. وحين انضم عزيز الحاج إلى هذه العناصر، بعد أن دخل إلى قوام المكتب السياسي، أعطى دفعة جديدة للنشاط التكتلي اليساري المتطرف إذ أصبح مصدراً لحصولها على كل ما يدور في اجتماعات القيادة والحزب كله. وقد بايعت تلك العناصر الحاج كزعيم لها، رغم معرفة البعض منها بحقيقته، بسبب من عدم حصولها على شخص آخر مستعد للتعاون معها بين أعضاء المكتب السياسي أو اللجنة المركزية.

١٤

انشقاق أيلول/١٩٦٧

في صيف ١٩٦٧ كان أعطاء المكتب السياسي للحزب الموجودين في العاصمة عبارة عنا نحن الثلاثة ـ أنا وزكي وعزيز الحاج. كنا نجتمع أسبوعياً لبحث الأمور الجارية. لاحظنا أن الحاج يأتي دوماً إلى اجتماعاتنا التي كانت تعقد في بيت زكي خيري بحي علي الصالح، ويتهرب من أن نتعرف على بيته ونجتمع فيه، فقررنا في المكتب السياسي، وبموافقة الحاج شخصياً، أن تكون اجتماعاتنا اللاحقة في بيوتنا الثلاثة بالتناوب.

وحين حل موعد الاجتماع في بيت الحاج، أوائل أيلول ١٩٦٧، وافترض أن يأخذنا معه إلى هناك لأننا لم نعرفه مسبقاً، تغيب عن الحضور وانقطع بعض الأيام انقطاعاً كلياً، مما أثار قلقنا عليه. واستلمنا بعدئذ رسالة منه زعم فيها أنه سافر إلى زرباطية بأمل الحصول على قطع من الأسلحة لما سمي «خط حسين». لم نصدقه في ذلك، لا أنا ولا زكي. وكنا نشك في تصرفاته ولكننا لم نعرف بالضبط أين ذهب وماذا فعل. وضعنا احتمال أن يكون قد لفق هذه الكذبة لأنه لم يرد ـ بسبب من جبنه ـ أن نتعرف نحن على مسكنه.

كان المكتب السياسي قد قرر إصدار بيان بمناسبة حلول الذكرى

السنوية التاسعة لصدور قانون الإصلاح الزراعي مكرساً لفضح انحراف السلطة وتملصها من مواصلة تطبيق القانون، ولدعم مطالب الفلاحين.
في صبيحة ١٧ أيلول ١٩٦٧ خرجت بصحبة زوجتي عائدة ياسين من الدار التي كنا قد استأجرناها في حي القادسية مقابل جامع أم الطبول ببغداد. سقت سيارة الفوكس واگن، التي كانت من ممتلكات الحزب، متجهاً إلى شارع القناة، حيث مطبعتنا السرية. ونزلت عائدة قرب شارع الرشيد لتذهب إلى أداء مهماتها الحزبية في خط التنظيم الحزبي ـ النسائي. واتفقنا على العودة إلى البيت لتناول الغداء سوية.
وقبل أن أصل بيت المطبعة بحثت في جيبي عن نسخة البيان المراد طبعه فلم أعثر عليه. رجعت إلى البيت لآخذه. أوقفت السيارة في الشارع الفرعي أمام الباب ودخلت البيت لآخذ ما كنت قد نسيت.
وبعد حوالي الخمس دقائق خرجت من البيت ووجدت شباناً أربعة تأبط أحدهم دفتراً كبيراً، وهم مقتربون من باب الدار الخارجي. ساورني بعض القلق خوفاً من أن يكونوا مفرزة للمراقبة. لكني واصلت مسيري نحو الباب. وقبل أن أخرج من حديقة المبنى اعترضوني وقال أحدهم:

ـ تخمين ضريبة.

ـ من المحتمل أن تكونوا قد أخطأتم في تشخيص الدار.

ـ كلا لم نخطىء، هذه هي الدار الموجود رقمها في السجل.

وحين هممت باجتياز الباب ارتفعت أربعة مسدسات في آن واحد ومن نوع واحد. اقترنت هذه الحركة البوليسية بجملة واحدة مختصرة:

ـ لا تتحرك! أمن!

أيقنت تماماً أنهم رجال البوليس السري وأنهم عثروا على بيتي بطريقة ما وداهموني بهذه الصورة. ألقيت نظرة سريعة على ما حوالي لعلني أجد مخرجا أو مهرباً. لم يكن معي في تلك الساعة مسدسي،

الذي غالباً ما كنت أحمله في تلك الفترة. وقال أحدهم، وكأنه قرأ ما جال بخاطري:

ـ البيت مطوق ولا مجال للهروب.

دخل الشبان الأربعة باحة الكراج وأمسكوا بتلابيبي ودفعوني عنوة نحو الباب الداخلي. صرخت في وجوههم بصوت عال:

ـ هاتوا هوياتكم لإثبات أنكم من رجال الأمن. ـ قلت ذلك وأنا على ثقة تامة بأنهم من رجال الأمن، غير أنني قصدت إثارة الضجيج حول كبسهم لداري، كي يعرف الناس حوالينا بأنهم كبسوا وكراً حزبياً فينتشر الخبر في المدينة ولا يأتي أحد من رفاقي ليقع في الكمين الذي لا بد من أن ينصب لاصطياد الآخرين ـ وهم زكي والحاج وسلام الناصري. استمرت المشادة الكلامية بيني وبين الجواسيس الأربعة. وقد دفعوني بالعنف شطر طرمة الدار وسدد بعضهم لكمات إليّ طالبين مني فتح الباب ودخول المبنى معهم. رفضت الاستجابة لطلبهم وبقيت مصراً على أن أرى هوياتهم. لاحظت أن أفراد عائلة الدار المقابلة لنا قد خرجوا من الغرف ووقفوا في الطرمة متفرجين من بعيد على هذا المشهد غير المألوف. كانت تلك عائلة كبيرة خرج معيلها الضابط، المفصول بتهمة الشيوعية من الجيش، من السجن قبل أشهر. ذهب نحوهم أحد رجال المفرزة المداهمة وقال لهم مهدداً:

ـ نحن رجال الأمن وسنؤذيكم إذا لم تدخلوا بيتكم فوراً.

كان ذلك تهديداً خطيراً فدخلوا المبنى وربما ظلوا ينظرون من وراء الشبابيك المسدودة إلى ما يجري في طرمة دارنا. وقد ظللت أرفض تسليم المفتاح لهم فأخرج أحدهم سكينة (أم الياي) وسدد لي ضربتين، إحداهما في كفي الأيمن والأخرى في ظهر اليد. نزف من يدي الدم بغزارة وارتخت حتى أمكن لهم أخذ المفتاح وفتح الباب. سحبوني معهم إلى صالة الدار وأسرعوا يشدون فمي كي لا أصرخ في

وجوههم ويشدون يدي من الخلف كي لا أقاوم. أمر أحدهم بتفتيش المنزل، فيما كنت أواصل شتمهم وأسميهم أنذالاً وفاشستاً ومجرمين. تلطخت ثيابي كلها بالدم وأحسست بالإنهاك جراء النزف ووجدت نفسي مضطراً على الجلوس في الصالة. سألني أحدهم، وهو الذي كان يتظاهر بأنه آمر المفرزة:

ـ كم عدد الساكنين في هذه الدار؟

ـ لا شأن لك بذلك.. سأجيب أمام حاكم التحقيق.

تقدم شخص آخر نحو الشاب السائل وقال له:

ـ سيدي! يسكن هنا شخصان فقط بدليل أنهما شربا الشاي صباحاً في قدحين وتركاهما في المطبخ من دون الغسل.

رغم احتجاجاتي على إجراءاتهم اللاقانونية ورغم مطالبتي المستمرة بالتفتيش وفق القانون فإنهم أسرعوا إلى أخذي بسيارتي نفسها. فسرت عدم المجيء بأي سيارة من عندهم بأنه محاولة لتغطية عملية المداهمة كي يتخذوا من المبني كميناً لإيقاع الآخرين. وعندما أخذوني في السيارة، وهم أربعة مسلحين بالمسدسات وأنا لا أزال مشدود الفم واليدين، قررت أن أصرخ ملء شدقي حين تمر السيارة بساحة التحرير، معلناً أنني بهاء الدين نوري وطالباً أخبار ح ش ع بأن رجال الأمن العام قد قبضوا علي. ولسوء الحظ انحرفت السيارة قرب مطار المثنى شطر اليسار وسارت في شارع (١٤ تموز) باتجاه حيّ علي الصالح، حيث توجد الدار التي يسكنها زكي خيري. وهنا أظلمت الدنيا أمامي وارتفع نبض قلبي، ظناً بأنهم ذاهبون لمداهمة بيت زكي خيري، وهم يريدون إظهاري وكأني الشخص المنهار الذي أرشدهم إلى هناك ليقبضوا على زكي. هذه المصيبة الجديدة أنستني مصيبتي الخاصة. أن يقبض علي البوليس السري وأن أتعرض للتعذيب وحتى للقتل فإن هذه مشكلة قد تهون. أما أن أكون في نظر رفاقي

وسائر الناس خائناً ومنهاراً فإن هذه لمصيبة كبرى.

غمرتني الفرحة عندما انحرفت السيارة باتجاه جسر العيواضية الحديدي، بالضد من اتجاه منزل زكي خيري، وعبرت فوق دجلة نحو الوزيرية فالقناة ثم نحو حي الحبيبة. أوقفوا السيارة في شارع لا مساكن حوله، بين القناة والحبيبة، ونزل منها آمر المفرزة مع شاب آخر وابتعدا بعض الخطوات وتهامسا مع بعضهما. ثم عادا إلي وقال أحدهما مخاطباً إياي:

ـ أنت تعتبرنا الآن من رجال الأمن. ولكننا لسنا من رجال الأمن بل من رفاقك.

ـ هذا شيء مستحيل ـ قلت ذلك بقناعة تامة.

ـ ولماذا مستحيل؟ أحلف لك أننا من رفاقك.

ـ كلا لا يمكن لرفاقي أن يتصرفوا على هذا المنوال.

ـ نحن نخبرك بحقيقة أننا من رفاقك كي تساعدنا على إنقاذ بيتك من أيدي الأمن الحقيقي.

ـ أنتم الأمن الحقيقي ولا شيء آخر.

ـ سأذكر لك دليل على أننا لسنا من رجال الأمن ـ قال أحدهما ـ فإن اسمي الحزبي (سعد) وأنا سكرتير اللجنة الحزبية في الرصافة.

ـ يمكن لأي رجل في الأمن أن يقول ما تقوله.

ـ وأنا عضو في اللجنة الحزبية للكرادة الشرقية واسمي الحزبي ثائر ـ قال آمر المفرزة.

ـ يمكن لأي رجل في الأمن أن يقول ما تقوله أنت.

إلى هنا وأنا لا زلت معتقداً من الأعماق بأنهم رجال أمن ومتصوراً بأنهم أخذوني باتجاه الحبيبة كي يحتجزوني في أحد بيوتهم السرية تلافياً لانتشار خبر اعتقالي ولممارسة التعذيب بحقي في سجن

منعزل. لكن الشاب الذي ادعى أنه سكرتير لجنة الرصافة أثار لدي الشكوك عندما قال بلهجة هادئة:

ـ «سآتي لك بدليل أقول: «قبل حوالي عشرة أيام أرسلت إلى المكتب السياسي رسالة ذكرت فها أن هناك أناساً ينوون القيام باعتقال أعضاء اللجنة المركزية والتسلط على الحزب عن طريق انقلابي». تذكرت أني كنت قد قرأت فعلاً مثل هذه الرسالة وأننا لم نأخذها مأخذ الجد إذ أن المجانين وحدهم يمكن أن يقدموا، في حزب سري مطارد من قبل السلطة، على محاولة الانقلاب العسكري، فأجبت الشاب بصورة لا إرادية:

ـ إذن أنت الذي كتبت تلك الرسالة، وها أنت الذي تنفذ الخطة اليوم.

ـ قد يكون تقديم تلك الرسالة جزءاً من الخطة المرسومة.

عدت إلى نفس الكلام، رغم تغير ما في أعماقي من تصورات. فقلت:

ـ يمكن لأي رجل في الأمن أن يقول ما تقوله.

وعاد آمر المفرزة إلى الكلام. فأخرج من جيبه صورة فوتوغرافية وعرضها أمامي وتساءل:

ـ ألست شبيهاً بصاحب هذه الصورة، الذي تعرفه جيداً؟ إنه أخي وأنا أشبهه.

كنت أعرف صاحب الصورة جيداً. إنه الكادر الشيوعي المسيحي حازم جميل عضو لجنة الاقليم للحزب. زاد ذلك من شكوكي في أن يكونوا رجال الأمن. ومع ذلك كررت قولي:

ـ بإمكان كل رجل من الأمن أن يقول ما تقوله.

ـ هل ستصدقنا إذا أخذناك لنقابل حسين القمر؟

الأمر هنا بحاجة إلى بعض التفكير. حسين جواد القمر من المولعين بمثل هذه الأعمال الأرسين لوبية ولا بد من أن يكون ضمن مدبري خطط المداهمة والاعتقال. ولكنه ليس أكبر المسؤولين في العملية.. إذن يجب، أولاً، معرفة الشخص الأكبر منهم. فقلت:

ـ كلا لن أصدقكم.

ـ وإذا أخذناك لتقابل عزيز الحاج؟

مر شريط خاطف من الذكريات بذهني وأصبحت الأمور كلها واضحة بالنسبة إلي. تذكرت تغيب الحاج عنا عدة أيام وتذكرت تهربه من عقد اجتماع المكتب السياسي في منزله. وتذكرت رسالته التي زعم فيها بأنه يكتب من زرباطية وأنه سافر إلى هناك للحصول علىٰ قطع من الأسلحة.. أفلم تكن المسدسات، التي رأيتها في أيدي الشبان الأربعة الذين داهموا بيتي واعتقلوني، هي الأسلحة التي حصل عليها الحاج لاستخدامها في هذه العملية البوليسية بالذات؟ نشأت لدي شكوك خاطفة بأنه حصل على هذه المسدسات من سكرتير الپارتي آنئذ حبيب محمد كريم أو مصدر آخر مشابه. وعلى أي حال فإن المسؤول الأول وراء هذه العملية الانقسامية ـ الانقلابية ـ الصبيانية هو الحاج نفسه وليس غيره. ولهذا وافقت على أن ألتقي مع الحاج. فقلت:

ـ نعم أريد أن أرى الحاج.

ـ حسناً. سنصل خلال دقائق إلى بيت تقابله فيه.

استدارت السيارة الصغيرة، التي يشبهها العراقيون بالسلحفاة. واتجهت إلى شارع الصناعة في حي تل محمد. هناك دخلت گراجاً في أحد البيوت. أخرجوني منها وأخذوني إلى إحدى غرف الدار. وأنا لا أزال مشدود الفم واليدين. هناك أزالوا شدة اللفاف وعرضوا علي إسعاف الجرح وتبديل ملابسي الملطخة بالدماء. رفضت ذلك بحزم. لم يلبث أن حضر فخري (وهو عامل من أهالي زاخو يدعى خضر سلمان،

وعضو في لجنة بغداد العمالية وأحد قادة الانشقاق) وجلس جلوس زعيم منتصر في القتال وحاول جري إلى النقاش معه. قال:

ـ سمعت عن موقفك الصلب حين مداهمة بيتك. وكنت تحسب رفاقنا من رجال الأمن. أنا فخور بموقفك في هذا اليوم. وأنت لا تزال رفيقاً لنا رغم كل أخطاءك.

ناقشته على مجمل العملية وعلى موقفه شخصياً وأدنت بقوة العملية الصبيانية ولكنه كان على قناعة بصواب ما فعلوا. وغادرني، دون أن نتفق، ليخلي المكان إلى زميله حسين القمر. الذي دخل الغرفة ليكشر عن ابتسامة متآمر منتصر. رفضت التحدث إليه حتى بكلمة واحدة وطردته من الغرفة مهاناً. وظهر بعده بيتر يوسف، الذي كان قد انضم إلى المنشقين في الأيام الأخيرة من نشاطهم. وكان شيوعياً روتينياً بليداً لم يسبق لي أن أراه ينتقد أو يعارض أي موقف سياسي. وبقي قليلاً ليذهب ويخلي مكانه لزعيمهم عزيز الحاج، الذي جاء مزهواً بالنصر ومغروراً بما حقق. أسمعته من الحديث ما أزعجه وأبلغته أن بإمكانه ومن معه أن يقتلوا شخصاً ما كما تفعل عصابات التآمر والاغتيال، ولكنهم ليسوا قادرين على سجن أحد في ظروف العمل السري لحزب مطارد من السلطة. قال بنبرة الغرور الصبياني:

ـ إننا اعتقلنا جميع أعضاء اللجنة المركزية وسنجعلكم مع بعضكم في الليل.

ـ لن تستطيعوا سجن أحد.. وإذا صرخت الآن من هذه الغرفة معلناً بأني معتقل لدى هؤلاء، فإنك ستكون أول من يلوذ بالفرار.

كرر تهديداته كما يفعل مراهق طائش. فأجبته:

ـ إذا كانت لديك ذرة من الإخلاص للشيوعية فإني أطالبك باسم الحرص على مصلحة الحركة الشيوعية بالكف عن هذه الأساليب الصبيانية وترك الصراعات الحزبية الداخلية لتسير في طريقها المألوف.

لم تجد محاولاتي لحمله على العدول عن موقفه. لكني بقيت على ثقة بأن الأمور لن تسير على هواه. وحين حل الظلام، وأنا لا زلت في غرفتي سجيناً، أتى بعضهم طالبين منّي مصاحبتهم إلى منزل آخر أكثر أماناً. امتنعت عن ذلك إلى أن أكد پيتر يوسف بأنهم سيأخذونني إلى بيت سلام الناصري في حي المنصور لأكون مع سائر أعضاء اللجنة المركزية المحتجزين. عندئذ وافقت من منطلق أن من المحتمل أن يسهل ذلك هروبنا الجماعي من هناك. ولما وصلنا حي المنصور وجدنا الأضوية مطفأة والدار مغلقة ومهجورة، بخلاف ما زعم عزيز الحاج وپيتر يوسف. وأخذت في نفس الساعة إلى بيت پيتر يوسف في حي الكرادة الشرقية لأسجن هناك. في الصباح الباكر من اليوم التالي تمكنت من الهروب وركبت سيارة تكسي حتى وصلت منزل فاروق الطائي في عرصات بحوشي. وأفلحت في ألاّ أسمح للسائق برؤية ملابسي المدممة.

فتح أطفال فاروق الباب وقالوا رداً على سؤال مني:

ـ الوالد مسافر إلى أوروبا.

ـ والوالدة؟

ـ لا تزال نائمة في غرفتها ونذهب فوراً لإيقاظها.

نزلت الأم عائدة عسيران وأصيبت بذعر شديد حين رأتني. وكانت قد سمعت في اليوم السابق بأن سلطات الأمن العام هي التي اعتقلتني.. أصبحت في شبه غيبوبة أو كادت، ظناً منها بأني حضرت برفقة البوليس لمداهمة دارها. فهدأتها وذكرت لها حاجتي إلى ملابس عادية أرتديها بدلاً من ملابسي المدممة وحذاء بدل النعال. لم تكن ملابس زوجها القصير النحيف صالحة لي. لكنها ذكرت أن هناك، لحسن الحظ، قميصاً وبنطالاً لعامر عبد الله. فلبستها وغادرت بيت فاروق متجهاً إلى بيت ثابت العاني، عضو اللجنة المركزية للحزب، الذي كان قريباً من هناك.

ذكرت لثابت بإيجاز ما حدث واتفقت معه على عقد اجتماع طارىء للجنة الحزب المركزية في اليوم التالي. وقسمت معه العمل لإبلاغ الرفاق بموعد ومكان الاجتماع. وقد تأتى عليّ ذلك اليوم، ١٨ أيلول ١٩٦٧، ركوب سيارات التكسي ١٨ مرة لضمان إبلاغ الجميع بالموعد.

حدث لي ما أسبقت ولم أعرف ما جرى لمسؤول الحزب الأول بالوكالة زكي خيري إلا بعد أن هربت من قبضة المنشقين. كانوا قد اعتقلوه في نفس اليوم الذي اعتقلوني. فترأست بنفسي الاجتماع الطارىء للجنة المركزية المنعقد في ١٩/٩/١٩٦٧. وأقر بالإجماع بيان موجز تضمن إدانة الانشقاق وشجب الأسلوب البوليسي المقترن به وطرد رؤوس الفريق المنشق من الحزب، وعلى رأسهم عزيز الحاج، الذي كان ملقباً برمزي. كانت هذه ضربة قوية موجهة إلى المنشقين وبداية نضال متنام ضدهم. وقد أذيع نص البيان بعد بضعة أيام من راديو صوت الشعب العراقي في بلغاريا، مما زاد من تأثيره ومن إحراج الفئة المنشقة.

في اليوم الثالث من هروبي التقيت بزوجتي عائدة ياسين، ووجدتها كتلة من النشاط والحماس ضد المنشقين. وقد روت القصة التالية:

ـ في ظهيرة ١٧ أيلول عدت إلى البيت فوجدت أرض الصالة والطرمة مغطاة بالدماء مما جعلني في قلق وحيرة. قفلت الباب وتوجهت إلى بيت زكي خيري وأخبرته بما شاهدت. قال زكي أن الحادث قد يكون نتيجة دعم للسيارة. لو كان هناك كبس ومداهمة من قبل الأمن العام لكان هناك كمين في البيت. ونصحني بأن أعود من جديد إلى البيت وأسأل الجيران. عدت وسألت البيت المجاور وأجابوني أن الأمن هو الذي داهم البيت واعتقل زوجي. عدت إلى زكي وأخبرته بما سمعت. وفيما كنت جالسة هناك مع أرملة الشهيد رضا جليل حضر عزيز الحاج بصحبة پيتر يوسف وقال لزكي أن الأمن العام تمكن صباح اليوم

من إلقاء القبض على بهاء. وبما أن هذا الأخير يعرف بيتك هذا فإن من الضروري أن تتركه. وجئنا لنقلك إلى مكان آخر أكثر أماناً. وقد أجابهم زكي بأنه يفضل البقاء ولا خوف من اعتراف بهاء. لكنهما ضغطا عليه حتى أخذاه معهما كتدبير احتياطي. وكان حسين القمر ينتظرهم في سيارته على بعد مئتي متر، فأخذ زكي إلى بيته، الذي اتخذوا منه سجناً له مدة عشرين يوماً.

في اليوم التالي التقيت بقادر رشيد، وهو كادر حزبي كنا نستفيد منه في قضايا فنية، وروى لي ما يلي:

ـ كنا مع عائدة وسلام الناصري في سيارة هذا الأخير. فاعترضتنا سيارة فيها پيتر يوسف وحسين القمر في شارع فلسطين. صعد پيتر سيارتنا وجلس جنب الناصري آمراً إياه بالتوجه إلى حيث يعتقل تنفيذاً لقرار قيادة المنشقين، فيما نزلت عائدة من السيارة وتوجهت إلى حسين القمر محتجة مطالبة بزوجها المخطوف. بكى الناصري منهاراً وطلب تركه وعهد بأن يترك العمل الحزبي كلياً، فيما أمسكت بيتر من الخلف وأمرت الناصري بالتحرك لنعتقل هذا الرجل لحين إطلاق سراح بهاء الدين نوري. فهرب پيتر من السيارة مرعوباً وذهب الناصري تاركاً عائدة في الشارع.

وقد التقيت بالناصري شخصياً، وهو شديد الرعب والارتباك. وقال إن القمر وپيتر صادفاه مرة أخرى في الشارع وأرادا اعتقاله ولم ينج منهما إلا بشق الأنفس، وقد ترك سيارته السكودا في شارع فرعي بحي السعدون. ذهبت بنفسي وبحثت طويلاً عن السيارة حتى وجدتها وأرجعتها إليه.

كان للانشقاق نقاط قوته إذ حدث في ظروف رد فعل عنيف حزبياً وجماهيرياً ضد الأخطاء والانحرافات اليمينية السابقة. وانجرف وراءه الغالبية الساحقة من أعضاء منظمة العاصمة وكوادرها الوسطية، كما

انضم إليه العديد من العناصر الحزبية النشطة في بعض المحافظات، خاصة في محافظة السليمانية. بيد أنه كانت له نقاط ضعفه المميتة أيضاً ـ منها أنهم اعتمدوا منذ البداية الأساليب البوليسية ـ الانقلابية المستنكرة اجتماعياً والمحكوم عليها بالفشل الأكيد. يضاف إلى ذلك أن المنشقين استخدموا الجملة الثورية الفارغة دون أن يكون لهم سند فكري صحيح. ويضاف إلى ذلك أن زعيم العملية الانشقاقية عزيز الحاج كان رجلاً ضعيفاً وغير مؤهل أصلاً لقيادة أي تنظيم سياسي علني، ناهيك عن تنظيم سري في ظروف إرهاب بوليسي عنيف. ولم ينجرف مع الانشقاق أي من أعضاء اللجنة المركزية ـ عدا الحاج نفسه. ومن بين ١٤ شخصاً كانوا يشكلون لجنة منطقة بغداد لم يذهب مع المنشقين سوى أربعة أشخاص. ولهذا لم يدم عرس الجماعة المنشقة طويلاً. فقد بدأت تنحسر وتضعف بعد وقت قصير ليس فقط بسبب تنشيط النضال ضدها، بل كذلك بسبب أخطائها الفادحة ونقاط ضعفها الفكرية والسياسية والتنظيمية معاً.

أنا خضت نضالاً مكثفاً ضد المنشقين، دون أن أنجرف إلى أساليبهم البوليسية. ولست نادماً على ما فعلت، حيث قدت النضال في فترة حرجة. وأظن أنني أبليت فيه بلاءاً حسناً.

❀ ❀ ❀

حضر اجتماع اللجنة المركزية الطارىء في ١٩ أيلول فقط أعضاءها الموجودون في بغداد. وكان لا بد من عقد اجتماع آخر يشترك فيه أعضاء الهيئة الموجودين خارج العاصمة أيضاً. وقد انعقد هذا الاجتماع في ٣ تشرين الأول داخل وكر حزبي في حي الزوية ـ الكرادة الشرقية ـ في وقت كان السكرتير عزيز محمد في الخارج وكان المسؤول الأول بالوكالة زكي خيري معتقلاً لدى المنشقين. وقبل افتتاح الاجتماع أصيب عضو اللجنة المركزية وسكرتير منظمة الفرات الأوسط جاسم الحلواني بصدمة عصبية عنيفة سببت له جنوناً حقيقياً طوال الأسابيع اللاحقة. وقد

بقي في المنزل وقت الاجتماع، وهو لا يعي شيئاً. كان يتحرك ويتمشى دوماً ويأتي إلينا بين الفينة والفينة ليضرب بكفه على الطاولة، التي اجتمعنا حولها، وليهتف بصوت عال:

ـ وجدت الحل لدى لنين! وجدت الحل في نقض النقيض.

وقبل أن ينهي المجتمعون ضحكتهم كان يبتعد دون أن يعي ما يقوم به.

بدأنا الاجتماع في ظروف بلبلة فكرية واسعة في الحزب وتوتر عصبي شديد لدى الكثيرين من الكوادر وانهيار معنوي شديد لدى غالبية المجتمعين. منذ الجلسة الأولى اقترح عضو القيادة منذ تشرين ١٩٦٥ والكادر البغدادي كاظم جواد حل اللجنة المركزية وتشكيل لجنة ثلاثية يدخل فيها عزيز الحاج وينضم إليه اثنان من الكوادر خارج اللجنة المركزية بغية استعادة وحدة الحزب. وسرعان ما حظي هذا الاقتراح الانهزامي بتأييد الكثيرين. ولفسح المجال أمام هذا الاقتراح استقال الكثيرون طوعاً من عضوية اللجنة المركزية، أمثال عامر عبد الله وسلام الناصري وباقر إبراهيم وصالح دگله وستار خضير وكاظم جواد... الخ.

تعرضت لضغط شديد من قبل المنهارين والمستقيلين في الاجتماع كي أستقيل بدوري، وأفسح المجال لتنفيذ مشروعهم. رفضت بحزم هذا الحل، الذي اعتبرته استسلامياً، وأبلغتهم أنني لن أستقيل ولن أسلم مصير ح ش ع إلى أناس أمثال عزيز الحاج. ودعمني في موقفي هذا ثلاثة من المشاركين في الاجتماع ـ كريم أحمد وثابت العاني وآرا خجدور، مما قطع الطريق على طالبي استقالتي واضطر الآخرون على التراجع تدريجياً. وانتهى الاجتماع بما يزيد من تماسك الحزب وتنشيط الكفاح ضد المنشقين. وكان ضمن قرارات الاجتماع التحضير لكونفرنس حزبي جديد مكرس لدراسة الأوضاع المستجدة في الحزب، على أن يعقد في أقرب وقت ممكن.

كنت أعرف أن عزيز الحاج يسكن في بيت استأجره شوكت خزندار مع عائلته. لكني لم أعرف أين هو البيت. وعن طريق عضو الحزب غني الحاج أحمد، الذي كان يلتقي أحياناً مع خزندار، أفلحت في إقامة علاقة سرية مع هذا الأخير. التقيت به ووضع نفسه تحت تصرف الحزب. وكلفته فقط بمتابعة أوضاع المنشقين ومحاولة التعرف على بيت مطبعتهم السرية التي كانت قبل الانشقاق مطبعة منظمة بغداد وهيئت لتكون في خدمة الفريق المنشق، فيما كانت مطبعة الحزب المركزية تحت إشرافي المباشر.

أخبرني خزندار ذات يوم بأن لفخري والقمر لقاءاً جنب گراج مصلحة نقل الركاب في تل محمد الساعة السابعة مساءاً. قررت الذهاب إلى هناك لاسترجاع السيارة التي كانوا قد استولوا عليها يوم اعتقالي. وقف بالقرب مني كل من قادر رشيد ومصطفى ظاهر الناصري وأحمد علي، لكي يهبوا إلى نجدتي عند الحاجة. عندما ظهر القمر في سيارة الفوكس واگن سبقته بسيارة الشوفرليت القديمة وحجزت عليه الطريق قرب الگراج. لم يكن له مجال السير إلى الأمام ولا العودة إلى الوراء. لكنه لم يستسلم، بل عبر بسيارته الحاجز الكونكريتي الذي قسم به الشارع إلى سايدين وساق بعكس الاتجاه حتى وصل فلكة تل محمد واستدار من هناك إلى اليسار. كانت هذه الحركة شبيهة تماماً بتلك الحركات التي تشاهد في أفلام الكاوبوي. ولم أر من المعقول أن أغامر مثله فتركته واستولينا مع رفاقي الشبان على سيارة (انگليا) التي كان يسوقها فخري وهرب الأخير نفسه ركضاً. كانت غنائمنا هذه السيارة مع طابعة وبعض وثائق المنشقين.

وفيما كان عزيز الحاج تحت مراقبتنا التامة كان قادر رشيد قد عثر بشكل من الأشكال على الدار التي اختفى فيها حسين القمر مع عائلته في حي الداخلية. وقد اقترح قادر مداهمتها في وقت مناسب لاستعادة السيارة، لكننا لم نداهمها. ولما طال اعتقال زكي خيري لدى المنشقين

قررت أن أمارس الضغط عليهم بهدف حملهم على إخلاء سبيله. فأخذت في سيارتي. الشيوعية النشطة وابلة الشيخ، أرملة نافع يونس وعضو لجنة منطقة بغداد. وأوضحت لها ما يجب أن تقول في بيت حسين القمر الذي أوصلها إليه. وقد اخترت هذه الفتاة لأداء المهمة المعنية لتلافي احتمالات العراك. دخلت وابلة من الباب الخارجي دون الاستئذان وضغطت على جرس الباب الداخلي. فأبت ناهدة العبايچي ـ زوجة القمر ـ أن تفتح لها الباب وحدثتها من الشباك. أوصلت وابلة الرسالة الشفهية وحذرت من مغبة إبقاء زكي معتقلاً لمدة أطول وانسحبت دون أن تعرف هي أو نعرف نحن أن سكرتيرنا بالوكالة زكي معتقل في هذه الدار بالذات وعلى بعد ٣ ـ ٤ أمتار من رسولتنا وأنه يسمع جيداً كل كلمة من الحديث الدائر بين الامرأتين، في وقت كانت ناهدة هي الحارس الوحيد في تلك اللحظة على سجينها. كان من السهل بالطبع أن يخرج زكي من الباب ببساطة قبل وصول وابلة إلى هناك. كما كان من السهل أن ينهض في تلك اللحظات ليكشف نفسه لوابلة ويتكلم معها وليفتح الباب ويعود معها إلينا أو يخبرها على الأقل بوجوده هو هناك. أما لماذا لم يكشف نفسه ولم يتحد ناهدة، الامرأة البسيطة العزلاء، فإن علم ذلك عند الله.

بعد انسحاب وابلة مباشرة خابرت ناهدة بعضهم فأنبأتهم بما جرى وطلبت الحضور مع السيارة دون تأخير لنقل الرهينة السجين إلى بيت آخر قبل أن يصل «اليمين» ويطلق سراحه عنوة. وبعد قليل وصل شخصان من كوادر المنشقين وأخرجا زكي من البيت لنقله في سيارتهما إلى بيت آخر. في آخر لحظة استعاد زكي شيئاً من جرئته فعصى عليهما وأبى أن يرافقهما وبدلاً من دخول السيارة دخل دكاناً قريباً واستنجد بصاحبه ليحميه منهما. حاولا إخراجه عنوة ووضعه في السيارة بذريعة أنه «حرامي» وخاطب زكي صاحب الدكان راجياً مساعدته له:

ـ قل لي بربك هل أن شكلي شكل حرامي؟

انسحب الشخصان، ربما تحت تأثير الخوف من حضور عناصر اليمين ـ على حد تعبيرهم ـ وعاد زكي هو الآخر إلى أحد بيوتنا بعد حجز دام عشرين يوماً وبشكل لم يكن للفريق المنشق قرار بشأنه أو فضل عليه. وبذلك انتهت هذه الصفحة الأخرى من المهزلة الصبيانية ـ الأرسين لوبية، التي قادها الحاج، المتظاهر بالثورية والطامح إلى أن يصبح زعيماً للحركة الشيوعية العراقية، وربما للبلاد كلها.

كان أول ما قام به زكي من نشاط ضد المنشقين، بعد استعادة حريته، توجيه رسالة باسمه إلى جميع أعضاء الحزب عرّى فيها العملية الانشقاقية ـ البوليسية وأدانها وفضح الحاج نفسه ـ وقد كان لهذه الرسالة تأثيرها. وظل زكي نشطاً في محاربة المنشقين، إلا أن نقطة ضعفه البارزة كمنت في علاقاته السابقة مع الحاج، التي وصلت حد إصدار كراسة التقييم من قبلهما سوية ودون علم وموافقة الحزب في ١٩٦٥.

طلب مني زكي ذات مساء أخذه في سيارتي إلى شارع فلسطين لحضور موعد اللقاء مع الشيوعي السوري المعروف رمو ـ أبو جنگو ـ فأخذته ولم نجد في الموعد أحداً. في طريق العودة شاهدنا الحاج وشاهدنا بدوره وأصيب بذعر شديد ظناً منه بأننا نبحث عنه. كان قد قرر قبلئذ، كما أخبرنا أحدهم، قتل البعض منا. وربما كان يتصور أننا نفكر على نفس المنوال ونبحث عن فرصة لقتله. ولم يكن يعرف بأن الشخص الذي يعيش معه في بيته أصبح على صلة معنا وأننا لسنا بحاجة إلى البحث عنه في الشوارع إذا أردنا أن نغتاله.

❀ ❀ ❀

سجل اليوم التاسع والثلاثون من الانشقاق مفاجأة كبرى بالنسبة إلى عزيز الحاج، ففي عصر ذلك اليوم وصلني خبر مستعجل مفاده أن خزندار يريدني بمهمة ملحة جداً، والتقيت به فاتضح أنها قضية عزيز نفسه. قال خزندار:

ـ انكشف أمري منذ مساء الأمس إذ عاد الحاج إلى البيت وشتم وأرعد قائلاً لي: «ـ إنك يا شوكت بعت نفسك لليمين... أنت عميل بهاء».

ـ وماذا فعلت من جانبك؟

ـ وما الذي أستطيع عمله سوى اعتقاله؟ حين انفجر وشتم مساء أمس عاتبته زوجتي وطلبت منه الكف عن الصراخ فضربها دون حياء، مما اضطرني إلى ضربه بدوري وإبلاغه بأنه معتقل هنا في البيت ريثما يقرر الحزب مصيره. ومنذ صباح هذا اليوم تركته في غرف مقفلة وأبلغته أن زوجتي تقف أمام الباب وفي يدها سكينة لتمنعه من أي محاولة هروب ـ وأضاف خزندار ـ أن سجيننا يبكي كثيراً ويتوسل إلينا لكي لا نسلمه إلى بهاء. وهو صرخ مستنجداً بالجيران ليخبروا الشرطة بأنه معتقل هنا وسيقتل. وقد كتب رسالة ورماها شطر الدار المجاورة لكنها وقعت في باحة دارنا. وها هي في جيبي (أخرج الرسالة وسلما إليّ) وجاءتنا ربة البيت المجاور تسأل زوجتي عن هذا الصراخ والعويل. فأخبرتها الأخيرة بأنه شقيقها الذي يصبح أحياناً في حالة من الجنون. قالت الجارة أنها عرفت فوراً بأن هذه تصرفات رجل مجنون.

بعد سماع ما روى شوكت تذكرت كذلك زكي خيري وسجنه في بيت القمر تحت حراسة ناهدة وحدها. وتذكرت جمهورية سجن نقرة سلمان في ١٩٥٣ ووقوف زكي وعزيز، وفي يد كل منهما عصى قصيرة، في القلعة الشمالية لتنحصر مهماتهما القتالية على مراقبة العدو عبر المزاغل.

قلت لخزندار:

ـ عد إلى بيتك وانتظر هناك جوابنا بعد سويعات.

وذهبت إلى زكي ورويت له ما حدث للحاج. ضحك، رغم أنه كان قليل الضحك دوماً، وتساءل:

ـ ما الذي يجب عمله الآن؟

ـ ينبغي إخلاء سبيله فوراً ودون قيد أو شرط. إذا رغب في البقاء طوعاً فإننا نعده بإرساله إلى بلد اشتراكي أو إلى المناطق المحررة في كردستان. وإذا لم يرغب فليذهب إلى حيث يشاء ويعمل ما يروق له.

وافق زكي على هذا الرأي وبقي أن ننفذه. ذهبت إلى مهدي الحافظ آخذاً بنظر الاعتبار أنه صديق قريب إلى الحاج وأن علاقته ودية معه. وأبلغته بما تقرر وأرسلته إلى بيت خزندار ليعرض على السجين ما أوضحته. أبلغ مهدي بدوره القرار غير المتوقع إلى الحاج. استنجد الأخير بخزندار ليوصله إلى الشارع ويستأجر له تكسي. وبعد انتظار قصير في الشارع عاد معه ليبيت عنده في تلك الليلة أيضاً وليقضي ليلة بين البكاء والضحك الهيستري. في صبيحة اليوم التالي أوصله خزندار إلى أحد بيوتهم وسلمه إلى القمر وفخري قائلاً:

ـ إليكم زعيمكم! أريد منكم وصلاً باستلامه بالكمال والتمام.

ـ وأين كنت؟ ـ سأل زعيمهما.

ـ كنت سجيناً لدى اليمين.

وقد واصل الحاج نشاطه بعد هذا الحادث أيضاً. ولكنه أصبح ضعيف المعنوية والهمة، كما هبطت ثقة رفاقه به وشكهم في قدراته القيادية.

الكونفرنس الحزبي الثالث

في أواخر كانون ١٩٦٧ أخذ المندوبون يتقاطرون على قرية (دار بسر) قرب بلدة (كوي سنجق)، حيث كان من المقرر عقد الكونفرنس الثالث للحزب في المنزل القروي البسيط للفلاح الشيوعي عضو لجنة محافظة اربيل علي مولود. قام قادر رشيد، كعادته في مثل هذه الحالات، بدور نشط في عملية النقل السرية لمندوبين مختفين جميعاً عن أنظار الشرطة. حضر الكونفرنس ٥٧ مندوباً. كان المكان أميناً وملائماً لأن تطول الجلسات عدة أيام.

كنا قد أخبرنا سكرتير الحزب عزيز محمد بموعد الكونفرنس. وعاد إلى البلاد قبيل انعقاده، ودون أن يكون قد ساهم بشيء في التحضير له. كما عاد رحيم عجينة أيضاً عن طريق سوريا ـ بهدينان لحضور الجلسات مباشرة.

وقع العبء الرئيسي في التحضير للكونفرنس علينا، أنا وزكي، مع مساهمة رفاق آخرين. وكان جدول العمل كالتالي:

١ ـ قضية الانشقاق وسبل الكفاح ضده ولاستعادة وحدة الحزب وقوته.

٢ ـ تقييم سياسة الحزب السابقة وكذلك تقييم قضايا الحزب الداخلية وتحديد المسؤوليات الشخصية عن أخطاء الماضي، وبالأخص أخطاء آب ١٩٦٤.

٣ ـ انتخاب القيادة (اللجنة المركزية) للحزب.

عند دراسة التقرير الحزبي الداخلي اتضح أن جميع أعضاء اللجنة المركزية، باستثناء عزيز الحاج وجزئياً آرا، ساهموا في صياغة خط آب ويتحملون جماعياً وشخصياً مسؤوليته. ومع ذلك تركزت دعاية المنشقين المتعاطفين مع أفكارهم ضد أشخاص أربعة باعتبارهم مسؤولين أساسيين عن خط آب ١٩٦٤ ـ هم بهاء والناصري وعامر وباقر إبراهيم.

وقد أعيد انتخاب عزيز محمد إلى اللجنة المركزية فإلى منصب السكرتير فائزاً بأغلبية ساحقة من الأصوات، ساعياً إلى وضع نفسه خارج الصراعات المحتدمة في الحزب، فيما سقطت عضوية الناصري وعامر ودگله. وفزت أنا بأغلبية نسبية ضئيلة كمرشح لعضوية اللجنة المركزية. ووجد باقر إبراهيم طريقاً للتفاهم وعقد الصفقات مع معارضيه السابقين. ففاز بأصوات ٣٦ مندوباً ـ وهو ما تنبأ به قبل الانتخابات ـ وعاد إلى اللجنة المركزية ثم إلى المكتب السياسي.

ومن المفارقات الغريبة أن الذين رفضوا انتخابنا، أنا وعامر والناصري ودگله هم أنفسهم الذين دعموا ترشيح جاسم الحلواني، قبل أن يفيق من نوبة الجنون الذي عرفوا به جميعاً، وانتخبوه عضواً في اللجنة المركزية. وقد استشارني الحلواني، قبل الانتخابات الحزبية، حول ما إذا كان من المناسب أن يقبل ترشيحه إلى اللجنة المركزية فنصحته برفض الترشيح على الأقل في الكونفرنس الجاري ولكنه لم يأخذ بنصيحتي.

كان الكونفرنس في واقعه أقرب إلى مؤتمر حزبي طارىء. وهو أدى كامل مهمات المؤتمر فعلاً في مسائل هامة لكننا فضلنا تسميته كونفرنساً.

بعد الكونفرنس ارتأينا العودة عن طريق أربيل ـ الموصل ـ بغداد. ومرت سيارتنا لاندروفر بطريق وعر وكادت تنقلب لولا مهارة سائقنا قادر رشيد. وفي سيطرة اسكي كلك اجتازت سيارتنا نقطة السيطرة دون الوقوف بسبب عدم انتباهنا. في الجسر التالي أوقفتنا مفرزة من البوليس ونظروا

إلى هوياتنا ـ وكنا أنا وكريم أحمد وعزيز محمد وعائدة وعامر عبد الله وزكي خيري. وقد أجروا تفتيشاً دقيقاً في السيارة. وكانوا شرطة الگمارك وكان في سيارتنا مخبأ سري خفت جدياً من أن يعثروا عليه وعلى وثائق الكونفرنس المخفية فيه. لكنهم لم يعثروا أخيراً ونجونا بمعجزة.

❀ ❀ ❀

دخلت الكونفرنس الثالث عضواً في المكتب السياسي وخرجت منه مرشحاً للجنة المركزية. وعند توزيع العمل أنيطت بي مهمات العمل التنظيمي، الذي كدست بشأنه خبرة مناسبة في سني نشاطي الحزبي. وخلال العمل سافرت مرتين أو ثلاثاً إلى ريف قضاء الحي، الذي شاهدته لأول مرة وتعرفت فيه على أوضاع وتقاليد الفلاحين. مررت، غير بعيد عن مدينة الحي، أمام قصر كبير بنته قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عائلة آل بلاسم الإقطاعية التي كانت تملك أراضي قضاء الحي كلها وكانت تستغل وتضطهد الفلاحين مباشرة أو عن طريق السلطات المحلية. لكن ثورة تموز نزعت عنها تلك السلطة وها هو القصر مهجور. وفي مدينة الحي نفسها مررت بالمكان الذي أعدم فيه المناضلان الشيوعيان الباسلان علي الشيخ حمود وعطا مهدي الدباس إثر انتفاضة الحي عام ١٩٥٦.

كانت قيادة المنظمة الحزبية في المحافظة مقيمة في ريف الحي، وثيقة الصلة بالجماهير الفلاحية. التقيت هناك لأول مرة مع سكرتير المنظمة (أبو عليوي) الذي كان قد كسب شعبية واسعة، ومع عضو مكتب لجنة المحافظة صالح الحاج أحمد، الكادر الحزبي اللامع الموصلي، الذي كان قد هرب من السجن البعثي في وقت سابق وعاش فترة مع البدو راعياً لهم إلى أن عثر على من أوصله إلى الشيوعيين في المنطقة، حيث وضع كامل طاقاته النضالية في خدمة العمل الحزبي حتى تمكن جلادو البعث الحاكم من اغتياله أواخر الستينات.

كان أبو عليوي يتجول خيالاً. وعندما سألت عما إذا أمكن استخدام

الدراجات الهوائية كواسطة نقل مناسبة أجابوا أن من يركب هنا الدراجة الهوائية إنما يجلب على نفسه العار. غير أن المفاجأة الكبرى بالنسبة إليّ كانت في التقاليد الموروثة بشأن السرقة. كانت ممارسة السرقة ضرباً من الرجولة وكان لكل رجل أن يسرق دون أن يلام على ذلك. يسرقون بعضهم البعض ومن يتجنب السرقة يعتبر جباناً. سألت عضو لجنة القضاء الكادر الوسطي أبو حميد، وهو جالس بيننا وعلى فخذه بندقيته:

ـ وهل تسرق أيضاً، وأنت كادر شيوعي؟

ـ أنا أمارس السرقة، أيها الرفيق، فقط عشرون يوماً في السنة... وأفعل ذلك بموافقة الحزب.

في زيارتي الأولى دخلت بيتاً ريفياً قرب طريق الحي ـ الناصرية واستقبلني شاب شيوعي متحمس يدعى كاظم عطية. استضافني في منزله ثم رافقني إلى حيث وجدت سكرتير المحافظة أبو عليوي، الذي أشاد بكاظم كعضو قضاء نشط وأكمل الدراسة المتوسطة. وعند زيارتي الثانية، بعد أشهر، استقبلني شغيدل شقيق كاظم ولم أجد الأخير. وفيما كنت جالساً في إحدى غرف البيت كنت أسمع بكاءاً نسائياً من الأعماق. واعترف بأن هذا النوع من البكاء ـ خصوصاً عندما تكون المرأة الباكية ذات صوت رخيم وتتضمن نغم البيات الحزين ـ يؤثر عليّ شديد التأثير وقد يحملني على أن أبكي بدوري. سألت عن سبب البكاء الذي أسمعه في البيت. فأجابني شغيدل:

ـ إنها أمي، تبكي لأخي كاظم.

ـ وماذا حدث لكاظم؟ ـ سألت صاحب البيت.

ـ قتل قبل شهرين.

ـ كيف؟ لماذا؟

ـ ذهب في الليل ليسرق فقتل.

سكت بعد كلمات التعازي التقليدية وفكرت مع نفسي: أي تأثير

لقوة العادات والتقاليد الموروثة! وتساءلت عما إذا أمكن العثور على علاج لهذه المشكلة الاجتماعية. وأجبت نفسي سلباً سوى الانتظار المقرون بالتثقيف وبتغير الوضع الاقتصادي ـ الحضاري.

في اجتماع إحدى اللجان التقيت بأبو قاطع ـ شمران الياسري ـ الذي كان يحرر «بصراحة أبو قاطع» في جريدة الحزب المركزية العلنية. كان عضو لجنة قضاء الحي وكان يعيش بشكل بسيط متواضع. لكن مزاجه العام بدا لي متكدراً.

كانت عضوية الحزب في المحافظة تزيد عن الألفين، غالبيتها الساحقة من الفلاحين الفقراء. وكان أبو عليوي معروفاً ومحبوباً بينهم، يتوجه إليه الكثيرون ليعرضوا عليه مشاكلهم ويسمعوا نصائحه أو ليطلبوا الانتماء إلى الحزب. وكان طالب الانتماء في ريف الحي ـ فقط في ريف الحي بين جميع أرياف البلاد ـ ملزماً بتقديم ربع دينار إلى الحزب كدخولية. كان لدى الفلاحين شعور راسخ بأن الحزب الشيوعي يدافع بإخلاص عن مصالحهم ويريد لهم الخير والرفاه. ولم يكن لديهم فكرة عن القضايا النظرية والفلسفية لدى الحركة الشيوعية. وكان البعض منهم يخرج من البيت، بعد انتهاء الاجتماع الحزبي لخليته، ليتجه إلى الضريح المحلي المقدس (عكار) الذي نسجت حوله قصص كثيرة.

وزرت ريف الحلة أيضاً، حيث عقد اجتماع حزبي ـ أو كونفرنس مجلس ـ في بيت فلاح شيوعي. ذهبت بصحبة جاسم الحلوائي وسامي عبد الرزاق وحميد البياتي وغيرهم من الكوادر المحلية، ونحن راكبو دراجات هوائية. هنا، بخلاف ريف الحي، تستطيع استخدام الدراجة دون أن يكون ذلك سبباً للعار والاحتقار. وقد أصيب صاحب البيت الفلاح بصدمة نفسية عندما أصبت، وأنا واقف، الهدف ـ قنينة زجاجية ـ بأول طلقة من بندقية تابعة له حين لم يتمكن هو من إصابته بعدة طلقات وقوفاً. وتأتى عليه الجلوس وتثبيت البندقية لكي يصيبه. وخففت من صدمته حين أخبرته بأني ابن الريف أيضاً.

١٥

انقلاب تموز ١٩٦٨

كان لدينا قدر غير قليل من المعلومات عن ضعف فلول البعثيين، بعد أن أصيبوا بهزيمة ساحقة فكرياً وسياسياً وتنظيمياً عقب إزاحتهم عن السلطة من قبل شريكهم في الحكم عبد السلام في تشرين ١٩٦٣. كانوا مصابين بنكسة حقيقية كبرى ولم يكن في حوزتهم شيء يذكر، لا في الجيش ولا بين الجماهير. ولهذا كانت عودتهم إلى الحكم في تموز ١٩٦٨ مفاجأة حقيقية لنا وللناس وحتى لأغلب مؤيديهم. وهم أنفسهم كانوا يدركون ضعفهم وعزلتهم وكره الشعب لهم. ومن هذا المنطلق حرصوا شديد الحرص على إخفاء طابع الانقلاب في ١٧ تموز ١٩٦٧ وهوية السلطة الجديدة ومشاركتهم المباشرة فيها.

كان الوضع السياسي في تلك الأيام حاملاً بمخاطر التوتر والانفجار. فالإرهاب البوليسي كان قد خف بعض الشيء في عهد عبد الرحمن عارف والقوى القومية اليمينية كانت مصابة بالهزيمة، فيما كانت القوى الديمقراطية اليسارية قد حققت بعض الانتعاش ـ كما اتضح ذلك في انتصار الشيوعيين والتقدميين عند انتخابات اتحاد الطلبة في المعاهد والكليات عام ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨. وكان الخطر، بالنسبة للأوساط الرجعية العراقية والأوساط الأجنبية المهتمة بوضع العراق، يكمن في تطور القدر

الضئيل من اللبرالية التي توفرت في عهد عبد الرحمن عارف.

من هنا ولدت فكرة، أو طبخة، انقلاب تموز ١٩٦٨. وحسب تصوري فإنها ولدت في خارج العراق أو في أروقة بعض السفارات الغربية ببغداد. وكان المنفذون، على الأقل في بداية الأمر، مجرد بيادق وأدوات في أيدي تلك الأوساط لتنفيذ ما أرادت هي. كانت تلك الأوساط تخشى من استيلاء القوى اليسارية على السلطة وقطعت الطريق على ذلك بإعادة البعثيين، الذين عرفتهم جيداً في ١٩٦٣، إلى الحكم لكي يبطشوا بالشعب وبكل القوى التقدمية. ولما كان البعث نفسه عاجزاً عن عمل شيء للعودة إلى السلطة بالاستناد إلى قوته فإن هؤلاء سخروا عملاءهم في الجيش لتنفيذ الانقلاب ولتسليم السلطة إلى البعث أو إلى بكر وصدام. ويبدو أن مدير الاستخبارات العسكرية عبد الرزاق النايف كان رجل المخابرات الإنكليزية، الذي نسق مع رجل المخابرات الأمريكية وآمر لواء الحرس الجمهوري إبراهيم الداوود. فالانقلاب العسكري الأبيض، الذي لم تسفك فيه قطرة من الدماء في ١٧ تموز، إنما كان حصيلة اتفاق هذين الضابطين وتنسيق العمل بينهما وفق توجيه جهة أعلى خارج العراق.

وفي مجرى العمل على طبخة الانقلاب زار المبعوث الأمريكي (راونتري) العراق في ١٩٦٨ أكثر من مرة والتقى بأحمد حسن البكر دون أن يكون لهذا الأخير أي صفة رسمية أو مبرر منطقي لهذه اللقاءات. ومن المؤكد أن المظاهرة التي نظمها البعثيون في بغداد بتشجيع وحماية جهاز الاستخبارات العسكرية، والتي خطب فيها البكر، كانت تستهدف إفهام المخابرات الأمريكية بأن للبكر نفوذه وشعبيته وأنه مؤهل لأن يتولى الحكم إذا دعمه الأمريكيون. ويجدر بالذكر أن البكر كان قد قدم عام ١٩٦٣ البراءة وتعهد أيام عبد السلام عارف بعدم الاشتغال بالسياسة لحساب حزب البعث.

وأغلب الظن أن تسلل النفوذ الأمريكي ـ الإنكليزي إلى الجيش العراقي وشراء الضباط الكبار في أخطر المراكز لم يتم خلال حكم عبد

الرحمن عارف، الضابط المسالم نسبياً والمسكين الذي لم يوصله إلى قمة الحكم سوى أخوته لعبد السلام عارف. وأظن أن المخابرات الأنغلو ـ أمريكية كانت على صلات مع ضباط في الجيش العراقي في عهد النظام الملكي وفي العهود اللاحقة أيضاً.

ومن المؤكد أن تنفيذ الانقلاب كان صعباً وكان يصطدم بعقبات جدية، حتى فيما لو كانت لدى البعثيين قطعات عسكرية خارج لواء الحرس الجمهوري وبمعزل عن جهاز الاستخبارات العسكرية. على أن الأحداث كشفت عن انعدام نفوذ للبعثيين في الجيش. فالضباط البعثيون، أو التكارتة من أمثال حردان التكريتي الذي لم يكن بعثياً، كانوا متقاعدين وعادوا إلى الجيش وأخذوا المواقع الهامة بالارتباط مع عملية الانقلاب أو فيما بعدها.

أما لماذا حرصت الأوساط الحاكمة في لندن وواشنطن على إعادة البعثيين، وبالأحرى إعادة زمرة البكر ـ صدام، إلى الحكم فأغلب الظن أن ذلك يعود إلى السبب التالي: رغم أن بعد الرحمن عارف كان ضابطاً بيروقراطياً ودكتاتوراً عسكرياً إلا أنه لم يكن مرتبطاً بتلك الأوساط كعميل (بعكس ما كان الأمر بالنسبة إلى البكر وصدام). يضاف إلى ذلك أنه لم يكن عنيفاً ودموياً قدر ما كان أخوه عبد السلام أو القادة البعثيون، بل خفف من الإرهاب بعض الشيء وكان يحتمل أن يقود إلى نوع من النظام اللبرالي. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فإن نشاط ح ش ع ذا الماضي المخيف جداً بالنسبة للأوساط الغربية، والذي أقر التوجه علناً نحو القيام بانقلاب عسكري لانتزاع السلطة السياسية في هذا البلد النفطي الهام، كان مبعث القلق لتلك الأوساط، الأمر الذي حملها على استخدام عملائها من أجل أخذ السبق لإزاحة عبد الرحمن ولتسليم زمام السلطة إلى يد حديدية قادرة على التصدي للحركة الشيوعية والديمقراطية اليسارية. ولم يكن هناك ما هو أفضل وأقدر على تنفيذ هذه المهمة الإجرامية القذرة من الزمرة البعثية.

وأظن أن النايف والداوود نفذا الانقلاب العسكري ليس فقط تنفيذاً

لأوامر صدرت إليهما، بل كذلك بدافع من الطموحات الشخصية ولكي يكونا شركاء في الحكم وربما ليكونا القوة الرئيسية فيه. لكن حلفائهما البعثيين غدروا بهما في ٣٠ تموز ١٩٦٨. وأغلب الظن أن هذا الغدر قد تم بعلم وموافقة المخابرات الأمريكية ومثل صفحة من التناقض بين مصالح واشنطن ولندن، وربما جرى في غفلة من لندن. ويتراءى لي أن السياسة التي اتبعها البعثيون بعد عودتهم إلى السلطة، والتي انطوت على عناصر المناورة والخداع تجاه الجماهير وتجاه الأحزاب السياسية، لم تكن أيضاً بمعزل عن نصائح وتوجيهات خبراء غربيين متمرسين في النشاطات التآمرية ـ السياسية.

كما يتراءى لي أن هذه الأحداث قد جرت في العراق والمخابرات السوفيتية كانت في سبات تام ولم يكن هناك ما يشير إلى أنها كانت على علم بما يجري.

بعد استيلائهم على السلطة ناور الحكام البعثيون منذ البداية ساعين إلى عرض نظامهم في ثوب جديد مغاير لما رآه العراقيون عام ١٩٦٣. واتخذوا إجراءات في مجرى هذه المناورات التضليلية فأطلقوا سراح السجناء السياسيين وألغوا سجن نقرة سلمان سيىء الصيت وأعادوا المفصولين إلى أعمالهم ـ باستثناء المفصولين العسكريين، الذين أعادوهم إلى دوائر مدنية بدلاً من الجيش.. الخ وبذلوا الجهود لكسب ود ح ش ع بهدف كسب الوقت كي يوطدوا سلطانهم. وهم فعلوا ذلك لأنهم لم يكونوا على ثقة من قدرتهم على البقاء في الحكم. بيد أن كل المناورات التي قاموا بها كانت محدودة ولم يعطوا أي قدر من الحقوق والحريات الديمقراطية إلى الشعب ولم يقوموا بما يشير إلى أن في نيتهم التخلي عن الأجهزة القمعية وعن أساليب الإرهاب البوليسي في التعامل مع الشعب. على العكس من ذلك، فإن صدام بادر شخصياً، منذ الأيام الأولى، إلى تأسيس جهاز قمعي جديد بموازاة الأجهزة القمعية التقليدية، ووضع على رأسه أحد جلادي ردة شباط ١٩٦٣ ـ هو ناظم گزار ـ وأشرف بنفسه على نشاطه وخصص له الأموال الضرورية. كان

أول مصدر لتمويل هذا الجهاز القمعي الجديد ولتطمين بعض احتياجات صدام الشخصية هو الوارد الأسبوعي لسباق الخيل (الريسز) الذي وضع عليه اليد. وكان يقارب ٣٥ ألف دينار أسبوعياً. وكان هناك تنافس وصراع حقيقي حاد بين جهاز صدام ـ گزار الجديد وبين جهاز الأمن العام التقليدي الذي لم يكن خاضعاً لصدام خلال السنوات القليلة الأولى بعد الانقلاب.

كان في قيادة ح ش ع وبين كوادره رأيان إزاء سلطة البعث ـ أحدهما يقوم على أساس رفض الثقة بحزب البعث وسلطته ويعارض الانخداع بوعوده والتعاون معه. والثاني يدعو إلى التريث ويمهد السبيل للتفاهم والتعاون مع السلطة الجديدة. وقد جرت مناقشات، وأحياناً حادة، في القيادة وبين بعض الكوادر. واتضح أن تناسب القوى بين أنصار الرأيين كان يفرض، في فترة معينة، حلولاً توفيقية ـ وسطية إذ لم يكن بإمكان أي طرف فرض رأيه على الطرف الآخر.

خلال الأشهر الأولى من عهد البكر ـ صدام وقع حادثان مهمان كان ينبغي أن تتعظ بهما قيادة ح ش ع وتستنتج منهما الدروس الضرورية لمعرفة جوهر السلطة الجديدة. ففي ساحة السباع عقد الشيوعيون اجتماعاً شعبياً سلمياً بمناسبة حلول الذكرى الواحدة والخمسين لثورة أكتوبر الاشتراكية. لم يكن في شعارات الاجتماع أو كلمات الخطباء ما يكون موجهاً ضد السلطة أو مخلاً بالأمن أو خروجاً عن الطابع السلمي. ومع ذلك عامله صدام بالنار والحديد وأغرقه في الدماء. والحادث الثاني كان في معمل الزيوت عندما أضرب عماله عن العمل في بغداد من أجل مطالب نقابية بسيطة، في مقدمتها زيادة الأجور وتحسين شروط العمل. كان ذلك أول إضراب عمالي في عهد السلطة البعثية وكان اختباراً لمعرفة طبيعة النظام، الذي لم يتردد في قمعه بالنار والحديد وقتل اثنين من المضربين.

كان الفريق المنشق بقيادة عزيز الحاج في وضع صعب وبدأ نفوذه ينحسر في عهد السلطة الجديدة البعثية. وكان يمكن أن ينتهي بصورة أسرع، بسبب أخطائها وإخفاق خططها والتصارع بين قادتها، لولا الدعم الجزئي الذي تلقاه بانضمام فريق آخر صغير من بعض مثقفي بغداد، الذين كانوا قد شكلوا لأنفسهم كتلة خاصة بهم تزعمها إبراهيم علاوي وخالد أحمد زكي. وأظن أن عضو اللجنة المركزية للحزب آرا خجدور كان على علاقة مع هذه الكتلة وكان يقدم لها سراً النصح والتشجيع. كنت أعرف بعض الشيء عن وجود هذا الفريق أيضاً قبل انشقاق عزيز الحاج. لكني لم أكن على علم بعلاقة خالد ـ الطالب العراقي في لندن والشاب الشيوعي النشيط ـ معها. في فورة الغضب على عزيز الحاج وكتلته طردنا من الحزب أعضاء هذه الكتلة أيضاً قبل أن تكون قد بادرت إلى عمل شيء ملموس. وبعد اندماج الكتلتين، وبعد أن تقرر عندهم خوض حرب العصابات في أهوار الجنوب تطوع خالد وذهب بحماس كبير إلى منطقة الأهوار وناضل حتى استشهد مثبتاً أنه كان صادقاً مع نفسه ومع رفاقه، جامعاً بين الأقوال والأعمال، على عكس ما فعل عزيز الحاج، الذي كان بكتاباته ومظاهره ثورياً متقدماً، ولم يكن راضياً بأقل من إقامة الجمهورية الشعبية ودكتاتورية البروليتاريا.. الخ، غير أنه انهار فور وقوعه في قبضة البوليس وانقلب إلى مداح رخيص لنظام البعث الدكتاتوري الدموي.

وقد عرضته السلطة من شاشة تلفزيون بغداد ليعلن على الملأ ولاءه لها وندمه على كل ما فعل من الخير وتبرأ من تأريخه النضالي. وسمعت في حينه أن حميد عثمان، الذي كان في ذلك الوقت على علاقة مع السلطة، قد نصح الأخيرة بعدم عرض الحاج على شاشة التلفزيون لكي يبقى في يد الحكام ورقة لعب مناسبة قد يستفيدون منها لأغراض أخرى. ولحسن الحظ لم تأخذ السلطات بهذه النصيحة فأحرقت هذه الورقة شر إحراق وأدخلته ضمن الأعداء المكشوفين للشيوعية وأقلامهم الأجيرة.

وحذا حذوه آخرون من قادة منظمته أمثال پيتر يوسف وحميد الصافي ومالك منصور، فيما وقف آخرون من الموقوفين ذوي المواقف الضعيفة عند حد معين ولم ينزلقوا إلى قعر الهاوية، وفيما أثبت البعض الآخر - أمثال أحمد محمود وهاشم الألوسي.. - أنهم كانوا مخلصين للقضية التي تبنوها ودافعوا عنها وأنهم صمدوا أمام الجلادين حتى الموت كالأبطال.

منذ الأسابيع الأولى من الانشقاق ترك صفوف الفريق المنشق بعض الكوادر - المنجرفة وراءهم أمثال عبد الوهاب طاهر وكاظم فرهود. وفي وقت لاحق تركهم حسين القمر وقدم إلينا رسالة تفصيلية عن وضعهم المأسوي. واشتدت بعد ذلك الخلافات والصراعات اللامبدئية - الدموية بينهم. وقتل على أيدي بعضهم أحد قادتهم - خضر سلمان - بسبب خلافه معهم في الرأي وتصميمه على ترك صفوفهم. وانسحب مصلح الجلالي من صفوفهم ليبايع، فيما بعد، السلطة الفاشية ويضع نفسها في خدمتها. ووصل بهم التخلف الهمجي إلى حد قتل أحد زملائهم رجماً بالحجارة كأسلوب لتنفيذ حكم الإعدام فيه. وسمعت من عضو المكتب السياسي للپارتي آنئذ د. محمود عثمان أن شاباً من الكتلة الانشقاقية ذهب شاكياً إلى مقر قيادة الپارتي وعرض هناك قضيبه المقطوع على أيدي زملائه كعقوبة له على تحرشه بآخر جنسياً.

لقد كان الوضع الذي انتهى إليه الفريق المنشق نتيجة طبيعية لأخطائه المتلاحقة بدءاً من اللجوء إلى أسلوب العنف البوليسي - الصبياني ومروراً بالشعارات اليسارية المتطرفة وانتهاءاً بالصراعات اللا مبدئية - الدموية بين أقطابه وكوادره. وكان لا بد من أن ينتهي إلى مثل هذه النتيجة.

كان مسؤولي الحزبي لبعض الوقت ستار خضير. وجاءني إلى بيتي

في حي الزوية ـ الكرادة الشرقية ـ ذات مساء. وبعد تبادل الآراء حول بعض الأمور رجاني كي أوصله بسيارتي إلى جامعة المستنصرية، حيث يريد اللقاء مع عبد الرحمن السامرائي، الكادر الشيوعي المقيم هناك، قرب الجامعة. أوصلته وقفلت راجعاً إلى منزلي. في صباح اليوم التالي علمت بأنه كان قد اغتيل هناك بعد افتراقنا بوقت قصير. وقد أكدت تحقيقاتي اللاحقة على ما يلي: في بيت عبد الرحمن السامرائي العامل في المجال الحزبي ـ العسكري، تعرف زوج شقيقته المدعو أبو جلال، البعثي الصحفي المرتبط بجهاز أمن صدام، على ستار خضير. وجرت أحاديث بين الشخصين لأكثر من مرة. وعرف البعثيون أن ستار يشتغل مسؤولاً في خط التنظيم الحزبي ـ العسكري ـ وأغلب الظن أن ذلك حدث بسبب من قلة يقظة كل من ستار وعبد الرحمن. ذلك ما أخبرني به ستار نفسه، قبل اغتياله. وفي لقائنا المشار إليه آنفاً أخبرني كذلك أن مسؤولين بعثيين (أبو جلال أو غيره) أوصلوا خبراً مستعجلاً إلى عبد الرحمن مفاده أن هناك رجلاً شيوعياً من الصابئة يدعى خيري يوسف قد اعترف، عند القبض عليه من قبل السلطة، بأنه شيوعي وفي الوقت نفسه عميل في المخابرات الأمريكية.

طلب من عبد الرحمن إيصال هذا الخبر على جناح السرعة إلى ستار خضير. وقيل له أيضاً أن لدى صديقه أبو جلال معلومات أخرى يود إبلاغها إياه مباشرة. وقد ذهب ستار برجليه إلى هناك ووقع في الفخ البعثي. اتضح بعد اغتياله أن قصة خيري يوسف كانت مختلقة أصلاً بهدف استقدام ستار إلى الكمين المنصوب له. وقيل أن ثلاثة من أفراد جهاز صدام ـ گزار طلبوا من ستار، عندما اعترضوا سبيله في الشارع الفرعي هناك، مرافقتهم إلى حيث يريدون. فرفض ذلك وقتلوه في الشارع على بعد ١٥٠ متراً من الدار التي خرج منها.

وقد خلد الشيوعيون في العديد من الأناشيد والأغاني الثورية اسم الشهيد ستار خضير ولكن قيادة ح ش ع لم توجه الاتهام مباشرة إلى

القتلة، وعلى رأسهم صدام، رغم أن الأمور كانت واضحة تماماً.

في تلك السنة نفسها ـ ١٩٦٩ ـ اغتال البعثيون عدداً آخر من الكوادر الشيوعية اللامعة بينها عضو اللجنة المنطقية العامل الشيوعي عبد الأمير سعيد، الذي كان يعمل في جهاز المراسلة الحزبية وتحت تصرفه سيارة حزبية. وكنت مرجعه الحزبي المباشر. كما كنت أتردد على البيت الذي سكنه في حي جميلة ببغداد. كان في منزله مسدس وجهاز إذاعة مزعوم صنعه أحد الشيوعيين الكهربائيين في العاصمة. وكان من المقرر أن أكون الحزبي الوحيد الذي يعرف بيته، ولم أجز له تعريف غيري به. ولم أعرف كيف أمكن للأعداء العثور على هذا البيت السري. ولكن عبد الأمير لم يكن شديد الانضباط على أي حال.

❀ ❀ ❀

كان جهاز الأمن الخاص بصدام ـ گزار هو الذي داهم بيت عبد الأمير سعيد، ونصب فيه كميناً. وكان يفترض أن أكون من يقع في هذا الكمين لولا صدفة عجيبة أنقذتني. هذه الصدفة هي أن عبد الأمير عرّف، دون علمي وموافقتي، العجوز الشيوعية صبرية مريوش على بيته قبل أن يكبس بأسبوع. وبعد كبسه ذهبت صبرية إلى هناك ووقعت في الفخ. وأوقفت داخل الدار مدة ٢٤ ساعة. وفي غفلة من الحراس تمكنت العجوز من الإفلات عبر الباب الخلفي للدار وتسلق سياج الحديقة. وهي بذلت المستحيل من أجل إيصال الخبر إلي وتحذيري من الكمين المنصوب لي في البيت المداهم. وقد التقيت بها وأوضحت لي ما شاهدت. فنجوت من الكمين، الذي نصبه جهاز صدام ـ گزار، الذي كان يؤدّي إلى الموت المحقق. غير أنني وقعت في كمين آخر عجيب.

كنت أريد اللقاء مع أم كريم ـ زوجة عبد الأمير سعيد ـ لأعرف المزيد مما حدث ولأقرر ما يجب عمله. وكنت أعرف أن بيت جدة كريم موجود قرب الفلكة (٥٥) في مدينة الثورة. فذهبت بصحبة قادر

رشيد إلى هناك. سألت ندافاً، وهو في دكانه، عما إذا كان يعرف بيت أم كريم. فأجاب:

ـ بيتها هو الشقة الموجودة فوق دكاني.

ضغطت على زر الجرس الكهربائي عند الباب الأسفل للشقة. فتح الباب الأعلى في نهاية الدرج وظهرت امرأة شابة لتنادي:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أم كريم رجاءاً، هل هي موجودة؟

ـ نعم موجودة.

لم يخطر ببالي في تلك اللحظة أن من المؤكد أن توجد هنا وهناك امرأة أخرى باسم (أم كريم). فصعدت خطوات لأزور أم كريم المنشودة وإذا بالمرأة الشابة، التي كانت نفسها أم كريم أخرى، تصرخ في وجهي صرخة شبه ريفية مرعبة. عدت في أعقابها إلى أسفل الدرج. ونزلت هي بدورها، وهي تصرخ وتشتم. وقفت أمام دكان النداف لكي يشهد لي بأني لم أكن سوى باحث عن بيت، والمرأة تواصل الشتم. وظهر هناك الطفل كريم وحضنني أمام النداف والمرأة. سألته:

ـ أين هو بيتكم؟

ـ ذاك هو بيتنا ـ أشار بيده إلى مبنى لا يبعد من الدكان أكثر من ٣٠ . ٤٠ متراً. رافقت الطفل إلى بيت جدته واعتبرت المشكلة مع صاحبة الشقة منتهية بعد أن رأتني أذهب مع الطفل كريم. وقد وجدت في البيت جدة كريم العجوز ولم أجد أمه، التي تركت بيتها بعد اعتقال زوجها وهروب صبرية من الكمين. وأخبرت العجوز بأني سأعود إلى البيت في الظهر وذهبت إلى حيث ينتظرني قادر رشيد مع السيارة.

في الظهر عدت إلى بيت العجوز ولم يخطر ببالي أن يكون القدر قد خبأ لي مفاجأة عجيبة. قبل أن أدخل المنزل الصغير هوجمت من عدة أشخاص كانوا قد كمنوا حوالي. لم يكن بإمكاني أن أتصور شيئاً

سوى أنني وقعت في كمين لرجال الأمن. حاولت الهرب واتضح أن الطوق محكم. وقبضوا علي، وهم حوالي عشرة رجال. أخرجوني من بيت العجوز بعد أن رفضت الأخيرة أن تشهد بأني جئت إلى بيتها وهي تعرفني. أوصلوني إلى حيث النداف، فيما احتشد عدد كبير من المتفرجين حوالينا. وفي مجرى الحديث مع بعضهم ومعي اتضح لي أنهم لم يكونوا رجال أمن ولا علاقة لهم بالسلطة، بل هم أبناء العشائر، التي لا تزال تعيش مع عاداتها وتقاليدها العشائرية رغم مرور سنوات عديدة على إقامتها في بغداد. ولم أكن أنا إلا ضحية العداء المستحكم بين عشيرتين من هذه العشائر إذ شكت بي صاحبة الشقة وأخبرت العشيرة التي تنتمي إليها ونصب أبناءها هذا الكمين لي باعتباري عدواً يضمر الشر إزاءهم.

عندما تفهمت الأمر جاهرت القابضين علي بحقيقة أمري وقلت صراحة:

ـ أنا شيوعي وأتيت لأعرف من العائلة الفلانية أخبار زوجها المدعو عبد الأمير والمعتقل قبل ثلاثة أيام.

ـ أنت شيوعي أم أنت حرامي ومجرم؟

ـ لست حرامياً ولا من أهل مدينة الثورة.. أنا سياسي وشيوعي.

أصبحوا في حيرة من الأمر. واختلفوا فيما بينهم. صدقني البعض وطالبوا بإخلاء سبيلي. واعترض البعض الآخر وقالوا إنه كذاب. لو لم يقع الحادث في الشارع العام لنجوت منهم بالتأكيد. لكن الازدحام في الشارع حوالينا أثار انتباه شرطة النجدة الموجودين هناك، فأخذوني في سيارتهم إلى مركز شرطة الثورة القريب منهم. وبعد التفتيش الأولي لجيوبي عثروا على مسدسي وبعض الرسائل الحزبية. فأخذني ضابطان شابان من ضباط الأمن العام إلى مديرية ناحية الثورة ومن هناك إلى مديرية أمن العاصمة، وأدخلاني معهما إلى مكتب مدير أمن بغداد أحمد

الرفاعي. جرى معي تحقيق أولي وأعطيت الاسم الموجود في الهوية المزورة التي كنت أحملها. لم يصدقوا بذلك. أمر المدير بإيداعي التوقيف، فيما كان الدوام على وشك الانتهاء. عندئذ طلبت من المدير إخراج الضابطين للانفراد به والتحدث حول بعض الأمور. فاستجاب وأمرهما بالخروج. قلت له:

ـ إذا كنتم مصرين على توقيفي فأرجو أن توقفوني باسمي الصريح وليس الاسم المدون في هذه الهوية المزورة ـ أنا بهاء الدين نوري.

ـ نعم أستاذ! وكان عليك أن تذكر ذلك منذ البداية ـ تفضل اجلس وأمهلني قليلاً لأخبار المدير العام.

تحولت من متهم اعتيادي إلى شخصية سياسية وجلست بجانبه. أدار قرص التلفون وأخبر مدير الأمن العام حامد العاني، الذي كان ضابط بوليس مخضرم، وأحاطه علماً بأمري. استمهله العاني ليخابر بدوره وزير الداخلية صالح مهدي عماش، الذي أجاب فوراً. ورن تلفون أحمد الرفاعي وبعد أقل من دقيقة واحدة خاطبني الأخير:

ـ تفضل يا أستاذ لنذهب سوية في سيارتي.

ذهبنا سوية. بعد قليل وجدت نفسي في مكتب المدير العام العاني، الذي استقبلني واعتذر عما حدث لي من المزعجات. أعيد إلي كاملاً جميع ما أخذ مني من الأوراق والمسدس. وأشار المدير إلى أن الوزير العماش آسف لما حدث. فهمت، دون أن أسمع شيئاً، كل شيء. فأنا قد وقعت، لحسن حظي، في قبضة الأمن العام الذي كان لا يزال مرتبطاً بوزارة الداخلية، والذي كان في صراع حاد مع جهاز الأمن الأخير التابع لصدام ـ گزار. في واقع الحال لم يكن هذا الجهاز، الموروث من العهود السابقة، كجهاز صدام، لا من حيث الشراسة، ولا من حيث التركيب. كما لم يكن عماش نفسه شرساً بقدر صدام. فالجهاز الذي أسسه صدام كان دموياً وفاشياً أكثر من جهاز إس إس الهتلري.

عرضوا علي إيصالي إلى حيث أشاء. وأوصلني سائق مدير أمن بغداد. كنت أعرج. وأخذت فيما بعد سيارة تكسي للوصول إلى بيتي في الكرادة الشرقية. كانت هناك شقيقة زوجتي الصبية هناء، التي ارتعبت وتمرضت لاحقاً وأضاعت سنة دراسية كاملة. وحين عادت عائدة إلى البيت رافقتني إلى عيادة منقذ الجيچي وكشف الفحص الشعاعي عن كسر في عظام المشط برجلي. وعشت عشرين يوماً مجبس الرجل.

❀ ❀ ❀

كانت هناك، في ١٩٦٩، مناقشات في الحزب حول المسألة الكردية وموقف حزب البعث منها. ساهمت في النقاش وكتبت كراسة صغيرة مكرسة للموضوع نفسه استعرضت فيها طبيعة حزب البعث القومية ـ الشوفينية ـ الدموية واستنتجت بأن هذا الحزب لن يريد ولن يستطيع إيجاد حل سلمي ديمقراطي راسخ للمشكلة الكردية في العراق. بعد الأخذ والرد وافق المكتب السياسي للحزب على هذا التقدير، المثبت في الكراسة، وبالتالي وافق على طبعها وتوزيعها. وكان الطبع قد أكمل وأولى النسخ قد وزعت على المنظمات عندما أعلن عن اتفاق الحادي عشر من آذار ١٩٧٠. فقرر المكتب السياسي سحب نسخ المطبوع على جناح السرعة وإتلافها، زعماً بأن الحياة قد أثبتت العكس. وتعاقبت الأعوام وأكدت الوقائع أن الاستنتاج كان صحيحاً وأن حزب البعث لم يكن قادراً على حل المشكلة الكردية، بل كان قادراً فقط على تعقيدها أكثر فأكثر وعلى إشاعة الموت والدمار الشامل في ربوع كردستان العراق.

❀ ❀ ❀

في يوم من أيام كانون الثاني ١٩٧٠ قدمت إلينا السفارة السوفيتية في بغداد معلومات تفصيلية ملموسة حول خطة محكمة للقيام بانقلاب عسكري. وسينطلق اللواء العاشر المدرع من ثكنة عسكرية كانت في

الماضي ميداناً لسباق الخيل بجانب حي المشتل. وكان الضابط المتقاعد عبد الغني الراوي، المشارك النشط في انقلاب ١٩٦٣ والذي دخل بعدئذ في خلافات حارة مع البعثيين، من أنشط المساهمين في الطبخة الانقلابية الجديدة أيضاً.

أرسل مكرم الطالباني موفداً من قيادة ح ش ع إلى رئيس الدولة أحمد حسن البكر حاملاً إليه الخبر بتفاصيله، التي كانت تقضي باحتلال مبنى الإذاعة والتلفزة والقصر الجمهوري تحت جنح الظلام. ويبدو أن الحكام البعثيين لم يصدقوا تصديقاً تاماً، في بادىء الأمر. لكنهم اتخذوا التدابير الفورية من باب الاحتياط. وفي ساعة الصفر المحددة بدأ التمرد من الثكنة المشار إليها وجرت مصادمات وأحبطت المحاولة الانقلابية لأنها كانت قد فقدت عنصر الكتمان والمباغتة. ويتراءى لي أن نجاح الانقلاب كان مضموناً فيما لو لم يحط البعثيون علماً بالأمر قبل وقوعه.

في اليوم التالي لإحباط المحاولة الانقلابية استدعى البكر الطالباني إلى القصر الجمهوري من جديد وشكر ح ش ع، وقال له ما معناه:

ـ لن أنسى ما حييت هذا الجميل. لقد أنقذنا ح ش ع من السقوط الموشك. لن تكون هذه شوارب رجل ـ وقد مد أصابعه لشواربه ـ ولن يكون لي شرف عسكري إذا قبلت بعد اليوم بأي اضطهاد للشيوعيين في ظل نظامنا هذا.

قطع الرئيس البكر هذه التعهدات على نفسه في كانون الثاني. وبعد ذلك بشهرين صدر بيان الحادي عشر من آذار واقترن مباشرة ببدء الهجوم على الشيوعيين واغتيال المناضل الشيوعي البارز محمد الخضري. وهكذا ثبت في غضون بضعة أسابيع بأن «الأب القائد» ـ كما كان البكر يلقب في تلك الأيام ـ لم يكن صاحب كلمته ولم يكن له أي شرف عسكري.

بهذه المناسبة شوه مدير المخابرات الأسبق وشقيق صدام، برزان

التكريتي هذا الحادث حين عرضه على غير حقيقته في كتيب أصدره تحت عنوان. . (محاولات اغتيال السيد الرئيس).

هنا لا بد من التطرق إلى بيان ١١ آذار ١٩٧٠. كان أفضل وثيقة رسمية صادرة، حتى ذلك الحين، عن السلطة الحاكمة في بغداد ومعترفة بقدر لا بأس به من الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في كردستان العراق. كان ذلك نصراً كبيراً للملا مصطفى البارزاني وللحركة القومية التحررية المسلحة في كردستان. قدرت الجماهير الكردية عالياً هذا الحدث واستقبلته بسرور عظيم وأقامت له المهرجانات الكبيرة في شتى المدن والقصبات.

رغم ترحيب ح ش ع بأي اتفاق معقول بين الجانبين الحكومي والكردي، ورغم رغبة البارتي في إشراك الشيوعيين في المفاوضات الدائرة بين الطرفين، فإن قيادة حزب البعث، وبالأحرى صدام التكريتي شخصياً، قد استبعد إشراك ح ش ع في التفاوض والاتفاق. وكان سبب هذا الرفض واضحاً بالنسبة للسلطة: الرغبة في إقران الاتفاق بحملة من المضايقات ضد الشيوعيين، فضلاً عن الحيلولة دون أن يستفيد ح ش ع شيئاً من إبرام الاتفاق.

كنت جالساً في سيارة متجهة من كربلاء إلى بغداد، بعد إشراف حزبي هناك، عندما سمعت راديو بغداد وهو يذيع برقية التأييد المرسلة من سكرتيرنا عزيز محمد إلى رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر. كان الشيوعيون العراقيون فرحين بإبرام الاتفاق ومؤيدين له، رغم عدم إشراكهم في المفاوضات. ومن الواضح أن عدم مشاركتهم عاد بالضرر على الحركة الكردية المسلحة وعلى ح ش ع نفسه.

كان لصدام التكريتي حسابته الخاصة عندما وافق على عقد الاتفاق. إنه كان كذاباً عندما ادعى بأنه أبرم الاتفاق بسبب نفاذ العتاد

أو ما شابه. وظهر أن إبرام الاتفاق يعود إلى الأسباب التالية:

١ ـ كان يائساً من التغلب عسكرياً على الفصائل الكردية المسلحة. وكان قد تخيل تكتيكاً جديداً مفاده البحث عن سبل وأساليب جديدة تآمرية لسحق الحركة الكردية المسلحة.

٢ ـ استثمار الهدنة، التي تعقب الاتفاق، مع البارتي لتوجيه ضربات إلى ح ش ع بهدف إنهاكه وتقليم أظافره على الأقل.

إذا كانت الأحداث قد كشفت عن هدف صدام الأول المشار إليه هنا بعد مضي ١٨ شهراً على إبرام اتفاق آذار، فإن ثاني يوم بعد الاتفاق أوضح ما أضمره النظام البعثي للشيوعيين. ففي المظاهرة الجماهيرية، التي أقيمت بمبادرة السلطة نفسها والبارتي معاً، تأييداً للاتفاق المبرم، حضر الشيوعيون للمشاركة والتعبير عن التأييد. لكن نظام البعث استكثر عليهم ذلك وأرسل أزلام الأجهزة القمعية لتفريقهم بالهراوات والاعتداءات. وكان زكي خيري أحد المشاركين المعتدى عليهم.

وكان الإجراء العدواني الأشد، الذي نفذه صدام ضد الشيوعيين إبان الاحتفالات بمناسبة عقد الاتفاق، كان اغتيال الكادر الشيوعي اللامع عضو لجنة منطقة بغداد محمد الخضري. وقد تم اختطافه في وضح النهار، وهو في طريقه إلى گازينو صدر القناة لحضور حفل أقامه النظام البعثي نفسه بمناسبة صدور بيان آذار. وكان الخضري نفسه من المدعويين رسمياً لحضور الحفل. وبعد يومين من اختطافه وجدت جثته ملقاة بجانب الطريق قرب مدينة سامراء، على مسافة (١٥٠) كيلومتراً عن بغداد. وحتى الحمقى لم يستطيعوا الادعاء بأن هناك جهة أخرى، غير السلطة الحاكمة مسؤولة عن هذه الجريمة.

دلت هذه الاعتداءات على الشيوعيين على أن صدام لم يرد يوماً الوئام مع طرفين سوية من الأطراف السياسية. كان من عاداته الثابتة أن يقرن أي هدنة أو تعاون مع إحدى الجهات بالهجوم على جهة أخرى.

ومن البديهي أن تلقى مسؤولية الاعتداءات على الشيوعيين في تلك الأيام على النظام البعثي. غير أن البارتي استحق اللوم لأنه لم يشارك مشاركة فعّالة في إدانة تلك الجرائم البعثية.

❀ ❀ ❀

شهدت مناطق واسعة من كردستان العراق، خلال فترات متعددة من سني ما بعد بدء الحركة الكردية المسلحة في أيلول ١٩٦١، وجود السلطة المزدوجة أو تقاسم الحكم بين البارزاني والحركة الكردية المسلحة، من جهة، وبين حكام بغداد، من جهة أخرى. كانت هذه الظاهرة موجودة قبل اتفاق آذار. ووسعها هذا الاتفاق بصورة رسمية حتى شملت المدن الكردية أيضاً على أساس من الاعتراف المتبادل بين الطرفين. وانضم إلى الحركة الكردية المسلحة عدد كبير من الانتهازيين والنفعيين، لغرض الحصول على الامتيازات المادية أو مراكز المسؤولية واتسعت هذه الظاهرة أكثر من ذي قبل عند إبرام اتفاق آذار.

بهذه المناسبة أتذكر حادثاً طريفاً وقع بعد الاتفاق مباشرة ـ أقصد ما حدث لدارا توفيق الشيوعي السابق الذي انضم من ١٩٦٣ إلى الحركة الكردية المسلحة دون أن ينتسب إلى البارتي. حدثني دارا أن قيادة البارتي طلب منه مراراً الانتماء إلى الحزب لكنه رفض مؤكداً أنه يبقى لا حزبياً ومجرد ممثل شخصي للبارزاني، وأنه ـ فيما لو مارس الحياة الحزبية ـ لن يختار إلا الحزب الشيوعي. وما أن أبرم اتفاق آذار حتى قدم دارا طلباً عاجلاً إلى المكتب السياسي للبارتي لكي يقبل انتسابه. ورفض المكتب السياسي طلبه قائلين له:

ـ عرضنا عليك مراراً في السنوات الماضية الانتماء إلى حزبنا ورفضت.. وتطلب الانتماء الآن بدافع المصالح الشخصية ـ الانتهازية.. وعليه نرفض قبول انتسابك.

قيل في حينه أن دارا شكا لدى البارزاني فوعده الأخير بأن يقبل

ليس فقط عضواً عادياً بل عضواً في اللجنة المركزية.

تعرفت على الشاب الشيوعي سعيد موسى ـ وهو من مدينة السماوة ـ في سجن بعقوبة واخترته كمرافق شخصي لي كي أكلفه ببعض الأمور وشراء الصحف والحاجات في ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. وبعد انقطاع استمر عشر سنوات التقيت من جديد بهذا الشاب. وكان عامل أفران وعرفته إنساناً أميناً صادقاً. في مجرى الحديث بيننا قدم لي مشروعاً مالياً مربحاً (شراء فرن) حسب ادعائه. صدقته وغامرت بتسليمه خمسة آلاف دينار، وهو رأسمال المشروع، من أموال الحزب. وكشفت الأيام لاحقاً بأن ثقتي لم تكن في مكانها إذ ضاع المبلغ كله دون إنشاء أي مشروع. ادعى سعيد بأن البعض قد سرق منه المال ولم يتسن لي التوثق من صدق ادعائه أو ما إذا كان نفسه السارق. وقد سبب هذا الحادث أذية نفسية شديدة لي شخصياً. حتى أنني لجأت ذات مساء إلى تناول الخمر لأخفف عن نفسي. وكان يزيد من أذاي أن أتصور بأن بعض الرفاق لا يصدقونني فيما أقول.

المؤتمر الثاني للحزب

في أيلول ١٩٧٠ عقدنا مؤتمر الحزب الثاني في سفح جبل كاروخ بمنطقة بالك. أنشئت مسبقاً (گبرات) داخل غابة كثيفة، بعيداً عن متناول أيدي السلطة، لإقامة المندوبين فيها ولعقد جلسات المؤتمر. كان المنظر العام أشبه بمخيم سياحي سيار لفريق من هواة الرياضة. وقد قام بهذه الأعمال التحضيرية فصيل من الفدائيين الشيوعيين، كما قام بأعمال الحراسة أيضاً أيام المؤتمر.

كان جدول العمل المطروح يتضمن عادياً: إجراء التعديلات على وثائق الحزب الأساسية ـ البرنامج والنظام الداخلي ـ ورسم الخط السياسي العام للحزب وانتخاب اللجنة المركزية. وكان هناك نوع من التوازن القلق من حيث الوضع الفكري داخل الحزب، بين التيارات اليمينية واليسارية.

ساهم قادر رشيد كعادته في نقل المندوبين إلى المؤتمر ثم إعادتهم إلى بغداد مساهمة فعالة. إلا أنه كاد يسبب لنا مشكلة خطيرة عندما كان يسوق السيارة التي حملتنا، أنا وزوجتي عائدة وسكرتير الحزب عزيز محمد وزكي خيري وباقر إبراهيم، فيما كانت تتبعنا سيارة أخرى تحمل نوري عبد الرزاق وماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ وآخرين. تحركنا في أول الليل، فأوقفنا كمين سيار في الشارع على مسافة عشرين كيلومتراً من بغداد. كان واضحاً أنه كمين مفرزة من رجال الأمن العام،

وبالأحرى رجال الأمن الخاص بصدام ـ گزار. فتحوا في وجوهنا اللايت اليدوي ـ الكهربائي وفحصوا هوياتنا. كانت في حوزتهم قائمة بالأسماء التي يبحثون عنها. ولم نكن ضمن تلك الأسماء بالطبع لكن الخطر كان يمكن أن يأتي من مسدس حمله قادر رشيد، بالضد من التوجيهات والتأكيدات القاطعة التي أعطيتها إياه بعدم حمل أي سلاح أثناء نقل المندوبين. عند توقف سيارتنا، بإشارة من مفرزة الكمين، ناول قادر المسدس إلى زوجتي عائدة باعتبار أنها أقل تعرضاً للتفتيش. ولا ريب في أن العثور على ذلك المسدس كان يكفي لإيصالنا جميعاً إلى أقبية الأمن التابع لصدام ـ گزار. لكن التفتيش لم يجر لحسن الحظ. وقد امتلأت غضباً لدرجة لم يعد من السهل أن أسيطر على أعصابي إزاء هذا الطيش واللا التزام من لدن قادر، الذي فعل ما فعل بدافع الحماقة.

في مناقشات المؤتمر تجلى الصراع بين الاتجاهين اليميني واليساري. فاليسار كان يرفض التعاون مع حزب البعث الحاكم لما كان له من تأريخ الخيانة والإجرام ولعدم صواب الاطمئنان إلى وعوده. فيما كان اليمين يطالب بالعكس من ذلك ويمهد لاتباع سياسة ذيلية. وقد خرجت القرارات بصيغ توفيقية جمعت بين رغبات كلا الجانبين: التعاون مع النظام أو مع حزب البعث جائز ولكن بشروط وعلى أسس معقولة، أو وفق ضوابط منطقية.

أظن أن النقطة المتعلقة بالمسألة الكردية في برنامج الحزب قد عدلت بحذف جملة (بما في ذلك حق الانفصال) والإبقاء فقط على صيغة (حق تقرير المصير).

في الانتخابات الحزبية فزت بأكثر من ثلثي الأصوات، رغم أن بعض المسؤولين والمثقفين لم يصوتوا لي ولم يريدوا عودتي إلى قوام اللجنة المركزية كعضو، بعد أن أصبحت مرشحاً فيها منذ الكونفرنس الثالث. وقد حصل عامر عبد الله على خمسة أصوات، رغم أنه كان ضمن قائمة المرشحين المطروحة من المكتب السياسي. وبقي، كما

كان، خارج قوام اللجنة المركزية. لكن تدخل عزيز محمد ومناشدته، عن طريق توفيق أحمد، للمندوبين الأكراد ضمن إيصال عامر، إبان الجولة الانتخابية الثانية، إلى صف المرشحين لعضوية اللجنة المركزية.

❀ ❀ ❀

لم أجد في تصرفات صدام قط الحنكة السياسية وبعد النظر، بعكس ما زعم الكثيرون حين قالوا أن نجاحاته المتعاقبة تثبت براءته السياسية. وقد تعلم العديد من غير المتضلعين في السياسة فنون العمل السياسي في مجرى بقائهم على دست الحكم لسنوات متعاقبة. غير أن صدام التكريتي لم يكن من هؤلاء. فالشيء الذي اتخذه مدخلاً إلى النشاط السياسي، منذ عهد قاسم، واكتسب فيه قدراً من الخبرة هو الدس والتآمر والاغتيالات والتعذيب الوحشي لانتزاع الاعترافات. وغدا من بديهيات نشاطه أن يهادن إحدى الجهات ليسلط القمع الدموع على جهة أخرى وأن يكون البون شاسعاً بين أقواله وبين أفعاله. هكذا كان عند توقيع اتفاق الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ إذ أقرن الاتفاق مع البارزاني بتشديد الإرهاب والتنكيل الدموي بحق الشيوعيين، الذين كانوا يشكلون إحدى القوى الرئيسية في الساحة السياسية.

كانت الحملة البوليسية، التي بدأت منذ مطلع ١٩٧١، أوسع وأعنف حملة إرهابية حتى ذلك الوقت ضد ح ش ع. وشملت جميع أو معظم التنظيمات الحزبية، وسحقت منظمة الحزب في العاصمة سحقاً كاملاً. في مجرى هذه الحملة اعتقل وقتل تحت التعذيب عضو اللجنة المركزية والمناضل الشيوعي الباسل علي حسين البرزنجي، الذي اعتقل في مدينة كركوك. وكان علي من أصدقائي الشخصيين منذ الأربعينات كما مارسنا النشاط الحزبي سوية في فترات معينة. وقيل في حينه ـ ولست واثقاً ـ بأن الكادر الشيوعي حسين نادر هو الذي سبب اعتقاله. وفي بغداد اعتقل عضو اللجنة المركزية، عامل النفط النقابي توفيق أحمد الذي لم يستطع الصمود أمام التعذيب فأسقط سياسياً. كما اعتقل

وأسقط عدد غير قليل من الكوادر الحزبية في شتى الأنحاء.

ولم يكن لدى النظام البعثي أي ذريعة، ولو كانت صورية، لتدبير هذه الحملة. ولم يكن لها سبب سوى الإصرار على تمسك الحكام بالنهج الدكتاتوري ـ الفاشي في الحكم والتمسك بفكرتهم القائلة أن من ليس معك فهو عدوك.

كان دفاع ح ش ع عن نفسه تجاه حملة ١٩٧١ ضعيفاً، خاصة بسبب روح التردد والمهادنة لدى قيادته، أو معظم عناصر القيادة. وقد أرسل الحزب عدداً من كوادره القيادية والوسطية إلى المنطقة الكردية المحررة، غير الخاضعة لسيطرة الحكم البعثي، كتدبير صياني. وكنا، أنا وزوجتي عائدة وكريم أحمد ومهدي عبد الكريم وجاسم الحلوائي وشاكر محمود، ضمن المرسلين إلى منطقة بالك، حيث كانت لنا قاعدة عسكرية صغيرة يقودها الملازم البغدادي الهارب من ١٩٦٣ نعمان التميمي، المعروف هناك باسم ملازم خضر، والذي له قصة طويلة من الصمود والشجاعة والجهادية العالية والتمسك بالمثل الشيوعية ومن الغرور والبيروقراطية والفردية وحب الزعامة. وحسب تعبير جاسم الحلوائي فإن الملازم خضر كان يضع التسلسل التنظيمي في الحركة الشيوعية العراقية على الوجه التالي: الملازم نفسه أولاً وعزيز محمد ثانياً واللجنة المركزية ثالثاً.

أقمنا نحن الكوادر القيادية في قرية (برسرين) وأقام الكادر الوسطي في سفوح جبل هندرين. وقد أنيطت المسؤولية الحزبية بالحلوائي، في حين كان كريم أحمد يتصرف كمشرف أعلى. وكان كريم عنيفاً، أحدّ مني بكثير، في موقفه من السلطة. فهو كان يتكلم في كل مكان ويبشر برأيه معتبراً السلطة فاشية دموية. وباستثناء الذين كانوا يعرفونه جيداً، لم يكن بمستطاع أحد أن يحزر أنه سينقلب بعد أشهر معدودة على ١٨٠ درجة.

في برسرين كانت حياتنا رتيبة، ولم تكن لي ولا لزوجتي مهمات حزبية، سياسية أو تنظيمية. فحصلت على بندقية صيد من أحد الأصدقاء واستمتعت بهواية صيد القبج أكثر من أي وقت آخر في عمري. وقلما كنت أرجع إلى البيت بيدين فارغتين. وقد أصبح الصيد المصدر الرئيسي للحومنا، أنا وعائدة، في تلك الفترة. كما كنا نشتري أيضاً السمك النهري الرائع والرخيص آنئذ، حيث لم يكن الأكراد متعودين بعد على تناول لحم السمك إلا بصورة محدودة. وأتذكر أنني كنت أشتري الخيار من تاجر صغير كان يجلبه من أربيل أو مكان آخر. لاحظت أن هناك كثرة من الخيارات الصغيرة الطرية وعلمت السر في ذلك: فالقرويون، بضمنهم فدائيونا، ينتقون الخيارات الكبيرة معتقدين أنها هي الأفضل للأكل.

قمت بسفرة صيد إلى جبل هندرين ممتعة جداً. أخذت معي نبيذاً جيداً كنت قد صنعته بنفسي. وصدنا فوق الجبل القبج بأعداد كبيرة. الجميع يأكلون اللحم. لكن النبيذ كان، بالدرجة الأساسية، من حصتنا أنا والفدائي الشيوعي الكلداني پولص. وكان البعض الآخر يمتنع عن تناول النبيذ لأن الإسلام حرمه. وقد التقينا فوق الجبل بفريق من بنات قرية (ماوليان) الواقعة في سفحه وهن يقطفن نباتات برية تؤكل أو تطبخ في بيوتهم وقضينا معهن بعض الوقت من تبادل النكات والضحك. وسألهن أحد رجالنا إذا رغبن في ممارسة لعبتهن المفضلة في الجبال أثناء هذا الموسم. فأجابت إحداهن:

ـ عددكم كبير ولا يسهل التغلب عليكم.

لم أعرف ما هي هذه اللعبة المفضلة. فسألت وقال أحد زملائي: إذا ظفر فريق من البنات هنا برجل منفرد هجمن عليه وطرحنه أرضاً ونتفن شعر عانته ولعبن به وبقضيبه.. ولا يتركنه إلا بعد إنهاكه والضحك عليه طويلاً.

ذات يوم كنت في السفوح العالية لكاروخ وكدت أضع رجلي على

حية (صل) متمددة على الأرض الصخرية. انتبهت في اللحظة الأخيرة ورجعت خطوة واحدة قبل أن أطأها. وحين وقفت انطلق القبج يغرد بصوته العالي الجميل. ولفت انتباهي أن الحية لم تتحرك أبداً، مما أثار فضولي ودفعني إلى أن أطقطق بالأحجار على مسافة نصف متر منها، ولم تتحرك. صرخت بصوت عال ولم تتحرك. شيء عجيب! مسكت بحجارة وهويت بها على رأسها في ضربة قاتلة. عندئذ فقط أخذت تتمرغ كدجاجة مذبوحة لتوها. وعندئذ تأكدت أن الغالبية الساحقة من ضحايا لدغ الأفاعي في العراق إنما كانوا يلدغون من هذا النوع بالذات - أقصد الصل - في هذه البلاد.

في ربيع ١٩٧١ أقامت قيادة فدائيينا بالتعاون مع قيادة المنظمة الحزبية المحلية مهرجاناً بمناسبة عيد نوروز حضرته عدة ألوف قادمين من مدن أربيل وشقلاوه وروواندوز وقصبات وقرى أخرى. استمرت الدبكات والموسيقى والأغاني الشعبية في الهواء الطلق وسط الأعشاب الخضراء وزهور الربيع وتحت شمس ساطعة دافئة. كان في الحفل عدد من الفتيات، اللائي شاركن في الدبكات وأثرن حماس الفتيان. تفرجنا، مع زوجتي، على الدبكات. وهي لم تعرف ولم تحاول تعلمها. وكان مثل هذا المهرجان يتكرر هناك في كل سنة.

والحفل الصاخب الآخر الذي شهدناه هناك في تلك الفترة كان بمناسبة زواج آمر قاعدتنا الفدائية نعمان التميمي من إحدى قريباته التي جلبت له من بغداد. واستثمر الكادر الحزبي حاجي سليمان، الذي لم يكن بمقدوره إقامة حفل من هذا النوع، نفس المناسبة للزواج. فأتوا بعروسه من كويسنجق إليه في نفس اليوم.

في آب ١٩٧١ اتفقنا، أنا ومهدي عبد الكريم وشاكر محمود، مع زوجاتنا الثلاث، على الذهاب من برسرين إلى الحاج عمران لغرض الاصطياف بضعة أيام. أقمنا هناك قرب نبع الماء العذب، المعروف بأنه يساعد كثيراً على الهضم ويفتح الشهية على المزيد من الطعام. ذات يوم

عادت إلينا زوجاتنا بعد نزهة قصيرة، وكن مبهورات بجمال فتاة رأينها هناك. في اليوم التالي أمطرت السماء مطراً غزيراً واشتد البرد وغدونا في محنة حقيقية إلى أن أتانا الرجل المدعو تمر وهو أحد فدائيي البارتي ومن أقارب جيهان جياووك زوجة مهدي عبد الكريم الكردية. فأخذنا إلى بيت أحد معارفه في قرية الحاج عمران. وإذا نحن أمام الحسناء ذاتها، التي أعجبت بها زوجاتنا. وهي كانت فعلاً من ذوات الجمال النادر. واتضح أنها كانت ابنة فدائي كردي كان من مرافقي البارزاني عند اللجوء إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٦ وتزوج هناك من امرأة سوفيتية أنجبت له هذه الحسناء.

في ١٩٧١ زارنا في برسرين جلال الطالباني بصحبة بعض زملائه. وقد التقيت به هناك لأول مرة، بعد اللقاء الذي أسبقت الإشارة إليه في ١٩٥٨. وكان مقيماً في منطقة بالك بعد أن غير اتفاق ١١ آذار ١٩٧٠ مجمل الوضع السياسي في كردستان العراق، بما في ذلك وضع الفريق الكردي المتعاون مع السلطة ١٩٦٦ وحتى ١٩٧٠. في مجرى المناقشات حول الوضع السياسي لاحظت أنه يشدد في انتقاد سياسية ح ش ع تجاه النظام البعثي معتبراً إياها سياسة (لينة) أكثر من اللازم وقائلاً أن البعث غير جدير بالثقة ولا يصح التهاون تجاهه، بل ينبغي الوقوف ضده بحزم. كان النظام البعثي قد عقد الاتفاق مع البارزاني بشكل أدى إلى وقوع جناح إبراهيم أحمد ـ جلال الطالباني في موقف صعب اضطر معه إلى إعلان الولاء مرة أخرى وعلى مضض للبارزاني والپارتي. وفي تشكيكه بالبعث كان الطالباني يعكس خيبة أمله هذا. وكنت في قرارة نفسي متفقاً مع آرائه في خطأ الثقة بالبعث ونظامه. ولكني لم أستطع السكوت خاصة بعد أن التزم زملائي الصمت أمامه، بل أعطيت الرد المناسب وذكرته بموقفهم من السلطة البعثية حتى صدور بيان الحادي عشر من آذار، الأمر الذي دل على عدم الأصالة في انتقاداته لسياستنا ـ السياسة التي كنت بنفسي غير راض عنها.

كانت عائدة تسافر أحياناً إلى بغداد كمراسلة حزبية تحمل بريد الحلوائي إلى المركز. وفي آخر سفرة لها أوائل صيف ١٩٧١ بقيت هناك للإسهام في العمل الحزبي وسط أنقاض المنظمة. وأعترف بأن فراقها كان صعباً وسبب لي الأذى النفسي والملل. وأصبحت الأيام والليالي أطول من ذي قبل بالنسبة إلي، أنا المتبقي وحيداً في برسرين طوال الأشهر التي سبقت عودتي إلى بغداد. وتحت تأثير هذا الفراق القاسي، من جهة، وتأثير الوضع النفسي الصعب الناجم عن الحملة البوليسية العنيفة على ح ش ع، من جهة أخرى، نظمت إحدى قصائدي المعدودة.

❀ ❀ ❀

في أيلول ١٩٧١ أصبحت منطقة بالك، وأنا لم أزل مقيماً فيها، مسرحاً لحدث مثير وهام وفريد من نوعه في العراق. كان هذا الحدث نتاج جهد طويل مكثف لصدام وجهازه القمعي طوال أكثر من عام. فقد هيأ وفداً من رجال الدين ليرسلهم إلى مقر البارزاني باسم التباحث معه لمعالجة المشاكل وإزالة التوتر بينه وبين السلطة. في الواقع كان هناك توتر في العلاقة ناجم عن تلكؤ الجانب الحكومي، الذي كان في يده مفتاح الحل، في تنفيذ بنود اتفاق آذار. غير أن الغرض الحقيقي من الوفد كان شيئاً آخر لا شأن له بإزالة التوتر. فقد رتب صدام بصورة دقيقة ومتقنة سفر الوفد إلى مقر البارزاني بغية اغتيال هذا الأخير. وكانت الطريقة المدبرة لتنفيذ الجريمة على الوجه التالي: شد المتفجرات بمقدار واف على بطن أحد رجال الوفد المعممين، مع ضمان التحكم بها من بعيد بهدف تفجيرها في اللحظة التي يجري فيها التوثق من أن حامل حزام المتفجرات جالس بجانب البارزاني. وأبلغ رجل الدين المسكين المحمل بالمتفجرات بأن ما يحمله تحت ملابسه من حزام ثقيل ليس سوى جهاز لتسجيل الحديث الدائر بين الوفد وبين البارزاني، وأن القيادة السياسية ترغب في دراسة ما يقوله الجانب الأخير بعناية فائقة. وكان هذا الغبي المضلل مقتنعاً بما قيل له ومنتظراً

قبض مبلغ كبير جراء هذه الخدمة الإنسانية التي يؤديها.

كان مفتاح التحكم بالمتفجرات في إحدى السيارتين اللتين حملتا الوفد إلى مقر البارزاني ورابطتا أمامه بانتظار اللقاء. وكان سائقا السيارتين ضابطين مدربين من ضباط الأمن العام. ولم يضغطا على زر التفجير إلا بعد تأكدهما من أن رجال الوفد الديني جالسون مع البارزاني وداخلون في الحديث معه. مع الانفجار الشديد تمزق حامل الحزام المتفجر وجرح أو قتل زملاءه الباقون كما قتل فوراً موزع الشاي، الذي وقف صدفة في تلك اللحظة بين حامل المتفجرات وبين البارزاني. وقيل في حينه أن ضابطي الأمن أطلقا، خلال لحظة الانفجار، صواريخ كانت معهما على بيت البارزاني وحاولا الهروب ولكن دون جدوى.

نجا البارزاني بمجرد الصدفة. ولم ينج أحد من رجال الوفد المرسلين إليه. ولو أبقي على البعض أحياءاً، خاصة ضابطي الأمن السائقين، لأمكن العثور على معلومات تكشف المزيد من تفاصيل الجريمة. وقد أدت هذه المحاولة الصدامية الفاشلة لاغتيال البارزاني إلى نسف جسور الثقة بين الجانبين الكردي والحكومي وكشفت عن أن قيادة البعث الحاكم لم توقع اتفاق ١١ آذار بنية صافية، بل وقعته كي تتخذ منه طريقاً إلى قمع الحركة الكردية التحررية المسلحة عن طريق التآمر والغدر، بعد أن عجزت عن قمعها عن طريق المصادمات العسكرية المباشرة. ومن المؤكد أن حسابات صدام كانت خاطئة من الناحية السياسية لأن الحركة التحررية الكردية كانت تعبر عن تطلعات شعب تواق إلى نيل حقوقه القومية المشروعة. وقد أكدت الوقائع المتعاقبة هذه الحقيقة إذ لم يبق البارزاني حياً، ولم يبق صدام على قرية كردية ولم يتورع في التقتيل والإبادة الجماعية بالأسلحة الكيمياوية ومختلف الأسلحة الفتّاكة.. الخ، لكنه لم ينجح في قمع نضال الشعب الكردي وتصفية قضيته ـ كما يرى القاضي والداني اليوم.

كان المبنى الريفي المشيد بجانب قرية درگله، لكي يكون مدرسة حزبية يديرها يوسف حنا، قد أكمل لتوه حين عقد فيه اجتماع اللجنة المركزية للحزب في تشرين الثاني ١٩٧١. كان الاجتماع يعقد عقب تعرض ح ش ع لتلك الحملة العنيفة، التي أشرت إليها سابقاً والتي أدت إلى استشهاد عضو في هذه اللجنة وإسقاط عضو آخر. كان الحكم الدكتاتوري البعثي قد قضى حتى هذا الوقت على كوكبة لامعة من أفضل الكوادر الشيوعية، بينهم ستار خضير وعبد الأمير سعيد والكادر الفلاحي الرائع عضو لجنة الفرات الأوسط كاظم الجاسم والشاب الشيوعي الباسل الذي كان يعمل في ميدان التنظيم الحزبي ـ العسكري عزيز حميد ومحمد الخضري وصالح الحاج أحمد، الذي تولى مسؤولية منظمة الكوت بعد أبو عليوي وعلي البرزنجي وجواد عطية وكثيرون غيرهم...

كانت المهمة الملحة أمام اجتماع اللجنة المركزية هي البحث عن سبل مناسبة لإعادة بناء الحزب، تنظيمياً، وإعادة النظر في الموقف من السلطة وتقييم سياستها خلال السنوات الثلاث التي أعقبت انقلاب تموز ١٩٦٨ سياسياً. كان التحليل المنطقي السليم للوضع يقود إلى المزيد من نزع الثقة عن السلطة والمزيد من وضع القيود أمام التعاون معها، وإلى البحث عن حلفاء بين معارضيها. غير أن العناصر اليمينية الذيلية وجدت في إيقاف أو تخفيف حملة التنكيل بالشيوعيين ما يكفي لاتخاذ موقف لين من شأنه تمهيد السبيل أمام التفاهم والتقارب مع السلطة. وكانت القيادة البعثية الحاكمة نفسها ترغب في إعادة النظر بموقفها من ح ش ع لسببين:

أولهما أن العلاقات تتوتر أكثر فأكثر بينها وبين البارزاني، خاصة بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال هذا الأخير.

وثانيهما أن الحملة البوليسية ضد ح ش ع قد حققت غرضها لدرجة كبيرة إذ أدت إلى تحطيم معظم تنظيمات الحزب في البلاد.

ومن المفارقات العجيبة في اجتماع اللجنة المركزية هذا هو أن ما

شغل بال البعض من أعضاء الهيئة المجتمعين لم يكن إعادة النظر في خط الحزب السياسي ولا إعادة بناء تنظيماته المحطمة، بل كان إعادة النظر في التركيب القومي لقيادة الحزب. فقد طرح عامر عبد الله وآخرون ضرورة معالجة أزمة القيادة ـ حسب تعبيرهم ـ وكانوا يقصدون من ذلك هيمنة العناصر الكردية على قيادة الحزب. وفي الحقيقة كانت هذه مشكلة مزعومة ومثارة بدوافع قومية ـ شوفينية عربية. كان أنصار هذه الفكرة يرون أن أعلى المناصب في الحزب ينبغي أن يعطى للشيوعيين من العرب، إن لم يكونوا من ألسنة العرب.

لقد ظهرت هذه الفكرة أيام قيادة فهد في الأربعينات حين طالب ذو النون أيوب وغيره بإزاحة فهد من السكرتارية لكونه كلدانياً ومسيحياً، ليتولى عربي مسلم منصب السكرتير العام. إلا أن الشيوعيين العراقيين نبذوها وبنوا علاقاتهم الحزبية مع بعضهم على أساس إنساني وأممي حقيقي. ولمّ ح ش ع في صفوفه أبناء جميع القوميات والأقليات القومية والدينية والطائفية دونما تمييز بينهم وحظي سكرتيرهم المسيحي فهد باحترام وثقة الجميع.

ولم تبعث هذه الفكرة الغربية عن الشيوعية وعن الديمقراطية إلا بالارتباط الوثيق مع سلسلة الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها الحزب خلال السنوات الأخيرة، وبالأخص سنوات قيادة عزيز محمد. وقد نشأت في هذه السنوات عنعنات قومية عربية ـ كردية ومسيحية ـ إسلامية. وذهب البعض إلى حد تفسير الأخطاء والنكسات بأنها ناجمة عن سيطرة اليهود ـ لفترة ـ والأكراد بعدئذ على الحزب. ووجد من طعن في سلام عادل أيضاً لأنه نجفي من أصل إيراني.

هناك حقيقة وجود نسبة من العناصر الكردية في القيادة، بالأحرى في المكتب السياسي، أكبر من نسبة الأكراد إلى مجموع سكان العراق. وهذه لم تكن ظاهرة مفتعلة، بل كانت نتيجة تحطيم العناصر القيادية الرئيسية من العرب خاصة في ردة ١٩٦٣. في حين بقيت العناصر القيادية

الكردية (كعزيز محمد وكريم أحمد وعمر الشيخ وبهاء...) بعيداً عن متناول أيدي الجندرمة الفاشية. وهناك حقيقة أخرى أيضاً وهي أن كردستان العراق كان قلعة للحركة الشيوعية في العراق طوال سنوات كثيرة وحتى ١٩٨٣، حيث ارتكبت قيادة ح ش ع خطأ زج الشيوعيين في اقتتال المنظمات الكردستانية.

وبدلاً من أن يتصدى عزيز محمد، بوصفه سكرتير الحزب، لهذه الفكرة اللا شيوعية ـ اللا ديمقراطية، القومية الداعية إلى تسلط أناس معينين على ح ش ع على أساس قومي وليس على أساس الكفاءة والانتخاب الديمقراطي، فإنه استسلم لدعاتها بخنوع. ففي اجتماع اللجنة المركزية عام ١٩٧١ لم يكن رده على عامر عبد الله سوى مناشدة أعضاء اللجنة المركزية لكي يصوتوا لتثبيت عضوية عامر في اللجنة المركزية. وأمام طغيان الفكر القومي العربي المطالب بالتسلط على قيادة ح ش ع رضخ عزيز ووافق، في اجتماع اللجنة المركزية ربيع ١٩٩٠، على ما سمي «مراعاة التركيب القومي» لسكان العراق في اختيار السكرتير والقيادة. وبذلك أصبح من حق الشيوعيين العرب، بموجب قرار حزبي رسمي، أن يهيمنوا على قيادة ح ش ع. وفي ذلك نجد أحد الأسباب لحمل الشيوعيين في كردستان على التوجه إلى إنشاء حزب شيوعي خاص بهم وغير خاضع للحزب الشيوعي العراقي.

❀ ❀ ❀

بعد اجتماع اللجنة المركزية مباشرة طلب مني المكتب السياسي العودة إلى بغداد للعمل من أجل إعادة بناء المنظمة الحزبية. لم أرفض الطلب لكنني رفضت جانباً منه، رفضت أن أكون المسؤول الأول عن منظمة بغداد. وبررت الرفض بأني لم أكن متفقاً معهم على خطهم السياسي العام ولم أرد تحمل المسؤولية عن تنفيذ سياسة لست مقتنعاً بها. عندئذ عين عمر الشيخ مسؤولاً أول ووافقت أن أكون مساعداً له. وكنت أعرف عمر كمناضل مخلص متفان عالي الجهادية وكإنسان خلوق

جدير بالثقة والاحترام. وقد انتقلنا فوراً إلى العاصمة للمباشرة بالمهمة الحزبية الجديدة.

حين بدأنا العمل الحزبي في بغداد فإننا لم نجد من المنظمة الحزبية سوى أنقاضها. فالحملة البعثية البوليسية كانت قد حطمتها تحطيماً تماماً. وجدنا في حالة سليمة فقط بضع خلايا حزبية مرتبطة بلجنة قاعدية في الكرخ ينظمها العامل الشيوعي على عرمش، وبلغت عضويتها ١٦ شخصاً. وكانت هناك بقايا لخط التنظيم الطلابي عبارة عن صلات فردية لا لجنة فيها ولا خلية. وكان ينظمها حميد البياتي. وكان خط التنظيم النسائي عبارة عن زكية خليفة وزوجتي عائدة التي عادت إلى بغداد قبلي بأشهر، ترتبط بهما بضع فتيات.

كان أخطر ما يواجهنا هو الاندساس المحتمل في أنقاض المنظمة. فالأجهزة القمعية قد استغلت الحملة البوليسية ليس فقط لتحطيم المنظمة، بل كذلك لدس عملائها في بقايا التنظيمات، بأمل أن تستفيد منهم وتدفع البعض منهم إلى مراكز المسؤولية بين الكوادر الوسطية.

وضعنا، أنا وعمر الشيخ، خطة لمجرد بقايا المنظمة، والتحقيق الدقيق في وضع من يطلب إعادة الصلة بالحزب. كنا نريد إعادة بناء المنظمة فقط ممن نستطيع التوثق منهم. كتبنا أسئلة عديدة نوجهها إلى كل شخص، سواء كان مستمراً في صلاته أم مقطوعاً ويطلب الاتصال. وكنا ندرس الأجوبة بدقة ونجري التحقيق فيما يتطلب المزيد من التحقيق. كان عملنا يسير ببطء بسبب صعوبة العمل السري والخوف من القمع. وقد كشفنا عدداً من الجواسيس والمندسين، بينهم مفوض في الأمن العام (كان يدعى سعد) تمكن من إدخال عناصر جاسوسية أخرى في صفوف تنظيماتنا. وقد قطعنا العلاقة كلياً مع المرتبطين بالخط التنظيمي الذي أمكن للمندسين التسلل إليه.

انضم إلينا في العمل الحزبي تدريجياً رفاق آخرون ساهموا بقسط

هام في العمل، بينهم شاكر محمود ونزيهة الدليمي وصاحب الحكيم (وهو شيوعي نجفي من عائلة الحكيم المعروفة، التي كانت منقسمة على نفسها بين الاتجاهين الشيوعي والديني) وأبو جميل وغيرهم.

في تلك الأيام من ١٩٧٢، وقد بلغت الخامسة والأربعين من عمري، لاحظت أثناء قراءة الرسائل وكتابتها صعوبة لم ألحظها في السابق. فراجعت طبيباً إخصائياً وقال لي:

ـ لا تنزعج يا صاحبي! إنها ضريبة العمر الاعتيادية. فقد أصبحت في حاجة إلى المناظر لكي تقرأ وتكتب، شأن كل إنسان ذي عينين طبيعيتين.

❀ ❀ ❀

كانت رائحة الشم أو الحساسية قوية لدى عزيز محمد ليس فقط تجاه مخاطر الهجوم والحملات البوليسية ضد الحزب، بل كذلك إزاء أي بادرة تراجع أو مرونة في سياسة السلطة البعثية نحو الشيوعيين. ففي ظروف اشتداد التوتر بين السلطة وبين البارزاني والحركة الكردية المسلحة، وفيما كان ح ش ع ينزف من آثار الحملة البوليسية أواخر ١٩٧١، أصبح البعث الحاكم في حاجة إلى مهادنة الشيوعيين وأخذ ينشر التصريحات والدعوات لعقد جبهة وطنية مع سائر الأحزاب الوطنية. وفي إحدى الصحف البيروتية أعطى عزيز محمد الضوء الأخضر عن استعداد ح ش ع للتباحث حول الجبهة. وبدأت مشاريع البرامج الجبهوية تعرض من البعث الحاكم ومن أوساط أخرى، منها المشروع الذي قدمته قيادة ح ش ع.

كانت الخطوة الرئيسية التالية في طريق التقارب والتعاون مع البعث الحاكم استجابة قيادة ح ش ع لطلب قيادة البعث بالمشاركة في السلطة عن طريق إدخال كل من عضو اللجنة المركزية عامر عبد الله والمرشح لعضوية اللجنة المركزية (منذ ١٩٧٦) مكرم الطالباني إلى الوزارة. على

أنها كانت مشاركة صورية ولم يصبحا وزيرين حقيقيين طيلة سبع سنوات من وجودهما على كرسي الوزارة. ولم يكن لأي منهما يوماً صلاحية حقيقية بقدر صلاحية ضابط أمن صغير. في الواقع لم يكن هناك وزراء بمعنى الكلمة الحقيقي حتى بين البعثيين أنفسهم. ولم يكن مجلس وزراء حتى من قبيل ذلك المجلس الذي كان موجوداً في العراق خلال العهد الملكي. كان يمكن أن تتخذ المشاركة في الوزارة شكلاً مغايراً فيما لو احتفظ ح ش ع وممثلاه في السلطة بالاستقلالية السياسية في الرأي وفي التصرف بدلاً من أن يصبحا ذيلاً بائساً لقيادة البعث. وتمنيت لو لم يرتضيا شخصياً بهذا الكرسي الوزاري البائس ولم يقبلا بأن يؤديا فقط مهمات روتينية بسيطة بدلاً من مهمات وزير يمثل حزباً سياسياً عريقاً وذا أمجاد نضالية كبرى، في حين تلاحق السلطة، التي استوزرتهما، رفاق حزبهما وتعذبهم وتقتلهم، يجب الإقرار بأني لا أتحمل شيئاً من هذا القبيل حتى لو أدى الأمر إلى استقالتي من الحزب أو طردي من صفوفه. فالانتساب إلى حزب ما لا يجوز أن يقترن بقبول الإهانات والدوس على الكرامة الشخصية والسياسية للإنسان.

كانت المشاركة في الوزارة خطوة عملية ملموسة نحو إقامة التحالف الذيلي الذي حولته قيادة ح ش ع إلى زواج كاثوليكي مع القيادة البعثية ـ التكريتية. وكما أسبقت فإن الدخول في الوزارة جرى في ظروف اشتداد التوتر مع البارزاني، بما كان يحتم على السلطة تخفيف الإرهاب والملاحقات بحق الشيوعيين. وهذا ما أوجد لنا وضعاً أفضل نسبياً في عملنا على إعادة بناء المنظمة. وعندما أوصلنا عدد أعضاء المنظمة إلى ٣٠٠ ـ ٤٠٠ شخص كنا نعتبر ذلك نجاحاً هاماً لنا في عملنا الحزبي.

وإلى جانب العمل على إعادة بناء المنظمة بشكل اعتيادي كنا قد أسسنا منذ البداية خطاً تنظيمياً خاصاً منفصلاً عن الخطوط التنظيمية الأخرى، وغير معروف حتى لدى الكثيرين من مسؤولي منظمة بغداد، وسميناه خط «فوچك» كنا نسعى إلى ضم العناصر الموثوقة وغير المكشوفة

إلى صفوفه. وكنا نبحث بين الشيوعيين المنقولين من خارج العاصمة إليها عن تلك العناصر. استهدفنا من إنشاء هذا الخط إيجاد تنظيم احتياطي أقل عرضة للضربات في حالة شن الحملات البوليسية الجديدة. في وقت لاحق، بعد انتقالنا أنا وعمر الشيخ إلى مهمات حزبية أخرى، ألغي هذا الخط من قبل سكرتير المنظمة الجديد مهدي عبد الكريم، مع الاستهزاء والسخرية مما كنا قد فعلناه. وصادق المكتب السياسي على هذا الإلغاء دون مناقشة. كان ذلك بعد توقيع اتفاق التحالف الذيلي مع البعث وضمن حسن الظن به والتوجه إلى كشف كل شيء له.

❀ ❀ ❀

في أيلول ١٩٧٢ طلبت مني عائدة الموافقة على سفرها إلى موسكو للدراسة الحزبية لمدة سنتين. ورغم أنني كنت أملك آنئذ تجربة وفيرة عن الدراسة الحزبية في الاتحاد السوفيتي ونتائجها بالنسبة إلى الشيوعيين العراقيين، خاصة لذوي الدورات الدراسية الطويلة ـ لسنتين أو أكثر ـ فإنني لم أرد أن أكون نموذج الزوج الشرقي المتسلط، الذي يدعو بالكلام إلى حرية المرأة ومساواتها بالرجل ويقف عملياً بالضد من ذلك. فتركت لها الخيار مع إسداء النصح بأن تدرس لمدة عام واحد كأقصى حد. سافرت عائدة للدراسة بصحبة رجاء كمال الدين، الفتاة الشيوعية التي نجت من الموت بمجرد الصدفة حين أقام والدها المختل عصبياً مذبحة رهيبة في البيت أودت بحياة الوالدة وسائر الأطفال، ساعة كانت رجاء خارج المنزل.

بعد انقضاء فترة اقتنعت عائدة، وهي في موسكو، بأن لا جدوى من البقاء سنتين للدراسة. فاختصرت المدة إلى ١٥ شهراً وعادت إلي أوائل ١٩٧٤، فيما كنت قد انتقلت إلى كركوك للعمل في منظمة اقليم كردستان.

❀ ❀ ❀

منذ أوائل ١٩٧٢ طرحت مشاريع أو برامج مختلفة من قبل ح ش ع وجناح من الحركة القومية الناصرية (عبد الإله النصراوي) وأخيراً من حزب البعث الحاكم، كبرامج للتحالف المقترح. وبعد أكثر من سنة من المناقشات، التي دارت بالأساس حول الوثيقة، تمت الموافقة بين ح ش ع وبين حزب البعث على المشروع البعثي، بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها لم تمس القضايا الجوهرية. فالأمور ظلت مطروحة في صيغ عمومية وبشكل أراجيز فارغة غير مفهومة من الجماهير. على أن أسوأ ما في الوثيقة (التي سميت ميثاقاً وطنياً) كان إقرار قيادة ح ش ع بالدور المتميز لحزب البعث، أي دوره القيادي في التحالف، وباحتكاره لحق العمل لنفسه في القوات المسلحة. كان ذلك شكلاً من أشكال التأكيد على نظام الحزب الواحد، مع إعطاء حق الوجود لأحزاب أخرى شريطة أن تكون تابعة للحزب الحاكم وحتى لسياسته.

والأسوأ من إقرار هذا الميثاق هو ما قام به عزيز محمد منفرداً من اتفاق مع صدام التكريتي على اتخاذ القرارات في الجبهة بأغلبية الأصوات، في حين كانت هذه الأغلبية مضمونة عادة للحزب الحاكم. معنى ذلك إلزام ح ش ع بتنفيذ أي قرار يتخذه البعثيون وحلفاءهم باسم الجبهة الوطنية. بتعبير آخر فإن عقد الجبهة على هذا الأساس اقترن منذ البداية بضياع الاستقلالية السياسية، بالنسبة إلى ح ش ع.

كان التحالف قد عقد عملياً منذ ٢ أيار ١٩٧٢، حين وافقت قيادة ح ش ع على المشاركة في الوزارة. غير أن إسباغ الصفة الرسمية ـ القانونية ـ على التحالف، الذي عقد باسم «الجبهة الوطنية والقومية التقدمية»، جرى في اجتماع طارىء للجنة المركزية في تموز ١٩٧٣، أعقبه التوقيع الرسمي على الميثاق أمام مشاهدي تلفزيون بغداد، يوم ظهر أحمد حسن البكر وعزيز محمد ليوقعا على عقد التحالف.

جرى نقاش حاد في اجتماع اللجنة المركزية، التي كانت منقسمة على نفسها حول عقد التحالف بين رأي مؤيد وآخر معارض. وعندما

عرض سكرتير الحزب عزيز قضية الانضمام إلى الجبهة مع البعث لم يصوت إلى جانبه سوى سبعة أصوات بين الحاضرين، في حين صوت ضده ثمانية أشخاص (كان بين المصوتين للجبهة عزيز محمد وكريم أحمد وباقر إبراهيم وعبد الرزاق الصافي، وبين المصوتين ضدها زكي خيري ومهدي عبد الكريم وعدنان عباس وسليمان اسطفيان وأنا). وهكذا لم تأت نتيجة التصويت لصالح عزيز محمد. وكان يفترض وفق التقاليد الديمقراطية ـ الحضارية، أن ينتهي الاجتماع وأن يبلغ البعثيون بأن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لم تؤيد عقد الجبهة على أساس البرنامج والشروط المطروحة. لكن الديمقراطية هنا، حتى في قيادة ح ش ع، لم تتحول إلى تقاليد راسخة في العمل السياسي، بل هي تنبذ عندما تتعارض مع رغبات قائد الدولة أو الحزب الحاكم أو أي حزب سياسي، ولو كان وطنياً وتقدمياً ومن معارضي السلطة. فالسكرتير لم يستسلم للأمر الواقع، بعد رفض الجبهة بأغلبية الأصوات، بل استأنف النقاش وناشد المشاركين في الاجتماع كي لا يضيعوا هذه الفرصة التأريخية في عقد التحالف ولا يخاطروا بمصير الحزب والوطن. وبعد المناقشات الجديدة تم له ما أراد إذ انتقل ـ في التصويت للمرة الثانية ـ عضو اللجنة المركزية أحمد بانيخيلاني من صف معارضي الجبهة إلى صف مؤيديها. فأصبحوا هم ثمانية وبقينا نحن المعارضين سبعة. وبهذه الأغلبية الهزيلة مرر عزيز محمد هذه القضية المصيرية الخطيرة.

لقد أصر عزيز محمد ومعه مسؤولون آخرون في قيادة ح ش ع على عقد هذا التحالف وراهنوا عليه، باعتباره طريقاً للتطور اللا رأسمالي مؤدياً في نهاية المطاف إلى إقامة عراق اشتراكي. وبعد سنوات أجابت الحياة نفسها على كل القضايا المرتبطة بهذا التحالف ـ كما هو معروف.

لا بد من الإشارة إلى أن ح ش ع بذل مساع لضم البارتي إلى الجبهة. ولم يستجب هذا الأخير لأنه كان قد وقع تحت ضغوط نظام

الشاه والأوساط الغربية. واعتقد أن انضمام البارتي كان يخلق الأساس المادي لمعادلة سياسة جديدة إذ كان اتفاق الشيوعيين والبارتيين على المسرح السياسي كفيلاً بنجاح التصدي لطغيان الحكم البعثي ولغرض بعض الإصلاحات. ولم يكن البديل الذي اختاره البارتي برفض الجبهة وبتجديد القتال في كردستان بالشيء الأفضل. فإذا كان الشيوعيون قد أخطأوا في عقد هذا التحالف الثنائي غير المتوازن مع البعث الحاكم، فإن البارتيين هم الآخرون قد أخطأوا في الاعتماد على نظام الشاه والأوساط الامبريالية الغربية والانصياع لها في تجديد القتال الذي عاد بضرر جسيم على الشعب الكردي خاصة وكل العراق عامة.

وحتى إذا قبل ح ش ع بإبرام التحالف مع البعث الحاكم فإن النتائج لم تكن لتنتهي إلى هذه المأساة المريرة فيما لو تمسك ح ش ع باستقلاليته السياسية بدلاً من أن يجعل من الجبهة تبريراً لانتهاج سياسة التبعية وراء البعث.

إن المعارضة القوية داخل القيادة عام ١٩٧٣ لعقد التحالف مع البعث الحاكم أخذ يخف تدريجياً خلال السنتين التاليتين حتى أصبح من صوتوا أول الأمر ضد التحالف ملكيين فيما بعد أكثر من الملك نفسه ـ جبهويين أكثر من عزيز محمد ـ كما تجلى في مواقف زكي خيري وعدنان عباس ومهدي عبد الكريم وغيرهم.

❀ ❀ ❀

كنت مقيماً في بيت حزبي سري بالكرادة الشرقية عندما فوجئت منذ الصباح الباكر بإعلان منع التجول في العاصمة كلها لسبب لم أعرفه. ساورتني مخاوف حقيقية وغدوت في موقف حرج حين دخلت مفرزة التفتيش المنزل وحققت في هويات الموجودين. كان ذلك إجراءاً إرهابياً من إجراءات السلطة وجهاز القمع الصدامي، خلافاً لجميع الأعراف والقوانين. عرضت هويتي الحقيقية وذكرت أني صحفي أعمل في صحيفة

الفكر الجديد العلنية. وابتسم مسؤول المفرزة المفتشة بعد أن عرف أني مع عائلة آثورية. ولم يتصور أبداً أن يكون هذا بيتاً حزبياً سرياً. بعد يومين من هذا الحادث ذهبت بصحبة أحمد بانيخيلاني إلى نفس البيت للمبيت ليلاً. وفي منتصف الليل أتى عدد من فتيان الحي البعثيين ليدقوا علينا الباب ويحرجونا كما يحرج من يمسك متلبساً بجريمة مضاجعة غير شرعية لامرأة ما. رفضنا فتح الباب لهم وهددناهم بالشكوى عليهم وفي اليوم التالي تركنا البيت نهائياً، كما انتقلت العائلة أيضا. كان ذلك أخف ما عمله البعثيون من أعمال الإرهاب، لأنهم لم ينظروا إلى ما في البيت إلا من الزاوية الأخلاقية.

١٦

توتر العلاقة مع البارزاني
تجدد القتال في كردستان

بعد توقيع ح ش ع على ميثاق التحالف مع حزب البعث الحاكم أخذ التوتر يزداد في علاقاتنا مع الملا مصطفى البارزاني والحركة الكردية المسلحة. وكما هي العادة الجارية في هذه المجتمعات الشرقية المتخلفة فإن البارزاني لم يكن من النوع الذي يقبل بسهولة عدم إذعان الشيوعيين له من حيث الموقف من سلطة البعث الحاكم. كان من المألوف أن يمارس الضغط علينا وأن يحول هذا الضغط إلى حملة من الإجراءات العملية ضد ح ش ع. ولأن كلا الطرفين كانا يملكان صحفاً علنية يومية فإن الخلافات المشوبة بالتوتر سرعان ما تحولت إلى حرب صحفية مكشوفة وحادة يجري فيها تبادل الاتهامات. وكانت القيادة التكريتية تتفرج بسرور على ما يجري، انطلاقاً من فكرة أن إضعاف أي من هذين الطرفين يعود بالفائدة عليها هي. واستغلت جريدتنا الجريمة النكراء التي ارتكبها الطرف الآخر بقتل اثني عشر شيوعياً كانوا قد عادوا من موسكو - بعد إنهاء دورة دراسية حزبية - إلى سوريا فإلى العراق بصورة سرية. وقيل أن عيسوى سوار، الذي كان آمر هيز لدى

البارزاني، كان قد اعتقلهم، بعد عبورهم الحدود إلى المنطقة الكردية، وقتلهم دون تحقيق أو محاكمة ولمجرد كونهم شيوعيين. وكان بينهم نجم الدين عثمان، الذي ربطت بينه وبيني علاقة حزبية سابقة وصداقة شخصية.

استمر التوتر يشتد بين الطرفين إلى أن وصل حد الإيعاز من قبل البارزاني بنزع أسلحة الفصائل الفدائية الشيوعية ـ وكانت قوة مسلحة صغيرة وموجودة في عدة أماكن وتابعة عسكرياً لقيادة البارزاني، قبل أن تصل العلاقات إلى هذه الأزمة ـ واعتقال وقتل من يعصي الأوامر. كان من ضحايانا، الذين قتلوا بغدر، الشيوعي الكلداني (بيه صليوه)، الذي طوق المسلحون البارتيون داره في شقلاوه فرفض الاستسلام واتخذ موقفاً صلباً وبطولياً في الدفاع عن نفسه حتى قتل. والضحية البارزة الأخرى، الذي لم يكن ضمن الفصائل الشيوعية المسلحة، بل كان كادراً فلاحياً نشطاً وعضو لجنة محافظة أربيل للحزب الشيوعي، علي مولود (وهو نفسه الذي عقدنا الكونفرنس الثالث للحزب بداره في قرية دار بسر أواخر ١٩٦٧) الذي اعتقل وتعرض للتعذيب ثم استشهد في قصف جوي قامت به الطائرات العراقية ضد فصائل البيشمرگه.

في منطقة بالك نزعت أسلحة فدائيينا بسهولة ولم يكن بمستطاعهم أن يقاوموا. إلا أن الفدائيين الشيوعين في قره داغ وبهدينان رفضوا تسليم السلاح إلى جماعة البارزاني. فبدأت الاشتباكات المسلحة بين الطرفين في مسعى لسحق الفصائل الشيوعية. اشتغلت وساطات البعض ودبرت زيارات وفود وأشخاص إلى البارزاني دون جدوى. وكانت المعارك غير متكافئة، إذ كان لدى البارزاني عشرات أضعاف ما لدى الشيوعيين من الرجال والعتاد. وبعد أيام من القتال اضطر الشيوعيون إلى ترك مناطقهم الريفية والتراجع شطر المراكز الحكومية المحمية بوحدات عسكرية. جرى كل

ذلك قبل أن يتجدد القتال بين البارزاني وبين النظام البعثي. ورغم أن الفصائل الشيوعية المسلحة في كردستان ١٩٧٣ كانت قوة صغيرة لا تقارن بما كان في حوزة البارزاني، فإن وقوفها إلى جانب السلطة الحاكمة ضد الحركة المسلحة بقيادة البارزاني كان كبير التأثير للغاية على المعادلة السياسية والعسكرية في الساحة العراقية آنئذ.

في مطلع ١٩٧٤ كان التوتر بين النظام البعثي من جهة وبين الحركة القومية الكردية المسلحة من جهة أخرى قد بلغ أوجه. وكان الصدام المسلح وشيكا لو لم تحدث معجزة.

❀ ❀ ❀

عند بدء المصادمات المسلحة بين فدائيينا وبين فدائيي البارزاني في خريف ١٩٧٣ انتقلت حسب رغبتي وبموافقة المكتب السياسي إلى منظمة اقليم كردستان للعمل فيها. ولأنني لم أكن عضواً في المكتب السياسي للحزب فإن مكاني كان في مكتب الاقليم وليس منصب سكرتيره. انتقلت إلى كردستان وكنت على قناعة تامة بأن الملا مصطفى قد فقد استقلاليته السياسية وسلم زمامه إلى شاه إيران وإلى المخابرات الأمريكية وأنه يحدد موقفه من قضية الحرب والسلم في كردستان وفق ما يمليه عليه هؤلاء، الذين لا ينطلقون إلا من مصالحهم الخاصة. هذا من جهة، ومن الجهة الثانية كنت، شأن فريق آخر من رفاقي، أطمح إلى أن نصبح نحن الشيوعيين أصحاب قوة مسلحة قادرة ليس فقط على التصدي لأي حزب أو زعيم كردي عندما يعتدي علينا، بل كذلك لسلطة البعث الحاكم إذا ما تحرشت بنا. بعد انتقالي إلى كردستان أقمت فترة في كركوك. في كانون الثاني ١٩٧٤ سافرت إلى بغداد لاستقبل في المطار زوجتي عائدة واصطحبها إلى كركوك. وكانت المرة الثانية في حياتي الحزبية من الإقامة في مدينة الذهب الأسود.

كركوك ١٩٧٤ كانت أكبر بأضعاف من كركوك ١٩٤٩. وكان يلاحظ فيها تغير ملموس من حيث التركيب القومي لسكان المدينة. كانت السياسة الرسمية للنظام البعثي هو تهجير العرب إلى كركوك وإعطاء من ينتقل منهم إليها امتيازات مادية، وقد استأجرت داراً صاحبها شاب عربي من عشيرة العبيد. ولم ألمس لديه روح العداء إزاء غير العرب. وكانت نسبة الأكراد في النمو أيضاً بسبب الهجرة من القرى إلى المدينة. لكن نسبة التركمان كانت في هبوط إلى مجموع قاطني المدينة. ورغم أن كركوك ظلت مشتهرة بين أهالي السليمانية بالسلق والفجل الجيدين فإني وجدتها تتميز بلحم الخروف الذي أكاد أجزم أنه أفضل ما أكلته من اللحوم الحيوانية.

❀ ❀ ❀

في آذار ١٩٧٤ سافرت إلى مدينة السليمانية بمهمة حزبية. قدر لي أن أكون هناك حين هجرت الغالبية الساحقة من الرجال شباناً وكهولاً المدينة ليلتحقوا بالحركة الكردية المسلحة تحت قيادة الملا مصطفى البارزاني، الذي بلغت شعبيته في تلك الفترة ذروتها والتف حوله أكثر من تسعة أعشار الجماهير الكردية. كانت ظاهرة الانسحاب من المدينة لغرض الالتحاق بالحركة المسلحة ظاهرة شعبية مألوفة. حتى النساء كن ينتقدن علناً في الشوارع والأزقة من لم يلتحق من الرجال، وكن يسخرن منه. كنت أحس بأننا، نحن الشيوعيين، غدونا في عزلة حقيقية عن الشعب الكردي. وقد التحق الكثيرون من مؤيدينا ورفاقنا السابقين بالحركة القومية المسلحة. بيد أن العدد القليل من الناس، سيما أعضاء الحزب، الذين ظلوا معنا، كانوا عقائديين أو من أبناء العوائل الشيوعية ـ وكانت هذه نقطة القوة لنا. وعلى العكس من ذلك، فإن مغادرة الكثيرين من الأكراد للمدن بغية الانضمام إلى الحركة المسلحة كانت تشكل نقطة ضعف لتلك الحركة كما تشكل عبئاً ثقيلاً على البارزاني والپارتي.

وقد عقدنا اجتماعاً شعبياً أمام مقرنا الحزبي دعونا لحضوره الرفاق والأصدقاء ولم يحضره سوى ما يقارب (٦٠٠) شخص. وتكلمت فيه فقلت إنه لشيء مؤسف أن يحدث ما نراه من تشتيت الصف وإثارة النزاع بين القوى الوطنية وهجرة هذا العدد الكبير من الناس لبيوتهم وعوائلهم. وتنبأت بأنهم سيعودون زرافات ووحداناً إلى المدينة لأن أوساطاً أجنبية غير مهتمة بمصالح الشعب الكردي هي الممسكة الآن بزمام الأمور في الحركة الكردية المسلحة.

كانت التشكيلات المسلحة لدى البارزاني كبير جداً، رغم أنه لم أجد إحصاءاً مضبوطاً. وقد قيل أنه كان أكثر من (١٥٠) ألف مسلح. سيطروا على جميع الأماكن في مناطق كردستان الجبلية وفي الكثير من السهول أيضاً. ولم يبق في أيدي السلطة سوى المدن. وتأتى على القوات الحكومية أن تسترجع الطرق الرئيسية بقتال عنيف كلفها تضحيات غير قليلة. وقد بقيت في مدينة السليمانية اضطراراً لأن القوات الكردية التابعة للبارزاني كانت مسيطرة على طريق السليمانية ـ كركوك.

خلال الأيام التي قضيتها في السليمانية كنا مضطرين إلى تنظيم الحراسة المسلحة في البيت الذي كنا نبيت فيه ليلاً. وفي معظم الليالي كنا نبقى في منزل عضو لجنة المحافظة د. طاهر بابان، بصحبة سكرتير المحافظة نائب عبد الله وعضو اللجنة نوروز شاويس وغيرهما. كانت في المنزل أرملة كردية ريفية الأصل تدعى (عائشة). وهي تحتك بنا وتخدمنا وأحياناً تجلس بيننا. وبعد أكثر من أسبوعين سألت ذات مساء عما إذا كنا جميعاً، بمن فيهم طاهر بابان نفسه، من الشيوعيين أم من البارتين! وكنت ذات مساء في بيت الكادر الشيوعي أحمد حامد. وذكرتني زوجته بأنها تلك الصبية التي حملت إلي رغيفاً حاراً يوم التجأت إلى هناك بعد تفرق إحدى مظاهراتنا في شتاء ١٩٤٩. ولم أتمالك نفسي من التفكير فيما كنا عليه عام ١٩٤٩، حين كانت جماهير

السليمانية معنا، وما أصبحنا عليه في ١٩٧٤، حيث لم يبق معنا سوى أقلية ضئيلة من سكان المدينة.

وقبل أن تستعيد السلطة سيطرتها على طريق السليمانية ـ كركوك عدت إلى كركوك في طائرة عمودية عسكرية. وعرضت على الضابط، الذي كان في الطائرة هويتي المزورة. وقد أخذوا مني مسدسي حتى النزول من الطائرة. وكان العسكريون فيها، وهم أربعة أو خمسة، يتجنبون الاحتكاك معنا وتبادل الحديث ربما خوفاً من أحد رجال الاستخبارات بينهم.

❀ ❀ ❀

أتاحت لي ظروف العمل الحزبي في ١٩٧٤ الفرصة لمشاهدة أنحاء جديدة، لأول مرة، في كردستان العراق. زرت مقرات فدائيينا في القرى اليزيدية الكردية والتقيت هناك بكوادر ريفية نشطة أمثال علي خليل. وزرت قرية (خدرولي) بالقرب من مدينة الدوز إثر كارثة مريرة أنزلت بوحدة مسلحة من فدائيينا، حيث شن مسلحو البارتي هجوماً عليهم وقتلوا منهم (١١) فدائياً. ولم يحدث ذلك بمعزل عن قلة اليقظة والغباء لدى أحد مسؤولي قوتنا هناك، إذ نبه إلى ظهور حشد من الناس ـ كان الهجوم في وضح النهار ـ بعيداً متجهاً إلى القرية فقرر أن هذا الحشد ليس سوى قطيع من الأغنام! وقد انهارت معنوية وحدتنا، التي تكبدت تلك الخسارة. ولم تعد قادرة على خوض القتال حتى أمد طويل.

وزرت كذلك قرية (نبي آوا) على بعد ٣٥ كم من كركوك، حيث تعرضت وحدتنا الفدائية لهجوم ليلي عنيف من قوة فدائية كبيرة تابعة للبارزاني. وقد ترك ملا شكر المسؤول السياسي لوحدتنا القرية منذ بداية الهجوم المعادي ولم يتوقف عن السير في تلك الليلة إلا في مدينة كركوك، زاعماً بأن فدائيينا قد أبيدوا كلياً جراء هجوم القوة

المعادية. وعندما وصلنا نبي آوا وجدنا العكس حيث كان نفر قليل من سريتنا الفدائية قد صمد، تحت قيادة آمر السرية الفدائي الشيوعي المحنك بكرتلاني، ودحر المهاجمين وألحق بهم خسائر فادحة.

وزرت دربنديخان حين كانت قوتنا الفدائية في منطقة قره داغ قد حشدت هناك بقيادة الفدائي المخضرم ملا علي (عبد الله ملا فرج) وكانت أكبر وحدة مسلحة لنا في ذلك اليوم. ومن الطرائف العالقة بذهني عن تلك الزيارة هو ما روى لي ملا علي من حادث تحقيق مع رجل اعتقلوه وعثروا في جيبه على رسالة موجهة إلى أحد فدائيينا لتحريضه ضد الشيوعيين. أنكر الرجل المتهم، رغم أنه عذب قليلاً، كل علاقة له بالرسالة طيلة يومين كاملين. وعندما أخذه أحد فدائيينا الفلاحين إلى إحدى الغرف وخيره بين الاعتراف بالحقيقة وبين تقبل الاعتداء الجنسي عليه أسرع المتهم إلى الاعتراف بكل شيء. لقد لمت ملا علي على هذا النمط من التحقيق. وبرر الأمر بأنه كان اقتراحاً من أحدهم ولغرض التخويف فقط.

وزرت كذلك مدينة سيد صادق، حيث تكونت وحدة فدائية لنا من شيوعي حلبجة وشهرزور، تحت قيادة الشاب الشيوعي المتحمس إبراهيم صوفي محمود.

وقد نقلنا مقر قيادة منظمة اقليم كردستان للحزب إلى مدينة أربيل حيث كان لنا مجال أفضل للتحرك. واستأجرت هناك داراً ملكها المعلم الشيوعي أحمد شيخو. وجدت في حديقة الدار، لأول مرة في حياتي، نبتات النرجس وهي محتفظة بنشاطها وتزهر طيلة السنة تقريباً. وأزهارها عبقة أكثر من أزهار النرجس البري الذي يقتصر نشاطه وأزهاره على موسى الربيع وحسب.

❀ ❀ ❀

شرع قانون الحكم الذاتي للمنطقة الكردية في وقت كان البارزاني

قد حسم موقفه برفض الانضمام إلى التحالف الجبهوي ورفض التفاهم والتعاون مع السلطة. ورغم ادعاء قيادة ح ش ع بأن القانون شرع بمشاركتها في صياغتها، فإن تأثيرها في المسألة كان محدوداً جداً. على أن المشكلة الرئيسية لم تكن في نواقص القانون نفسه، إنما كانت في حقيقة أن الطرف الآمر الناهي كان الحكم البعثي وحده وأن ح ش ع ارتضى لنفسه الدور الذيلي. وقد أوجدت السلطة هوة عميقة بين القانون وبين تطبيق بنوده. كان القانون ينص، على سبيل المثال، على إجراء انتخابات للمجلس التشريعي... لكن إجراء انتخابات حرة كان من رابع المستحيلات في ظل سلطة صدام ـ البكر ـ فالجهة التي أمسكت بزمام الأمور في كردستان ـ شأن العراق كله ـ كانت دائرة الأمن العام وحسب. وأكرر هنا أن الوضع كان يمكن أن يسير على منوال آخر فيما لو وقف البارزاني والشيوعيون موقفاً موحداً، سواء ضمن التحالف الجبهوي مع السلطة أو ضمن معارضي السلطة.

بموجب اتفاق أبرم مع قيادة البعث الحاكم خصصت لنا (١٣) مقعداً في المجلس التشريعي المزعوم و (٣) مقاعد في المجلس التنفيذي المزعوم. وكنت أخشى أن يطلب مني الدخول في المجلس التنفيذي بعد أن طرق سمعي بعض التلميحات. فاتحت عمر الشيخ وقلت لن أقبل ذلك مهما يكن الأمر، وقال من جانبه أنه لن يقبلها حتى ولو أدى إلى استقالته من الحزب. كان المسؤول الحزبي عن كتلتنا البرلمانية يوسف حنا. وكان بين أعضائها سامية الجاوشلي وأحمد دلزار الشاعر ونجم الدين مامو وقادر رشيد وإبراهيم صوفي محمود وخيري القاضي. وكانت مهمة ممثلينا صعبة للغاية لأن السلطة كلها كانت في أيدي الأجهزة القمعية المرتبطة بصدام مباشرة ولأن الحكم الذاتي كان مزيفاً كليا. وفيما كان هذا الحكم الذاتي الصوري قد وضع موضع التنفيذ كانت الحرب في كردستان جارية على قدم وساق.

❀ ❀ ❀

في صيف ١٩٧٤ حصلنا، أنا وزوجتي، على مقعدين للراحة في الاتحاد السوفيتي. وغادرت العراق لأول مرة منذ أن عدت إليه في ١٩٦٤. كان سوچى مكاني المفضل للراحة. وتمتعنا باستراحة جيدة في مصح اللجنة المركزية هناك. حسنت عائدة سباحتها. كنا نجالس ونحادث هناك كوادر حزبية من الروس خاصة. ولأول مرة سمعت بعضهم ينتقدون صراحة قيادة بريجنيف. ورسخت قناعتي، الموجودة قبلئذ، بأن هناك سخطاً على النهج الذي كان يسير عليه بريجنيف وزملاءه في القيادة. وتفرجنا في موسكو، ربما للمرة الخامسة بالنسبة إلي شخصياً، على رقصة البالى «بحيرة الجمع» تؤديها الراقصات السوفيتيات بمنتهى البراعة. وبقينا يومين في فندق فخم على بحر البلطيق بلاتيفيا. كان مرافقنا اللاتيفي يكثر من الشرب ويستغل وجودنا لطلب المشروب حتى في الصبح، أثناء الفطور. وتركنا الاتحاد السوفيتي لنبقى ضيوفاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الچيكوسلوفاكي بعض الأيام ولنسافر من هناك بالقطار وعلى حسابنا الخاص إلى ألمانيا الشرقية ضيوفاً على صديقة زوجتي الفتاة البصرية هناء أدور بوشه التي كانت ممثلة العراق في الاتحاد النسائي العالمي. وحين عدنا إلى العراق كان قد انقضى على سفرنا أكثر من شهر ونصف. وحاول فاتح رسول وضعي موضع المحاسبة الحزبية بحجة أنني جاوزت المدة المحددة لإجازتنا.

عند العودة إلى العراق وجدت ما لم يكن من تقاليد الشيوعيين العراقيين سابقاً، وأعني تقديم التهاني والهدايا من المنظمات الحزبية، بضمنها منظمة اقليم كردستان، ووفودها إلى سكرتير الحزب عزيز محمد بمناسبة بلوغه السن الخمسين في ١/٧/١٩٧٤ (وهذا التأريخ لميلاد العراقيين يدل على أن ليس من المعروف متى ولدوا). ولعل هذه الظاهرة كانت نقلاً حرفياً لما كان يجري في الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان أوروبا الشرقية، حيث كانت الحفلات الكثيرة تقام

بمناسبة أعياد ميلاد بعض القادة كجزء من مراسيم عبادة الفرد. وقد قررت منذ ذلك الوقت ألا أحتفل أبداً بعيد ميلادي. ولم أحتفل به فعلاً طيلة عمري رغم أنني أعرف تاريخ ولادتي الحقيقية، منذ أكثر من ثلاثين عاماً. ولم أتلق بهذه المناسبة شيئاً سوى رباط اشترته لي عائدة ذات مرة.

❀ ❀ ❀

لم تكن تشكيلاتنا المسلحة قوة تذكر بالمقارنة مع قوات البارزاني في ١٩٧٤. فقد كان جميع ما لدينا بضعة ألوف من المسلحين أو أقل مقابل أكثر من مئة ألف مسلح لدى الطرف الآخر. يضاف إلى ذلك أن تشكيلاتنا كانت قوة عسكرية غير مستقلة ـ شأنها في السابق أيضاً، يوم كانت تابعة للبارزاني ـ بل تابعة عملياً لقوات السلطة البعثية ومعتمدة عليها من حيث التموين والتسليح والعتاد (وكان الطرف الآخر معتمداً هو الآخر، من حيث التسليح والتمويل، على نظام الشاه، والمخابرات الأمريكية ـ الإسرائيلية). بيد أن تشكيلاتنا كانت متماسكة فكرياً لدرجة كبيرة وذات معنوية جيدة عموماً وكانت من أبناء المنطقة الكردية نفسها.

ورغم أن ح ش ع كان في تحالف استراتيجي ومصيري مع النظام البعثي ورغم أن مسلحينا كانوا يلعبون أحياناً دوراً حاسماً في بعض المعارك، فإن قيادة السلطة لم تستشر يوماً قيادة ح ش ع ولم تشركها في مناقشة واتخاذ قرار متعلق بمجرى الحرب. كانت تبعية التشكيلات الشيوعية المسلحة أمراً مفروضاً علينا في ظروف تناسب القوى التي كانت لغير صالحنا. لكن الطامة الكبرى هي أن قيادة ح ش ع أقرنت التبعية العسكرية بالتبعية السياسية أيضاً وراء القيادة التكريتية.

❀ ❀ ❀

أثناء تجوالي في كردستان عام ١٩٧٤ سنحت لي الفرصة لمشاهدة آثار نمرود، الملك الآشوري الذي نصب نفسه إلهاً فوق الأرض وأورد القرآن اسمه. وكانت هي المنطقة الأثرية الوحيدة بين المناطق الرئيسية، التي لم أشاهدها قبلئذ. لفت انتباهي اختلاف الفن المعماري في قصر نمرود عما في بابل وحتى الحضر القريب من الموصل. وتفرجت على صورة منحوتة لنمرود بالحجم الطبيعي تقريباً على لوحة صخرية كانت تشكل في وقت ما جداراً لإحدى الغرف في القصر. وأشد ما أثار انتباهي هو أن لحيته السوداء، بل شديدة السوداء، لا تزال محتفظة بذلك الصبغ الذي اصطبغت به قبل أكثر من ألفي سنة. أيّ صبغ كان هذا؟ لم أجد بين الآثار ذلك الطابوق الذي يشاهده المرء في قصر بابل ولا ذلك الشكل من الصخور التي أنشىء بها قصر الحضر.

بهذه المناسبة أود الإشارة إلى أنني تجولت في معظم مناطق كردستان (في العراق وإيران وتركيا وسوريا) ووجدت في كلها تقريباً كثرة من الأسماء الآشورية (أو السريانية) للقرى وللجبال وللآثار والمعابد القديمة وغيرها. ومن المؤكد أن هذه الأسماء ما كانت لتظهر لولا وجود فلاحين آشوريين عاشوا في هذه القرى لحقبة زمنية طويلة. فهل عاش الأكراد والآشوريون وقتاً ما في وطن مشترك أم أن هذه الظاهرة تعود إلى عهود تسلط الامبراطورية الآشورية أم غير ذلك؟

تسنى لي أن أزور المتاحف الأثرية في ألمانيا وبريطانيا أيضاً. ووجدت هناك من الآثار الآشورية أكثر مما وجدت في العراق نفسه. وأظن أن تلك الآثار لا بد أن تعود ذات يوم إلى أماكنها الأصلية وأن يزورها الألمان والإنكليز وسائر الأوروبيين، الراغبين في مشاهدتها، في هذه الأماكن نفسها.

١٧

انهيار الحركة الكردية المسلحة

كانت الحركة الكردية المسلحة في أوج قوتها. وكان الأمر يبدو لمن ينظر إليه من بعيد وكأن القتال يستمر إلى ما لا نهاية، دون أن تستطيع السلطة إحراز نصر حاسم. لكن الجميع فوجئوا بصورة غير متوقعة، في آذار ١٩٧٥، بانهيار هذه الحركة كما ينهار قصر مشيد من الرمال. كان أمراً غريباً بالطبع أن تنهار بين عشية وضحاها حركة جماهيرية مسلحة التفت حولها الغالبية الساحقة من شعب كردستان العراق، وملكت في أيديها أكثر من مئة ألف مسلح وكميات هائلة من السلاح والعتاد والمال وغير ذلك.

كانت الجماهير الكردية محقة حين أطلقت على هذا الانهيار تسمية (آشبتال) ـ وهي مصطلح كردي تعني الانهيار التام الشامل. فالانهيار كان تاماً في الميدان العسكري والسياسي والمعنوي معاً. وبدأ الناس يعودون من الجبال جماعات ووحدانا إلى المدن ليسلموا أنفسهم وأسلحتهم مكرهين إلى السلطات. وهبطت أسعار الأسلحة حيث أصبح بالإمكان شراء بندقية الكلاشنكوف ببضعة دنانير أو الحصول عليها مجاناً.

أما كيف استقبل النظام البعثي هذه الحشود البشرية المنهارة معنوياً والمستسلمة بخنوع فإن ذلك كان على الطريقة العجيبة التي لا يمكن

تسميتها إلا بـ «الطريقة البعثية ـ الصدامية». فالسلطة منعت حلفائها الشيوعيين من أي تدخل في أمور الأكراد العائدين وحصرت حق التعامل معهم في أجهزتها القمعية وحدها، وأخذت تعتقل وتقتل وتبعد عشرات الألوف إلى المناطق العربية النائية. إن الأكراد العائدين عوملوا بطريقة همجية بعيدة عن التعامل القانوني ـ الحضاري بعد السماء عن الأرض.

أما سبب هذا الانهيار الفجائي الشامل، فإن ذلك ما يمكن أن تختلف حوله الآراء. لكن ما لا يقبل الجدل هو أن الانهيار اقترن مباشرة بعقد اتفاق الجزائر بين صدام وبين شاه إيران، بل إنه كان النتيجة المباشرة لهذا الاتفاق. وبديهي أن الاتفاق كان صفقة مساومة بين الطرفين، حصل من ورائه صدام على النصر الحاسم ـ على الأقل في تلك الفترة ـ وحصل شاه إيران على ما لم يحصل عليه لا في العهد الملكي ولا في عهد قاسم ولا عهد آل عارف ـ حصل على ما أراد في شط العرب وأراضي حدودية أخرى واسعة.

برر صدام في وقت لاحق صفقة المساومة هذه مع الشاه بالادعاء أن الجيش كان يفتقر إلى السلاح والعتاد وكان عاجزاً عن مواصلة القتال ضد المتمردين الأكراد. وأظن أن هذا مجرد ادعاء كاذب، استهدف من ورائه تبرير صفقة المساومة مع حاكم كالشاه. فالسبب الحقيقي، وربما الوحيد، وراء هذه المساومة هو حمل الشاه على قطع العون عن البارزاني.

ومن المؤكد أن هذا الاتفاق، الذي أدى إلى انهيار الحركة الكردية المسلحة، لم يعقد بمعزل عن موافقة ومباركة الأوساط الأمريكية الحاكمة، التي لم تشعر بأنها تخسر شيئاً إذا انهارت الحركة المسلحة في العراق، في وقت كان نظام الحكم في كلا البلدين، إيران والعراق، موالياً لها ومؤتمراً بأمرها.

كان للملا مصطفى البارزاني شخصياً، بوصفه الزعيم الأوحد للحركة الكردية المسلحة آنئذ، دوره الخاص ومسؤوليته الشخصية

المتميزة، بل الأساسية، بقدر ما يتعلق بتحديد موقف الجانب الكردي إزاء ما حدث. فهو كان صاحب الكلمة الحاسمة وكان في مركز يؤهله لأن يقبل أو يرفض ما طبخ ضد الشعب الكردي. وقد قبل، مع شديد الأسف، الاستسلام المذل. فأصبح ـ شاء ذلك أم أبى ـ جزءاً من الصفقة المبرمة التي عززت نظام البعث العفلقي. ذلك لأنه أوقف القتال فور إعلان الاتفاق ونفذ رغبة الشاه وشجع أتباعه على الاستسلام للسلطة، في وقت كان بمستطاعه أن يواصل القتال بما كان في حوزته من رجال ومال وسلاح وعتاد ومن تأييد شعبي كبير. من المؤكد أن عدد مسلحيه كان يتقلص لدرجة كبيرة وأن صعوبات جدية كانت تعترض طريق النضال القومي التحرري للشعب الكردي. غير أن النتيجة كانت تنتهي إلى وضع أفضل وإلى تضحيات أقل بالنسبة للجماهير الكردية. وحتى إذا كان يجد نفسه متعبا وعاجزاً عن مواصلة الكفاح المسلح، بسبب كبر السن والوضع الصحي، فإنه كان قادراً على أن يوجه بياناً إلى الشعب الكردي يستنكر فيه موقف نظام الشاه ويدعو أبناء الشعب إلى تدارس الوضع ومواصلة الكفاح ويعلن أنه مضطر إلى ترك الساحة الساخنة لأسباب اضطرارية. فالانصياع لمشيئة الشاه وللأوساط الغربية في آذار ١٩٧٥ كان أكبر خطأ سياسي وعسكري ارتكبه البارزاني طيلة عمره. وكان خطأ جسيماً لقادة البارتي وكل الحركة القومية الكردية أن التزموا الصمت تجاه ما حدث وخضعوا جميعاً لما قرره أو أوصى به البارزاني. وقد أدرك الكثيرون من هؤلاء خطأهم هذا، ولكن بعد فوات الأوان، بعد مرور سنة أو أكثر على النكسة.

❀ ❀ ❀

وماذا يمكن أن يقال عن موقف ح ش ع من نكسة ١٩٧٥؟

كان هناك إجماع في الرأي لدينا ضد مسار البارزاني والبارتي في الاعتماد على شاه إيران والأوساط الغربية. غير أن الأهداف من وراء ذلك كانت متباينة. فالبعض اتخذ هذا الموقف لكي يؤمن مسيرة «التطور

اللارأسمالي» وتحول صدام التكريتي إلى «كاسترو العراق» فيما استهدف فريق آخر تعزيز الدور المستقل للحزب وتنمية قدراته النضالية وتوثيق صلاته بالشعب الكردي.

ومنذ انتكاسة الحركة الكردية المسلحة في ربيع ١٩٧٥ تبلورت وجهتا نظر مختلفتان في الحزب:

الأولى ـ كانت ترى في هذه الانتكاسة اندحاراً لـ «الجيب العميل» ـ على حد تعبيرهم ـ وانتصاراً تأريخياً للحكم الوطني التقدمي السائر صوب الاشتراكية. كانت هذه وجهة النظر الرسمية لقيادة الحزب، أو غالبيتها. ورغم أني لا أميل إلى الاقتباسات، فإنني أنقل هنا فقرات موجزة من تقرير قدمته هذه القيادة باسم اللجنة المركزية إلى المؤتمر الثالث:

«ويقف في مقدمة منجزات الجبهة وضع قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان وتصفية التمرد اليميني الرجعي فيها» (من تقرير ل.م. ألقاه عزيز محمد أمام المؤتمر الثالث). وكذلك: «إن انهيار التمرد الرجعي المسلح خلق إمكانية موضوعية أفضل لتطبيق الحل السلمي ـ الديمقراطي للمسألة الكردية» (نفس المصدر).

الثانية ـ كانت وجهة الغالبية الساحقة من مسؤولي وكوادر منظمة اقليم كردستان للحزب. وخلاصتها أن انتكاسة الحركة الكردية المسلحة ستتول إلى انتكاسة للحركة الشيوعية ولكل الحركة الوطنية أيضاً إذا لم يبادر ح ش ع إلى اتخاذ موقف سياسي سليم تجاه الوضع المستجد في كردستان ـ المستجد بسبب الانتكاسة.

بعد انهيار الحركة الكردية المسلحة توفرت فرص حقيقية أمام الشيوعين للخروج من عزلتهم الشديدة في كردستان عن طريق استمالة الجماهير الكردية واستعادة ثقتها. كان ذلك ممكناً وسهلاً إلى حد لأن هذه الجماهير قد يئست من القيادة التقليدية البرجوازية ـ العشائرية

وكانت تبحث عن قيادة جديدة تدافع عن حقوقها ومصالحها. يضاف إلى ذلك أن الجماهير الكردية أصبحت في محنة عميقة ومريرة بسبب البطش والتنكيل الدموي البعثي. فكان الدفاع عنها واجباً إنسانياً ووطنياً وطبقياً معاً. وقد انتبهت قيادة منظمة الاقليم، وكنت أحد أعضاء مكتبها، إلى هذه الحقيقة وطالبت بالتحرك وفق متطلبات الظروف المستجدة. لكن القيادة المركزية، وبالأخص الشخصيات الرئيسية ذات القول الفصل أمثال عزيز محمد وزكي خيري وباقر إبراهيم، لم تدرك شيئاً من ذلك. بل كانت تعيش في أوهام التطور اللا رأسمالي والسير صوب الاشتراكية. منذ أولى أيام النكسة أجرينا نحن في مكتب الاقليم مداولات وعقدنا اجتماعاً ثبتنا فيه صيغة التوجيهات والقرارات، التي كانت تتخلص فيما يلي:

- انهيار الحركة الكردية المسلحة يزيد من غرور النظام البعثي ويدفعه نحو تغيير العلاقات مع ح ش ع أيضاً. فالنظام سيجعل من الشيوعيين هدفاً للضربة التالية بعد أن أفلح في توجيه ضربة قاتلة إلى الحركة الكردية المسلحة.

- في أجواء الغرور ونشوة النصر ستتمادى القيادة البعثية في البطش والتنكيل بالجماهير الكردية، بدلاً من الاستجابة لمطالبها المشروعة وتطمين ممارستها للحكم الذاتي الحقيقي.

- ولهذا يتحتم تجدد القتال في كردستان العراق.

- يجب أن نرسم، نحن الشيوعيين، خططنا وشعاراتنا اللاحقة على ضوء الحقائق المار ذكرها وأن ندافع بجرأة عن أهداف وأماني الشعب الكردي كي نستعيد ثقته بنا ونعزز بجميع السبل والأساليب المناسبة، بما في ذلك استخدام العنف ضد السلطة، نضاله التحرري العادل.

قررنا عقد اجتماع طارىء للجنة الاقليم كي تناقش هذه التوجيهات المقترحة وتحدد موقفاً ملموساً. وحضر (٢١) شخصاً في الاجتماع

وجرى نقاش مستفيض صوتت على أثره اللجنة بأغلبية (١٨) شخصاً على مقترحات مكتب الاقليم المشار إليها آنفاً. وعارضها بالكامل عضو مكتب الاقليم يوسف حنا القس وفاتح رسول وتذبذب بين الرأيين عادل سليم وحده. وبعد انتهاء الاجتماع أسرعنا في إرسال المحضر إلى المكتب السياسي للحزب، وطالبنا بدراسة مستعجلة لمقترحاتنا وبعقد اجتماع طارىء للجنة المركزية لدراسة القضية بمجملها.

كنا نبحث فيما بيننا احتمالات اللجوء إلى السلاح ضد السلطة. وكنا نزعم بأن المكتب السياسي سيستجيب لطلبنا. وانطلاقاً من ذلك اتفقت مع القائم بأعمال سكرتير الاقليم سليمان اسطيفان (أبو عامل) - في ظروف غياب مئات من الكلاشنكوفات الجديدة. وأبلغنا عضو مكتب محافظة اربيل ملا بكر لكي يتهيأ للسفر إلى منطقة رواندوز بهدف شراء هذه البنادق وخزنها في مكان مناسب. واستعد الرجل للتنفيذ عند أول إيعاز منا.

ذلكم كان نهجنا في التفكير السياسي، حيث كنا قد شاركنا في القتال ضد البارزاني لا لنكون أداة مسخرة للنظام البعثي ضد الشعب الكردي، إنما لعدم موافقتنا على ما جرى من تسليم مصير الحركة القومية المسلحة إلى الشاه والأوساط الأمريكية - الإسرائيلية. كنا ضد الخضوع لتلك الأوساط وضد الاعتماد الكلي عليها.. في الوقت نفسه لم تكن لنا ثقة بنظام البعث ولم نرد تحويل نكسة الحركة القومية الكردية إلى عامل انتصار واستقرار لهذا النظام. بل أردنا أن نستثمر الوضع المستجد لنصبح أصحاب قوة مسلحة في كردستان قادرين على أن نتصدى لتجاوزات الحكم البعثي وإيقافه عند حده.

أعترف بأني كنت في وهم بالنسبة إلى ما يمكن أن يكون موقف المكتب السياسي من مقترحاتنا. كنت أتصور أن توجهاتنا وقراراتنا ستكون مفهومة ومقبولة لدى المكتب السياسي أيضاً. إلا أنه سرعان ما اتضح وجود فرق جوهري بين تفكير وتصورات الطرفين. فعلى العكس

مما كنا نفكر، كان أعضاء المكتب السياسي ـ مع بعض الفارق بين هذا وذاك منهم ـ فرحين بانتصار السلطة وغاضبين علينا، معتبرين انتصار النظام عسكرياً على التمرد الكردي انتصاراً للشيوعيين أيضا. والشيء الذي لم يفكروا فيه أبداً هو احتمال التصادم مع السلطة وتفكك العقلات الجبهوية. فالطريق الجبهوي، الذي اختطوه، كان فوق كل شيء لأنه كان طريق الوصول إلى الاشتراكية! والحرص على صيانة هذه المسيرة كان أهم قضية بالنسبة إليهم. وأظن أن هذا النمط من التفكير عندهم لم ينشأ بمعزل عن الحياة الهادئة الهانئة ـ بالنسبة إليهم ـ التي تحققت نتيجة قبولهم للتحالف الذيلي.

جاءنا الجواب على محضر اجتماع لجنة الاقليم الطارىء سريعاً. قال لنا المكتب السياسي «عرب وين وطنبوره وين». نقلوني برقياً من دون أي لقاء أو تباحث معي إلى المدرسة الحزبية في بغداد لأكون هناك مجرد محاضر، ربما لأنهم اعتبروني المسؤول الأول عما جرى في الاقليم. ونقلوا أحمد بانيخيلاني إلى بغداد ليقضي شهراً في «إمرة الإدارة» بالمقر العام. وبدأوا يرسلون هذا وذاك إلى أربيل للاجتماع بأعضاء المكتب ولجنة الاقليم ولغسل أدمغتهم «المتخلفة». ولما كانت السلطة الحزبية العليا في أيدي المكتب السياسي، الذي وضع نفسه دوماً فوق اللجنة المركزية للحزب، فإن آراء لجنة الاقليم قد قمعت بقدر من السرعة وبقيت آراء المكتب السياسي تشكل السياسة الرسمية للحزب. ورضي المكتب السياسي بما قررته قيادة البعث من عدم السماح للشيوعيين بالالتقاء مع الأكراد العائدين وبتجاهل دور ح ش ع ودور وزيريه اللذين ظهرا على المسرح السياسي (كخراعتي خضرة) وحسب.

وأمام تشديد القمع والإرهاب الدموي بحق الجماهير الكردية، وأمام هدم مئات القرى الكردية وتهجير سكانها إلى المنافي خارج كردستان، وأمام إزهاق أرواح أعداد كبيرة من الأكراد الأبرياء غير المسلحين، وأمام... وأمام... الخ، فإن المكتب السياسي التزم

الصمت التام تجاه كل ذلك، أو اكتفى ـ بعد أشهر من المناقشات ـ بهمسات أو بتقديم رسالة سرية إلى صدام لتذكره بأن ما يجري تنفيذه بحق الشعب الكردي لا ينسجم مع مصالح الحكم الوطني التقدمي!

في تموز ١٩٧٣، يوم أبرم ميثاق الجبهة، كنا نحن المعارضين للتحالف الذيلي نسبة كبيرة من أعضاء القيادة كما أسبقت. لكن عددنا استمر ينخفض تدريجياً وبإطراد. وكان منا من عارض أول الأمر ثم عاد ملكياً أكثر من الملك نفسه ـ كما أسبقت.

❀ ❀ ❀

بانتقالي إلى المدرسة الحزبية في بغداد انقطعت عن متابعة النهج المتبع من قبل قيادة الحزب في كردستان. وكان الجميع على علم بأني غير موافق على ما يجري هناك وعلى خط الحزب السياسي العام. وكان مدير المدرسة خضير عباس السماوي، الذي تعرفت عليه في سجن نقرة سلمان عام ١٩٥٥، وكان من لاعبي الفريق الأول لكرة القدم في السجن، كما كان قد اعتقل أثناء انقلاب ١٩٦٣ الفاشي، وقيل إنه وقف موقفاً ضعيفاً. وهو لم يكن إنساناً سيئاً على أي حال، رغم أنه لم يكن قادراً على إلقاء المحاضرات حول أي من المواضيع الرئيسية في المدرسة.

أبديت استعدادي لتدريس المادة التي تعهد إلي بين المواد الأساسية رغم أنني اعتبرت نفسي دوماً ملماً بقضايا التنظيم وبناء الحزب أكثر من غيرها. فعهد إلي بمادة تأريخ الحركة العمالية والشيوعية العالمية، مع محاضرات معدودة حول بناء الحزب. وكان زملائي في التدريس الشيوعي الكلداني گورگيس المحاضر في الاقتصاد السياسي، الذي رضي عن أسلوبه الطلاب، وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة نمير العاني الذي لم يرض عن أسلوبه الطلاب أبداً. وكان يستقدم آخرون لإلقاء محاضرات حول قضايا معينة سياسية أو اقتصادية أو غيرها.

قبلت على مضض أن أكون محاضراً في المدرسة ولم أكن راغباً في تسلم أية مهمة حزبية ـ بسبب عدم موافقتي على خط الحزب السياسي المتبع ـ كما لم ترغب القيادة في إسناد أي مهمة أخرى إلي. لكنني أعترف، وألوم نفسي على ذلك، لأنني لم أفكر في تلك الفترة في الانفصال عن تلك القيادة ولم أنتبه إلى أنه يجب أن أنفصل منذ ذلك الحين عن ذلك الحزب أو عن تلك القيادة. كنت أسير النصية والجمود العقائدي والتقاليد الخاطئة، التي تربينا عليها في ح ش ع لفترة طويلة ـ وهي أن المشاكل يجب أن تحل داخل الحزب نفسه ولا يجوز إيصال الصراعات إلى حد الانشقاق.

❀ ❀ ❀

بعكس ما فكرنا نحن في منظمة الاقليم حين قررنا استغلال هبوط أسعار الأسلحة لشراء المزيد منها، فإن المكتب السياسي كان قد قرر في ١٩٧٥ ليس فقط إعادة الأسلحة المستلمة من السلطة نفسها، بل كذلك تسليم قطع الأسلحة الخاصة بالحزب والتي غنمت بدماء شهدائنا وبنضال مقاتلينا. وقد سلمت هذه الأخيرة فعلاً رغم معارضة الجميع أو الغالبية الساحقة من الكوادر. وقام عضو المكتب السياسي كريم أحمد (الذي أصبح في عهد التحالف مع البعث ملكياً أكثر من الملك) بجولات وعقد لقاءات مع الكوادر الحزبية والعسكرية للتأكيد على وجوب تنفيذ قرار المكتب السياسي بتسليم الأسلحة كاملة ودون إخفاء أي شيء منها. وقال بلهجة حازمة أمام مسؤولي قاعدتنا في قره داغ:

ـ يجب تسليم كل شيء ولا نقبل إخفاء طلقة واحدة. وسوف لن ندافع عن أي شيوعي إذا سجن وأعدم بسبب عثور السلطات على طلقة واحدة عنده. هذا هو قرار الحزب.

كان تسليم الأسلحة إلى السلطة البعثية قائماً على افتراض أن التحالف مع البعث استراتيجي ومصيري وأبدي وعلىٰ استبعاد أي تغيير

في سياسة ح ش ع وأي افتراق عن حليفه البعثي. وكان هذا الافتراض قائماً على الأوهام بعيداً عن أي نظرة علمية وتأريخية إلى الأحداث.

❀ ❀ ❀

في أيار ١٩٧٥ غادرت بغداد بصحبة صديقي عبد إلى بلدة دربنديخان كي نذهب من هناك، بصحبة آمر تشكيلتنا المسلحة في قاطع دربنديخان ملا علي والفلاح الفدائي الشيوعي قادر الحاج محمد والفدائي المولع بالصيد كريم عبه ريوي وآخرين إلى قويي قره داغ. كان الربيع رائعاً وتمتعنا بنزهة بديعة خلال الأيام الأربعة التي قضيناها في قويي. قبل دخولنا قويي انزلقت رجل صديقي البغدادي مما سبب لها الفسخ وخلق له ولنا متاعب في السفرة. في اليوم التالي عالجه فلاح مستطرق بطريقة بدائية ناجحة: حفرة صغيرة وضع فيها الرجل المفسوخة بالشكل المناسب وسدد لها ضربة خاطفة من رجله أعادت العظم المنحرف إلى مكانه. ولم يلبث أن استعاد الرجل نشاطه الطبيعي.

كان ملا علي، المولع بالشرب لحد الإفراط، رغم أنه لا يسكر، يرتب الوليمة مساء كل يوم ويضع قنينة العرق فوق السفرة ويصب القدح الأول لقادر. وما أن يتناوله الأخير حتى يسكر ويفقد ثلثي وعيه ويبدأ بإعادة سرد قصة حياته، بالأحرى سرد الأحداث الغريبة ـ العجيبة وغير الطبيعية في حياته، بما في ذلك مغامراته الجنسية مع بعض الفلاحات ومع ضابط سيء الأخلاق في الجيش حين كان هو جندياً مكلفاً، ومغامراته في السرقة ـ قبل أن يصبح شيوعياً ـ بما في ذلك سرقة لوكس مشعول في الليل أحاط به عدد من الرجال. وكانت مشكلة قادر، بعد خطفه للوكس والانطلاق هارباً، وقد لاحقه أصحابه، أنه لم يعرف إطفاءه. كنت أشارك في هذه الأمسيات، بما فيها من ضحك ومرح، دون أن أشارك في تناول المشروبات. وسجلت ذات مساء جميع ما تفوه به قادر، وهو مخمور، على شريط الكاسيت. وأسمعته إياه في اليوم التالي، حين كان صاحياً اعتيادياً. وزعمت بأن ذلك قد يحمله على

الكف عن الشرب وعن ترديد هذه الأحاديث. لكن محاولتي باءت بالفشل الذريع إذ قال قادر:

ـ إني بحت بكل هذه الأسرار ألف مرة وليس لدي ما أضيفه إليها.. فلماذا الخوف إذن، ومم أحذر؟ ولماذا أحرم نفسي من هذا المشروب البديع؟

في نزهتنا تلك لم نشبع فقط من اللحوم، بل كذلك من الفطر البري اللذيذ، الذي كان شباننا يجمعونه في الغابة يومياً. وكنا نشويه على جمرات أشجار البلوط التي خلقها الله كأفضل ما يشوى عليها اللحم والفطر.

❀ ❀ ❀

قبل انتقالي من أربيل إلى بغداد كنت أسافر أحياناً بصحبة سليمان اسطيفان وكانت مسألة السرعة في سياقة السيارة نقطة خلاف دائمية بيننا إذ كان من أنصار المزيد من السرعة، بعكسي أنا، حيث كنت أعارضه وأرى في تصعيد السرعة مصدراً للبلايا. وانتهيت إلى قرار بتجنب السفر في السيارة التي يسوقها هو. وحين كنت محاضراً في المدرسة الحزبية ببغداد وصلني ذات يوم خبر مؤسف مفاده أن إحدى سيارات لجنة الاقليم قد اصطدمت قرب داقوق بسيارة أخرى وتوفي على أثر ذلك سائقنا الشيوعي صابر وزوجة سليمان فيما انكسرت عظام فخذ الأخير نفسه ونقل إلى المستشفى. وحين زرته في مستشفى مدينة الطب ببغداد تذكر مناقشاتنا السابقة المتكررة وحاول تبرير موقفه قائلاً:

ـ لم أكن أنا السائق في السيارة يا أبا سلام.

لم أجد من المناسب أن أقول له، وهو في تلك المحنة، بأنه كان يشجع السائق دوماً على المزيد من السرعة، وبالتالي فإنه يتحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية هذا الحادث المأساوي.

عندما تزوجت عائدة ياسين في ١٩٦٧ لم أملك ولم أشتر أي شيء من أثاث البيت. وبقينا على هذه الحالة حتى ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، حيث أصبحت لأول مرة في حياتي صاحب مبلغ يمكنني من شراء الأثاث، بعد أن طبعت كتابي (أيام صعبة) و (على ضفاف الهور) اللذين حصلت منهما على مبلغ جيد من النقود إذ بيع من كل منهما (١٥) ألف نسخة ـ وهو رقم قياسي لمبيعات الكتاب العراقي حتى ذلك الحين. وقد ناولت زوجتي ألف دينار لأعوض لها ما حرمت منها عند زواجنا من شراء الأثاث. وقلت لها بحنان:

ـ خذي يا حبيبتي واذهبي إلى السوق واشتري كل ما تريدين من الأثاث البيتية.

ذهبت واشترت ثلاجة ومجمدة وغسالة وتلفزيون وسجادتين ومروحة جيدة.. الخ. كما اشترينا أيضاً سيارة أوپل قديمة موديل ٩٥٧ بمبلغ (٦٠٠) دينار ثم بدلناها بسيارة (فوكس واگن) بمبلغ أكبر. وهكذا أصبحت، لأول مرة في حياتي، صاحب سيارة شخصية. وأتاح ذلك لي الفرصة لإشباع هوايتي بزيارة ما لم أره سابقاً من الآثار والأماكن السياحية. زرت قصر الأخيضر في (عين تمر) كما زرت بحيرات الرزازة والحبانية والثرثار وآثار عقر قوف. وزرت كذلك المبنى الذي كان قد أنشىء في حينه للملا مصطفى البارزاني في قرية (ديلمان) بسفح جبل قنديل (أو سكرى سكران).

على أن إحدى هذه الزيارات لبحيرة الثرثار كلفتنا غالياً جداً. فقد ذهبنا نحن مع فراس الحمداني وعائلته، في نزهة عائلية إلى البحيرة. كانت معنا أخت زوجتي إنعام ياسين البالغة من العمر ١٨ سنة. فور وصولنا إلى هناك فرضوا علينا استئجار كابينه سياحية لم يتوفر فيها شيء من الخدمات، لا الماء ولا الكهرباء ولا التبريد.. الخ. كما لم يوفروا شيئاً من الخدمات العامة ومن وسائل الصيانة والإنقاذ من الغرق للزوار والسواح. وفيما كنت ذاهباً، بعد وصولنا بدقائق، للتفرج على قسم آخر

مجاور من ساحل البحيرة والكابينات جاءني ابني الطفل علاوي راكضاً باكياً ليقول:

ـ بابا! غرقت خالتي إنعام.

عدت راكضاً ووصلت متأخراً. كانت الفتاة قد لقيت حتفها، وهي ممدودة على أرض الساحل جثة هامدة، يحيط بها جمع من الناس ويحاول أحدهم إسعافها بالتنفس الاصطناعي وبامتصاص الماء من بطنها. لم يكن هناك أي أمل باستعادة الحياة إليها. وكانت زميلتها، ابنة فراس البالغة من العمر ١٦ سنة، قد غرقت وغطست إلى قعر المياه ولم يعثر بعد على جثتها. وأثار حنقي أن غرقت الفتاتان على مرأى من عشرات المتفرجين وبصورة تدريجية، بسبب تدفق الهواء من مطاط منفوخ أمسكت به إحداهما. وقد صرخت زوجتي عائدة وزوجة فراس نوال ناجي يوسف صرخة الاستنجاد بالناس حواليهما. ولم يكن هناك من مستجيب. أخذت عائدة جثة أختها إلى المدينة فيما بقيت أنا منتظراً أكثر من ساعتين حتى طفت جثة الغريقة الثانية على الماء بعيداً عن الضفة بحوالي (٣٠٠) متر نتيجة الدفع من الأمواج القوية. سبحت نحوها وجلبتها ليستلمها مني على الساحل الشاب أبو حسن صديق فراس. وقد ترك هذا الحادث تأثيره الشديد علي ولم أستطع بعدئذ زيارة تلك البحيرة اللعينة. ورافقت لأول مرة في حياتي، جنازة إلى النجف لتدفن هناك وفق المراسيم الجعفرية المألوفة التي تسبب متاعب كثيرة ومصروفات مادية كبيرة لمن يموت له شخص.

❀ ❀ ❀

رغبت في أن أشاهد ولو لمرة المواكب في أربعينية الحسين، التي تقام سنوياً في مدينة كربلاء. فسافرت إلى هناك ووقفت مع بعض الرفاق على أحد الأسطح وتفرجت على المواكب المتعاقبة من أولها إلى آخرها. كان موكب عزاء العباسيات، الذي عرف بأنه موكب الشيوعيين

في كربلاء، أكبر مواكب العزاء وأحسنها تنظيماً. وكان اللطم، الذي بدا لي سخيفاً، هو السائد في جميع المواكب. تساءلت عما إذا كان هناك داع ومبرر معقول لمثل هذا اللطم الجماهيري الواسع بعد انقضاء ما يقارب (١٤٠٠) سنة على مقتل الحسين، أم أن ذلك شيء أوجده ويشجعه بعض رجال الدين الجعفريين من أجل تطمين مصالحهم الخاصة، أم أنها مناسبة يعبر فيها بسطاء الناس المضطهدون عما في أعماقهم من آلام مكبوتة بسبب الظلم السياسي ـ الاجتماعي الواقع عليهم.. الخ؟

في اليوم التالي تفرجت في الكوفة على التمثيلية التقليدية التي تسمى «تشابيه» وهي تصور جانباً من المعركة التي قتل فيها حسين أثناء القتال مع مسلحي يزيد ابن معاوية.

عندما عدت إلى بيتي في بغداد رويت مشاهداتي تلك لزوجتي الجعفرية عائدة وشعرت أنها تستمع بقدر من التعاطف مع حسين، رغم أنها كانت شيوعية متقدمة ومتحررة من الأوهام والخرافات. كنا في تلك الأيام ساكنين في منزل الشيوعيين المتقدمين هادي حسن وزوجته، اللتين ربطتنا بهما علاقات حزبية وشخصية وثيقة.

مؤتمر الحزب الثالث

كانت المؤتمرات قليلة أو نادرة في حياة ح ش ع. ولهذا كان المؤتمر على الدوام حدثاً هاماً بالنسبة للشيوعيين العراقيين. وقد عقد المؤتمر الثالث للحزب، وهو في السنة الثانية والأربعين من عمره. وتميز هذا المؤتمر بأنه كان أول مؤتمر علني للحزب وعقد في مقر الحزب العام ببغداد. كما أنه كان أكبر مؤتمر له من حيث عدد المندوبين الحاضرين (٣٢٠ مندوباً، حضر منهم ٣٠٠). وعقد تحت خيمة كبيرة نصبت لهذا الغرض في ساحة المقر العام للحزب بحي المسبح.

افتتح زكي خيري بوصفه أكبر المندوبين سناً المؤتمر وشخصت هيئة الرئاسة وبدأت أعمال المؤتمر تحت شعار (من أجل توطيد وتعميق المسيرة الثورية وتوجه العراق نحو الاشتراكية) وكان جدول العمل المطروح عليه عادياً، أي تناول الخط العام للحزب، وتعديل وثائقه الأساسية وانتخاب اللجنة المركزية. تليت في المؤتمر، وسط حماس أعضاء المكتب السياسي وبعض أعضاء اللجنة المركزية، رسالة التهنئة المرسلة من قيادة حزب البعث، وصفق لها طويلاً في وقت كانت الأجهزة القمعية منهمكة منذ أيام في نصب أجهزة التصنت حوالي مبنى المقر ـ حيث المؤتمر ـ لتسجيل ما يجري من إلقاء الكلمات والمناقشات. وتليت كذلك رسالة التحية من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي، التي كانت تبارك وتدعم بقوة سياسية ح ش ع

الذيلية المتبعة تجاه سلطة البعث العفلقي.

بالنسبة إلى الخط السياسي العام للحزب، لم يعقد المؤتمر لكي يناقش مثل هذا الخط وينتهي إلى قرار بإقراره أو رفضه. إنما عقد ليكسبه الصفة الشرعية ومزيداً من القوة. ذلك لأن هذا الخط، الذي يتلخص في إقامة تحالف استراتيجي ـ مصيري مع البعث الحاكم للسير في طريق التطور اللا رأسمالي صوب الاشتراكية، كان قد رسم واتبع منذ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، يوم دخلت قيادة الحزب في الوزارة ويوم وقعت التحالف الجبهوي مع حزب البعث والسلطة بصورة مخالفة لقرارات المؤتمر الثاني للحزب. فالنخبة البيروقراطية القائدة في الحزب كانت تضع نفسها دوماً فوق المؤتمر وفوق اللجنة المركزية، وكانت تريد من الاجتماعات والمؤتمرات إقراراً ما ترغب هي فيه. وكانت تحضر لهذه المؤتمرات بشكل يضمن لها نيل ما أرادت.

وبالنسبة إلى برنامج الحزب، الذي عدل في هذا المؤتمر، فإنه كان أسوأ وثيقة برنامجية صادرة من ح ش ع طيلة تأريخه. فهو جسد الذيلية وصيغ على أساس بناء الآمال على تطور نظام برجوازي دكتاتوري فاشي ـ كما كان نظام البعث الصدامي ـ إلى نظام اشتراكي، وتحول جلاد فاشستي أرعن إلى «كاسترو العراق» وبالتالي اندماج الحزبين الشيوعي والبعث في حزب سياسي موحد. وكان الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف هو تعزيز التحالف المعقود مع البعث الحاكم. فالمؤتمر الثالث كان، قبل كل شيء، مؤتمر الجبهة الوطنية. وكان قد ثبت في التقرير الذي ألقاه عزيز محمد باسم اللجنة المركزية وفي صلب البرنامج والنظام الداخلي للحزب مهمة العمل من أجل تعزيز التحالف الجبهوي باعتبارها المهمة المركزية للحزب والحلقة الرئيسية بين مهماته المرحلية.

ويجدر بالذكر أن هذا المؤتمر لم يعقد في بداية العهد الجبهوي مع البعث الحاكم. أقصد أنه لم يعقد في الوقت الذي كان يصعب معه التنبؤ بما سيؤول إليه مصير التحالف الجبهوي المبرم، إنما عقد بعد

انقضاء سنوات ثلاث على عقد الجبهة وفي وقت كانت القيادة البعثية قد أعطت الأدلة القاطعة على أنها لم تكن جدية أبداً في التحالف الستراتيجي المزعوم ولم تستهدف من عقد الجبهة سوى توطيد أقدامها وتهيئة مقومات الانفراد بالحكم والتخلص في اللحظة المناسبة من الشيوعيين أيضاً ـ كما تخلصت من قبل، موقتاً، من الحركة الكردية المسلحة.

وحتى في النظام الداخلي للحزب حشرت مراراً وتكراراً كلمات «الجبهة الوطنية والقومية التقدمية» للتأكيد على أن ح ش ع حريص على التحالف ومهتم بتعزيزه.

ألقيت أمام المؤتمر خطاباً موجزاً وشاملاً كنت قد هيأته بعناية. رفضت في هذا الخطاب فكرة التطور اللا رأسمالي، التي بني عليها كامل الخط الستراتيجي للحزب. ورفضت فكرة أن تكون مهمة تعزيز التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم هي المهمة المركزية بين مهام الحزب السياسية، وطالبت بأن تكون المهمة المركزية هي النضال من أجل الديمقراطية السياسية، بدل الجبهة. وأخيراً أشرت بوضوح إلى الخلل الجدي في حياة الحزب الداخلية، وأعني انعدام الديمقراطية الداخلية في الحزب.

نهض زكي خيري، الذي كان قد صوت ضد الجبهة في ١٩٧٣ ثم انقلب على ١٨٠ درجة، ليرد على خطابي. ودافع بحماس عن السياسة الذيلية المرسومة وتهجم على معارضيها وبالتالي أشاد، شاء أم أبى، بالنظام البعثي السائر في «الطريق اللا رأسمالي». رغبت في الرد عليه ومناقشة مغالطاته وطلبت إعطائي فرصة التكلم. وموورست ضغوط علي لكي أمتنع عن الرد حرصاً على تجنب ما يشدد من الصراعات داخل المؤتمر.

كان الكثيرون من بين المندوبين تحت تلك الخيمة يحملون تحفظات جديدة بصدد الوثائق الأساسية والشعارات الستراتيجية

المعروضة على المؤتمر.. إلا أنهم التزموا الصمت واتخذوا موقفاً لا يجمعه جامع مع الحرص على مصلحة الحزب والحركة الثورية ولا مع التمسك بالاستقلالية الفكرية.. تصرفوا جميعاً بما يرضي القيادة البيروقراطية باستثناء مندوبين شذا وتكلما بما لم يرق للنخبة. كان أولهما وأجرأهما أحد مندوبي منظمة العاصمة الشاب الشيوعي نزار ناجي يوسف، الذي رفض من الأساس الطروحات السياسية اليمينية الذيلية سواء في البرنامج أم في الخط السياسي العام. وكان الثاني سكرتير لجنة المنطقة الوسطى حاجي سليمان (أبو سيروان) الذي أعلن أنه يؤدي الأمانة الحزبية المعهودة إليه من كوادر التنظيمات التي يقودها بنقد ورفض الخط السياسي العام المطروح على المؤتمر. ولم أعرف ما إذا كان أبو سيروان نفسه متفقاً مع تلك الكوادر في الرفض أم لا.

كانت النقطة الأخيرة في جدول عمل المؤتمر انتخاب لجنة الحزب المركزية. هيأ المكتب السياسي قائمة بأسماء المرشحين ليعرضها أولاً على اللجنة المركزية المنتهي عهدها ولتعرض بعدئذ على المؤتمر لغرض التصويت. لوحظ أن اسمي كان مشطوباً من قائمة المرشحين لعرضها على المؤتمر، في وقت كان قد أضيف اسم كل من مكرم الطالباني وفخري كريم وبشرى برتو وآخرين ليدخلوا ضمن قوام اللجنة المركزية الجديدة. اعترض البعض على شطب إسمي وجرى النقاش. ودافع باقر إبراهيم عن قرار المكتب السياسي بإبعادي عن القائمة، فقال:

ـ أبو سلام غير موافق على خط الحزب السياسي واستراتيجيته. ولهذا لا يصلح لأن يكون عضواً في الهيئة القيادية المسؤولة عن تنفيذ هذه السياسة.

وأيده كريم أحمد أيضاً غير أنه دافع عن الفكرة بأسلوبه الخاص الذي خدمني به من حيث لم يدر فقال مخاطباً الحاضرين:

ـ الحلقة المركزية بين مهمات الحزب هي الدفاع عن التحالف الجبهوري مع البعث ومن أجل تعزيزه، في حين يعارض أبو سلام ذلك

ويريد أن تكون المهمة المركزية في سياستنا هي الدفاع عن الديمقراطية.

لو أجمع أعضاء المكتب السياسي على إبعادي عن القائمة لتم لهم ذلك. لكن عمر الشيخ وسليمان اسطيفان لم يصوتا لصالح اقتراح المكتب السياسي. فرفض بأغلبية ضئيلة وظللت ضمن القائمة. وأخبرني بعض المندوبين بأن فريقاً من المسؤولين والمثقفين داخل المؤتمر ينشطون في الاتصالات والمحاولات الرامية إلى حمل الآخرين على عدم التصويت لي. ونجحت هذه المحاولات جزئياً إذ حصلت فقط على ثلثي أصوات المندوبين في الانتخاب.

كان علي حيدر ـ وهو كادر من الشبيبة ـ ضمن قائمة مرشحي اللجنة المركزية ليكون عضواً احتياطاً. ورغم أنه لم يكن عنصراً سيئاً، بقدر معلوماتي عنه، فإن رأياً عاماً قد تكون ضده بين مندوبي منظمة العاصمة وأجمع عدد من المندوبين على ترشيح الكادر المسن عمر الياس كبديل عن علي حيدر. وعند فرز الأصوات أخفق علي وانتخب عمر عضواً احتياطاً، رغم أنه كان نموذجاً للجمود والتحجر العقائدي والبيروقراطية ولم يكن لديه ما يمكن اعتباره إيجابياً سوى صموده الطويل في النضال الحزبي ـ السياسي.

عندما طرحت القائمة المهيأة من المكتب السياسي أمام اللجنة المركزية وجدنا فيها أسماء أناس من المثقفين ذوي العيوب والنواقص الجدية أمثال مكرم الطالباني وفخري كريم وبشرى برتو، الذين كانوا أشبه بشيوعيي الصالونات ـ على حد تعبير فهد. فتصدينا، أنا ورفاقاً آخرين، لهذا النمط من تجديد قوام اللجنة المركزية وناضلنا لإدخال عناصر حزبية جهادية من جنود النضال المجهولين. ووقف إلى جانبنا زكي خيري في هذه المسألة. وأمكن التوصل إلى حل توفيقي من حيث بقي من أضافهم المكتب السياسي سابقاً في القائمة وأضيف إليهم العامل عبد الأمير عباس وزوجتي عائدة وأبو زيتون من البصرة وأسعد خضر. وقد انتخبت لجنة مركزية مكونة من (٤٤) عضواً وعضواً احتياطاً ـ وهذا

أكبر عدد لهذه الهيئة في تأريخ ح ش ع كله. وأعتقد أن الكثرة العددية كانت على حساب النوعية وأن عناصر هزيلة وغير جديرة بعضوية هذه الهيئة قد أدخلت إليها كما أن البعض من أعضائها القدامى، الذين فقدوا الأهلية للبقاء فيها، قد أبقي عليهم. والمسؤولون الرئيسيون في الحزب لم يفكروا في تشكيل لجنة مركزية قادرة على مواصلة النضال الحزبي في ظل الإرهاب والصراعات المتوقعة داخل العراق، إنما شكلوا لجنة مركزية تناسب سياسة التحالف الذيلي مع البعث وتجنب الصراعات و «أوجاع الرأس».

بالنسبة إلي شخصياً فإني كنت محاضراً قبل انعقاد المؤتمر وبقيت محاضراً بعده. ولم يكن لي عمل آخر سوى المشاركة في اجتماعات اللجنة المركزية.

❀ ❀ ❀

كانت اجتماعات اللجنة المركزية، قبل المؤتمر وبعده، تعقد دوماً في إحدى غرف المقر العام للحزب. وكان الجميع، بمن فيهم أعضاء المكتب السياسي للحزب، على علم بأن أجهزة السلطة الحليفة نصبت أجهزة للتصنت حوالى المقر (وكذلك حوالى مقر منظمة بغداد) وحاولت إدخال بعض الأجهزة إلى سماعات التلفون في غرف المقر. وكان الأمن العام قد حصل على مبان أو شقق مجاورة للمقرين بغية تدبير التصنت وتصوير الخارجين والداخلين. وكان الانطباع السائد بيننا هو أن «الحليف البعثي» يسمع ويسجل الكثير من الأحاديث والمناقشات الدائرة في غرف المقر. وقد رسخ هذا الانطباع ما قاله نعيم حداد ذات مرة ومن دون مناسبة في لقاء له مع رفاقنا:

ـ لن يفيدكم أن تضعوا الراديوات بجانب تلفوناتكم الموجودة في غرف المقر.

معنى هذا الكلام أن سماعات التلفون في غرفنا قد حوت مرسلات

صغيرة مخفية لنقل ما يدور من الحديث في الغرفة، وأن وضع الترانسترات وتشغيلها بجانب تلك السماعات كان يفسد على هؤلاء خطتهم في التصنت.

ولتجنب وصول الأحاديث والمناقشات إلى السلطة البعثية، عن طريق أجهزة التصنت هذه، تكررت المطالبة بعقد اجتماعات اللجنة المركزية في بيوت بعض الرفاق بعيداً عن المقر العام. غير أن المكتب السياسي كان يرفض هذه المطالبة ويصر على عقد الاجتماعات في مبنى المقر العام وحده. وفي أحد الاجتماعات انطلق عضو اللجنة المركزية سليم إسماعيل يسترسل في الحديث عن تصرفات السلطات البعثية وجرائمها بحق الشعب والشيوعيين. فأسكته عزيز محمد وقال له:

ـ إن للحائط أذناً.

وكان يقصد بذلك أن البعثيين يسمعون ما تقول.

كانت هناك حرية الإشادة بالتحالف الجبهوي، ولم تكن حرية النقد والفضح لجرائم النظام حتى ولو كان داخل اجتماعات اللجنة المركزية.

❀ ❀ ❀

كانت سياسة التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم سياسة سلسلة من التنازلات امتدت لسبع سنوات وانتهت بكارثة حقيقية للحزب الشيوعي. وكان من العلامات البارزة في هذه التنازلات أن قرر المكتب السياسي، بعيد انهيار الحركة الكردية المسلحة، تحريم النشاط الشيوعي في صفوف القوات المسلحة. وقد صيغ هذا القرار وطبع لترسل النسخة الأولى منها إلى صدام التكريتي تأكيداً له على أن ح ش ع يعمل كل ما يرضيه لوضع القرار فور صدوره موضع التنفيذ. وبذلك تخلى ح ش ع عن أي تفكير ـ مجرد التفكير ـ في اللجوء إلى العنف ضد نظام دكتاتوري فاشي معتمد كلياً على العنف.

هنا أجدني مضطراً إلى التذكير بالماضي، بعام ١٩٦٠، يوم كان

عزيز محمد عضواً في المكتب السياسي واقترح حل تنظيمات ح ش ع في الجيش بهدف ترضية عبد الكريم قاسم ـ أسبقت الحديث عن ذلك. وها هو اليوم قد طبق، بعد أن أصبح سكرتيراً للحزب، ما لم يتسن له تطبيقه أيام عبد الكريم قاسم.

والتنازل الآخر الأكثر خطورة كان إقدام المكتب السياسي على تجميد ـ عملياً حل ـ المنظمات الديمقراطية الجماهيرية (اتحاد الطلبة العراقي العام واتحاد الشبيبة الديمقراطية العراقي ورابطة المرأة) والتخلي عن مقاعدها في المنظمات الدولية لحساب المنظمات التابعة للبعث الحاكم. وكانت هذه المنظمات جماهيرية وذات تأريخ نضالي مجيد وتقاليد عريقة. وفشلت محاولات السلطة كلها في القضاء عليها عن طريق الإرهاب والقمع. لكن قيادة ح ش ع حققت بجرة قلم ما لم يتحقق للسلطة بأساليب أخرى. ويجدر بالذكر أن قرار التجميد (أو الحل) اتخذ ونفذ دونما أي اعتبار لإرادة ورغبات الشبيبة، التي كانت تؤلف عضوية هذه المنظمات. وبحل هذه المنظمات جردت القيادة ح ش ع من أهم جسور الصلة مع الجماهير. وقد أجاد زكي خيري حين قال، في أحد اجتماعات اللجنة العليا للجبهة، أو في مناسبة أخرى:

ـ نحن حرقنا الجسور وأصبحنا مثل طارق ابن زياد، ولا رجعة لنا عن التحالف الجبهوي.

❀ ❀ ❀

في صيف ١٩٧٧ منحت لنا، أنا وعائدة، للمرة الثانية في حياتنا الزوجية فرصة السفر إلى بولونيا لغرض الراحة. كنا ضيوفاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني وعشنا بين ضيوف فرنسيين وطليان وكوبيين وفنلنديين وغيرهم. قضينا أياماً في مكان بديع بجبال تاترا وزرنا معسكر اعتقال رهيب كان الهتلريون قد أقاموه هناك خلال الحرب العالمية الثانية. رأينا في ركن من إحدى القاعات أكداساً ضخمة من

شعر وأحذية الضحايا، من النساء والأطفال. وزرنا قرية أثرية حولت إلى متحف يعود تأريخها إلى ما قبل (٣٥٠) سنة. وبقيت الأبنية الخشبية والأثاث البيتية على حالها الأصلي - أواني طينية وخزفية كانت هي المستعملة في حينه. وزرنا كنيسة في وارشو ساعة الصلاة وساعة عقد قران فتاة على فتى في يوم الأحد. وقد لاحظت النفوذ الكبير للكنيسة والإقبال الشعبي عليها.

وبناءاً على طلبي نظموا لي زيارة إلى المدرسة الحزبية التابعة للجنة المركزية في وارشو. كان مدير المدرسة عضواً في اللجنة المركزية وكانت اللغة المشتركة بيننا هي اللغة الروسية، ولم نكن في حاجة إلى المترجم. بوصفي محاضراً في مدرستنا الحزبية ببغداد استفسرت عن وضع المدرسة وبرامجها وسبل التدريس. ثم تطرقت إلى وضع الحزب الشيوعي البولوني، الحزب الحاكم المنتفخ الهش وقد سألته عن عدد أعضاء الحزب فأجاب:

- للحزب ٢,٦ مليون عضو.

- وهل هذا العدد الضخم يقترن بنوعية جيدة؟

- لا أظن ذلك.

- ألم يكن من الأفضل أن يكون لحزبكم فقط (٦٠٠) ألف عضو ولكن على أساس نوعي جيد؟

لم يجب الرجل بلسانه إنما نهض من مقعده واقترب مني وصافحني بحرارة مشيراً إلى أن ما ذكرته هو الصواب بعينه. بدا لي وكأنه غير راض عن وضع حزبه وقيادته وغير قادر على عمل شيء للإصلاح. وجدت وضعه في الحزب الشيوعي البولوني شبيهاً بوضعي في الحزب الشيوعي العراقي.

في واقع الحال كان الحزب الشيوعي البولوني حزباً سياسياً هشاً هزيلاً بعيداً عن أن يستحق تسمية حزب الطبقة العاملة. وأكثر من ذلك،

فإنه تحول إلى أشبه بحزب الفساد والسرقة والنهب. وقال بعضهم أن گومولكا كان رجلاً نظيفاً جيداً وكان الشيوعي الحقيقي الوحيد الذي تزعم الحزب والدولة في تلك البلاد طوال عشرات السنين الأخيرة. ولم يندر أن يكون الشخص الأول في الحزب والدولة إنساناً سيئاً ومرتشياً وغير مهتم بمشاكل الناس كما كان گيريك. ولهذا تعاقبت الأزمات والانتفاضات العمالية والجماهيرية ضد سلطة الحزب الشيوعي بالذات.

❀ ❀ ❀

كان الوضع السياسي في العراق يزداد تعقيداً وتأزماً وكان الحكم البعثي يواصل ويشدد الإرهاب ضد الشيوعيين أيضاً. وكان الأفق أمام التحالف الجبهوي يضيق ويظلم أكثر فأكثر. فطلبت من سكرتير الحزب عزيز محمد مغادرة الغرفة التي كنا جالسين فيها داخل المقر العام لكي نتمشى قليلاً في ساحة المقر بعيداً عن أجهزة التصنت المحتملة في الغرفة. ومن دون مقدمات طويلة قلت له أن هجوم النظام البعثي على ح ش ع أمر متوقع والهدف تحطيم الحزب، وأن المسألة هي مسألة الوقت وحسب. وعلينا أن نتهيأ منذ اليوم وقبل فوات الأوان لمواجهة مثل هذا الهجوم والذود عن الحزب. وكجزء من التدابير الاحتياطية لمجابهة الهجمة المرتقبة قدمت الاقتراح التالي: أن نؤسس في كردستان فصائل مسلحة خاصة بنا كوسيلة للدفاع عن النفس وكملجأ يتوجه إليه أعضاء وكوادر الحزب في حالة تعرضهم لهجوم السلطة.

وأشرت في سياق العرض إلى أن الكفاح المسلح قد تجدد في كردستان وأن هناك فصائل الاتحاد الوطني الكردستاني والپارتي، وأن هؤلاء سيرحبون بأية فصيلة شيوعية مسلحة ستظهر على الساحة الكردستانية. وكانت إمكانات ح ش ع في تلك الأيام أكثر بأضعاف مضاعفة من إمكانات تلك الفصائل مجتمعة، حيث كانت قد خرجت من نكسة ١٩٧٥ ضعيفة شحيحة الإمكانات.

سألني عزيز: كيف يمكن تشكيل الفصائل المسلحة في كردستان وضد السلطة، ونحن الآن في تحالف جبهوي معها؟ فأجبت موضحاً أن بالإمكان أن نشكلها دون أن يتحمل الحزب مسؤولية ما يحدث. يمكن أن يستقيل من الحزب أربعة من المسؤولين والكوادر الحزبية ويقوموا بهذه المهمة، وتنظيم الصلات بين الحزب وبين هؤلاء المستقيلين بصورة سرية ودقيقة، فيما يقوم الحزب بإدانتهم علناً لغرض إبعاد الشكوك عن نفسه. وأضاف عزيز نفسه قائلاً: أن بالإمكان أن يكون مركز الصلة أو حلقة الوصل في مكان ما خارج العراق.

وأبديت استعدادي لكي أكون شخصياً واحداً من هؤلاء الذين تناط بهم هذه المهمة. إلا أنني عبثاً حاولت إقناع السكرتير بتبني هذه الفكرة. ذلك لأن خشيته من أن ينكشف الأمر ويسيء إلى التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم أقوى من أي شيء. إنه لم يكن يتحسس الخطر مثل ما كنت أنا وأمثالي. ولم يملك الجرأة للإقدام على عمل من هذا القبيل. بل كان أسير فكرة التطور اللا رأسمالي وكان يحسن الظن بالطاغية التكريتي. ولعل بعض ما ورد في محضر اللجنة العليا للجبهة المزعومة كان يكشف بجلاء عما كان يشغل باله، هو سكرتير ح ش ع، في تلك الأيام. فقد قال ـ كما قرأت في المحضر ـ مخاطباً صدام: إننا نتطلع إلى تضييق الخلافات والفوارق بين الحزبين، البعث والشيوعي، إلى حد الاندماج.

وعلى أثر صدور هذا المحضر تجشع الوزير الشيوعي عامر عبد الله على تقديم اقتراح إلى حزب البعث بتشكيل لجنة مشتركة لتوحيد الحزبين، في حين لم يجر بحث شيء من هذا القبيل في أي اجتماع من اجتماعات اللجنة المركزية.

❀ ❀ ❀

في خريف ١٩٧٧ ازددت تشاؤماً مع وضع الحزب ومسلك القيادة

ونشأت لدي، لأول مرة، القناعة بالبحث عن مخرج من المأزق من دون شق صفوف الحزب. فاتحت عضو اللجنة المركزية آرا خجدور، الذي كان يشاطرني العديد من آرائي وتصوراتي، بالموضوع وتناقشنا. وباقتراح منه أشركنا في النقاش صالح دگله، الذي كان قد ترك الحزب وانضم إلى صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش. وكان يقيم في بيروت ويعود أحياناً إلى بغداد بوصفه أحد فدائيي تلك المنظمة. وبعد مداولات مستفيضة استغرقت أياماً أو أسابيع استقر رأينا، في شتاء ١٩٧٨، على أن نؤسس منظمة سياسية جديدة باسم (حزب العمل العراقي) لا تحمل اسم الشيوعية ولا تتبنى برنامج ح ش ع ولا تربط نفسها بأي علاقة مع البعث الحاكم، بل تولد منذ البداية كفصيلة من فصائل المعارضة الموجهة ضد النظام الدكتاتوري الفاشي وتتبنى أسلوب الكفاح المسلح وتقيم علاقات مع الفصائل المسلحة في كردستان العراق. ولكي لا ينكشف أمرنا قبل الأوان ولا نتعرض للإجراءات الحزبية من قبل المكتب السياسي للحزب اتفقنا على نشر البيان التأسيسي ـ الذي كنت قد كتبته وناقشناه سوية ـ في الصحافة البيروتية أولاً، مستفيدين من وجود دگله هناك.

قام دگله بنشر البيان في بيروت ووصلت نسخة إلى قيادة ح ش ع في بغداد وقرأها أعضاء اللجنة المركزية دون أن ينتبه أي منهم إلى وجود علاقة ما لي ولآرا بها. وتجاهلت صحافة الحزب كلياً الحدث وكأن شيئاً لم يكن.

كنا متفقين على كسب حلقة ضيقة من الكوادر الحزبية المتجانسة معنا فكرياً والقادرة على المشاركة في الكفاح المسلح بأمل نقلها لاحقاً إلى كردستان. وكان الشيوعي الآثوري لازار أول من اقتنع بالعمل معنا فقدم الاستقالة من الحزب تمهيداً للخطوة التالية. وكان من المفترض أن يدبر دگله في لبنان مستلزمات البدء بتشكيل أولى الفصائل المسلحة.

على أن التطورات السياسية السريعة في العراق، وبالأخص تدهور

العلاقة بين ح ش ع وبين البعث الحاكم، حملتنا على إعادة النظر فيما كنا قد خططنا له.. ذلك لأن الهجوم البوليسي الواسع على الحزب جعل من انتقال الشيوعيين بأسرهم إلى جبهة المعارضة أمراً وشيكاً.

منذ ١٩٧٧ وأوائل ١٩٧٨ اتسعت الحملة البوليسية تدريجياً ضد ح ش ع إلى درجة لم يعد بإمكان القيادة أن تتجاهله إذ كانت القاعدة الحزبية ساخطة جداً. وفي اجتماع اللجنة المركزية، الذي عقد في آذار ١٩٧٨، ثبتت انتقادات موجهة إلى سياسة السلطة وإجراءاتها القمعية الجارية، طبعاً مع إبداء الحرص الشديد على صيانة المكسب الرئيسي - التحالف - والإصرار على أن المهمة المركزية لا تزال هي هي، أي العمل على تعزيز التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم. لم يكن هناك أي توجه لدى قيادة ح ش ع لإعادة النظر في جوهر الخط السياسي.

وقد استاء المسؤولون البعثيون من نشر هذه الانتقادات في الوثيقة الصادرة عن اجتماع اللجنة المركزية، لأنهم كانوا معتادين من قيادة ح ش ع فقط على الصمت تجاه ما يفعلون من تجاوزات أو على بعض الهمسات في آذانهم دون أن يسمع الناس شيئاً مما حدث. وفي أكثر من لقاء طلب نعيم حداد من ممثل ح ش ع سحب هذه الوثيقة أو ما فيها من انتقادات. غير أن مطالبة الجانب البعثي بسحب هذه الانتقادات لم تقترن قط بالتخفيف من الإرهاب والقمع المسلط على الناس عامة، بمن فيهم الحلفاء الشيوعيون. بل على العكس من ذلك، كانت وتيرة القمع الدموي في تصاعد مستمر حتى وصلت إلى نهايتها المنطقية في عام ١٩٧٨ فتحولت إلى هجوم شامل هادف إلى التحطيم التام للحزب الشيوعي.

١٨

الهجوم على الحزب الشيوعي العراقي وتفكيك الجبهة

في أيار ١٩٧٨ نفذت السلطة البعثية دفعة واحدة حكم الإعدام في (٣١) شخصاً من الشيوعيين أو المتعاطفين معهم. حدث ذلك في وقت كان ح ش ع لا يزال طرفاً في التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم. والأغرب من ذلك أن هذه المجزرة الرهيبة ارتكبت دون أن يكون البلد قد شاهد أي محاولة انقلابية وأي إضراب أو مظاهرة أو قلاقل، ودون أن يكون هناك شيء من التغير في سياسة ح ش ع الجبهوية ودون أن يكون هناك محاكمة قانونية لأي من هؤلاء المعدمين. زعم البعث الحاكم أنه أعدمهم بسبب نشاطهم الرامي إلى تنظيم انقلاب. ولم يقدم أتفه دليل على ذلك، بل كان يعرف أن ح ش ع قد أوقف كل نشاط حزبي في صفوف القوات المسلحة قبل هذه الإعدامات بأكثر من سنتين.

إذن لماذا ارتكاب هذه المجزرة ضد الشيوعيين المرتبطين بالبعث الحاكم في تحالف جبهوي «استراتيجي» والذين كانوا يسيرون وراء النظام البعثي مئة سنة - على حد تعبير الأخ الفلسطيني أبو علي مصطفى - لو تركهم النظام على ما كانوا عليه؟

بديهي أن القضية الرئيسية، التي من أجلها قبلت قيادة ح ش ع بالعديد من الأمور غير المنطقية وقدمت التنازل تلو التنازل، كانت قضية التحالف الجبهوي مع حزب البعث الحاكم. والطرف الرئيسي الآخر في هذا التحالف كانت القيادة البعثية نفسها. ولهذا أتطرق بإيجاز إلى تلك القضيتين ـ التحالف وحزب البعث.

الجبهة الوطنية والقومية التقدمية ـ ماذا كانت حصيلتها بعد انقضاء سنوات على عقدها؟

ولدت الجبهة منذ البداية كسيحة وظلت طيلة عمرها كسيحة. ولم ينشأ لها وجود حقيقي جماهيرياً ولم تقدم للشعب والوطن ما يمكن اعتباره مكسباً حقيقياً سياسياً أو اقتصادياً ـ فالحريات السياسية لم توفر للناس وللأحزاب، بما في ذلك ح ش ع نفسه، والإرهاب البوليسي لم ينقطع والسلطة البعثية لم تكف عن نهج احتكار كل شيء لنفسه.. ولم يحدث من التطورات الاقتصادية في البلاد ومن معيشة أبناء الشعب ما يمكن القول أنه كان نتاج عمل الجبهة. والجانب البعثي نفسه لم يقم يوماً وزناً حقيقياً لهذه الجبهة. إنما نظر إليها كواجهة للدعاية ولتزيين الوجه الدكتاتوري القبيح للنظام، خصوصاً خارج العراق، وكغطاء لستر الإرهاب والإجرام بحق الجماهير.

أما بالنسبة إلى قيادة ح ش ع فإن التحالف الجبهوي مع البعث الحاكم أصبح هو الوسيلة وهو الغاية. فالقضية المركزية في سياسة ح ش ع، بقيادة عزيز محمد وبعض زملائه، كانت قضية الحفاظ على التحالف وتعزيزه وحسب. وهذه المهمة كانت مستحيلة المنال لأن الكرة كانت في ملعب الطرف الآخر غير المكترث أصلاً للجبهة. كانت القيادة البعثية تتجاهل الجبهة والشيوعيين فتقرر دوماً ما يحلو لها. وفي بعض الأحيان كانت تتجاهل الشيوعيين وتستخدم اسم الجبهة فتصدر هي نفسها البيانات والبرقيات المذيلة بتوقيع لجنة الجبهة في المحافظة الفلانية لتأييد النظام أو بعض إجراءاته. وكانت قيادة ح ش ع تكتفي بعدم نشر تلك البيانات

والبرقيات في جريدتها، بدلاً من تقديم مذكرات الاحتجاج العلنية ونشرها في صحافة الحزب. وغالباً ما كانت القضية الرئيسية لدى ح ش ع في العمل الجبهوي، سواء على الصعيد القيادي أو على صعيد المناطق والمحافظات، هي قضية إقناع الحليف البعثي بالموافقة على عقد اجتماع للجنة العليا أو لجنة المحافظة الفلانية. كانت قيادة ح ش ع تعتبر عقد أي اجتماع للجنة الجبهة (مجرد الاجتماع) انتصاراً للعمل الجبهوي وحدثاً هاماً مما تبرزه صحيفة ح ش ع، هذا، مع العلم أن نقاط البحث في معظم هذه الاجتماعات كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الشكاوى المريرة يقدمها ممثلو ح ش ع إلى حليفهم البعثي حول اعتقال السلطات لهذا الرفيق الشيوعي والتنكيل بذاك وفصل ذاك.. وكانت النتيجة، بعد تقديم الشكاوى، تصاعد وتيرة الملاحقات.

هكذا كانت حصيلة العمل الجبهوي بالنسبة إلينا، نحن الشيوعيين، خلال سني ١٩٧٣ ـ ١٩٧٨. وهكذا كانت بالنسبة إلى الجماهير الشعبية. فلماذا رضيت قيادة ح ش ع بهذا النمط من التحالف الجبهوي المزعوم؟ ولماذا اعتبرت العمل على تعزيزها مهمة مركزية في سياستها حتى بعد إعدام ٣١ شيوعياً وديمقراطياً؟

أنا أرفض تفسير هذه الظاهرة بمجرد وجود عقلية يمينية ذيلية، بمعزل عن الأمور أو الامتيازات الشخصية. فالرهان على هذه الجبهة الكسيحة والإصرار على الارتباط بها كزواج كاثوليكي لم يكن مجرد تقديرات سياسية خاطئة للأمور، بل كان وراءها أيضاً الحرص على تلك الحياة الهادئة الهانئة، التي حصل عليها البعض من وراء هذا التحالف. سأوضح أكثر:

❀ ❀ ❀

لم يشهد العراق قط فترة من حياة الحرية والديمقراطية والاستقرار. فهو كان بلاد العنف والصراعات الدموية منذ عهد نبوخذ

نصر ومروراً بقتل ابن بنت النبي (الحسين) وبطغيان حجاج الثقفي وبهولاكو وجلادي الامبراطورية العثمانية وبأمثال نوري السعيد.. الخ. ومنذ نشوء ح ش ع في الثلاثينات نشأ معه قانون مكافحة الشيوعية واستمرت الملاحقات بحق الشيوعيين العراقيين أكثر من غيرهم. في العهد الملكي ركز الإرهاب بالدرجة الأساسية ضد قادة الحزب وكوادره. ففي ١٩٤٧ كان سكرتير الحزب يوسف سلمان (فهد) أول شيوعي عراقي يصدر بحقه حكم بالإعدام في هذا البلد ـ ثم استبدل بالسجن المؤبد. وفي ١٩٤٩ كان أبرز قادة الحزب فهد وزكي بسيم وحسين الشبيبي أول كوكبة شيوعية أعدمها النظام الملكي. وفي ١٩٦٣ ركز الحكم البعثي الفاشي حملة الإبادة ضد قادة وكوادر ح ش ع بالدرجة الأساسية. فأعدم وقتل سكرتيره سلام عادل ونخبة واسعة من قادته وكوادره أمثال أبو العيس والعبللي والحيدري وعبد الرحيم شريف ونافع يونس وصبيح سباهي وحسن عوينه والياس حنا وعلي الوتار.. الخ.

أما في ظل السياسة الجديدة، الجبهوية، لقيادة البعث الصدامي تجاه الشيوعيين فإن طاحونة الإرهاب كانت تطحن ـ على الأقل في فترة التحالف الجبهوي ـ أعضاء الحزب وكوادره الوسطية. في حين ترك القادة ليعيشوا في نوع من الهدوء والاستقرار في بيوتهم ولينتقلوا بين دورهم وبين المقرات العلنية وبيوت الأصدقاء بقدر من الحرية وليملكوا جوازات سفر قانونية ـ بدلاً من الجوازات المزورة والسفرات السرية، كما كان في السابق ـ ويسافروا من مطار بغداد مرة إلى أوروبا وأخرى إلى منطقة أخرى، وليقيموا الحفلات والأمسيات في المقرات يتخللها الشرب والرقص والغناء.. وبالتالي ليعتادوا على تمشية الأمور الحزبية، في عراق الإرهاب والتنكيل الدموي، جالسين وراء المكاتب ومستعملين التلفونات.. الخ.

طبعاً هذه الامتيازات المشار إليها لا تشكل شيئاً بالمقارنة مع

امتيازات البعثيين أنفسهم. وهي ليست سوى أمور اعتيادية بسيطة ومشروعة بالنسبة لكل امرىء، سياسياً كان أم غير سياسي، في بلدان تسودها الديمقراطية والحضارة. لكن الحديث هنا يدور حول العراق، هذا البلد المتخلف المبتلى بتسلط دكتاتور فاشي لم يشهد أي بلداً آخر مثيله من حيث الهمجية والبطش. إن هذه الرشاوي التافهة، المقرونة بتشديد الإرهاب ضد القاعدة الحزبية والكوادر الوسطية مع ترك القادة أحراراً، قدمت وفق تخطيط مدروس ولأغراض محددة. وقد كان لها ثمن غال في سنوات ٧٢ ـ ١٩٧٩: إحساس القادة بأن التمسك بالتحالف الذيلي معناه الحفاظ على امتيازاتهم الشخصية، وترويضهم لكي يتقبلوا الإذلال السياسي ويلتزموا الصمت إزاء التنكيل برفاقهم وبسائر معارضي النظام... فالتحالف يظل بخير ما دامت الحياة الهادئة للنخبة القائدة بخير وهدوء..

وحول حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي ابتلي به العراق لسنوات طويلة، لا بد لي أن أقول شيئاً. حمل هذا الحزب منذ أن شكله ميشيل عفلق في سوريا عام ١٩٤٧ أمراضا فكرية خطيرة. وأصيب التنظيم البعثي العراقي، الذي ظهر في الخمسينات، بنفس تلك الأمراض. بيد أن بعث العهد الملكي، على أي حال، غير بعث السبعينات والثمانينات. يتراءى لي أن سلسلة من التغيرات طرأت على هذا الحزب من حيث نهجه الفكري ـ السياسي إذ كان يستهدف القضاء على السيطرة الاستعمارية في البلاد، شأنه كسائر الأحزاب الوطنية. وكذلك من حيث تركيبه التنظيمي العام. وتجلى ذلك في كون سكرتيره جعفرياً من محافظة الناصرية وكوادره من شتى المدن العراقية. وقد وجد لنفسه مكاناً في صفوف جبهة الاتحاد الوطني التي شكلت في شباط ١٩٥٧.

وبعد انتصار ثورة تموز ١٩٥٨، حيث استولت فئات جديدة من البرجوازية الوطنية على السلطة، غير حزب البعث نهجه السياسي وأصبح

يعتمد على المؤامرات والدسائس كوسيلة للوصول إلى الحكم. ولما كانت السلطة في العراق وقفاً على الطائفة السنية العربية، بالدرجة الأولى، خلال العهد الملكي وبعده، فإن حزب البعث سار خطوة في تغيير تركيبه التنظيمي، سيما على الصعيد القيادي، لكي يصبح تحت سيطرة فئة قومية من السنة العرب. وعند نجاح ردة شباط ١٩٦٣ الفاشية، حيث أصبح البعث القوة الرئيسية في السلطة، بقي زمام الحكم في أيدي السنة، الذين يشكلون أقلية من سكان العراق، وكذلك أقلية من الشعب العربي في العراق.

وفي أعقاب عودة هذا الحزب إلى الحكم في تموز ١٩٦٨ انتقل إلى مرحلة جديدة من حيث نهجه الفكري ـ السياسي والتنظيمي. ذلك لأنه لم يعد مجرد حزب قومي خاضع لسيطرة العناصر السنية من العرب، بل أخذ يتحول بخطوات مطردة إلى حزب خاضع لسيطرة طائفية ـ عشائرية، حزب عشيرة تكريتية صغيرة. ولم يكن من قبيل الصدف أن يتخلص صدام تدريجاً من جميع الشخصيات السياسية في القيادة، ولو كانوا من السنة (أمثال عبد الكريم الشيخلي وعبد الخالق السامرائي وعبد الله سلوم وصالح مهدي عماش... الخ) ولم يبق في مراكز الدولة الحساسة سوى أقاربه التكارتة ونفر قليل من الآميين الخونة أمثال الانتهازي الكلداني طارق عزيز والانتهازي الكردي طه الجزراوي والمرتزق الكردي صباح ميرزا.. الخ.

إن البنية الفكرية لحزب البعث لا تتعارض مع انتهاج السياسات الشوفينية والعنصرية والفاشية. وحين تحول إلى حزب طائفي ـ عشائري أصبح من الطبيعي تماماً أن يلجأ إلى أسلوب الحكم العنصري والفاشي لأنه كان من غير الممكن أن تفلح فئة ضئيلة من التكارتة في الاحتفاظ بالسلطة قرابة ربع قرن ما لم تستند إلى أساليب الإرهاب الفاشي والدكتاتورية السافرة، فضلاً عن الاستناد إلى الدعم الامبريالي.

وهكذا نرى أن حزب البعث تغير، بعد ثورة ١٩٥٨، نحو الأسوأ

وتغير مرة أخرى، بعد عودته إلى الحكم في تموز ١٩٦٨، نحو الأسوأ فالأسوأ حتى أصبح حزباً ليس للقوميين العرب ولا للقوميين السنة العرب بل نخبة من العشيرة التكريتية وبالتالي لشخص دكتاتور بمفرده.

❀ ❀ ❀

لم تكن مجزرة إعدام ٣١ شخصاً في أيار ١٩٧٨ سوى البداية لحملة جديدة واسعة خطط لها صدام بهدف القضاء التام على ح ش ع أو تحويله إلى حزب كارتوني شبيه بحزب هاشم عقراوي. وقد اقترنت الحملة البوليسية المشتدة بحملة إعلامية عنيفة ضد الشيوعية كأيديولوجية وكتنظيم سياسي. وبدلاً من تنظيم حملة مضادة من قبل ح ش ع وصحيفته طريق الشعب فإن هذه الصحيفة التزمت الصمت أو كانت تشير بكلمات خجولة إلى الضحايا دون أن تشير إلى مصدر الجريمة ومنفذي الإعدامات. وفي معرض تقييم الجريدة، في أحد اجتماعات اللجنة المركزية، قلت لرئيس تحريرها عبد الرزاق الصافي:

ـ إن جريدتنا طريق الشعب ليست معادية للشيوعية.

في أيار ١٩٧٨ عقد اجتماع طارىء للجنة المركزية ترأسه زكي خيري، في غياب عزيز محمد الذي كان قد سافر إلى أثينا قبيل تنفيذ الإعدامات كي يحضر مؤتمر الحزب الشيوعي اليوناني. ظهر في الاجتماع رأيان متباينان أحدهما يطالب بالاستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات وبالرد على الحملة الصحفية الحكومية. ويطالب الرأي الثاني بتأكيد الحرص على العلاقات الجبهوية وتجنب ما يثير البعث الحاكم ويزيد من حنقه. وكانت المناقشات حادة ولم يكن التوصل إلى اتخاذ قرارات ملموسة وحازمة.

وفي حزيران ١٩٧٨ عقد ثاني اجتماع طارىء للجنة المركزية، في غياب السكرتير أيضاً. وكان النقاش حاداً والجو متوتراً. طالبنا، نحن فريقاً من المشاركين في الاجتماع، بالإسراع في اتخاذ التدابير الضرورية

والفورية لضمان استمرار النشاط الحزبي، التنظيمي والإعلامي وبتهيأة البيوت السرية لإخفاء الكادر وأجهزة الطباعة السرية، كما طالبنا بالرد على حملة البعث الإعلامية. وارتفع الصوت المقابل، الذي رأى المسألة الرئيسية فقط في العمل على صيانة التحالف الجبهوي. ووقف العضوان الاحتياطان للجنة المركزية مكرم الطالباني، الذي كان لا يزال وزيراً، وبشرى برتو الموقف الأكثر تخاذلاً. قالت بشرى:

ـ نحن ألذين بدأنا وانتقدنا النظام في التقرير الصادر عن اجتماع اللجنة المركزية آذار الماضي.. وهم الآن يردون علينا ويجب اعتبار المسألة منتهية.

وطالب كل من باقر إبراهيم وزكي خيري بتركيز الجهود من أجل إيقاف تدهور العلاقات مع البعث الحاكم والسعي لإعادة المياه إلى مجاريها.

في كلا اجتماعي اللجنة المركزية ـ أيار وحزيران ـ اتخذت قرارات توفيقية: بذل قصارى الجهد لإيقاف تدهور العلاقة مع البعث ولإعادة المياه إلى مجاريها الجبهوية، من جهة، والاستعداد لمجابهة أسوأ الاحتمالات والرد على الحملة الصحفية. وبعد الاجتماع لم ينفذ شيء لوضع القسم الثاني من القرار ـ الاستعداد لمجابهة أسوأ الاحتمالات ـ موضع التنفيذ. فلم يتخذ أي إجراء جدي لتحويل التنظيم الحزبي إلى العمل السري ولا لتوفير أدوات الطباعة السرية ولا للرد على حملة البعث الإعلامية.. وركز الجهد على محاولات يائسة لاستعادة العلاقة الودية مع البعث ولصيانة التحالف الذيلي. وفي تموز ١٩٧٨ نشر في جريدة الحزب مقال لباقر إبراهيم يشيد بمآثر حزب البعث الحاكم ويناشده الحفاظ على الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

في الوقت نفسه استمرت القيادة البعثية في تنفيذ مخططها لتحطيم ح ش ع وركزت الحملة البوليسية على قاعدة الحزب وكادره الوسطي دونما تعرض ـ في تلك الأيام ـ لأي من أعضاء اللجنة المركزية. كانت

فكرة صدام هي تحطيم الحزب مع الإبقاء على جنرالات بلا عساكر من بين القادة الخانعين المستعدين للتحول إلى أداة مطواعة. وتركت قيادة ح ش ع تنظيمات الحزب تحت رحمة الإرهاب الفاشي المتصاعد. وترك أعضاء الحزب وكوادره ليظلوا في حيرة ومتاهة حقيقيتين وليتصرف كل بما يحلو له، ودون أن يكون هناك توجيه حزبي حول ما يجب عمله. ولم تفكر القيادة بوضع الخطة حتى بعد أسابيع وأشهر من بدء الحملة البوليسية. كان التفكير كله منصباً على إيقاف التدهور وإبقاء التحالف الذيلي، فيما كانت طاحونة الإرهاب تطحن الشيوعيين بلا رحمة.

إن قيادة ح ش ع في ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ لم تدس فقط على القيم والأخلاق السياسي الثورية، بل داست حتى على القيم والأخلاق الشخصية والكرامة الإنسانية عندما تشبثت بذيول الحكم الفاشي وبالتحالف الذيلي معه، فأبقت الوزيرين الشيوعيين عامر ومكرم ضمن الوزراء كما أبقت ممثلي الحزب في المجلسين التشريعي والتنفيذي لكردستان في مناصبهم، وهم يتفرجون على سحق تنظيمات حزبهم من قبل السلطة التي يمثلون حزبهم فيها. كما بقيت جريدة الحزب الشرعية (طريق الشعب) تواصل الصدور يومياً لتكتب عن كل شيء سوى مأساة الحزب وحملة البطش ضده والدفاع عن ضحاياه. وبقي الحزب رسمياً في الجبهة الذيلية دون اتخاذ أي قرار بالخروج منها. ومن المؤكد أن الشيوعيين العراقيين كانوا قادرين على عمل الكثير في الدفاع عن حزبهم فيما لو وجد من يقود ويوجه نشاطهم بصورة صحيحة، بدلاً من ترك الأمور لتسير بشكل عفوي ـ كما كان في ظل قيادة عزيز محمد.

حتى إذا ما افترضنا أن التحالف مع البعث كان مبرراً وصحيحاً (وأنا لست مع مثل هذا الافتراض) قبل شن هذه الحملة البوليسية على ح ش ع. فإن الوضع قد تغير كلياً حين شن الحملة وأصبح من الضروري أن يعيد ح ش ع النظر في سياسته ويغير خطه وفق متطلبات الظرف المستجد. غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث إلا بعد مرور (١٥) شهراً

على استمرار الحملة المتصاعدة. وطوال تلك الأشهر الـ (١٥) سادت الحيرة والارتباك والبلبلة الفكرية ـ السياسية صفوف الشيوعيين، فيما ظل بعض قادة الحزب متشبثاً بآمال إعادة مياه التحالف إلى مجاريها. وقد قال حميد الخاقاني ـ وهو أحد محرري جريدة طريق الشعب في ذلك الوقت ـ أثناء وصوله إلى صوفيا في شباط ١٩٧٩ ولقائه مع نعمان التميمي أو شخص آخر:

ـ أوصاني ماجد عبد الرضا بألا أبتعد كثيراً إذ ستعود الأمور إلى مجاريها السابقة وستتحسن العلاقة من جديد مع حزب البعث. وعلينا أن نعود عندئذ إلى بغداد لمواصلة إصدار الجريدة.

❀ ❀ ❀

في حزيران ١٩٧٨ تناقشنا، أنا وسليمان اسطيفان، كثيراً حول بعض الأمور الحزبية ـ السياسية، وقبل كل شيء حول ما ينتظر حدوثه جراء تطور حملة البعث البوليسية المشتدة وما يجب عمله لمجابهتها. استمر النقاش أسابيع ولم نتفق. كان يرى أن نظل في العراق، وفي بغداد بالذات، لنكون مهيأين لمجابهة ما يستجد في الوضع وضمان مواصلة العمل الحزبي. وكنت أرى أن البقاء في بغداد خاطىء ولا نملك فيها مقومات الصيانة، ولا مناص من السفر إلى كردستان أو إلى خارج العراق، قبل أن تطحننا الحملة. وكنت أفضل الانتقال إلى كردستان لكن المكتب السياسي لم يكن يسمح بذلك خشية أن نتصل بالجماعات الكردية المسلحة. وأبلغت صديقي سليمان أن بإمكاننا أن نخرج من الباب لنعود بعدئذ من الشباك.

قررت مغادرة بغداد، وتداولت مع زوجتي، التي فضلت سفري السريع وبقائها هي مؤقتاً. وعبثاً حاولت استحصال الموافقة للسفر إلى كردستان رغم أنني كنت أملك هناك إمكانات لإخفاء نفسي وغيري. كانت القيادة تخشى أن يسبب سفري إلى المنطقة الكردية إحراجاً لها

وخطراً على تحالفها الجبهوي مع البعث الحاكم. بقي الخيار الوحيد أن أذهب للخارج. ذهبت إلى زكي خيري، وكان يقوم بأعمال المسؤول الأول وكالة في غياب عزيز محمد، وطلبت الموافقة على سفري. رفض طلبي قائلاً:

ـ أنت تريد السفر إلى الخارج لكي تتصل بالطالباني والبارزاني وتسيء إلى علاقاتنا مع البعث وتحرجنا هنا.

تراكم في أعماقي الغضب لكني سيطرت على أعصابي وتجنبت الانفجار. فهذا الرجل، الذي كان من مؤسسي أولى الحلقات الماركسية في أوائل الثلاثينات واشترك في أول اجتماع عقد لتأسيس ح ش ع، آذار ١٩٣٤ والذي صوت معي في تموز ١٩٧٣ ضد التحالف الذيلي البائس، يحرص الآن كل هذا الحرص على صيانة هذا التحالف مع الجلادين من أمثال البكر وصدام أكثر من حرصه على الحركة الشيوعية في هذه البلاد وعلى كوادرها. وتساءلت مع نفسي عما إذا كان هناك شيء من الأصالة في ثورية «وشيوعية» أمثال هذا القائد. لكنني حاججته بهدوء وتركته دون أن أصر على استحصال موافقته. وقررت مفاتحة آخرين في المكتب السياسي لاستحصال الموافقة على السفر. واستحصلتها فعلاً كما تم استحصال موافقة السلطة لتمديد جواز السفر.

رافقتني زوجتي إلى مطار بغداد الدولي. وكانت شديدة القلق خوفاً من اعتقالي في المطار. وطمأنتها قائلاً:

ـ إني سأطير بسلام لأني عضو في اللجنة المركزية ولأن السلطة لا تتحرش بالقيادة حالياً.

في ٢١ تموز، وفيما كانت الحملة البوليسية تتصاعد ضد الحزب، غادرت الطائرة بسلام لتهبط في مطار صوفيا، حيث كان في استقبالي رجل بلغاري مع حميد البياتي. وأقمت في إحدى غرف الفندق التابع للمدرسة الحزبية ببلغاريا منذ تموز ١٩٧٨ وحتى أوائل آذار ١٩٧٩. كنت

خلالها طالباً في المدرسة من الناحية الشكلية ومسؤولاً حزبياً عن الفريق العراقي الشيوعي في المدرسة من الناحية العملية، رغم أن القيادة في بغداد رفضت إناطة المسؤولية بي، وعينت شخصاً آخر من غير أعضاء اللجنة المركزية مسؤولاً حزبياً.

التقيت بعميد المدرسة وتبادلنا أطراف الحديث وطلب مني اللقاء مع أي أستاذ أشاء لترتيب أمور الدراسة الحزبية على الوجه الذي أرتأي. التقيت بعدئذ مع مسؤول قسم الحركة العمالية سموئيلوف وزوجته الأستاذة أيضاً، وهما شيوعيان يهوديان طيبان ومعاديان بثبات للصهيونية. بعد تناول وضع العراق بإيجاز سألاني عما أود اختياره موضوعاً لدراستي. فأجبت:

ـ أخبرت العميد أيضاً بأني لا أريد أن أخدعكم. فأنا لم أجيء لأدرس، إنما جئتكم أشبه بلاجيء في هذه المدرسة بانتظار أن تسنح لي فرصة العودة إلى بلادي لأواصل هناك نشاطي الحزبي. وفي مدة بقائي هنا أظل في حاجة إلى مساعدتكم لتأمين السكن والمعيشة على حساب المدرسة.

ـ هذا شيء مفهوم ونعتبره مشروعاً. مع ذلك نفضل أن تدرس مدة بقاءك هنا ولك أن تختار ما تشاء من المواضيع. وبإمكانك تقديم أطروحة لكي تنال شهادة الدكتوراه.

ـ سأكتب عن تأريخ الحركة الشيوعية في العراق. لكني غير مؤهل لنيل شهادة الدكتوراه لأني لا أحمل شهادة أي كلية حتى ولا شهادة الدراسة الإعدادية.

ـ بالنسبة للعلوم الاجتماعية فإننا لا نشترط حيازة أي شهادة لمن يقدم الأطروحة.

رأيت في رأيهم الوجاهة إذ ما قيمة شهادة الكلية ولماذا يجب تقديمها بالنسبة لشخص سهر على تثقيف نفسه وأصبح قادراً على أن يقدم

أطروحة الدكتوراه في موضوع تأريخي أو فلسفي أو اقتصادي؟ ومع ذلك لم يتغير شيء في رأيي. فأنا عراقي وفكري منشغل كلياً بأمور بلدي وحزبي وخرجت من الباب كي أعود إليه من الشباك. لم أتزحزح عن موقفي. مع ذلك ألحت علي الأستاذة سموئيلوفا لأكتب مخططاً أولياً لموضوع الدراسة وأتيح لها فرصة الاطلاع عليه. فعلت ما طلبت مني وانتهت مهمتي الدراسية عند ذلك. كنت متهيأ نفسياً للعودة ولكن صحتي كانت سيئة وكان علي أن أهيء نفسي جسمياً أيضاً. فأكثرت من التردد على جبال (فيتوشا) و (چرنى فرخ) في ضواحي صوفيا.

في چرني فرخ تعرفنا، أنا وعدد من العراقيين، على عائلة بلغارية ودعتنا إلى تناول العشاء في شقتها. حين ذهبنا إليها وجدنا وليمة جيدة أشبه بالولائم الشرقية، مع كمية وافرة من المشروبات الروحية. في مجرى الحديث حول الوضع في بلغاريا انتقدت ربة البيت بمرارة، وكانت نفسها شيوعية، حكومة جفكوف قائلة:

ـ أنا امرأة مقدونية، وعند تسجيل النفوس تفرض علي الحكومة البلغارية لكي أسجل أنني من القومية البلغارية ولست من القومية المقدونية.

تصادقت في المدرسة الحزبية مع شابين مترجمين إلى اللغة العربية. كانا يترددان علي أحياناً في غرفتي. أحدهما فلوديا، وهو بلغاري مرح، قال لي في إحدى زياراته:

ـ قادتنا يعلموننا أن نكره البرجوازية ونكافح ضدها ونتضامن مع الشيوعيين ومع الطبقة العاملة. لكن أنفسهم يعملون العكس. ففي الغرفة التي تقع تحت غرفتك في هذا الفندق يسكن الآن بعثي عراقي ـ ذكر اسمه ـ ويبدو أنه أحد كوادر البعث. يأتي إلى هنا أحياناً ويقيم في العراق أغلب الأحيان. سيحصل على شهادة الدكتوراه ويعود إلى بلده حاملاً هذه الشهادة، التي لا يستحقها. والأسوأ من ذلك أنه معاد للشيوعية. كل ما هنالك أنه يأتي بهدايا إلى بعضهم فتتاح له الفرصة.

أما المترجم الآخر المدعو شكري، وكان تركيا، فإنه كان شديد الاستياء ويشكو بمرارة من تصرفات الحكومة البلغارية إزاء الأتراك. وقال:

ـ حكومتنا الاشتراكية تفرض علينا تبديل الأسماء التركية لأطفالنا بأسماء بلغارية وتسمية أطفالنا الجدد بأسماء سلافية... أهكذا يجب أن تكون؟ هل هذه هي الأممية؟

كنت أعرف مسبقاً حقيقة ما ذكره شكري. مع ذلك امتلأت غضباً وكأني سمعته لأول مرة.. تراءى لي جفكوف، المتربع على عرش الزعامة في الدولة البلغارية، كما لو كان صدام التكريتي، وتذكرت كيف تصرف هذا الفلاح البلغاري، الذي كان ثورياً ومضحياً ذات يوم ثم أفسدته ممارسة الحكم لفترة طويلة، عندما زار العراق وزار بابل بصحبة صدام. كم هو جميل ما في بعض الدساتير من أنه لا يحق لامرىء ما أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية أكثر من دورتين.

البلغار طيبون، ويسميهم الأوروبيون الغربيون بفلاحي أوروبا ـ وهذا ينطوي على قدر من الصواب. وهو مديح ـ حسب رأيي ـ لهم معناه أن البرجوازية لم تفلح في إشاعة ذلك الفساد الذي أشاعته في بعض البلدان الأوروبية الأخرى. كان ديمتروف ابن هذه الطيبة العمالية البلغارية. لكن جفكوف تحول تدريجياً إلى ابن الفساد وأفسد في سني حكمه الطويل الكثيرين من أبناء شعبه أيضاً.

أكلت أفضل لبن رائب في بعض المناطق الجبلية بكردستان العراق، سيما أواخر موسم الصيف، وكذلك في بلغاريا، بضواحي صوفيا حيث كان هناك مطعم يقدم الأسماك الحية واللبن الرائب المخثر في أوان خزفية قديمة على النمط الكلاسيكي. وكان بالمستطاع طلب النبيذ أو الكونياك البلغاري الجيد أيضاً مع هذا اللبن.

كانت علاقتي جيدة مع المسؤول عن شؤون العراق في جهاز

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الحاكم. وهو كان رجلاً طيباً، غير أنه كان يتقبل الهدايا بلهفة. وقد ساعدنا في العمل على قبول المزيد من رفاقنا في الفريق الدراسي بالمدرسة الحزبية حتى ازداد عدد المقبولين من ٢٠ شخصاً ـ وهذا ما خصص لنا أصلاً ـ إلى خمسين شخصاً وعلى إقامة دورة دراسية خاصة برفاقنا الهاربين من العراق ضمت (١٥٠) شخصاً على أن تستمر لمدة ستة أشهر. وفي جامعة صوفيا أيضاً ضوعفت لنا المقاعد الدراسية التي كانت مخصصة أصلاً.

بسبب تصاعد الحملة البوليسية ضد ح ش ع في العراق وفي ظروف انعدام خطة للعمل وانعدام ملجأ للمطاردين في كردستان كان يصل صوفيا كل يوم عدد كبير من الهاربين من جحيم الإرهاب البعثي. وكان علينا، نحن في المدرسة الحزبية، أن نستقبل من يمكن استقبالهم من هؤلاء ونساعدهم على تدبير أمورهم. ولا زلت أحس بالامتنان العميق للشيوعيين البلغار الذين ساعدونا إبان تلك المحنة على حل مشكلة حوالي (٣٠٠) شيوعي ملاحق، ولو حلا مؤقتاً، في تلك الأيام. ولم نكن، نحن فريقاً من الشيوعيين العراقيين (أنا وحسين سلطان ونعمان التميمي وغضبان السعد وحميد البياتي.. الخ) سوى جزء من هذه المشكلة. وقد فوجئت ذات يوم، قبيل مغادرتي لبلغاريا إلى كردستان، بوصول أخت زوجتي هناء ياسين، التي كانت قد اعتقلت في البصرة من قبل وعذبت في دائرة الأمن لدرجة الاقتراب من الموت دون أن يفلح الجلادون في انتزاع الاعترافات منها. ثم أخلي سبيلها وساعدتها عائدة في تدبير السفر هرباً من الإرهاب البعثي.

كنت أبادل الزيارات في صوفيا مع الكرديين الإيرانيين المقيمين في بلغاريا، كل من التودوي حسن قزلجي والأمين العام المساعد آنذاك للحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران كريم حسامي. وقد انتقدت ذات مساء، وأنا عند قزلجي، قيادة حزب توده انتقاداً لاذعاً بسبب تركهم ساحة النضال الساخن منذ انقلاب زاهدي في ١٩٥٣ وإساءتهم

إلى الحركة الثورية في إيران زاعمين أنهم قادرون على قيادتها من بعد آلاف الكيلومترات. فأعجبني جواب الرجل، وهو يتكلم بهدوء:

- بنى حزبكم رجل اعتيادي من أبناء الشعب وعامل كسب الرزق بجهده هو فهد.. فهو أنشأ حزباً على شاكلته شخصياً. وأما حزب توده في إيران فإن أستاذاً في الجامعة هو الذي أسسه - وهو تقي آراني، الذي أنشأ هو الآخر حزباً على شاكلته الشخصية وليس على شاكلة فهد.

كان قزلجي محقاً بكل تأكيد. لكنه كان يجهل شيئاً واحداً هو أن ح ش ع قد تحول لاحقاً، في عهد عزيز محمد، إلى حزب شبيه ذلك الحزب الذي أسسه تقي آراني.

كان كريم حسامي، رغم انتسابه إلى حزب قومي كردي، يعتبر نفسه ماركسياً. وكانت العلاقة الودية الوثيقة بيننا تحمله على مفاتحتي أو استشارتي حول بعض الأمور الخاصة أيضاً. وقد استدعي ذات مرة من قبل زملائه للسفر إلى بغداد لمناقشة الأوضاع الصعبة التي كان يمر بها حزبهم، الذي تحول إلى شبيه بحزب توده من حيث إقامة قادته خارج بلدهم وانعزالهم عن شعبهم. وبعد عودته علمت منه أن سكرتير الحزب عبد الرحمن قاسملو كان قد جمده مسبقاً، في غيابه، ودون محاسبة حزبية وجاهية. ولم أستغرب من أن يحدث شيء من هذا القبيل في حزب من هذا النوع. فأنا واجهت بنفسي مثل هذه الحالة في حياتي الحزبية.

أردت زيارة موسكو للالتقاء مع عزيز محمد، الذي كان مقيماً هناك، ولرؤية أطفالي الذين كانوا يدرسون هناك. كان الحصول على الفيزة السوفيتية من أصعب الأمور ولسبب لم أعرفه. وعبثاً حاولت الحصول عليها أثناء لقاءاتي الخاصة ومحاولاتي الشخصية في السفارة السوفيتية بصوفيا. أخيراً تدخل عزيز محمد ومنحت الفيزة وسافرت إلى هناك. فاتحته بقضية عودتي إلى كردستان وتشكيل مفارز مسلحة. وافق على ذلك. وفي وقت لاحق قدم لي عشرين ألف دولار (حوالي سبعة

آلاف دينار) لإنفاقها على هذا الغرض.

تكررت زياراتي لموسكو في ١٩٧٩ و ١٩٨٠ أيضاً والتقيت هناك بابني سلام وابنتيّ حياة وبري. وسألتني حياة في لقاء ثنائي:

ـ هل توافق، يا والدي، على أن أتزوج من فتى أمريكي لاتيني؟

كنت أعرف أنها معرضة لمضايقات من والدتها وبعض الأقارب والأصدقاء، طالبين منها التصرف كما لو كانت تعيش داخل العراق. علماً أنها عاشت في الاتحاد السوفيتي منذ السابعة من عمرها. فأجبتها على سؤالها:

ـ لك كامل الحق في أن تعيشي، يا بنتي، كفتاة عائشة هنا من كل النواحي، وأن تتزوجي ممن تشائين، أياً كانت قوميته وبلاده. إلا أنني أفضل أن تتزوجي من فتى عراقي.

طرت من بلغاريا إلى برلين الشرقية مرتين بهدف اللقاء مع نوري شاويس، الذي كان مقيماً في بريطانيا. في المرة الأولى لم يتمكن هو من الحضور. وفي المرة الثانية التقينا وبقينا سوية مدة يومين في شقة استأجرها لنا جوهر شاويس الذي كان آنئذ مقيماً في ألمانيا. أبلغت نوري بأني هيأت نفسي للسفر إلى كردستان والإسهام في الكفاح المسلح. وطلبت منه تقديم العون إلينا عن طريق (القيادة المؤقتة) للپارتي إلى أن نبني أنفسنا. فرحب بالطلب وذكرني بأنه لا يزال ذلك الشيوعي الذي كان من قبل. وزودني برسالة (مفتوحة) إلى سكرتير القيادة الموقتة سامي عبد الرحمن، الذي كان المسؤول عن الفصائل المسلحة للپارتي. وقد احتفظت بالرسالة فترة واضطررت إلى إتلافها قبل أن ألتقي بسامي في نيسان ١٩٧٩.

التقيت في صوفيا بصديقي القديم قادر رشيد عضو المجلس التشريعي المزعوم في كردستان، الذي كان قد قدم إلى بلغاريا في سيارته الخاصة. وسافرنا سوية إلى مدينة پلوفديف لمشاهدة المعرض السنوي

الدولي. وفي الطريق بكيت من الأعماق حين سمعت، لأول مرة، صوت (حمه جزا) وهو يغني بنغم البيات قصيدة للشاعر الكردي الإيراني هيمن (ئه گه ر چى شه و دره نگه..). لم يكن بكائي بمعزل عن وضعي النفسي السيء المرتبط باشتداد الحملة الإرهابية ضد الحزب وبالأنباء السيئة التي نقلها قادر إلي حول الحملة.

كنت أراسل من صوفيا زوجتي عائدة في بغداد. وبعثت إليها بآخر رسالة من بلغاريا مع قادر. كنت أحس، من ثنايا كلماتها في تلك الرسائل، التي أرسلتها إلي، بأن المحنة جعلتنا أقرب وأكثر تعلقاً ببعضنا. كانت رسائلها طافحة بالآلام والمرارة لما آل إليه وضع الحزب جراء الحملة. وكانت نفسها تعبر عن روح الإقدام والجرأة لديها في متابعة النضال. وذكرت في أكثر من رسالة بأن ما كنت أتنبأ به وأتخوف، فيما يتعلق بآفاق العلاقة مع البعث الحاكم، قد تحقق. واحتفظت برسائلها كوثائق عزيزة علي، وأودعتها لدى أختها هناء، حين غادرت بلغاريا، معتبراً إياها أكثر الجميع حرصاً على صيانتها. لكنها أضاعتها في وقت لاحق، حين تعرضت للاحتجاز والمضايقة في دمشق.

❀ ❀ ❀

في صوفيا عقدنا آخر اجتماعات حزب العمل العراقي. وقد احتجز دگله في مطار صوفيا لبعض الوقت حين مجيئه من بيروت لحضور الاجتماع. وضعنا مشروعاً كأساس فكري أو برنامج مقترح لتعاون قوى المعارضة. وتقرر إصدار عدد من الجريدة الناطقة بلسانه في بيروت. ولكن الاتجاه الرئيسي لدينا لم يكن تنشيط هذه المنظمة، بل تجميدها طالما انتقل ح ش ع كله إلى معسكر المعارضة. وقد أعطيت في وقت متأخر تلميحات إلى عزيز محمد حول هذا التنظيم ولا أدري ما إذا كان آرا قد أعطاه سابقاً المزيد من المعلومات أم لا. لكن من المؤكد أن البعض من المسؤولين أخذوا المسألة مأخذ الجد وكانوا يحاسبوننا ويعاقبوننا بشدة فيما لو جرى كل ذلك في وضع آخر. ويبدو أن إحدى

رسائل آرا قد كبست وكشفت للقيادة بعض جوانب عملنا. ووضعت أنا تحت المراقبة الشديدة من بعض الرفاق العراقيين في المدرسة الحزبية بصوفيا، دون أن أكون على علم بشيء. وقد جاءني من وارشو صديقي أبو ذكرى، الذي كانت تربطني معه علاقة وثيقة، وبقي عندي ليلة واحدة دون أن أخرج معه من الغرفة. وبعد عودته إلى پولونيا استدعي إلى براغ فوراً وحوسب بشدة من قبل عادل مصري بسبب زيارته إلي، مما أكد فعلاً وجود تلك المراقبة علي وعلى من يزورني، في وقت كنت عضو اللجنة المركزية للحزب وكنت المسؤول الفعلي عن الشيوعيين العراقيين في بلغاريا. على أن هذه المزعجات لم تغير من تصميمي في أن أعود إلى العراق، أو إلى كردستان وأبذل قصارى الجهد لتأسيس فصائل فدائية مسلحة من الشيوعيين العراقيين.

١٩

العودة إلى كردستان
أولى الفصائل الشيوعية المسلحة

كنت اخترت ثلاثة رفاق ليعودوا معي إلى كردستان العراق: البيشمرگه المخضرم ملا علي ـ الذي كان يدرس في المدرسة الحزبية بألمانيا الشرقية ـ والشاعر رفيق صابر وعامل الميكانيك السماوي أبو حاتم. وقد فاتحتهم ووافقوا بحماس. غادرنا نحن الأربعة مع كريم حسامي مطار صوفيا في ١٠ آذار ١٩٧٩ متوجهين إلى بيروت، حيث كان هناك من ينتظرنا في المطار لتدبير الفيزا ولإدخالنا المدينة التي مزقتها الحرب الأهلية. كنا ضيوفاً على صلاح بدر الدين الذي دبر لنا جوازات سفر فلسطينية جديدة مع الفيزا الإيرانية. في اليوم التالي لوصولنا خرجنا لنتمشى في شارع كورنيش المزرعة فسمعنا صوت طلقة واحدة وسقط أحد المارة على مسافة ٤٠ ـ ٥٠ متراً أمامنا. فقفلنا راجعين إلى شقتنا في حي الفاكهاني. وبعد الظهيرة ذهبنا إلى الروشة وتفرجنا على مياه البحر الزرقاء الصافية البديعة. ورغم برودة الماء وعدم وجود المايو لدي فإني ألقيت بنفسي في البحر وتمتعت بسباحة منعشة لأكثر من ساعة في مياه راكدة لم تحركها الأمواج.

في طريقنا إلى طهران بقينا يومين في العاصمة اليونانية وتفرجنا هناك على بعض الآثار الإغريقية. وعندما هبطت الطائرة في العاصمة الإيرانية الثائرة، التي كانت قد شهدت تحطيم عرش الشاه قبل ذلك بشهر واحد، وجدنا ـ بصفتنا فلسطينيين ـ الترحيب والتسهيلات من مسؤولي المطار الجدد. وأعلمونا بأن سفارة إسرائيل في عهد الشاه قد حولت، في العهد الجديد، إلى سفارة فلسطينية. وصرفت بضع دولارات في مصرف المطار مقابل سبعة تومانات للدولار، خارج المصرف مقابل ٩ تومانات.

كانت طهران الثائرة قد ارتدت حلة النصر العظيم وكانت الشوارع كلها طافحة بالبهجة والاعتزاز وكانت الوجوه كلها تضحك ضحكة الفرح والشموخ وكانت الجماهير في كل مكان تلعن الشاه ونظامه المقبور. ذكرني كل ذلك بما كان في بغداد أيام ما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. مررنا أمام الجامعة وشاهدنا حلقات النقاش الحر بين الشبان، وشاهدنا اللافتات في كل شارع، كل يبشر بأفكاره ويعرض جانباً من برنامجه على الجمهور. لم يكن هناك بعد من هو مسيطر على الوضع سيطرة كاملة، رغم أن التيار الديني ـ السياسي بزعامة الخميني كان أقوى من أي تنظيم آخر منفرداً. وكان هناك أناس عادوا من أمريكا وأوروبا ونشطوا في الميدان السياسي مراهنين على علاقتهم مع الخميني. كان جمهور طهران في حركة دائبة كالنحل في يوم ربيعي مشمس دافىء. وكانت حركة السيارات كثيفة لدرجة يصبح معها الوصول إلى مكان ما سيراً على الأقدام أسرع من الوصول عن طريق السيارة. كانت فترة فريدة من نوعها في تأريخ طهران وكانت حصيلة ثورة شعبية عظيمة وفريدة من نوعها خلال النصف الثاني من هذا القرن.

في طهران زرت مقر حزب توده والتقيت بمسؤول حزبي يدعى علي عموئي كان قد قضى قرابة ٣٠ عاماً في سجون نظام الشاه وحررته الثورة ليبدأ مع زملائه بإعادة بناء حزب توده، قبل أن يعود إلى هناك أي

من زعمائه المتبححين المقيمين في أوروبا. تراءى لي عموئي رجلاً بسيطاً متواضعاً وثورياً حنكته الصعوبات، قبل أن يعود كيانوري وإضرابه من القادة الذين أفسدوا النشاط الهادف إلى إعادة بناء حزب توده.

وزرت مقر منظمة فدائيي الشعب اليسارية، التي تكونت في عهد الشاه كمنظمة اغتيالات ضد حماة ذلك النظام، وليست كمنظمة للنضال السياسي الجماهيري. ولم يكن من السهل عليها أن تتحول فجأة إلى تنظيم سياسي يلائم الأوضاع المستجدة. وقد التقيت بشاب هادىء ومتواضع ظاهرياً، قيل لي لاحقاً أنه فروخ نگهدار. وحاولت أن أعرض أمامه شيئاً من تجربتنا العراقية لما بعد ثورة تموز ١٩٥٨. وكنت متردداً في أن أزور منظمة مجاهدي خلق. وفي الأخير قررت عدم زيارتها.

بعد قضاء يومين في طهران توجهنا بصحبة كريم حسامي وجليل گاداني إلى مدينة مهاباد. في الطريق علمنا أن هناك اضطرابات ومصادمات دموية في مدينة سنندج، وخصوصاً حول الثكنة العسكرية. عجيب! لم يمض على الثورة وسقوط الشاه أكثر من شهر، وها هي المشكلة القومية الكردية تتأزم وتتحول إلى مصادمات دموية. دخلنا مدينة سقز ومن ثم بوكان اللتين لم يكن للسلطة المركزية وجود فيهما. وكانت فرحة كبيرة أن التقيت في مهاباد بأحمد بانيخيلاني وآخرين من رفاقي، الذين كانوا قد وصلوا إلى منطقة نيوزنگ (أو ما سمي لاحقاً بوادي الأحزاب) في شهر شباط ١٩٧٩ وأقاموا نواة أولى التشكيلات الفدائية المسلحة، كانوا يفتقرون إلى السلاح والعتاد. وكانوا لا يزالون أشبه بتجمع صغير من اللاجئين في هذا الوادي الصغير المحرر من سيطرة النظام البعثي. وقد زودهم جلال الطالباني ببضع بنادق ليستفيدوا منها في الحراسة الليلية.

سافرت من مهاباد إلى وادي نيوزنك، حيث التقيت بالرفاق الهاربين من «وجه العدالة» البعثية. كان هناك توما توماس وفاتح رسول وعدد من الكوادر الوسطية والأعضاء الاعتياديين. وكانوا في وضع

صعب معاشياً ونفسياً. كان توما يحظى بقدر أكبر من الاحترام بينهم، بعكس فاتح الذي ترك انطباعاً سيئاً بينهم لدرجة لقبوه بـ «الرفيق الجلالي».

وزرت في نيوزنك جلال الطالباني. كان مقيماً في غرفة طينية مشيدة كأي مبنى ريفي بسيط. كان اللقاء الثالث لي معه في حياتي. لم يكن لدي الكثير مما أتحدث عنه في ذلك اللقاء. وقد لاحظت أنه كان فرحاً وكان ينتظر خيراً من انتقال ح ش ع إلى صف معارضي النظام البعثي.

عند العودة من نيوزنك إلى مهاباد كان يجب الوصول إلى سردشت مشياً أو على الحيوان. وقد نزلت من (الكديش) في مكان شديد الانحدار خشية السقوط. وبعد دقيقة واحدة هوى (الكديش) نحو الوادي مسافة عشرات الأمتار. ظننت أنه تحطم وقضى نحبه. لكني وصاحبه فوجئنا بأن نهض وسار اعتيادياً وعاد إلى الطريق.

أقمت في مدينة مهاباد بصحبة أحمد بانيخيلاني وسعيد البرزنجي وآخرين في دار استأجروها لهذا الغرض. كانت مهاباد تتمتع، لأول مرة بعد سقوط جمهوريتها الفتية في ١٩٤٦، بالحرية الحقيقية وكانت خلواً من نفوذ السلطة المركزية. كان التنظيم السياسي الحاكم هو الحزب الديمقراطي الكردي بزعامة عبد الرحمن قاسملو. وكان لرجل الدين الشيخ عز الدين الحسيني نفوذه الشعبي غير القليل، خصوصاً بين سكان الأرياف في المنطقة. ولاحظت أن لمنظمة فدائيي الشعب نفوذه بين الشبان أيضاً. وكان تنظيم حزب توده أصغر وأفقر الجميع، رغم كثرة الشبان من ذوي الميول والأمزجة الماركسية. وكان السبب في ضعف أو انعدام التنظيم التودوي يعود إلى أن قيادة حزب توده رفضت منذ القديم وإلى ذلك الحين العمل على إقامة تنظيمات تودوية خاصة بها وراهنت على تحويل الحزب الديمقراطي الكردي إلى فرع له في كردستان إيران. تمسكت قيادة حزب توده بهذه الفكرة السخيفة التي لم تمت بصلة إلى

الماركسية ولا إلى الديمقراطية ولا إلى أي منطق سليم، إنما عبرت عن الرغبة في التسلط القومي الفارسي على شتى نواحي الحياة السياسية في كردستان إيران.

في مهاباد زرنا، أنا وبانيخيلاني، د. قاسملو. ولم نتحرج من طلب مساعدته لنا ببعض الأسلحة، بعد أن كانوا قد استولوا على ثكنة المدينة بكل ما فيها من تجهيزات. وقد وعدنا خيراً واستلمنا عدداً قليلاً من بنادق ژ/٣ إيرانية الصنع أو التجميع ـ ولم تكن جيدة بأي حال، رغم أنها كانت بندقية جيش الشاه. وبناءاً على طلب قاسملو، الذي كان يفتقر في تلك الأيام إلى الكادر السياسي والعسكري معاً، وضعنا خدمات إبراهيم صوفي تحت تصرفهم. وأظن أنه أفادهم لفترة معينة فعلاً. ولكنه تحول فيما بعد إلى عبء عليهم واتهمه البعض بأنه تعلم النهب والسرقة، حتى أصيب بجرح في ساقه أثناء القتال في مدينة سنندج بين البيشمرگه الأكراد وبين السلطة المركزية.

كنتيجة لجهودنا، أنا وبانيخيلاني، في مهاباد حصلنا على عدد من الدوشكات والمدافع والبنادق وأرسلناها إلى فدائيينا في نيوزنك وفي منطقة هورامان الحدودية قرب حلبجة، حيث تكون حشد جديد من رجالنا. وبفضل جهود الشيوعي الكلداني النشيط وجندي اللاسلكي السابق في الجيش أبو شاخوان حصلنا على عدد من أجهزة اللاسلكي، التي كانت ملقاة بين الأنقاض في ثكنة مهاباد. وكنا أول جماعة استفادت من هذه الأجهزة لإقامة الصلات بين مقراتها من أقصى كردستان إلى أقصاها.

فكرنا في إقامة قواعد لنا على حدود (شارباژير) وگرميان، وقمنا ـ مع بانيخيلاني ـ بزيارة بانه والحدود القريبة منها وبزيارة جبل (بمو). كما قمت بزيارة قاعدتنا في قرية (بلبزان)، حيث كان ملا علي مسؤولاً عنها.

حين وصولي إلى كردستان في آذار ١٩٧٩ اعتقدت أن من الطبيعي أن أكون المسؤول الحزبي الأول في المنطقة، وأردت أن أكون كذلك

فعلاً. غير أن بانيخيلاني، الذي كان قد وصل قبلي ـ وكان هو الآخر عضواً في اللجنة المركزية مثلي ـ تمسك بمركزه كمسؤول أول إما لأنه لم يشعر بأنه غير آهل لأن يشغل هذا المركز أو لأن المكتب السياسي أوصاه بأن ما يكون المسؤول الأول أو لكلا السببين. ولم أجعل من ذلك مشكلة بل تعاونت معه وعملنا بانسجام فترة بقائي هناك.

كان فاتح رسول عنصر الضعف لتهربه من تنفيذ المهمات الحزبية التي أوكلت إليه في أربيل ـ حسب ما ذكر كل من بانيخيلاني ويوسف حنا وغيرهما. ولهذا اقترحت من جانبي تجميد مسؤولياته الحزبية بقرار منا إلى إشعار آخر، مع عرض الأمر على المكتب السياسي، الذي كان خارج البلاد. وقد أقرت «هندرين» (هكذا سمينا الهيئة الحزبية القيادية في كردستان آنئذ) هذا الاقتراح. وحظي لاحقاً بمصادقة المكتب السياسي. وأعلمنا المكتب السياسي أيضاً أنه قرر تجميد مسؤوليات آخرين أيضاً بسبب جبنهم وعدم وفائهم بالتزاماتهم الحزبية ـ وهم كل من رحيم عجينه وزوجته بشرى برتو وعادل حبه وماجد عبد الرضا. إلا أن قرار التجميد هذا قد ألغي في وقت لاحق، حيث اشتدت الصراعات الفكرية في القيادة وأصبح المكتب السياسي في حاجة إلى أصوات هؤلاء لإقرار القرارات المطلوبة. كان ماجد الشخص الوحيد، الذي حوسب وعوقب. وكانت عقوبته هي تنزيله من عضو في اللجنة المركزية إلى عضو احتياط بسبب رضوخه لمشيئة مدير الأمن العام فاضل البراك، الذي طلب منه في ١٩٧٩ نشر مقال باسمه في جريدة طريق الشعب للاستدال على أنه لم يعتقل.

في نيسان سافرنا، أنا وبانيخيلاني، إلى قرية راژان ـ قرب مدينة أورميه ـ لزيارة مسعود البارزاني وسامي عبد الرحمن في مقرهما بإيران ولتبادل الآراء حول الوضع. دار الحديث حول أحداث (حكارى) المأساوية السابقة وذكرا أن لديهما وثائق دامغة تدين جلال الطالباني وتثبت مسؤوليته عما جرى هناك. وأبديا الاستعداد التام للتعاون معنا

ولمساعدتنا قدر الإمكان في كل ما نريد. وكان المطلب الملموس لنا هو أن يساعدونا وقتياً على فتح الطريق إلى سوريا وإقامة قواعد صغيرة لنا في الطريق لنقل الأشخاص وقطع الأسلحة من هناك إلى كردستان. وقد اتفقنا على إرسال مفرزة من رفاقنا بمساعدتهم في الأيام القريبة القادمة. وفي حديث جانبي بيني وبين سامي حول ما إذا كان يرضى بالعودة إلى نهج البارتي القديم قال:

ـ لن أقبل قطعاً بالعودة إلى ذلك النهج وسأنسحب منهم، إذا أعيد النهج السابق، حتى وإن اضطررت إلى العيش على بيع السلق في السوق كمصدر للعيش.

مررنا في طريق العودة بمدينة شنو. وأغرب ما رأيته هناك هو أن فلاحاً كردياً كان قد عرض للبيع مدفعاً ثقيلاً تجره عربة جيب عسكرية، عاملته على سعر المدفع فقال:

ـ أبيعه لك فقط بمبلغ ستين ألف تومان.

ـ إنه ثمن غال، خاصة وأن المدفع ثقيل جداً ولا يفيدنا كفدائيين لأنه لا يمكن سحبه خارج الشارع.

ـ وأنا لم أحسب شيئاً للمدفع.. أقبض فقط ثمن السيارة.

بعد العودة إلى مهاباد أردنا إرسال مفرزة من عشرة فدائيين بهدينانيين إلى منطقة دهوك/ زاخو وإقامة نواة أول قاعدة عسكرية لنا، مستفيدين، من مساعدات مسعود وسامي. أرسلنا رسالة إلى توما توماس في نيوزنك كي يرسل لنا رجال المفرزة المطلوبة. فرد علينا غاضباً، وأشرك فاتح رسول في الرد، رافضاً بصورة قطعية إرسال أي كان بذريعة أن مثل هذا الإجراء سيؤزم علاقاتنا مع جلال الطالباني، الذي كان على علاقات متوترة وسيئة مع البارتي. وقد فسرت رأي توما بأن على الشيوعيين أن يكونوا في حالة التبعية لإحدى الجهات وحالة التخندق لجهة أخرى. ولم نستطع، أنا وبانيخيلاني، عمل شيء سوى أن أرسلنا

قادر رشيد وحده، بمساعدة البارتي، إلى سوريا. وقد ذهب بحماس وعاد إلينا. في تلك الأيام التي أردنا فيها إرسال المفرزة إلى بهدينان وفتح الطريق إلى سوريا كان عضو المكتب السياسي كريم أحمد قد وصلنا، قادماً من سوريا. حدثناه، أنا وبانيخيلاني، حول أهمية إرسال هذه المفرزة وخطأ الموقف اللا مسؤول لتوما توماس. وافق كريم على رأينا موافقة حماسية وأكد أنه سيدبر المسألة عند سفره إلى نيوزنك. وأنا لم أفرح بذلك كثيراً لأني كنت أعرف كريم جيداً. وقد ذهب إلى هناك وعاد إلينا منقلباً على ١٨٠ درجة، كما هي عادته في الكثير من الحالات. وتذكرت حكاية رددها زكي خيري أكثر من مرة حول هذا الرجل، حيث قال:

ـ عندما تثار قضية ما للنقاش بيننا فإنني أستطيع أن أعرف مسبقاً رأي كل رفيق من الموجودين حول المسألة. ولكني لم أحزر مسبقاً ولا مرة واحدة ما يقوله كريم ـ (قصد زكي أن كريم ليس ثابتاً على أي رأي أو اتجاه ولا يميز بين اليمين واليسار).

كان جلال دباغ ميالاً للسفر إلى بغداد. وشجعناه أنا وبانيخيلاني، بأمل الاستفادة من سفرته للحصول على البنادق والمسدسات المستلمة من النظام البعثي والموجودة في المقر العام ومقر بغداد الموشكين على الإغلاق. كتبنا رسالة إلى المكتب السياسي، الذي كان بعض أعضائه باقياً هناك، أوضحنا فيها أننا في أمس الحاجة إلى هذه الأسلحة وأن لدينا وسيلة النقل الأمينة من بغداد إلى كردستان. وأوصينا الدباغ بالإلحاح على طلب الجواب وعدم العودة ما لم يحصل عليه. وعاد بعد أيام ليخبرنا:

ـ رفض المكتب السياسي طلبنا وجمع الأسلحة كلها في إحدى غرف المقر العام وكتب في ورقة متروكة مع الأسلحة العبارة التالية: «هذه أسلحة السلطة وتعاد إليها».

هذا مع العلم أن المكتب السياسي كان على علم بوجود حشودنا

في نيوزنك وفي مناطق أخرى وبحاجتنا الماسة إلى البندقية الواحدة.

كان الأطرف من كل شيء مجيء أعضاء المجلس التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي، وبالأحرى مجيء يوسف حنا إلينا. كان هذا الرجل مسؤولاً حزبياً عن كتلتنا البرلمانية المزعومة، التي قلصها البعث الحاكم، في المجلس التشريعي بكردستان. وكان يعرف جيداً وضعنا وحاجتنا إلى الإطلاقة الواحدة لأولئك الذين كان يسهم في إرسالهم إلينا. وعندما تقرر أن يستقيل هو وزملاءه ـ ولو بعد فوات الأوان ـ في المجلس التشريعي والتنفيذي ليلتحقوا بالجبل، أي بصفوف فصائلنا المسلحة، طبقاً لتوجيه الحزب، نفذ يوسف القرار على الوجه التالي: استقال بنفسه من عضوية المجلس التشريعي وأعاد إلى السلطات البندقية والمسدس اللذين كانا في حوزته، وأوصى زملاءه في التشريعي الشاعر دلزار وسامية الچاوشلي وخيري القاضي وعضوي المجلس التنفيذي شيروان علي أمين وأحمد حامد بأن يحذوا حذوه، بالاستقالة وتسليم الأسلحة. وأضاف إلى ذلك بالنسبة لعضوي المجلس التنفيذي، أن يبقيا في مكاتبهما، حتى بعد تقديم الاستقالة، لحين إتمام الدور والتسليم كي لا يتهما لاحقاً بالسرقة. وقد نفذ الرجلان ما أوصى به إذ استقالا وبقيا ينتظران الدور والتسليم حتى اعتقلتهما السلطات القمعية ووضعتهما تحت التهديد والتعذيب وأسقطتهما سياسياً.

هكذا كان موقف عبد الرزاق الصافي وباقر إبراهيم وغيرهما من أعضاء المكتب السياسي الذين كانوا باقين في بغداد حتى نيسان ١٩٧٩. وهكذا جاءنا يوسف حنا ليساهم، كعضو في اللجنة المركزية، في قيادة الكفاح المسلح ضد الحكم البعثي.

❀ ❀ ❀

في حزيران ١٩٧٩ سافرت مع جلال الدباغ من مهاباد إلى طهران بهدف تدبير السفر من هناك إلى سوريا، تنفيذاً لقرار هيئتنا الحزبية

(هندرين). وقع الاختيار علي لأني كنت أملك جواز السفر ودخلت إيران بصورة شرعية. وكانت مهمتي أن أعرض على المكتب السياسي أوضاعنا واحتياجاتنا إلى المال والسلاح.

التقينا في طهران مع عضو اللجنة المركزية عادل حبه، الذي كان يتقن اللغة الفارسية. وقد اعتقل في ١٩٦٤ داخل إيران، حيث كان في طريق العودة من أوروبا إلى العراق. وحكم عليه بالسجن بتهمة التجسس وقضى سبع سنوات هناك. وعاد إلى العراق بعد ذلك. وها هو في طهران من جديد. ساعدنا في إسكاننا داخل شقة عائلة تودوية مكونة من مهندس شاب وزوجته الطالبة الجامعية. كان في شقة هذا المهندس جهاز فوتو ستنسل مع رونيو. وجواباً على سؤال مني قال:

ـ أملك هذه الأجهزة منذ أكثر من سنتين وجلبتها من تركيا واستخدمها في إعادة طبع المنشورات التودوية التي أوزعها من جديد.

عندئذ فكرت من جديد فيما كان عليه قادة حزب توده من أوهام حول استحالة تخفي الكادر الحزبي القيادي وبقائه في إيران لمواصلة النشاط الحزبي.

خلال وجودي في طهران زرت مرة أخرى مقر حزب توده وعقدت لقاءاً مع سكرتيره نور الدين كيا نوري، الذي كان قد شغل منصب المسؤول الأول قبل وقت غير بعيد. رغبت في التحدث إليه عن نقطة واحدة: التأكيد على ضرورة بناء تنظيمات حزبية خاصة بتوده في كردستان إيران. وأوضحت لكيا نوري أننا وجدنا هناك شباناً كثيرين يبحثون عن تنظيم ماركسي لينضموا إليه، وأن تجربتنا في كردستان العراق تثبت ضرورة وأهمية حيازة مثل هذا التنظيم. وتساءلت عما إذا كان هناك ما يبرر الامتناع عن تشكيل مثل هذا التنظيم الحزبي. نظر إلي كيانوري بشيء من الغضب وأجاب:

ـ أرجو ألا تتدخلوا في شؤوننا الداخلية الخاصة بنا.

واتضح لاحقاً أن قيادة توده كانت على صلة سرية مع عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردي في إيران غني بلوريان، الذي كان قد قضى أكثر من ٢٥ سنة في السجن وخرج بعد سقوط الشاه متمتعاً بسمعة جيدة. وكانت المراهنة على هذه الصلة، التي انتهت آخر الأمر إلى شق صفوف الحزب واتباع قسم قليل من كوادره وأعضائه لغنى ومن معه من بعض الكوادر القيادية.

لقد بدا لي كيا نوري، حين التقينا لآخر مرة، كرجل مغرور لدرجة خيالية. ومن ناحية أخرى بدا لي قومياً شوفينياً إذ كان يطمح إلى تحويل الحزب الديمقراطي الكردي إلى فرع لحزبه في حين كان يرفض إقرار الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في إيران.

كان لا بد من تمديد فيزنا لكي نسافر بشكل طبيعي ودون وضع العراقيل أمامنا. وعدنا عادل حبه بالتمديد عن طريق الفلسطينيين وأخفق. فذهبنا إلى الشرطة وقدمنا طلباً وأحلنا إلى المحكمة بسبب بقائنا أشهراً بدون الفيزا. غرمنا مئة تومان لكل شخص ومدت الفيزا وأصبح بإمكاننا السفر بشكل نظامي.

٢٠
خارج البلاد من جديد

وصلنا العاصمة السورية وأقمت في شقة مع عضوي اللجنة المركزية مهدي عبد الكريم وسليمان اسطيفان. وكان يتردد علينا كريم أحمد. وعلمت بأن مهدي عين من قبل المكتب السياسي مسؤولاً عن قضايا التنظيم الحزبي في العراق، في حين كان باقر إبراهيم حتى وقت لاحق مشرفاً أعلى على هذه المسائل. وكانت قيادة الحزب موزعة على عدة بلدان أوروبية وعربية. وكان الموقف السياسي لا يزال مرتبكاً وغامضاً إذ لم يكن هناك تغيير في الخط السياسي المتبع رسمياً، كما لم يكن هناك ما يمكن اعتباره تمسكاً بالخط الجبهوي الذي تخلى عنه صدام قبل سنة. وكان الشيوعيون الهاربون إلى خارج البلاد في حيرة من أمرهم. في حين كان الشيوعيون الملتجأون إلى المناطق الجبلية في كردستان يعيشون مع بعض الأمل في أن يتطور نشاطهم المسلح ويصبح حزبهم قوة فعّالة في الساحة السياسية.

بعد انقضاء أكثر من عام على اجتماعي اللجنة المركزية الطارئين، اللذين عقدا في مقر الحزب العام ببغداد ولم تنفذ قراراتهما، هيأ عزيز محمد لاجتماع جديد للجنة المركزية في المهجر ـ في براغ، ضيوفاً على الحزب الشيوعي الجيكوسلوفاكي الحاكم. كان على هذا الاجتماع أن

يعطي عملية انتقال الشيوعيين إلى المعارضة طابعاً رسمياً، ولو جاء ذلك متأخراً. وقد سافرنا نحن من الشام في حين قدم الآخرون من بلدان أخرى إلى مكان الاجتماع. ودار النقاش في جو لم يزل فيه البعض يأمل أو يتمنى رأب الصدع وعودة العلاقات الجبهوية إلى سابق عهدها. وبين مطالبة البعض برفع شعار إسقاط الحكم الدكتاتوري ورغبة البعض الآخر في استعادة العلاقات الجبهوية السابقة، توصل الاجتماع إلى حل توفيقي: رفع شعار إنهاء الدكتاتورية بدلاً من شعار إسقاط النظام الدكتاتوري. على أن الاجتماع سجل تحولاً في سياسة الحزب وأعطى الرد الرسمي الحاسم على مساعي صدام الهادفة إلى تحطيم ح ش ع عملياً دون الإعلان عن ذلك رسمياً. وغادرت براغ عائداً إلى سوريا بقوة معنوية أفضل.

بشيء من الصعوبة استحصلت في دمشق الموافقة الحزبية على القيام بسفرة إلى كردستان تركيا بهدف دراسة الإمكانات لإقامة قاعدة عسكرية داخل كردستان العراق في منطقة بهدينان. واخترت لمرافقتي كادرين شابين أحدهما أحمد كريم ـ من أربيل ـ والثاني عادل علي (أبو حسن من خانقين) وهما بمستوى عضو لجنة المحافظة، بأمل الاستفادة منهما لإنجاز المهمة المعنية. اجتزنا الحدود من مدينة القامشلي إلى بلدة نصيبين الكردية في تركيا، حث اتصلنا هناك مع مسؤول منظمة (كوك) ولقينا منه الترحيب الحار. ومن هناك أوفدت أحمد كريم، بمساعدة كوك، إلى القاعدة الفدائية التابعة للپارتي على مصب الخابور داخل الحدود العراقية. وبعثت معه برسالة إلى مسؤول الپارتي ـ وأظن أنه كان جوهر نامق، الذي رحب بطلبنا لإقامة القاعدة هناك، وترك الأمر لمن ناب عنه، لأنه كان متهيأ للسفر إلى مؤتمر الپارتي. وسافرت بنفسي مع أبو حسن وبرفقة دليل من (كوك) نحو الحدود الإيرانية ـ التركية. كانت فرصة جيدة أن أرى في طريقي المدن الرئيسية في كردستان تركيا، أولها ماردين وهي مدينة صغيرة تقع في سفوح تلة كبيرة أو جبل صغير.

ويشكل العرب نسبة كبيرة من سكانها، رغم أن القرى المحيطة بها كردية تماماً. ويبدو أن هؤلاء العرب وصلوا إلى هناك أيام الامبراطورية العثمانية كي يشكلوا حامية عسكرية أو قوة قمعية مسلحة في يد السلطة ضد السكان المحليين.

بقيت ثلاثة أيام في ديار بكر، وهي المدينة الرئيسية ومركز النشاط القومي التحرري في كردستان تركيا. التقيت هناك بثلاثة من مسؤولي كوك. لاحظت أنهم يتكلمون فيما بينهم باللغة التركية. وحين سألت عن سبب ذلك، مع أنهم أكراد، أجابوا:

ـ هذا الرفيق يتكلم بلهجة (زازا) ولهذا لا نفهم بعضنا ونضطر إلى التكلم باللغة التركية.

في تلك الأيام كان أجاويد رئيس الوزراء. وكان هناك شيء من الحريات. وكنا نسير في أحد الشوارع عندما أشر مرافقي إلى سيارة مغطاة بتلة من القاذورات أمام مبنى بلدية المدينة. فسألت:

ـ ولماذا ألقى بهذه القاذورات على السيارة؟

ـ احتجاجاً من العمال المضربين على عدم دفع رواتبهم منذ شهرين.

إذن كان عمال البلدية مضربين عن العمل. ومطلبهم الوحيد هو أن تدفع إليه رواتبهم. وفي اليوم التالي مررنا بنفس الشارع وكان المنظر متغيراً: الساحة منظفة والسيارة كذلك. وهناك غناء راقص ودبكة جماعية.

ـ إنهم عمال البلدية، يدبكون بمناسبة تحقيق النصر.. أخذوا الرواتب وأنهوا الإضراب.

نمت ليلاً في منزل رجل كهل مالك لحانوت الحلويات. كانت هناك صورة مؤطرة للملا مصطفى البارزاني. وقد قال الرجل، وهو يراني أتفرج على الصورة، «إنه أب الجميع».

في اليوم التالي التقيت، في مدينة باتمان، بشاب قصير القامة وقدم إلي كسكرتير لمنظمة كوك ـ يدعى مصطفى حسن. كان هناك، في تلك المدينة البترولية التي تنتج ما يسد ثلث احتياجات تركيا من الوقود، لكي يتابع معركة الانتخابات النقابية لعمال النفط. وكانت هناك ٣ ـ ٤ قوائم عمالية، إحداها قائمة كوك، التي لم يكن لها حظ كبير ـ حسب تصوري ـ من النجاح. ومهما يكن فإن المعركة الانتخابية كانت تعكس لوناً من الديمقراطية اللبرالية، التي لم ترتح لها الأوساط التركية الحاكمة الأكثر رجعية. وفي منتصف الليل أعلن الحاكم العرفي العسكري عن تأجيل الانتخابات النقابية إلى إشعار آخر. وفي صبيحة اليوم التالي ودعني مصطفى لأبقى ليلة في مدينة تبليس بضيافة الشاب الذي كان مسؤولاً محلياً عن كوك. تفرجت قليلاً على القلعة الأثرية وعلى المدينة التي أنجبت المؤرخ الكردي العظيم شرفخان البتليسي. وحين اتجهت إلى مدينة (وإن) كان علينا قطع مسافة طويلة في سيارة الأجرة على الساحل الجنوبي لبحيرة وان الجميلة المحاطة من جميع الأطراف بحزام جبلي بديع. إن هذه البحيرة جديرة بأن تكون المنطقة السياحية الأولى في الجمهورية الكردية الموحدة، التي ستولد ذات يوم. وتقع مدينة وان على الطرف الشرقي من البحيرة، في بقعة مسطحة خلفها الجبال والمرتفعات وأمامها المياه.

وبعد يومين غادرنا وان واتجهنا إلى بلدة گفر (أو گاور). وأظن أن الاسم كردي أطلق على هذه البلدة يوم كان يسكنها الآشوريون أو فيها معبد آشوري قديم) في محافظة حكاري. لكن الجندرمة التركية أرجعتنا من منتصف الطريق بسبب إعلان منع التجول هناك، في البلدة، على أثر قتل حارسين ليليين من قبل بعض الشبان الأكراد في الليلة السابقة.

في جولتي عبر هذه المدن من كردستان تركيا لاحظت نهوضاً قومياً عارماً بين الجماهير وكرهاً شديداً للحكم التركي، كما لاحظت فقراً

شديداً وبطالة واسعة وجنوحاً عاماً نحو اليسار. كان يتعذر علي فهم اللهجة الكردية المحلية هناك، في جميع المدن التي زرتها مع بعض الفارق بين هذه المدينة وتلك. وهم من جانبهم لم يكن من السهل عليهم فهم لهجتي الكردية السورانية.

عدت في نهاية الجولة إلى نصيبين. وتفرجت مساء على حفلة عرس كردية تقليدية في فسحة صغيرة أمام أحد المباني. كان جماعة كوك قد استغلوا الحفلة، وسط حماس المشاركين، لإطلاق الهتافات السياسية ولتنمية الروح الكفاحية بين الشبيبة.

وجدت في نصيبين أحمد كريم، وقد أنجز مهمته وعاد من الخابور. فقررت بدء العمل من ذلك اليوم لإنشاء قاعدة عسكرية لنا جنب قاعدة البارتي. ووزعت العمل بين الرفيقين، معطياً لأبو حسن المهمة الأقل خطورة (وهي البقاء في الخابور داخل الأرض العراقية، لاستقبال من يصل إليه من فدائيينا) ولأحمد كريم المهمة الأكثر خطورة (وهي الإقامة في نصيبين لاستقبال الوجبات التي سترسل من قبلنا وتسفيرهم، بمساعدة كوك، إلى القاعدة).

أبدى أحمد كريم الاستعداد دون تردد وبقي في نصيبين لتنفيذ المهمات الموكلة إليه. وقد أقام في منزل أحد الأصدقاء من كوك. لكن أبو حسن اعتذر عن البقاء دون ذكر السبب. حاججته، وحاول كثيراً التملص من تبيان السبب. لكنني لم أتركه إلا بعد أن أبان واعترف قائلاً:

ـ إني أخاف ولا أستطيع أداء هذه المهمة.

أصبحت واثقاً من أن السبب الوحيد لتهربه من هذه المهمة هو الجبن وحسب. فتخليت عن فكرة إبقائه لقناعتي بأن رجلاً جباناً لا يصلح لأداء مهمة من هذا القبيل. وأبلغته بأن يستعد للعودة معي إلى الشام، وأن يتحمل النتيجة المترتبة على موقفه هذا. وعندما وصلنا

إلى دمشق لم أتركه دون حساب واستحصلت الموافقة الحزبية على قرار يقضي بإقصائه عن مركزه الحزبي وإبقائه فقط عضواً في الحزب. وقد انضم بعد ذلك إلى بطانة فخري كريم، الذي كان مقيماً في بيروت كمسؤول حزبي وكسفير مطلق الصلاحية، لعل ذلك يستعيد له مركزه الحزبي. ولم يلبث أن استعاده فعلاً عن طريق حيلة رخيصة إذ سألوني عما إذا كان بالإمكان رفع العقوبة عنه في حالة ندمه عن موقفه السابق وسفره إلى كردستان للانضمام إلى صفوف الفصائل المسلحة. وأفتيت بجواز ذلك. وعلى أثر ذلك قدم أبو حسن رسالة إلى مرجعه الحزبي مبدياً فيها الرغبة في تصحيح خطأه السابق واستعداده للسفر إلى كردستان. واعتبرت هذه الرسالة سبباً كافياً لرفع العقوبة مع إبلاغه ـ وهذا ما كان متفقاً عليه مسبقاً ـ بأن الحزب في حاجة إلى خدماته ببيروت ولهذا يطلب منه البقاء، مع تقدير موقفه الجيد.

ذكرت ذلك لأضيف بأن هذا المناضل المزعوم قد أرسل في وقت لاحق ليقيم في القامشلي ويدخل في بطانة جلال الدباغ مدة طويلة مشاركاً في تسفير الفدائيين إلى كردستان. لم يكن على استعداد للإقامة في الخابور حين طلب منه ذلك كي يستقبل الفدائيين المرسلين إليه. ولكنه قبل البقاء في القامشلي قرابة عامين ليسفر من هناك الفدائيين إلى الخابور. قبل ذلك لأنه لم تكن هناك مخاطر عليه، بل الامتيازات غير المشروعة في معيشته. ولم يكترث، لا هو ولا الدباغ ولا المكتب السياسي أو السكرتير، لانتقادات واحتجاجات العشرات والمئات من الشيوعيين الذين مروا من هناك وأبدوا عدم الرضا والسخط على سلوكه وسلوك الدباغ.

❀ ❀ ❀

حين عدت من تركيا إلى الشام في ١٨ أيلول ١٩٧٩ أبلغت كريم أحمد وغيره بنتائج زيارتي إلى هناك وترتيب الأمور للبدء فوراً بإرسال

الشباب وإنشاء أول قاعدة عسكرية لنا في منطقة بهدينان. استحصلت الموافقة على بدء العمل وسافرت إلى بيروت (وكنت أملك هوية الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) حيث كان فدائيونا المدربون في قواعد تابعة للجبهة الديمقراطية بلبنان. وهيأت الوجبة الأولى المؤلفة من خمسة رفاق أو ستة بينهم نعمان التميمي، الذي افترض أن يذهب ويكون المسؤول العسكري عن القاعدة الجديدة. وكانت الخطة التي رسمتها للمرحلة الأولى من العمل كالتالي:

ـ إرسال ٣٠ ـ ٤٠ شخصاً لإنشاء قاعدة الخابور بصورة مبدئية.

ـ إرسال ٤٠ ـ ٥٠ فدائياً لإنشاء قاعدتين أخريين صغيرتين بين الخابور وبين منطقة بالك، بغية تكوين جسر للعبور من الخارج إلى كردستان عبر خط الحدود العراقية ـ التركية.

ـ توزيع ما يرسل من رجال وسلاح بعد ذلك بصورة عقلانية على جميع المناطق لتواجد فدائيينا وتحشداتنا المسلحة في كردستان.

وقد رفض نعمان السفر قبل وصول زوجته، التي كانت في العراق آنئذ. واضطررت في اللحظة الأخيرة إلى إرسال قادر رشيد، الذي قبل المهمة بدون تردد، ليكون له شرف المشاركة في إنشاء القاعدة ولو لمدة أسبوعين. كنت أسفر وجبة واحدة كل أسبوع. وسفرت مع الوجبة الثالثة الضابط السابق أحمد الجبوري ليحل محل قادر رشيد الذي لم يكن صالحاً لقيادة أي قاعدة عسكرية.

كانت الوجبات الأولى تذهب إلى هناك لكي تبني البيوت وتسهم في إنشاء القاعدة وسط صعوبات جدية مالياً ومعنوياً. لم نملك هناك ولا قطعة سلاح ولم يكن بالإمكان أخذ الأسلحة مع رجالنا حين يذهبون. وقد اختير لبناء القاعدة نفس المكان الذي بنى فيه البارتي قبلنا قاعدته.

مع مواصلة إرسال الرجال حاولت تدبير إرسال السلاح أيضاً.

أبدى صالح دگله استعداده للتعاون معي في هذا الميدان وسهل لي لقاء مع الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أبو علي مصطفى الذي أبدى بدوره الاستعداد لمساعدتنا بالسلاح وغيره. وقد نقل دگله نفسه أول وجبة من السلاح الذي أخذ من جماعة أبو علي مصطفى، إلى كردستان تركيا ليؤخذ من هناك إلى رفاقنا. وبسبب خطأ فني في تدبير الأمور كان السلاح المنقول ست غدارات إيطالية الصنع بدلاً من ستة كلاشنكوفات سوفيتية. كان ذلك مبعث الفرح والأسف معاً ـ أن يصل إليهم السلاح فإن ذلك شيء رائع. أما أن يكون هذا السلاح غدارات، فإن ذلك لشيء مؤسف. ومع حلول السنة الجديدة ١٩٨٠ أمكن إرسال أول وجبة من الكلاشنكوفات ذات الأخمص الحديدي. وجعل ذلك من عيد رأس السنة عيدين لدى رفاقنا الفدائيين في القاعدة.

أنجزت بنجاح المهمة التي بادرت بنفسي إليها في أواخر ١٩٧٩ وتابعتها خلال الفترة الأولى من العمل: مهمة إرسال الفدائيين من الخارج إلى كردستان وإنشاء قواعد فدائية تابعة لنا في منطقة بهدينان وإقامة جسر يوصل إلى قواعدنا في منطقة سوران ـ وهي ذات المهمة التي أردنا البدء بتنفيذها من نيوزنك في نيسان ١٩٧٩ وعرقلها توما توماس، كما أسبقت. وعندما كانت الخطوات الصعبة الأولى قد أنجزت أتى كريم أحمد، عضو المكتب السياسي المقيم في سوريا، لينحيني وليتولى بنفسه المسؤولية، وهو غير قادر على متابعتها بصورة مناسبة. وقد أرسل نعمان التميمي إلى القاعدة، بعد إنشائها، وأصبح نفسه الكل في الكل، باسم المكتب السياسي، من الشام، ومنح نفس الصلاحية إلى التميمي هناك. وألغى البرنامج الذي كنت قد وضعته للعمل وأبلغت به أحمد الجبوري في حينه. وبالتالي عرقل تطور العمل هناك.

ساهمت فترة محدودة في تهريب السلاح من بيروت إلى كردستان ولم أنجح في تحقيق الكثير من النجاحات. وقد سرقت مني ـ في أحد شوارع بيروت ـ سيارة مرسيدس مهيأة لهذه المهمة. وكانت مشتراة بمبلغ (١٥) ألف ليرة لبنانية واستعنت بشخص من جماعة صلاح بدر الدين في بيروت. وأبلغني بعد السفرة الأولى أو الثانية بأن السيارة قد كبست في الطريق بما حملته من البنادق وأنه تمكن من الهروب مع السائق بصعوبة. ولم أكن في وضع يمكنني من التوثق عما إذا كان هذا الرجل صادقاً أم سارقاً خداعاً. وقطعت معه الصلة كلياً وعاتبت صلاح أيضاً. وعلى أثر ذلك تخليت عن المشاركة في تهريب السلاح.

أقمت فترة في حي الفاكهاني ببيروت الممزقة المضطربة. كانت المدينة مقسمة. فيها حكومتان رئيسيتان هما حكومة ياسر عرفات وسائر المنظمات الفلسطينية، من جهة، وحكومة الميليشيات المارونية، من أخرى. وكان للحكومة اللبنانية وجود صوري وألحق في توفير بعض الخدمات العامة ودفع الرواتب وحسب. وباستثناء الحزب الشيوعي اللبناني فإن جميع المنظمات السياسية والعسكرية في بيروت وفي لبنان كلها كانت قائمة على أساس ديني أو طائفي. وحتى الأكراد الموجودون هناك ـ وهم أفقر الفئات، وأغلبهم لم يملكوا الجنسية اللبنانية، كانت لهم أحزابهم وتشكيلاتهم المسلحة ـ وهي كانت بوجه عام أحزاباً كارتونية وتشكيلات مسلحة من المرتزقة. وكانت الصدامات المسلحة تحدث بصورة مستمرة تارة بين القطاعين الإسلامي والمسيحي وأخرى بين هذه وتلك داخل أحد القطاعين. وفي وقت متأخر من إحدى الليالي اخترقت الرصاصات شبابيك شقتنا، التي كانت في الطابق السابع من إحدى العمارات. كان القتال بين جماعتين ناصريتين ولم يهدأ إلا بعد أن تدخلت منظمة فتح ودعت الطرفين في مكبرة متحركة إلى الكف عن الاشتباكات.

كنت أتفرج مراراً على الطائرات الإسرائيلية من طراز إيف ١٥

و ١٦، وهي تطير فوق بيروت وتطلق في الجو البالونات الحرارية لتضليل الصواريخ المحتمل إطلاقها نحوها. وهي لم تقصف أهدافاً معينة في تلك الأيام، إنما كانت تحلق للاستطلاع وللتخويف ولإظهار التفوق الإسرائيلي. وكانت تواجه نيران المضادات الجوية غير الفعالة.

في كثير من الأيام كنت أجد فرصة لممارسة هوايتي المحببة في السباحة داخل مياه البحر. وكنت أكثر من أكل البرتقال صغير الحجم، الذي كان يباع الكيلو غرام الواحد منه بنصف ليرة (وكنت أبدل الدينار العراقي بحوالي ٩ ليرات لبنانية) في حين كان ثمن كغم واحد من البرتقالات الكبيرة بـ ٣ ـ ٤ ليرات. وقد سكنت فترة في شقة تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، دبرها لي دگله الذي كان على صلة وثيقة مع قيادة تلك المنظمة. وتركتها بعد أن تبين أن جاري كان عراقياً من أزلام المخابرات البعثية وأنه كان يراقبني بعد أن علم بأني أتكلم اللهجة العراقية.

كانت بيروت، رغم الحرب الأهلية والدمار الشامل، مدينة العجايب والغرايب. وفيها أناس من شتى الأقطار والأقوام والأجناس. وتكيف السكان مع ظروف الحرب وسفك الدماء. في هذا الشارع تجد الصدامات الدموية العنيفة وفي ذلك تجد مجالس الفاتحة وبينهما الناس يدخلون السينمات والبارات المزدحمة والموسيقى تصدح والشبان يرقصون وكأن شيئاً لم يكن. ورغم السنوات المتعاقبة من استمرار الحرب الأهلية فإن وضع البلاد الاقتصادي كان جيداً والإنتاج الصناعي ـ الزراعي كان مستمراً والليرة اللبنانية كانت قوية (حوالي ثلاثة ليرات بدولار واحد).. الخ. ومن المؤكد أن وجود المنظمات الفلسطينية وإنفاق ما كانت تأتي به من الدولارات كان في مقدمة الأسباب لمتانة الوضع الاقتصادي وقوة العملة، بدليل أن الوضع تغير كلياً بعد الغزو الإسرائيلي وإخراج الفلسطينيين عام ١٩٨٢.

كان بمستطاع الإنسان أن يحصل في أسواق بيروت على كل السلع وعلى العجائب والغرائب. وكان من المضحكات أن وجدت في حانوت مصلح الأحذية (الإسكافي) ليس فقط مكينة التصليح الصغيرة التي يستخدمها لإصلاح حذائك بل كذلك الفواكه المعروضة على أرض الحانوت أمامك للبيع وأنواع السجاير الأجنبية على أحد الرفوف وأنواع المشروبات الروحية على رف آخر.

كانت هناك، في بيروت، جالية كردية ـ وهي أفقر خلق الله هناك ـ قدمت أصلاً من كردستان تركيا هرباً من الجوع أو من ظلم الإقطاع. وغالبية أطفالها أميون يمنعون من دخول المدارس. وهي تعيش في أكواخ حقيرة مشيدة من الصفائح في بعض أنحاء بيروت.

رغم جميع متاعب الحرب الأهلية فإن بيروت كان ملجأ لأعداد كبيرة من العراقيين الهاربين من وجه العدالة البعثية. وكذلك من عملاء النظام البعثي الذين كانوا يمارسون الاغتيالات الإجرامية ضد خصوم النظام العراقي. وكان الشاب العراقي تحسين الشيخلي، المسؤول هناك عن جماعة صغيرة من العراقيين الذين عرفوا في ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ بالثوريين، قد اغتيل هناك على أيدي أزلام السلطة العراقية. وسمعت لاحقاً أن أحد عملاء المخابرات العراقية كان مندساً بينهم وتواطأ لاغتياله.

كان عدد الشيوعيين الهاربين إلى لبنان كبيراً أيضاً. وكانت المنظمات الفلسطينية الرئيسية تساعدهم بأشكال شتى. غير أن الجبهة الديمقراطية بقيادة نايف حواتمه كانت الجهة الرئيسية التي تبنت تقديم المساعدات وإقامة معسكرات التدريب لشبابنا. وكان الكثيرون من الشيوعيين العراقيين هناك ساخطين على العضو الاحتياط في اللجنة المركزية فخري كريم زنگيه معتبرين إياه امبراطوراً صغيراً. وكان فخري قد أصبح مسؤولاً عن الشيوعيين العراقيين هناك، وأقام صلات واسعة مع الفلسطينيين واستغل مركزه الحزبي والإمكانات المتوفرة بين يديه

لكسب هذا وترضية ذاك، رغم أن سمعته كانت سيئة بين العراقيين.

كان لي في بيروت وقت الفراغ الذي استثمرته للكتابة. فطبعت كتاب (الراية ترفرف) الذي كان حلقة جديدة من (ذكريات شيوعي من العراق). وكنت قد كتبتها سابقاً وقدمتها إلى الرقابة المركزية في بغداد عام ١٩٧٦ ولم أحصل على ترخيص للطبع. وكتبت وطبعت في بيروت حلقة ثالثة بعنوان (إعصار في الخريف) ـ وكانت مكرسة لانتفاضة تشرين ١٩٥٢. وقد ساعد في الإشراف على طبعهما حسين جواد القمر. وتركتهما هناك بعد إنجاز الطبع وقبل تسديد كامل ثمن الطباعة. وخسرت من وراءهما مبلغاً. ووقعت عقداً مع محمد كشكول لطبع كتاب (أيام صعبة) في دار ابن خلدون، على أن أتقاضى ١٥٪ من ثمن الكتاب. ولم أدر بعد ذلك ما جرى ولم أقبض شيئاً ولم أدفع شيئاً.

استلمت برقية من الشام، وأنا في بيروت، تخبرني بوصول ابني الصغير علي البالغ من العمر (١٢) عاماً والذي كان قد قضى ستة أشهر بين فدائيينا في قاعدة نيوزنك قبل أن يمكن تسفيره عبر إيران إلى سوريا. فسافرت إليه. وفي أول لقاء معه بدمشق سألته عما يحتاج. أجاب فوراً:

ـ أريد مسدساً.

ـ أتريد مسدساً حقيقياً؟

ـ لا.. أريد مسدس أطفال شبيه بالحقيقي وينبعث من إطلاقاته صوت قوي.

ـ أين هو موجود هذا المسدس؟

ـ هنا في دمشق.. رأيته أمس في السوق.

ـ حسناً يا ولدي. سأشتريه لك في بيروت.

بعد وصولنا إلى بيروت، اشتريته له فعلاً. ثم كررت السؤال عليه:

ـ وماذا تحتاج، بعد أن أصبحت صاحب مسدسك؟

ـ أحتاج مئتي إطلاقة إضافية.

ـ سأشتريها لك. وهل تحتاج شيئاً آخر؟

ـ أحتاج فقط حزاماً جلدياً وغلافاً للمسدس.

ـ سأشتريهما لك أيضاً.. وهل تحتاج شيئاً آخر؟

ـ كلا، لست بحاجة إلى شيء آخر.

وهكذا تحققت أمنية الطفل علي، الذي كان قادماً من أجواء الكفاح المسلح، فحصل على مسدسه المفضل. ولم يطلب شيئاً آخر سواه رغم أنه كان في حاجة إلى الحذاء والملابس وغيرها. وهو لم ينعم بمسدسه طويلاً إذ أخذه منه ضابط سوري أرعن في مطار دمشق، حين أخذته خالته إلى هناك لتودعه إلى الاتحاد السوفيتي حيث كان قد قبل في مدرسة الصليب الأحمر السوفيتي بمدينة ايفانوفا. وقد أخبرتني هناء بأن الدموع ترقرقت من عيني الطفل حين انتزع وصودر مسدسه المزعوم.

❀ ❀ ❀

في مطلع ١٩٨٠ قدمت في بيروت رسالة إلى المكتب السياسي مبدياً فيها استعدادي للعودة إلى العراق بهدف مواصلة العمل الحزبي السري والمشاركة في إعادة بناء التنظيم. وقوبل طلبي بالصمت ولم أتلق الجواب يوماً.

وفي ربيع ١٩٨٠ كنت قد أنجزت كتابة القسم الأساسي من تقييم سياسة ح ش ع لفترة النظام البعثي (فترة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٩) وأرسلت نسخة منه إلى المكتب السياسي. وكانت مطاليبي الأساسية، التي قدمتها ولم أتزحزح عنها منذ ١٩٧٩، هي:

١ ـ إصدار وثيقة لتقييم سياسة الحزب السابقة.

٢ ـ عودة القيادة من خارج البلاد إلى كردستان.

٣ ـ عقد مؤتمر جديد للحزب.

وكنت آمل أن يؤدي التقييم والمؤتمر إلى حل مشاكل الحزب الداخلية المتأزمة جراء أخطاء الماضي المتعاقبة.

وكان الاجتماع الوشيك للجنة المركزية فرصة جديدة لعرض ومناقشة هذه الأمور. ورساطير السعد في هذه المرة على العاصمة الألمانية برلين مكاناً للاجتماع. كانت المناقشات في هذا الاجتماع أحدّ مما في اجتماع السنة السابقة. وكان عدد من أعضاء اللجنة المركزية مصرين على أن يدفع المكتب السياسي الحساب عن أخطائه، فيما كان سكرتير الحزب مصراً على العكس. وقد طالب أكثر من نصف الحاضرين من أعضاء اللجنة المركزية بتجديد انتخاب المكتب السياسي. غير أن عزيز محمد رفض بإصرار. وكان السبب واضحاً: أن إجراء الانتخابات كان يؤدي إلى تغيير تركيبة المكتب السياسي بإبعاد بعض أعضائه وإدخال بدائل غير مرغوب فيها. فقلت لعزيز:

ـ لو طالبني ربع أعضاء اللجنة المركزية بمثل هذا الانتخاب، وأنا سكرتير للحزب، لاستجبت لهم فوراً وأجريت الانتخاب.

فهم عزيز جيداً ما أقوله وخشي من أن يزداد الضغط عليه ويضطر على إجراء الانتخابات. فانفجر، على خلاف عادته، سعياً لحسم الموقف على الوجه الذي راق له. وتم له ما أراد إذ انتهى الاجتماع دون أي انتخاب. تأجل الانتخاب إلى ما بعد أكثر من سنة. ومن الناحية السياسية لم يأت الاجتماع بشيء جديد. بل أكد على نفس النهج الذي رسمه اجتماع السنة السابقة. والجديد الوحيد، الذي ثبت فيه الاجتماع رأيه كان قضية المباحثات الجارية في دمشق لعقد تحالف وطني ضد النظام

الدكتاتوري الفاشي. فقد قرر الاجتماع دخول الحزب في هذا التحالف. ولكنه رفض الموافقة على أن تكون قرارات الجبهة بأغلبية الأصوات عند التصويت، بعكس ما كان ممثلو الحزب قد وافقوا عليه في دمشق.

كانت الأطراف المشاركة في الاجتماعات هي ح.ش.ع. والاتحاد الوطني الكردستاني و پ.د.ك. و ح.س.ك. وحزب البعث العراقي الهارب من نظام صدام والحركة الاشتراكية العربية.. الخ. وكانت نقطة الضعف الرئيسية في هذه المباحثات هي أنها جارية في المهجر، بعيداً عن الجماهير العراقية. فضلاً عن أن بعض أطرافها كان أقرب إلى التنظيمات الكرتونية وأكثر استعداداً للتأثر بالضغوط الخارجية.

❀ ❀ ❀

كان آخر لقاء لي مع خالد بكداش في منزله بحي ركن الدين في دمشق، قبل مغادرة سوريا. كان بكداش قد دعانا، نحن فريقاً من مسؤولي ح.ش.ع.، إلى بيته لتناول العشاء. وأود الإشارة إلى أن بكداش كان رجلاً مضيافاً وافر الكرم، بعكس البعض الآخر من قادة الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان. ولم يكن هناك شيء محدد للتباحث بشأنه. ضمن التطرق إلى أمور مختلفة سألت بكداش عن تفسير لموقف حزبه في تجاهل الحقوق القومية للأكراد في سوريا. فأجاب بقدر من الغضب واللهجة البيروقراطية:

ـ أنت يساري طيلة عمرك، وستظل كذلك يا بهاء!

أحسست من رده، الذي لا شأن له بسؤالي، أنه يتحرج من مناقشة هذه المسألة إذ كان يتأتى عليه الدفاع عن سياسة خاطئة ومنافية ليس فقط للمبادىء الأممية في المساواة بين الأقوام والأجناس، بل كذلك للمبادىء الديمقراطية في حقوق البشر عامة. وفي الواقع كان موقف بكداش وحزبه من هذه المسألة خطأ جزئياً صغيراً وقليل اوهمية إذا قورن

بخطه السياسي العام الخاطىء من أساسه منذ أمد طويل. وقد كففت عن مناقشة بگداش وتمنيت مع نفسي مرة أخرى لو أن هذا الزعيم التأريخي للحركة الشيوعية في سوريا، الذي لعب دوراً نضالياً مجيداً في فترة مضت، قد تخلى عن الزعامة وجلس في منزله معززاً مكرماً قبل أن يتحول إلى عرقلة كبيرة لتطور هذه الحركة في بلاده.

❀ ❀ ❀

كنت على وشك مغادرة دمشق عندما تلقيت خبراً هزني من الأعماق وأصابني بصدمة عنيفة ـ خبر اعتقال زوجتي عائدة ياسمين من قبل سلطات النظام الفاشي في بغداد. كان الخبر موثوقاً جلبه شخص موثوق وأخبرني أنها اعتقلت في مساء ١٥ تموز ١٩٨٠، قبل حوالي عشر ساعات من موعد سفرها المقرر إلى كردستان، ونشأ لدي اعتقاد راسخ بأنها ضحية الاندساس في بقايا التنظيمات الحزبية، التي كانت تقودها منذ أكثر من سنة. أصبحت صورة عائدة شريكة حياتي ورفيقة نضالي، ماثلة في ذهني على الدوام ولم يعد بإمكاني أن أفارقها لحظة. غدوت أتذكر مختلف أحداث الماضي في حياتنا، قبل وبعد زواجنا، ورسائلها إلي بعد فراقنا. ترسخت لدي القناعة بأنه الفراق الأبدي، بأني فقدتها إلى الأبد. وتذكرت كلامها يوم اتفقنا على الزواج في بغداد قبل اعتقالها بأكثر من ١٣ سنة، حين قالت: «ومن يقول أنك لا تخسرني قبل أن أخسرك؟» أعطيت لإعلام الحزب صورتنا المشتركة، التي أخذناها في بغداد مع صغيرنا علاوي قبل سفري إلى بلغاريا عام ١٩٧٨، وهي الصورة التي دخلت في پوستر نشر خلال حملة المطالبة بإطلاق سراحها.

في بيروت ودعت شقيقة زوجتي هناء، وهي تذهب إلى أحد معسكرات التدريب الفدائية بلبنان. ولم يكن في جيبي ما أقدمه لها من نقود. فقدمت إليها محبسي الذهبي، الذي كنت أحمله لأبيعه عند الحاجة. وغادرت دمشق بصحبة توما توماس وسليم إسماعيل متجهين

إلى قاعدتنا الفدائية على مصب الخابور في كردستان العراق. كان جواز سفري يمنياً صادراً في عدن استحصله لي الاخوان في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. وقد اتصلنا في نصيبين بالأصدقاء في كوك ووصلنا برفقة أحدهم لنا في سيارة أجرة إلى النقطة التي نزلنا عندها، قرب بلدة (أولو دره)، لنسير مشياً أو ركوباً على البغال نحو القاعدة.

وصلنا قاعدة الخابور ورأيتها لأول مرة، وهي التي أعتبر نفسي المؤسس الأول لها. وبقيت فيها أسبوعاً كاملاً. وقد تداخلت مقراتنا مع مقرات البارتي، حيث كان موضع قيادتهم في منطقة بهدينان. وكان بيننا وبين أرض كردستان تركيا نهير صغير في تلك المنطقة ونهر الخابور فيما بعد. وقد استمتعت بالسباحة في أحواض عميقة ورائعة. وشهدت صداماً مسلحاً استمر لبضع ساعات بين مفرزة من القوات العسكرية التركية وبين فريق صغير من مهربي المواشي عبر الحدود إلى العراق. ولم يتدخل الفدائيون في الأمر، لا رفاقنا ولا البارتيون. وانتهت المعركة بهزيمة المهربين، بعد أن أفلحوا في تهريب قسم من مواشيهم إلى داخل الأراضي العراقية. وبعد انتهاء المعركة زارنا عقيد من الجيش التركي وشرب عند توما الشاي وترك لفدائيينا أربعة خرفان ليذبحوها لأنفسهم.

قمت بجولة استطلاعية حول القاعدة ولاحظت أن المنطقة غنية بأشجار الجوز ولكنها لم تحمل ثمراً في ذلك الموسم. ولما سألت عن السبب قيل لي أن موجة برد شديدة في نيسان كانت السبب لهذه الظاهرة. وكانت هناك قرية صغيرة تسمى (يكماله) وهي ثالث قرية كردية دخلتها وحملت نفس الاسم. وفي القاعدة نفسها لاحظت وجود نسبة كبيرة من الرفاق العرب، بضمنهم فصيل من الفدائيات الشيوعيات. بهذه المناسبة أتذكر عملية عسكرية قام بها فدائيو تلك القاعدة ضد المرتزقة (الجحوش) في المنطقة. فقد طوقت مفرزة فدائية مؤلفة من الفتيان

والفتيات ـ كما روى أحدهم لنا لاحقاً ـ عدداً من الجحوش ودخلت فتاة فدائية أحد البيوت المطوقة، حيث كان يوجد أحد الجحوش. استسلم الجحش وسلم بندقيته وبقيت المشكلة الرئيسية لديه هي أن من داهمه وأرغمه على الاستسلام كان امرأة. لو كان رجلاً لهانت المصيبة! أما أن تأسره امرأة فإنها لمصيبة كبرى وعار لا يمسح!

تركت القاعدة بصحبة فدائي شاب من أهالي زاخو مشياً ووصلنا (أولودره). كنت أعرف قبلئذ أن هناك نوعين من أشجار البلوط أحدهما هو البلوط الاعتيادي الذي يشكل تسعة أعشار الغابات في منطقة قره داغ والثاني هو بلوط العفس الذي يثمر البلوط والعفس معاً. وفي طريقي إلى أولودره رأيت نوعاً ثالثاً منها يسمونه هناك (يلو) ويتميز بأن ثمرته من البلوط غليظ وقصير، بخلاف البلوط الاعتيادي.

ركبنا من أولودره سيارة أجرة وبت في تلك الليلة ببلدة (جزيرة) في ضيافة كردي كان سابقاً من فدائيي البارتي وأصبح لاحقاً من مؤيدي كوك. وقد مررت من جديد، بصحبة رفيقي العراقي وشاب من كوك، بتلك المدن التي مررت فيها أيلول ١٩٧٩، حتى وصلنا مدينة وان. وفي اليوم التالي سافرنا إلى قصبة (باشقلعه) القريبة من الحدود التركية ـ الإيرانية بأمل تدبير اجتياز الحدود تهريباً. ومن هناك ركبنا سيارة بمصاحبة صديق آخر من أكراد المنطقة ووصلنا بيت الشعر لغنام كردي قرب الحدود، حيث استضافونا وأطعمونا. وحين سألنا صاحب البيت عما إذا كان بالمستطاع مساعدتنا لاجتياز الحدود ليلاً أجاب الرجل ـ وهو طويل القامة ويقارب الستين من عمره ولكنه قوي كالحصان:

ـ ولماذا تريدون أن تجتازوا ليلاً؟ لماذا لا تذهبون في النهار؟

ـ وهل يمكن الاجتياز نهاراً؟

ـ إنه سهل.. تدفعون مبلغاً زهيداً وتعبرون الحدود في وضح النهار وبدون خوف.

ـ إذن دبروا لنا الأمر وسنكون ممتنين.

أرسل الرجل ابنه الشاب فوراً إلى حارس الحدود التركي، الذي كان يبعد عن البيت حوالي كيلومترين. وحين عاد الشاب أعلن لنا:

ـ اتفقت معه على ذهابكما في الساعة الواحدة بعد الظهر لقاء دفع ما يعادل ديناراً ونصف دينار لكل شخص، أي أقل من تسعة دولارات لكليكما.

اجتزنا الحدود بأمان في الموعد المحدد ودفعنا المبلغ. وكان ابن الغنام في وداعنا. وحين اقتربنا من الجندي الحارس كشف هذا الأخير من مراقبته بالناظور للأماكن المجاورة. فعلق مرافقنا الشاب:

ـ إنه ينظر حواليه خشية أن يكون هناك حارس آخر يراه من بعيد ثم يقسم معه هذا المبلغ.

بعد اجتياز خط الحدود، الذي كان محروثاً بعرض متر واحد، أصبحنا نسير في منطقة شكاك من كردستان إيران التي كان يسيطر عليها الحزب الديمقراطي الكردي. وبعد دقائق صادفنا سيارة جيب إيرانية تسير في طريق شديد الوعورة والانحدار. ونزلنا في أول قرية صادفناها بعد أن قيل لنا أن فيها مقراً لفدائيي الحزب المذكور. والتقينا بمسؤولهم المدعو ملا عارف، الذي انصرف بجل اهتمامه إلى مرافقي الشاب الذي كان جميلاً. وعلى أي حال فإن الملا ساعدنا للوصول في إحدى السيارات إلى مقر (سنار آغا) الشكاكي الذي كان مسؤول جماعة قاسملو عسكرياً في المنطقة. وكان سنار هذا من الأغوات الملاكين. وكان لاجئاً في كردستان العراق لسنوات أيام حكم الشاه. وكنت قد التقيت به هناك في منطقة بالك سابقاً. فعرفني حين وصلناه ورحب بنا، وأصر على بقائنا عنده لليلتين على الأقل. كان يقيم معه في نفس (الكبره)

طبيب كردي قادم من فرنسا متطوعاً لخدمة الحركة التحررية الكردية في إيران. وكان سنار يتعامل مع هذا الطبيب ببساطة واحترام، بعكس تعامله، الذي كان يتخذ طابعاً إقطاعياً تقليدياً مع المسلحين الموجودين حواليه.

في اليوم التالي غادرنا مقر سنار في سيارة جيب لنتوقف في مقر قيادة البارتي، في ضيافة سكرتيره علي عبد الله الذي استقبلنا بحفاوة. التقيت وتباحثت معه ومع رئيس الحزب مسعود البارزاني وناقشنا الأوضاع السائدة واتفقنا على صيغة بيان مشترك موجز، على أن يحظى بقبول هيئتنا القيادية (هندرين) قبل أن يعتبر منتهياً وقابلاً للنشر، آخذاً بنظر الاعتبار أنني غير مخول بإصدار مثل هذا البيان. كان مقرنا القيادي في نيوزنك، بجوار مقرات أ.و.ك. و ح.س.ك.، بعيداً عن مقر قيادة البارتي. وكنت على قناعة راسخة بأن علينا، نحن الشيوعيين، أن نقيم علاقات متوازنة مع هذه الأطراف كلها وأن نتصرف بما يؤكد صداقتنا للجميع وعدم إقحام أنفسنا في المشاكل والصراعات الموجودة بينهم. من هذا المنطلق أردت إصدار البيان المشترك الموجز بيننا وبين البارتي.

أوصلتني سيارة البارتي إلى قرية (درمان آوا) القريبة من نيوزنك، حيث انقطع طريق السيارات. وأثار انتباهي، وأنا جالس على نبع ماء بارد، وجود شجرة صفصاف ضخمة هي أضخم شجرة أراها من هذا النوع طيلة عمري. أبديت تعجبي منها. وقال قروي مسن جالس هناك:

- هذا الصفصاف زرع من قبل صوفي عبد الله قبل أكثر من سبعين عاماً.

- رحمك الله يا صوفي عبد الله.

- إنه لا يزال حياً وبصحة جيدة وعمره أكثر من مئة سنة.

تابعنا السير، أنا ومرافقاي الشابان من البارتي، نزولاً وصعوداً، متجهين إلى بقعة جبلية عالية خلف (توژله) تدعى (كاني بوق). كان رفاقنا قد اختاروها مقراً صيفياً لهم لتعذر كشفها من قبل الطيران الحربي العراقي. هنا كان مقر هيئتنا القيادية (هندرين)، سكرتيرها عمر الشيخ وأعضاءها هم أحمد بانيخيلاني ويوسف حنا وفاتح رسول. وانضمت إليهم من جديد. كان المقر يعتمد على نبع شحيح الماء ولم يمكن البقاء معه طويلاً، بل اضطررنا بعد أيام للنزول إلى نبع أوفر ماءاً.

كان أول ما عرضته على هندرين صيغة البيان المشترك المقترح إصداره باسمنا والبارتي ـ كما أسبقت الإشارة إليه. ورغم أنهم لم يجدوا في محتوى البيان شيئاً يعترضون عليه، فإنهم رفضوا الموافقة على نشره، دون أن يذكروا سبباً للرفض، اللهم ألا تجنب ما لم يكن أ.و.ك. يرتاح إليه.

بعد وصولي إلى القاعدة علمت بقصة شاب شيوعي مسجون بتهمة التجسس. قيل لي أنه كان حزبياً نشطاً وعضواً في لجنة مدينة الثورة ببغداد. ولم يشك به أحد في العاصمة. ولكن شيوعياً يدعى (ع.ع.) كان قد سجن في بغداد ثم أخلي سبيله وتمكن من مغادرة العراق، قدم رسالة إلى قيادة الحزب في الخارج مفاده أن هذا الشاب باع نفسه للسلطة. وأرسلت هذه المعلومات إلى عائدة ياسين التي كانت المسؤول الحزبي الأول آنئذ في البلاد. وطلب منها إرساله بحيلة ما إلى نيوزنك. فأرسلته بحجة أنه يذهب للمشاركة في كونفرنس حزبي بكردستان. انطلت هذه الخدعة على الشاب المباع وذهب برجليه إلى حيث وقع في الفخ. احتجز في القاعدة فترة وجرى التحقيق الأولي معه وأنكر التهمة. بقي مدة تحت الإقامة الجبرية حتى تمكن ذات يوم من الهرب. لكنه لم يفلت بل وقع في قبضة مفرزة من فدائيي أ.و.ك.، الذين أعادوه فيما بعد إلى

مقر الحزب الشيوعي بعد أن ذكر أنه شيوعي. عندئذ تم سجنه وتعززت حوله الشكوك. وبعد أسابيع قدم بنفسه رسالة اعترف فيها بأنه مندس متواطىء. وذكر أن إحدى سيارات الأمن أخذته من الشارع ذات يوم إلى أحد أقسامه وعرض عليه التعاون مع السلطة سراً أو التعرض للتعذيب حتى الموت. فرضخ وربط بصلة سرية خاصة وأبلغ بإبداء نشاط حزبي جيد كي يكسب ثقة رفاقه. وتوجه إلى كردستان بتكليف من الحزب وبموافقة الأمن العام للتعرف على المزيد من الكوادر والمعلومات. وحين عرف أن استقدامه كان بسبب الشك فيه حاول الهروب ولم يفلح.

ما العمل مع هذا الجاسوس؟ هل يجوز الإبقاء على حياته؟ كم من المناضلين سلم إلى السلطة الفاشية وسبب لهم التعذيب والموت؟ درسنا أمره في هندرين وتقرر تشكيل محكمة موسعة من مسؤولين حزبيين وعسكريين في القاعدة لإجراء المحاكمة له ولإصدار الحكم عليه. وقد أصدرت المحكمة حكماً بإعدامه رمياً بالرصاص ونفذ فيه.

رغم أن تنظيماتنا في كردستان تعرضت لدرجة أقل نسبياً للضربات البوليسية خلال الحملة التي اشتدت منذ ١٩٧٨، فإن الشلل أصاب لجنة الاقليم ولجان المحافظات في المنطقة الكردية أيضاً. وكانت الضربة في مدينة كركوك أعنف وكان الانهيار المعنوي لدى العديد من كوادر المنظمة أعمق. وكان أسوأ ما حدث موقف قيادة المحافظة إذ ذهب سكرتيرها عبد الخالق، بصحبة أعضاء مكتبها أبو آزاد وگوران ومنصور (وكلهم من أعضاء لجنة الاقليم أيضاً) إلى دائرة الأمن العام ليبلغوا الجهاز القمعي بأنهم قرروا التخلي عن النشاط الحزبي ـ السياس، وأنهم «مواطنون صالحون» من اليوم. وبإمكان المرء أن يتصور أية ضربة تكون حين يصل الانهيار المعنوي لدى القادة إلى هذا الحد.

لم يبق وجود لأية لجنة حزبية من لجان المناطق والمحافظات، اثر هجمة ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩، باستثناء لجنة اقليم كردستان وبعض لجان المحافظات الكردية. غير أن هذه بقيت لها ملاكات من الكوادر قد جمدت فعلاً ولم تمارس نشاطها كلجان لفترة طويلة. شمل التجميد العملي لجنة اقليم كردستان مدة عامين كاملين إلى أن قررت هندرين، باقتراح مني، إعادة نشاطها. وعقد أول اجتماع لها في كانون الثاني ١٩٨١. وقد اقترن قرار بعث النشاط في اللجنة بإناطة مسؤولية منظمة الاقليم بي شخصياً. وتأتى علي الانصراف إلى التحضير لعقد اجتماع اللجنة. وتصادف موعد الاجتماع مع وصول سكرتير الحزب عزيز محمد في أول زيارة له إلى كردستان استغرقت حوالي ثلاثة أسابيع، عاد بعدها إلى سوريا. وقد حضر الاجتماع، الذي عقد في وادي نيوزنك، وأسفر عن إعادة بناء لجنة الاقليم.

كان عدد فدائيينا في نمو تدريجي كما كانت الأسلحة تصل تدريجياً عبر كردستان تركيا، رغم أن مسؤولنا في بهدينان كان يسعى على الدوام لإبقاء حصة الأسد من الشباب القادمين والأسلحة الواردة في حوزته. ومع تنامي إمكاناتنا كنا نحاول إقامة قواعد ونقاط تواجد جديدة لنا. وضمن هذا التوجه تقرر إنشاء قاعدة فدائية جديدة لنا في بيتوش (منطقة آلان) وأنيطت بي مهمة الإشراف عليها. فذهبنا إلى هناك مع حوالي (٤٠) فدائياً لنبدأ ببناء المقرات: غرف من الحجارة والطين والأخشاب، على طريقة البناء التقليدية في القرى الكردية، في ضواحي قرية بيتوش. أخذنا موافقة صاحب الأرض العم قادر، الفلاح المسن الذي بلغ السبعين من عمره. وقد سألته ذات يوم عما إذا رأى في حياته أية مدينة. فأجاب:

ـ وكيف لم أر المدن؟ إنني ذهبت إلى كل من سردشت وقلعه دزه وكدت أذهب في وقت ما إلى مدينة السليمانية ولكن الله لم يمهلني لأذهب إذ أصابني المرض.

- ومتى ذهبت إلى سردشت وقلعه دزه يا عم؟

- قبل عشرين أو ثلاثين عاماً (يقينا أن تينك البلدتين لم تكونا، حين زيارة قادر لهما، سوى بلدتين ريفيتين صغيرتين).

ولفت انتباهي شيوع الشتائم بين الناس في قرى آلان، وحتى داخل العائلة الواحدة، بشكل لم أر مثله في المناطق الكردية الأخرى. من الاعتيادي تماماً أن يسب العم قادر بنته لأتفه سبب أو حتى بدون سبب محيلاً قضيبه إلى دبرها كما يسب بنفس الأسلوب بغله أو حماره وكما تسب امرأة ما بنفس الصيغة بنتاً لها أو بغلاً.

ولاحظت هناك وجود كثرة من الأسماء الآشورية (أو السريانية) للقرى والجبال وما شابه. هناك بيتوش وبيژوى ومزرا وأشكان (وهي قرى) ونورى (وهو جبل).. الخ.

وكانت هناك مقرات لفدائيي الاتحاد الوطني الكردستاني، بالأحرى مقرات الأغوات التابعين للاتحاد الوطني، منها مقر الشيخ صدر الدين، الرجل الذي لم يكف يوماً عن تعامله مع الفلاحين بالأسلوب الإقطاعي الموروث. وقيل إنه غضب ذات مرة على فلاح في إحدى قراه فقطع أنفه وأذنه كعقوبة له وكعبرة للآخرين. ومنها مقر كل من قادر آغا وهومر آغا، اللذين لم يكونا سيئي السمعة بقدر الشيخ وقد قتل البعض من رجال هذين الفدائي الشيوعي الشاب خليل رضا كبابچي، وهو في طريقه من بيتوش إلى نيوزنك - كما قيل لي.

ازداد عددنا شتاءاً واشتدت أزمة السكن عندنا وكان علينا أن نبني قاعة جديدة. ولكن كيف يمكن البناء بالطين والحجارة وتحت الأمطار الغزيرة؟ ثبتنا أعمدة خشبية وبنينا فوقها السقف والسطح كاملاً. ثم بدأنا ببناء الجدران تحت السقف دون أن نخشى المطر. وبعد أسابيع وقع لنا في هذه القاعة بالذات حادث مأساوي. ففي أعقاب شجار بين فدائيين نهاراً استثمر أحدهما ليلاً فرصة حراسته

ليقتل غريمه بإطلاق الرصاص عليه والهرب بعيداً.

كنت أتنقل بين بيتوش ونيوزنك مشياً على الأقدام وبسرعة قياسية. ورجعت ذات مرة إلى بيتوش برفقة جهاز للإذاعة السرية، التي كانت قد وصلتنا قبل أيام على ظهر البغال من الحدود السورية وعبر كردستان تركيا إلى منطقة دهوك فإلى نيوزنك فبيتوش. قررنا في اجتماع هندرين نصب الإذاعة في آلان. واخترنا لها قمة جبل نوري الواقعة جنب بيتوش. ولم يكن من الهين إنجاز البناء الضروري للإذاعة وفق مواصفات غير سهلة ولفصيل الحراسة فوق قمة عالية لا ماء فيها ولا أخشاب للبناء. ولكن همم الرجال تقلع الجبال ـ كما قيل قديماً. فقد اندفع الفدائيون وأنا معهم بحماس كبير لنقل الأخشاب على أكتافهم إلى مكان البناء الذي حفر حتى استوى سطح الغرفة مع الأرض حواليه كي لا تكشفه الطائرات المعادية. وبقي على الحراس هناك أن ينقلوا مياه الشرب والطبخ لأنفسهم بواسطة البغال من نبع لم يكن قريباً. كان فنيّ الإذاعة عادل مخلص متحمساً ومستعداً للعمل ليل نهار. ولكن معارفه العلمية ـ التكتيكية كانت قليلة على ما أعتقد. وكان بين فدائيي فصيل الحراسة المهندس الكردي الشاب (هيوا) مع كلبه الذي كان مبعث الانزعاج الشديد لفدائيينا القرويين. كان هيوا من مثقفي المدينة وعاش في أوروبا ولم يكن بمقدوره أن يفهم ضرورة المراعاة لتقاليد الفلاحين الأكراد ومعتقداتهم الدينية بشأن الكلاب. فكان يتعامل مع كلبه على الطريقة الأوروبية مثيراً بذلك حنق الفلاحين. وكان من غرائب كلبه أنه يركض بأقصى سرعته، كلما سمع هدير محرك الطائرة، إلى مقر الفصيل ليستقر على فراش صاحبه بالذات إلى أن يختفي الهدير.

استمتعت في بيتوش بإجازة أربعة أيام لصيد القبج وذهبت بصحبة سعيد البرزنجي ورفيق آخر إلى داخل الأرض العراقية الحدودية، التي هدم نظام صدام قراها منذ ١٩٧٥. تفرجنا هناك على أطلال بعض القرى وعلى بساتين العنب المهجورة. في ٢/ ٥/ ١٩٨١، أي في موسم الربيع

والأمطار، صدنا ستة فراخ صغيرة للقبج ـ وهذا كان شيئاً جديداً وغريباً إلى حد بالنسبة إلي لأنه كان في وقت مبكر جداً. وكان من المشاهد المثيرة والمألوفة عبور نهر الزاب الصغير حيث الأطفال والشبان والعجائز والحمير والخرفان وسروج الخيل وأكياس الحبوب وغيرها تعبر من جهة لأخرى معلقة بسلك حديدي متين مشدود إلى مرتكزين في ضفتي النهر. فيما كانت البغال والخيول تعبر سباحة من جهة إلى أخرى. وكانت العملية تجري لقاء أجور يقبضها أصحاب هذه الجسور المتحركة.

عندما عدت من الصيد وجدت فدائيينا وقد قبضوا في بيتوش على رجل إيراني كرر المرور هناك بين إيران وبين قلعه دزه، فأثار الشكوك حول نفسه. قال البعض إنه إيراني هارب من الثورة ويتجسس لحساب النظام العراقي. وعند التحقيق معه اعترف أنه كان من رجال الجندرمة في عهد الشاه، وأنه طرد أو ترك الوظيفة بعد الثورة. ولكنه أنكر أن يكون جاسوساً لحساب أي كان. وكان من رأي أغلبية كوادرنا أن يعذب لكي يعترف بالحقيقة. وكنت ضد التعذيب وتساءلت عن الفرق بيننا وبين نظام البعث إذا مارسنا نفس الأساليب البعثية في تعذيب الموقوفين. هذه كانت مشكلة تواجهني وكان علي أن أدخل في صراع مع رفاقي كلما اعتقل شخص في القاطع الذي أكون مسؤولاً عنه. وكان يندر أن أجد بين الرفاق من يقف صراحة وبحزم ضد ممارسة التعذيب بحق المعتقلين المشكوك في أمرهم، من الآخرين كانوا أم من رفاقنا الشيوعيين. وقد أطلق أخيراً سراح الرجل الإيراني بعد ممارسة التهديد بقتله، بدلاً من التعذيب الفعلي. لكن مشكلة التعذيب لم تنته بالنسبة للشيوعيين أيضاً. ذلك لأنهم كانوا «شنگه من نفس العجينة» الاجتماعية في هذا البلد المتخلف.

أكملنا إنشاء الإذاعة وشغلنا المولد الكهربائي وتوفر جميع المستلزمات. ومع ذلك تأخر البث الإذاعي لسبب لم نعرفه نحن ولا

الفني عادل مخلص. ومضت أسابيع وأشهر قبل أن يسمع المذيع وهو يعلن بصوت جهوري: «هنا إذاعة صوت الشعب العراقي».

كان مبعث سرورنا الكبير أن سمعنا أول بث إذاعي من قمة جبل (نوري). وقد سميناها بنفس الاسم الذي ظهرت به في ١٩٦٣، يوم كان البث من بلغاريا. وكانت هي المرة الأولى أن يملك ح.ش.ع. محطة إذاعة خاصة به. وكانت هيئة تحرير البرامج أخباراً وتعليقات مؤلفة من أربعة أشخاص موقتاً ـ مني ومن افراسياب شاويس وعواد ناصر وتحسين محمد خليل. كنا قليلي التجربة ولم تكن لدينا شبكة مراسلين ومعلقين مقتدرين. وكانت الأجهزة كلها من الأنواع القديمة. كما كان جهاز البث الرئيسي قديماً صالحاً لبعض المتاحف. ورغم كل شيء فإن تشغيل الإذاعة كان حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة للشيوعيين وكل المتعاطفين معهم.

أتانا ذات يوم فريق من فنانينا بآلاتهم الموسيقية وإمكاناتهم الشحيحة. كان بينهم الفدائي الفنان أبو الصوف، الذي كان يملك قدرات في فنون التمثيل. كان قادراً على أن يتكلم بنبرة خير الله طلفاح وبصوت شبيه تماماً بصوته. فنظمنا مقابلة إذاعية معه، باعتباره خير الله، وبثت من قمة نوري. تتعلق جل الأسئلة لموضوع كتيب صغير كان خير الله قد أصدره ووزعه في تلك الأيام بعنوان عجيب لم يسبق مثيله أبداً: «إن الله أخطأ في خلق ثلاثة أشياء ـ الفرس والذباب واليهود». وحين أذيع هذا البرنامج تراءى للعديد من المستمعين وكأنه طلفاح الحقيقي الذي يجيب.

نقلت الإذاعة في وقت لاحق إلى منطقة نيوزنك، في سفح جبل يدخل ضمن الحدود الإيرانية. وأنيطت مسؤولية رئاسة تحرير البرامج بعضو اللجنة المركزية مهدي عبد الكريم، الذي كانت له خبرة العمل في إذاعة صوت الشعب العراقي القديمة.

تنفيذاً لقرار هندرين توجهت قواتنا الفدائية ـ وهي القوة الرئيسية لنا في قاطع السليمانية وكركوك ـ من قاطع هورامان إلى قاطع آلان. كان ملا علي مسؤولاً عسكرياً للقوة فيما كان حاجي سليمان مسؤولها الحزبي (أو مستشارها السياسي) وكانت العلاقة بينهما سيئة ومتوتر، ربما لأن كلاً منهما يريد أن يكون نفسه صاحب الكلمة العليا. وكان شغف ملا علي بالمشروبات، حتى في المقرات الفدائية، يستغل من قبل البعض ضده، في حين كان هو الآخر يستغل ضد حاجي سليمان لجاجته وكسله في بعض الأمور. وكان ضمن القوة أناس طيبون من العجزة والمسنين وأنصاف المجانين والمجانين، الذين لم يصلحوا يوماً للانخراط في صفوف الحركة الفدائية التي تتطلب حماس وحيوية الشباب والقدرة على الكر والفر. وكان أغرب ما في هذه التشكيلة هو الفدائي المجنون حميد، الذي لقبناه بالجنرال. وقد كان حارساً في المقر العام ببغداد قبل الحملة البوليسية. وأصيب جراء تعذيبه لاحقاً في الأمن العام بصدمة عصبية انتهت بتجننه. وهو بقي معنا لسنوات رغم هذا الجنون.

كان هذا الجنرال وسيلة تسلية للفدائيين. كان يبدأ الحديث كرجل سياسي متزن وهادىء. ولا تمضي دقيقتان حتى يتغير كل شيء في حديثه وسلوكه فيدعي فجأة بأنه كان في السجن وعرض عليه أن يشغل منصب رئيس الجمهورية إلا أنه رفض ذلك لأنه لم يتوثق آنئذ من أن بريجنيف موافق على ذلك. وأحياناً كان يهدد النظام العراقي بأنه سيبرق إلى آية الله خميني طالباً منه إرسال مئة ألف جندي إلى المنطقة لإسقاط صدام. وسخر ذات مرة من عقول جميع الفدائيين أثناء قبض مخصصاتهم الشهرية ـ خمسة دنانير لكل شخص ـ مخاطباً إياهم:

ـ لماذا أنتم حمقى لهذه الدرجة؟ لماذا لا تجمعون رواتبكم جميعاً لتشتروا بها طائرة عمودية كي تطير إلى بغداد وتقصف قصر صدام وتقتله؟

وقد صنع له الخياط الفدائي (نبز) رتبة الجنرال على بيريه. ففرح حميد من الأعماق وظل يدعي أن هذه الرتبة العكسرية منحت له من

حلف وارشو منذ سنتين. وهو لم يحملها سابقاً لأسباب شخصية. (بالمناسبة كانت لدى بريجنيف أيضاً رتبة المارشال، لكن هذه الرتبة منحت له من نفسه وليس حلف وارشو).

دأب جنرالنا على مخابرة بريجنيف مرة أو مرتين في اليوم لاسلكياً ليسأل عن بعض الأمور أو يخبره ببعض الأحداث. وكان جهاز اللاسلكي لديه عبارة عن ترانستر عادي صغير. وكسر مذياعه أكثر من مرة لأنه كان يذيع تعليقات من صوت أمريكا معادية للسوفيت. وقد اتهمني ذات مرة بالعمالة لأمريكا لأنه طلب مني مذياعاً صغيراً (بعد أن تعطل مذياعه الشخصي عن العمل) ولم أعطه إياه، وبذلك عرقلت اتصالاته مع بريجنيف. وادعى في يوم آخر أن ممثل ح.ش.ع. الملا حسن كان مشاركاً في الصفقة التي أبرمت بين خميني وبين الحكومة الأمريكية لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين وأنه قبض حصته من الدولارات (وشهد حميد بنفسه دولاراً واحداً لدى الملا حسن). ولهذا «قرر الجنرال الاستقالة من عضوية ح.ش.ع. على ألا يؤثر ذلك على علاقاته الأممية!

وقد حاولنا كثيراً إرسال هذا الرجل إلى الخارج لغرض المعالجة. ولكنه كان يرفض باستمرار مدعياً أنه اتصل مع بريجنيف وأن هذا الأخير لم يؤيد ذهابه إلى الخارج لأن الوضع في البلاد يتطلب بقاءه فيها.

❀ ❀ ❀

كنت في وادي نيوزنك حين سمعنا نبأ الإعلان عن تأسيس جوقد (الجبهة الوطنية والقومية الديمقراطية) في دمشق بين أطراف المعارضة العراقية. كان حزبنا ممثلاً في الجبهة ومشاركاً فيها. لكن ما لفت انتباهنا جميعاً كان غياب البارتي، الذي كان يشكل إحدى القوى الرئيسية في الساحة الكردستانية. ولم يكن سبب هذا الغياب موقف البارتي نفسه وعدم رغبته في المشاركة، إنما كان الموقف الخاطىء لقيادة أ.و.ك.، التي كانت ترفض أي لقاء أو تعاون مع البارتي، بل

كانت تعتبره العدو رقم (١). وقد حاول ح.ش.ع إذخال الپارتي إلى الجبهة الجديدة لكن أ.و.ك أصر على الرفض ودعمه في ذلك عبد الجبار الكبيسي، الذي كان مسؤول القيادة القطرية للبعث العراقي في سوريا آنئذ.

كانت سياستنا في الساحة الكردستانية هي إقامة العلاقات الودية والمتوازنة مع جميع الأطراف، دون الانضمام إلى أي طرف ضد طرف آخر. وقد رأينا في إبعاد الپارتي عن تحالف نكون أحد أطرافه إخلالاً بسياستنا هذه. فقررنا استكمال هذا التحالف (أي جوقد) بإقامة تحالف آخر يضم الپارتي أيضاً. ومن هنا بادرنا، نحن في هندرين، إلى المباحثات التي أسفرت عن قيام جود على أساس برنامج ديمقراطي معقول يضع أمام الأطراف المشاركة فيه مهمة الجمع بين جوقد وبين جود ومهمة تعزيز التعاون بين جميع الأطراف للمعارضة العراقية. وكان يفترض أن ترحب جوقد بهذا التحالف الجبهوي، الذي جر الپارتي أيضاً إلى طريق التعاون مع بعض أطراف الجانب الآخر. غير أن الأمور سارت على منوال آخر، إذ اشتد الغضب ببعض أطراف جوقد، وبوجه خاص بالسكرتير العام للاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني، الذي يتحمل المسؤولية الأولى ـ حسب اعتقادي ـ عما حدث من شل جوقد والحيلولة دون تجميع المعارضة العراقية في تحالف جبهوي.

لقد جابه بعض أطراف جوقد قيام جود بإجراء تعسفي بعيد عن الديمقراطية في العلاقات بين الأحزاب السياسية إذ قرر هذا البعض:

١ ـ شجب قيام جود وإعلان موقف عدائي منها، بزعم أنها تمثل تمحوراً ضد جوقد.

٢ ـ تجميد عضوية كل من ح.ش.، و ح.س.ك (بالأحرى طردهما) من جوقد.

وبهذا الإجراء الخاطىء حكمت قيادة جوقد على تحالفها بالشلل

العملي لأن أ.و.ك. بقيت القوة الوحيدة فيها التي كان لها وجود فعلي في الساحة النضالية داخل العراق. وكانت الأطراف الأخرى موجودة فقط في الشام. في حين كان لأطراف جود الثلاثة (ح.ش.ع + الپارتي + ح.س.ك) وجود فعلي داخل البلاد. وكان أي تحالف جبهوي فعال يتطلب تعاون هذه الأطراف و أ.و.ك بالدرجة الأساسية.

إن الموقف الخاطىء من چوق ساعد على استمرار الأجواء، التي كانت موجودة في السابق، للصراعات الخاطئة ولاقتتال الاخوة بين المنظمات الكردستانية.

❀ ❀ ❀

في ١٩٨١ قمت بأول زيارة شخصية إلى نو شيروان مصطفى، الذي كان الرجل الثاني في أ.و.ك، وتحادثنا في غرفته، التي كان قد زرع أمامها بعض الخضروات المغطاة بالنيلون وقاية من البرد. لم يكن لدي موضوع محدد لأبحثه. كان الحديث مفتوحاً حول مختلف الأمور. وفي معرض الحديث عن وضع وطبيعة (كومله) ـ وهي الجناح الرئيسي في أ.و.ك.، الذي كان نوشيروان سكرتيراً له ـ قلت له أن هذه المنظمة شبيهة بلقلق الكنيسة، الذي تصور القس أنه مسيحي ثم اتضح أنه لم يكن مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً.

ولم يمض وقت طويل بعد هذا اللقاء حين زارنا أحد مسؤولي أ.و.ك (د. كمال خوشناو) ذات يوم ليخبرنا بأن مسلحي ح.س.ك.، بالأخص محمد الحاج محمود، قد اعتقلوا نوشيروان، الذي كان في جولة بمنطقة شهرزور. وكان في ذلك الوقت المسؤول الأول لأوك، في غياب جلال الطالباني المسافر إلى الخارج موقتاً. طلب منا التدخل والوساطة من أجل إطلاق سراحه. توسطنا وكررنا اللقاءات والمراسلات مع سكرتير ح.س.ك. رسول مامند ومكتبه السياسي في «دولتو». طالبنا بإطلاق سراحه فوراً ودون شروط واستنكرنا اتباع مثل هذا الأسلوب في

تعامل المنظمات السياسية الوطنية مع بعضها. كان رد قيادة ح.س.ك، بأن البادىء باستخدام مثل هذه الأساليب في الاعتقال والقتل إزاء الآخرين هو قيادة أ.و.ك.، «والبادي أظلم». وقدمت إلينا قائمة طويلة عن حوادث القتل والاعتقال والتجريد من السلاح، التي قام بها أ.و.ك. ضد فدائيي ح.س.ك، وعرضت إطلاق سراح نوشيروان بشروط. فرفضنا ـ بصفتنا وسطاء ـ أي شرط وأصررنا على إطلاق سراحه بدون قيد أو شرط. وأبلغنا قيادة ح.س.ك. صراحة بأن الإصرار على اعتقاله سيحملنا على الكف عن هذه الوساطة وقطع الصلات بين ح.ش.ع، وبين ح.س.ك.

أخيراً أبلغتنا قيادة ح.س.ك بموافقتها على إطلاق سراحه بدون شروط وأرسلت إلينا رسالة موجهة منها إلى مسؤولي منظمتها في جبال هورامان، على أن يأخذها أحد رفاقنا إلى هناك. في الوقت نفسه كانت قيادة أ.و.ك قد رجتنا كي نطلب من ح.س.ك. نقل نوشيروان إلى سجن تابع لنا حرصاً على سلامته وخشية أن يقتل بهذه الصورة أو تلك. فاستحصلنا موافقة قيادة ح.س.ك. على هذا الطلب وتم نقل نوشيروان إلى مقرنا في سورين وليس إلى أي سجن. في الوقت نفسه توجه قادر رشيد من رفاقنا بصحبة جمال حكيم من كوادر أ.و.ك. حاملين معهما رسالة قيادة ح.س.ك، إلى محمد الحاج محمود وطاهر علي والي لغرض إطلاق سراح نوشيروان ومرافقته في العودة.

سمعنا ذات يوم في نيوزنك أصوات الطلقات بغزارة ولمدة طويلة. وحين أرسلنا بعض الرفاق للاستفسار عن السبب قيل لنا أن فدائيي أ.و.ك. هم الذين يطلقون الرصاص تعبيراً عن سرورهم بهروب نوشيروان. واتضح لاحقاً أنه كان قد هرب من مقرنا، الذي نقل إليه، في ساعة متأخرة من الليل، قبل أن يصل إلى هناك قادر رشيد وجمال حكيم. وقيل أن كاوه الحفيد كان قد ساعده على الهروب. وتعرضنا نحن إلى العتاب الشديد من الاخوة في ح.س.ك. وأظن أن الهروب لم

يكن مبرراً، بعد أن نقل إلى مقرنا هناك، كما أن الاعتقال لم يكن مبرراً أصلاً.

بالمناسبة فإن تلك الفترة شهدت أحد فصول التوتر الشديد والمصادمات العنيفية بين أ.و.ك. وبين ح.س.ك.، خاصة في قاطع أربيل. وقد قاد عضو المكتب السياسي لـ ح.س.ك. سيد كاكه قوة من ح.س.ك ولا حق وصفي ـ موقتاً ـ قوات أ.و.ك. في قاطع اربيل. وجاءنا د. كمال خوشناو شاكياً وقال:

ـ أترون كيف يلعب سيد كاكه بجماعتنا الطوبه في أربيل؟

فأجبنا أن هذه هي إحدى صفحات اقتتال الاخوة المأساوية، التي لا يمكن تبرأة ذمة أ.و.ك. عنها.

❀ ❀ ❀

جاءت المفاجأة الجديدة من ظهور قوة كبيرة من فدائيي الپارتي، وعلى رأسهم رئيس الحزب مسعود البارزاني، في تلال (دولكوگا) و (دولتو) المشرفة على وادي نيوزنك. جاءت هذه القوة لتهديد أ.و.ك. وليس لتهديدنا لأننا كنا على علاقات اعتيادية، بل ودية إلى حد، مع الپارتي. ولكننا كنا معنيين بالأمر، شئنا ذلك أم أبينا، ليس فقط لأن مقراتنا كانت متداخلة مع مقرات أ.و.ك. ولأن كل قصف لهم كان يصيبنا أيضاً، بل لأن الاقتتال الداخلي بين المنظمات الكردستانية كان يعود بأفدح الأضرار علينا وبأكبر الفوائد على عدونا المشترك ـ النظام الفاشي. ولهذا تحركنا وتوجه وفد منا ـ وأنا ضمن أعضائه ـ إلى مسعود البارزاني لإبداء معارضتنا لما ينوي الإقدام عليه. قال لنا مسعود:

ـ الاتحاد الوطني يتحرش بپيشمرگتنا في كل مكان. والاقتتال يجري هنا وهناك. والأبرياء يقتلون في مجرى هذه الاشتباكات، التي لا تنتهي. ولهذا جئنا ونريد أن يكون القتال بيننا على الصعيد القيادي العام وليس بين الصغار والبسطاء من اتباع الطرفين. فأما أن نصفيهم أو

يصفونا هنا، لكي لا يتكرر الاقتتال في أماكن أخرى.

في هذا الكلام شيء من المنطق، خاصة بقدر ما يتعلق الأمر بأضرار المناوشات والمصادمات المتفرقة هنا وهناك.. لكن الاشتباك الشامل لا يقدم حلاً للمشكلة، إنما يزيد من تعقيداتها. ولهذا لم نوافق مسعود، بل أصررنا على تجنب هذا الاشتباك وأبلغناه أن مقراتنا متشابكة وأن ضرب مقرات أ.و.ك. سيكون ضرباً لمقراتنا أيضاً، عمداً كان ذلك أم عن غير عمد.

أخيراً رضخ مسعود لسلطان العقل وعاد مع قواته إلى مقراته وأبعدنا شر الاقتتال في تلك الأيام أو أبعدناه عن تلك المنطقة على الأقل.

في خريف ١٩٨١ قررنا نقل مقر هندرين إلى السفوح الشمالية في وادي نيوزنك مع الإبقاء على بعض المقرات المتداخلة مع مقرات أ.و.ك. وكانت هذه الأراضي والقسم الأكبر من أراضي الضفة الجنوبية من الوادي عراقية قبل اتفاق الجزائر وإيران بموجب اتفاق الجزائر. ومع تزايد عدد فدائيينا نشرنا المقرات في بقعة أوسع وازدادت تعقيدات وضعنا وشكلنا مكتباً عسكرياً مركزياً لقواتنا. كان لنا فصيل المدفعية في بقعة خلفية عالية مقابل قمة مامند، التي كانت هي الأخرى في أيدي البيشمرگه وكانت نقطة الحراسة الرئيسية لحماية هذا الوادي الصغير المحرر من قبضة النظام. وبنى فصيل مدفعيتنا مقرات جيدة لنفسها مستفيداً من أشجار البلوط الضخمة المتوفرة حواليه. وفي الشتاء تحولت غرف المقر كلها إلى عيون للمياه العذبة الرقراقة الباردة وصنعت أنفاق صغيرة في الغرف لغرض تسريب المياه إلى خارج الغرف. ونصبت صوندة أمام كل غرفة كي يستخدم الماء الجاري للشرب والطبخ وغسل الأيدي، فيما ظلت الغرف مفروشة

وتشتعل النيران في مدافئها الحديدية الكلاسيكية.

حضرت حفل رأس السنة، الذي أقيم في كبرى غرف المقر، تلبية لدعوة آمر الفصيل لازار (أبو نصير). كان حفلاً منظماً وممتعاً من حيث البرنامج السياسي ومن حيث التسلية البريئة معاً.

تعلم قسم من أفراد فصيل المدفعية، المقيمين في المقر الخلفي، سرقة الخرفان من قطيع المواشي لبعض قرويي المنطقة، لذبحها وأكلها. كان قائد هذا السطو كادراً وسطياً سخيفاً (نسيت اسمه) من أهالي الحلة. وكان الآخرون يعرفون ويسكتون راضين من أكل اللحوم بهذه الطريقة. وتبين لاحقاً أن بعض أعضاء المكتب السياسي قد حضروا هذه الولائم أكثر من مرة ودون أن يعرفوا مصدر اللحوم. وعندما انكشف أمر السرقة اتخذت إجراءات من قبل هندرين ضد السارقين. لكنها كانت دون المستوى المطلوب، الأمر الذي أثار استياء العديد من الفدائيين. وأظن أنه كان يجب طرد المسؤولين عن السرقة من الحزب والفصيل.

❀ ❀ ❀

كان من المألوف أن يلتحق البعض تارة بصفوف أحد الأحزاب الكردستانية وأخرى بصفوف مرتزقة السلطة. وهناك من انتقل مرات بين السلطة وبين هذه الأحزاب. غير أنه ندر أن يلتحق الجحوش ـ المرتزقة ـ بصفوف الشيوعيين. في ١٩٨٢ التحق بنا الجحش عبد الله ماويلي مع عدد من زملائه. وهو كان شيوعياً في وقت مضى ثم انضم إلى صفوف مرتزقة السلطة وارتكب ـ شأن الغالبية الساحقة من أضرابه ـ جرائم بحق الفدائيين من التشكيلات الأخرى، خصوصاً من أ.و.ك. فأثار انضمامه إلينا السخط والاحتجاج لدى أ.و.ك بذريعة أن هذا الرجل كان قد قتل سابقاً عدداً من پيشمرگته. وطالبنا بتسليمه إليه لمحاكمته على هذه الجرائم. رفضنا الطلب وأعطيناهم جواباً منطقياً:

ـ نحن مستعدون للاتفاق على تحديد ضوابط مشتركة تسري على

جميع الأحزاب ويعامل الجحش، أياً كان الحزب الذي ينضم إليه، وفق نفس الضوابط، وليس العفو عمن ينضم إلى بعض الأطراف وصب جام الغضب على من ينضم إلى جهة أخرى.

لم يستجب أ.و.ك لاقتراحنا ولم يكن يقبل التعامل مع جحوش انضموا إليه على نفس الأسس بل أصر على رأيه، ربما بسبب الخوف من تكرار التحاقات الجحوش بصفوف الشيوعيين. وكمن يريد فرض نفسه عنوة على الآخرين ويحتكر الساحة لنفسه وحده أباح مسلحو أ.و.ك لأنفسهم حق تطويق الدار التي وجد فيها عبد الله بقرية درگله وقتلوه بصورة استفزازية. أدى ذلك إلى إثارة فدائيينا في تلك المنطقة وثأروا، بقيادة علي كلاشنكوف، لزميلهم القتيل بتطويل وقتل عدد من فدائيي أ.و.ك في قرية (ملكان). وفي أعقاب ذلك وقع صدام مسلح عنيف بين مسلحي الطرفين في قرية (ورتى) وحواليها، استمر ساعات وأصيب فيها البعض بجراح.

في هيئتنا ـ هندرين ـ استنكرنا بقوة مقتل عبد الله ماويلي وألقينا التبعة على أ.و.ك واعتبرنا رد على كلاشنكوف رداً مشروعاً وطالبنا بتكوين لجنة تحقيق مشتركة. وتوترت العلاقات حتى على الصعيد القيادي وخيم على وادي الأحزاب خطر اصطدام أشمل. لكن كفة العقل رجحت، لحسن الحظ، ونجحت الوساطات. وكان د. قاسملو بين الوسطاء وأبلغنا بأن سكرتير أ.و.ك أقر بأن الذنب كان ذنب أ.و.ك في خلق هذه المشكلة.

قبل أن تسوى المشكلة وحين كان التوتر شديداً لاحظ بعض رفاقنا أن أحد فدائيينا ـ ويدعى سلام ـ كان يترك المقر في نوكان ويتردد بصورة سرية على الطرف الآخر من الوادي وشكوا في أنه ينقل الأخبار إلى أ.و.ك. فاعتقلوه وحققوا معه واعترف بأنه جاءنا مدسوساً، كما اعترف أيضاً بسوء سلوكه وتورط البعض معه جنسياً ربما من كلا الطرفين.

في أوائل صيف ١٩٨١ أتتنا رسالة من المكتب السياسي الموجود في الخارج تطلب من أعضاء اللجنة المركزية الموجودين في كردستان السفر إلى أوروبا لحضور اجتماعها القريب. فأجبنا برسالة واعترضنا على عقد الاجتماع في الخارج ورجونا مجيء الرفاق لعقده في كردستان، حيث يوجد ثمانية من أعضاء ومرشيح اللجنة المركزية. رفض المكتب السياسي طلبنا وأصر على سفرنا نحن. كررنا الطلب وأوفدنا ماجد عبد الرضا، الذي كان يملك جواز السفر، لتوضيح الأسباب التي تدعونا إلى المطالبة بعقد الاجتماع عندنا. أوضحنا أن الوضع في كردستان معقد وأن ترك المنطقة من قبلنا قد يؤدي إلى خلق متاعب جدية لنا. لكن محاولاتنا لم تجد. وأصر المكتب السياسي على رأيه. وكان سبب هذا الإصرار واضحاً ـ فالاجتماع سيعيد انتخاب المكتب السياسي ويصعب نقل الأصوات التي تضمن فوز المرغوب فيهم إلى كردستان. إذن يجب عقد الاجتماع في أوروبا ولا مجال للتفكير في كردستان. أما ألاّ يمكن لثمانية من أعضاء اللجنة المركزية الموجودين في ساحة النضال الساخن داخل البلاد حضور ذلك الاجتماع فإن هذه ليست مشكلة جدية في نظر سادة المكتب السياسي.

رضخنا للأمر الواقع، ورغبنا، أنا وعمر الشيخ وسليمان اسطيفان، في حضور الاجتماع. فوقع الاختيار على أحمد بانيخيلاني لكي يبقى مسؤولاً في كردستان فترة غيابنا، رغم أننا جميعاً كنا نشك في قدرته على الاضطلاع بهذه المهمة. وتحركنا في بداية تشرين ١ ـ ١٩٨١ شطر قاعدتنا في الخابور لنتابع السفر من هناك وبصحبة رفاق موجودين هناك إلى سوريا. كنت أعاني من آلام الظهر وعرق النسا. مع ذلك لم أرد التغيب عن الاجتماع. كانت سفرة متعبة وتأتى علينا الذهاب ليلاً لمسافات طويلة. كنت أركب بغلاً، وهو حيوان عجيب تسنى لي أن أفهم عنه الكثير خلال هذه السفرة. كان يجمع بين ذكاء الفرس وقوتها وبين صبر الحمار وتحمله. كان يتابع سيره في ظلام الليل الدامس عبر

طرق جبلية وعرة، وأحياناً عبر أشباه الطرق، دون أن يضل السبيل أو يخطأ في المسير. ويخرج من الطريق العادي، حيثما تكون المياه والثلوج متجمدة، ويسير على الثلج الهش بجانب الطريق لتجنب الانزلاق على الجليد. وكان يحرن ويمتنع عن السير حيثما يكون خطر اصطدام حمله بصخرة على جانب الطريق. وفي أثناء السير يلتقط بحركات خاطفة من رأسه الأشواك والأعشاب النابتة على أحد جانبي الطريق ويأكلها كما يأكل قروي شديد المجاعة لقمة من الكباب.

بعد مسير ليلي متعب وصلنا في الصباح الباكر قرية (كاني بوت) المهدمة المهجورة في منطقة ميركه سور. قادنا أحد مرافقينا إلى غرفة تهدمت جدرانها وسقفت بألواح حديدية تقيها من المطر. دخلنا الغرفة لنشاهد منظراً ساراً جميلاً: ناراً ملتهبة وبجانبها جمرات كبيرة من حطب البلوط. وعلى لوح حديدي قريب كدس كبير من شرائح اللحم الطازج المنزوعة منها العظام كي يخف وزنها. وقدرت اللحوم بأكثر من (١٠٠) كغم. وبعيداً عن النار جلس رجل كهل وصبي في حوالي الخمسة عشر عاماً من عمره. رد الرجلان تحياتنا بالحرارة الفلاحية المعهودة ودعيانا للجلوس ووضعنا وفراً من شرائح اللحم أمامنا لنبدأ الشوي على الجمرات الجاهزة. شوينا لكل شخص سيخاً صدامياً يكاد يزن الكغم الواحد. وشربنا بعدئذ شاياً لذيذاً. تحدثت إلى الرجل فاتضح أنهم ثلاثة أشخاص من أهالي هذه القرية، قبل تهجيرها القسري، يعيشون في مجمع ديانا القسري. وكان أحدهم قد أخفى بندقيته في مكان ما قرب قريته أثناء التهجير. ويأتي كل عام مرة أو مرتين خلسة للصيد ثم يأخذ بندقيته ليخفيها ويعود مع زملائه باللحوم إلى المجمع ليأكلوا قسماً منها ويبيعوا القسم الآخر. ساعة وصولنا إلى هناك كان صاحب البندقية غائباً. قيل إنه ذهب لإخفائها إيذاناً بانتهاء الصيد والعودة.

وصلنا قرية بارزان المهجورة، التي رأيتها لأول مرة. وباستثناء قصر الشيخ عثمان فإن البيوت كلها كانت مهدمة. وكانت حديقة القصر

غنية بالفواكه. وقطفنا منها كميات للطريق. كما تفرجت على غرف القصر المهجور. وعبرنا بعد ذلك الزاب الكبير على (الكلك) لنصل بعد مسافة إلى أولى القرى الزيبارية التي كانت على عداء عشائري تقليدي مع عشيرة البارزان. وفي المساء وصلنا قرية (بانيه) الواقعة في مرتفع والمعتمدة كلياً على مياه آبار محلية للناس والمواشي معاً. كانت القرية مأهولة وتوزعنا على البيوت لتناول العشاء كي نجتمع بعده في الجامع. وكنت قد رجعت إلى الجامع حين أعلن ملا القرية لجميع القرويين الحاضرين أثناء صلاة العشاء:

ـ غداً يبدأ موسم القطف. فليبلغ حاضركم غائبكم وتوكلوا على الله القدير.

استفسرت من أحدهم عن هذا «القطف» فقال:

ـ يقصد الملا قطف (حبة خضرة) التي تشكل أحد مصادر العيش للناس هنا. ولكي يتساوى الجميع في استثمار موسم القطف فإنهم اتفقوا على البدء بالقطف في يوم واحد يعلن عنه هنا من قبل الملا. ولا يجوز لأي كان أن يقطف ويجمع قبل هذا الإعلان. وقد استعد الجميع ليخرجوا صباح الغد الباكر إلى الغابات حوالينا.

وفي (گارا) ـ وهي منطقة شبيهة بقوپي قره داغ بعض الشيء ـ توزعنا على بيوت إحدى القرى. وكنت في منزل رجل مسن يدعى الحاج محمد. سألته:

ـ من أي عشيرة أنتم أيها الحاج؟

ـ لسنا من أية عشيرة، ولله الحمد.

هذا الجواب زاد من الانطباع الذي تكون عندي حول أهالي قرى گارا وأصلهم. هم أكراد مسلمون. إلا أن أشكالهم وملامح وجوههم صورت لي وكأنهم من أصل كلداني (أو آشوري). وقد اعتنقوا الإسلام ديناً في وقت من الأوقات كطريق للتخلص من اضطهاد الأغوات الأكراد

المسلمين، وتعلموا اللغة الكردية تدريجياً ونسوا لغتهم عبر أجيال قليلة. وحتى الاسم (گارا) يبدو من الأسماء السريانية القديمة.

في مساء اليوم التالي كنا في منطقة (بريگارا) وتوزعنا في قرية (درگله). وصادف أن أكون مع عمر الشيخ في بيت واحد. وكان صاحبه يتقن اللهجة السورانية. فخاطب عمر، الذي كان مرهقاً ومتعباً أكثر من غيره، قائلاً:

ـ مالك ولهذه الحياة يا رجل؟ لماذا تظل فدائياً للآن، وأنت على وشك أن ترحل للعالم الآخر؟

ـ سبقت صاحبي في إجابة رب المنزل فقلت:

ـ إن ابنه فدائي هناك، وهو ذاهب للتأكد من سلامته بعد أن سمع بأنه جرح.

سكت الرجل ونظر بإشفاق إلى عمر، الذي التزم الصمت بدوره. وكان عمر هادئاً قليل الكلام وكثير الصمت لدرجة تزعج مرافقيه في السفر وفي الجلوس، خاصة إذا كانوا من الشباب. وقد تفوه في أحد الأيام ببعض الكلام المتعلق ببغله وضحك ضحكته الفاترة. فعلق مرافقنا الفدائي أبو كريم قائلاً لزملائه:

ـ إيه! الحمد لله والشكر! أخيراً تكلم أبو فاروق وضحك. شوفوا شوفوا ضحك!

لاحظت أن لفلاحي قرى بهدينان تقاليد لا توجد، بالنسبة لبعض الأمور، في قرى منطقتنا. كنا نجلس في بيت فلاح له أولاد شبان وصبية موجودون في المنزل. ومع ذلك تأتي فتاة جميلة بالسماور وبسائر مستلزمات الشاي لتجلس بيننا وأحياناً تشارك في الحديث، وهي تصب لنا الشاي. ولم يندر أن تكون هذه الفتاة حسناء رائعة الجمال.

لقد مررنا في هذه السفرة الطويلة بكثرة من القرى الكردية المهدمة والمهجورة وببساتين الفواكه المتروكة من العنب والتفاح والخوخ

والعرموط وبأشجار الجوز وغيرها. وكان أروع ما رأيت على امتداد السفرة بساتين قرية روست الواقعة في سفوح جبل حساروست المتميزة بكثرة الينابيع العذبة والبساتين البديعة والمناظر الطبيعية الخلاّبة. وقد هدم صدام الدور السبعمئة التي كانت موجودة حتى ١٩٧٦ وهدم معها سعادة سبعمائة عائلة كردية فلاحية كانت تنتج الفواكه للسوق. لو كان في البلد حاكم عاقل ومنصف وحريص على مصالح شعبه لأنشأ طريقاً جيداً مبلطاً للسيارات إلى القرية ومنها إلى فوق جبل حساروست ولحول المنطقة إلى واحدة من أجمل مصايف هذه البلاد. لكن حظ قرية روست، في ظل نظام البعث، كان الهدم الشامل والتهجير القسري وحرمان البلد من نتاج عمل هؤلاء المنتجين.

كانت المحطات الرئيسية في طريقنا، التي توقفنا فيها عند فدائيينا، بعد أن غادرنا نيوزنك، هي رزگه وپشتاشان وروست وگوسته وچلي وبعدها قاعدة الخابور التي كانت مقر قيادة فدائيينا في قاطع بهدينان. وقد انضم إلينا في الخابور عضوا اللجنة المركزية توما توماس وسليم إسماعيل والعضو الاحتياط عمر الياس مع عدد آخر من المرافقين. وبعد مسيرة يوم واحد دخلنا كردستان تركيا لنستقر بعدئذ في كوخ خشبي بناه أحد الرعاة بـ «نيف آف» في منطقة أولودره. بقينا في هذا الكوخ عشرين يوماً. واحتفلنا فيه بذكرى ثورة اكتوبر. في الحفل شربنا ـ وكنا ١٦ شخصاً ـ قنينة ويسكي لم أدر كيف وجدت هناك وأكلنا خروفاً جيداً اشتري بمبلغ ١٦ ديناراً. لم يشرب عمر الشيخ حصته من الويسكي بل سربها إلى جاره المحظوظ بصورة شبه سرية كما كانت عادته على الدوام.

كان الجوفي (نيف آف) بارداً تحت الصفر. لكن كثرة الحطب اليابس سمحت لنا بأن نحتفظ بنيران قوية في موقد وسط الكوخ. وكنا نتابع الأخبار بواسطة الترانسسترات الموجودة عندنا. وفي هذا الكوخ بالذات حمل إلينا الراديو مفاجأة غريبة إذ أذاعت محطة البارتي أن قوات

جود تمكنت من تأديب قوات أ.و.ك. وطردها من منطقة ورتي وملاحقتها باتجاه (دوله رقه).

نظرنا، أنا وعمر الشيخ، نظرة استغراب إلى بعضنا وتساءلنا «هل من المعقول أن يكون فدائيونا ضمن تلك القوات، التي شاركت في هذا الاقتتال، أم أن الأطراف الأخرى قامت بهذه العملية باسم (جود) رغم عدم مشاركة رفاقنا؟ دققنا في الأمر. لكن بعض المخاوف ظل يساورنا حين كنا نتذكر بأن المسؤول الأول لجماعتنا هناك هو أحمد بانيخيلاني، الذي لا يمكن الرهان على مستوى نضجه السياسي. وبعد أيام عدنا إلى قاعدة الخابور وأطلعنا على البرقيات الواردة من نيوزنك فتأكدنا أن مسلحينا قد تورطوا في الاقتتال ولم يكونوا بمنأى مما حدث في غيابنا. وقبل أن نعرف التفاصيل الملموسة لما حدث هناك كنا على قناعة تامة بأن المسؤولية الأولى عن التورط في هذا الخطأ الجسيم إنما كانت تقع ـ بقدر ما يتعلق الأمر بالشيوعيين ـ على عاتق أحمد بانيخيلاني شخصياً لكونه المسؤول الأول فترة غيابنا. أما لماذا ارتكب هذا الخطأ الجسيم فذلك يعود ـ حسب اعتقادي ـ إلى السببين التاليين:

١ ـ رغم أنه كان مناضلاً عالي الجهادية ومضحياً وسائراً في الصفوف الأمامية أيام الصعوبات، إلا أنه لم يكن ذا مستوى سياسي يركن إليه، لم يكن رجل السياسة القادر على مجابهة الأوضاع المعقدة، وبالتالي لم يكن مستقلاً في آرائه ومواقفه السياسية. وأظن أنه كان عليه أن يتقاعد عن ممارسة النشاط القيادي قبل هذا الحادث بأعوام.

٢ ـ إنه كان يميل أصلاً إلى أي عمل يستهدف «تأديب أ.و.ك» ووجد الفرصة في غياب من لا يوافقونه على هذه الفكرة ليضعها موضع التطبيق. ويمكن القول أنه وجد بين مرؤوسيه (بالأخص إبراهيم صوفي محمود ونعمان التميمي ولدرجة أقل ملا علي) من وافقوه بحماس على أفكاره وأوجدوا جواً ينقاد فيه وراءهم بدل أن يقودهم ـ كما هو المفترض.

أصبح الاقتتال بين المنظمات الكردستانية شيئاً مألوفاً منذ ١٩٦٤ وطيلة الأعوام اللاحقة. إلا أن مشاركة الشيوعيين في هذا الاقتتال لم يكن مألوفاً. والمشاركة في هذا الاقتتال خريف ١٩٨١ لم يشبه في شيء ذلك الصدام الذي وقع بيننا وبين مسلحي أ.و.ك، دون وجود طرف آخر في الأحداث، ودون أن نكون نحن المبادرين إلى القتال، يوم قتل هؤلاء عبد الله ماويلي ودخل مسلحونا القتال من منطلق الدفاع الشرعي عن النفس والرد على المعتدي.

حين حاولنا إقناع المكتب السياسي بعقد اجتماع اللجنة المركزية في كردستان بدل أوروبا، كنا قد أبدينا مخاوفنا من أن يؤدي ترك المنطقة، وسط هذه الظروف المعقدة، إلى نتائج لا تحمد عقباها. وقد حدث مع الأسف ما كنا نخشى حدوثه على إثر مغادرتنا للمنطقة. ومن جهة أخرى حرمنا نحن ثمانية من أعضاء ومرشحي اللجنة المركزية من المشاركة في الاجتماع بسبب عدم استطاعتنا العبور إلى سوريا خلال الأيام العشرين التي قضيناها في كوخ نيف آف. في تلك الأيام كان سفيرنا لدى كوك (وهو شيوعي أربيلي كان يتقن اللغة التركية) قد اعتقل من قبل السلطات التركية. كما اعتقل المهربون الذين كنا نعتمد عليهم فلم نفلح في اجتياز الحدود وقفلنا راجعين إلى مقراتنا.

في طريق العودة تمرض عمر الشيخ في قاعدة الخابور ولم أنتظره. كان معي مفرزة صغيرة، ودليلنا الرئيسي أبو كريم، وهو فدائي من أهل العمارة أصلاً. بتنا الليلة الأولى في بيت فلاح كردي عراقي على الشريط الحدودي داخل تركيا. بنى هذا الفلاح داراً ريفية لنفسه هنا بعد أن هدم النظام البعثي القرية التي كان يسكنها. ورغم أن هذا الفلاح لم يعرف ولا كلمة من اللغة العربية، وأن أبو كريم لم يعرف اللغة الكردية، فإن صداقة متينة كانت تربطهما إلى بعضهما. كانا يتفاهمان بلغة الإشارات. كانت هدية أبو كريم لصديقه الفلاح علبة سجاير. فأخذها ممتناً كما لو كانت هدية مهمة ووزع سجاير منها فوراً على أطفاله الكثيرين، بضمنهم طفل في الرابعة من عمره وطفلة في الخامسة. وخلال لحظات كان

الجميع صغاراً وكباراً يدخنون السجاير. وخلال وجبتي العشاء والفطور قدم لنا رب المنزل العسل والزبد. وحين غادرنا البيت صباح اليوم التالي حمل لنا علبة مليئة بالعسل قائلاً:

ـ خذوا هذا معكم للطريق.

وعندما توزعنا في قرية (كي) الحدودية كنت مع فدائي آخر في منزل الفلاح الكهل العم عبد الله. في مجرى الحديث روى لي عبد الله جانباً من حياته الشخصية، فقال:

ـ في ١٩٧٥ هدمت الحكومة كل القرى في هذه المنطقة، بضمنها قريتنا وهجرت أهاليها عنوة إلى المجمعات القسرية. أنا أبيت أن أخضع لقرار الحكومة وأهجر القرية. قررت أن أبقى هنا. وبقيت معي ابنتي الشابة مختفيين في الكهوف وفي الغابات والوديان حوالي القرية المهدمة لخمس سنوات كاملات. كنت أذهب أحياناً إلى القرى الحدودية في كردستان تركيا لشراء السكر والشاي والسجاير ثم أعود إلى هنا. وفي الصيف كنا نزرع بصورة سرية بعض البامية والطماطة لأنفسنا. وفي عام ١٩٨٠ انسحبت القوات العراقية من هذه الربايا المحيطة بنا، فخرجنا إلى العلن وأعدت بناء داري هذه. وقدمت عوائل أخرى لإعادة بناء دورها. وها نحن الآن سبعة بيوت في هذه القرية من أصل عشرين بيتاً قبل التهجير القسري.

نظرت إلى عبد الله، وهو يروي هذه القصة الحقيقية دون أن يحاول افتعال شيء فيها أو إدخال البهارات لتزيينها. وهي قصة لا تفضح فقط بربرية نظام البعث التكريتي، بل تؤكد في الوقت نفسه تمسك المواطن الكردي البسيط بأرض أجداده وبكل ما ورثه من قيم مادية ومعنوية. ورغم أنني لم أذهب مرة أخرى إلى قرية (كي) فإني على ثقة من أن الوحش التكريتي هدمها مرة أخرى في مجرى أنفال ١٩٨٨. ولا أدري ماذا فعل عبد الله بعد الهدم الثاني وهل أعاد بناء داره بعد انتفاضة الربيع الماضي.

بعد عبورنا لنهر هيزل صعدنا مرتفعاً جبلياً وحططنا الرحال هناك في دير أثوري مهجور يتخذه المسافرون هناك مكاناف للمبيت الليلي. الدير مبني في كهف عال استفيد منه، بدل الجدران، من بعض الجوانب. وأنشئت الجدران من الصخور بصورة هندسية مناسبة في جوانب أخرى. كان واضحاً أن هذا الدير أقيم في هذه البقعة الجبلية النائية المعزولة في وقت كان قاطنو القرى القريبة منها من الآثوريين كلياً أو جزئياً وأن القسس والشماسين كانوا يستلمون المساعدات من هؤلاء القرويين.

مررنا في طريقنا ذهاباً وإياباً بقاعدتنا في گوستا، وهي على الحدود مباشرة، ويفصل نهر صغير بينها وبين أراضي كردستان تركيا. في الإياب بتنا ليلة في قرية (بلوطة) ـ وهي تحمل اسماف سريانياً ـ الكردية قرب خط الحدود. كان مضيفنا الحاج عبد الله رجلاً مرحاً وفلاحاً ثرياً يتردد على المدن التركية والعراقية معاً. وكان في المفرزة المرافقة لي رفاق عرب. فأراد أحدهم أن يخبر رب البيت بأنه يمت بصلة ما إلى الأكراد وقال:

ـ أنا عربي أيها الحاج عبد الله، ولكن زوجتي كردية.

ـ تقصد أنك نكحت امرأة كردية؟

ـ نعم بالضبط.

ـ مع شديد الأسف! لعنة الله على تلك المرأة ـ قال الحاج عبد الله.

ـ وأنا كردي وتزوجت امرأة عربية، فانتقمت، أيها الحاج ـ قلت له.

ـ عشت! إنك رائع! يجب أن يكون الرجل الكردي فوق المرأة العربية وليس العكس.

كانت إحدى أصعب الليالي، التي مرت علي في حياتي كفدائي في المناطق الجبلية، هي تلك الليلة التي غادرت فيها قاعدتنا في روست

باتجاه پشتاشان. بعد مغادرتنا القاعدة بساعة واحدة أظلمت الدنيا وبدأ هطول الأمطار. كان هذا المطر مفيداً لنا حين عبرنا (الجسر الأصفر) فوق النهر المتحدر من دربند رايات، حيث كان الجنود يبقون في داخل الربية المشرفة ولا تترك لهم الأمطار مجالاً لمراقبتنا. وعندما اقتربنا من سلسلة الربايا المحيطة بديلمان ضل دليلنا السبيل تماماً فيما اشتد الظلام والمطر وغدونا أمام مخاطر الألغام والربايا. ولم يعد بإمكاننا مواصلة السير أكثر، خاصة مع البغل الذي كان يحمل لنا بعض الحاجات. فأمرت، بصفتي مسؤول المفرزة، بالجلوس في مكاننا حتى الصباح. لم يتوقف المطر ولا لحظة. ولم يكن هناك ما يقينا منه. مع ذلك كان البقاء جالسين تحت المطر أهون الشرين. وفي الصباح الباكر وجدنا مخرجاً من المأزق. وتوجهنا إلى الجبل في شبه هرولة ابتعاداً عن الربايا العسكرية. ثم واصلنا السير تحت المطر المنهمر حتى وصلنا قرية مهجورة في وادي (بالبيان) بجبل قنديل. هناك وجدنا غرفة واحدة فقط غير مهدمة، وأشعلنا نيراناً وبدأنا نجفف ملابسنا بعد أن سقطت عليها أمطار متواصلة طيلة ١٨ ساعة. في الليل أكلنا نصف خبزة لكل رجل ثم نمنا ـ نحن ١٦ شخصاً ـ في تلك الغرفة الصغيرة، بعد أن فرشنا فيها فقط شيئاً من الحشيش اليابس ودون أي غطاء. صدقوني أنها أروع وألذ نومة تمتعت بها طيلة حياتي. ولا يمكنني أن أقارنها بالنوم في أفضل فنادق أوروبا.

في اليوم التالي غادرنا (بالبيان) لنصل مساء آخر يوم من سنة ١٩٨١ إلى مقراتنا في پشتاشان. ولم أجد ما يشير إلى أي احتفال برأس السنة الجديدة. وفي ساعة متأخرة من الليل ذهب أحد الفدائيين إلى بستان عنب مجاور ليخرج لنا عناقيد العنب الفاخر من تحت الثلوج، التي كانت تغطي شجيرات الكروم منذ أكثر من شهر. في ذلك الوقت كانت مسألة نقل القيادة إلى پشتاشان قيد الدرس.

حين وصولنا إلى قاعدة نيوزنك عائدين من سفرتنا الفاشلة كان قد

انقضى شهران كاملان. وقد كتبت خلال أيام الرحلة يومياتي، التي أصبحت كراسة صغيرة. وربما ضاعت إبان انفالات صدام عام ١٩٨٨. وقد رجعنا لنواجه المشاكل التي سببها زج مقاتلينا في اقتتال المنظمات القومية الكردستانية.

تمثلت إحدى تلك المشاكل في وجود آمر قاعدتنا بقره داغ نصر الدين هورامي ومستشارها السياسي رؤوف الحاج محمد مجمدين في نيوزنك بانتظار المحاسبة والمعاقبة. وكانت جريمتهما أنهما لم يتمثلا لأوامر البانيخيلاني بشن الهجوم في منطقتهما على قوات أ.و.ك. لم يفرح أحد بعودتنا قدر فرحتهما لأنهما نجيا من العقاب المنتظر ووجدا فينا من يقول أن موقفهما بتجنيب الاقتتال كان هو الصحيح وليس موقف البانيخيلاني الذي أمرهما بالقتال.

❀ ❀ ❀

بعد العودة من بهدينان مكثت أسبوعاً واحداً في نيوزنك لأغادرها بعدئذ وبصحبة ملا علي ومفرزة كبيرة من فدائيينا شطر شهربازار وقره داغ. في مساء اليوم الثالث من تحركنا كنا في قرية (گاپيلون). وعند توزيعنا لتناول العشاء في بيوت القرويين دخلت مع فدائي آخر بيت فلاح لا أعرفه ولا يعرفني. فانبرت ربة البيت لشن هجوم كلامي عنيف علينا قائلة:

ـ أنتم لا تستحقون أن نطعمكم ولستم جديرين بأن نخدمكم ونضحي بشيء من أجلكم. أنتم لا تملكون شيئاً من العقل ولستم جديرين بالاحترام.

فوجئت بهذا التهجم من هذه المرأة الجريئة ولم أعرف أول الأمر سببه. سألت المرأة بهدوء:

ـ لماذا يا أختي؟ ماذا فعلنا من السوء حتى لا نكون جديرين بالاحترام؟

ـ وهل هناك أسوأ مما فعلتم؟ نحن نقدم لكم الطعام من خبزنا الشحيح ونخدمكم بشتى الأشكال لكي تحاربوا السلطة. ولكنكم تحاربون وتقتلون بعضكم البعض. أفلا تخجلون من أنفسكم؟ أتستحقون أن نطعمكم؟ لماذا قتل شيركو شيخ علي وجمال علي باپير؟

هنا فهمت سبب الغضب الشديد لدى ربة البيت. كان مقتل عضو اللجنة المركزية لـ ح.س.ك. شيركو وأحد الكوادر البارزة لـ أ.و.ك. جمال حدثاً جديداً في تلك المنطقة. وكان شيركو شخصية معروفة في المنطقة ومن سكان إحدى قراها. وكان الشائع آنئذ أن ذنب ما حدث إنما يقع على عاتق أ.و.ك وأن ملا بختيار، الذي كان من قياديي أ.و.ك. في ذلك الحين، وراء الحادث لتصفية شيركو ـ ولست متأكداً شخصياً عما قيل ـ وأن شقيق شيركو نصف المجنون ثأر لأخيه فوراً بقتل جمال، الذي كان البادىء بالقتل. ذلكم ما حدث. وها أنا أتعرض للمحاسبة الشديدة من لدن ربة البيت الريفي الذي دخلته لتناول العشاء. كان من الصعب أن أفهم هذه المرأة الصادقة في عواطفها وحرصها بأني من حزب آخر لا شأن له بما حدث وإني لست من مؤيدي هذا الاقتتال أصلاً. فأجبتها قائلاً:

ـ الحق معك يا أختي وليس من الصحيح أبداً أن نقتل بعضنا البعض وعدونا الرئيسي صدام يتفرج علينا. المستفيد الوحيد من هذا الاقتتال هو نظام صدام.

بدا أن هذه الإجابة خففت من ثوران المرأة الغاضبة. وبعد ذلك بربع ساعة صارحتها بأننا لسنا من الطرفين المتقاتلين، بل نحن شيوعيون معارضون لهذا الاقتتال.

في گاپيلون نفسها كانت هناك ندوة نظمتها مفرزة من (كومله أ.و.ك) للفلاحين. ولما اجتمعوا خطب فيهم كادر شاب قائلاً:

ـ نحن م.ل. ويعرف رفاق ح.ش.ع. الجالسون هنا ماذا يعني

م.ل. ـ نظر القرويون في وجوه هذا الشاب وفي وجوه بعضهم دون أن يفهموا شيئاً مما قيل. وأوضح فدائي آخر من زملاء الشاب بعدئذ أن م.ل، معناه (ماركسي ـ لينيني). وهمس شاب من فدائيينا لزميله: «إنهم قوموين وليسوا ماركسيين».

وكنا في قرية بزينيان وگورگه ده ر وبعض القرى القريبة منها، وكانت كثرة عددنا (حوالي مئتي مسلح) مظهراً استفزازياً لمسلحي أ.و.ك هناك، رغم أننا لم نقل ولم نفعل شيئاً يمسهم. ولكي يثبت مسؤولهم العسكري المحلي (وهاب زيومري) بأنهم الأقوى وأنهم الحاكمون في القرى قام بضرب أحد القرويين وإلقائه في حوض الماء البارد أمام جامع القرية. وبعكس ما تصور وهاب، فإنه خدمنا بهذه الحماقة إذ حمل القرويين على أن يقارنوا بينه وبيننا.

كان من المقرر أن نغادر القرية في صبيحة اليوم التالي ١٦ كانون الثاني ١٩٨٢ غير أن سقوط الثلوج قطع الطريق وأرغمنا على البقاء. وقد استمر سقوط الثلج بغزارة ولأكثر من ٤٨ ساعة. وتراكمت طبقة سميكة منه على الأرض بشكل لم يسبق مثيله طيلة أكثر من خمسين عاماً. وبعد أربعة أيام فتحنا الطريق بجهد مكثف للوصول بساعات إلى قرية عازبان التي كانت تبعد قرابة أربعة كيلومترات وحسب. واضطررنا على البقاء في عازبان أياماً. كان مقرنا الموقت جامع القرية. وكنا نتوزع على البيوت أثناء وجبات الطعام. في هذا الجامع صنعت أحجار الشطرنج بكاملها من خشب البلوط وفيه نظمت نشيداً أو أغنية بعنوان (كلاشنكوف) شبهت فيها الكلاشنكوف بحبيبة الفدائي وعروسته التي تحضنه في مسيره وفي مجلسه وتبيت معه على فراش النوم.. الخ.

وصلنا قرية خراجيان بضواحي مدينة السليمانية في منتصف الليل وأيقظنا القرويين من النوم لكي يستقبلونا ويطعمونا. لم أشعر بأي انزعاج لدى العائلة التي دخلت بيتها. وقد أسرعوا في تهيأة العظام بطيبة خاطر وقدموا لنا وفراً من البيض المقلي واللبن الجيد والشاي الساخن وودعونا

بنفس حرارة الاستقبال. وركبنا من هناك عربات تجرها تراكتورات، نبدلها في كل قرية حتى وصلنا سفح الجبل الذي يفصل بين شهرزور وقره داغ.

كنا موزعين على بيوت قرية (مچه كوير) في قره داغ. وكانت الفدائيتان هناء ولينا معي في بيت واحد. لم تعرف ربة البيت أول الأمر أنهما فتاتان إلى أن طلبتا أخذهما إلى عين الماء الخاص بالنساء. فأخذتهما إلى هناك وسمعت النساء كلهن وبوجود عدد من الفدائيات في المفرزة، وربما للمرة الأولى بالنسبة إلى هذه القرية. وبعد عودتهما إلى البيت أتت الجارة الشابة لزيارتهما وأبدت إعجابها الشديد بأن تحمل فتيات ـ وكن عربيات باستثناء إحداهن ـ السلاح لمقاتلة نظام البعث. وعبرت عن إعجابها بقولها:

ـ فديت بطن الأم التي أنجبتكما أيتها الفدائيتان الباسلتان.

وفي قرية تكيه ـ وهي مسقط رأسي والقرية التي قضيت فيها السنوات الأربع عشرة الأولى من عمري ـ اجتمع الأقارب والأصدقاء حوالي وزارني البعض قدوماً من بلدة قره داغ ومدينة السليمانية. كما زارني المسؤول المحلي آمر مفرزة أ.و.ك رستم، وبحثنا بعض الأمور. وجدته صريحاً ومغروراً في آن واحد. وقال إنه من كوادر كومله. واعترف أنه لم يقرأ طيلة عمره أي كتاب بل ولا أية صفحة. إنما تعاطف مع كومله وحسب. وبعد مغادرته لقريتنا قام في قرى أخرى بمضايقة وحجز عدد من المتعاطفين مع ح.ش.ع. لكي يثبت للفلاحين بهذا الأسلوب المرفوض أن أ.و.ك. هو الأقوى وأن المفرزة الفدائية الشيوعية التي قاربت أربعة أضعاف مفرزته هو، ليست بذات شأن. وتعرضت لضغوط البعض من رفاقي كي أوافق على إجراءات مشابهة من قبلنا ضد المتعاطفين مع أ.و.ك. ولكني رفضت القيام بشيء من هذا القبيل.

كنا في الطريق المؤدي من سنگاو إلى قرية بانيخيلان الواقعة على

الشارع الرئيسي قرب دربنديخان، لغرض عقد ندوة أتكلم فيها للفلاحين هناك. وقد انفجرت قذيفة في الجو فوق رؤوسنا. توقفنا بعض الوقت ظانين أنها كانت قذيفة انفلاق جوي أطلقها العدو من إحدى الربايا بعد أن اكتشفنا. ولم يلبث أن اتضح أنها كانت قذيفة أر بي جي وثارت من يد أحد فدائيينا خطأ. فتابعنا المسير وأقمنا الندوة وتناولنا الطعام في بيوت القرية وغادرناها عائدين إلى (دره دوين) في نفس الليلة.

قامت مفرزة من رجالنا، تحت قيادة حمه رشيد قراخي، بنصب كمين لسيارة عسكرية محملة بالجنود قرب بلدة قره داغ. نجحت العملية في إلحاق خسائر روحية كثيفة بأفراد القوة المعادية. غير أن النيران الكثيفة التي أطلقت من ناقلة جنود وإحدى الربايا العسكرية القريبة لم تسمح بأخذ الأسلحة والغنائم من قتلى العدو. في اليوم التالي خرجت قوة عسكرية حكومية في عملية ثأرية حتى وصلت قرية (استيل السفلى) حيث سأل آمرها الضابط بعض الفلاحين:

ـ هل من الصحيح أن فتيات فدائيات عربيات كن ضمن المفرزة التي قامت بعملية أمس ضد الجيش قرب البلدة؟

ـ نعم صحيح، كانت هناك فدائيات أيضاً.

ـ تباً للعروبة وللأمة العربية بأسرها. تباً لهذا الجيش الذي يباد على أيدي فتيات عربيات.

كان ملا علي يبحث عن مشروبه المفضل ـ العرق العراقي ـ أثناء جولاتنا أيضاً. ويبدو أنه حصل بشكل ما على قنينتين منه واتفق مع بعض زملائه سراً على إقامة حفل صغير خاص في منزل الفدائي الشيوعي توفيق فتح الله بقرية بلكجار لتناول المشروب في سهرة ممتعة. وعندما حل الوقت المنتظر وهيئت المقبلات ـ المزه ـ وجد ملا علي القنينتين وقد أفرغتا من العرق وملئتا بالماء الاعتيادي. وأدرك فوراً أن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف بمثل هذا الأمر السري ويقدم على تبديل العرق بالماء هو خالد، المسؤول الحزبي عن منطقة قره داغ والمقيم في قرية تكيه المجاورة. ولم يستطع ملا علي إثارة القضية خشية انتشار

الخبر وخلق المزيد من المتاعب. وقيل أن هذا التصرف من خالد لم يكن بدافع الحرص على الحزب وحده، بل انطوى كذلك على بعض المشاكل والأحقاد الشخصية.

كنت جالساً بين أفراد عائلتي في تكيه حين زارني وفد فلاحي كبير من أهالي قريتي بلكجار و (بردي) وكلهم من أقاربي ـ ليقدموا إلي مطلبهم الوحيد:

ـ جئنا لنطلب منك عدم تأسيس أي مقر عسكري لكم في بلكجار.

ـ ومن قال لكم أننا نريد تأسيس مقر عسكري هناك؟ ـ سألتهم، وفي واقع الأمر لم نفكر بتأسيس مثل هذا المقر هناك ـ ولماذا تعارضون تأسيس المقر؟

ـ سمعنا أنكم تؤسسون مقراً، ونحن نخاف من القصف الجوي والمدفعي للقرية إذا وجد فيها المقر.

طمأنتهم بأننا لسنا بحاجة إلى مقر كهذا في الوقت الحاضر. وقمت بآخر زيارة إلى بلكجار في ٤/٣/١٩٨٢. وكانت الثلوج، التي سقطت في ١٥ ـ ١/١٦، لا تزال تغطي الأرض حوالي القرية.

في طريق العودة إلى قاعدة نيوزنك كان يتأتى علينا أن ندخل أراضي كردستان إيران عند عبور الزاب الصغير مباشرة قرب قرية (هرزنه) ونقطع مسيرة يوم ونصف أو يومين لنصل مقراتنا. وكنت في مقهى بقرية (درماناوا) حين وجدت أحد أفراد الحرس الإسلامي ـ پاسدار ـ أسيراً لدى مفرزة فدائيي الحزب الديمقراطي الكردي الإيراني. هدد أحدهم الأسير قائلاً:

ـ إذا لم تتصرف بالشكل المعقول فإنك ستقتل.

ـ أنا لا أخشى منكم أيها الجبناء ـ أجاب الأسير متحدياً ودون أن يظهر على وجهه شيء من علامات الخوف ـ اقتلوني! اقتلوني! أنتم جبناء إذا لم تقتلوني في هذه اللحظات.. أنا لا أخاف الموت لأني

سأموت شهيداً من أجل الإسلام وسأذهب مباشرة إلى الجنة.. لا أريد هذه الحياة البائسة في هذه الدنيا، بل أريد الحياة الأبدية السعيدة في الجنة.. اقتلوني!

كان الحارس الإسلامي الأسير فارسياً، وكان مظهره يدل على أنه من أفقر الفقراء. كان يتكلم بجد ولم يكن خائفاً من الموت أبداً. بل كان راسخاً في الإيمان بالله وبالجنة قدر رسوخي في رفض الخرافات. علق أحد الزملاء على ما رأى أمامه، فقال:

ـ هذا المسكين لم يجد في هذه الدنيا ما يسعده فيأمل الحصول عليه في عالمه الآخر.

كنا جالسين في جامع قرية بيوران. وكان ملا القرية يلقي موعظة على حشد من الفلاحين، الذين بقوا هناك بعد أداء الصلاة للاستماع إليه. كان يقرأ فقرات بالعربية في كتاب مفتوح أمامه ليترجمه بعدئذ إلى اللغة الكردية التي لا يعرف مستمعوه غيرها. وكان الموضوع يتعلق بطيبة وعدالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب. قال الملا:

ـ عرف عمر بوجود أرملة فقيرة مع أطفالها الجياع في بيتهم، وما من معيل لهم. فنهض وحمل على ظهره شخصياً كيساً من الطحين إليهم لإطعامهم من بيت المال. وبعد أن وصل البيت ووجد الأطفال جياعاً وضع كيس الطحين أمامهم. ثم نهض وحمل الكيس على ظهره مغادراً البيت.

من المؤكد أن الملا الواعظ كان ضعيفاً في اللغة العربية فترجم العبارة التي قرأها بالعربية بصورة خاطئة. لكنه كان يفتقر أيضاً إلى قليل من العقل والذوق السليم وإلا لما شوه الحقيقة على هذه الشاكلة إذ لماذا أتى عمر بالطحين إلى أطفال وجدهم جياعاً ثم أعاد الطحين بعيداً؟

وصلنا نبأ، وكنت سكرتير لجنة اقليم كردستان في كانون الثاني

١٩٨٢، مفاده أن حملة اعتقالات قد جرت في مدينة السليمانية وشملت سكرتير لجنة المحافظة نائب عبد الله وعدداً من أعضائها وكوادرها أمثال نوروز شاويس وكمال محمد أمين وملا بكر. وسعيا لتطويق الحملة وتنبيه جميع الكوادر إلى الخطر المحدق كتبت تصريحاً باسم ناطق بلسان لجنة اقليم كردستان وقدمته إلى إذاعة أ.و.ك. لتبثه ـ وقد بثته فعلاً. وبعد أيام من هذا التصريح وصلنا سكرتير المحافظة المعتقل نائب عبد الله وأفاد أمامنا في هندرين بأنه اعتقل من قبل الأمن العام في المحافظة وتمكن، بعد أيام، من خدعهم مدعياً أنه على موعد مع أحد أعضاء المكتب لاسياسي للحزب وأنه سيسلمه إليهم. فأطلقوا سراحه وتركوه ليعود إلى بيته. وقد أهابت به زوجته ـ على حد تعبيره هو ـ لكي يهرب ويفلت من قبضة الأمن العام. فهرب ووصلنا. أما كيف اعتقل أول الأمر فإنه ذهب إلى بيت أحدهم ووجده تحت الرقابة وعاد فلاحقوه واعتقلوه.

أعترف بأني صدقت ما رواه نائب، شأني شأن الآخرين في الهيئة. واقتصرت إجراءاتنا على تنحية نائب من عضوية اللجنة المركزية للحزب، بسبب موقف الضعف عنده، مع إبقائه ضمن لجنة اقليم كردستان. وبقي على هذا الأساس مسؤولاً عن منظمة محافظة السليمانية لأكثر من سنتين إلى أن أطلق سراح نوروز شاويس الذي كان هو الآخر ضعيفاً أمام الجلادين عند القبض عليه. لكن الشيء الذي أصر عليه نوروز ـ واتضح أنه كان محقاً في ذلك ـ هو أن نائب كان أول من اعتقل في السليمانية بخلاف ما كان يدعي ـ وقد انهار فوراً وأنه هو الذي سلم الآخرين إلى السلطات. وكان علينا أن نفهم في بداية مجيئه إلينا بأن الأمن العام ما كان ليطلق سراحه لولا التوثق من أنه انهار كلياً.

❀ ❀ ❀

كنت على رأس لجنة اقليم كردستان وكان رفيق صابر آمر فصيل (أو مسؤول) مقرناً. وكانت العلاقة وثيقة بيننا. وكانت نقطة الخلاف

الوحيدة بيننا هي مسألة سفره للخارج بهدف الدراسة الجامعية والحصول على شهادة الدكتوراه. كان يريد ذلك وكنت أعارضه إلى أن افترقنا بانتقالي من منظمة الاقليم إلى المكتب العسري المركزي، الذي تكون في تلك الأيام مني مستشاراً سياسياً، أو منظماً حزبياً، ومن سليمان اسطيفان مسؤولاً (وهو ضابط حقوقي سابق) وأحمد بانيخيلاني وآرا خجدور عضوين.

مع نقل خدماتي إلى المكتب العسكري انتقلنا ـ المكتب العسكري ثم القيادة كلها ـ إلى پشتاشان. في أيار ١٩٨٢ سافرت ضمن مفرزة من نيوزنك إلى پشتاشان راكباً بغلاً. وصلنا نهر (ماريو) الذي كان فائضاً بسبب ذوبان الثلوج في جبل قنديل. وتوجه الفدائيون المشاة نحو شبه جسر خشبي صالح لعبور البشر وليس لعبور الدواب. وكان علي أن أعبر النهر راكباً البغل من مكان مناسب. بقي معي الفدائي الكلداني شوان، وهو شاب شيوعي من شقلاوه، لكي يراني أعبر ثم يذهب نحو الجسر. عندما بلغ البغل وسط النهر الفائض الهائج، وأنا راكبه فوق حمل خفيف، جرفه تيار الماء القوي في النهر المزمجر السريع الانحدار. وانجرفت بدوري معه. كل ما فعلته هو أنني ألقيت بنفسي ضد المجرى لكي لا أقع تحت البغل المنجرف. وظللت أسبح وأحاول البقاء فوق سطح المياه لأتجنب الارتطام بالصخور الكبيرة التي منها كنت أخاف. وبعد انجراف استمر حوالي ٣٠ ـ ٤٠ متراً تمكنت من الإمساك ببعض الغصينات الجانبية والخروج من النهر. وعلى امتداد الانجراف بقيت ماسكاً بحبل رشمة البغل. فسحبته هو الآخر ورائي. وأما مرافقي شوان فإنه أصيب بذعر شديد. وربما أصيب بإغماءة قصيرة، حين رآني وقد جرفني الماء. وذكر لي فيما بعد أنه كان شاهد غرق الفدائي الكربلائي عامر في نهر نوكان الفائض قبل هذا الحادث بحوالي أسبوعين، وأنه تصور بأني سأكون ثاني غريق يشهده خلال (١٥) يوماً).

وصلنا پشتاشان في اليوم التالي، بدت لي منطقة جبلية حصينة

بالنسبة لمن يملك وسائل دفاع قوية ويرد على هجوم العدوم مهما اشتد. ولكنها لم تكن صالحة لمن يضع احتمال الانسحاب الاضطراري في فصل الشتاء. ذلك لأن ثلوج قنديل تشكل العدو الأقوى الذي لا يمكن قهره لمن يلاحق من الأمام ويريد الانسحاب إلى الوراء. وبهذا المفهوم كان اختيارها كمقر رئيسي للقيادة غير موفق. بيد أن الجميع كانوا يفكرون في الأمر بقدر ما يتعلق بهجمات السلطة وحسب. ولم يفكر أحد في قضية الاقتتال الداخلي بين فصائل المعارضة بشكل يؤدي إلى احتلال وتحطيم هذه القاعدة على أيدي مسلحي أ.و.ك.

مع حلول موسم صيد القبج قررت الاستمتاع بإجازة بضعة أيام أقضيها فوق جبل قنديل. ورافقني ثلاثة شبان فدائيين اثنان منهما من بني أخوتي، ليحملوا على ظهورهم ما نحتاج من الطعام والفراش. في اليوم الثاني من الصيد ـ ١٧ حزيران ١٩٨٢ ـ أردت أن أجتاز بقعة ثلجية لأختصر الطريق إلى مكان أردنا أن نجلس فيه لتهيئة الشاي وتناول طعام الغداء. كنت أتصور أن الثلج هش، كما هو الحال في الشتاء. واتضح أنني كنت مخطئاً. فانزلقت رجلي بعد الخطوة الرابعة أو الخامسة وهويت على الثلج في أرض شديدة الانحدار ولم يعد بمستطاعتي السيطرة على الموقف ولم أنج من الارتطام، في نهاية البقعة الثلجية، بصخرة كانت على الأرض كما لو وضعت هناك عن عمد ككمين لي. لم أفقد الوعي جراء الارتطام ولكني فقدت القدرة على أي حركة. فأسرع إلي الشبان وفرشوا بطانية ليضعوني فوقها ويحملوني إلى راعي غنام من أهالي قرية (دوگومان ـ عشيرة آكو). كانت آلامي شديدة للغاية ولم أكن قادراً على الإتيان بأي حركة. وخلال الساعات الأربع والعشرين الأولى كنت يائساً من البقاء على قيد الحياة. لم يكن هناك طبيب أول الأمر ولم يكن بالإمكان نقلي إلى أي مستشفى ولا إلى مقرنا في سفح الجبل. في اليوم التالي وصلني الطبيب الفدائي المرح (بهاء) دون أن يحمل معه أية أجهزة. وبعد الفحص أعرب عن اعتقاده بأن

المسألة هي تكسر ضلوعي. بقينا عشرة أيام كاملات في خيمة ملحقة ببيت الحاج الغنام وعائلته، الذين قدموا لنا خدمات كبيرة. كان هناك وفر من اللبن الجيد، بل من أفضل ألبان الدنيا، مع لحم الخروف الجيد وكبده مشوياً. وكانت اللحوم تكثر عندهم لسبب خارج عن إرادتهم. في اليوم السادس أصبح في مقدوري أن أتحرك وأتقلب على الفراش وفي اليوم التاسع نهضت بمساعدة زملائي وتمشيت قليلاً. وفي صبيحة اليوم العاشر تركت خيمة الغنام وتحركت ببطء شديد متكئاً على عصى لأصل بعد عشر ساعات إلى المقر حيث بقيت طريح الفراش شهراً كاملاً. وعندما تسنى لي أخذ صورة إشعاعية في المستشفى السوفيتي بطهران نهاية عام ١٩٨٢ تبين أن تلك الحادثة كانت قد سببت تكسر خمسة من أضلاعي في الجهة اليمنى.

كنت لا أزال طريح الفراش يوم زارتني أخت زوجتي الفدائية هناء قادمة من قاعدة نيوزنك لتخبرني بأنها تزوجت من الفدائي الشاب محي الذي كان قد تعرفت عليه في قاعدة التدريب بلبنان عام ١٩٨٠. كانت نصيحتي لها أن تتجنب إنجاب الأطفال إذا كانت راغبة في البقاء فدائية. وهي أخذت فعلاً بهذه النصيحة طيلة الأعوام السبعة التي عاشتها مع زوجها فدائية في كردستان. وعلى العكس من ذلك كان البعض من فتياتنا الفدائيات يتزوج لينجب الأطفال في أسرع وقت وليتخذ من ذلك حجة لترك العمل الفدائي والذهاب ـ أحياناً مع زوجها ـ إلى الخارج بذريعة صعوبة مداراة الأطفال في ظروف العمل الصعبة بين الفدائيين.

❀ ❀ ❀

منذ مشاركتي في أول اجتماع للمكتب العسكري المركزي أقر الاقتراح الذي قدمته بعقد اجتماع حزبي عسكري عام يشترك فيه مندوبو كافة تشكيلاتنا الحزبية بين الفدائيين والعسكرية ويناقش فيه وضعنا العام وإعادة بناء تنظيماتنا الحزبية ـ العسكرية ومشروع نظام داخلي لقواتنا الفدائية ولتحديد شكل العلاقة بين العمل الحزبي وبين العمل العسكري.

في أوائل أيلول ١٩٨٢ توافد المشاركون وانعقد الاجتماع في پشتاشان. وحضره سكرتير الحزب عزيز محمد، الذي كان قد وصل إلى كردستان منذ وقت قريب، كما حضره البعض من أعضاء اللجنة المركزية. كان أول اجتماع من نوعه في كردستان. ونوقشت المسائل المطروحة في جدول العمل وأقرت صيغة مشروع النظام الداخلي للقوات الفدائية الشيوعية كما أقرت إعادة بناء التنظيم العسكري بتقسيم كردستان إلى ثلاثة قواطع ـ قاطع بهدينان وقاطع اربيل وقاطع السليمانية وكركوك، مع الإبقاء على المكتب العسكري المركزي. وكان يجب عرض القرارات على اللجنة المركزية أو المكتب السياسي قبل وضعها موضع التنفيذ.

❀ ❀ ❀

كانت قضايا التحقيق والمحاكمات غير مستقرة على أسس، وكانت تجري في بعض الأحيان حسب مشيئة المسؤولين المحليين، الحزبيين والعسكريين. وكان الروتين الملازم لدوائر الدولة البيروقراطية المتخلفة تنعكس على أوضاع وتصرفات فدائيينا أيضاً. وقد اعتقل شاب كنا ندعوه (أبو حاتم) وكان ابن رجل من الرجال الأربعة الذين داهموا بيتي باسم الأمن العام واعتقلوني في ١٧ أيلول ١٩٦٧ عند انشقاق جماعة عزيز الحاج. وكان يتردد بين القاعدة وبين المدن تارة لتدبير مجيء خطيبته وأخرى للقيام ببعض النشاطات الحزبية. كانوا يشكون في ارتباطاته. وإلقي به إلى السجن مدة طويلة وأهمل دون أن يحاكم أو يفرج عنه، حتى اضطررت إلى التدخل مع المحققين والحكام مطالباً فقط بإنهاء قضيته بالإدانة أو التبرأة. وأنشأنا بعد ذلك محكمة تابعة للمكتب العسكري المركزي وعين على رأسها شاب حقوقي حمل شهادة الدكتوراه في القانون ويدعي (أبو هديل).

٢١

عودة المكتب السياسي إلى كردستان
دفع الحزب الشيوعي إلى نكسة جديدة

في ذروة الهجمة البوليسية، التي شنها النظام البعثي على ح.ش.ع.، انتقل المكتب السياسي للحزب إلى خارج البلاد وتوزع أعضاؤه على عدة أقطار. وكانوا يجتمعون مرات قليلة، مرة في هذا البلد وأخرى في ذاك. وخلال أعوام ١٩٧٩ - ١٩٨٠ - ١٩٨١ عقدت اجتماعات اللجنة المركزية في أوروبا. وبعد سنوات ثلاث تحرك المكتب السياسي نحو كردستان لعقد أول اجتماع للجنة المركزية فيها ولإبقاء البعض من أعضائه كي يعتبر عائداً.

بعد الاجتماع الحزبي - العسكري في پشتاشان توجهنا إلى وادي نيوزنك للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية على الحدود العراقية - الإيرانية. كان مبعث الفرح أن ينعقد الاجتماع هذه المرة فوق أرض كردستان وفي مقرات فدائيينا. ولم يحزر أحد آنئذ أنه سيكون بداية نكسة جديدة للحزب.

صادق الاجتماع على قرارات الاجتماع الحزبي - العسكري بتشكيل ثلاثة قواطع عسكرية وإقرار مشروع النظام الداخلي للتشكيلات

الفدائية. وعين مسؤولو القواطع من قبل المكتب السياسي ـ أنا مسؤولاً عن قاطع السليمانية ـ كركوك ويوسف حنا عن قاطع أربيل وتوما توماس عن قاطع بهدينان. وألفت هيأة القاطع، التي افترض أن أقودها، من عضو اللجنة المركزية عدنان عباس الكرد مستشاراً سياسياً وعضو لجنة الاقليم ملا علي مسؤولاً عسكرياً في القاطع وعضو لجنة الاقليم إبراهيم صوفي محمود مسؤولاً إدارياً. اعترضت من جانبي على هذه التركيبة، وخصوصاً على إبراهيم صوفي، وأبلغت عزيز محمد باعتراضي وقلت أنها هيئة غير متجانسة. وقد رجاني عزيز القبول بهذه التركيبة والسعي لتذليل المصاعب ومحاولة توفير التجانس.

كان علينا أن نختار المكان الذي يكون فيه مقر هيأة القاطع. وأجلنا ذلك إلى أن نتحرك إلى المنطقة ونختار المكان بعد الفحص الميداني. وانتقلنا في المرحلة الأولى إلى قرية (دولكان) ـ وهي قرية في وادي آلان الإيرانية ـ حيث كانت لنا قاعدة فدائية صغيرة. عند وصولنا وجب علينا، قبل كل شيء، أن نحل مشكلة طبيب القاعدة أبو هڤال مع مسؤولها أبو هيمن. كان الطبيب قد سجن بسبب نزاع بينهما، وكان الاثنان معقدين ومزعجين وصعبي الانسجام.

كان في نفس قرية دولكان مقر للحزب الديمقراطي الكردي في إيران أيضاً. وبادلنا الزيارات مع د. قاسملو و د. صادق شرفكندي، اللذين كانا هناك آنئذ. ومن أطراف ما سمعت من د. قاسملو، وكان جالساً عندنا لتناول الغداء، الحادث التالي:

جاءني فدائي مسن في عام ١٩٨٠ ـ الحديث لقاسملو ـ وسألني:

ـ متى تنتهي مشكلتنا يا دكتور؟ متى يسقط الخميني؟

ـ قريباً.

ـ بعد كم من الوقت؟ ـ أجبته أنه سيسقط بعد شهرين ـ فأضاف:

ـ أوه! إنها لمدة طويلة أن ننتظر شهرين كاملين.

توجهنا إلى شهربازار. وبعد الاستطلاع الميداني وقع اختيارنا على قرية (حاجي مامند) الحصينة المجاورة لقمة جبل (كوره كاژاو) والمحاطة بحزام جبلي يكاد يطبق عليها.

❀ ❀ ❀

ظهر ورم في رجلي وأشار بعض أطبائنا إلى عرضه على الإخصائي وفحصه خشية أن يكون ورماً خبيثاً. ولم يكن بإمكاني دخول مدن عراقية للفحص فسافرت مضطراً إلى طهران. وكان بصحبتي أحد أطبائنا ـ د. ناظم الجواهري. في نقطة تفتيش الحرس الإسلامي الإيراني بدرزلي عثروا في حقيبته على خارطة سياحية بسيطة لمدينة طهران وجعلوا من ذلك مشكلة خطيرة زعماً بأن حامل هذه الخارطة ذاهب لتنفيذ عمليات تخريبية ضد إيران. ولولا الشاب الكردي العراقي طاهر نادر هورامي، الذي ذهب مع ناظم وزكاه وأنقذه، لكان من المنتظر أن يقاد طبيبنا إلى السجن والتحقيق ليس لأنهم وجدوا لديه مستمسكاً جرمياً بل لأن هؤلاء الحراس كانوا قرويين متخلفين جهلاء.

في طهران ذهبنا إلى المستشفى السوفيتي ـ الذي أغلق بعد ذلك بسنة ـ وواجهنا المدير، الذي سارع إلى تدبير الفحص وعرض علي النوم في المستشفى لمعالجة ما كنت أشكو منه في ظهري. رفضت ذلك وقررت العودة السريعة إلى كردستان.

من المفارقات العجيبة أن يوم وصولنا إلى طهران كان كذلك يوم وصول الفتاة إيمان الزوجة المطلقة لناظم الجواهري. كانت إيمان ـ وهي ابنة سكرتير ح.ش.ع. السابق سلام عادل ـ قد تزوجت ناظم في موسكو، حيث كانا يدرسان الطب. وأنجبت منه طفلين. ثم طلقته لتتزوج بعدئذ من رجل آخر سوري مشلول بسبب حادث مؤسف. وكان هذا الأخير زوجاً سابقاً لسلام، ابنة سكرتير الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش. ويبدو أن هذا الزوج قد فرض في حينه على سلام دون

أي رغبة منها. ثم طلقته وأصيب بالشلل ثم تزوجته ابنة سلام عادل. وحين سئمت إيمان من زوجها الجديد هذا طلقته وقررت العودة إلى زوجها السابق ناظم، وأتت إليه برجليها وتصادف وصولهما إلى طهران في نفس اليوم.

في طريق العودة من طهران احتفلت بعيد رأس السنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ مع فدائيينا في قاعدة كرجال ـ جبال هورامان. كان الحفل داخل خيمة كبيرة منصوبة بشكل فني بديع داخل كهف عميق حصين. وكان البرنامج خليطاً من التوعية السياسية والتسلية البريئة. ومن طرائف الحفل إلقاء قصيدة مزعومة كنت قد نظمتها خلال عشر دقائق على منوال العديد من القصائد الحديثة التي تسمى شعراً، وهي تخلو ليس فقط من الوزن والقافية، بل كذلك من كل عناصر الفن والجمال الشعري. قدمتها لتلقى كمجرد سخرية من بعض الأشعار. لكن بعض الحاضرين انغمروا مع بعضهم في نقاش طويل بحثاً عن تفسير عميق لهذه القصيدة «العميقة».

في قاعدة كرجال سألت بشكل ما الرفاق الفدائيين عن رأيهم في مسئوليهم. لاحظت أنهم كانوا راضين عن مسؤولهم الأول علي كلاشنكوف. وقالوا إنه يسير أمامهم في الصعاب وفي العمليات العسكرية. لكنهم شكوا من أن عضو مكتب البتليون كريم حاچي منشغل على الدوام بالبحث عن الطعام اللذيذ لنفسه أكثر من انشغاله بأمور القاعدة وبمشاكل الفدائيين الحزبية والعسكرية.

في منتصف الليلة التالية، ونحن في طريق العودة من كرجال إلى مقر القاطع بشهربازار، كنا جالسين لتناول قسط من الراحة قرب مجمع (شاندري)، وحين هممنا بالتحرك هرب البغل من يدي، قبل أن أركبه. وعبثاً حاولنا مسكه فقد اتجه إلى المجمع، ولم يعد بإمكاننا أن نلاحقه. وقال أحد فدائيينا منكتاً بعد أن يئس من البغل:

ـ إنه خاننا وانضم إلى المعسكر المعادي وذهب ليسجل نفسه جحشاً.

كانت حقيبة ملابسي القليلة وكيس النوم السفري على ظهره. ولم يكن من عادتي أن أضع الوثائق أو الأشياء الشخصية الهامة داخل حمولة البغل أو الحصان لأن مثل هذه الحيوانات كانت على الدوام عرضة للهروب وللضياع. غير أن فدائياً من الرفاق العرب كان قد عاد لتوه من طهران تصرف بشكل مغاير وخاطىء، رغم تحذيري المسبق له. فقد جلب من طهران أعداداً كبيرة من الصور الفوتوغرافية للفدائيين في كردستان. ووضع تلك الصور في حقيبته التي كانت فوق البغل الهارب. ولم أدر ما إذا وقعت حمولة البغل في متناول السلطات الحكومية أم لم تقع.

عندما وصلنا إلى مقر قاطعنا في قرية حاجي مامند وجدنا أن جماعة أ.و.ك. قد اتخذوا من نفس القرية مقراً لقاطعهم. وكان ملا بختيار هو المسؤول الأول عنه. وكنت قد سمعت سابقاً عن ملا بختيار كأحد المتشددين في قيادة أ.و.ك. ـ وبالأخص في قيادة كومله. لكنني لم أتعرف عليه مباشرة من قرب إلا في حاجي مامند، حيث تجاورنا قرابة أربعة أشهر. وقد أقمنا علاقة طبيعية وإلى حد ما ودية مع قيادة قاطع أ.و.ك. وشجعنا على إقامة هذه العلاقة أن كان عضو المكتب السياسي والقائم بأعمال المسؤول الأول لـ ح.ش.ع في كردستان كريم أحمد قد وقع في شباط ١٩٨٣ اتفاقاً للصداقة والتعاون مع قيادة أ.و.ك. في نيوزنك. وقد أردنا أن نعقد بدورنا اتفاقاً محلياً بهدف توثيق العلاقات بين القاطعين، أسوة بالقيادة. خولنا ممثلنا في العلاقات مع الأطراف الأخرى سعيد البرزنجي وزودناه بالملاحظات الضرورية كأساس للتباحث والتفاوض مع ممثل أ.و.ك. وفاجأني البرزنجي بعد ذلك بمشروع اتفاق تحريري وقعه هو وممثل أ.و.ك. كما وقع سكرتير قاطع أ.و.ك. ملا بختيار وأرسل إلي لأوقع بدوري ويصبح نافذ المفعول. قرأت الوثيقة ووجدتها غير مقبولة إذ كانت تعطي الانطباع لمن يقرأها بأن ليس هناك اتفاق بين طرفين متكافئين، بل رضي ممثلنا بدور

ثانوي شبه تبعي. انتقدت ممثلنا البرزنجي بشدة لتوقيعه على هذا الاتفاق قبل أن يعرض المسودة علينا وقبل أن يأخذ رأينا بشأنها وحجزت كلتا نسختي الوثيقة عندي، رغم مطالبات ملا بختيار المتكررة بها. كنت أريد طلب إعادة صياغة الاتفاق. لكن الأحداث داهمتنا ولم تمهلني لتحقيق ما أردت.

كان لقيادة الپارتي مقرها المحلي الخاص في قرية (بادانه) غير البعيدة عنا. ولغرض إقامة علاقات متوازنة من جانبنا مع الطرفين، أ.و.ك. والپارتي، بادرت إلى إرسال مفرزة صغيرة لإقامة مقر لنا أشبه بالسفارة في تلك القرية. ولم يكن لمفرزة ح.س.ك.، التي كان يقودها عثمان قادر منور، مقر ثابت معروف في شهربازار حتى نقيم معها علاقات محددة. يضاف إلى ذلك أن هذه المفرزة لم تخلق لنفسها سمعة حسنة بين الناس هناك.

❀ ❀ ❀

في أواخر آذار ١٩٨٣ استلمت مساء أحد الأيام رسالة (أو مذكرة) من ملا بختيار ينبؤنا فيها بأن عناصر من ح.س.ك. قتلت في إحدى قرى شهرزور بعض فدائيي أ.و.ك. وأطلق الطرف الآخر بدوره ادعاءات مشابهة ضد أ.و.ك. ونشأ جو متوتر ومشحون بالمخاطر بين فدائيي الجانبين وخيم على منطقة شهرزور وشهربازار خطر الاقتتال بين الجانبين. ودرسنا نحن في هيئة قاطعنا وبمشاركة كوادرنا المتقدمة هذا الوضع المستجد وقررنا تركيز قصارى جهدنا للتوسط بين الجانبين ولغرض حل النزاع قبل أن يحتكم إلى البندقية.

كان الوضع يزداد توتراً وكنا ثابتين على موقفنا. لكن قيادتنا الموجودة في پشتاشان كانت تنظر إلى الوضع المستجد بمنظار مغاير، كانت تدفعنا للتحيز إلى جانب الپارتي و ح.س.ك. (أي إلى جانب جود) ضد أ.و.ك.، الأمر الذي لم نقتنع به في قاطعنا.

في مجرى تزايد التوتر وضعت قيادة قاطع أ.و.ك. كميناً في إحدى الطرق بهدف قتل عثمان قادر المسؤول عن مفرزة ح.س.ك. ومرت سيارة عثمان وأطلق الكمين نيراناً كثيفة عليها وقتل من كان فيها. غير أن عثمان لم يكن موجوداً، بل كان قد كف عن التجول في سيارته كتدبير وقائي. وكان القتيل أحد كوادر الپارتي (جزا علي كاتب)، الذي كان قد استعار سيارة عثمان لاستعمالها. وفي السيارة نفسها قتل اثنان من فدائيي أ.و.ك. وفي اليوم التالي نصب الپارتي كميناً ثأرياً لمسلحي أ.و.ك. وأطلقت قذيفة آر بي جي على سيارة قتل فيها عشرة شبان. وهكذا اتسع النزاع ليشمل الپارتي أيضاً. وكانت قيادة قاطع أ.و.ك. هي المبادرة إلى حشد مسلحيها في شارباژير باستدعاء الفصائل المسلحة من قره داغ وگرميان وغيرهما وحشدها كلها في منطقة المجابهة.

نحن درسنا في قيادة قاطعنا الوضع المتأزم وقررنا بذل قصارى الجهد لحل النزاع بين الأطراف الأخرى عن طريق الوساطة وبصورة سلمية، بخلاف ما كان يطلب منا الانحياز إلى جود. كان موقفنا مفهوماً ومستحسناً من قبل أهالي القرى، الذين اقتدوا بنا وشكلوا وفداً من عشرات الفلاحين ليزور، بقيادة الملا محمد الشهرزوري، الأطراف المعنية سعياً لاستبعاد الصدام المسلح. وكان ممثلنا سعيد البرزنجي يتحرك مع وفد القرى حتى أسفرت الجهود المشتركة عن عقد اجتماعين في قرية (قله گيسگان) بمشاركة ممثلي الأطراف المتنازعة و ح.ش.ع. ووفد فلاحي قرى المنطقة. ونشأ بعض التفاؤل بالعثور على حل للمشكلة عن طريق التفاهم. لكن هذا التفاؤل سرعان ما تبخر. وكان الطرف المصر على الاقتتال هو أ.و.ك. بالدرجة الأساسية. وكان واضحاً أن أ.و.ك. أراد محاربة وتصفية ح.س.ك. أولاً لكن مقتل جزا على كاتب أدى إلى إقحام الپارتي أيضاً في النزاع.

في ٢٠ نيسان ١٩٨٣ انتهت المصادمات الدموية ـ الجنوبية في شهربازار بانتصار مسلحي أ.و.ك وملاحقة مسلحي الپارتي و ح.س.ك.

إلى داخل الحدود الإيرانية. وقد ذهب ضحية هذه الاشتباكات بين الفدائيين الأكراد قرابة ٦٠ شخصاً من القتلى. وكان أسوأ فصول المأساة أن قتل مسلحو أ.و.ك. بضعة عشر فدائياً أسيراً من الطرف الآخر كانوا قد وقعوا في أسرهم.

في الوقت الذي سارت الأمور في قاطعنا على هذا المنوال فإن الوضع في قاطع أربيل كان معقداً أيضاً ومخاطر الاشتباك كانت تتزايد. ورغم أنني لم أكن على علم بتفاصيل الأمور الجارية في ذلك القاطع، إلا أن لديّ انطباعاً راسخاً بأن فدائيي أ.و.ك. كانوا الأكثر تهوراً واستفزازاً، تحت تأثير جنوحهم إلى الانفراد بالسيطرة على المناطق الخالية من السلطة. ولم ينج الفدائيون الشيوعيون هناك من تجاوزات فدائيي أ.و.ك. وكان مسؤول قاطعنا ذاك يوسف حنا مستعداً بطبيعته للانجراف وراء البعض والاصطدام بالبعض الآخر، بدل التمسك بخطنا الصحيح في اتخاذ موقف الحياد تجاه جميع أجنحة الحركة القومية الكردية.

على أن نقطة الضعف الرئيسية لدى ح.ش.ع. في تلك الفترة إنما تمثلت في وجود كريم أحمد مسؤولاً أول وكالة على صعيد كردستان والعراق، وهو الرجل الذي لم يعد يصلح لأي مهمة قيادية منذ سنوات عديدة ولم يعد يعرف مساءاً ما كان قد قاله صباحاً حول أهم القضايا. وأستطيع التأكيد جازماً على أن ح.ش.ع. كان يتخذ موقفاً مغايراً من الأحداث فيما لو كان هناك رجل قيادي كفؤ على رأس الحزب، بدل كريم أحمد. ولا يمكن بالطبع تبرير المواقف الخاطئة المسايرة لدى أعضاء المكتب السياسي الموجودين هناك آنئذ ـ باقر إبراهيم وعبد الرزاق الصافي وعمر الشيخ وسليمان اسطيفان، الذين أثبتوا عدم جدارتهم القيادية في تلك الظروف المعقدة. وكان أحمد بانيخيلاني هو الآخر نقطة الضعف الرئيسية في المكتب العسكري لأنه لم يكن ذا رأي سياسي مستقل ولم يملك من النضج السياسي ما يجعله قادراً على

مواجهة وضع معقد كالذي كان، فضلاً عن أنه كان يحمل فكرة إقحام الشيوعيين في الاقتتال بغية «تأديب» أ.و.ك. ـ شأنه في ذلك شأن كريم أحمد، الذي كان يحث البارتي و ح.س.ك. ـ في اجتماع مشترك ـ على التحرك لتأديب أ.و.ك. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن البارتي و ح.س.ك. لم يبديا أي استعداد لحشد المئات من المسلحين معنا للقيام بعملية عسكرية مشتركة ضد السلطة. ولكنهما كانا مستعدين لحشد كل قواتهما خوض القتال ضد أ.و.ك. أنا لا زلت على قناعة بأن المسؤولية الأولى عن اقتتال الاخوة في تلك الفترة تقع على قيادة أ.و.ك.، التي كانت ترى في البارتي العدو رقم واحد ـ كما أكد في العديد من منشوراته. غير أن ذلك لا ينفي بأي حال مسؤولية الأطراف الأخرى، بما في ذلك قيادة ح.ش.ع. أيضاً، عن مأساة اقتتال الأخوة.

لقد وردتنا في حاجي مامند برقيات مذيلة بتوقيع المكتب السياسي، وكلها تحثنا على الابتعاد عن أ.و.ك. والتعاون مع جود، وبتعبير أدق: المشاركة في الاقتتال ضمن قوات جود. كان التوجيه مخالفاً كلياً لسياستنا الرسمية المبينة على إقامة العلاقات الودية مع جميع الأجنحة وعدم الانحياز إلى أي جناح ضد آخر.

وعلى العكس من ذلك، فإني كنت متمسكاً عن وعي وقناعة بالخط السياسي الرسمي، الذي لم يخرق إلا بعد عودة المكتب السياسي في ١٩٨٢ إلى كردستان.

كنت أعرض جميع برقيات المكتب السياسي على هيئة القاطع وعلى اللجنة الحزبية للقاطع. وكنا نتناقش، وفي بعض الأحيان أجمع (٢٦) رفيقاً ـ هم جميع المسؤولين الحزبيين والعسكريين في قاطعنا ـ لتدارس الوضع وتحديد الموقف. وباستثناء شخص واحد من هيئة القاطع ـ هو إبراهيم صوفي محمود الذي وقف إلى جانب رأي المكتب السياسي الداعي إلى أن ننضم إلى سائر أطراف جود لمقاتلة أ.و.ك. ـ فإننا جميعاً كنا ضد إقحام الشيوعيين في الاقتتال بين المنظمات

الكردستانية. وفي نهاية المطاف لم نشارك في القتال الدائر بين أجنحة الحركة القومية الكردية في شهربازار. وفي اليوم التالي من انتهاء القتال بانتصار مسلحي أ.و.ك. التقيت بسالار (نجم الدين عبد الله) الذي لم تكن له مسؤولية قيادية في القاطع ولكنه كان على صلات وثيقة بمسؤول القاطع ملا بختيار، وقلت له:

ـ أخشى أن تعتبروا أ.و.ك. منتصراً في القتال. ولهذا أود التأكيد على أن الجميع، بمن فيهم أ.و.ك. وغيره، خاسرون وأن المنتصر الوحيد هو صدام حسين ونظامه.

ولم يوافقني سالار على هذا الرأي. بل كان يرى أن موقف ملا بختيار كان صحيحاً، إذ قال:

ـ لم يكن بالإمكان لرجل مثل ملا بختيار اتخاذ موقف آخر غير هذا الموقف.

❀ ❀ ❀

رداً على برقيات ورسائل المكتب السياسي المتتالية، الداعية إلى مشاركتنا في قاطع السليمانية في الاقتتال قدمنا عدة برقيات لتخطأة هذا الرأي ولتبرير موقفنا. وفي ١٧ نيسان ١٩٨٣ أرسلت من حاجي مامند إلى المكتب السياسي أوضح وأشمل برقية، كانت تعبيراً عن رأي كوادر القاطع. ذكرنا فيها نقطتين جوهريتين:

١ ـ لا مصلحة للحركة الوطنية العراقية ولا للحركة القومية التحررية للشعب الكردي ولا لحزبنا الشيوعي نفسه في إثارة أي اقتتال بين أجنحة الحركة القومية الكردية. وسيكون النظام هو المستفيد الوحيد من مثل هذا الاقتتال. وعليه ينبغي بذل قصارى الجهد لكي لا يقع الاقتتال. وإذا لم نستطع الحيلولة دون اقتتال الآخرين فإن بالإمكان عدم إقحام أنفسنا فيه.

٢ ـ وإضافة إلى ما سبق فإننا لا نملك المستلزمات العسكرية

لخوض القتال ضد أ.و.ك. وسيكون التفوق العسكري بجانب الطرف الآخر لأنه يملك الرجال والسلاح والعتاد بكميات أكبر وكفاءة قتالية أعلى. فهل من الصحيح أن ندخل معركة انتحارية نعرف مقدماً أننا الخاسرون فيها؟

لم نتلق جواباً على برقيتنا التأريخية هذه وهي لم تغير شيئاً من النهج الصبياني لكريم أحمد، الذي واصل نشاطه الرامي إلى تأديب أ.و.ك. في قاطع أربيل، حيث كان يوسف حنا متجاوباً معه. وفي ٢٨ نيسان وردت برقية مذيلة بتوقيع المكتب السياسي تخبرنا بأن قوات جود طردت قوات أ.و.ك. من باليسان (وهي القرية التي كان فيها مقر قاطع أ.و.ك. في منطقة خوشناو). معنى ذلك أن الاصطدام قد اتسع وأن الوضع ازداد تأزماً.

كان مسؤول قاطع أ.و.ك. ملا بختيار متفقاً معي في تخطأة هذا الاقتتال. وقال مرة وبصراحة بأن أي اقتتال لن يحل المشاكل وأن الجلوس على مائدة المفاوضات للتفاهم سيظل الطريق الذي تحل به المشاكل. ولست أدري كيف كان يراسل قيادته وماذا كان يقول في تبرير موقفه بعدم الاندفاع ضدنا. غير أن ضغط قيادته كان قد اشتد عليه، خاصة بعد الاستيلاء على باليسان من قبل قيادة جود، لحمله على مهاجمتنا ـ كما صارحنا بذلك. وقد اتفقنا على أن نبتعد عن بعضنا مع تجنب الصدام المسلح فيما بيننا. وقررنا نحن في اجتماع ضم الكوادر أن نذهب إلى قره داغ، حيث كان لنا نفوذ جماهيري جيد، بعكس ما كنا عليه في شهربازار. وأبلغنا ملا بختيار بأننا ذاهبون، ولكننا نبقي في مقرنا مفرزة صغيرة. اتفقنا على ذلك قبل أن يحدث شيء في پشتاشان وقبل أن ينقطع الاتصال اللاسلكي بيننا وبين قيادتنا. على أن آخر برقية وردتنا من المكتب السياسي كانت تشير إلى أن أ.و.ك. يحشد قواته باتجاه پشتاشان.

قسمنا قواتنا المسلحة إلى مفرزتين كبيرتين للانتقال إلى قره داغ.

تحركت المفرزة الأولى بقيادة ملا علي في الصباح الباكر من اليوم الثلاثين من نيسان ١٩٨٣ وتحركت المفرزة الثانية، وأنا قائدها، في فجر الأول من أيار. في مساء اليوم التالي توزعنا على بيوت القرويين في قرية (آوه كله). وفي عصر اليوم الثالث من أيار كنا نمشي في سفوح جبل (دلوجه) عندما سمعنا، لأول مرة، إذاعة أ.و.ك، وهي تبث نبأ احتلال مسلحيه بقيادة نوشيروان لمقرات جود في پشتاشان وملاحقة بقايا قوات ح.ش.ع. والپارتي و ح.س.ك. وپاسوك لدفعها عبر جبل قنديل إلى داخل إيران. إذن فإن نتائج المعركة واضحة: انتقم مسلحو أ.و.ك.، في پشتاشان، لهزيمتهم في باليسان وحققوا في المعركة الأخيرة انتصاراً كاسحاً ليمسحوا به عار هزيمتهم في باليسان. والفارق بين المعركتين، بالنسبة إلى ح.ش.ع. و ح.س.ك.، هو أنهما احتلا في باليسان مقر قاطع لـ أ.و.ك. فيما فقدا في منطقة پشتاشان مقر القيادة لكلا الحزبين وبكل ما يحوي من ممتلكات وتجهيزات عسكرية وفنية وإعلامية واقتصادية.

كانت خسارة ح.ش.ع. في پشتاشان جسيمة ولا يمكن مقارنتها مع خسائر الأحزاب الأخرى. ففي هذه المعركة فقدنا أكثر من ستين رفيقاً، أغلبهم من الكوادر الحزبية وليسوا من بسطاء الفدائيين. وفقدنا جهاز إذاعة صوت الشعب العراقي وأجهزة الاعلام كله، كما فقدنا كميات كبيرة من الأسلحة المتنوعة ـ بنادق، دوشكات، مدافع، وحتى صواريخ سام سبعة التي جلبت لتطلق على الطائرات ولم تجرب أبداً. وفقدنا كمية كبيرة من المؤن وحتى من النقود ومن الممتلكات الشخصية للفدائيين ومن المباني والمقرات التي كلفت الكثير من الجهود والنقود لتشييدها. ويمكن القول أنها كانت نكسة جديدة كبيرة أصيب بها ح.ش.ع. قبل أن يخرج من نكسته الكبرى التي وقع فيها في ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩. ولا بد من التأكيد على أن كلتا النكستين وقعتا تحت قيادة عزيز محمد ومن ساندوه وراهنوا على نهج التطور اللا رأسمالي. والفرق بين

النكستين هو أن هذه الأخيرة وقعت في ظروف متميزة بالنقاط التالية:

ـ إن الحزب كان جريحاً وينزف الدم جراء النكسة السابقة، وبالتالي كان ضعيف التحمل للمزيد من الضربات.

ـ إن الحزب كان قد انتقل، من حيث نهجه السياسي، إلى صفوف معارضي السلطة، وأنه كان يملك قرابة (١٥٠٠) مسلح وكان أمامه أفق واضح للتطور والنمو وإحراز النجاحات لإعادة بناء نفسه، لو لم يقع في هذه النكسة الجديدة.

حاول كريم أحمد ومن معه من أعضاء المكتب السياسي والمكتب العسكري المركزي إلقاء تبعة أخطائهم وهزائمهم على عاتقي بزعم أنني لم أتحرك ولم أبادر إلى مهاجمة قوات أ.و.ك. ولم أحاول إسنادهم في پشتاشان. ذلكم كان جزءاً من المبررات لهزيمتهم. وأما السبب الآخر للهزيمة فإنه كان يكمن ـ حسب التقييم الذي قدموه لأحداث المرحلة الأولى من معارك پشتاشان ـ في عدم انتباه تلك القيادة إلى أن قيادة برجوازية صغيرة، كما هو شأن قيادة أ.و.ك.، يمكن أن تنقلب فجأة وعلى ١٨٠ درجة.

كان إيراد هذه «التفسيرات» لتبرير الهزيمة أشبه بتصرف النعامة حين تخفي رأسها في الرمل لكي لا ترى الخصم زعماً بأنه هو الآخر لا يستطيع رؤيتها عند ذاك. ذلك لأن المكتب السياسي كان يعرف جيداً ومسبقاً بأنني لست مع إقحام فدائيينا في هذا الاقتتال ولم أكن بالقائد الذي يخوض معركة انتحارية وهو يدرك أنه يخسرها ـ كما فعل كريم أحمد وبانيخيلاني. وفضلاً عن ذلك فإن الوسيلة الوحيدة لإيصال مسلحينا من قاطعنا إلى پشتاشان كانت هي الطائرات العمودية.

لقد أدرك الجميع، عدا بضعة حمقى من قيادتنا، بأن المكتب السياسي للحزب ارتكب خطأ جسيماً، بل حماقة لا تغتفر حين أقحم ح.ش.ع. في هذا الاقتتال. وأجاد الكادر الوسطي الشاب مصطفى

غفور (من أهالي قلعه دزه) حين رد عمر الشيخ في اجتماع قاده هذا الأخير لبحث مأساة پشتاشان، ولتبرير موقف القيادة أمام قاعدة الحزب. قال مصطفى مخاطباً عضو المكتب السياسي عمر الشيخ:

ـ لو قادنا مختار إحدى القرى لكان أقدر وأفضل منكم يا أبا فاروق.

قبل أن أسمع شيئاً عن مأساة پشتاشان كنت مع آمر أحد بتليوناتنا حمه رشيد قرداغي قرب قرية دلوجه عندما وصلتنا برقية من مقر البتليون في قويي قره داغ مفادها أن مسلحي أ.و.ك. قد نصبوا بالقرب من قرية مسويي كميناً لإحدى مفارزنا الصغيرة، المكونة من ستة فدائيين. لم يقع قبل ذلك أي قتال في قاطعنا بيننا وبين أ.و.ك. ولم تتجول مفرزتنا بحذر وخوف. ولهذا كان من السهل مباغتتها وضربها. وقد استشهد في هذا الهجوم اثنان من فدائيينا هما نجم محمد وكامل كانيساردي وجرح الآخرون وأسروا باستثناء رؤوف الحاج محمد ـ المستشار السياسي للبتليون ـ الذي قاتل قتال الأبطال، وهو جريح في إحدى يديه، وأفلت من قبضة المهاجمين ووصل إلى مقر البتليون في قويي، حيث أرسلت لنا البرقية.

ترك هذا الحادث أثراً قوياً فينا فجمعت حمه رشيد قره داغي ومن معنا من الكوادر وطلبت الرد بالمثل ونصب الكمين لإحدى مفارز أ.و.ك. في المنطقة. وافق الآخرون وشكلنا مفرزة من فدائيي منطقة قره داغ بقيادة مجيد دوكاني وأرسلناها فوراً للرد في أي مكان مناسب. وبعد أيام ثلاثة عادت إلينا المفرزة دون أن تقوم بعمل ما انتقامي. وقد اقتنعت مع نفسي بأن حمه رشيد ومجيد دوكاني لم يكونا إلى جانب الرد بالمثل. ولهذا السبب لم يكن هناك رد على العدوان.

وقد اتضح لاحقاً أن مفرزة أ.و.ك. لم تنفذ تلك العملية

الإجرامية بأمر من قيادة قاطعها، بل قامت بها بوحي من توجيهات إذاعة أ.و.ك.، التي كانت تغذي روح الحقد بأعنف ما يكون ضد فدائيي الأطراف الأخرى، بمن فيهم الشيوعيين، وتدعو إلى مهاجمتهم وإبادتهم بأي شكل كان. وقيل أن المبادر إلى إقامة الكمين كان شاباً طائشاً متطبعاً بروح القتل والإجرام ويدعى (محمود سنگاوي). والأسوأ من كل ذلك أن مسؤولي أ.و.ك. المحليين احتفظوا بجرحانا لديهم كأسرى حرب إلى مدة غير قليلة.

ويجدر بالذكر أننا كنا قد أرسلنا تلك المفرزة الصغيرة بقيادة رؤوف للتجول بحثاً عن العتاد وشرائه لنا. وكنا في وضع مالي سيء واضطررنا إلى استدانة ألفي دينار من نادر هورامي (البارتي) قبيل الانسحاب من شهربازار. وأصيبت مفرزتنا بهذه الكارثة قبل أن تفلح في شراء العتاد.

هنا أود العودة بكلمة إلى مسؤولية هذه المأساة، التي خدمت كثيراً النظام الدكتاتوري الفاشي. ودون أن أقلل من مسؤولية قيادات الأحزاب الأخرى، بمن فيهم قيادة ح.ش.ع.، فإنني ألقي المسؤولية الأولى على قيادة أ.و.ك. التي كانت ترى في هذا الاقتتال وسيلة لفرض سلطانها على كردستان وللانفراد بالسيطرة واحتكار كل شيء لنفسها. وأظن أن عدد من قتلوا على أيدي مسلحي أ.و.ك. من الأطراف الأخرى أكثر بكثير من قتلى أ.و.ك. على أيدي مسلحي تلك الأطراف. وكان أسوأ تقليد همجي موروث من عهود التخلف السحيقة ومستمر في عهد ثورة أيلول وكذلك في عهود أ.و.ك. وغيره من الأحزاب الكردستانية هو قتل من يقعون في الأسر أثناء اقتتال الاخوة أو يعتقلون حتى دون الاقتتال. وقد ذهب ضحية هذا الأسلوب الهمجي حتى الفدائي الطاعن في السن (٨٥ سنة) حمه آغا ميرگه سوري ـ الخال الحقيقي للبارزاني ـ مع أبناء وأحفاد له عام ١٩٧٥ إذ قتلوا وهم سجناء بأمر من الملا مصطفى البارزاني نفسه، وعلي العسكري وزملائه، الذين أسروا ثم قتلوا عام

١٩٧٨ وعلى أيدي القيادة المؤقتة، والعديد من مسلحي البارتي و ح.س.ك. الذين قتلوا على أيدي مسلحي أ.و.ك. في شهربازار، في نيسان ١٩٧٨، والعديد من الشيوعيين الذين أسرهم أ.و.ك. بقيادة نو شيروان وقتلهم في پشتاشان.. الخ. هذه مجرد نماذج من قتل الأسرى وصفحة من صفحات اقتتال الاخوة. أكتب هذه الحقائق المرة وآمل أن يكون ذلك مساهمة مني في رفع الوعي لدى الجميع إلى درجة لا يتكرر معها ما حدث بهذا الصدد.

❀ ❀ ❀

غادرنا في عصر اليوم الثالث من أيار دلوجه نحو (استيل العليا) لنبيت فيها ليلة ثم نتوجه إلى مسقط رأسي قرية (تكيه)، التي اتخذنا منها مقراً موقتاً لقيادة قاطعنا في بضعة أيام. وفيما كانت جهود ملا بختيار مستمرة للتفاهم ولاستبعاد القتال كان مسلحو أ.و.ك. يقومون بالاستفزازات حوالينا، فأقاموا مركز تحشد فوق الجبل الفاصل بين قره داغ وگرميان ليشعلوا في الليالي نيراناً قوية مرئية من قريتنا. وقد جاءني إلى (تكيه) كادر من أ.و.ك. يدعى (أنور) حاملاً رسالة من قيادة قاطع أ.و.ك. فأبلغته بأن أقوالهم عن الرغبة في تجنب الاقتتال لا تنسجم مع أعمالهم ولا يجمع جامع بين الحديث عن تجنب الصدام المسلح وبين نصب الكمين لمفرزتنا قرب قرية (مسويي)، وذكرت له بأنهم كانوا قادرين على اتخاذ إجراءات فورية وحازمة ضد القتلة المجرمين من مسلحيهم فيما لو جمعوا بين أقوالهم وبين أعمالهم. كما أخبرته بأن سوء النية يتكشف في أنهم أخذوا جرحانا المعتدى عليهم كأسرى ولم يتركوا لهم خيار العودة إلينا.

وقف الفلاحون في قرى قره داغ ضد اقتتال الاخوة وكونوا وفداً كبيراً يمثل مختلف القرى لزيارتنا ولزيارة مقرات أ.و.ك. (ولم يكن في المنطقة أي مقر ولا أي فدائي للجهات الأخرى آنئذ) ومناشدتنا كي نتلافى الاقتتال ونوجه بنادقنا إلى قوات السلطة وليس إلى صدور بعضنا

البعض. تحدثت إلى هؤلاء وأكدت موافقتنا لهم في رأيهم وطلبت منهم إدانة مواقف أ.و.ك.، وأشرت إلى كمينه لمفرزتنا كنموذج يكشف عن المعتدي الحقيقي ويثبت أننا نمارس حق الدفاع الشرعي عن النفس.

كانت آخر رسالة استلمتها في تكيه من كادر محلي لـ أ.و.ك يدعى (حامد غالي). كان يخاطبني وكأنه يريد الفصل بيني وبين الشيوعيين فأرسلت له جواباً خشناً لم يسمح له بتكرار مثل تلك اللهجة.

ورداً على استيلاء مسلحي أ.و.ك على قطع من الأسلحة لدى بعض رفاقنا وأصدقائنا في القرى قمنا بالاستيلاء على أسلحة أناس محسوبة عليهم، بما في ذلك بندقية زوج أختي الذي كان قد استلمها منهم في قرية بلكجار، وصادرناها ضمن البنادق المصادرة.

كنا، نحن وملا بختيار، في موقف حرج إذ كان يصعب علينا وعليه أيضاً التوفيق بين ما نحن مقتنعون به وما تريده القيادة. ولم نستبعد نحن احتمال الاقتتال في مثل هذه الأجواء. ولكننا لم نكن من الباحثين عن أي ذريعة لبدء الاقتتال. كان إبراهيم صوفي محمود، المؤيد الوحيد لإقحامنا في الاقتتال، موجوداً آنئذ في مقرنا الخلفي بجبال هورامان، ولم يكن بين مسؤولي وكوادر القاطع، ونحن في تكيه، ولا صوت واحد مطالب بالاقتتال. كنا ندرك بأن الاقتتال لن يحل النزاع ولن يمكن أي طرف من التغلب وإزاحة الطرف الآخر عن الميدان إزاحة نهائية. وبالتالي لا مناص من العودة، عاجلاً أم آجلاً، إلى المفاوضات وطريق التفاهم السلمي لحل النزاع.

بعد مداولات واجتماعات بين كوادرنا العسكرية والحزبية اتفقنا على مغادرة تكيه والانتقال إلى قرى باوه خوشين وأمام قادر وحواليهما. ارتحلنا في الليل لتلافي مشاكل غير متوقعة قد تنجم عن تصرفات بعض الشبان الطائشين. وفيما كنا نتابع مسيرة اعتيادية جاءني أحدهم وقال:

ـ العم عزيز الأعرج متعب وعاجز عن السير على هذه الشاكلة،

ويطلب الرفاق الإبطاء في المسير لكي يستطيع المواكبة.

هل من المعقول أن يبطىء المئات من وتيرة السير الاعتيادية أو الضرورية من أجل شخص واحد أعرج وغير قادر على مواكبتهم؟ - فكرت مع نفسي، كم حاولت وألححت على إخراج بعض الشيوخ والعجزة من صفوف تشكيلاتنا الفدائية - العسكرية وتدبير أمر إقامتهم بشكل ما مع استمرار مساعدتهم مادياً والاستفادة منهم بشكل آخر. لكن زملائي كانوا يرفضون ذلك بذريعة أن هؤلاء مناضلون شيوعيون لا يصح إهمالهم. والآن يصبح أحد هؤلاء - وهم قلة - عبئاً على الجميع. فأصدرت الأمر، وسط احتجاجات البعض من رفاقي:

- خذوا منه البندقية وليتأخر هنا تحت أحد الكهوف ويتابع المسير نهار الغد إلى قرية (ديوانه) حيث يستقر البعض من مسلحينا غداً.

اتخذنا من قرية إمام قادر، على بعد بضعة عشر كيلومتراً من مدينة دربنديخان، مقراً لقيادة القاطع ووزعنا قواتنا في القرى المحيطة بنا وأقمنا نقاط حراسة في قمم الجبال الواقعة خلفنا. لم نفكر بالطبع في البقاء الدائم بهذه القرى، بل كنا نفكر في مكان تكون له قاعدة خلفية أمينة للانسحاب إليها عند الحاجة. ولم يكن بمستطاعتنا العثور على مثل هذا المكان في قره داغ ولا في أية بقعة من قاطعنا سوى شهرزور، حيث كان متصلاً بقاعدة خلفية أمينة وموجودة فعلاً في جبال هورامان الملاصقة لشهرزور والفاصلة بين العراق وإيران.

في مساء التاسع من أيار ١٩٨٣، وبعد انقطاع دام عشرة أيام، أرسل لنا إبراهيم صوفي محمود من جبال هورامان أول برقية واردة - عبر جهاز البارتي - من المكتب السياسي (حيث لم يبق أي جهاز للإرسال لدى قيادتنا بعد أحداث بشتاشان). كنت متلهفاً إلى معرفة أي خبر عن وضع المكتب السياسي. فقرأت البرقية وأعدت قراءتها بعناية. لم تتضمن البرقية أي شيء عن وضع المكتب السياسي، ولم تعبر في شيء عن رأي القائم بأعمال السكرتير كريم أحمد، الذي كان قد وقع في أسر

أ.و.ك. قبلئذ. كان هناك توجيه لنا منسجم مع تقديراتنا وتوجهنا العملي وغير منسجم بالمرة مع توجيهات المكتب السياسي المتكررة السابقة لأحداث پشتاشان. وخلاصته:

«تجنبوا المعارك غير المتكافئة وانسحبوا إلى مكان أمين».

لعل هذه البرقية قد كتبت في لحظات صحو لدى من بقي من المكتب السياسي، الذين دفعتهم الهزيمة إلى داخل الحدود الإيرانية عبر قنديل.

خلال انقطاع صلتنا مع المكتب السياسي كان علينا البحث عما يكسب لنا الوقت ريثما تتوضح لنا الأمور بشكل أفضل. وبادرت شخصياً إلى تقديم اقتراح يتيح لنا فرصة المناورة وكسب الوقت، مع استبعاد أو ـ على الأقل ـ تأجيل أي صدام مسلح بين قواتنا وقوات أ.و.ك. وكانت قيادة قاطع أ.و.ك. تلح علينا في هذا الوقت لكي نلتقي ونتفاهم حول تجنب القتال. وخلاصة الفكرة التي قدمتها لكوادر قاطعنا هي: أن نستجيب لطلب جماعة أ.و.ك. باللقاء والتفاوض ونقترح نحن ما يلي:

١ ـ تقسيم القاطع تقسيماً مؤقتاً إلى منطقتين ترابط قوات كل جهة في إحداهما، بدءاً من كفري وگرميان ومروراً بقره داغ وشهرزور إلى شهربازار ـ وتكون قواتنا في المنطقة الشرقية منها.

٢ ـ يمتنع كل جانب عن التعرض المسلح للجانب الآخر ويعتمد أسلوب المداولات لإيجاد حل للمشاكل.

حظي هذا الاقتراح بتأييد كوادرنا الحزبية والعسكرية كلهم. وأبلغ ممثلو أ.و.ك. باستعداد ممثلينا للقاء معهم. وعينا من جانبنا الوفد المفاوض من ثلاثة أشخاص هم مسؤول قاطعنا العسكري ملا علي وممثلنا في العلاقات سعيد البرزنجي وآمر فوجنا التاسع نصر الدين

هورامي. وكانت برقية المكتب السياسي المشار إليها آنفاً عامل تشجيع لي كي أسير في هذا الخط. وتقرر لقاء وفدنا مع وفد أ.و.ك. بقرية ديوانه في العاشر من أيار ١٩٨٣.

وخشية أن يخطأ وفدنا سهواً أو عن عمد في تنفيذ التوجيه المعطى إلى أعضائه كتبت في وريقة النقاط التي يمكن التفاوض بشأنها ومحاولة الاتفاق عليها، مع التأكيد على إرجاء الاتفاق على أي مسألة أخرى يمكن أن يقدمها الطرف الآخر لحين الاتصال معنا والتداول في المستجدات. سلمت هذه الوريقة إلى رئيس الوفد ملا علي وتوجه الوفد صبيحة العاشر من أيار إلى قرية ديوانه. كان اختيار المكان للقاء الوفدين غير موفق لأن عائلة گوران (نجم)، الفدائي الشيوعي الذي كان قد قتل على أيدي مسلحي أ.و.ك. قبل أسبوع، كانت مقيمة في تلك القرية.

خرج وفدنا من القرية باتفاق مغاير تماماً لذلك الاتفاق الذي أردته أنا. فقد استهدفت من جانبي عقد هدنة مشرفة وحسب. لكن ملا علي وقع اتفاقية تعاون استفزازية مثيرة وغير مقبولة بأي حال لفدائيينا إذ وافق على إدخال نقطتين أخريين من قبل ممثلي أ.و.ك. إلى ما اقترحنا نحن، وهما:

١ ـ قيام مسلحي الطرفين بجولات مشتركة في القرى.

٢ ـ الإقرار بأن لـ أ.و.ك. الحق في ضرب مسلحينا متى ما وجدهم مع مسلحي سائر أطراف جود.

لم يكن هذا الاتفاق مجرد استفزاز عنيف لفدائيينا بدعوتهم إلى الجولات المشتركة مع فدائيي أ.و.ك. قبل أن تجف دماء شهدائنا في پشتاشان وقره داغ بل كان معناه شد ح.ش.ع. (أو قاطعنا) إلى ذيل أ.و.ك. وتخويل الأخير بأن يحدد لنا الحليف والعدو. ورغم أن ملا علي كان يتحمل المسؤولية الأولى عن إبرام مثل هذا الاتفاق، فإن سعيد

البرزنجي ونصر الدين هورامي كانا يتحملان قسطهما من المسؤولية.

سمعت بنود هذا الاتفاق من جهاز اللاسلكي التابع لقاطع أ.و.ك.، وهو يرسلها إلى قيادته، قبل أن يعود وفدنا. وقد استفزني أشد ما يكون الاستفزاز. وطلبت عودة ملا علي فوراً إلى مقرنا في إمام قادر ولكنه تماطل وبقي في تلك الليلة بعيداً عني لأنه كان يعرف جسامة الخطأ الذي ارتكبه ويتوقع مني الغضب الشديد والانفجار عند اللقاء. وقد حلفت، على أثر ما حدث، بألا أعمل طيلة حياتي مع ملا علي ضمن هيئة واحدة. وبادرت في الوقت نفسه إلى:

١ ـ تعميم رسالة مني، بوصفي مسؤول القاطع، على جميع لجاننا الحزبية والعسكرية استنكرت فيها صيغة الاتفاق المبرم ورفضته وأوضحت أنه لم يكن ما أردناه نحن ولن نلتزم به من جانبنا.

٢ ـ اتصلت لاسلكياً بقاطع أ.و.ك. وبينت رفضنا لأي التزام بهذا الاتفاق. في الوقت نفسه رتبت لقاءاً لي مع مسؤول قاطع أ.و.ك. في المنطقة محمد فرج والتقيت به فعلاً في ١٢/ ٥/ ١٩٨٣، بقرية (دوكان). كان هدفي سحب النسخة الموقعة من ممثلينا من الاتفاقية قبل أن ترسل إلى قيادة أ.و.ك. وتعمم. غير أنني لم أتوفق فيما أردت إذ أرسلت وعممت قبل ذلك.

لقد كان ملا علي وسعيد البرزنجي ونصر الدين شيوعيين ذوي تأريخ نضالي مجيد في الماضي وقدموا الكثير من التضحيات في سبيل مثلهم طوال أكثر من ربع قرن. غير أن تأثير تربية القيادة في سني التحالف الذيلي مع البعث، من جهة، وضعف الثقة بقيادة ح.ش.ع. وما تبعه من البلبلة الفكرية، من جهة أخرى، والسذاجة السياسية، من جهة ثالثة ـ كل هذه جعلت أعضاء وفدنا يتصرفون على هذه الشاكلة، وكأن علينا نحن الشيوعيين أن نكون على الدوام غير مستقلين ذيلاً للسلطة أو لإحدى الجهات الأخرى. والجانب السيء الآخر في إبرام الاتفاق هو أن أعضاء وفدنا، وفي مقدمتهم ملا علي، لم يلتزموا بالضبط

الحزبي ـ العسكري ولم يرجعوا إلى قصاصة الورقة الموجودة لديهم والحاوية على توجيهات تحريرية واضحة لهم.

ثار غضب غالبية فدائيينا على الاتفاق وعلى ملا علي وعلى قيادة القاطع معاً وصمم البعض على ترك صفوفنا احتجاجاً على هذه التبعية وهمهم البعض حول إجراء تأديبي ضدنا. وهكذا فإن الاتفاق، الذي أريد منه أن يكون عوناً لنا وسبيلاً للمناورة وكسب الوقت، قد تحول إلى فرعون علينا وحمل لنا تعقيدات جدية كنا في غنى عنها. ورغم الانتقادات المتكررة لملا علي فإنني لم أسمع منه كلمة نقد ذاتي واحدة ولا أي تخطأة لهذه الاتفاقية، التي أصبحت نقطة الضعف الرئيسية، إن لم أقل الوحيدة، في خط سير قاطعنا طيلة تلك الأزمة. واستغل المكتب السياسي هذا الحدث في محاولة لتبرير أخطائه الفادحة ولإلقاء مسؤولية هزائمه على قيادة قاطعنا وعلي شخصياً، وجعل من الاتفاق موضوع النقاش والتشهير بي شخصياً في اللقاءات والاجتماعات الحزبية.

كنت في قره داغ يوم سمعت تصريحات وبيانات كريم أحمد من محطة إذاعة أ.و.ك. بعد وقوعه في أسرهم. لاحظت أن كريم كان قد انقلب في هذه التصريحات ـ مقارنة بموقفه قبل أحداث پشتاشان ـ على ١٨٠ درجة. كما لاحظت أنه كان يتكلم من الإذاعة كأنه لا يزال المسؤول الذي كان قبل أسره. وبعد أيام ثلاثة أو أربعة من نشر تصريحاته هذه حمل إلى أحدهم رسالة عن طريق أ.و.ك. وقرأتها فوجدت أنها من كريم نفسه وأنه يحثني على تبني موقفه الجديد، الذي تبناه على أثر أسره وانهياره. عرضت الرسالة على عدد من مسؤولي وكوادر القاطع ولم أجب عليها. ألح جماعة أ.و.ك. على أن أرسل له جواباً ما. فقلت لأحدهم ما يلي: «لا أجيب على رسالته ولا أقيم اعتباراً لآرائه لأنه الآن في الأسر وانظر إلى ما يقوله فقط كقول رجل أسير». في وقت لاحق أرسلت نص الرسالة إلى المكتب السياسي، بعد

أن استنسخت عليها نسخة طبق الأصل للاحتفاظ بها. ولم أعلم إلا بعد حوالي الشهرين بأن ما كان ينشره من إذاعة أ.و.ك. عبر عن رأيه ورأى أحمد بانيخيلاني معاً.

❀ ❀ ❀

حددنا موعد الانتقال إلى شهرزور، حيث تكون قواعدنا الخلفية في جبال هورامان خط الانسحاب المأمون عند الضرورة، بعكس ما كان الوضع في قره داغ حيث لم يكن هناك مكان أمين ننسحب إليه في حالة خسران المعركة مع أ.و.ك. وقبل تحرك القوة أرسلنا مفرزة استطلاع إلى هناك، كما أرسلنا رسائل إلى مسؤول ح.س.ك. محمد الحاج محمود وإلى المسؤول المحلي للپارتي هناك طالبين منهما التعاون والتنسيق في العمل للاستيلاء على منطقة شهرزور والحفاظ عليها. أتانا الجواب بالإيجاب.

وباقتراح مني قررت قيادة قاطعنا ألا نخلي قره داغ وگرميان بصورة كلية، بل نشكل مفارز سرية صغيرة من أفضل مقاتلينا لتبقى في حالة الاختفاء داخل المنطقة، مع إبقاء أجهزة الاتصال اللاسلكي عندها وتحديد الشفرة السرية. وقد اخترنا شباب شجعان لكلتا المفرزتين واجتمعنا بهم لبحث المهام وأساليب الاختفاء والتحرك والصلات السياسية مع الجماهير في القرى وغير ذلك.

عبرنا تحت جنح الظلام جبل ناوتاق، مغادرين قره داغ ومتجهين إلى شهرزور، لنستقر في اليوم التالي بقرى عازبان وأحمد برنه وحواليهما. ومما دفعنا إلى التعجيل برحيلنا هو أن معلومات شبه موثوقة وصلتنا إلى مقرنا (وكانت لنا صلات يومية مع رفاقنا في مدينة دربنديخان القريبة) بقرية إمام قادر تشير إلى مساعي النظام الهادفة إلى إثارة القتال بيننا وبين أ.و.ك.، عن طريق الجحوش، ومن ثم المبادرة الفورية إلى استثمار ذلك لصالحه هو. مع تقدمنا من الشمال نحو شهرزور تقدمت

مفارز ح.س.ك. والپارتي من الجنوب وأصبح شرقي شارع عربت ـ دربنديخان تحت سيطرتنا من دون القتال إذ انسحب مسؤول مسلحي أ.و.ك. هناك شوكت حاج مشير متجنباً الصدام. وأصبحت أطراف جود الثلاثة هي الجهة الحاكمة في قرى شهرزور. كانت هذه القرى من أغنى مناطق محافظة السليمانية. وكانت قريبة من مدن السليمانية وحلبجة ودربنديخان وسيد صادق والمجمعات السكنية القسرية في سهل شهرزور. كانت منطقة جيدة لنا وكان رفاقنا وأصدقاؤنا وذوونا جميعاً قادرين على زيارتنا متى شاؤوا. وكانت الزيارات كثيرة ويأتي الزوار بالطعام الجاهز وبالثياب والأخبار.. وفي نفس الوقت كان المكتب السياسي للحزب وبقايا التشكيلات الفدائية الشيوعية، التي تمكنت من الإفلات في قاطع أربيل وفي پشتاشان، متمركزة داخل إيران وتحت رحمة السلطة الحاكمة هناك وفي أسوأ وضع نفسي ومعيشي.

تجولت لأول مرة في قرى شهرزور، وبعضها تحمل أسماء سريانية (مثل بيسلمين ودق وقليجه وربما عازيان أيضاً... الخ)، والتقيت هناك مع شاب مربوع أو سمين يحمل في يده عصى ويحمل له أحد فدائييه سلاحه ويحظى باحترام وثقة كبيرين بين أتباعه، الذين كانوا يخوضون المعارك بمزيد من الجرأة حين يكون معهم ـ محمد الحاج محمود، الأقرب بطبيعته وسلوكه إلى سياسي عشائري منه إلى سياسي حزبي. تجولنا سوية في قرى شهرزور لأسابيع وتعززت أواصر الصداقة بيننا. وأما مفرزة الپارتي، التي نزلت أول الأمر إلى شهرزور، وكانت حوالي أربعين فدائياً، فإنها لم تلبث أن انسحبت شطر قواعدها في جبل هورامان ولم أر لها وجوداً في السهل بعدئذ. وقيل إنهم نقلوا إلى أماكن أخرى خارج قاطعنا.

انتقلت من شهرزور إلى المناطق الجبلية التي كانت لنا فيها قواعد، أو أردنا إنشاء قواعد ـ وهي سورين وكرجال وخورنوزان. كانت مناطق حصينة نسبياً. ولكننا كنا نعاني في أغلب الأحيان من شحة المياه

اللازمة للشرب والطبخ والغسيل. تشكل هذه المنطقة جزءاً من خط يمر عبر كردستان إلى دجلة، وربما إلى البحر الأبيض المتوسط، تشح فيه الينابيع الصغيرة وتوجد المنابع الكبيرة التي تشكل أشباه أنهار، مثل نبع (زلم) و (سراو) و (سرچنار) و (سروچاوه).. الخ. وكان مقرنا في سورين (هزاراستون) من غرائب الطبيعة إذ فيه كهوف كبيرة عالية بداخلها وأمامها أعمدة عالية صنعها ترسب الأملاح عبر العصور المتعاقبة.

في سوري أصيب عضو لجنة اقليم كردستان سيد توفيق بجلطة قلبية أنهت حياته، رغم مساعي طبيبنا د.دلشاد لإنقاذه. وكان توفيق كادراً فلاحياً محترفاً منذ سنوات.

وكانت قاعدتنا في كرجال بجانب قاعدة للپارتي، في أعالي منبع (زلم) وبساتين (أحمد آوا). وكانت الربايا العسكرية الحكومية قريبة منا من جانبين. وكنا تحت رحمة مدافعها بمجرد أن نصبح خارج الكهوف والمخابىء. غير أننا كنا نستطيع أيضاً الإزعاج وإلحاق الأذى بالجنود في تلك الربايا أو البعض منها، ولهذا كان يسود، في بعض الأحيان، نوع من الهدنة بيننا وبينهم. وكان الوضع يتغير إلى حد في أحيان أخرى. ولولا إصراري على الانسحاب ٣ ـ ٤ أمتار إلى داخل المطبخ، عند تناول الغداء في أحد الأيام، لكنت ضمن ضحايا قذيفة المدفع، التي سقطت على بعد أمتار منا. وقد استشهد جراء هذه القذيفة الفدائي الشاب كامران مع عامل فني من ألمانيا الغربية، فيما جرح زميله المهندس الميكانيكي الألماني. وكان هذان الألمانيان قد احتجزا من قبل إحدى مفارزنا في قره داغ وجلبا إلى مقر القاطع في حاجي مامند ثم نقلا إلى كرجال إثر حادث پشتاشان. وجاءنا ذات يوم رجل مرسل من السلطة يسأل عن شروطنا لإخلاء سبيلهما. فأجبت:

ـ نريد مبادلتهما بالسجناء الشيوعيين. نطلق سراحهما لقاء إطلاق سراح أربعة سجناء لدى السلطة ـ قدمت أسماءهم.

ذهب الرجل المرسل ولم يأت أحد بعده أبداً، إلى أن تدخل

الرئيس السوري حافظ الأسد، بطلب من سلطات بون، وطلب إطلاق سراحهما. فجاءنا أمر من المكتب السياسي بإخلاء سبيلهما. وكان من المقرر أن ينقلا في اليوم التالي إلى حيث يسلمان إلى السلطات العراقية. لكن قذيفة المدفع، التي أطلقتها قوات النظام العراقي، أنهت حياة أحدهما وجرحت الأخير.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن البعض من جماعة أ.و.ك. كانوا يخططون ـ حين كنا في حاجي مامند ـ لسرقة هذين الألمانيين بهدف بيعهما إلى الحكومة الألمانية، أي كسلعة للمتاجرة.

عاش هذان الألمانيان بيننا عيشة غريبة عليهما ورأيا القمل، لأول مرة في حياتهما، وتعودا على الأكل والشرب والنوم مثلنا. كانا يأكلان أحياناً بين الصخور فيتخذان من إحداها منضدة يضعان فوقها الطعام ويجلسان على صخرتين متقابلين. وكان يضرطان دون حرج، فيما يقهقه فدائيونا حواليهما كأن شيئاً عجيباً قد حدث.

أوصينا مرة بشراء قنينة ويسكي ولحم وفواكه لهذين الألمانيين وأخذهما إلى منبع (زلم) ليقضيا ساعات ويشربا ويأكلا. أعجبهما المنبع الجميل، الذي صنعته الطبيعة هناك. وقال أحدهما بعد أن عادا إلى المقر:

ـ لو كنت كردياً لقاتلت عشرين عاماً من أجل وطني الجميل هذا.

❀ ❀ ❀

كان علينا شراء المؤن من قرية (أحمد آوا) في سفح الجبل ونقلها على ظهور الدواب. وقد حاول فدائيونا مرة الحصول على بعض الدواب ولم يعطهم أحد إياها. فجلبوا رجلاً من القرية إلى المقر لغرض التهديد. وفور بدء التحقيق اعترف بأن حليفنا المسؤول في لجنة الپارتي (وأظنه يدعى ملا عارف) طلب من جميع أهالي القرية عدم تقديم الحيوانات للشيوعيين وهدد كل من يقدم لهم حيواناً. فما الذي تنتظره

من حليف لك في جود وهو يتصرف تجاهك على هذه الشاكلة؟

السلطة لم تميز بيننا وبين الپارتين أثناء القصف المدفعي المتواصل، بعكس البعض من الپارتيين الذين كانوا يعادون الشيوعية حتى حين كنا في جبهة موحدة. وقد سقطت قذيفة مدفع للعدو على مشجب الپارتي وأخذت الانفجارات تتوالى فيه طيلة ساعات متعاقبة. ورأيت فدائياً حاول إطفاء الحريق في المشجب بصب قدر من الماء. فانفجرت في تلك اللحظة إحدى القذائف ورفعته أمتاراً عن الأرض ليسقط شهيداً ممروداً. ولم يكن بمستطاع أحد أن يقترب من جثته إلا بعد أكثر من عدة ساعات.

❀ ❀ ❀

قبل مغادرتنا لقره داغ كنا قد أسرنا ثلاثة من كوادر أ.و.ك. أطلقنا سراح أحدهم في صفقة صغيرة وأخذنا معنا اثنين نحو جبال هورامان. في الليل هرب أحدهما من فدائي حارس يدعى حمه سعيد قره داغي. وأخذ الثالث ـ ويدعى جعفر عبد الله ـ إلى سجن ح.س.ك. موقتاً لأننا لم نملك سجناً آنئذ. وبعد أيام قتل أحد الأسرى لدى ح.س.ك.، وكان من منتسبي أ.و.ك. ويدعى سردار. قيل إنه حاول الهرب فقتل. وهرع إلي أكثر من شخص من الهورامیين بينهم من منتسبي ح.س.ك.، راجين نقل السجين جعفر عبد الله إلينا قبل أن يقتل هو الآخر هناك. فاستجبت وأرسلت رسالة ومفرزة صغيرة وجلب الأسير إلينا. أتانا أخوه وقدم لنا عشرين ألف دينار ثمناً لإخلاء سبيله ورفضت بحزم. وطلبت إطلاق سراح أربعة فدائيين شيوعيين من أسرانا لدى أ.و.ك. كشرط لإطلاق سراحه. وبعد أيام قدم لنا الدليل المادي على أن أ.و.ك حرر هؤلاء الأربعة فحررنا بدورنا جعفر.

❀ ❀ ❀

على أثر توقيع ممثلينا لاتفاق ديوانه ذكرت إذاعة أ.و.ك. ـ التي كانت تشن حملة شعواء على ح.ش.ع. ـ بأن قاطع السليمانية للحزب

الشيوع انشق عنه ورفض مقاتلة قوات أ.و.ك. ورغم أننا كنا ضد الاقتتال فعلاً، إلا أننا لم نرد أن يتصور الآخرون كما لو كنا منشقين. ولهذا بادرنا إلى إصدار بيان سياسي باسم القاطع أكدنا فيه أننا جزء لن يتجزأ من ح.ش.ع. وأدنا بقوة سلوك وتصرفات أ.و.ك. والأخطاء السابقة لقادته، وطموحاتهم غير المشروعة. النقطة الوحيدة التي شذذنا فيها عن نهج البيانات المركزية هي أننا سمينا الأحداث المأساوية الجارية باسمها الحقيقي: «اقتتال الاخوة». وقد أذاعت محطة الپارتي مقتطفات كافية من بياننا أكثر من مرة. كما أذعناها بأنفسنا من جهازنا رقم (٩)، الذي جعلنا منه محطة للإذاعة خلال يومين. ووصلت نسخ منه إلى أعضاء المكتب الساسي فأدانوه جميعاً فقط لسبب واحد: لأنه سمى الأحداث باقتتال الاخوة. وكانت قيادتنا آنئذ تعتبر أ.و.ك بذنبها وتدين أعمالها. وبعد سنوات أربع من ذلك تهالكت قيادة ح.ش.ع. على المصالحة غير المشروطة وعادت لتعترف بأن ما جرى كان اقتتال الاخوة ثم تحالفت مع أ.و.ك على أسس حددها الأخير.

❀ ❀ ❀

وصلنا ذات يوم وبصورة غير متوقعة أحمد بانيخيلاني حاملاً رسالة من المكتب السياسي إلينا لكي نضمه إلى هيئة القاطع ونستفيد منه في عملنا. وبعيد مجيئه انفرد بنصر الدين هورامي وقال له ـ كما حدثني الأخير:

ـ إني فقدت شرفي وكرامتي هناك وجئت كي تساعدوني واسترجعهما هنا عندكم.

كان يقصد بذلك ما نجم عن موقفه المتخاذل اثر القبض عليه من قبل مسلحي أ.و.ك. عقب أحداث پشتاشان، حيث أثيرت ضجة كبرى بين الفدائيين ضده وضد كريم أحمد مطالبة بمحاسبتهما ومعاقبتهما. ومن المؤكد أن السخط عليه لم يكن قليلاً بين فدائيي قاطعنا أيضاً. ولكن كان لدرجة أقل بالمقارنة مع من كانوا حوالي المكتب السياسي والمكتب

العسكري ورأوا عن قرب بعض الأحداث.

في الوقت نفسه كان الوضع في قاطعنا متأزماً، بصرف النظر عن مجيء أو عدم مجيء بانيخيلاني. فالنكسة الجديدة، التي لحقت بالحزب، نشرت البلبلة الفكرية الواسعة وأضعفت الثقة بالقيادة عامة، بما في ذلك قيادة قاطعنا. والمأزق الذي وقع فيه قاطعنا ـ شأن كل الحزب ـ كان شديداً وبحاجة ماسة إلى البحث عن علاج له. عقدت مع هيئة القاطع ولجنته الحزبية ثم مع كوادرنا عامة سلسلة اجتماعات لمناقشة الوضع المستجد وللبحث عن حلول للمشاكل المستعصية وقد وافق الكادر بصورة شبه جماعية على الاقتراح التالي، الذي كنت قد قدمته كسبيل للمعالجة:

ـ إعادة بناء كافة لجاننا الحزبية والعسكرية عن طريق الانتخابات وبالاقتراع السري، آخذين بنظر الاعتبار فقدان ثقة الفدائيين بقادتهم، بمن في ذلك نحن وإشاعة البلبلة والتسيب وضياع الضبط الحزبي والعسكري، على أن يبد الانتخاب من الفصيل حيث ينتخب الفدائيون آمر فصيلهم وينتخب الشيوعيون فيه منظمهم الحزبي الذي يكون مستشاراً سياسياً للفصيل. ويجري نفس الشيء في السرية ثم الفوج. ثم يجتمع جميع المنتخبين الحزبيين والعسكريين في كونفرنس طارىء للقاطع، ويكون جدول العمل المطروح أمامه على الوجه التالي:

١ ـ تقييم مسيرة القاطع ونشاطه منذ نشوئه في أواخر ١٩٨٢، وخصوصاً خلال الأشهر التي تخللها اقتتال الاخوة.

٢ ـ رسم الخط ألعام للفترة اللاحقة.

٣ ـ انتخاب هيئة القاطع من قبل الكونفرنس بالاقتراع السري، وانتخاب اللجنة الحزبية للقاطع في جلسة خاصة بجميع الشيوعيين في الكونفرنس.

كان المعارض الوحيد للانتخاب، حزبياً كان أم عسكرياً، هو إبراهيم صوفي محمود ـ وربما كان سبب معارضته هو خوفه من أن لا

ينتخب للهيئة. وعارض ملا علي الانتخابات العسكرية بذريعة أن لا سابقة لها، فيما أيد الانتخابات الحزبية.

كتبنا إلى المكتب السياسي عن قرارنا بالانتخاب كسبيل لمعالجة المشاكل ولاستعادة الثقة ـ وكان بانيخيلاني من مؤيدي الانتخابات، على الأقل، الناحية الظاهرية. لم نتلق جواباً من القيادة. كنت أعرف أنهم غير مرتاحين في القيادة، ولكنهم لم يجرأوا على إبداء معارضة مكشوفة. فاعتبرنا السكوت دلالة الرضىٰ وقررنا البدء بالانتخابات ابتداءاً بالفوج السابق في هورامان ثم في فوجينا الآخرين المرابطين في شهرزور لحماية منطقتنا من أ.و.ك.

جرت الانتخابات في فصيل المقر ـ القاطع ـ وفي الفوج السابع. رشحنا الفدائيين الشيوعيين علي كلاشنكوف وعبد الله مامه آمراً للفوج ومساعداً للآمر ورشحنا يوسف، الشيوعي العربي من بغداد، مستشاراً للفوج. ورشحنا أناساً للسرايا والفصائل. وشجعنا الآخرين جميعاً على ترشيح أنفسهم أو من يريدون لخوض منافسة انتخابية حقيقية حرة. ورشح الفدائي توفيق حاجي نفسه لمنصب آمر الفوج ووجد من رشحوا أنفسهم لشتى المناصب الحزبية والعسكرية. ودبت الحيوية في الانتخابات، الأولى من نوعها في تأريخ التشكيلات الشيوعية المسلحة بكردستان. واقتنع الجميع بأنها انتخابات حقيقية حرة. بعد التصويت في كل جلسة كنا نترك للمجتمعين أنفسهم اختيار أشخاص ثلاثة من بينهم لفرز الأصوات ثم لحرق الأوراق كي يطمئن الجميع إلى أن أحداً لن يتعرض مستقبلاً للضغوط والملاحقات بسبب تصويته لهذا المرشح أو ذاك. وكانت النتيجة فوز جميع من رشحناهم بأغلبيات ساحقة، باستثناء أحد أمراء السرايا الثلاث وأحد مستشاري الفصائل. وقد اقتنعت بعدئذ بأن الشابين اللذين انتخبا خارج مرشحينا ـ وهما شاب عربي من الناصرية وآخر كردي من السليمانية ـ كانا أفضل من مرشحينا الفاضلين في الانتخابات.

٢٢

إقالتنا أنا وملا علي عن هيئة القاطع وتعيين «باني خيلاني» مسؤولاً

بعثت هذه الانتخابات قدراً من الثقة والحيوية بين فدائيي الفوج السابع، واتضح منها أن الفدائيين يمتثلون لأوامر القيادة المنتخبة من قبلهم بشكل أفضل. واتفقنا على أن نذهب، أنا وبانيخيلاني، إلى شهرزور للإشراف على الانتخابات في فوجينا التاسع والخامس عشر أيضاً، الموجودين في الجبهة الأمامية. ووجدت بين الفدائيين ترحيباً حاراً بالانتخابات كطريق إلى إعادة بناء تنظيمهم في وقت لم تكن لديهم الثقة بآمري الفوجين نصر الدين هورامي وبالأخص حمه رشيد قره داغي واجتمعنا صبيحة ١٣ آب ١٩٨٣ بمسؤولي أحد الفوجين واتفقنا على إجراء الانتخابات فيه يوم ٨/١٤. وفيما كنا نتداول مع هذا وذاك بقرية كاني بردينه لتشخيص أفضل من يمكن ترشيحهم من الفدائيين جاءت المفاجأة: ففي عصر ٨/١٣ أرسل إلينا إبراهيم صوفي برقية مذيلة بتوقيع المكتب السياسي ملخصها ما يلي: إلغاء الانتخابات وإقالتي أنا وملا علي من هيئة القاطع وكذلك تعيين أحمد بانيخيلاني مسؤولاً عن القاطع.

كان هذا القرار صفحة أخرى من البيروقراطية والآمرية، التي دأب عليها المكتب السياسي ليضع نفسه على الدوام فوق الحزب وفوق المبادىء. فنحن ـ أنا وملا علي ـ اللذين بقينا مع الفدائيين داخل الوطن في ظروف المحن والصعاب، واحتفظنا لأنفسنا بمنطقة شهرزور وأبقينا راية ح.ش.ع عالياً فيها، نزاح الآن من هيئة القاطع لا لأي سبب سوى معارضتنا للنهج السياسي الخاطىء. في حين يعين بانيخيلاني مسؤولاً للقاطع دون التفات إلى أنه كان قد انهار بالأمس القريب عند وقوعه في أسر أ.و.ك. وفقد ثقة الفدائيين، وجاء إلى قاطعنا هرباً منهم ولكي يسترجع شرفه وكرامته ـ على حد تعبيره. ومن المؤكد أن بانيخيلاني نفسه كان يرفض المسؤولية بحزم فيما لو كان إنساناً أكثر فهماً واستقامة وتمسكاً بالقيم والمبادىء، آخذاً بنظر الاعتبار أنه غير مقبول من جمهرة الفدائيين. إلا أنه قبلها فرحاً وكأنه قد حقق نصراً مبيناً. واكتفيت أنا بإبداء أسفي وعدم رضاي لقرارات المكتب السياسي وتوقع نتائج سيئة. عدنا بعدئذ إلى مقر كرجال.

حاول بانيخيلاني كثيراً إقناعي بالعمل عضواً في هيئة القاطع، تحت قيادته وأبلغته برفضي القاطع لأية مسؤولية حزبية أو عسكرية لحين اجتماع اللجنة المركزية ومناقشة ما حدث. وأرسلت برقية إلى المكتب السياسي ـ كان مقره في لولان بعد أن عاد من إيران ـ مطالباً باللقاء. جاء الجواب بالموافقة. وفي أيلول ١٩٨٣ سافرت بصحبة ملا علي عبر الأراضي الإيرانية وبورقة من البارتي. في الطريق إلى لولان شاهدت، للمرة الثانية، بلدة شنو وصعدنا بالسيارة الجبل العملاق الذي يشكل امتداداً لقنديل وتفرجت على (كيله شين) النصب الأثري الكبير الذي وضع هناك قبل أكثر من ألفي سنة ليكون نقطة الحدود بين الدولتين الساسانية والأشورية. وبدلاً من حماية هذا الأثر الهام، وخصوصاً ما كتب عليه نحتاً، أطلق عليه المسلحون الأكراد مئات وألوف الطلقات من بنادقهم لا لسبب سوى الجهل والتخلف.

حين وصلنا إلى مقر المكتب السياسي (وكان مقر أذاعتنا وإعلامنا المركزي أيضاً) كان عمر الشيخ هو القائم بأعمال السكرتير في غياب عزيز محمد، الذي اعتاد أن يكون بعيداً عن الحزب والوطن في أوقات المحن والشدائد. وفي وقت كان كريم أحمد قد أبعد مؤقتاً عن منصب القائم بالأعمال على أثر موقفه في أحداث پشتاشان. وقد وجهت اللوم إلى عمر الشيخ على قبوله لهذه المسؤولية فزعم أنه أحرج دون رغبة منه وأنه قبلها لحين عودة السكرتير.

عقدت جلسات استمرت يومين كاملين، شاركنا فيها أنا وملا علي من جهة وعمر الشيخ وباقر إبراهيم وأبو عامل (سليمان اسطيفان) وعدنان عباس الذي كان مستشاراً سياسياً لقاطعنا حتى نهاية نيسان ١٩٨٣، من جهة أخرى. وقد لاحظت أن عدنان، الذي سحب من قاطعنا بسبب إخفاقه في العمل كمنظم حزبي للفدائيين وكمستشار سياسي للقاطع، كان قد عين في لولان منظماً حزبياً لجميع التشكيلات الفدائية في كردستان، أو في جميع القواطع. في النقاشات، وموضوعها الرئيسي أحداث پشتاشان وما يتعلق بها من أحداث في قاطعنا، كان لي ولعدنان وملا علي رأي موحد بقدر ما يتعلق الأمر بموقف قاطع السليمانية وكركوك من قضية اقتتال الاخوة. أوضحنا ما لم يكن واضحاً لدى المكتب السياسي. وحاولت جهدي تبرير نهجنا وتأكيد صحة مواقفنا وشرحت ملابسات اتفاق ديوانه، وتطرقت إلى قرار قاطعنا بالانتخابات والتدخل الخاطىء للمكتب السياسي بسبب خوفه من المطالبة بالانتخابات في القواطع الأخرى أيضاً. وأدنت بقوة سياسة ومواقف المكتب السياسي وحقيقة أن ح.ش.ع. أصيب بنكسة جديدة عميقة بسبب سياستهم وأنهم المسئولون عنها. سمع الحاضرون وناقش البعض وسأل ورد وبرر. وفي الختام قلت مخاطباً المكتب السياسي كهيأة:

ـ أنتم المكتب السياسي مسؤولون عن الأخطاء والنكسات. ولم يعد بمستطاعكم أن تقدموا أي خدمة للحزب سوى شيء واحد فقط: أن

تستقيلوا من عضوية المكتب السياسي واللجنة المركزية وتتركوا الشيوعين العراقيين ليحلوا مشاكلهم بدون تدخلكم وبعيداً عن قيادتكم.

قدمت هذا الطلب الشفهي في الاجتماع عن قناعة عميقة وبصورة جديدة. وفي اليوم التالي حولته إلى رسالة تحريرية، مع تبيان مبرراته. وأطلعت عليها كلاً من سليمان اسطيفان وثابت العاني وسليم إسماعيل وربما حاجي سليمان أيضاً، قبل أن أقدمها إلى المكتب السياسي.

في الوقت نفسه اتفقنا، نحن أعضاء اللجنة المركزية الموجودين في لولان، على تقديم طلب إلى المكتب السياسي لعقد اجتماع طارىء للجنة المركزية مكرس لمناقشة وتقييم أحداث پشتاشان الخطيرة، التي أثرت على وضع الحزب حتى أعمق أعماقه. ورفض المكتب السياسي كعادته طلبنا. ولم يعقد أي اجتماع للجنة المركزية إلا بعد أربعة عشر شهراً من أحداث پشتاشان. ولا أدري ماذا يمكن أن تكون هذه اللجنة القيادية وأي دور يمكن أن تلعب إذا لم يكن لها حق الاجتماع لمناقشة أحداث عصفت بكيان الحزب الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي والعسكري وأوقعته في نكسة جديدة كبيرة، وهل يمكن أن يكون هناك مثال أصرخ للتجاوز على صلاحيات اللجنة المركزية وللإصرار على وضع المكتب السياسي فوقها؟ وأجزم أن أي اجتماع للجنة المركزية، خلال الأشهر القليلة التي أعقبت أحداث پشتاشان، كان من شأنه وضع المكتب السياسي موضع المحاسبة الشديدة واتخاذ تدابير عقابية بحق البعض من أعضائه. وهذا ما لم يريدوه ولم يسمحوا بعقد الاجتماع إلا بعد ١٤ شهراً.

توجهت من كرجال إلى لولان، وأنا أحمل نسخة من تقييم سياسة ح.ش.ع. الذي كنت كتبته منذ أواخر ١٩٧٩ ـ أوائل ١٩٨٠ ثم أضفت إليه إضافات جديدة. كنت أفكر أن الوقت قد حان لنشره وأن علي إجراء آخر التعديلات عليه بهدف النشر. وهناك استفدت من كاتبة الطابعة الفدائية الموجودة لدى المكتب السياسي وكذلك من قادر رشيد

لاستنساخ بضع نسخ أخرى وتوزيعها على عدد من أعضاء اللجنة المركزية (سليمان اسطيفان، ثابت العاني، سليم إسماعيل) ومن كوادر أخرى لغرض الاطلاع على ملاحظاتهم، التي قد تغني الوثيقة. وقد استفدت فعلاً من ملاحظاتهم، بالأخص ملاحظات ثابت العاني.

وبتكليف من عمر الشيخ سافرت من مقر المكتب السياسي إلى مقر جماعة حزب توده في دراو، بمناسبة عيد تأسيس حزبهم. وألقيت في الحفل كلمة ذكرت فيها أن كيانوري وإحسان طبري قد انهارا ولكن الحركة الثورية في إيران لن تنهار. وعلمت فيما بعد أن بعض التودويين قد احتجوا على كلامي زاعمين أن كيانوري صامد وأن ما أدلى به من حديث في تلفزيون طهران كان تحت تأثير الخدر الناجم عن زرق الأبر والعقاقير الطبية. وفي اليوم التالي نقل إلى مسؤول التودويين المحلي هناك بأن (١٨) شخصاً من قادة (تودة) ـ المنهارين قد شاركوا في الليلة الفائتة في ندوة تلفزيونية مكرسة للحديث ضد حزب توده في العاصمة طهران.

كنت في حاجة إلى مبلغ من المال لأرسله إلى أولادي الأربعة في الاتحاد السوفيتي. وطلبت سلفة من المكتب السياسي على أن أسددها بأقساط من مخصصاتي الشهرية الزهيدة. فرفض طلبي. واضطررت فيما بعد إلى طلب العون من أحد أقاربي لأرسل لهم المبلغ المطلوب.

شجعني البعض في المكتب السياسي على البقاء في لولان أو السفر إلى أحد البلدان الاشتراكية، فرفضت ذلك وقررت العودة إلى كرجال مروراً بطهران لإجراء فحوصات طبية وللبحث عن بعض أدوات الطباعة الخفيفة التي كنت بحاجة إليها لطبع وثيقة التقييم. في طهران التقيت من جديد بعضو اللجنة المركزية جاسم الحلوائي، المسؤول عن الشيوعيين العراقيين في إيران. وحين تطرقنا إلى أحداث پشتاشان قال الحلوائي أن هذه النكسة كانت أكبر من النكسات السابقة. وعندما تطرقنا إلى أوضاع إيران وسياسة حزب توده الذيلية كرر ما كان يقوله أثناء لقائي

به، أواخر ١٩٨٢، من أن سياسة حزب توده كانت هي السياسة الصحيحة. كان لا يزال ملكياً أكثر من الملك. وقد ساعدني على إجراء الفحوص، وكنت أعاني من آلام في الكلية. بعد الفحوص قال لي طبيب أخصائي ناصحاً:

ـ دواؤك الوحيد والأفضل لإزالة هذه الآلام هو الإكثار من شرب السوائل ولست بحاجة إلى أي دواء آخر.

أخذت بهذه النصيحة وبدأت أشرب الكثير من الشاي الخفيف، الذي كان السائل الوحيد المتوفر في متناول يدي في الجبال. وآمنت بصواب ما قاله الطبيب إذ اختفت تلك الآلام فعلاً منذ ذلك الوقت.

كنت مع الفدائي الشيوعي د. قادر في منزل الشاب البارتي سرباز هورامي بدعوة منه، بمدينة كرج لتناول العشاء. وأتى إلى هناك شاب كردي من خانقين يملك سيارة شوفرليت ويسكن إحدى فيلات كرج. وشاركنا في الحديث. كان صاحبي قادر على معرفة جيدة به ـ وأظن أنه من كوادر البارتي ويدعى أكبر حيد ـ وأخبرني أنه جمد من قبل قيادة البارتي بسبب الاختلاس. سألت قادر:

ـ وماذا اختلس حتى يستحق التجميد_

ـ كان يستلم هناك ـ في إيران ـ حصص (٣٧٥) شخصاً من فدائيي البارتي وكان يسلم منها حصص (٧٥) شخصاً ويسرق الباقي لنفسه.

تجولت كثيراً في طهران حتى عثرت على طابعة صغيرة ذات أحرف دقيقة وروتيو يدوي صغير لم يزد وزنه عن ١٠ ـ ١٢ كغم، فاشتريتهما. وكنت على قناعة بأن المكتب السياسي سيرفض نشر وثيقة التقييم التي قدمتها إليه. وكنت مصمماً على أن أنشرها في حالة رفضها من القيادة. لكنني لم أستطع حمل الطابعة والروتيو معي. فكلفت سرباز هورامي بإرسالهما إلى مكان يمكن لي أخذهما منه إلى حيث أشاء. وبما أن سرباز لم يعرف عن علاقتي الخاصة بهذين الجهازين فإنه أرسلهما

وأرسل معهما رسالة أو خبراً إلى قيادة القاطع. اهتم بانيخيلاني وإبراهيم صوفي بالمسألة وكأنهما قد اكتشفا مؤامرة بالغة الخطورة وصادراهما حتى دون دفع ثمنهما إليّ واعتبراهما مستمسكاً جرمياً خطيراً ودليلاً على وجود توجه انشقاقي لدي. ولم تكن لدي في الواقع نية الانشقاق. وقد رفضت طلبات تقدم بها الكثيرون من الكوادر للإقدام على الانشقاق في تلك الأيام.

❀ ❀ ❀

بعد عودتي من طهران إلى كرجال، وخاصة بعد اكتشاف ومصادرة الطابعة والرونيو، كثفتّ المضايقة والمراقبة علي. وكلف بانيخيلاني فدائيين ـ هما د. سالار، أو سيروان عبد الله زنگته، وتحسين، شاب قصير القامة من كربلاء، بمراقبتي الدائمة، وأنا في خيمتي، وملاحقتي أينما أتوجه. وكان هذان الشابان يتصرفان كشرطيين سريين شبه أميين من شرطة العهد الملكي. وقد صرح تحسين ذات مرة، وهو مرهق من واجب «الملاحقة»، أمام عدد من الفدائيين:

ـ أوامر أبو سرباز (بانيخيلاني) تقضي بأن أكون شرطياً وأتابع خطى أبو سلام.

لم أكن منشقاً ولكني كنت متهماً بمحاولة الانشقاق. وهذا الزعم كان مبرراً كافياً، بالنسبة لقيادة القاطع، لكي تلقى الأحاديث والمحاضرات ضدي وتثير حقد البعض علي في الاجتماعات الحزبية، في وقت كنت لا أزال عضواً في اللجنة المركزية ومقيماً في المقر. ولم يكن هناك ما يخيفني أو يمنعني من الانشقاق فيما لو كنت مقتنعاً بالإقدام عليه. وقد ألقى أحد الفدائيين ذات مساء بقصاصة ورق إلى خيمتي وذهب مسرعاً مخافة أن يراه بوليس بانيخيلاني. قرأت القصاصة وفيها:

ـ غرفتك معرضة للتفتيش في أي لحظة.. فكن حذراً!

لم أكن مكترثاً للتفتيش المحتمل. كنت أقضي الوقت بين المطالعة والرياضة واللعب ثم الكتابة. راقبت الفرس العجيبة التي ولدت مهراً في الفضاء وفوق الثلوج. وكانت هي ومهرها يبقيان الليالي فوق الثلوج المتساقطة وفي جو تهبط فيه درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر دوماً. كانت الفرس كبيرة الحجم وسمينة. وكانت تخرج الحشيش من تحت الثلوج وتلتهمه بشهية تحسد عليها. وتذهب إلى حيث يرمى بفضلات الطعام لتلتهمها أيضاً. والمهر الصغير يعدو وراءها ولا يأكل شيئاً من كل ذلك، بل يكتفي بحليب أمه. وأشد ما أثار انتباهي هو أن هذا المهر الصغير كان يظل مع أمه الليالي وفوق الثلوج دون أن ينال منه البرد القارس.

وكان لي فصل مع عصفورين يسميان بالكردية (فلته) وهما نوع من البلابل. أتيا ذات يوم من أيام آذار ١٩٨٤ إلى الكهف العالي، الذي بني داخله كوخي مع كوخ آخر من النيلون. كنت ألتذ بمراقبة تصرفات هذين الطائرين الصغيرين. كانا يقضيان وقتاً طويلاً في النهار، يتجولان خلاله داخل الكهف ويمران تكراراً على كل شبر مربع، وينقران الصخر كمن يريد فحصه. بعد أسبوع كامل من الفحص والتدقيق اختارا النقطة التي يبنيان فيها عش الزوجية. في العشرين من آذار بدأ العمل لبناء العش. يشتغل الاثنان بنفس الهمة والحماس كعاملين وكبناءين فنيين. أكملا العش خلال شهر كامل. كانا يأتيان بالطين محمولاً على منقاريهما ليبنيا جداراً رقيقاً غاية الرقة ومتيناً في نفس الوقت. بعد إكمال البناء صنعا له ممراً جانبياً أشبه بنفق قصير ليكون المدخل إلى داخل العش. وكانا يفحصان أكثر من مرة الجدار من شتى نواحيه ويقومان بتحصينات إضافية لأحكام البناء ولسد المنافذ مهما كانت صغيرة. وقد فرشا العش، بعد إكماله، بطبقة من الريش وما شابه قبل أن تبيض فيه الأنثى. وكانا يبقيان بالتناوب على البيض حتى أصبحا أبوين لأربعة فراخ. وكانا يتعاونان على قدم المساواة في جلب الطعام للصغار وفي نقل الأوساخ من داخل

العش لرميها بعيداً. كانا حريصين على أن يبقى البيت نظيفاً أبداً. وبعد أن كبرت الفراخ تعاون الزوجان في إخراجها عنوة من العش بغية تدريبها على الطيران وعلى استحصال الطعام اعتماداً على النفس. واستغرقت عملية التدريب هذه أكثر من أسبوع كامل. وفي الختام أصبح اثنان من الفراخ طعاماً للقط في مطبخنا وطار الآخران مع والديهما بعيداً. وكانت الزيارات تتكرر إلى العش بعدئذ مرة في اليوم ثم مرة في عدة أيام. أسفت حينها لأني لم أملك كاميرا ڤيديو لكي أصور ما كان يجري أمامي.

طير آخر جلب انتباهي، وأنا في كوخي هناك. كان من فصيلة البوم، التي تخرج فقط في الليل لممارسة نشاطاتها المختلفة. كان هذا الطائر يغرد أو يستغيث طيلة الليل دون أن يستكين أو يقر له قرار. لم أدر أهو فحل يبحث عن الأنثى لنفسه أم العكس. لكنني كنت أسمعه وأنفعل مع انفعالاته. وقد حفزتني استغاثاته، طبعاً بالارتباط مع الوضع النفسي الذي كنت أعيشه، على أن أنظم في تلك الأيام واحدة من القصائد السبع أو الثماني التي نظمتها طيلة عمري.

في الواقع نظمت عام ١٩٨٤ ثلاث قصائد، هي حوالي نصف ما أنتجت من الشعر في عمري. كانت إحداها مكرسة لزوجتي عائدة ياسين ومنتجة بمناسبة الذكرى السابعة عشر لزواجنا. وأخرى مكرسة للذكرى الخمسينية لتأسيس ح.ش.ع. وقد طلب مني جلال دباغ هذه الأخيرة بغية نشرها في أدبيات الحزب شريطة حذف بيتين يتضمنان نقد قيادة ح.ش.ع. فرفضت طلبه المشروط وقررت أن تنشر كما هي أو لا تنشر.

❀ ❀ ❀

في صباح باكر من كانون الثاني ١٩٨٤ سمعت دقات على الباب النيلوني لكوخي بكرجال، وأنا على فراش النوم. فتحت الباب فوجدت فدائياً من مفرزة توفيق حاجي وهو يجلب لي الرسالة الشفهية التالية من ملا علي:

ـ ملا علي وتوفيق في انتظارك داخل البستان لأمر ضروري وهام.

لم أكن على موعد معهما ولم أعرف في الواقع ما يريدان مني في هذا اللقاء. وكانت علاقتي ودية مع ملا علي شخصياً. ولكنني لم أكن على علاقة ودية ولا ثقة متبادلة مع توفيق. مع ذلك ذهبت إليهما. في الطريق وجدت شرطيي بانيخيلاني سيروان وتحسين ورائي. وحين اللقاء طلب مني ملا علي وتوفيق الانضمام إليهما للنزول سوية إلى شهرزور تمردا على قيادة القاطع. قالا أن قرارهما هو النزول وأن آمر السرية الفدائي فتاح گلالي أخبرهما بأنه سينضم إليهما. رفضت طلبهما بالذهاب معهما وأبلغتهما بأن ذهابهما يكون مفيداً إذا كان شبه تمرّد ووسيلة ضغط على قيادة القاطع لحملها على التراجع عن بعض التصرفات الخاطئة. وبالنسبة إلي شخصياً لم أستبعد كلياً احتمال لجوئي إلى الانشقاق في مجرى تطور الوضع المستجد وكنت أفضل انتقال ملا علي شخصياً مع عدد محدود من الفدائيين الموثوق بهم إلى قره داغ لإقامة مقر يتيح مجال المناورة ويوجد خط الرجعة في حالة الاضطرار. لكني لم أكن مستعداً بأي حال لتسليم لحيتي إلى أناس لم أثق بهم مطلقاً من أمثال توفيق حاجي وفتاح گلالي.

على أثر نزول مفرزة ملا علي وتوفيق حاجي ثارت ثائرة بانيخيلاني وإبراهيم صوفي واشتد بهما القلق والخوف. واتهمت أنا بأني وراء التمرد. ولمت بدوري بانيخيلاني مؤكداً أن ما حدث نتيجة منطقية لتصرفات هيئة القاطع، وعرضت عليه وساطتي عن طريق النزول برفقته إلى شهرزور سعياً لحل المشكلة بالتي هي أحسن. وكان من المحتمل أن يوافق لولا ملحة إبراهيم صوفي على استبعاد كل الحلول الوسطية. كان إبراهيم طائشاً قصير النظر وكان يزعم أنه سيذهب مع مفرزة معينة وسينهي المشكلة بالشكل الذي يروق له. وقد تحرك فعلاً على رأس مفرزة زاعماً أنه سيجرد المتمردين من السلاح بعملية عسكرية خاطفة. وسمعت أنه كان قد طرح على الفدائيين فكرته هذه، القاضية بإثارة اقتتال

الاخوة بين الشيوعيين أنفسهم. غير أن الآخرين لم يخضعوا له ولم ينفذوا ما أراد.

طلبت إتاحة الفرصة لي كي أتحدث باللاسلكي إلى ملا علي. ولم يسهل بانيخيلاني أمر الاتصال إلا بعد فوات الأوان إذ كان ملا علي ومن معه قد تركوا المنطقة التي وجدت فيها مفرزة إبراهيم صوفي وعبروا شارع عربت ـ دربنديخان إلى منطقة سيطرة أ.و.ك لتجنب الصدام المسلح ـ حسب ادعائهم ـ مع إبراهيم صوفي. وهكذا تحول التمرد من وسيلة للضغط على قيادة القاطع إلى انشقاق فعلي ـ لكنه كان انشقاقاً هزيلاً منذ بدايته ولم يملك مقومات النجاح.

في اليوم التالي من انتقال ملا علي ومن معه إلى الجهة الأخرى من الشارع داهم مسلحو أ.و.ك. منطقة شهرزور، التي كانت في أيدي الشيوعيين منذ أيار ١٩٨٣، شرقي شارع عربت ـ دربنديخان. وأما إبراهيم صوفي، الذي كان يلح علينا سابقاً لكي نقاتل أ.و.ك.، فإنه تراجع بسرعة خيالية مع أفراد مفرزته أمام تقدم قوة أ.و.ك. تاركاً شهرزور نحو قاعدة كرجال دون إطلاق رصاصة واحدة.

لم تنقطع الصلاة بيني وبين ملا علي حتى بعد انتقاله إلى منطقة سيطرة أ.و.ك. وبعد عودة قوات أ.و.ك. إلى شهرزور. وقد أرسل إلي أولى رسائله مع أخي نجم الدين، الذي وصلني في كرجال. كان يكرر طلبه بأن انضم إليهم. أجبته برسالة طالباً منه العودة إلى القاعدة. وفي رسالته الثالثة إلي أخبرني بأنه قرر العودة وأرسل إليّ موعد عودته. من الواضح أن هذا القرار لم يكن بمعزل عن قناعته بفشل المحاولة الانشقاقية. وقد ذهبت في الموعد المحدد إلى قرية أحمد أوا لألقاه مع فتاح گلالي وبعض مسلحيه، الذين قدموا لإيصاله وليس للعودة معه. فرجعنا، أنا وملا علي وحده، إلى القاعدة فيما عاد فتاح إلى شهرزور.

كان فشل محاولة الانقسام تلك متوقعاً للأسباب التالية:

١ ـ عدم تجانس العناصر المنشقة فيما بينها، والدوافع الشخصية ـ الذاتية بالنسبة إلى غالبية العناصر الرئيسية.

٢ ـ انعدام كادر حزبي ـ سياسي مؤهل لقيادة وتوجيه العملية.

لقد ولد الانقسام كسيحاً وتفككت الجماعة المنشقة بسرعة قياسية. ففي اليوم الرابع عشر من نزول المفرزة انفصل توفيق حاجي مع ١٣ شخصاً (أي حوالي ثلث المنشقين) عن ملا علي انفصالاً تاماً وأصبحا جماعتين لا شأن لهما ببعضهما، أو يضمران العداء لبعضهما. وعاد بابا علي مع عدد من الفدائيين إلى القاعدة. ولم يبق مع ملا علي سوى فتاح گلالي، الذي كان قد قطع الصلة الروحية مع الشيوعية ومع الثورة منذ أمد وتحول إلى شبه إقطاعي عسكري، ورسول ورويتن اللذين كانا أقرب إلى عصابة نهب منه إلى مفرزة ثوار.

في الوقت الذي واصلت المراسلات مع ملا علي، قبل عودته إلى القاعدة، حاولت التأثير كذلك على توفيق ومفرزته. فأرسلت إليهم رفيقاً جهادياً جيداً هو ناصر، الذي بقي على صلة سرية معي وحاول إعادتهم إلى قاعدتنا. غير أن الموت داهمه قبل أن يفلح في إنجاز مهمته. ويبدو أنه ذهب ضحية النزاع بين ح.س.ك. وبين أ.و.ك. في شهرزور.

❀ ❀ ❀

كنت مصمماً على نشر وثيقة التقييم، التي هيأتها، دون انتظار الرخصة من القيادة ـ تماماً كما فعل زكي خيري وعزيز الحاج عام ١٩٦٥. وفي مقر كرجال دبرت طبع نسخ إضافية منها بالآلة الكاتبة وعلى يد طباع مكتب الاقليم نفسه. وبدأت أعرضها على كوادر حزبية في القاعدة، بينهم نائب عبد الله المسؤول آنئذ عن تنظيم مدينة السليمانية والذي أبدى شديد إعجابه بها ورغبته في إيصال نسخ منها إلى كوادر المدينة ـ وكان على موعد قريب معهم، حسب ادعائه، في إحدى قرى شهرزور. في اليوم التالي من اطلاع نائب على الوثيقة وجدت همهمة في

مكتب القاطع واستدعاء البعض من هنا وهناك. ولم يلبث أن أخبرني نصر الدين هورامي أن بانيخيلاني وإبراهيم صوفي علما بتوزيع نسخ من وثيقة التقييم وجن جنونهما. وفي عصر اليوم التالي علمت بأن المخبر كان نائب عبد الله. وهو سلم لهم النسخة التي أخذها لإيصالها إلى رفاق منظمة السليمانية. وأغلب الظن أنه حاول بذلك التستر على انهياره وترضية المسؤولين بعد أن كشف نوروز شاويس حقيقة موقفه وطلب السفر إلى مقر المكتب السياسي لإثارة الموضوع نفسه وللمطالبة باتخاذ الإجراءات ضد نائب. وكان العثور على نسخة واحدة لدى غيري كافياً لإثارة بانيخيلاني وإبراهيم صوفي، الحريصين على استمرار الوضع البيروقراطي السائد في الحزب أكثر من حرص المكتب السياسي نفسه. فبدأت إجراءات الردع إزائي. وكان من ضمنها توجيه برقية من المكتب السياسي إلي تطلب حضوري إلى مقره في لولان. فرفضت الإذعان ما لم أعرف سبب الاستدعاء ـ وكنت أعرف جيداً أن ليس هناك سبب سوى إبعادي عن كرجال وتجميدي أو احتجازي في لولان.

انتقلت منذ أيار ١٩٨٤ إلى صدر بساتين (أحمد آوا) لاقيم، إلى جانب ملا علي وعائلته وبعض الآخرين، داخل بستان جميل وانصرفت إلى كتابة حلقة جديدة من ذكرياتي باللغة الكردية. ولكي أستفيد من ملاحظات الشبان الأكراد حول ما أكتب فإن وزعت عليهم أول قسم مما كتب ـ بضع عشرات من الصفحات. كنت قريباً من نبع (زلم) الرائع. وكنت أزوره يومياً زيارة شيء مقدس: ثقب كبير في الجبل تخرج منه مياه تكاد تشكل نهراً حقيقياً كبيراً. ومناظر رائعة أبدعت في صنعها الطبيعة وزادتها البساتين، التي زرعها ورعاها الهوراميون، جمالاً. هنا لم تكن أرض زراعية، رغم وفرة المياه.. هنا جبل وصخور وبقاع شديدة الانحدار. لكن أيدي الكدح والبحث عن الرزق صنعت من هذه البقع الصخرية المتحدرة أرضاً للبساتين، لتنتج الرمان والتين والعنب والجوز وغيرها.

كنت منصرفاً إلى الكتابة عندما وصلتني رسالة من مسؤول القاطع أحمد بانيخيلاني يقول فيها: سيعقد قريباً اجتماع اللجنة المركزية للحزب. وإذا كنت راغباً في حضوره فهيء نفسك للسفر. أجبت برسالة إليه قائلاً أني كنت في انتظار هذا الاجتماع وأريد المشاركة فيه بالطبع. في اليوم التالي استلمت منه رسالة ثانية يطلب مني التوجه إلى مكان الاجتماع. فأجبته برسالة ثانية مؤكداً أنني على أتمّ الاستعداد لمرافقته لحظة سفره ـ علماً أنه كان عضو اللجنة المركزية وكان يفترض أن يسافر لحضور الاجتماع. في ١٣/٦/١٩٨٤ وصلتني رسالة ثالثة منه يقول فيها أنه يتأخر بعض الوقت بصفته مسؤولاً عن القاطع. والأفضل ألاّ أنتظره. وسيكون معي ملا علي ونوروز شاويس أيضاً.

٢٣

إلى المعتقل بدل المشاركة في الاجتماع

غادرنا قاعدة كرجال في صبيحة ١٤ حزيران ١٩٨٤ لنصعد الجبل الشاهق ونجتاز فوقه الحدود العراقية الإيرانية في مخفر (مله خرد). كنا نحمل أوراق المرور عبر إيران من الپارتي وكان علينا أن نمر عبر قرية (دزلي) ونصل إلى سنندج لنسافر من هناك إلى (أورميه) فإلى مقر قيادة الپارتي في راژان كي نستعين بها في تدبير المرحلة التالية من الطريق. وبتنا الليلة الأولى في أحد فنادق سنندج والثالثة في ضيافة سكرتير الپارتي علي عبد الله الذي أكرمنا وسفرنا صباح اليوم التالي في إحدى سياراتهم.

كنا متجهين إلى لولان لأغراض مختلفة ـ أنا إلى الاجتماع وملا علي للقاء مع المكتب السياسي ليدافع فيه عن نفسه ضد بعض الاتهامات ونوروز يريد إيصال شكواه مباشرة إلى المكتب السياسي ضد نائب عبد الله ورابعنا الشاب حمه آسو مرافقاً لي حسب.

في فندق حافظ بأورميه التقيت بالفدائيين الشيوعيين سامي وأمين. وأخبرني سامي أنه سجن مع أمين وآخر لعدة أشهر من قبل قيادة قاطع أربيل، الذي كان يرأسه يوسف حنا القس. وأنهم تعرضوا للتعذيب الشديد. وذكر اسم د. مهند البراك كمحقق مارس التعذيب بنفسه، وأن

زميلهما الفدائي الشاب البغدادي (منتصر) قتل تحت التعذيب. وأطلق سراحهما بعد ذلك وطلب منهما مغادرة المنطقة. وهما استعانا بـ ح.س.ك. لاستحصال ورقة السفر إلى طهران والبحث هناك عن عمل. نصحت سامي بالتصرف باتزان والتريث لحين تبلور الأوضاع الداخلية في الحزب بصورة أوضح. كنت أعرف أنه خاوي الجيوب وفي حاجة إلى المساعدة المالية، وأنا لا أملك المال. بعت الراديو الصغير الذي كنت أملكه وقاسمته ثمنه. وفي الساعات التالية لم تفارقني صورة الشاب الشيوعي منتصر، الذي قتل تحت التعذيب. أهذه من الشيوعية، التي فهمناها كذروة العلاقات الإنسانية؟ أأنت شيوعي حقاً يا يوسف حنا، وفي سجونك يقتل شيوعي تحت التعذيب؟ وماذا فعلت إزاء هذه الجريمة يا سكرتير الحزب بعد أن أحطت علماً بها؟ لا شيء بالتأكيد.

في ١٧ حزيران كانت سيارة البارتي تنقلنا من راژان إلى بلدة شنو. نمر عبر أراضي بديعة زينها الربيع بأعشابه الخضراء وأزهاره الملونة وشقائقه الحمراء البديعة. كان الربيع هنا في أوجه، كما يكون في قره داغ أواسط الشهر الرابع. وكانت الشقائق من نفس النوع الموجود في قره داغ، ولكنها أكبر حجماً بكثير. وقد غادرنا شنو لنصعد الجبل ولنمر من جديد عبر نصب (كيله شين) الأثري ولننزل بعدئذ من السيارة، حيث انتهى الطريق ووجب السير مشياً على الأقدام، نزولاً نحو مقر الاعلام المركزي في لولان.

اقتربنا من المقر ورأيت فوق أحد الأسطح تجمعاً. وبدأ يتفرق. استقبلنا عضو اللجنة المركزية ومسؤول الاعلام كاظم حبيب على بعد خطوات من المقر وأخذنا إلى ما يسمى (المطعم). لم أفكر في تلك اللحظات بأي شيء غير اعتيادي لأنني لم أتصور بأن كل ما يدور حولي هو تآمر متفق عليه في القيادة وبمشاركة بانيخيلاني. قدموا لنا الجبن والخبز مع الشاي وبقي كاظم معنا حريصاً على ألاَّ يزورنا الشبان الفدائيون. وخاطبني بلهجة عادية:

ـ تلقيت برقية من المكتب السياسي، وهو يطلب حضوركم إلى مقره على جناح السرعة.

هذه مفاجأة لي، لأني كنت أتصور أن المكتب السياسي مقيم في مقر الاعلام وأن اجتماع اللجنة المركزية سيعقد في نفس المكان. مع ذلك لم أجد ما يثير الشكوك. فسألت:

ـ أين هو مقر المكتب السياسي؟

ـ هو في بارزان.

إذن علينا أن نتابع السير مشياً على الأقدام حوالي ثلاثة أيام أخرى. وأيقنت أن اجتماع اللجنة المركزية، الذي جئت للمشاركة فيه، سيكون هناك أيضاً. مع ذلك سألت:

ـ هل سيعقد الاجتماع هناك؟

ـ نعم سيكون هناك.

ـ ولماذا لم تذهب أنت حتى الآن؟

ـ بسبب مشاغل الاعلام.. أنتم تذهبون ونحن نلحقكم.

أن يسعى الأعداء لخداعي فإن ذلك شيء مفهوم. أما أن يفعل ذلك سكرتير الحزب عزيز محمد وسائر أعضاء المكتب السياسي وأن يفبركوا كذبة يمثل فيها كاظم حبيب ليرسلوني من المقر الحقيقي للمكتب السياسي والمكان الحقيقي للاجتماع الذي إليه دعيت وباسمه حضرت إلى مقر مزعوم، بل إلى حيث اعتقل وتفرض علي الإقامة الجبرية، فإن ذلك ما لم أفكر فيه مجرد التفكير. امتثلنا لأمر كاظم حبيب، الذي عجل بتسفيرنا بعد تناول العشاء، بذريعة إلا مكان للنوم عنده. فذهبنا تحت جنح الظلام إلى مقر يبعد ساعة لنبيت فيه ونواصل السفر صباح اليوم التالي، حيث نسافر إلى (دراو) لنبيت في مقرات التودوويين والفدائيين الإيرانيين وجماعة المؤتمر الرابع المنشقين على الحزب الديمقراطي الكردي في إيران. في اليوم التالي تابعنا السير حتى وصلنا

عصراً لا إلى مقر المكتب السياسي في بارزان، إنما إلى المقر الصيفي لنفس الجماعات الإيرانية في قرية (مرگور) المهجورة قريباً من مثلث الحدود العراقية ـ الإيرانية ـ التركية. واستقربنا المقام في مقر التوديين الذي كان قد حدد لنا حيث نبقى تحت الإقامة الجبرية، دون أن نكون قد حوسبنا أو حوكمنا أو أبلغنا مجرد إبلاغ مسبقاً.

خلال يومين من المسير بين مقر الاعلام وبين مرگور حصلت على معلومات وافية، من رفاق عراقيين همسوا في آذان بعضنا ومن فدائيين وتودويين تكلموا عن غير عمد، لأعرف ما دبر لنا المكتب السياسي من عمل وضيع لا يمت بصلة إلى المبادىء والأخلاق والاستقامة السياسية. وساعتها أدركت أن دعوتي للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية كانت من أساسها فخاً للإيقاع بي وأن بانيخيلاني كان على علم بذلك ومساهماً في تنفيذه. وساعتها أيقنت أن وقوع بانيخيلاني في أسر أ.و.ك. أيام أحداث پشتاشان، في أيار ١٩٨٣، كان فاصلاً بين مرحلتين من حياته الحزبية ـ السياسية إذ أصبح، بعد هذا الحدث، رجلاً آخر مغايراً لما كان في الماضي وفقد ما كان يملكه سابقاً من الجرأة والاعتداد بالنفس والاستقامة السياسية.

على أنني لم أفاجأ بقدر ما يتعلق الأمر بسلوك عزيز محمد. فقد اقتنعت منذ اجتماع اللجنة المركزية عام ١٩٨٠ بأنه مستعد للإقدام على أي عمل، بعيداً عن المبادىء والمثل والمقاييس الخلقية، في سبيل بقائه وبقاء النفر المساير له على كرسي الزعامة. يتراءى لي أن عزيز محمد مر بمرحلتين في حياته الحزبية ـ السياسية، كما حدث ذلك لزعماء آخرين في بلدان أخرى. في المرحلة الأولى كان مناضلاً شيوعياً مجاهداً مخلصاً مستعداً للتضحية ـ وقد تحملّ السجن عشر سنوات ـ وكان ملتزماً بالمبادىء والأخلاق الفاضلة، رغم بعض آرائه ومواقفه السياسية الخاطئة. وفي المرحلة الثانية، التي أعقبت انتخابه سكرتيراً وتبلورت خاصة خلال سني التحالف الذيلي مع النظام البعثي، أفسدته الزعامة

المزمنة بما وفرته من الامتيازات فتحول إلى إنسان آخر حريص على نمط معين من العيش والعمل وحريص على أن يحيط نفسه بأناس مسايرين، خصوصاً من لون معين بين المثقفين، لا يخلقون له المتاعب. وهو دبلوماسي بارع إلى حد ويستطيع التأثير على مستمعه كما يستطيع الإيحاء إلى أشخاص ذوي اتجاهات متناقضة بأنه متعاطف مع أفكارهم. وقد قال أكثر من مرة أن كريم أحمد يملك سمعة طيبة ولا يملك الكفاءة. ومع ذلك أبقاه دوماً في مكتبه السياسي. وقال أمام رفاق في ١٩٨٠ أن فخري كريم لا يقبل أن يكون معه من هو أعلى منه ويخرب عن عمد ليثبت أن مسؤوله غير كفؤ. ومع ذلك لم يتحرج من أن يصوت لفخري في آذار ١٩٨٩ ويضمه إلى مكتبه السياسي. ومن نقاط ضعفه الأخرى أنه لم يكن يوماً قادراً على كتابة مقال أو تقرير. ومع ذلك لم يتحرج من أن تطبع له «مؤلفاته» التي كتبت بأقلام الآخرين. وأصبحت الخمرة جزءاً من حياته، وأفرط في الشرب أحياناً ولم يأبه بأن يخلق ذلك متاعب له هنا وهناك. لو استقال من منصب السكرتارية في السبعينات، وكأقصى حد في ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩، لصان لنفسه قدراً مناسباً من الاحترام والتقدير. لكن مسؤوليته اليوم عن الأخطاء الجسيمة والانحرافات المتتالية التي حطمت ح.ش.ع. أكبر بكثير من أن تمسحها الاستقالة أو ممارسة النقد الذاتي.

❀ ❀ ❀

حين غادرنا (دراو) في طريقنا إلى (مرگور) وجدت في قارعة الطريق قنفذاً وأخذته. لفت انتباهي أنه كان أكبر من قنافذ منطقة قره داغ بحوالي ثلاث مرات. وفي (مرگور) جلسنا تحت شجرة (سوره چنار) منتصبة ومستقيمة وضخمة لدرجة خيالية ولا شبيه لها من نفس الاشجار في مناطقنا. وحسب حساباتي الأولية آنئذ كان بالإمكان بيعها، في حالة تحويلها إلى ألواح خشبية، بحوالي (٨٠٠) ديناراً.

وفي سفرتي إلى مرگور أمكن لي حل لغز من ألغاز الطبيعة

المحيرة. كان اللغز هو أن سيول المياه الخيالية في كبرها عبر العصور الغابرة تركت آثاراً واضحة فوق التلول والمرتفعات الكبيرة وفي السهول والوديان، في كل مكان من اليابسة على سطح كوكبنا. كنت أرى هذه الآثار وأفكر كيف حدثت؟ هل من المعقول أن أنهاراً جبارة تركت هذه الآثار. ولماذا لم يبق أي أثر لتلك الأنهار؟ أخيراً توصلت مع نفسي، في ذلك اليوم من حزيران ١٩٨٤، إلى استنتاج مفاده أن البحار لم تكن موجودة على هذا الكوكب، أو كانت موجودة بصورة جزئية، وأن هذه الكميات الضخمة من المياه الراكدة في البحار اليوم كانت سائبة على الأرض لزمن طويل تجري في سيول وأنهار جارية هنا وهناك وتجرف معها التربة وتترك الآثار.. الخ.

لم أجد بين الإيرانيين في مرگور ولا عراقياً واحداً، باستثناء دليل رافقنا من مقر المكتب السياسي. وقد كتبت في أول ليلة من وصولنا رسالة موجهة إلى المكتب السياسي، ذكرت فيها أن كل شيء واضح لدي وأني جئت للمشاركة في اجتماع اللجنة المركزية وليس للاعتقال على هذه الشاكلة. وطلبت التخلي عن هذه الأساليب الصبيانية وترك الصراع الحزبي الداخلي ليأخذ طريقه الاعتيادي وذكرتهم بأن عزيز الحاج لجأ إلى نفس هذا الأسلوب في ١٩٦٧. وطلبت اللقاء الفوري مع المكتب السياسي لمناقشة ما يحدث. وطلبت الإجابة الفورية لكن أحداً لم يجب. ورسخت لدي القناعة بأن عزيز محمد كان يخاف من أن يؤدي وجودي في الاجتماع إلى إحراجه وإزاحته عن منصبه.

بعد أيام قدمت إليهم رسالة ثانية أشد من الأولى، ذكرت فيها أنني عشت معهم قرابة أربعين عاماً في السجون وفي حياة الاختفاء وفي مظاهرات المدن وفي الجبال والوديان.. الخ. فهل يليق بهم أن يتعاملوا معي على هذه الشاكلة؟ كررت المطالبة باللقاء الفوري، ولم أتلق جواباً. ما العمل؟ قررت أن أذهب بنفسي إلى مقر المكتب السياسي لمناقشة الأمر. وقد ذهبت وحيداً بعد أن أصيب مرافقي بفسخ في رجله.

وفي منتصف الطريق ـ دراو ـ كنت في مقر للتودويين عندما وصلت مفرزة ثلاثية مكونة من رئيس المحكمة التابعة للحزب (أبو اسيل)، وهو شاب عربي مؤدب ويحمل شهادة الدكتوراه في القانون، وأبو سلوان ـ وأظن أنه كان مدرساً من الناصرية ـ و (هژار) وأظن أنه كان من كركوك، وكان يتصرف كرئيس للمفرزة. وفق طلب الأخير تركنا الكبره وابتعدنا ٣٠ ـ ٤٠ متراً لنجلس تحت شجرة بلوط ونتحدث. قال هژار:

ـ نحن جئنا بأمر من المكتب السياسي لنبلغك بأن تعود إلى حيث كنت في مرگور حتى إشعار آخر.

ـ أنا أرفض مثل هذا الأمر الشفهي منكم. أنا عضو في اللجنة المركزية وجئت لأشارك في اجتماعها. كان بإمكان المكتب السياسي أن يرسل إلي أحد أعضائه للتحدث معي، أو يرسل إلي ـ على الأقل ـ رسالة تحريرية لإبلاغ بما يريد، بدلاً من إتيانكم بمثل هذا الأمر الشفهي.

بعد نقاش هادىء طويل أصررت فيه على رفض الأمر الشفهي أخرج هژار رسالة من جيبه وطواها من كلا جانبيها ليعرض علي إحدى الفقرات فيها كدليل يثبت به ما يدعون. وقال:

ـ هذه الرسالة موجهة من المكتب السياسي لنا نحن لجنة فصيل المقر، كما يعرف الرفيقان أبو أسيل وأبو سلوان، وهذه الفقرة، التي أريك إياها، تخصك. فأرجو أن تطلع عليها كي تتأكد بأننا لم نأت من تلقاء أنفسنا. بل جئنا لنوصل لك قرار المكتب السياسي.

ـ وما على الرسول إلا البلاغ ـ قال أبو اسيل.

قرأت الفقرة المعنية، وهي فقرة من رسالة موجهة فعلاً من المكتب السياسي إلى لجنة الفصيل، ومحتواها:

ـ إبلاغي بأن أعود إلى مرگور وأبقى مع ملا علي حيث نحن، أي مقر التودويين حتى إشعار آخر.

ـ إبلاغ الضيوف (أي التودويين وجماعة المؤتمر الرابع) بأنه لم تبق صفة حزبية، حتى ولا عضوية الحزب، لكل من بهاء وملا علي.

أثارت الرسالة غضبي الشديد. كدت أفقد السيطرة على أعصابي. فأنا عضو في اللجنة المركزية وشيوعي منذ ١٩٤٦ وقيادي منذ ١٩٤٩. ومن أجل الشيوعية كابدت ألوان العذاب والحرمانات.. وها هم يتعاملون معي بهذا الأسلوب اللا أخلاقي، دون أن أكون مشبوهاً أو أرتكب جريمة، ويطردونني من الحزب دون لقاء معي ودون محاسبة وجاهية ودون سماع رأي مني أو إتاحة الفرصة للدفاع عن نفسي. أهكذا تحترمون نظام الحزب، الذي صوتم له بأنفسكم في المؤتمر، يا سكرتير الحزب وأعضاء قيادته؟ هل هذا هو الخلق الشيوعي أيها السادة، أم أنها البيروقراطية والقمع واللا أخلاقية؟ وهل كنتم ترضون بأقل من إعدامي لو كنتم على رأس السلطة؟ تباً لتلك اللجنة المركزية التي تكون على مثل هذا المستوى وتتحول إلى جهاز لإمرار ما يأمر به القائد.

قلت لرجال المفرزة، وأنا متوتر الأعصاب:

ـ اذهبوا وأبلغوا مكتبكم السياسي بأني أضع قراراته تحت حذائي.

لم يحتد ولم يتهور أي من رجال المفرزة. قال أبو أسيل بهدوء:

ـ أنتم قادتنا ومنكم نتعلم نحن.

ساعدني هدوءهم على أن أهدأ بدوري وأفكر برأس بارد فيما يجب عمله. وبعد حوالي نصف الساعة كنت قد اتخذت مع نفسي قراري النهائي: العودة أولاً إلى المعتقل والبحث هناك بتأن ورأس بارد عن حل يناسبني. أما لماذا اتخذت هذا القرار فذلك للأسباب التالية:

١ ـ لأن أولئك، الذين لجأوا إلى هذه الإجراءات تجاهي، قد يلجأون إلى إجراءات أسوأ، بما في ذلك حتى السجن والاغتيال، تجاهي.

٢ ـ لأني في حاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير في الخطوة التالية، التي ينبغي الإقدام عليها.

عدت أدراجي إلى معتقلي في مرگور. وواصلنا مع ملا علي هوايتنا في التفتيش بين الشجيرات عن أغصان تصلح لتحويلها إلى عكازات نوزعها على من حوالينا. وأبلغت ملا علي ونوروز بما حدث. ولم يكن غضب ملا علي أقل من غضبي. واقترحت على زملائي القيام بنزهة أو سفرة للصيد في الجبال المحيطة بنا لبضعة أيام. وفي اليوم التالي كنا نحن الأربعة مع اثنين من فدائيي حزب توده فوق جبل شاهق بعيداً عن المقر.

الوقت أوائل تموز ١٩٨٤ والأرض خضراء والثلوج تذوب فوق الجبال لتشكل أنهاراً فضية جميلة تنساب في منحدرات متعرجة إلى أسفل الجبل، حيث تصب في نهر ما. في اليوم الثاني من سفرتنا كنا فوق جبل عال. ابتعد ملا علي قليلاً ونادى فجأة:

ـ هذا نمر! نمر!

نحن مسلحون وليس النمر مخيفاً حتى وإن لم يكن من الورق. عدوت نحوه وإذا بنمر صغير مذبوح ذبحاً. اقتربنا منه أكثر ونظرنا إليه بدقة. وجدنا نمراً حقيقياً في شكله ولون جلده وأنيابه ومخالبه.. الخ. شيء واحد يميزه عن النمر ـ له ذيل قصير يبلغ حوالي عشرة سم. يضاف إلى ذلك أن حجمه أصغر من حجم النمر الاعتيادي. أخذنا من أفضل شرائح لحومه ٦ ـ ٧ كغم، فيما سلخ أحد التودويين جلده ليأخذه لنفسه. في تجوالنا سألنا الكثيرين من الغنامة عن اسم هذا الحيوان ولم نجد من يعرفه إلى أن التقينا بعدد من رجال عشيرة الهركية، حيث قال لنا أحدهم:

ـ هذا هو (وشك).

بعد عودتنا إلى المقر فتش نوروز في قاموس فارسي ووجد صورة

لنفس الحيوان مكتوب تحتها نفس الاسم مع اختلاف في اللجهة (بشق).

بعد أربعة أيام من الصيد عدنا إلى خيمتنا في مرگور وأقنعت نوروز بالتوجه إلى مقر المكتب السياسي لأنه لم يكن ضمن المغضوب عليهم، بل جمعته الصدفة معناً فاحتجز. وكتبت رسالة جديدة وعنيفة إلى المكتب السياسي، كررت فيها ما حوت رسائلي السابقة وقلت أن لي ديني ولهم دينهم ولم أعد أجد ما يبرر أن ألتزم تجاههم بعد كل ما فعلوا. ومع ذلك تركت لهم فرصة أخيرة للقاء والتداول شريطة ألا يتأخر ذلك عن أربعة أيام تعقب وصول الرسالة إليهم. وقد صممت على أن أهرب من معتقلهم، في حالة عدم إجابتهم أو إعطاء جواب استفزازي سخيف. وفاتحت ملا علي بذلك وسألته عما إذا كان راغباً في مرافقتي فاعتذر بذريعة أنه يريد تبرأة ذمته من تهمة التسبب في ضياع (٤٥) بندقية اثر انشقاقه. ووعد بإخفاء الهروب إلى أقصى حد ممكن.

انتظرت الأيام الأربعة المحددة في رسالتي، وأضفت إليها يوماً آخر. وقبل فجر الخامس عشر من تموز ١٩٨٣، بعد حوالي الشهر على احتجازي القسري، غادرت خيمتي هارباً من معتقل عزيز محمد، سالكاً طريقاً جبلياً لم أطرقه أبداً. تابعت السير في ذلك اليوم من الساعة الثالثة صباحاً حتى التاسعة مساء، لم أتوقف خلالها إلا لتناول الأكل والشاي خلال أقل من عشرين دقيقة. وقد غسلت صفيحة (علبة) اللحم لأهيء فيها شاياً كان لذيذاً جداً. وفي وقت لاحق أخبرني ملا علي بأن الفدائي المدعو هژار كان قد أتى برسالة جوابية من المكتب السياسي إلي، بعد هروبي بيومين وأبلغه ملا علي قائلاً:

ـ ذهب إلىٰ مقر المكتب السياسي. وأظن أنك لقيته في الطريق.

كان هژار موصى من المكتب السياسي بأن يقرأ لنا الرسالة ولا يسلمها إلينا، وقد قرأ لملا علي وفيها النقطتان التاليتان:

١ ـ يبقى أبو سلام وملا علي حتى الشهر التاسع في مقرات

مرگور، بعد ذلك يقرر المكتب السياسي الإجراء التالي بشأنهما.

٢ ـ يظل أبو سلام مقيماً لدى جماعة تودة وينتقل ملا علي إلى مقر جماعة فدائيي الشعب، ليقيم عندهم.

معنى هذه الرسالة أن طلبي باللقاء مع المكتب السياسي مرفوض وأني أبقى محتجزاً دون توجيه أي تهمة إلي ودون منحي حق الدفاع عن النفس، تماماً كما تفعل سلطات النظام العفلقي. والجديد في الأمر أن علينا، أنا وملا علي، أن نتفرق وننعزل عن بعضنا لأن وجودنا سوية يشكل خطراً على أمن الحزب ومصالح الطبقة العاملة. هكذا فهم عزيز محمد وزكي خيري وكريم أحمد وعبد الرزاق الصافي وعمر الشيخ قضية الحياة الحزبية والديمقراطية الداخلية.

وعلمت لاحقاً أن المكتب السياسي عمم برقية على كافة المقرات التابعة له أمراً بسجن الهارب بهاء الدين نوري حيثما يعثر عليه. في الوقت نفسه نظم حملة تشويه متعمد مقرونة بالأكاذيب ضدي. وبلغت هذه الحملة حد اتهامي بالعمالة للنظام العراقي. وأوصل بانيخيلاني خبر هذه «العمالة» إلى قادة بعض الأحزاب الكردستانية.

وأنا لم أغلق الباب على المكتب السياسي لتصليح خطئه حتى بعد هروبي. فقد أرسلت، وأنا في الطريق هارباً، آخر رسالة مع أحد كوادر ح.س.ك. إلى القيادة تاركاً لها فرصة تعديل وانتقاد إجراءاتها الطائشة. وفيما كان اتباع المكتب السياسي يبحثون عني للقبض علي كنت جالساً في مدينة السليمانية بعيداً عن مقرات البيشمرگة. وكان أ.و.ك. آنئذ في هدنة جديدة مع نظام البعث الفاشي. وبعد أيام وصلت قرية (تكية) مسقط رأسي وأقمت في بيت أخي نجم الدين، بل في نفس الغرفة التي ولدت فيها. وكانت قره داغ، بل منطقة سوران كلها، تحت سيطرة مسلحي أ.و.ك.

وهكذا فإن ما لم أرده بنفسي، وأعني الانشقاق عن ح.ش.ع.،

فرضه علي السركتير والمكتب السياسي. ولزام علي أن أعترف بأني لم أختر بنفسي الوقت والأسلوب المناسبين لإعلان الانفصال عن ح.ش.ع. الرسمي الذي يقوده عزيز محمد، بل كان هؤلاء هم الذين اختاروا الوقت المناسب لاتخاذ الإجراءات ضدي. كما يجب أن أعترف بأني أخطأت في البقاء مع تلك القيادة كل هذه المدة. وكان علي أن أنفصل عنها منذ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ مدركاً بأن محاولة علاج مشاكل ح.ش.ع. المستعصية من داخل صفوفه كان مجرد وهم وسذاجة.

في (تكيه) اتصلت عن طريق المراسلة بقيادة أ.و.ك.، وهي أوفدت إلي ملا بختيار، الذي كان مسؤولاً عن قاطع أ.و.ك. بيوم كنت مسؤولاً عن قاطع ح.ش.، في السليمانية. والتقينا أكثر من مرة. ولم يلبث أن انتقل إلى نفس القرية وأقام فيها مع عائلته. ولم أكترث للأقاويل التي نشرتها قيادة ح.ش.ع وبعض أتباعها من أنني ارتميت في أحضان سفاحي الشيوعيين في پشتاشان. ذلك لأنني كنت بين أهلي وأصدقائي وجماهير شعبي ولم أفقد قط استقلاليتي الفكرية والسياسية ولم أعد ذيلاً تابعاً لأي جهة أخرى، في حين كان هؤلاء وراء الحدود أو في الشريط الحدودي الضيق تحت رحمة السلطات الإيرانية. وكان البعض من «الزعماء» متنعمين خارج البلاد ويتكرمون فقط بشرب الأنخاب لرفاقهم المناضلين الحقيقيين في ساحة الكفاح الساخنة.

وقد حرصت منذ وصولي إلى تكية على إقامة علاقة متوازنة قائمة على أسس سليمة بيني وبين أ.و.ك.، رغم عدم تكافؤ القوى. ووقعنا، أنا وملا بختيار المخول من قيادة أ.و.ك.، على الاتفاق التالي:

١ ـ الاحترام المتبادل لاستقلالية النشاط الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي لكل طرف وعدم التدخل في شؤونه الداخلية.

٢ ـ عدم إقامة علاقات مع أطراف أخرى موجهة ضد بعضهما.

٣ ـ السعي المشترك لتثبيت أسس العلاقات الأخوية الديموقراطية بين مختلف الأحزاب والجماعات في الحركة الوطنية الكردستانية والعراقية ولتوثيق روابطها الكفاحية من أجل عراق ديموقراطي حر ومستقل يتمتع فيه الشعب الكردي بحكم ذاتي حقيقي.

❀ ❀ ❀

وجدت في قرية (تكيه)، التي وصلتها عام ١٩٨٤، الكثير مما هو جديد مقارنة مع ما كان أيام طفولتي. كانت فيها مدرسة ابتدائية وعدد كبير من الشبان الذين تعلموا القراءة والكتابة، بينهم معلمون وخريجون. وفيها الإنارة الكهربائية، ولدى الكثيرين ثلاجات وتلفزيونات ومدافىء. ورتب القرويون لأنفسهم، بمساهمة فعالة من أخي نجم الدين، سحب المياه العذبة النقية من نبع في المضيق وتوزيعها في شبه اسالة على البيوت. وقد أقمت في بيت والدي. وكان المبنى يختلف قليلاً عما كان أيام طفولتي.

أوفدت السلطات إلي، وأنا في القرية، وسطاء وعملاء ورسائل وعروضاً مغرياً بأمل جري إلى جانبها. من جملة ما أرسل إلي كانت رسالة مدير منظومة الاستخبارات لمنطقة الحكم الذاتي. وأعتقد أنه كان المسؤول الأكبر حكومياً في كردستان. ولم أجب عليها. بعد مدة عادت إلي المرأة التي كانت قد جلبتها في البداية، تقول إنهم يريدون الجواب. فقلت ليطلقوا سراح السجناء الشيوعيين صفاء الحافظ وصباح الدرة وعائدة ياسين ورجاء عبد المجيد ويرسلوهم إلي ـ وكنت أعرف أنهم جميعاً مقتولون ـ لكي أرسل الجواب مع أحدهم. وقد كف ذلك المدير عن محاولة الاتصال. لكن السلطة لم تكف. أرسلت خطيب الجامع الكبير في السليمانية محمد القره داغي ـ وهو من أقاربي ـ مع رجل دين آخر لتقديم عرض بالتعاون. سخرت من هذا العرض أيضاً. وعند توديعهما حذرتهما من المصير الذي آل إليه وفد من رجال الدين أوفدهم صدام إلى البارزاني في أيلول ١٩٧١ وفجرهم في بيته.

وبعد أن يئست السلطات من محاولات الشراء والإغراء بالمال انصرفت إلى محاولات الاغتيال، تارة بشراء بعض أقاربي ومحاولة تسخيرهم وأخرى بإرسال فواكه ومشروبات مسممة وثالثة بإرسال مرتزقة للتنفيذ.. الخ ـ وقد يأتي الوقت المناسب لنشر المزيد عن هذه المسألة.

الشيء الذي صممت على القيام به، وأنا في مقر كرجال، ولم يتسن لي آنئذ، ولكني فعلته بعد وصولي إلى قرية (تكيه)، إنما هو نشر وثيقة التقييم لسياسة ح.ش.ع. في البدء تناولت ونشرت تقييم فترة ١٩٦٨ ـ ١٩٨٣ أي فترة الحكم البعثي. وفيما بعد أضفت إليه تقييم فترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٨ أيضاً وقد حملت نسخة من التقييم معي حين غادرت مع ملا علي ونوروز مقر كرجال صوب لولان. وحملتها عند هروبي من معتقل مرگور إلى السليمانية فإلى قره داغ، حيث نشرتها.

الفهرس

الإهداء ٥

كلمة إلى القارىء ٩

١ ـ لمحة عن ذكريات الطفولة ٢٥

الشيخ الحفيد في القرية ٣٠

٢ ـ في مدينة السليمانية ٤١

٣ ـ ولوج المعترك السياسي ٥٤

الانشقاق ٧٥

٤ ـ سكرتيراً للحزب ٧٨

٥ ـ نقل مقر القيادة إلى كركوك ٩٦

٧ ـ انتفاضة تشرين ١٩٥٢ ..... ١٥٨

١ ـ وراء القضبان ١٨٢

٩ ـ ثورة ١٤/ تموز ١٩٥٨ ..... ٢٤٠

١٠ ـ تغيير نهج قاسموانتكاسة ثورة ١٤ تموز ٢٧٦

١١ ـ انقلاب شباط/ ١٩٦٣ ..... ٣٠٦

١٢ ـ في بغداد من جديد ٣١٧

١٣ ـ عودة السكرتير وانتقالي إلى كردستان ٣٣٤
العودة إلى بغداد ٣٦٤
١٤ ـ انشقاق أيلول/ ١٩٦٧ ..... ٣٦٧
الكونفرنس الحزبي الثالث ٣٨٥
١٥ ـ انقلاب تموز ١٩٦٨ ..... ٣٩٠
المؤتمر الثاني للحزب ٤٠٨
١٦ ـ توتر العلاقة مع البارزانيتجدد القتال في كردستان ٤٢٨
١٧ ـ انهيار الحركة الكردية المسلحة ٤٣٩
مؤتمر الحزب الثالث ٤٥٣
١٨ ـ الهجوم على الحزب الشيوعي العراقيوتفكيك الجبهة ٤٦٦
١٩ ـ العودة إلى كردستانأولى الفصائل الشيوعية المسلحة ٤٨٥
٢٠ ـ خارج البلاد من جديد ٤٩٦
٢١ ـ عودة المكتب السياسي إلى كردستاندفع الحزب الشيوعي إلى نكسة جديدة ٥٥٤
٢٢ ـ إقالتنا أنا وملا علي عن هيئة القاطعوتعيين «باني خيلاني» مسؤولاً ٥٨٤
٢٣ ـ إلى المعتقل بدل المشاركة في الاجتماع ٥٩٨